

طيبة

أو نشأة إمبراطورية



تأليف
كلير لالويت
ترجمة وتعليق
ماهر جويجاتي

985



يروى هذا الكتاب - بمجلداته الثلاثة - تاريخ مصر القديمة، من خلال النصوص، بدءاً من الدولة القديمة حتى الدولة الحديثة. وقد راعت المؤلفة أن يكون كل مجلد كتاباً مستقلاً.

إن مجلد «طيبة» هو المجلد الثاني، مكرس للأسرة الثامنة عشرة، وهي من أزهى عصور مصر القديمة؛ ففي زمانها تأسست الإمبراطورية المصرية... وقد حرصت المؤلفة على ترجمة هذه النصوص مباشرة عن أصلها المصرى، واستطاعت تحليلها تحليلاً موضوعياً، دون عزلها عن سياقها العام، ومن خلال رؤية شاملة، تأخذ بعين الاعتبار، التطور الطبيعى للعقل المصرى ومعتقداته. فضربت عرض الحائط بالأفكار المسبقة أو المقبولة أو النظرة الانتقائية، التى شوهت أحياناً التاريخ المصرى، بإسقاطها الحاضر على الماضى، دون مراعاة للمفارقات التاريخية.

إنه كتاب جدير بالقراءة، لما يحتويه من نصوص، ربما ينشر بعضها للمرة الأولى، أو من خلال ترجمة جديدة، فتبعث الحياة فى واقع، كدنا نظن أنه مات واندثر.



المشروع القومي للترجمة

الفراعنة ..

طبية

أونشأة إمبراطورية

تأليف : كلير لالوييت

ترجمة وتعليق : ماهر جويجاتي



٢٠٠٥

المشروع القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد ٩٨٥

- طيبة أو نشأة إمبراطورية

- كلير لالويت

- ماهر جويجاتي

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

PHARAONS**

Claire Lalouette

Professeur à l'Université de Paris-Sorbonne

THÈBES

ou

LA NAISSANCE D'UN EMPIRE

Fayard

© Librairie Arthème Fayard, 1986.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel: 7352396 Fax: 7358084 E. Mail: asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتوى

15 تنويه
17 المقدمة
17 قرية طيبة
23 نشأة النظام الملكى
26 فى زمن الأهرامات الأولى
42 الثورة الإجتماعية
50 السياسة الجديدة
58 أمون وتأسيس الكرنك
65 أوزيريس فى أبيدوس
69 پتاح فى منف
71 الآداب والفنون

الفصل الأول: العالم فى زمن القرن الثامن عشر قبل الميلاد

89 ١- فى أفريقيا. الهيمنة المصرية: عرف وتقليد
89 النوبة والسودان
92 بلاد بونت
93 السهوب والصحارى الليبية، فى الغرب
94 ٢- بلاد البحر المتوسط. التجارة والسياسة
95 كنعان - أرض البدو
96 فينقيا
99 مدن الرمال
100 جزر البحر المتوسط
101 جزر القوقلاس وبحر إيجه
103 سيناء

106 ٢- إمبراطورية بابل
111 ٤- الغزوات الهندوأوروبية فى آسيا

الفصل الثانى: أجنب فى مملكة مصر

117 ١- الغزاة الهكسوس، ملك قصير العمر فى وادى النيل
117 تقاعس السلطة الملكية المصرية
124 الهكسوس فى مصر
132 ٢- أمراء طيبة المحررون
132 طيبة الأبية المتمردة
141 طيبة المنتصرة
153 ٣- أحمس وإعادة سلطة الفراعنة إلى سابق عهدها
153 طرد الهكسوس
156 جذور الإمبراطورية
159 أحمس ملكاً وإدارياً
164 السيدات الثلاث فى البلاط الملكى
174 الكرنك - أول الروائع المهيبة

الفصل الثالث: الفاتحون الأوائل أو نشأة الإمبراطورية

183 ضرورة الفتوحات وأساليبها
188 ١- مع الجيش من السودان إلى الفرات
188 أمنحوتب الأول: هل كان عامل استقرار أم فاتحاً؟
191 تحوتمس الأول المحارب المنتصر
198 تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية
203 نحو أيديولوجية جديدة
205 ٢- الأمراء والقادة العسكريون.. كبار مؤسسى الإمبراطورية
205 الوزراء ونواب الملك

209 أمراء الكاب
216 أبناء طيبة
224 ٣- المعابد والآلهة
231 ٤- المقابر والشعائر الجنائزية: وادى الملوك

الفصل الرابع: حتشيسوت، الملكة الغاصبة

239 ١- غموض وراثته العرش داخل الأسرة الحاكمة
240 الملك المصطفى
246 الولادة الإلهية والسياسة
250 أولاً: الحمل والولادة
255 ثانياً: القبول فى عالم الخالدين
262 ثالثاً: الملك الأرضى
270 الملكة والملك
275 ٢- صعود نجم كهنة آمون وهيمنة أصحاب الحظوة
275 حيوسنب
278 سن موت
283 بعض أعيان الدولة الآخرين
288 ٣- عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلافة: الحملات التجارية
289 الرحلة إلى بلاد بونت
290 المقدمات
294 الرحلة
299 العودة إلى طيبة
302 الحملة إلى محاجر أسوان
307 ٤- مبانٍ شامخة فى مصر والنوبة
307 الدير البحرى
311 الكرنك

312 فى مصر، بعيداً عن الكرنك
316 فى النوبة
317 مقبرتا حتشيسوت

الفصل الخامس: تحوتمس الثالث أو المجد الإمبراطورى

322 ١- الملحمة البطولية: حملات الفرعون السبع عشرة إلى آسيا
324 معركة الاستيلاء على مجنّو والزحف نحو الشمال
337 حدود نهر الفرات
337 على غرار جنود هانييال فى كاپوا
337 الرهائن من الأسر الحاكمة
339 تدفق الثروات
339 عبور نهر الفرات
342 مطاردة الأفيال وقنصها
343 حراسة الإمبراطورية
344 الحملة الأخيرة
345 ملحمة أسطورية
347 ٢. مصر الإمبراطورية: الثراء والروحانية
347 من أجل تعريف للإمبراطورية
352 ضرائب الجزية والعظمة والوفرة
353 منتجات الزراعة وتربية الماشية
354 المواد النفيسة
356 المواد المصنعة
357 البخور
357 الخدم والنساء
358 أعياد النصر واعتراف الملك بجميل الآلهة
365 أيديولوجيا الإمبراطورية الأولى

372 الشئون الداخلية وكبار موظفى الإمبراطورية
375 الوزراء
375 أوسر
378 رخ مى رع
390 القادة العسكريون البواسل
390 أمن إم حب. صديق الصبا للملك
392 القواد العسكريون
394 العسكريون
396 كبار الكهنة وغيرهم من رجال الدين
403 مدراء طيبة
403 أمن إم حات، الكاتب
406 أنتف، الأمير والموقد العظيم
409 أمو - نجح، المهندس والموقد والحاجب
412 الأفارقة
415 ٤- الفن والخلود
416 معالم مصر الصرحية
428 معالم النوبة الصرحية
432 مسلات العالم
434 المقبرة الملكية

الفصل السادس: أمنحوتب الثانى نصير الإمبراطورية

440 ١- ملك قدير، قوى الشكيمة أو الأسطورة التى لا تقهر
446 ٢- حملات آسيا العسكرية
447 حملة العام السابع
450 حملة العام التاسع
453 ٣- أمجاد مصر وشرف منزلتها

453 الشكر والحمد وأول حلف سياسى
457 روعة المباني الصرحية
460 ٤- فى خدمة الآلهة والملك
474 ٥- باقة زهور آمون الأخيرة

الفصل السابع: سنوات السلم والسلام: ازدهار إمبراطورية التحامسة وأولى التهديدات

479 ١- فراعنة السلام
479 تحوتمس الرابع
479 حلم الظهيرة
481 الإبقاء على الإمبراطورية
485 أمنحوتب الثالث
486 ابن آمون - رع
488 الوجود فى النوبة
492 الأيديولوجية الإمبراطورية. التطورات الجديدة
494 ٢- الدبلوماسية الدولية
495 الأحلاف والاتحادات والمعاهدات
499 السلك الدبلوماسى
500 أولى عناصر القانون الدولى
502 ٣- بلاط طيبة
503 القصور والأعياد اليوبيلية
505 الملكات والزوجات
511 رجال البلاط
511 كبار المسئولين
516 المعماريون والنحاتون
522 المشرفون على الأملاك

528 الحقول وشؤون الغلال
533 رجال تحت السلاح
537 عالم فلكى فى خدمة أمون
538 ٤- المجتمع وشغل أوقات الفراغ
538 جمهور أصحاب المهن
542 الطبقة الوسطى
543 شغل أوقات الفراغ ورحلات الصيد الملكية
545 ٥- الإزدهار وكبرى الأبنية
545 وأخذ الكرنك يتوسع
556 معبد الأقصر: مكان مقدس جديد
561 طيبة: البر الغربى
564 مقاصير مصر العليا
564 فى النبوة وفى السودان وفيما وراء الجندل الثالث
568 ٦- السياسة والدين: آلهة هليوبوليس تستعيد رفعة شأنها
577 ٧- التهديدات تحاصر الإمبراطورية

الفصل الثامن: تشدد أمنحوتب الرابع المتعصب أو زمن الانحطاط الأول

585 ١- أمير فى زهرة شبابه
585 حتى العام الرابع: الجدة والاعتدال
588 قطيعة العام الرابع
589 ٢- التطور الدينى والثورة فى الفن
589 الورع وعدم التسامح
598 الأمير والفن
600 ٣- العمارة أو الحلم الصوفى
600 «أفق الشمس»
609 رفاق تل العمارة

611 خدام آتون
615 موظفو الدولة
619 ٤- السياسة فى حالة ضعف خطير
628 ٥- العودة إلى طيبة، بعد الوفاة

الفصل التاسع: وهن الملوك وضعفهم

634 ١- توت عنخ آمون وعودة الآلهة
644 ٢- كنز وادى الملوك
657 ٣- ظلال التاريخ

الفصل العاشر: حور - إم - حب، المخلص. التمهيد لإمبراطورية الرعامسة

663 ١- تسلم مقاليد السلطة
667 ٢- الإصلاحات الداخلية
672 ٣- حماية الإمبراطورية والحفاظ عليها
674 ٤- طيبة

677 الخاتمة
681 الهوامش
743 المراجع

الإهداء،
إلى الجنود البواسل
عماد جيوش الفراعنة،
الذين لم يذكرهم التاريخ،
فاغفلهم هذا الكتاب،
اليوم أهدى هذه الترجمة.

ماهر هويجاني

تنويه

عن بعض علامات الترقيم المستخدمة فى الترجمة الفرنسية للنصوص المصرية القديمة والتزمنا بها فى ترجمتنا العربية نقول:

«إنه من المتفق عليه بين علماء الآثار أن ما يُكتب بين معقوفين على النحو الآتى [...] يدلّ على جزء مكسور أو غير مقروء فى النص المصرى القديم، وأن ما يُكتب بين قوسين على النحو الآتى (....) هو إضافة ضرورية لتوضيح معنى النص المصرى القديم...»(*) .

المترجم

(*) د. باهور لبيب: تشريع حورمحب، ص ٢٨، هامش ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

Louis Speleers. Textes des Pyramides. Bruxelles. p. xvi.

المقدمة

قرية طيبة

كانت طيبة في الألف الثالث قبل الميلاد قرية من قرى مصر العليا، لم تُظهر بعد ما يمكن أن يميزها عن غيرها من البلدان، حتى إنها لم تكن عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم مصر العليا^(١). وكان الموظف المعين من قبل السلطة المركزية لتصريف شئون الإقليم، يتخذ من هرمونتيس(*) Hermonthis الواقعة إلى الجنوب من طيبة مقراً له. كانت هذه المدينة تعبد إلهاً شمسياً هو الإله الصقر مونتو، وشأنه شأن الكثير من الآلهة الصقور التي كانت تُعبد في هذه الأزمنة الموهلة في القدم، اندمج هذا الطائر في الجرم المتألق المهيمن من موقعه في السماء مثله مثل الصقر عندما يحوم باسطاً جناحيه في أعالي الفضاء بحثاً عن فريسة. وإلى هذا الوجه الآخر للطائر - الوجه العدوانى الذى اعتاد اصطيد فرائسه وقتلها، تُعزى السمة الثانية التي يتحلى بها الإله مونتو؛ فكان إلهاً محارباً سوف يصبح في زمن لاحق وبعد مرور ألفى سنة، رفيق الفراعة الرعامسة ومرشدهم.

ومن ثم فقد كانت طيبة قرية يسكنها الفلاحون والمراكبية.

كان النيل في هذه المنطقة قد شقّ مساره وسط الجرف الصخرى لسلسلتى جبال الصحراء الغربية والصحراء الشرقية، وكانت تطلّ على البرّ الغربى الواجهة شديدة الانحدار لتلال كان يُطلق على قممها اسم القرن الغربى للجبل أو رأسه. أما

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أيون مونتو» أو «أيون منت»، ونشأ عنه الاسم القبطى «رمنت» ليصبح «أرمنت»، فى الوقت الراهن. (المترجم)

الوديان القاحلة المجدية؛ فلم تكن قد تحولت حتى هذه اللحظة إلى مأوى للفراغة المتوفين. فحتى الآن لم يكن وادى الملوك قد ظهر إلى الوجود أو شيدت القصور الفخمة في البر الشرقى. ولا شك فضلاً عن ذلك أن الكرنك والأقصر كانا أرضاً خلاءً.

كانت حياة البشر تسير وفقاً لإيقاعات حياة النهر الذى يشمل مصر برعايته ويمدها بسبل العيش. وفجأة يرتفع فى شهر يوليو منسوب المياه فى نهر النيل من جراء هطول الأمطار فى منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى جالبة معها الطمى الثقيل الذى انتزعه النهر من هضاب الحبشة، ومن ثم يجرفه من جندل إلى آخر. وبعد أن ينتشر الطمى على شطآن النهر ويغطيها فإن الأرض السوداء - أى كيمت فى اللغة المصرية، وهو اسم مصر عند قدماء المصريين - سوف تمد الرمال الجدباء بعنصر الإخصاب الذى لا غنى عنه لقيام زراعة مزدهرة. وحتى شهر أكتوبر كان الفلاحون يعيشون وسط مشهد طبيعى تغمره المياه، تحت شمس ساطعة مبهرة فى انتظار انحسار مياه الفيضان. عندئذٍ يحل الموسم الذى يتفرغون فيه لأعمالهم: فيبدأون بالعزق وتسوية المَدر (*) بالمعول ثم يحرثون التربة بمحراث بسيط تجره بقرتان مرقطتان باللونين الأبيض والأسود، وينتقلون بعد ذلك إلى أعمال البذر ودفن الحبوب فى التربة الخصبة بعد أن أصبح من السهل تقليبها، وذلك بفضل قطعان من الحمير أو الكباش فتطى التربة وطناً شديداً أو ربما بعد حرث الأرض مرة ثانية.

إن جلب المياه كان منذ أمد بعيد بل وربما منذ فجر التاريخ - أى قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد - تنظمه منطقة من القنوات تسهر السلطة المركزية على صيانتها صيانة فائقة؛ فحياة البلاد من أقصاها إلى أدناها رهن بحسن أدائها.

ورويداً رويداً، يتحقق آنذاك فى أديم الأرض السرّ الإلهى فتنبت الأرض زرعها. وبحلول شهر فبراير يظهر النبت الأخضر للقمح الجديد الذى يقوم المصريون بحصاده فى مطلع شهر مارس، وعندئذٍ تعمّ الصياح والأغاني والفرح والتهليل بين جموع الناس احتفالاً بانبعاث الحياة من جديد.

(*) وهى الطين المتماسك، ووحدته مدرّة، المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

إن متابعة اللحظات الحاسمة فى الحياة الزراعية وطمير الحبوب فى أديم التربة ثم التجديد والإحياء، كانت الأصل الذى نشأت عنه كبرى الأساطير الإلهية فى الشرق الأدنى القديم: إن السرد الأسطورى لحياة أوزيريس أو بعل أو أونيس - وهى آلهة ترتبط بدورات الحياة الزراعية - تعكس من خلال مختلف وقائعها، الإيقاعات الطبيعية لحياة النبات. إن أوزيريس الذى سيتولى أمراء طيبة تعزيز عبادته وتثبيتها سوف يصبح الإله الذى قاسى الكثير من الآلام، وقام من الأموات عندما بُعث حياً ليُقدم للبشر نموذجاً قابلاً للتقليد والمحاكاة لحياة تتواصل على مدى الدهر. إن هذه الحكاية الأسطورية التى صاغها بلوتارخوس(*) فى زمن متأخر، إنما نعرفها الآن من أقدم النصوص المصرية ولا سيما متون الأهرام(**)(٢)، وسيظل تأثيرها الروحي قائماً حتى نهاية تاريخ مصر القديمة.

تذكر إحدى وقائع هذا السرد الأسطورى أن الإله ست، وهو رمز القوى الشريرة وقحل الصحارى وجديها، كان ينظر نظرة حقد وحسد إلى أخيه أوزيريس، أول ملك حكم الأرض فأشاع فى ربوعها اليأس والبركة، فلجأ ست إلى الحيلة والخديعة حتى تمكن من أخيه على ما يعتقد وقطعه إرباً إرباً وصلت إلى أربع عشرة قطعة، بعثها على سطح الأرض كما تبذر الحبوب بعد الحرث. وبالمثل كان ينتظر بعل المصير نفسه بعد المنازعات التى احتدمت بينه وبين الشعبان موت الذى يعنى اسمه «الموت»؛ فقد تبعثر جسده الممزق على الأرض. وفى الحالتين، نجد أن الزوجة الودودة المتفانية، سواء إيزيس أو عنت، هى المرأة الواهبة الحياة التى نجحت على ما يعتقد بعد طول بحث فى العثور على أشلاء الجسد المدفونة، واستطاعت أن تُعيد تكوين جسد الزوج الإلهي، ومن ثم قامت إيزيس بمساعدة أنوبيس الإله - ابن أوى - بصفته الإله المعتمد لاصطحاب الموتى إلى العالم الآخر - قامت بابتكار المومياء الأولى. ولكن ألم يكن ابن أوى - فى الواقع - حيواناً يتردد على مشارف المقابر والجبانات ويقصدها مرة بعد مرة؟! وبعد أن صارت إيزيس بهذه المناسبة عصفورة، يعتقد أنها

(*) مؤرخ يونانى عاش فى القرن الأول الميلادى. (المترجم)

(**) ترجمت هذه المتون إلى اللغة العربية: «متون الأهرام المصرية القديمة». ترجمة: حسن صابر، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢. (المترجم)

استطاعت بفضل الرُّوح(*) الصادرة بعد ذلك عن جناحيها الكبيرين أن تعيد الحياة إلى الجسد الجليل، وأن تثبتها فيه بفضل التعويذات السرية المعروفة التي تفوهت بها الزوجة الساحرة. وهكذا وبعد أن ولد ولادة متجددة، عاد إلى الحياة «الإله الأخضر والأسود في مياهه الفتية»: عملاً بالتماثل المطلق القائم بين قوى التجديد الحيوى وزخم حياة النبات.

إن طيبة التي نتحدث عنها هي طيبة الفلاحين بإيقاعاتها الثابتة التي لا تتبدل. كان مشهدها الطبيعي هو مشهد جميع القرى وجميع حقول الوادى الذى يتكوّن من مجرى مائى يمتد بطول أكثر من ألف كيلومتر من أسوان وإلى شواطئ البحر المتوسط. وعلى جانبي النهر ووفقاً لتناظر مطلق يذكرنا بالصورة المنقولة بورق شفاف يمكن مشاهدة القنوات التي تتقاطع على هيئة مربعات، فتسمح بتوزيع الطمى والماء توزيعاً صائباً. وهنا، وفوق الحواجز الطينية الصغيرة القليلة الارتفاع كانت تنمو المزروعات التي تعول البشر وتحافظ على حياتهم: فصنع المصريون الخبز من القمح والجة من الشعير؛ فكان الخبز والجة أساس كل غذاء بالنسبة للمصرى القديم، كما استخدموا الكتان فى حياكة الثياب فكانت النقبة والتنورة Jupe الطويلة والعباءة الشفافة ذات الثنايا حسب نوق العصر أو الطبقة الاجتماعية. وانتشرت زراعة الخضروات والبقول فى الحقول القريبة من مجارى المياه، ومنها الخيار والحمص وال فول والعدس والبصل التي ستلازم ذكرها العبرانيين(**) فى برية سين بشبه جزيرة سيناء.

(*) (الرُّوح (بفتح الراء وتسكين الواو) هو نسيم الريح التي تهب فى الجسد الرُّوح (بضم الراء) أى النفس الحية. (المترجم)

(**) الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر العدد: ١١: ٥. وللأهمية أذكر نص الآية: «فإننا (أى شعب بنى إسرائيل) نذكر السمك الذى كنّا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم». ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أشير إلى سفر الخروج: ١٦: ٣: «وقال بنو إسرائيل لبيتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر حيث كنّا نجلس عند قدر اللحم ونأكل من الطعام شبعنا...». فهل يظل البعض يتحدث عن سوء المعاملة التي عانى منها العبرانيون طوال فترة استضافتهم فى مصر إبان عصر الفراعنة، بعد أن شهد شاهد من بنى إسرائيل! (المترجم)

وبين الحقول المهيأة للزراعة على أحسن وجه والنهر، كانت تمتد منطقة من البرك والمستنقعات فأصبحت في آنٍ واحد عامل تهديد للإنسان وجالبة الخير له؛ فهنا كانت تنمو غابات من نبات البردى. أجل إنها غابات حقيقية؛ لأن المناخ في هذه الأزمنة الموهلة في القدم كان أكثر رطوبة.

ومن ثم كان ارتفاع هذا النبات يصل إلى ستة أمتار. ورغم أن الرسام المصري الذي كان يبدع جداريات المصاطب التي تصطف على امتداد الممرات الواقعة حول أهرام الجيزة. رغم أنه كان يبالغ في طول قامة الإنسان عند تصويره، فإن هذا النبات بنموه المفرط كان هو الأطول على الدوام. كما كانت هذه المنطقة عامل تهديد بكل تأكيد. فهنا كانت تعيش فونة(*) من شتى الأنواع عدوانية وخطرة أحياناً كقفراس النهر والتماسيح. كان المصريون يصطادونها - بطبيعة الحال - باستخدام خطاف كبير رأسه من الظران. ولكن الإنسان الذي عاش في الأزمنة الأولى، وكان يعبد القوى الكونية، سعى إلى التصالح مع هذه القوى الضارة وخطب ودّها؛ وهكذا نشأت الإلهة تاورت ذات الخَطم المرعب والبدن الضخم المخيف والبطن البارز وحامية النُفساء المفضلة عملاً بوجه الشبه بينهما، فضلاً عن الإله سوبك الكامن وسط الأدغال والآجام فيرصد فريسته بفمه المخيف ذي الأسنان الحادة، وهنا أيضاً كانت تعيش الثعابين في الخفاء، وهي من مخلوقات أديم الأرض والنباتات.

وفي هذه المناطق غير الواضحة المعالم الواقعة بين اليابسة والمياه كان المصريون يلتقون أيضاً بعدد كبير من الفرائس الصالحة للأكل كالإوز والطيور السمينة ومنها السُمانى (أو السلوى) والزقزاق والحمام والهدهد والرُفراف، وكانت تعيش جميعها في خيميات نبات البردى. وكانوا يمارسون صيد السمك بشتى أنواعه ويكميات كبيرة، ويقومون بأعمال القنص، فيأسرون الثيران البرية الضخمة بواسطة

(*) لفظ دخيل يقابله في الفرنسية Faune وفي الإنجليزية Fauna، وقد أقره مجمع اللغة العربية: المعجم الجغرافى، القاهرة، ١٩٧٤، ويعنى أنواع الحيوان في مكان بعينه أو زمان بعينه. (المترجم)

الوهق(*)). كان المصريون يزاولون تربية البقرات التي شكلت إحدى ثروات مصر الطائفة، وكانت قطعانها تتنقل في حرية تامة عبر المراعى فى حراسة رعاة نصف عرايا يسترون عورتهم بنقبة بسيطة صنعت من أوراق وقش الغاب.

وفى سعيه للحصول على الطعام تعلم الإنسان المصرى كيف يتغلب على المخاطر الناجمة عن المستنقعات التى تعج بالحياة.

وبعيداً عن الحقول وفى اتجاه الشرق والغرب تمتد الرمال الجدياء لصحارى المناطق الشرقية من الصحراء الكبرى التى تتلون باللون الوردى الزاهى تحت أشعة الشمس الساطعة. إنه المكان المفضل لصيد ضواري الوحوش والحيوانات المتوحشة: نذكر منها الأسود والفهود والظباء الأفريقية والماعز البرى.

كانت طيبة تزدهم بالمراكبية الذين يؤمنون وسائل الانتقال عبر نهر النيل على متن قوارب خفيفة فى بادئ الأمر صنعت من البردى ثم استخدمت مراكب أكثر تطوراً صنع بدنها من الخشب وذات أشعة من الكتان على شكل معين(**). وفى هذه البلاد التى ترتبط فيها الحياة بآليات حركة نهر النيل الطريق الأفريقى الرئيسى حتى البحر المتوسط لعب المراكبية ومراكبهم على الدوام دوراً عظيماً، وأصبحت طيبة فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد أحد أكبر موانئ الشرق.

إن آمون الذى سيصبح فيما بعد الإله الكبير للإمبراطورية، هل كان أصلاً إله المراكبية وإله النسمة المواتية والريح العليل؟ ولكن لا يوجد على ذلك فيما نعلم دليل واحد لا يمكن دحضه(٣).

(*) (حبل فى طرفه أنشطة يُطرح فى عنق الدابة وغيرها حتى تُؤخذ، المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(**) (المعين: شكل رباعى له ضلعان متوازيان غير متساويين. (المترجم)

هكذا كانت تمرّ الأيام فى قرية طيبة، ويمرور الزمن سوف تصبح هذه القرية أكبر عواصم العالم القديم؛ فغدت المركز العالمى لكبرى الإمبراطوريات التى كانت تغطى مساحة شاسعة تمتد من الجندل الرابع على النيل إلى نهر الفرات. إن الأحداث السياسية بالإضافة إلى حركة روحية ودينية كبيرة، قد تفسر هذه الأهمية المتعاظمة تدريجياً التى اكتسبتها مدينة الجنوب التى لا تزال إلى يومنا هذا من أروع المواقع فى العالم. فعلى امتداد الألفى سنة السابقة على ميلاد السيد المسيح شيد فيها الملوك المعابد والمقاصير للآلهة تعبيراً عن ورعهم وتقواهم.

نشأة النظام الملكى

نشأت مملكة مصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بفضل القوة الدافقة لملوك عكفوا على توحيد البلاد، كان نعرمر أشهرهم أو أقل من طواهم النسيان. وتشهد صلاية كبيرة من الشست يحتفظ بها متحف القاهرة(*) على هذا الرباط الملكى القائم بين القسمين الكبيرين الطبيعيين لمصر: كانت مصر العليا يحاصرها إلى حدّ ما - منحدران صخريان يكونان سلسلة جبال الصحراء الشرقية وسلسلة جبال الصحراء الغربية. والمسافة بينهما وبين مجرى النهر لا تتجاوز أبداً العشرة كيلومترات. ويبلغ طول الوادى من الجندل الأول عند أسوان وحتى رأس الدلتا تسعمائه كيلومتر. أما الدلتا(**) فكانت تنتشر فيها أفرع النيل الستة على هيئة مروحة لتشكّل مصر السفلى. كانت مصر العليا ومصر السفلى منطقتين طبيعتين يصل بينهما نهر النيل، وربما كانتا تشكلان مملكتين منفصلتين فى الألف الرابع قبل الميلاد. وهكذا ففى عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً شرع بعض الملوك يوحدون مصر لخير البلاد. وتمت هذه الوحدة كما

(*) ويمكن لزائر المتحف المصرى أن يشاهدهما فى الرواق ٤٣ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) «دلتا» هو الحرف الرابع من الأبجدية اليونانية، وندين بهذه التسمية لعالم الجغرافيا اليونانى إيراتوستين (القرن الثالث ق.م) الذى ولد فى منطقة برقة الحالية وعاش فى الإسكندرية. (المترجم)

تساعدنا صلاية نعمر على افتراضه برعاية وحماية الإله الصقر حورس الذى كانت مدينة هيراكنبوليس Hierakonpolis فى الجنوب مركز عبادته. ويعتقد أنها كانت مسقط رأس نعمر. وسيظل حورس الحامى المعتمد لملوك مصر. ومنذ ذلك الزمن والپشننت يعلو هامة الملوك الأوائل. ولفظ پشننت هو التصحيف اليونانى للكلمة المصرية پاسخمتى أى «القوتين»، كما سيظل الپشننت التاج الرمزى لهذا النظام الملكى الذى ندين له بوحدة مصر: فيجمع بين التاج الأبيض للملكة الجنوبية الأولى وتاج الشمال الأحمر.

ومنذ ٢٢٠٠ وحتى ٢٧٧٨ ق.م تقريباً تعاقبت على حكم مصر أسرتان ملكيتان. إن أسباب هذه التغييرات التى تحدث عندما تحمل عائلة ملكية محل أخرى غير معروفة، فيما نعلم. لقد نقل إلينا مانتون التقسيم إلى أسرات ملكية عندما كتب باللغة اليونانية فى عهد بطليموس الأول تاريخاً شاملاً لمصر، ولكنه ضاع للأسف الشديد وإن وصلتنا بعض عناصره بفضل من نقلوا عنه فيما بعد، ومنهم المؤرخ اليهودى يوسفوس(*) والمؤرخان المسيحيان يوليوس الأفريقى وأوسابيوس فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وهذا المصدر جدير بثقتنا لأن هذه التقسيمة نفسها وردت فى وثائق مصرية: ولا سيما الحجر الذى يعرف إصطلاحاً بحجر پالرمو(**). وهو لوح كبير من الديوريت يحتفظ بأجزائه المتحف الوطنى لهذه المدينة.

وعلى امتداد خمسة قرون حكم ملوك مصر الأوائل من الأسرتين الأوليين من عاصمتهم ثنى الواقعة فى مصر العليا إلى الشمال من طيبة والمقامة على البر الغربى من نهر النيل. وفى هذا الواقع توجد أقدم جبانة ملكية معروفة، وتتكون من مقابر على هيئة مصاطب أى أن بناءها العلوى يتخذ شكل الأريكة فى حين أن بئراً رأسية تخترق بناءها السفلى وصولاً إلى حجرة الدفن. ولم يُعثر إلا على القليل من البقايا. فمن

(*) ولد فى أورشليم عام ٢٧م. وشهد خرابها على يد تيطس عام ٧٠م. توفى فى روما عام ١٠٠م تقريباً. وكان من مواطنى روما وكتب باليونانية. (المترجم)

(**) يوجد جزء منه فى متحف القاهرة: الطابق العلوى القاعة ٤٢. (المترجم)

الواضح أن هذه المقابر كانت مجرد مقابر تذكارية فالمقبرة الحقيقية موجودة فى سقارة فى الشمال قرب رأس الدلتا. ومن المحتمل أن نعرمر كان أول من وضع أساسات مدينة منف عند إلتقاء مصر العليا ومصر السفلى(*) . فالمدينة هى «ميزان الأرضين». إنها مدينة سياسية أقيمت بالكامل فوق أرض بكر! إذ لم يعثر على أى آثار لإقامة سابقة.

طور هؤلاء الملوك الأوائل عن وعى ونفاذ بصيرة اقتصاداً مركزياً - كان لا غنى عنه فى بلد تعتمد أسباب ازدهاره ورخائه على ضبط فيضان النيل والسيطرة عليه. فوضعوا الأسس الضرورية لإدارة فرعونية حكيمة وأرسوا مبادئ الحكم التى ستدار على أساسها شئون الوادى. فقاموا على هذا النحو بعمل جوهري سيظل صالحاً يُؤتى أكله على امتداد ثلاثة آلاف سنة. كان زمام السلطة المركزية فى يدى الملك، يعاونه مندوبون يتولى شخصياً تعيينهم فى مختلف «البيوت» فكانوا أشبه بوزرائنا الحاليين. كما كان يعين حكام الأقاليم الذين يسهرون على الإرادة المحلية. وكان مجلس أعلى للحكومة وهو «مجلس العشرة»، يضم أهم هذه الشخصيات ويقف إلى جانب الملك. كان النظام الملكى الجديد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالآلهة التى تحميه وتحافظ عليه. فالملوك والآلهة تجمعهم أواصر حميمة لأن جواهرهم واحد. فالعاهل الملكى كان الحبر الأعظم لمختلف الكهنة: فيحق له وحده من الناحية النظرية أن يقيم الشعائر داخل حُجب قدس الأقداس، وجهاً لوجه مع تمثال الإله، وإن كان من حقه فى واقع الأمر، أن يفوض سلطاته لكبار الكهنة. ومنذ هذه اللحظة تأسست أيضاً الشعائر الملكية الأساسية ولا سيما أعياد اليوبيل.

(*) يقول د. جمال حمدان: «موقع رأس الدلتا قد تذبذب كثيراً.. كانت منف هى موقعه أيام الفراعنة أى جنوب القاهرة الحالية بنحو ٢٥ كم. ثم اطرده التقدم شمالاً... ففى القرن الخامس قبل الميلاد كان الموضع هو جزيرة الوراق الحالية... ووصل إلى بلدة شطونوف فى القرن الخامس عشر الميلادى... عاد بعدها إلى الارتداد نحو الجنوب.. واليوم فإن رأس الدلتا يقع قرب القناطر الخيرية على بعد ٢٥ كم إلى الشمال من القاهرة». دكتور جمال حمدان: شخصية مصر، الجزء الأول. عالم الكتب - ١٩٨٠. ص ١٧٠ و ١٧٣. (المترجم)

فى ذاك العصر كانت مملكة مصر تضم وادى النيل والمناطق المجاورة له: سيناء شرقاً ووحدات الصحراء الغربية، وأرسلت البعثات التجارية إلى النوبة وأسيا وازدهرت التجارة مع بلدان حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرتى كريت وقبرص^(٤).

فى زمن الأهرامات الأولى

فى عام ٢٧٧٨ قبل الميلاد دشنت الأسرة الثالثة عهداً جديداً من الشموخ والإزدهار فى ربوع المملكة، واستقرت العاصمة نهائياً فى منف التى أصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً على قدر كبير من الأهمية تحت رعاية إلهها پتاح وحمايته.

وأمر چسر «العظيم» ببناء أول هرم فوق هضبة سقارة، وكان مدرجاً وعلى بعد بضعة كيلومترات من منف وعلى البر الغربى لنهر النيل، وهكذا فإن المصطبة الملكية كما عرفتھا العهود السابقة قد ارتفعت درجة درجة إلى ستين متراً ارتفاعاً، وكانت تطل على الصحراء المستوية لتكشف عن شموخ ملك مصر وسؤدده، فيغالب الزمن أبد الدهر. وإذا كان هذا المعلم المهيب يثبت فى حقيقة الأمر البراعة التى اكتسبها النحاتون والمهندسون المصريون فى تسوية الأحجار والتحكم فى أوضاعها، إلا أنه يصبح أيضاً وفى المقام الأول، تجسيدا لفكر أخذ يتطور منذ عدة قرون. وهكذا تأكد وجود مقومات الشعائر الجنائزية وطقوسها: ففي المعبد القائم عند الواجهة الشمالية من الهرم سوف تؤدى الشعائر الجنائزية يومياً لإمداد الملك الراحل بكافة القرابين الضرورية. كما سيصبح فى وسع العاهل الملكى الاحتفال فى المقاصير القائمة فى الشرق بالأعياد التى تجدد تتويجه ليستعيد بالتالى شباب قواه الحيوية ليضمن ممارسة حياته كملك إلى ما لا نهاية. العناصر المعمارية لهذه المجموعة الجنائزية الضخمة - وهى تقلد فى بعض الأحيان مبانى حقيقية - هدفها تأمين الدعم المادى لسحر فاعل وفعال أنيط به استمرار حياة العاهل الملكى ودوامها فى العالم الآخر واتمام وظيفته المرموقة فى هذه الدنيا.

وفى حجرة الدفن الواقعة أسفل الهرم سوف يبقى الجسد المحنط بمنأى عن عوامل الفساد والتحلل: وهكذا فإن عناصر الكائن الحى اللامادية وعلى رأسها الـ «با»^(٥) ستتمكن من إعادة التجسد فيه. أما الـ «كا»: فهو القوة المحركة للفرد، ويعيد إليه النشاط والحياة، على أن يتم إمداده بما يلزمه من طعام فى هيئة قرابين وتقدمات. ووفقاً للكلمات والتعاويذ المجددة للحياة التى يتفوه بها الكهنة الجنائزيون عند إقامة شعائرتهم، سوف تعود الحياة إلى الغلاف الجسدى. فالكلمة(*) عند الشعوب السامية وعند الشعوب الإفريقية على حد سواء، له(*) قدرة خلاقية.

إن الحكيم إيمحوتب الذى يعتبر فى المعتاد صاحب هذا الإنجاز المعمارى، قد طور إذن فى آن واحد، وعلى أكمل وجه، الشكل الخارجى لهذا الأثر الملكى الجنائزى ودلالاته الروحية.

كان سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة حول عام ٢٧٢٠ قبل الميلاد ملكاً نشطاً قوى الشكيمة، ولما كانت المملكة تشهد آنذاك عصر ازدهار عظيم ونمو اقتصادى وانتشار سياسى عى قدر كبير من الأهمية، أصبح من الضرورى استحداث وسائل فى الحكم أكثر عدداً وعلى قدر أكبر من التنوع: فأسس سنفرو منصب ثاقى، ويمكن أن نترجم هذه الكلمة بلفظ وزير بالرجوع إلى حقائق من الشرق الأدنى تعود إلى عهد السلاطين العثمانيين. كان الوزير «أزنى وعينى» العاهل الملكى، وموضع ثقة الملك الذى قام بتعيينه، والرجل الذى يدبر شئون كبرى وظائف المملكة: ولا سيما المرتبط منها بالعدالة والجيش والعناية بالأرض الزراعية وصيانة القنوات. وكان على علاقة دائمة بحكام الأقاليم، ويشرف على إدارة المملكة كسلطة مركزية باسم الملك.

ومعلوماتنا شحيحة جداً عن الملوك الذين خلفوا سنفرو: خوفو وخعفرع

(*) الكلمة: Logos: le Verbe. «الكلمة» فى هذا السياق مؤنث لفظى ومذكر معنوى. راجع إنجيل يوحنا ١:١. (فى البدء كان الكلمة...) وهو ما يوضحه هامش هذه الآية: العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ١٩٦٩. (المترجم)

ومنكاورع. وإن كانت الكتب التعليمية المدرسية تفرد لهم مكانة متميزة، إلا أنه علينا من ناحية أخرى ألا نصدق الحكايات التافهة العديمة الأهمية التي رواها هيروdotot(*) الذى ربما كان على قدر كبير من السذاجة فأعار سمعه ببساطة شديدة إلى كل ما كان يُروى من قصص فى العصر المتأخر وبعد مرور ثلاثة آلاف سنة تقريباً(!). ولكن علينا أن نقرّ بأن هؤلاء الثلاثة الذين سجلت ذاكرتنا أسماءهم منذ نعومة أظفارنا(**) كانوا عظماء وأقوياء، وتشهد على ذلك أيضاً «عجائب الدنيا»، وكانت الأهرام إحداها وما زالت تقف شامخة بجوانبها الملساء فوق هضبة الجيزة شمال سقارة على البر الغربى من النيل: كانت الجبانات تُقام فى الغالب على البر الغربى فتتجه ناحية الغرب حيث عالم الموتى والمنطقة التى تغرب عندها الشمس وتختفى مع كل مساء فتحاكى الموت وتتشبه به. كان غطاء الأهرام من الحجر الجيرى الأبيض القادم من محاجر طرة المجاورة القائمة على البر الآخر من النهر، وكان هُرمُها من الذهب. فالأبيض والذهب هما اللونان المثاليان للشمس. «فالبياض» هو أحد الأسماء الدالة على الضوء الوهاج للجرم السماوى. أما لحم الآلهة واهبة الحياة فهو من أرقى أنواع الإبريز. والهرم جانب من نور الشمس المتحجر وقد استقر على الأرض، كما أنه الدرب المفضل لارتقاء الملك المتوفى إلى السماء بجوار «أبيه» الشمس(***). كان الهرم هو الحارس الأمين على جسد العاهل الملكى الذى كانت موميأؤه مسجاة فى حوض التابوت المصنوع من الجرانيت فى قلب البناء العلوى للهرم فى حالة خوفو أو فى البناء السفلى داخل حجرة الدفن تحت سطح الأرض. كان الهرم هو الصلة الدائمة التى تربط السماء بالأرض. وهكذا برزت وسادت أيديولوجية أخذت تتطور فيما بعد فى العهود التالية. وظلت الأهرامات تنتشر فوق هضبتى الجيزة وسقارة وفى حقول ميموم ودهشور جنوباً وأبورواش شمالاً، لتبقى خير شاهد على عصر بلغت فيه المملكة أوج ثرائها كما تشهد على حركة أيديولوجية عميقة.

(*) (قام هيروdotot بزيارة مصر حوالى عام ٤٥٠ ق.م إبان الاحتلال الفارسى الأول. الأسرة السابعة والعشرون. (المترجم))

(**) (المقصود بالطبع أطفال فرنسا. (المترجم))

(***) (الشمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم))

وليس من الصواب فى شىء أن نتحدث على غرار ما قاله بعض الكُتّاب الذين ينتمون إلى الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين - أن نتحدث عن الجموع الغفيرة من العبيد الذين يُضربون ضرباً بالسياط، ويعملون قسراً فى خدمة ملك طاغية! هذه الصورة لا تعكس الظروف التى كان يعمل فى ظلها بناء الأهرامات سواء على الصعيد المادى أو الصعيد الروحى؛ فلم تعرف مصر نظام العبيد. وكان علينا أن ننتظر طويلاً حتى نرى أسرى الحرب فى عهد لاحقة يستخدمون كأيدى عاملة مستعبدة. إن العمال الذين كانوا يَسحبون بواسطة الحبال الزلاقات التى وضعت عليها كتل الحجر الجيرى المصقولة بكل عناية كانوا من العمال الأحرار، وقد وقع عليهم الاختيار للعمل لفترات محددة ويقدم لهم ولذويهم الطعام طوال مدة عملهم. كما كانوا أحياناً من الجنود. فمازلنا نقرأ على بعض كتل أحجار هرم خوفو الوحدات العسكرية التى كانوا ينتمون إليها. أما السياط فلا وجود لها إلا فى أفلام هوليوود حتى أصبحت من ضروريات هذا الإنتاج السينمائى الضخم. وأخيراً فإن هؤلاء الرجال يعملون من أجل تحقيق مصائر الملك الأبدية، فقد كان العمل الذى ينجزونه يحقق لهم فى الوقت نفسه مصيرهم الخاص. ويبدو كما لو أن الشعب المصرى قد انقاد على ما يعتقد فى أعقاب العاهل الملكى إلى الفوز بحياة شاملة بعد الموت، حياة جماعية مجهولة أسماء أفرادها. ومن الضرورى على الدوام أن نعيد وضع الوقائع والأفكار فى السياق المادى والروحى لعصرها ولا يصح أبداً أن نحشرها فى إطار مفاهيم حديثة، سواء كانت سياسية أم غيرها. ففي هذه الأزمنة القديمة عندما كان الكون بأسره بطاقاته وقدراته كيانات مؤلهة وعندما كان الملوك آلهة، كان بناء هرم فى نظر العامل المصرى لا يختلف عن الحافز الروحى الذى حرك حرفىي العصور الوسطى عندما قاموا بتشبيد كنيسة نوتردام Notre-Dame فى قلب باريس(*)، إن مقصدنا من هذا الكتاب هو أن نتيح للقارئ أن يطلع على النصوص المصرية القديمة ذاتها حتى يتمكن من الحكم بنفسه على الحقيقة الواقعة للعصر محل دراستنا أو يحاول ذلك بقدر المستطاع.

(*) والشيء نفسه ينسحب على جميع دور العبادة على سبيل المثال. (المترجم)

إننا نعرف الواقع الأيديولوجي المرتبط ببناء الأهرامات بفضل المدونات المنقوشة على جدران حجرات الدفن، بدءاً من عهد أوناس(*) - آخر ملوك الأسرة الخامسة - ثم استمرت على امتداد عهود ملوك الأسرة السادسة. وتشتمل هذه المتون على ترانيم وإشارات لاهوتية متنوعة وتعويذات الهدف منها تسهيل صعود الملك إلى السماء بمساعدة الطاقات الكونية ومعاونة الآلهة. وهكذا يندمج الملك في الجرم السماوي فيصير إلهاً مزدوجاً فائق القدرة. كما في وسعه أن يصبح نجماً أو يكرر مصير أوزيريس نفسه ليتاح له أن يُبعث حياً من جديد. إنه يستوعب كافة الصيرورات وتبقى في حوزته القدرات السحرية كلها بل ويتفوق على مجمع الآلهة:

● وصول الملك إلى السماء:

«وجد الملك أن الآلهة واقفة وقد تذررت في ثيابها، ونعالها البيضاء في أقدامها. ثم ألقت بنعالها البيضاء على الأرض وتجردت من ثيابها. وتحدثت قائلة: «لن يعرف قلبنا السعادة أبداً إذا عاودت النزول»^(٦)

● العاهل الملكي في أعالي السماء:

«عظام الملك من نحاس^(٧)، وأعضاؤه هي النجوم غير الفانية^(٨)».

«إنه الملك، الكائن المقدس، الأول، صاحب الصدر الأبى، إنه النجم الذي تنحنى من أجله الآلهة ويرتعد التاسوع^(٩)».

● الملك ومصير أوزيريس:

تعال أيها الملك، فلا شيء ينقصك. لقد أتت والدتك^(١٠) فلا شيء ينقصك. لقد أتت نوت، فلا شيء ينقصك. لقد أتت المجمعّة الكبرى، فلا شيء ينقصك. لقد أتت حامية القلقين، فلا شيء ينقصك. إنها تجمعك. إنها تعيد تشكيلك. إنها تعيد وضع رأسك في مكانه. إنها تنظف عظامك. إنها تضم أعضائك. إنها تعيد قلبك إلى جسدك. ها أنت من جديد وسط أسلافك. وتُصدر من الآن الأوامر إلى أخلافك. لأنك

(*) وهرمه قائم إلى الجنوب الغربي من مجموعة هرم جسر المدرج في سقارة. (المترجم)

جعلت بيتك مزدهراً في معيتك. وتحمل أولادك من النواح^(١١)... إن طهارتك هي طهارة الآلهة التي تسير وهي تجهل المصير السيئ^(١٢)»

● ملك المصائر كلها هو أيضاً ملك القدرات كلها:

«الملك يحكم الآلهة، ويقود القارب الإلهي. إنه يمسك بالسماء وبأساطينها^(*) وبنجومها. وتأتي الآلهة إليه منحنية والنجوم في معيته من أجل مجده^(١٣)».

إنها رؤية رحية ورائعة لنظام ملكي مقدس. فعندما كان البشر ينكبون على العمل في بناء الأهرامات من أجل إله أرضي عظيم وخالد كانوا بالتالي يؤمنون حقهم في الحماية واستمرار حياتهم بعد الموت.

ويشهد هذا التبجيل الشمسي على وجود أول تجميع لمعتقدات محلية مشتتة على امتداد وادي النيل لصالح إله النور الذي تحول خلال الأسرات من الرابعة إلى السادسة إلى الرب الرسمي لجميع الآلهة والأب الجسدي للملوك. وهناك حكاية أسطورية تروى أن ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة قد ولدوا من صلب الإله رع الذي تجسد على ما يعتقد في جنين زوجة أحد الكهنة. إن هذا الموضوع الثابت عن اقتران إله بامرأة لإنجاب الملوك، موضوع قديم سوف يصبح أحياناً الأصل الذي أدى إلى هاجس يسعى إلى تبرير السلطة الملكية^(١٤). صحيح أن مختلف الآلهة ظلت محل تبجيل في معبدها المحلي فيعبد حورس على سبيل المثال في هيراكنبوليس^(**)

(*) () إنني أستخدم كلمة عمود كمقابل للفظ pillar في الفرنسية أو pillar في الإنجليزية لكل دعامة مربعة، كما أستخدم لفظ أسطون (أساطين) للدعائم ذات القطر المستدير كمقابل للفظ colonne في الفرنسية وcolumn في الإنجليزية. وهي الترجمة التي أخذ بها عالم المصريات الكبير الدكتور محمد أنور شكرى في كتابه الرائد: العمارة في مصر القديمة. هيئة الكتاب. ١٩٨٦. ص ٩٢-٩٤. (المترجم)

(**) () الاسم اليوناني لمدينة «نخن» المصرية القديمة والكوم الأحمر قرب إدفو حالياً. (المترجم)

Hierakonpolis ومونتو فى هرمونتيس Hermonthis وحتحور فى دندرة(*) ومين فى كوپتوس(**) وأنوبيس فى أسيوط(***)، إلا أن أول إله «وطنى» قد ظهر مرتبطاً بالشمس، ولكن بعيداً عن أى تزمّت أو تشدد، فعالمية الجرم السماوى المعترف به، وفاعليته الخاصة كانت تتألف وتتعايش مع فاعليه الآلهة الأخرى فى مدن مصر من أجل استمالة وكسب مجمل القوى التى تدبر شئون العالم والتصالح معها، وذلك على نحو أفضل.

يتخذ قرص الشمس أشكالاً متعددة ويعبد تحت أسماء مختلفة: إن رع هو التسمية التى شاع إطلاقها على الجرم السماوى. كما قد يكون أيضاً أتون، وهو اسم القرص ذاته الذى يبسط أشعته وفى نهاياتها أيدٍ تمتد نحو البشر فى حركة معطاءة وحامية. وقد ساد اعتقاد ينسب فى الغالب إلى أمنحوتب الرابع وحده ابتكار هذه الصورة التى سبقت عهده فى واقع الأمر؛ إذ كانت موجودة قبل حوالى ألف وخمسمئة سنة فى متون الأهرام. كما قد يكون الجرم السماوى صقراً يدعى حورس، وكان أصلاً اسم الجنس لهذا الطائر أو يدعى مونتو^(١٥). وربما كان فضلاً عن ذلك خپرى الجعران الذى يدفع أمامه كرة الزبل تماماً كما يرتقى قرص الشمس فى السماء. إن تماثل الأوضاع يترتب عليه هنا تماثل الأشكال.

وجاءت صياغة منظومات بسيطة انعكاساً لفكر مولع بالصور: فالشمس(****) المشرقة هى خپرى، انطلاقاً من تلاعب لفظى قائم على تجانس صوتى مع جذر الفعل خپر الذى يعنى «جاء إلى الوجود»، تماماً كما تأتى الشمس من جديد إلى الوجود مع مطلع كل صباح. ويدعى الجرم السماوى رع، عندما يصبح فى كبد السماء، وفى أوج تألقه. أما فى المساء فيصير آتوم وهو الإله الشمسى الضارب فى القدم الذى يعبد فى

(*) وكان اسمها اليونانى «تنتيريس» Tentyris و«أونت تانتثرت» هو اسمها المصرى القديم. (المترجم)

(**) الاسم اليونانى لمدينة «جبتيو» المصرية القديمة وقطع حالياً. (المترجم)

(***) و«ساوتى» هو الاسم المصرى القديم. (المترجم)

(****) لن يغيب عن بالنا أبداً أن لفظ «شمس» اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

هليوبوليس(*) Hèliopolis. ويرتبط اسم أتوم من خلال تلاعب لفظي قائم على تجانس صوتي مع الجذر إتم الذي يعنى «بلغ نهايته».

كما يمكن للجرم السماوى (=الشمس) أن يصبح «ثور السماء» وفقاً لصورة أسطورية حسية؛ ف قوة الحيوان الحيوية الفعالة تشبه قوة التجديد الدافعة التى تهبها الشمس مع مطلع كل نهار للطبيعة وللشعر.

كما نشأت أساطير أخرى أوجدتها هذه الصور الأولية: فصفحة السماء المسطحة المستوية فى امتدادها سوف تتكون من ظهر امرأة أو بقرة، اسمها نوت أو حتحور. إنها تشكل انحناءً فوق الأرض، بحيث تلامس اليدان أو القائمتان الأماميتان سطح الأرض جهة الغرب وتلامس القدمان أو القائمتان الخلفيتان سطح الأرض جهة الشرق. وهكذا يولد نجم الصباح حسب أحوال المخاض والولادة، إما فى هيئة طفل صغير أو عجل من ذهب. وعند الظهر وهو فى أوج قوته سوف يخصب أمه ليختفى فى فمها بحلول المساء. ويصفته «النفطة المتألقة» للإله، والزوج والابن فى أن واحد، سوف تستمر فترة حملة الليلة لمدة اثنتى عشرة ساعة.

كما تشكلت صور أخرى تولدت من ملاحظة المشهد الطبيعى ملاحظة بسيطة: فسوف يجرى عبر السماء نيل آخر وعلى صفحة مياهه سوف يبحر الإله على متن قاربه، فيستهل رحلته من الشرق حتى يصل إلى الغرب. وبحلول المساء سوف يختفى فى العالم السفلى، تحت الأرض المحور المركزى للكون المخلوق. وهذا العالم الآخر القائم أسفل الأرض هو بمثابة صورة منقولة نقلاً أميناً عن السماء العلوية ولكنها معكوسة. فسوف يواصل الجرم السماوى رحلته النهرية على صفحة نهر النيل السفلى فيجلب معه النور والحياة للموتى الذين يتزاحمون عند شطآنه، ليبزغ بعد ذلك، من جديد جهة الشرق مستهلاً دورة أخرى.

جميع هذه التصورات لا تتناقض ولا تتعارض ولكنها إبداعات أسطورية متنوعة، تفتق عنها وعى دينى مرهف، يدرك ما تنطوى عليه المشاهد الخيالية من إمكانيات حسية فى تفسير العالم.

(*) الاسم اليونانى لمدينة «إونو» المصرية القديمة وعين شمس والمطرية حالياً. (المترجم)

وفى مدينة هليوبوليس الواقعة إلى الشمال من العاصمة منف(*) Menphis كان كهنة الشمس يعملون على إعلاء شأن إلههم. فصاغوا منظومة على قدر كبير من التطور فى محاولة من جانبهم تفسير نشأة الكون، فجمعوا تسعة آلهة فى تاسوع واحد خالق الكون. كان الخواء الأولى سائلاً بلا كائنات حية وظلاماً غاب عنه الزمن، إنه نون. وفيه وجدت قوة إلهية كامنة فى أعماق المياه: إنه أتوم أو أتوم-رع الذى خرج من نون فى أول الأيام بقوة إرادته الذاتية - فكار: النور وهو أول ما ظهر إلى الوجود. وبعد هذا الفجر الأولى، خلق أتوم عناصر العالم. فعن طريق الاستنماء أو البصق أوجد الزوجين الأولين: شو وتفنوت - إله الهواء وإلهة الرطوبة. كما أنهما أول مظهرين للزمن الأبدى، والبعد الأول الذى اكتسبه كون المستقبل. أما شو وتفنوت فقد أنجبا جب إله الأرض ونوت إلهة السماء. وهكذا وجد المكان والزمان. وفى سلسلة متواصلة من عمليات الإنجاب جاء الدور على جب ونوت لينظما العالم فولد من اقترانهما الزوجان أوزيريس(**) - وهو مبدأ خير وأول ملوك الأرض الذى علّم البشر فلاحه الأرض وزراعة الكروم وعلم الحرفيين حرفتهم - وولدت أخته وزوجته إيزيس(***)، كما ولد الزوجان ست - الأجدب صاحب التأثير الضار مثل الصحارى ونفتيس(****). إن صياغة قصة هذا التاسوع تشهد أيضاً على التوجه السياسى لكهنة هليوبوليس الذين رأوا من المناسب بل ومن الحكمة، أن يتحالفوا مع أوزيريس، هذا الوافد الجديد والنموذج الجدير بتقليده ومحاكاته. وسوف يظل رع وأوزيريس صاحبي الدورتين الثابتتين اللتين لا تتبدلان - دورة الشمس ودورة النبات - سوف يظلان على امتداد التاريخ المصرى الضامنين العظمين لحياة متجددة على مرّ السنين والدهور، وإلى أبد الآباد.

وإن لم يتبق شيء من المعبد الذى شيده جسر من الحجر الجيرى الأبيض فى

(*) الاسم اليونانى لمدينة «من نفر» المصرية القديمة وميت رهينة حالياً. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أوزير». (المترجم)

(***) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «إيزه». (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «نيت حوت». (المترجم)

منف من أجل الإله - الشمس، والذي تذكره النصوص اللاحقة فإن بعض أطلال معبد الشمس الذي شاده خعفرع على مقربة من «أبو الهول» استطاعت أن تقاوم الزمن. كان المعبد يضم مقصورتين، تتجه الأولى ناحية الشرق والثانية ناحية الغرب. إنهما الجهتان الرئيسيتان لرحلة الشمس اليومية.. وقد عثر في «أبو» غراب عند حافة الصحراء الغربية وعلى بعد عدة كيلومترات شمال غرب مدينة منف، عثر على بقايا أحد معابد الشمس التي شيدها ملوك الأسرة الخامسة(*)؛ فمعبد نى أوسر رع ومعنى اسمه «تنسب القدرة إلى رع» هو أول مجموعة مقدسة وصلت إلينا. إنه معبد غير مسقوف فتغمره الضياء الإلهية. بينما نرى أن المعابد البدائية التي لا نعرفها إلا من خلال صورها التي تعود إلى عصور متأخرة، فضلاً عن المعابد الكلاسيكية، كما سنرى من سياق هذا الكتاب^(١٦)، كان قسمها المخصص لقدس الأقداس وملحقاته غارقاً عن قصد في دياجير ظلمة تستره وتحميه. يبدأ معبد نى أوسر رع عند الوادى بصُفّة ثلاثية ذات أساطين. إن طريقاً صاعداً لطيف الانحدار، طوله مائة متر وعلى جانبيه سور، يتخذ اتجاهها مائلاً مقارنة بمحمور المعبد، لينتهى عند صفة ثانية هي جزء من الجانب الشرقي من السور الملفت حول المعبد. أما المعبد فيتكون أساساً من مسلة - هي الأولى فيما نعلم - وما زالت عريضة إلى حد كبير ومشيدة من كتل حجرية مرصوفة وترتفع إلى علو خمسة وثلاثين متراً وقائمة فوق قاعدة فى هيئة هرم ناقص وأمامها مائدة قرابين مخصصة لأداء الشعائر. والمسلة رمز شمسى تحاكي الـ«بن بن» وهو حجر هليوبوليس المقدس الذى أشرقت فوقه الشمس مع مطلع أول يوم من أيام الكون ويرتبط بالشعائر التى تقام من أجل النصب الصخرى العمودى أو بيت إيل(**) فى اللغات السامية أى «بيت الله». كانت مجموعة «أبو» غراب المعمارية محاطة بسور طوله مئة وعشرة أمتار وعرضه ثمانون متراً. وعلى بعد ثلاثين متراً إلى الجنوب من هذا السور عثر على بقايا مركب كبير من الطوب - كان تحت تصرف الإله للقيام برحلته اليومية على صفحة «نيل - السماء» و«نيل العالم السفلى». وربما حفرت أحياناً تجاويف عند سفح الأهرامات لتضم مركب، وكانت على مقربة من المعبد الجنائزى عند

(*) من أسرات الدولة القديمة وامتد حكمها من ٢٥١٠ إلى ٢٣٥٠ قبل الميلاد تقريباً. (المترجم)

(**) راجع سفر التكوين ١٤:٣٥ وأيضاً ٤٥:٣١. (المترجم)

الواجهة الشرقية للمبنى ففيه كانت تقام يومياً الشعائر التي تضمن استمرار الحياة في العالم الآخر. وهكذا كانت خمسة مراكب على مقربة من هرم خوفو: ثلاثة جهة الشرق واثنان جهة الجنوب. ومن الراجح أنها كانت مخصصة للملك المتوفى بعد أن صار رفيق الشمس في رحلتها صباح مساء على مدار الأيام. وهكذا وسواء بسبب الورع الشعبي الأكيد الذي كان يكنه المصريون تجاه جرم السماء واهب الحياة، أم بسبب العمل النابه الفطن الذي قام به كهنة هليوبوليس، فإن هذه المدينة القريبة من منف عاصمة مصر السياسية صارت عاصمتها الدينية. أما مقر السلطات الدنيوية والروحية فكان في ذلك الزمن في مصر السفلى قرب الرأس الجنوبي لدلتا النيل.

كان لهذه الهيمنة الشمسية وهذا الالتهام الأول لمجمع الآلهة المصرية تأثيره على عناصر الحياة السياسية. فقد أضاف الملك اعتباراً من خعفرع إلى قائمة ألقابه الرسمية التي تتحدد يوم تنويجه، اسماً خامساً هو لقب ابن رع. وأصبح الاسمان الأخيران في قائمة الألقاب هذه، أى اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى وهو رابع هذه الأسماء واسم ابن رع يحاطان من الآن فصاعداً بخرطوش اشتق شكله من العلامة الهيروغليفية *شن* التي تعنى «يحيط بـ» أو «يطوق». وهكذا اندمج مدار الشمس ومساره، مع اتساع مجال سيطرة الملك، إندماجاً قائماً على رسم العلامة الهيروغليفية. إن الملك والإله يتمتعان بالسلطة نفسها على الكون، فالعاهل الملكى «سيد كل ما يحيط به القرص». وهكذا يتأكد مرة أخرى الاتحاد الجوهرى القائم بين الكيان الإلهى الأسمى والملك. وكانعكاس محلى لهذا التصور كان حكام الأقاليم، فى الغالب وفى إطار أقاليمهم، كبار كهنة الإله المحلى. فالسلطة المحلية هى صورة منقولة نقلاً أميناً عن السلطة المركزية التى تخطط خطأ تاماً بين ما هو دنيوى وما هو روحانى، ولا تميز بينهما.

وفى إطار هذا النظام الملكى المطلق، نجد أن السياسة والدين والإقتصاد والحياة الإجتماعية خاضعة لشخص الملك-الإله وهو بصفته الأساسية هذه، الوسيط الطبيعى والضرورى بين البشر والآلهة. ويظل تمثال «أبو» الهول فى الجيزة أفضل مثال يوضح هذه الأيديولوجية: فالرأس رأس خعفرع والجسد جسد أسد منحوت فى

صخر الحجر للصحراء ويبلغ طوله سبعين متراً وارتفاعه عشرين متراً. إن الوحش الضخم وهو الحارس الملكى الأمين للجبانة، يمدد جسده القوى بين رمال الصحراء الصهباء والسمااء. إن صروف الدهر واعتداءات البشر لم تقلح فى طمس المهابة الفاتنة العظمة لهذا الوجه الملكى.

عمّ الرخاء المملكة وتعاضم ثراؤها. وأرسل الكثير من البعثات التجارية إلى البلدان المجاورة فجلبت القمح والأبقار من النوبة والذهب من النوبة وسيناء وبلاد بونت^(١٧) والنحاس أيضاً والأحجار الكريمة كالدهنج (الملاخيت) والفيروز والزمرد من سيناء. كما أحضرت من بلاد بونت البخور الضرورى لإقامة الشعائر. ومن لبنان جاءت أخشاب الأرز الضخمة لبناء أبواب المعابد وسفن أعالي البحار. أما الأبنوس والعاج وريش النعام فقد جاءت أساساً من النوبة.

وتطورت الإدارة المركزية. وازدوجت «البيوت»: الأول يدير شئون مصر العليا والآخر شئون مصر السفلى. ولم يحتفظ بوحدة سوى «بيت المياه» الذى كان مسئولاً عن التنسيق بين الملاحظات التى تسجلها مختلف مقاييس النيل المنتشرة على امتداد نهر النيل لتنظيم الفيضان وزيادة مساحة الأراضى الصالحة للزراعة بقدر الإمكان. كما بقيت مصلحة المحفوظات موحدة. وتعاضمت أهمية طبقة الكتبة. كانوا من المتعلمين المثقفين فيضبطون الحسابات بعناية فائقة فى الأملاك الملكية أو الخاصة، على السواء. فيقومون بإحصاء المحاصيل وتقدير عدد القطعان. ويفعلون الشئ نفسه فى «البيت الأبيض» أى وزارة المالية ويساهمون مساهمة فعالة فى حسن إدارة شئون الدولة. وأصبحت مزاولة مهنة الكاتب من المواضيع الأثيرة فى مجال الفنون، فنذكر على سبيل المثال تمثال كاي فى متحف اللوفر^(*). وفضلاً عن ذلك فقد أبرزت النصوص الأدبية الدور المتميز الذى اضطلع به هؤلاء الأشخاص فى حياة البلاد.

(*) لابد من الإشارة فى هذا الصدد إلى تمثال الكاتب المصرى بمتحف القاهرة، الفائق الروعة بملامح وجهه المعبرة. الدور الأرضى. القاعة ٤٢. (المترجم)

هكذا يتحدث خيتي المتواضع المنبت إلى ابنه عندما يصطحبه إلى المقر الملكي ليلتحق «بمدرسة الكتب» ليتعلم فيها ليصبح كاتباً:

«وكما ترى لا تخلو مهنة واحدة من رئيس، إلا مهنة الكاتب؛ فالكاتب رئيس نفسه. وإذا كنت ملماً بالكتب فكل شيء سيكون بالنسبة لك على ما يرام. لا ينبغي أن تضع نصب عينيك مهناً أخرى. انظر! فأنا من جانبي إنسان رقيق المنبت، ولكن لن يقال عن مثل هذا الرجل أنه فلاح. عندئذ عليك أن تنتبه جيداً. وكما ترى فما أفعله من أهلك عندما انحدر في النهر متجهاً إلى المقر الملكي، إنما أفعله حباً لك. إن يوماً واحداً تقضيه في المدرسة سيفيدك، لأن ما يتم فيها من عمل، يوم دوام الجبال إلى أبد الآباد... وينظر إلى الكاتب بصفته إنساناً يُنصت. ومن يُنصت يصبح إنساناً في مقدوره أن يتصرف. سوف تنهض مع كلمات الترحيب وسوف تسير بخطى ثابتة ولن يضمن قلبك بشيء. سوف تكون في صحبة الرؤساء ويكون أصدقائك أشخاصاً من مكانتك نفسها. انظر، لقد وضعتك على طريق الإله. إن كوع الكاتب هو ثروته(*)، وذلك منذ اليوم الذي ولد فيه. فعندما يصل إلى قاعة الجلسات في المحكمة، ينشط الناس من أجله. انظر، لا يوجد كاتب واحد يفتقر إلى الطعام أو خيرات القصر الملكي. إن المكان المخصص للكاتب يجعله على رأس المحكمة؛ لذلك أعبد الإله من أجل أبيك وأمك اللذين وضعاك على درب الحياة^(١٨)».

عهد إلى حكام الأقاليم بالإدارة المحلية. إنهم المندوبون المفوضون من قبل الملك لإدارة الثمانية وثلاثين إقليماً التي كانت قائمة آنذاك. إنهم يشرفون على صيانة الترع والقنوات ويدبرون شؤون الأراضي الملكية، وتقع على عاتقهم مسئولية جهاز الشرطة وتجنيد الشباب للإلتحاق بالجيش.

وهكذا نشأت كبرى العائلات. كانت صلتهم بالبلاط الملكي وثيقة في بادئ الأمر. وتشهد على ذلك صفوف المصاطب التي لا تنتهى وتضم المقابر الخاصة بكبار

(*) نذكر في هذا الصدد المثل العربى: «لا يعرف كوعه من بُوعه» للدلالة على الجهل المطبق. والبُوع هو العظم الذى يلى إبهام الرجل. (المترجم)

الموظفين اعتباراً من الأسرة الثالثة حول هرم الملك، وهى بمثابة إنعكاس متحجر لسلطة البلاط الملكى فى منف. إنه مجتمع لم يعرف بعد سوى القليل من التراتب الهرمى الاجتماعى. فينقسم إلى طبقة حاكمة وجماهير غفيرة من الفلاحين. والكتبة والحرفيون وحدهم هم الذين شرعوا يشكلون أولى الطبقات الوسطى. كما كانت القيم الأخلاقية تلعب دوراً عظيماً فى الحياة الاجتماعية. فقد وصلتنا التعاليم التى دونها الوزير پتاح حوتپ من أجل ابنه. عاش هذا الوزير فى عهد الملك إسيسى من الأسرة الخامسة، حول العام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. فالمبادئ المعلنة تعبر عن الموقف الشخصى فى مواجهة الحياة وعن السلوك الفردى فى المجتمع، على حدّ سواء.

● جوهر ممارسة الحقيقة والعدالة:

«الحقيقة - العدالة»^(١٩)، عظمة الشأن وتقوم ثروتها. إنها لم تتعرض أبداً للعواصف منذ زمن خالقها. كل من يخرج على نوااميسها يتعرض للعقاب. إنها طريق يمتد أمام الجاهل. فلن تسمح الخسة أبداً أن يرسو المرء فى أى ميناء. فى وسع الدناءة أن تستولى على الثروات. ولكن قوة الحقيقة - العدالة، فى كونها تغالب الأيام، ويستطيع المرء أن يقول عنها: «إنها الثروة التى أنرثنى إياها أبى»^(٢٠).

● على المرء أن يكون كريماً:

«إذا حرثت، فليكن حقلك مزدهراً وليعطك الله بوفرة ولا تتباه كثيراً بذلك وعندئذ لا تطالب الفقير بشيء».

● أن يكون المرء رحيماً:

«إذا كنت رئيساً فاستمع فى هدوء إلى كلمات الشاكى. ولا تردّه طالما لم «ينظّف» جسده من كل ما كان يفكر أن يقوله لك. الإنسان التعس يطيّب له أن يغسل قلبه أكثر من أن يرى ما جاء من أجله يتحقق»^(*). كم هو مفرح لكل شاك أن يجد معيماً يهتم به»^(٢١).

(*) مازالت تدور الأمثلة الشعبية الآتية حول المعنى نفسه: «لاقبنى ولا تغدينى» و«وش بشوش ولا جوهر بملو الكف» و«بلاش توكلنى فرخة سمينه وتبيتنى حزينه». (المترجم)

● أن يشغل المرء باله بالآخرين، وأن يكون ثابت الجأش:

«لا تشيع الرهبة بين الناس وإلا سيعاقبك الله بالمثل. إذا ظن إنسان أنه قد يعيش بهذا الأسلوب فسوف يُحرم فمه من الخبز. لا تسمح بأن يظهر الخوف من الناس. فمشيئة الله هي التي لا بد أن تظهر. وستعمل بحيث يعيشون في سلام. عندئذ سوف يحضرون ويعطونك من تلقاء أنفسهم^(٢٢)». «إذا كنت رجلاً قوياً، فاعمل على أن يحترمك الناس بسبب علمك وكلامك الرصين. لا تأمر (الآخرين) إلا لكي ترشد(هم). أن يكون (المرء) عنيفاً يعنى الإنسياق للشر. لا تكن متعال حتى لا تحط من قدر (الآخرين). لا تكن صموتاً ولكن تجنب الإساءة (إلى الآخرين) أو الرد بكلمة حادة. اشح بوجهك وتمالك نفسك، إن لهيب مزاج أهوج قد «يعصف بالإنسان الطيب»^(٢٣)».

● التصدى لكل نزعة تجنح إلى الكبرياء:

«ليت قلبك لا يكون متغطرساً بسبب ما تعرفه. لا تملأ قلبك بحقيقة أنك عالم. ناقش الجاهل بالطريقة نفسها التي تناقش بها الإنسان صاحب المعارف. لأن المرء لا يبلغ أبداً حدود فن من الفنون. إن حرفياً، كائنًا من كان، لا يتحلى أبداً بصفة الإمتياز. فالكلمة الصائبة قد تتوارى أكثر من زمردة. وقد يجدها المرء عند الخادمت المنحنيات على الرحي^(٢٤)».

● تأسيس عائلة تنجب ذرية صالحة:

«(إذ يعتبر الابن مسئولاً عن تأمين استمرار حياة الأب بعد وفاة هذا الأخير وغيابه عن عالم الدنيا وذلك بفضل إقامة الشعائر الجنائزية يومياً^(*)):

«إذا كنت رجلاً رفيع المقام فأسس بيتاً، وأعزّ زوجتك في دارك كما ينبغي. واملاً بطنها واكسها على أحسن وجه. كما أن الأدهان علاج فعال لجسدها. ومن ثم اجعلها سعيدة ما دمت حياً. إنها حقل خصب لمن يملكها. لا تحاكمها ولكن ابقها بعيدة عن القيادة، لأنها قد تثير العاصفة. «ربت» على قلبها بواسطة ما يحدث لك (من سعادة). وهكذا ستبقى في دارك^(٢٥)».

(*) وحول المعنى نفسه بدور المثل الآتى: الى خلف ما ماتش. (المترجم)

● احترام التراتب الهرمى الذى يحقق الترابط الاجتماعى:

«احنِ ظهرك أمام من هو أعلى منك، أمام رئيسك فى القصر الملكى. هكذا سيدوم بيتك كما ستدوم ثرواتك فى أن واحد. وسوف تحصل على راتبك بنزاهة. فالساعد الذى يمتد لن يبقى مشلولاً (لن يمتدّ بلا جدوى بل سينال ما يريد). إنه أمر سىء أن يناهض المرء رئيساً؛ فالمرء يحيا طالما كان طيعاً^(٢٦)»^(*).

ولكن الإفادة التى أعلنها نفرسشم - رع المدعو شيشى، الكاهن الجنائزى الملحق بهرم الملك تيتى (الأسرة السادسة حول عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد) هى أكثر بساطة وإن كانت تكشف عن أريحية الرجل:

«لقد قلت الحقيقة ومارست العدل.

لقد أحسنت الحديث ورددت (الكلمات) ترديداً موفقاً.

لقد أرشدت العدالة حتى يحببنى الناس حباً عظيماً.

لقد أنقذت الضعيف من يدى الأقوى منه، بقدر استطاعتي.

لقد أعطيت الجوعان خبزاً وملبساً للريان.

لقد أتحت لمن ليس له قارب أن يبلغ الشاطئ.

لقد قدمت دفنة لمن ليس له ابن.

لقد اصطحبت فى القارب من ليس له سفينة.

لقد كرّست أبى وكننت وديعاً مع أمى وربيت أبناهما.

هكذا يتكلم من يدعى شيشى^(٢٧)».

(*) يقول المثل الشعبى: العين ما تعلاش ع الحاجب واللى يطاطى لها تفوت. (المترجم)

استعرضنا فيما سبق أفكاراً تدعو إلى البر والعدل. وقد ظهرت بوضوح مراراً وتكراراً في الإفادات الأخلاقية المنقوشة بالمقابر، والتي تؤكد على السلوك القويم لكل امرئ طيلة حياته.

الثورة الاجتماعية

ولكن ظلت السلطة تستهوى البشر، على مرّ العصور. فسرعان ما تعرضت المؤسسة الفرعونية الأولى لتهديدات قوّضت الأسس التي نهضت عليها. فقد بدأ حكام الأقاليم ولا سيما حكام مصر العليا وهم الأبعد من حيث المسافة عن البلاط الملكي في منف، بدؤوا يدبرون شئونهم بالتدريج بأساليب فيها قدر متعاضد من الاستقلال عن السلطة المركزية. ففي هذا البلد الذي تشكل فيه العائلة نواة المجتمع الأساسية، كان كل شخص يشغل منصب من المناصب يودّ أن يورث وظيفته لابنه، بل إن الحكيم پتاح حوتپ ذاته قد ألقى على مسامع الملك إسيسی حديثاً مسهباً، كانت تفرض جملته الأخيرة، شكلاً من أشكال الضغط السحري على قرار الملك:

«أيها العاهل الملكي، يا سيدي، لقد بلغت الآن من العمر أرذله. وانقضت الشيخوخة (على). والتدهور يتجدد بلا هوادة بعد أن فرض نفسه. والمرء يغفو طوال النهار. والعينان مريضتان والأذنان صماءان. واختفت القوة لأن القلب متعب والفم صامت، لا ينبس بكلمة. وتوقف القلب عن التفكير^(٢٨). بل لم يعد يتذكر الأمس. والعظام تتآكل بسبب طول مدة الحياة. وما كان مصدر سعادة صار الآن تعاسة واختفت جميع الأحاسيس... استأذنك إذن أن تصدر الأوامر بأن يتخذ خادمك لنفسه عصاً للشيخوخة^(٢٩) حتى يستطيع أن أخبره بكلمات الذين كانوا ينصتون في الزمن الماضي وبنصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة. عندئذ سيفعل الناس من أجلك الشيء ذاته. وتطرد الشرور بعيداً عن شعب مصر وسوف تعمل الضفتان من أجلك^(٣٠)».

هكذا تكونت أوليجاركية(*) خطيرة. ففي بلدة الشيخ سعيد بمصر الوسطى الكائنة على بعد ٢٠٠ كم تقريباً شمال طيبة - بدأ أمراء إقليم الأرنب البرى(**) يورثون مناصبهم اعتباراً من الأسرة الخامسة وباتوا منذ الآن يدفنون في أقليمهم. وانتشرت هذه العادة الجديدة. ولعالجة هذه المعضلة وتداركها أسس ملوك الأسرة الخامسة منصب «حاكم الجنوب» فكانت مهمته تنسيق أعمال حكومة مصر العليا مع مراقبتها في الوقت نفسه. ولكن مع قرب نهاية الأسرة السادسة أصبح هذا الحاكم لا يتمتع سوى بقدر محدود من السلطات. وبالتدريج فقّرت المؤسسة الملكية من جراء أعمال النهب والإغتصاب التي أقدم عليها المدراء الإقليميون.

بل ظهر من حول الملك ابتداءً من الأسرة السادسة مجموعة من المقربين الذين نزعوا إلى الجمع بين عدد من الإمتيازات الملكية والمراتب الشرفية؛ مما زاد من انحسار فاعلية السلطة المركزية.

ظل الخطر كامناً غير فاعل في عهد ملك حازم ونشط مثل پيى الأول. ولكن سنوات حكم پيى الثانى المديدة دامت تسعين سنة. إن وهن الملك الطاعن فى السن، بعد أن تجاوز سن المئة، سوف يقود البلاد إلى أزمة خطيرة فى السلطة. وربما حدث أيضاً أن الفلاحين الذين تطلعوا أساساً إلى مزيد من المزايا فى حقوق الملكية، قد عجلوا من قيام الثورة. ولكن يظل كل ذلك فى الوقت الراهن محض افتراض إذ لم يقدم نص مصرى واحد تقريراً واضحاً عن هذا الموضوع. ومع ذلك، فإن البدو «السائرين - على - الرمال» القادمين من بلاد كنعان(٣١) قد نفذوا إلى داخل الدلتا.

(*) نظام سياسى تنحصر فيه السلطة فى فئة محدودة من الأشخاص أو فى طبقة ضيقة تتمتع بامتيازات خاصة. والمصطلح مشتق من الكلمة اليونانية «أوليجاركية»، ومعناها نظام القلة. (المترجم)

(**) وهو الإقليم الخامس عشر من أقاليم الوجه القبلى واسمه «ون» فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

كانت ثورة اجتماعية حقيقية صاحبها غزو آسيوى. واستمر ذلك قرناً من الزمن من ٢٢٦٠ حتى ٢١٦٠ قبل الميلاد تقريباً. ولا نعرف على وجه التحديد أحداث هذه الفترة، ولكن عدداً من النصوص كانت صدئى لهذه الإضطرابات:

«لم يعد كبراء البلد يشكلون حكومته. ما كان قد حدث فى الزمن الماضى أصبح وكأنه لم ينجز أبداً. يتعين على رع أن يعيد الخلق من جديد. لقد هلكت البلاد من أقصاها إلى أدناها فلم يبق منها شىء. بل إن مصائرنا المرسومة لم يتبق منها مجرد سواد الأظفار^(٣٢). إن ما أصاب هذا البلد بلغ حداً خطيراً حتى أنه لا يوجد من ينتحب عليه أو من يتكلم أو من يبكى... لقد توارى قرص الشمس واحتجب ولم يعد يسطع حتى يمكن للشعب أن يرى... ونهر مصر ناضب فيعبره المرء دون بلل^(٣٣)... إن طيوراً جاءت من الخارج تفرخ فى مستنقعات الدلتا. لقد عششت على مقربة من المصريين الذين تركوها تقترب بسبب الشقاء (الذى يعانون منه)^(٣٤)».

وينوح إيبو - ور وينتحب طويلاً وينظم نصاً شعرياً يحرك العواطف عن موضوع الثورة الاجتماعية المدمرة التى قلبت كل الموازين:

انظروا إذن، فالصحراء تنتشر فى البلاد، والأقاليم تُسلب وتُنهب والأسويون القادمون من الخارج جاؤوا إلى مصر...

انظروا إذن، لقد اختفت البسمة، فلا أحد يبتسم، ومنذ الآن تعم الشكوى أرجاء البلاد وقد اختلطت بالنواح والانتحاب... انظروا إذن، فقلوب الحيوانات تبكى أيضاً وقطعان المواشى تننّ بسبب أحوال البلاد...

انظروا، إن الرجل الذى كان ثرياً (فيما مضى) ينام الآن ظمأناً. أما الذى كان يستجدى فى الماضى رواسب الأقداح، أصبحت الجعة تفيض الآن عن حاجته. انظروا، من كانوا يملكون فى الماضى ثياباً كتانية يرتدون الآن الأسمال. ومن كان لا يستطيع أن ينسج لنفسه يمتلك الآن أرقى أنواع الكتان.

انظروا، من كان معوزاً رقيق الحال أصبح ثرياً والثرى أصبح فقيراً^(٣٥).

صاحبت الثورة الاجتماعية ثورة الوعي والضمان. فبعد أن فقد الإنسان فجأة
المرتكزات التي يوفرها النظام الملكي والدين، انقطع إلى نفسه؛ فانتابه الشك، وأخذ
اليأس من الحياة يخفف من وحدته قائلاً:

«لمن عساي أتحدث اليوم؟
فالإخوة أنفسهم أشرار
وأصدقاء اليوم أصبحوا لا يحبون.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
القلوب طماعة
وكل واحد يستولى على ممتلكات الغير.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
رمائة الخلق اضمحلت
وعادت السطوة للجميع.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
الناس يرضيهم الشر
والخير طرحوه أرضاً في كل مكان.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
فالإنسان الذي كان يُخرج (الآخر) عن طوره بسبب أفعاله السيئة
يشير الآن الضحك عند الجميع عندما تكون جريمته شنعاء.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
فالجميع ينهبون
وكل امرئ يسلب أخاه..

لمن عساي أتحدث اليوم؟

لم يعد للأبرار وجود
والبلاد أصبحت تحت رحمة مرتكبي المنكرات..

لمن عساي أتحدث اليوم؟
إن البؤس يرهقني
وقد احتاج إلى صديق.

لمن عساي أتحدث اليوم؟
لقد ضرب الشر البلاد
ولا نهاية له (٢٦)».

إنها قصيدة شعر تلتزم بالنموذج الشائع في اللغات السامية من إيقاعات
وسجع ولوازم المواضيع، إنها نداء مؤثر لذات واعية تعيش في عزلة ووحدة.

وفي أعقاب هذه الأزمة المزدوجة، سوف تنشأ مشاعر أخرى: الشعور بوجود
الوطن باعتباره مجمل أراضٍ متلاصقة تشكل وحدة يمتلكها رجال يسكنون الوادي،
إنه وطن ينبغي حمايته منذ الآن من الغزوات الخارجية والفوضى الداخلية. ولأول مرة
بدأت تظهر في النصوص عبارتا: «بلدنا» و«جيشنا». واعتبر المصريون أنفسهم
مسئولين عن هذا الوطن الذي أصبح وطنهم وصاروا الساهرين عليه. وفي الوقت
نفسه وبعد أن تخلص الإنسان من سلطان النزعة الجماعية للمجتمع الفرعوني الأول
صار مشغولاً بمصيره الشخصي: وهكذا ازدهرت المعتقدات الأوزيرية إلى حد كبير
لتتيح لكل فرد بلوغ عالم الصيرورة اللانهائية، ودخول عالم التحولات الحرة وأشكال
الكائنات الأبدية - الأدمية والحيوانية والنباتية. إنه عالم شاسع قائم على وحدة
الوجود (*) panthéisme يتحرر فيه الإنسان من القيود الدنيوية فيتحرك كما يحلو له

(*) تؤمن هذه العقيدة بوحدة الله والعالم. (المترجم)

بلا انقطاع وبلا نهاية. كان الشك حالة عابرة، واستعاد الإنسان إيمانه بالآلهة الخالدة مع استقرار المملكة وحقوقه الفردية الجديدة.

وبعد سنوات من الفوضى، تقاسمت خلالها الحكم نُظم متوازية إبان الأسرتين السابعة والثامنة، يبدو أن عملية توحيد أولى قد تمت على أيدي أمراء هرقليوبوليس(*) Hérakléopolis، وتقع هذه المدينة إلى الجنوب الغربى من منف عند مدخل الفيوم. إن هذه المنطقة التى ستلعب دوراً على قدر كبير من الأهمية إبان الأسرة الثانية عشرة، كانت آنذاك عبارة عن واحة شاسعة تتكون من منخفض عميق يقع عند الجانب الغربى من الوادى ويغذيه بالماء ذراع يتفرع من النيل هو بحر يوسف الذى يخترق سلسلة جبال الصحراء الغربية عبر ممر ضيق ليصب فى بحيرة ضخمة أطلق عليها المصريون اسم مر - ور وقد صحفه الإغريق إلى مويريس Moeris ثم أسماها الساميون پا - يوم فتحول هذا الاسم إلى الفيوم فى الوقت الراهن. أما البحيرة فقد أصبح اسمها الحالى: بحيرة قارون. وشكل ملوك هرقليوبوليس الأسرتين التاسعة والعاشرية. وإذا كان سلطانهم يمتد بوضوح على مصر السفلى ومصر الوسطى إلا أنه لم يشمل على ما يبدو مصر العليا حيث كان أمراء طيبة يمارسون من جانبهم سياسة نشطة.

وعن طريق المصاهرة مع أمراء آخرين من الجنوب وفى أعقاب معارك طاحنة ضد أمراء هرقليوبوليس، نجح أناتفة(**) طيبة حول عام ٢١٦٠ قبل الميلاد، فى إعادة توحيد مصر العليا ومصر السفلى، وأسسوا الأسرة الحادية عشرة فكانت أولى أسرات مرحلة جديدة من الاستقرار الذى ساد المؤسسة الفرعونية. وصارت طيبة عاصمة المملكة. وهكذا استهلّت تاريخها المجيد بفضل الفطنة النابهة التى تحلى بها أمراؤها على الصعيد السياسى، ومن ناحية أخرى فسرعان ما غدت العاصمة الدينية الجديدة. وهكذا ستصبح طيبة على امتداد ألف سنة أقوى مدن الشرق وأعظمها شأنًا.

(*) الاسم اليونانى لمدينة ثنى نسوت المصرية القديمة وإهناسيا المدينة حالياً. (المترجم)

(**) مجموع الملوك الملقبين أنتف. (المترجم)

لقد تربع على عرش البلاد ثلاثة ملوك يحملون لقب أنتف، وامتد حكمهم حتى عام ٢٠٧٠ قبل الميلاد تقريباً. إن ابن أنتف الثالث سوف يخلف أباه تحت اسم مونتو حوتب الأول. ثم جاء الدور على ابن هذا الأخير واسمه مونتو حوتب الثانى ليعتلى سرير الملك. ولا شك أن مونتو حوتب الثالث كان ابن إحدى محظيات الملك السابق. لقد استعاد هؤلاء الملوك الثلاثة الملقبون مونتو حوتب اسم جدهم الأعلى والد أنتف الأول، لينتسبوا على هذا النحو إلى الإله الذى كان يعبد فى عاصمة الإقليم^(٢٧). علماً بأن اسم مونتو حوتب يعنى «عسى أن يكون الإله مونتو راضياً». ويذهب البعض إلى أن الملوك الذين يحملون لقب مونتو حوتب أربعة. وفى هذه الحالة قد يكون أول من لقب باسم مونتو حوتب، هو والد أنتف الأول. وبالفعل فقد ذكر اسمه محاطاً بخرطوش فى قائمة الملوك المنقوشة فى الكرنك. ولكن يبدو أن مونتو حوتب هذا، على افتراض أنه كان بالفعل الجد الأول لهذه الأسرة، إلا أنه لم يحكم البلاد فى واقع الأمر قبل ابنه أنتف الأول. بل كان يظن قبل عدة سنوات أن الملوك الذين يحملون اسم مونتو حوتب فى الأسرة الحادية عشرة كانوا خمسة. ولكن من الواضح فى الحقيقة، أن أولهم قد بدل على ما يعتقد قائمة ألقابه بينما كان متربعاً على العرش. إن قائمتى الألقاب الملكية هذه، اللتين كان العلماء ينسبونهما إلى ملكين مختلفين هما فى واقع الأمر لملك واحد. إن إعادة صياغة التاريخ القديم يتطلب من الباحث صبر أيوب وقدرًا كبيراً من الفطنة.

وعكف هؤلاء الملوك على طرد الغزاة الآسيويين من الدلتا وإعادة إقتصاد البلاد إلى سابق عهده، بعد أن خربته سنوات الإضطرابات والمجاعات. كما عملوا على استعادة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة.

بل يبدو أن خيتى الثالث من هرقليو بوليس (الأسرة العاشرة) قد سبق له أن بذل الجهد الجهد لدحر بدو آسيا الغزاة. ففي تعاليمه إلى ابنه مري-كارع وكانت التعاليم المكتوبة من أجل الابن تقليداً أدبياً موغل فى القدم فى مصر وسوف يستمر على مدى الأيام، فنجدته يقول فى هذه التعاليم:

«كان هؤلاء الأجانب كالجدار الموصد ففتحته... وعملت بحيث تكيل لهم مصر السفلى الضربات. وسطوت على ممتلكاتهم واستوليت على قطعانهم حتى نفر الآسيويون من مصر وكرهوها. لا تشغل بالك إذن بهذا الأمر، لأن الآسيوى قد صار من الآن تمساحاً على شاطئ (مصر). ففي وسعه أن يسرق شخصاً واحداً ولكنه لا يستطيع أن يستولى على أرض عدد من المدن^(٣٨)».

واصل الأناثفة والمناثقة(*) تحرير أرض مصر ودعموه. وكان مونتو حوتب الأول قد أمر بتشديد معبد فى الجبلين - على بعد ٢٨ كم جنوب طيبة- وزخرفه بمشاهد مرتبطة بغمار المعارك التى خاضها من أجل إعادة توحيد البلاد. وقد دُمّر المعبد ولكن مازال من السهل فهم دلالة نقوش بعض الكتل الحجرية التى أعيد استخدامها فى العصر البطلمى كأساسات لمعبد آخر: فنشاهد الملك وهو يؤدي الحركة الشعائرية التى كانت فى زمن سابق حركة نعمر كما صورتها الصلابة المصنوعة من حجر الشست والتى يحتفظ بها متحف القاهرة - نشاهد إبادة الأسرى إبادةً رمزية بضربهم بمقمعته البيضاء وهى المقمعة الملكية برأس من الألبستر. وتحتفظ هذه الكتل الحجرية بصور أربعة نماذج من الأسرى: النوبيين والآسيويين والليبيين والمصريين. ويؤكد متن المشهد على قيام الملك بأعادة النظام إلى الجنوب والشمال والبلدان الأجنبية وأن الأقواس التسعة تحت قدميه. إن عبارة الأقواس التسعة التى اكتسب استخدامها قدراً كبيراً من الأهمية فى عصر الإمبراطورية تشير إلى مصر والأراضى الواقعة تحت سيطرتها. إن قائمة الأسماء التى تنطوى عليها هذه العبارة قد تغيرت على مرّ العصور^(٣٩).

كما استعاد ملوك الأسرة الحادية عشرة سيطرتهم على النوبة التى كانت قد تخلصت من الوصاية المصرية إبان أزمنة الإضطرابات، بينما تولت أسرات محلية وقبلية زمام السلطة. وأعادوا فتح طرق التجارة فى اتجاه البحر الأحمر. واستغلوا ثروات واحات الصحراء الغربية: وقام مونتو حوتب الثانى بضم الواحات الخارجة.

(*) مجموع الملوك الملقبين مونتو حوتب. (المترجم)

السياسة الجديدة

حول عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد استولى الوزير أمن إم حات على السلطة ليؤسس الأسرة الثانية عشرة، أسرة آل أمن إم حات وآل سنوسرت. وقد أبقى أمن إم حات الأول عاصمة البلاد فى طيبة أما خلفاؤه فقد وقع اختيارهم حتى عام ١٧٨٥ قبل الميلاد تقريباً، على مدينة اللشت فى الفيوم ليتخذوا منها مقرهم الرسمى، لا سيما وأن هذه المدينة كانت لا تبعد كثيراً على نقطة إلتقاء المنطقتين الطبيعيتين اللتين تكونان المملكة. وشهدت مصر خلال هذين القرنين تجديد الحياة السياسية والحياة الدينية.

لقد ترك ملوك مصر منذ الآن تأثيراً مختلفاً فى النفوس. ويكفى أن يقارن المرء الوجوه الملساء المزهوة بنظراتها التى تطل علينا من علو لتماثيل خعفرع(*) ومنكاورع(**) على سبيل المثال بتماثيل ملوك الأسرة الثانية عشرة التى تشهد على الهموم التى تشغل بالهم وهو ما تعبر عنه ملامح الوجه بفمه ذى الصامفين(***) الساقطين والجيبين أسفل العينين والتجاعيد الغائرة عند جانبي الأنف والوجنتين الهزيلتين. هكذا ندرك أن تغييراً قد حدث للأيدولوجية الملكية. إن الحاكم المطلق الفائق السلطة والسلطان كما عرفته العصور السابقة قد ظهرت عليه مسحة من الإنسانية. إن درس الأحداث كان قاسياً. وقد سبق أن قدم خيتى الثالث فى التعاليم التى أشرنا إليها من قبل، قدم النصيح لابنه مري كارع وهى عبارة عن إرشادات جديدة أحياناً تدور حول تدبير شئون الدولة وسلوك المرء فى تعامله مع الآخرين:

«أقم العدالة طوال مدة حياتك على الأرض. طمئن من يبكى. لا تطغ على الأرملة. لا تطرد إنساناً من ممتلكات أبيه. لا تتسبب فى الإضرار بالعظماء فى

(*) (يتوسط هذا التمثال الرائع الجمال القاعة ٤٢ من الطابق الأرضى من المتحف المصرى بالقاهرة. (المترجم)

(**) (تماثيل «منكاورع» موجودة فى البهو ٤٧ من الطابق الأرضى من المتحف المصرى بالقاهرة. (المترجم)

(***) الصامغان: جانباً الفم فى ملتقى الشفتين مما يلى الشدقين. المعجم الوسيط. (المترجم)

وظائفهم. تجنب أن توقع عقوبة بالباطل. لا تقض على من لا يفيدك في شيء. إذا عاقبت امرأً فلتكن عقوبته الضرب بالعصا أو السجن. هكذا يسود الاستقرار أرجاء البلاد. أما المتمرّد فسوف تنكشف مآربه لأن الله يعرف الإنسان صاحب القلب الخسيس وينزل الله عقوبة الدم بالأفعال السيئة... لا تفضل ابن إنسان ثرى على ابن فقير. قَرّب إليك الإنسان حسب أفعاله لأن كل مهنة يقوم بها (صاحبها) هي من أجل رب القوة (أى الملك)... كن وديعاً مع من لا يملك شعيراً يمكنه أن يعطيك إياه، لأن البشر ضعفاء أمامك. كن راضياً بما فى حوزتك من خبز وجعة... انظر، لا بد أن يكون الملك رب السعادة. إذا كنت عادلاً يمكنك أن تنام بفضل قوتك. عندئذ اعمل بما تمليه عليك رغبتك وفقاً لما فعلته. هكذا لن يتواجد قط أعداء داخل حدودك.

من ينتسب إلى الضفتين (أى الملك) يملك المعرفة. إن ملكاً وهو سيد رجال البلاط لا يمكنه أن يكون جاهلاً. لقد كان حكيماً منذ أن خرج من بطن أمه، وقد أصفاه الله فى حضرة مليون من البشر، إن الملك وظيفة جميلة وحسنة. إن شخصاً واحداً هو الذى يجعل إنساناً آخر فعّالاً. إن كل امرئ يتصرف على هدى من سبقه، سوف يحافظ على عمله من سيخلفه.

اعمل من أجل الله وبالمثل فسوف يعمل من أجلك...

لقد أنعم بالكثير على البشر فهم قطع الله؛ فقد خلق الله السماء والأرض حسب رغبتهم، وطرد مخلوق الماء الشرير (التمساح) وخلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم. إنهم صوّره المنبثقة من جسده. إنه يتألق فى السماء كما يرغبون ومن أجلهم خلق النبات والماشية والأسماك غذاءً لهم... وخلق النور وفقاً لرغبتهم، ويبحر ليراهاهم. لقد شيّد معبده من حولهم وعندما ينتحبون فإنه يسمعهم. لقد خلق من أجلهم زعماء منذ أن كانوا فى البيضة، إنهم قادة أنيط بهم أن يكونوا سنداً لظهر الرجل الضعيف(*) (٤٠)».

(*) حول هذا المعنى يدور المثل الشعبى: «إلى له ضهر ما ينضربش على بطنه». والمراد بالضهر الرجل الحامى لغيره. أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ٥٦. (المترجم)

أصبح الإنسان هدف الكون وغايته. والآلهة والملوك سند له ويحافظون على حياته. فالملوك هم الوسطاء الرحماء الذين لا غنى عنهم فى هذا العالم الجديد.

وعلىنا أن نقارن أيضاً تأليه الملوك على نطاق واسع كما ورد وصفه فى متون الأهرام^(٤١) بهذه الكلمات القانطة التى تفوه بها أمنمحات الأول فى حديثه إلى ابنه سنوسرت الأول وقد وصلت إلينا من خلال نص آخر من التعاليم:

أنت الذى ظهرت بجلال كإله، انصت لما سأقوله لك، حتى تصبح ملك البلاد، وتدبر شئون الضفتين وتحقق الخير بوفرة كبيرة. احترس من رؤوسيك حتى لا تتعرض لحدث لم يخطر على بال أحد. لا تقترب منهم ولا تبقي بمفردك. لا تثق فى أخ. لا تصادق الآخرين. ولا تنشئ علاقات حميمة. فلا فائدة ترجى من ذلك - إذا خلدت إلى النوم، فليتول قلبك ذاته حراستك. فالمرء لا يجد أصدقاء يوم الشدة^(*). لقد أعطيت المحروم. لقد نشأت اليتيم. لقد سعيت ليرتقى من كان لا يملك شيئاً بنفس مستوى من كان يملك. ولكن من كان يأكل من طعامى هو الذى كان يلومنى ومن مددت له يدى هو الذى كان يثير الرعب. ومن كان يرتدى أرق كتانى هو الذى كان ينظر إلى، مثلما كان يفعل من كان محروماً منه، ومن كانوا يتضمخون بطيب المر الخاص بى، كانوا يبصقون على موقفى العطوف^(٤٢).

على العاهل الملكى أن يصبح من الآن حامى الشعب الذى يتولى مسئوليته، وأن يتجنب تخويل سلطاته إلى بعض المقربين من زوى البأس، كما لابد أن يكون الملك إنساناً فاضلاً، فليتزعم بالعدل والتجرد والرافة عند معالجة الأمور. إنه يحكم البلاد مع ماعت- إلهة الحقيقة والعدالة- إنهما صفتان متكاملتان تحملان اسماً واحداً. إنها تؤمن نظام وتوازن المملكة والكون، كما أنها المرشد الهادى للعاهل الملكى.

وينشد الناس ترانيم الشكران والعرفان بالجميل من أجل الملك الجديد الذى

(*) ويقترب عدد من الأمثلة الشعبية من هذا المعنى: «طول ما أنت طيب تكثر أصحابك» و«إصباح الخير يا جارى إنت فى دارك وأنا فى دارى»... إلخ. (المترجم)

يسهر على استتباب السلام فى ربوع البلاد وازدهارها . إنه نوع أدبى بدأ يظهر فى هذا الزمان، كما سيدوم أيضاً ويستمر:

تحية لك يا خع كا ورع^(٤٢)، أيا حورس صاحب الأشكال الإلهية،

الذى يحمى البلاد ويوسّع حدودها،

الذى يصدّ البلدان القصية بفضل تاجه العظيم،

الذى يحتضن الأرضين ويعانقهما بساعديه،

الذى يُخضع البلدان الأجنبية بقوة يديه،

الذى يُهلك الجماعات الهمجية دون أن يحتاج إلى ضربهم بالعصا،

الذى فى وسعه أن يرمى السهام دون أن يشد وتر (القوس).

إن الرعب الذى يثيره فى النفوس ولا شىء سواه، هو الذى ضرب النوبيين فى أراضيهم.

إن الخوف منه ولا شىء سواه، هو الذى قتل الأسىويين.

إن المذبحة التى أقدم عليها سببت آلاف القتلى فى الجماعات الهمجية التى هاجمت حدوده.

إنه يشدّ القوس مثل سخمت^(٤٤) ويُجهز على آلاف البشر من بين أولئك الذين لم يعرفوا بعد قوته.

إن لسان صاحب الجلالة يجمع النوبيين وخطبه تجعل الأسىويين يلونون بالفرار.

إنه الإنسان الشاب، الأوحد والإلهى، الذى يحارب دفاعاً عن حدوده، الذى لا يسمح لشعبه أن يصيبه الإرهاق، الذى يتيح للناس أن يناموا حتى مطلع النهار. وفى وسع مجنديه أن يخلدوا إلى النوم؛ لأن قلبه يوفر الحماية.

لقد رسّمت المراسيم حدود بلاده وجمعت كلماته شمل الضفتين^(٤٥).

وعند حدود الواقع والأسطورة، يوحى النص أن الوجود الملكى وحده، وهو وجود «إلهى»، يطرد العدو. إنه سلاح رهيب لكل من يؤمن بفاعلية الكلمة كوسيلة مساعدة ومعاونة فائقة القدرة فى خدمة الفراعنة الفاتحين^(٤٦). وكمقدمة لكبرى ملاحم التوسع الإمبراطورى، ظهرت منذ ذلك العصر بعض الملامح القتالية، واستمر الخوف من الغزاة الأجانب.

ومن ثم فقد أصبح الشغل الشاغل للملك مصر هو حماية أنفسهم، من أى غزو جديد. فأمر أمن إم حات الأول ببناء سلسلة من القلاع فى الشمال الشرقى، تمتد من بلوزيوم^(*) Pelusium وحتى هليوبوليس، وأطلق عليها اسم إنبو^(**) حقا أى «أسوار الأمير». وكانت نظاماً دفاعياً ناجحاً على ما يبدو. وفى هذه القلاع كانت تقيم حاميات عسكرية بصفة دائمة. لم تكن تضطلع بمهام وقائية فقط، بل كان مطلوب منها أيضاً الإبلاغ عن كل جديد. ومن هنا نشأت فكرة أنه من الضرورى بل من المحتم بعد الآن، إقامة سور دفاعى على جانبى مصر ولا سيما حول الدلتا، يتكون من بلدان خاضعة للهيمنة المصرية. وعملاً قريب سوف تتحول طرق التجارة الخارجية إلى دروب تسلكها جيوش مصر الفاتحة. إن اهتمام مصر بحماية أراضيها سوف يترتب عليه تأسيس الإمبراطورية بعيداً عن أى نزعة إمبريالية. لقد نشأت الأيديولوجية الإمبراطورية فى بادئ الأمر تلبية لحاجة مصر إلى الدفاع عن أرض الوطن. وسوف تقدم كنعان وموانئ فينيقيا الجزية لمصر^(٤٧). بل إن سنوسرت الثالث سوف يصل فى إحدى حملاته العسكرية إلى مدينة سيشم - نابلس حالياً.

وفى اتجاه الجنوب استعاد ملوك الأسرة الثانية عشرة سيطرتهم على الأراضى الإفريقية القائمة فيما وراء الجندل الأول وكان ينظر إليها على الدوام باعتبارها امتداداً طبيعياً لمملكة مصر. وقد ثبتوا هذه السيطرة بل توسعوا فيها، حتى وصلت إلى الجندل الثالث، شمال السودان. وإلى الجنوب منه يبدو أن مركز مدينة كرمه

(*) تل الفرما حالياً وتقع فى أقصى شمال سيناء وغربها. (المترجم)

(**) كلمة إنب تعنى جدار أو سور والواو علامة الجمع. (المترجم)

التجارى كان أقصى نقطة وصل إليها زحف هؤلاء الملوك الذين ظلوا يهتمون على الدوام بتوفير أماكن إقامة القوات العسكرية وتنظيم إستغلال هذه المناطق ومراقبتها. إن سنوسرت الأول الذى قاد ثلاث حملات على رأس جيشه بدأ مهمة ضخمة تمخضت عن تشييد قلاع قائمة على ضفتى النيل، الهدف منها وقف كل محاولة تمرد يقدم عليها السودانيون من أبناء كوش(*) التى تمتد حدودها من الجندل الثانى وحتى الجندل الرابع. كانت المسافة التى تفصل كل قلعة عن الأخرى تصل إلى سبعين كيلومتراً تقريباً، فتتصل فيما بينها بواسطة إشارات الدخان. كانت الحاميات العسكرية تتكون من أفراد تم تجنيدهم لفترة عام إلى جانب القوات الدائمة. كان المركز الاستراتيجى يقع عند الجندل الثانى الذى يعتبر عائقاً طبيعياً. وفى هذا المكان شيدت مدينة جديدة وراء أسوار القلعة، هى مدينة بوهن التى كانت تحرسها أيضاً على مسافة سبعين كيلومتراً جنوباً، قلعتان فى منطقة يضيق فيها الوادى فارتفعت قلعة سمنا على الضفة الغربية وقلعة قمّة على الضفة الشرقية. والقلعتان متقابلتان تقريباً، وكانتا أبعد القلاع جهة الجنوب. وإلى الشمال من بوهن كانت تمتد سلسلة من المدن هى أوروئارتى ومركسة ودبنارتى وعنيبة العاصمة القديمة للنوبة، وكانت كلها بمثابة نقاط حراسة على مشارف مصر^(٤٨). إن هذا التواجد المصرى الدائم بفضل ما يفرضه من رقابة سوف يسهل أيضاً وسائل النقل التجارى عبر نهر النيل.

وأنشئ أول جهاز لإدارة هذه المناطق الجنوبية لتتواجد السلطة المصرية تواجداً راسخاً لتدبير شئون هذه المناطق. وقام سنوسرت الأول بتعيين سارنپوت أمير أسوان حاكماً على النوبة. وفى كرمه أناب حابى جفاى أمير أسيوط وفوضه سلطاته.

وانتهت عملية إحلال السلام فى عهد سنوسرت الثالث الذى سيعبد فى النوبة بصفته إلهاً، اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة. وحتى يصبح مرور السفن أكثر سهولة ويسراً أمر فى السنوات الأولى من حكمه بحفر قناة صالحة للملاحة عبر صخور

(*) أو النوبة العليا. أما النوبة السفلى فتتمتد من الجندل الأول إلى الجندل الثانى أو ووات باللغة المصرية القديمة. أما مصطلح أثيوبيا فهو الاسم الذى أطلقه الأغريق القدماء على منطقة النوبة. (المترجم)

الجنـدل الأول. وتحتفظ مدونة صخرية فى جزيرة سهيل باسم هذا العمل الضخم: «جميلة هى دروب خع كا ورع». فكل إنجاز فى مصر سواء كان مبنياً أم تشكيليّاً يحمل اسماً. إن كل شكل، سواء ابدعته يد إلهية أو آدمية، ينطوى بالفعل على عنصر حياة أو تأثير فاعل يجسّده الاسم. كان طول القناة ٧٨ متراً و١١٠ أمتار عرضاً و٧,٨٠ أمتار عمقاً. وتم تقوية تحصينات الجنـدل الأول. ومنذ نهاية الحملة العسكرية الأولى التى قادها سنوسرت الثالث أقام لوحة حدودية عند بلدة سمّة أوضح فيها: «لا يحق لأى زنجى أن يعبر عن طريق النهر أو البر»... إلا بتصريح مستوفٍ لكل التعليمات بطبيعة الحال.

كان تواجداً عسكريّاً ولكن أيضاً أيديولوجيّاً ودينيّاً، وهو ما سيحدث على الدوام ولا سيما فى زمن الإمبراطورية: إن تحالف الآلهة هو خير ضمان للوحدة السياسية بفضل توافق وعى البشر ووجدانهم. فتبجّل الآلهة المصرية فى النوبة، بينما اندمج الإله النوبى ديدون فى الصقر حورس وتوحد معه. إن العلاقة القائمة بين هذين الإلهين قديمة على كل حال، قدم ضم أراضى الجنوب إلى مصر: فنجد أن ديدون قد انضم إلى مجمع الآلهة المصرية منذ متون الأهرام. وناحية الغرب كانت الواحات البحرية فى الصحراء الغربية تابعة إداريّاً للوادي. وبالفعل فقد كانت الواحات البحرية ملتقى عدة دروب فيأتى بعضها من السودان فى حين تتجه الأخرى إلى مصر الوسطى. ومن ثم كانت نقطة استراتيجية، فقد تسمح لأبناء السودان المفطورين على التمرد أن يتصلوا بسهولة ويسر مع مثيرى الشعب المحتملين فى مصر ذاتها، وأن يهاجموا الجيش الملكى من الخلف. ويظهر الدليل الدامغ على هذا الخطر قرب نهاية الأسرة السابعة عشرة^(٤٩). وصارت عملية استثمار واحات الصحراء الغربية على قدم وساق: فزرعت فيها أشجار الكروم التى وفرت بسرعة محصولاً ذاعت شهرته. واهتم أبناء الواحة بتربية الحمير.

وبفضل ما أوتى ملوك مصر من فطنة وذكاء بدا أن مصر محمية حماية منيعة على جميع حدودها بفضل «كوكبة» من الدول التابعة.

أما فى داخل البلاد فكان لابد من إصلاح ما أفسدته عشرة عقود من الفوضى، والعمل من الآن على تجنب المشاكل التى قادت إليها. وظل الوزير الذى يعينه الملك محتفظاً بوظائفه نفسها. ومع ذلك، لم يعد معاونوه مجرد رؤساء بعثات يتولى هو شخصياً إيقادهم. وإنما أصبحوا «عظماء الجنوب الثلاثين»، وكان فى وسع العاهل الملكى أن يكلفهم بمهام سياسية لكونهم محل ثقته. أما حكام الأقاليم بما عُرِف عنهم من رغبة فى الاستقلال فكانوا إذن إلى حد كبير وراء الفوضى التى عمت البلاد، ولذلك فقد اقدمت السلطة المركزية على إحكام السيطرة عليهم. ومن جديد خضع الأمراء المحليين للملك ليصبحوا موظفين ملكيين. ومنحت لهم امتيازات شخصية لا تشكل خطراً؛ فكان من حقهم على سبيل المثال أن يقدموا تقريراً سنوياً عن نشاطهم وفقاً للأسلوب الملكى. ولكن الملك كان يراقب عن كثب وراثه الوظائف، ليتفادى ظهورها من جديد. فعند وفاة حاكم الإقليم كانت السلطة المركزية تقوم بتعيين من يخلفه بل وقد تعدل مساحة وطبيعة المنطقة التى يشرف على شؤونها. ولكن يبدو مع ذلك أن بعضهم قد ظل يشكل خطراً كامناً. فمن الواضح أن منصب حاكم الإقليم قد أُلغى فى بعض الأماكن، ليختفى كلية فى عهد سنوسرت الثالث. فبينما كان للجبانات الإقليمية أهميتها فى مطلع الأسرة ونذكر بالتحديد جبانات بنى حسن والبرمشا ومير فى مصر الوسطى، نلاحظ أنها قد هجرت بعد عهد سنوسرت الثالث ولم تعد مستخدمة. فقد اختفت تماماً مقابر حكام الأقاليم من وادى النيل. وهكذا تحولت نبالة الأقاليم إلى نبالة البلاط الملكى الذى أصبح المركز الإدارى للبلاد من أقصاها إلى أدناها.

وظهر مجتمعاً يتميز بتراتبية هرمية أكثر وضوحاً؛ فيضم فئة حاكمة تشمل الموفدين المباشرين للملك وهم رؤساء الجهاز الإدارى والجيش والكهنة؛ والجمع بين مختلف الصلاحيات كان من الأمور الشائعة. كانت هذه «الكوادر العليا» تحصل على مرتبات كبيرة وهدايا ملكية التى يعتقد أنهم حصلوا عليها «كإنعام من الملك» أو أنصبه تم اقتطاعها من موارد المعابد على سبيل المثال. ومنذ الآن تكونت طبقة وسطى تضم الكتبة والكهنة والحرفيين، كانت مرتبطة بالفئة السابقة وتعمل فى خدمتها، ويقع على عاتقها أداء كل ما يتعلق بالحياة السياسية والدينية، كما تحيا فى بحبوحة من العيش.

أما الفلاحون فكانوا يخضعون إما لنظام العمل بالسخرة(*) فى خدمة أحد المعابد أو الأملاك الملكية أو الخاصة أو كانوا أحراراً فى حيازتهم قطعة أرض. هكذا أخذ المجتمع يشجع الانتقال التدريجى إلى الملكية (بكسر الميم). (راجع قصة الفلاح الفصيح).

لقد استعادت المملكة السلام الداخلى. كما ركّز الملوك نشاطهم على ازدهار البلاد. وبالفعل، فمن أهم منجزات ملوك الأسرة الثانية عشرة أنهم عرفوا كيف يستثمرون أراضى الفيوم^(٥٠)، هذه الواحة الشاسعة القائمة إلى الجنوب الغربى من مدينة منف، بعد أن أسسوا عاصمتهم عند مدخلها فى مدينة اللشت. واستحدث الملوك شبكة من القنوات لتنظيم توزيع المياه فأوجدوا بالتالى سهلاً خصباً مترامى الأطراف. كان هويس شيد فى اللاهون عند مدخل المضيق الذى استخدمه بحر يوسف للوصول إلى الواحة، يساعد على تنظيم وصول مياه النهر، فى حين شيد خزان ضخمة لحماية الوادى من المخاطر التى قد يشكلها تراكم المياه فى موسم الفيضان. بدأ سنوسرت الثانى أعمال هذا المشروع بعد أن أقام عاصمته فى اللاهون تحديداً ليتابع عن كثب تنفيذه.

آمون وتأسيس الكرنك

تأثرت الأيديولوجية الدينية بالنتائج التى ترتبت على الأحداث السياسية. فعند تولى أمراء طيبة مقاليد الحكم أخذ آمون الذى ظل حتى الآن إلهاً خامل الذكر يتحول إلى إله رسمى فشرع مقره المقدس فى الكرنك يسير فى مدارج الشهرة والنفوذ. لم يكن الكرنك القائم على الضفة اليمنى من نهر النيل موقعاً مجهولاً. فإلى الشمال كان الإله موتو يعبد منذ أقدم الأسرات. ولكن ماذا عن الإله آمون؟ أكان إله المراكبية؟ إن أصوله ودلالته الأولى غير معروفة على وجه اليقين.

(*) لطول هامش المترجم عن «السخرة» ولأسباب فنية تم نقل هذا الهامش إلى آخر المقدمة، فيمكن الرجوع إليه. (المترجم)

ومن غير المستبعد أنه كان معروفاً منذ أقدم العصور. ويمكن الإستشهاد ببعض النصوص النادرة التي تدور حول هذا الموضوع. فنجد من جهة أن قائمة الملوك التي نقشت في «حجرة الأجداد»(*) التي أقامها تحوتمس الثالث في إطار معبد الـ «آخ منو»^(٥١) الذي شيده شرق معبد الكرنك الكبير، تذكر أسماء بعض الملوك: وثاني هذه الأسماء هو سنفر، أول ملوك الأسرة الرابعة، لأن الاسم السابق وجد مهمشاً. ولن نجافى الحقيقة إذا افترضنا أنه كان من ملوك الأسرة الثالثة. وإذا كانت هذه القائمة التي لم تذكر سوى أسماء بعض الملوك قد نقشت في الكرنك، فربما كان القصد منها إعداد حصر بالملوك الذين أحاطوا آمون في مكانه المقدس بكل مظاهر التبجيل والتوقير^(٥٢). ومن ثم فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن أولى الشعائر المحلية قد أقيمت في الكرنك لعبادة هذا الإله منذ الأسرة الثالثة. ومن جهة أخرى، يبدو أن بعض الفقرات الواردة في متون الأهرام تذكر اسم آمون. وهذه النصوص المترابطة، هي فيما نعلم، الأقدم في الوقت الراهن. فقد قيل للملك في الفقرة ١٥٤٠ (**): «يا بيهي، يا ابن جب، لقد جئت في الحقيقة على عرش آمون». ومن ثم فربما كان ينظر

(*) حجرة الأجداد: احتدم الصراع بين متحف برلين وممثله في مصر عالم المصريات «ريتشارد ليرسيوس» (١٨١٠-١٨٨٤) Richard Lepsius وعالم المصريات الفرنسي «پريس دافين» (١٨٠٧-١٨٧٩) Prisse d'Avennes على من يسبق الآخر في سرقة حجرة الأجداد. ونجح هذا الأخير رغم الحظر الذي كانت تفرضه السلطات المصرية - في سرقة الحجرة في مايو ١٨٤٢. فخلال ثمانية عشر يوماً انتزعت الحجرة من جدران الكرنك وارتفاعها ٢٦٠ سم وعرضها ٢٤٧ سم وعمقها ٢٦٥ سم. وتم نشر الكتل الحجرية ثم وضعت في صناديق. ولم يتمكن «پريس دافين» من شحنها إلى فرنسا قبل مايو ١٨٤٤. كما لم تستقر في مكانها الحالي بمتحف اللوفر إلا في عام ١٩٢٢ حيث يمكن مشاهدتها في الوقت الراهن.

G. Andreu et alii: L'Egypte ancienne au Louvre, Hachette, 1998, pp.114-115.

وما يمكن مشاهدته الآن في معبد الكرنك ليس سوى مستنسخ جصى أعدّ إعداداً رديئاً. (المترجم)

(**) وهي إحدى فقرات المقطع ٥٧٩. (المترجم)

إلى آمون منذ ذلك الوقت المبكر بصفته إلهاً ملكياً، ولكن إذا اتفقنا أن متون الأهرام(*) تقدم لنا فكراً دينياً ظل يتطور قبل ذلك طوال قرون مديدة حتى وصل إلى هذه الصيغة الكاملة الأولى، فإن هذه الملاحظة تتيح أن نرعى لخيالنا العنان. ومن هذه المتون ذاتها ننقل نصاً آخر وإن كان تأويله محل خلاف على نطاق واسع. فقد وردت في الفقرة ٤٤٦(**) إشارة إلى «نون ونونت، وأمون وأمونت التي تحمى الآلهة بواسطة ظلها». ويعزز هذا النص إلى حد ما الفرضية القائلة^(٥٢) بأن آمون كان على ما يعتقد إلهاً ينحدر أصلاً من هرموبوليس(***) Hermopolis. وبالفعل كان كهنة هذه المدينة قد صاغوا قصة لاهوتية للخلق مفادها أن ثمانية آلهة يشكلون أربعة أزواج خرجت فوق تل من المحيط الأزلى، وذهبوا إلى أن الآلهة قد خلقت بيضة انبثقت منها الشمس في أول يوم من أيام العالم. كانت هذه الأزواج الأربعة تضم عنصراً ذكراً وعنصراً أنثوياً هو زوج العنصر السابق. وقد أطلق عليها الأسماء الآتية: نون ونونت - الخواء السائل - وحو وحووت - الأبدية الزمنية وأول مقياس للكون الآتى - وكيكو وكيكوت - الظلمات المهيمنة على العالم قبل خلقه - وأمون وأمونت - القوة الإلهية المتوارية في أعماق المياه. وتكمن صعوبة التأويل في أن الجذر إمن(****) يعنى «الخفى». وبالتالي ربما لم يكن المقصود به هنا الإله آمون إنما المبدأ الإلهي الذي مازال كامناً متوارياً في المياه. زد على ذلك أن هذه التصنيفات اللاهوتية قد وصلتنا من خلال نصوص تعود إلى العصر المتأخر. ومن ثم فمن المشكوك فيه أن يكون آمون هو المقصود به في هذه الحالة بعينها.

أكان آمون منذ الأسرة الثالثة إلهاً محلياً فوق أرض الكرنك؟ إن أقدم أثر مؤكد

(*) ظهرت هذه النصوص الجنائزية لأول مرة داخل هرم أوناس (٢٣٨٠-٢٣٥٠ ق.م) آخر ملوك الأسرة الخامسة. (المترجم)

(**) وهى إحدى فقرات المقطع ٣٠١. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى لمدينة «خمنو» المصرية القديمة والأشمونيين حالياً. (المترجم)

(****) النطق المصرى القديم لـ «أمون». وما زلنا نحتفظ بهذه الصيغة القديمة فى أسماء بعض الملوك مثل «أمن حوتب» أى «أمون راض». (المترجم)

عن إقامة معبد كُرس له في هذه الأماكن جاء من نص منقوش على لوحة سابقة على عهد أنتف الثاني، جادت بها منطقة القرنة في البر الغربي لمدينة طيبة. ويشير هذا النص إلى «معبد (للإله) آمون»، دون أى توضيح^(٥٤). إن النواة الأولى لمعبد الكرنك الكبير وقد أصابها تدمير بالغ تعود إلى عهد سنوسرت الأول. وكانت مشيدة بالكامل من الحجر الجيري، استخدمت بعد ذلك كتلها لتغذية آفران الجير، مع مطلع القرن الخامس الميلادي. وأبقى الدهر على عتبات أبواب من الجرانيت. الأمر الذي يحملنا على تصور وجود ثلاث قاعات متعاقبة تفضى إلى قدس الأقداس. ويوحى العثور على أجزاء صغيرة من أساطين متعددة الأضلاع بوجود رواق ذى أساطين. ومنذ الآن فصاعداً سيحمل معبد آمون بالكرنك اسم إبيت سوت - أى «المكان المختار» ليحتفظ به على امتداد التاريخ.

لا شك أن آمون كان في الأصل إلهاً للسماء. فقد لونت بشرته في الغالب باللون الأزرق. وعندما يصور في هيئة آدمية، فإن غطاء رأسه المعتاد هو عبارة عن قاعدة تاج تعلوها قادمة^(*) صقر كبيرتان تعبيراً عن ارتباطه بالأسطورة الحورية^(**) للآلهة السماوية. إنه إله الريح والنسيم. وسوف يظل محتفظاً بهذه الصفة المميزة لفترة طويلة. وفي عهد رعمسيس الثالث بعد انقضاء ما يقرب من ألف سنة كان لا يزال النسمة التي تدعّم قرص الشمس: «فيرفع القرص بفضل نسمة». إنه الريح المواتية من أجل الجميع: وفي صلاة إلى إله طيبة من عصر رعمسيس الثالث أيضاً ورد فيها: «إن أعضاءك هي النسومات من أجل كل أنف^(٥٥)».

ولأسباب مختلفة انضمت إلى هذا الإله الأول شخصيات إلهية أخرى وعلى رأسها الإله رع. ويبدو أن اندماج آمون-رع قد حدث منذ الأسرة السادسة. إن تمثالاً صغيراً فقد رأسه ويحتفظ بخرطوش پيى الأول وكان ضمن مجموعة شستر Chester، ويصور الملك راعاً، كان يضم دعامة ظهر رأسية نقش عليها سطر رأسى من العلامات الهيروغليفية: «ملك مصر العليا ومصر السفلى: مري رع. ابن رع: پيى».

(*) القادمة هي إحدى الريشات في مقدّم الجناح. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(**) نسبة إلى الإله حورس. (المترجم)

محبوب **أمون-رع**، رب طيبة^(٥٦)». وقبل وقت قصير وبينما كان فرانسوا دوما François Daumas يقوم بأعمال الحفر والتنقيب في معبد دندرة عثر على تماثيل شعائرية قديمة، مقدمة من **بيبي الأول** ذاته إلى آلهة مصر العليا. ومن بينها كان تمثال صغير مكرساً للإله **أمون-رع** القائم في طيبة^(٥٧). إن الشعائر المقامة من أجل هذا الإله المركب الذي ستتعاظم إلى حد كبير هالة التمجيد التي تحيط به، قد شهدت طفرة ملحوظة في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة بدءاً من أمنمحات^(*). بل إن اسمه ذاته هو عبارة عن تمجيد لإله الكرنك، فمعناه «**أمون هو الأول (أو في المقدمة)**». ومن المؤكد أن أمراء المدينة أرادوا أن يُظَلِّهم الإله المحلي ويعيشوا في كنفه وحمايته، وهو ما فعله نعرمر^(٥٨) في الأزمنة الماضية، وإن سعوا في الوقت ذاته إلى التراضى مع كهنة الإله رع الأقوياء في هليوبوليس. ومن هنا نشأ تركيب الإله **أمون-رع** الذي أسند إلى إلههم المفضل مظهراً شمسياً وكونياً، كان لابد أن يستهويهم ويعزز في الوقت نفسه رؤاهم السياسية. وفي الواقع كان يُقصد بذلك، في هذا الزمن، التوصل إلى حل وسط بين إلهين. كان رع إلهاً مستقراً، في حين كان يُرجى إعلاء شأن **أمون**. وكان تحقيق هذا الهدف مؤكداً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن سنوسرت الأول – ابن أمنمحات الأول عندما أراد في العام الثالث من حكمه أن يكسب ود كهنة هليوبوليس، دعى إلى اجتماع مجلس في هذه المدينة ليعلن قراره بإقامة معبد الإله حور أختي – «حورس الأفقين» – وهو من أسماء الصقر الشمسي. وتقول المدونة التكريسية:

«لقد أتى بي حور أختي إلى الدنيا لأنفذ ما ينبغي عمله من أجله وتحقيق ما أمر بعمله. لقد هيأني لأكون الراعي^(٥٩) الصالح في هذه البلاد، لأنه يعرف من في وسعه أن يحافظ على النظام. ولذا، فقد منحني ما يشكل بغية إهتمامه الدائم: ما تنيره عينه^(٦٠)، هو الذي صنع كل شيء وفقاً لمشيئته. لقد اختارني لأصبح سيد الأرضين، بينما كنت لا أزال طفلاً أغلف، لم يُختن^(٦١)».

إن إلهاً في مصر، وكائنًا من كان، لا يقصى غيره من الآلهة، ولا يحل محلها، بل تجمعها شراكة حميمة وصولاً إلى فاعلية أكبر. وهكذا أصبح **أمون-رع** الإله الكبير

(*) «أمن إم حات» إذا فضلنا الترجمة الحرفية للعلامات المصرية القديمة. (المترجم)

السيد العلى للملكة. ومع ذلك فإن ترتيب الاسمين يعطى الأولوية لإله الكرنك. إن التركيب الذهني يصاحبه تركيب تشكيلى تشهد عليه الصور المنحوتة على واجهات الأعمدة المربعة التى تحيط بالمقصورة المخصصة لاستراحة المركب المقدس، ويطلق عليها اصطلاحاً «المقصورة البيضاء» بسبب بياض الحجر الجيرى الناصع، والتى شيدها سنوسرت الأول فى الكرنك، وبفضل همة المهندس المعماري الفرنسى هنرى شيفرييه Henri Chevrier أعيد تركيبها(*)؛ حيث إن الكتل التى كانت تتكون منها استخدمت فى أساسات الصرح الثالث من قبل أمنحوتب الثالث فى زمن الأسرة الثامنة عشرة. إن قرص الشمس بدائره الكاملة قائم فوق قاعدة تاج الإله وعند منبت جناحى طائر كبيرين.

إن الدليل على هذه السيادة التى تم إقرارها منذ عهد قريب تبرهن عليها أيضاً الصفة الجديدة التى ينعت بها آمون رع: فيطلق عليها على أعمدة هذه المقصورة ذاتها لقب «نسوت نثرو» أى «ملك الآلهة». وقد صحف الإغريق هذا اللقب إلى آمون راسونثير(**) Amonrasonth. ومن ثم تم الإقرار بسيادته على مجمع الآلهة المصرية. إن سيادة ملكه السماوى والشمسى يسير جنباً إلى جنب مع سيادة ملك فرعون الدنيوى..

كان الكبش أحد الحيوانات التى يتجسد فيها آمون رع فى الغالب على ما يظن، فقد كان حيواناً قوياً كثير الإنجاب، ففوة إخصابه شريكة قوة الشمس، منذ أقدم الأزمنة. إن هذه العملية الروحية نفسها هى التى حملت المصريين إلى النظر إلى الشمس(***) باعتبارها ثوراً. إن الدلالة العميقة التى ترتبط بالآلهة تعود أصلاً فى بعض الأحوال إلى إيجاد علاقة بسيطة بين السمات الطبيعية لعناصر الكون التى تجمعها أوجه شبه ملحوظة. إن كبشاً شمسياً آخر يبعده الكونى هو حريشف- أى

(*) وتوجد حالياً فى المتحف المفتوح القائم شمال الفناء الأول من معبد الكرنك. (المترجم)

(**) يقابله الاسم المصرى القديم «آمون رع نسوت نثرو». (المترجم)

(***) كلمة شمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

«الذى فوق بحيرته» وهى بحيرة مويريس Moeris. وكان حريشف يعبد فى الفيوم بمدينة هرقليوپوليس Hérakléopolis. وقد علا نجمه وصعد فى مدارج المجد إبان الأسرتين التاسعة والعاشرية.

إن شخصية إلهية أخرى قد اندمجت فى شخصية آمون. ففى مدينة كوپتوس Coptos إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة كان يُعبد الإله مين، وهو بعضو ذكر منتصب، ويرتدى رداءً محبوباً^(٦٢) ويرفع يده التى تحمل السوط كما يضع على رأسه قاعدة تاج تعلوها قامتا صقر. إنه «رب البنات» و«الذى يخطف النساء». وعلى التماثيل البدائية لهذا الإله - التى عثر عليها فى هذا الموقع صورت القواقع والأفيال والجبال وكلها مواضيع لا تنم عن طابع مصرى. ولكن كوپتوس تقع عند مصب درب وادى الحمامات الذى يصل النيل بالبحر الأحمر عند مينائى القصير ووادى جاسوس. وربما كان مين فى الأصل إله شيطان البحر الأحمر والصحارى. إنه «سيد البلدان الأجنبية» و«رب اللازورد» الذى تجلبه القوافل من بلاد أفغانستان القصية. ومن المخصصات(*) الإلهية الدالة على اسمه كما وردت فى متون الأهرام فى الفقرة ١٩٢٨(**) المخصص المألوف للصقر القائم فوق محطه ولكن رأس الطائر عَصَبَتْ بعصابة يتدلى طرفيها خلف الرأس وتشبه العصابة التى تربط شعر البدو فى الصحراء. اندمج آمون فى هذا الإله المجاور، وهو إله كثير الإنجاب وسيد البلدان الواقعة خارج مصر. وأصبح آمون-مين ذو العضو الذكر المنتصب، إله معبد الأقصر الواقع على بعد ٢٥٠٠ متر إلى الجنوب من معبد الكرنك. كما تظهر صورته على أعمدة المقصورة البيضاء التى تعتبر نقوشها مختصراً يوجز بتساويرها أهم عناصر مجمع الآلهة القائم آنذاك. فقد صور على هذا الأثر مختلف الآلهة والملك فى عناق، له بعده السحرى تأكيداً على الوحدة التى لا تنقسم للنظام الملكى المصرى والدين.

(*) المخصص déterminatif: علامة مفسرة ليس لها أى دلالة صوتية. ويضاف إلى الكلمة لتحديد مجال دلالتها. لمزيد من التفاصيل راجع: برناديت مونى. المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. الترجمة عن الفرنسية: مامر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٦-٧ وص ٢٣-٢٩. (المترجم)

(**) وهى إحدى فقرات المقطع ٦٦٦. (المترجم)

إن مشاعر التقوى التى كان يكنها ملوك الأسرة الثانية عشرة نحو آمون ترتب عليها ظهور جماعة خاصة هامة من رجال الدين، لم تعزز وجودها وثيقة واحدة سابقة على هذا العهد، فتأسست هذه الجماعة منذ زمن أمنمحات الأول، وكانت تضم: أربعة خدام إلهين للإله آمون سيصبح أولهم كبير كهنة الإله ومن أجله أمر سنوسرت الأول بتشيد منزل إلى الجنوب من البحيرة المقدسة. كما تضم أربعة آباء إلهين وحوالى عشرة كهنة وعب أو «ال كهنة من أصحاب الأيدي الطاهرة» الذين يؤدون مع صبيحة كل يوم الطقوس الدينية المصاحبة لاستفاقة الإله ونهوضه داخل ناووسه^(٦٢). كانوا جميعهم شخصيات رفيعة الشأن: من الأمراء أو حاملى الأختام الملكية ورجال من الثقة يتمتعون بمكانة مرموقة ومن الحاصلين أيضاً على الألقاب الشرفية. ولم ينقض سوى زمن قصير حتى بات هؤلاء الكهنة يلعبون دوراً بارزاً فى تاريخ مصر، بل وصل بهم الأمر إلى حد اغتصاب السلطة بعد مرور ألف سنة عندما أسسوا نظاماً ثيوقراطياً(*) فى الحكم.

هكذا يكشف لنا آمون عن نفسه، بكافة أشكاله ووفقاً لمقوماته الإلهية، مع فجر الفتوحات الإمبراطورية كما كان أيضاً فى حدود مملكة الوادى وفى زمنها. وإذا ظلت أصول إله الكرنك غامضة ومبهمه إلا أنه سيصبح بدءاً من الأسرة الثانية عشرة، الإله الذى يحاط بأكبر قدر من الإجلال والتمجيد مقارنة بسائر أرباب مجمع آلهة مصر.

أوزيريس فى أبيدوس

كما حظيت شخصية إلهية أخرى بقدر كبير من التكريم فى هذا العصر وظلت عبادته الشعبية واسعة الانتشار حتى نهاية تاريخ مصر الفرعونى. فقد كان أوزيريس إله الآلام، فمات ليبعث حياً من جديد ليعلم البشر الطريق إلى الخلود. ولا شك أن أصول هذا الإله تعود إلى الدلتا، وكان الإله رع قد اضطر أن يتراضى معه فى إطار

(*) الثيوقراطية: نظام سياسى يستند إلى التفويض الإلهى، حيث يتولى السلطة رجال الدين أو علماء الدين. كما يجب على السلطة الدنيوية أن تخضع للسلطة الروحية. (المترجم)

تاسوع هليوبوليس^(٦٤). استقر أوزيريس في أبيدوس(*) Abydos إلى الشمال من طيبة وأصبحت مدينته المكان الأثير لإقامة شعائر عبادته بعد أن حل فيها محل «الإله-ابن أوى» الذى ينطوى على مدلول جنائزى، وهو الإله خنتى-إيمنتيو أو «الأول على أهل الغرب». وأصبحت هذه العبارة صفة اقترنت بالإله أوزيريس القوى. إن زرع الإله القادم من شمال البلاد فى أحد مواقع مصر العليا، ربما كان له أيضاً فى ذلك العصر دلالة السياسية: ويبدو أن الأناقة كان لهم عظيم الفضل فى تحويل أبيدوس إلى مدينة أوزيريس المقدسة؛ فهى جبانة ملوك مصر الأوائل ولا تبعد كثيراً عن ثنى العاصمة الأولى لمملكة مصر. وكان الملوك الجدد يعلنون انتسابهم إلى أمجاد الماضى ويتقربون من الأسرات الملكية الشرعية. وبسلوكهم هذا اعتمدوا على الحيوية الجديدة الكامنة فى معتقد له شعبية لا نظير لها.

لقد أمر سنوسرت الأول أن يصور فى معبده الجنائزى باللشت، فى هيئة أوزيريس وهو يرتدى رداءً محبوباً، وتتقاطع يداه على صدره وممسكاً الصولجان والسوط^(**). كان التمثال الكبير المصنوع من الحجر الجيرى يستند إلى أعمدة، إذ كان يستحيل على المصرى القديم أن يتصور الشكل آدمى باعتباره دعامة. فلم تعرف مصر تماثيل الصبايا الحاملة^(***) caryatide أو تماثيل الذكور الحاملة^(***) atlante. فلما كان فى وسع كل شكل آدمى سواء كان نحتاً أو تصويراً أن تعود إليه الحياة بوسائل سحرية، كان من الضرورى ألا يعوق شئ رغبته فى التحرك عند اللزوم فى حرية تامة. إن الموضوع المعمارى الذى نشأ فى هذا الزمن ويصور التمثال الملكى فى هيئة أوزيرية أمام عمود سيصبح موضوعاً دائماً على مرّ الزمان.

ومن الآن سوف تشهد أبيدوس أعياداً مهيبة تقام تكريماً للإله. وإبان هذه الاحتفالات يتم محاكاة حياته وموته وقيامته، بعد أن عادت إليه الحياة، وكانت هذه

(*) الاسم اليونانى لمدينة أبجوس المصرية القديمة ومنطقة العرابة المدفونة حالياً قرب البلينا. (المترجم)

(**) المتحف المصرى بالقاهرة. القاعة ٢٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(***) وهى تماثيل تقوم مقام الأعمدة لدى الإغريق. (المترجم)

الوقائع تعرض عرضاً تمثيلاً أمام الجماهير بواسطة الكهنة أو كبار الشخصيات وقد ارتدوا على ما يظن أقنعة تصور الوجوه الإلهية. لم تعرف مصر الفرعونية بالطبع المسارح بمدرجاتها^(*). ولكن سواد الشعب المتجمهر على شطآن النيل كان يشاهد طلعة الإله على متن قاربه فتتعاقب أمامه المشاهد وتتابع. وفي العام التاسع عشر من عهد سنوسرت الثالث أوفد حامل الأختام الملكى إيخر نوفرت إلى أبيدوس لإخراج مشاهد «الأسرار» الإلهية وتمثيلها. ومن الراجح أنه كان يمثل نور حورس. وقد وصلنا اللوح التذكارى الذى أقامه فى الموقع وهو من مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن.

«لعبت نور «فاتح - الدروب» عندما يتقدم لينتقم لأبيه. وطردت الأعداء من القارب نشمت (قارب أوزيريس المقدس). ودحرت المناوئين (للإله) أوزيريس، ثم لعبت نوراً كبيراً، وصاحبت خطى الإله وسمحت لقاربه بالإبحار، فى حين كان تحوت يوجه الملاحه توجيهاً سليماً.... وعملت على أن يتقدم (أوزيريس) داخل القارب العظيم وأن يحمل هذا الأخير جماله. إنى أدخل السرور على قلب تلال الصحراء الغربية وأوجد الغبطة والتهليل فى تلال الصحراء الشرقية [كانت الجماهير تحتشد إذن عند حافة الأراضى المنزرعة] عندما رأت بهاء القارب نشمت بينما كنت أرسو عند أبيدوس بالقارب الذى يعيد أوزيريس رب المدينة إلى قصره. وتبعت الإله إلى بيته وهيأته للتطهر واللاحق بعرشه^(٦٥)».

جذبت هذه الأعياد جمهوراً واسعاً من الحجاج. والذين تعذر عليهم أداء الحج إلى أبيدوس وهم على قيد الحياة، من المفترض أن يؤدوه بعد وفاتهم، فينتقلون على هذا النحو إلى جوار الإله بعد أن بُعث إلى الحياة، وذلك طلباً لحمايته السحرية قبل أن يقوموا من جانبهم بالرحلة التى ستقودهم إلى العالم الآخر. وفى التوابيت التى تعود إلى الأسرة الحادية عشرة عُثر على مراكب صغيرة من الخشب، الغرض منها مساعدة المتوفى على الوصول إلى أبيدوس. وإذا أمكن، كان يطلب المتوفى أن يدفن فى هذه المدينة. وإذا تعذر الأمر، كان يكتفى بإقامة لوح حجرى، نقشت عليه مدونة

(*) ومن أمثلتها المسرح الرومانى بالإسكندرية. (المترجم)

تلتبس من الإله أن يكون في استقبال المتوفى في العالم الآخر. كانت هذه الألواح تقام حول «سَلَم» أوزيريس إلى جوار المقبرة التي كان يعتقد أن رأس الإله يرقد فيها. وهكذا فقد أحاط الموتى بالإله، كما أحاطوا بالملك وهم على قيد الحياة، فكانوا «كبراء أبيبوس وعظماء».

تطورت شروط الولوج إلى العالم الآخر الأوزيرى لتمتد من الآن لتشمل جميع البشر، ولم تعد تخص الملك وحده دون غيره. كان المتوفى مطالباً بأن يبرر سلوكه في هذه الدنيا أمام المحكمة المشكلة من أوزيريس ومساعديه الإلهيين الاثنين والأربعين. وسوف يوازن بين قلبه وعلامة الحقيقة - العدالة. وتصور هذه العلامة ريشة طائر نعام، كانت تستخدم في اللغة المصرية القديمة لكتابة هذا الاسم. وإذا تعادلت كفتا الميزان سوف يعلن الإنسان ماع خرو أي «صادق القول»، ليندمج في أوزيريس، فيتمتع بالتالي بمختلف أطوار صيرورته الأبدية. إن معرفة التعاويذ الفعالة سوف توضع تحت تصرفه لصالحه ولفائدته من خلال أسفار يستخدمها كدليل ومرشد في العالم الآخر. إنها عبارة عن مصنفات رسمت نصوصها بالألوان على جوانب توابيت الأفراد المصنوعة من الخشب(*) والتي اشتقت تعبيراتها وتأثرت أيديولوجيتها بأمثالها في متون الأهرام. فبالى مختلف أطوار الصيرورة الأوزيرية تضاف مختلف أطوار الصيرورة الشمسية، في إنطلاقة عظيمة للحرية اللانهائية:

«أيا أوزيريس «الفلانى»^(٦٦)، لقد حضرت وبعد أن رُبط السَلَم من أجلك، صعدت إلى السماء إلى جوار رع، وسط الآلهة.

لقد انقشع ندى النهر، أيا أوزيريس «الفلانى» إنك تسير على قدميك، إنك لا تسير رأساً على عقب. إنك تصعد إلى باطن الأرض وليس نحو فكى الجدران. لقد هدمت الجدران من أجلك. الجدران التي كانت تحيط بقبرك والتي كان آلهة مدينتك قد شيدتها من أجلك.

(*) يمكن مشاهدة بعض نماذجها في المتحف المصرى بالقاهرة: الطابق الأول.
القاعة: ٢٧. (المترجم)

أنت طاهر، أنت طاهر تماماً كما يحيا وع. أنت طاهر، أنت طاهر، إن وجهك طاهر، إن ظهرك طاهر، إن مكانك طاهر، بفضل النطرون والبخور... كلمات قالها «فلان»: لقد حضرت، وینفتح العالم الآخر السفلى، وأستطيع أن أتأمل أبى أوزيريس القصى. لأننى ابن لأبى الإلهى وحضرت لأحمى أوزيريس من ست (يندمج الإنسان فى حورس). ومن الآن فإن الدروب التى فى الأرض والدروب التى فى السماء والدروب التى فى العالم الآخر السفلى - تنفتح من أجلى. إنى أنفذ فى الأفق، إنى أعرف الطريق؛ لأننى متوفٍ ممجد^(٦٧)».

هكذا حصل الإنسان من الآن على حقه فى الخلود كفرد.

پتاح فى منف

كما أن إلهاً آخر وهو پتاح ظل محتفظاً بأهميته فى عاصمته منف الضاربة فى القدم. ولا شك أن تدمير معبده كان وراء النذرة النسبية لصوره قبل الأسرة الثانية عشرة. ولكن وُجد مصوراً على قصعة تعود إلى الأسرة الأولى، عثر عليها فى طرخان على بعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة وتلتزم هيئته بالأسلوب الذى سيحتفظ به فيما بعد، التقليد المتواتر. فيظهر واقفاً حليق الرأس وقد تدثر برداء محبوبك والأشرطة تغطى ظهره وتبرز يداه من خلال ثوبه اللاصق ويمسك بصولجان «واس» وقد صور داخل مقصورة مفتوحة. كما تظهر هذه الصورة ذاتها على حجر بالرمو(*) ونشاهد «وجهه الجميل» أيضاً على أعمدة المقصورة البيضاء فى الكرنك، وتكتفى هذه الصورة بتوضيح حدود قامته المشوقة. كان إله المملكة على امتداد ستة قرون واحتفظت طقوسه الدينية بمكانتها المرموقة. فقد كان إذا صح التعبير، ثالث إله وطنى. فبصفته إلهاً خالقاً، فقد تصور العالم فى قلبه، ثم أعطاه أبعاداً مادية بفضل كلمات فمه، وفقاً لعملية تكوين ذات بعد ذهنى محض. ولما كان إلهاً ملكاً فمن المعتقد

(*) ويعود إلى الأسرة السادسة. (المترجم)

أنه أول من حكم العالم، إستناداً إلى الرواية الخرافية التي سجلها مانتون(*)، ووصلتنا عن طريق يوسابيوس(**) وسينكلوس(***)، واعتماداً أيضاً على قائمة الأسرار الإلهية - وكانت أولى من حكمت مصر وقد وصلتنا عن طريق بردية يحتفظ بها في الوقت الراهن متحف تورينو، في إيطاليا. وبصفته إلهاً خالقاً؛ فهو راعي الصواغ والنحاتين وحاميتهم. وكان كبير كهنة پتاح يحمل لقباً شديد التفرد: «الكبير، رئيس جميع الحرفيين». وبصفته علماً فهو «مالك الحقيقة - العدالة». واعتباراً من الأسرة الثانية عشرة يوسف، أيضاً بأنه «سيد السماء»، عملاً بتصور يُصَبغ على سماته بعداً أكثر عالمية. وفي مانتون التوابيت فإنه يحمى المتوفى في مقبرته كما يشارك في مصائره الجنائزية. وهكذا ظهر الشكل الإلهي الثلاثي الأطراف: پتاح - سوكر - أوزيريس. إن سوكر الذي يصور في هيئة صقر مدثر في رداء محبوب هو إله الموتى ويعود إلى أزمنة موعلة في القدم، ويعبد في جبانة منف المسماة رو - سيتاو أي «مدخل المغارات» التي يصادفها المتوفى في العالم السفلي والملاذ الأخير للأموات الذين لم يبعثوا إلى الحياة من جديد. وفي هذا العالم كان من الضروري أيضاً التحالف مع إله أبيدوس القوى، وعلى تابوت جادت به بلدة البرشا(****) صور پتاح - سوكر عند قيادهم قارب المتوفى لمصاحبة هذا الأخير في رحلته الليلية على صفحة النيل الأسفل، بغية إبعاد المخاطر التي يصادفها أثناء رحلة العبور. إن پتاح هو الإله الذي يسهر على التوازن العادل على سطح الأرض، كما أنه يقوم من الآن بحماية المصائر الأبدية للإنسان.

بل ومنذ مطلع الأسرة الثانية عشرة بدأت تظهر الخطوط العريضة للنزعة التليفقية التي ستسود فيما بعد في عصر الرعامسة، وبعد انقضاء ثمانية قرون، مع

(*) الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وضاع مؤلفه عن تاريخ مصر. (المترجم)

(**) وقد عاش في القرن الرابع الميلادي. (المترجم)

(***) وهو الراهب جورجيس المسمى سينكلوس، وقد وضع كتابه عن تاريخ العالم حوالي عام ٨٠٠م. (المترجم)

(****) بمحافظة المنيا وتسمى أحياناً دير البرشا، وتقع على الضفة الشرقية من النيل أمام ملوى تقريباً. (المترجم)

ظهور ثالوث مقدس يجمع فى كيان إلهى واحد ذى وجوه ثلاثة تمثل أمون ودع
وبتاح^(٦٨).

وإذا كانت ثلاثة كيانات إلهية، سواء كانت آلهة رسمية أو شعبية قد أخذ نجمها
يعلو على ما يبدو، داخل مجمع الآلهة، فقد استمرت العبادات المحلية تزدهر بطبيعة
الحال فى بلداتها الأصلية. وظل الوعي الدينى فى مصر يمارس حرسته عند اختيار
إلهه الأثير باختلاف الزمان والمكان. فكان تعدد الآلهة يوفر حماية سحرية أكثر
فاعلية.

الآداب والفنون

وأخيراً يشهد تطور الآداب والفنون، فى حقيقة الأمر، على أن الحضارة
المصرية خلال ثانى عصور ازدهارها على امتداد تاريخها، كانت قد استعادت توازنها
وعظمتها الروحية وانعقد لها لواء السيطرة على الأساليب الفنية.

كان تطور الأدب واضحاً منذ نهاية الأسرة السادسة؛ ففي هذا العصر كان
المصريون قد تعلموا بالفعل كيفية معالجة نبات البردى الذى كان منتشراً بغزارة
ووفرة على ضفاف نهر النيل ليصنعوا منه ركيزة جديدة وخفيفة للكتابة بعد أن كانت
علامتها تنقش على الحجر. فالتعامل مع ورق البردى والرسم عليه بواسطة فرشاة من
البوص بعد غمسها فى المداد الأحمر أو الأسود، كان أسهل بكثير من الحفر بواسطة
سكين من الظران على الجرانيت أو الحجر الرملى أو الحجر الجيرى. كما أن استخدام
هذه الركيزة الجديدة كان حدثاً سعيداً بالنسبة لنا؛ وبالفعل فقد كان فى وسع الكتبة
المبتدئين فى مدارس الحياة^(٦٩) أن يعيدوا من الآن نسخ أشهر النصوص الأدبية التى
أدرك المصريون قيمتها أكثر من غيرها أو لاقت نجاحاً شعبياً واسعاً، وإعادة نسخها
مراراً وتكراراً. وهكذا وصلتنا عدة نسخ من القصة نفسها أو من مسارد الحكم
نفسها، إلا أن كل نسخة من هذه النسخ تضم بطبيعة الحال عدداً من الثغرات، فوراق
البردى مصنوع من مادة خفيفة ولكنها معرضة للتلف، ومن ثم فمن النادر أن تصلنا

فى حالة جيدة من الحفظ كما أن فرد لفائفها فى الوقت الراهن يسبب لنا مشاكل خطيرة. ولكن بفضل هذه النسخ المتعددة ولأن الثغرات ليست واحدة دائماً فى مختلف النسخ ففى وسعنا أحياناً أن نعيد صياغة النص بالكامل.

فى ذلك العصر كانت اللغة المصرية قد اكتسبت أقصى درجات التناسق والتناغم؛ فقد ازدادت مفردات اللغة واستقرت تركيباتها النحوية وتحددت قواعدها الأساسية.

إن سعة خيال المصريين وحسّهم المرفه وولعهم بالكلمات والصور جعلت منهم قصاصين موهوبين. إن هذا الجنس الأدبى بكل معنى الكلمة قد شهد ازدهاراً منقطع النظير فى زمن الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وسينتشر حتى نهاية تاريخ مصر القديمة. إنها حكايات شعبية وروايات تروى خوارق الأحداث وقصص مغامرات وحكايات أسطورية. ويشكل كل هذا الإنتاج الأدبى «مكتبة» ضخمة تتداخل فيها مصائر الآلهة والملوك والبشر.

إن قصة الفلاح الفصيح(*) المعروفة من خلال أربع برديات هى من أقدم هذه النصوص. إنها حكاية فلاح من واحة الملح - وادى النطرون حالياً - كان يمتلك قطعة أرض صغيرة يقوم بزراعتها. ورحل ذات يوم مع حميره متجهاً إلى المدينة المجاورة ليبيع محصول حقله وحصيلة رحلات صيده البرى. وفى الطريق هاجمه لص مسلح واستدرجه إلى مشجرة غير متكافئة واستولى على حميره وما فى حوزته من خيرات. وذهب خو-إن-أنپو(**) - وهو اسم الفلاح - ليرفع شكواه إلى كبير الحجاب ونسى. وإذا أعجب هذا الأخير بطلاقة لسانه، تحدّث إلى الملك (خيتى الثالث) عن هذا

(*) نشرت ترجمة عربية كاملة لهذه القصة. راجع: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم: كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٦. ص ٢٧٧-٢٨٩. كما قام المخرج العبقرى شادى عبدالسلام بتحويل هذه القصة إلى فيلم قصير مدته ١٩ دقيقة. ويوزعه حالياً صندوق التنمية الثقافية على شريط فيديو. (المترجم)

(**) ومعناه «ليت» «أنپو» (أنوبيس) يحميه». (المترجم)

الموضوع، ثم تركه يتقدم بتسع شكاوى وجد الملك متعة كبيرة فى قراءتها مراراً وتكراراً ليروح عن نفسه، وبطبيعة الحال فسوف يتم إنصافه فى نهاية المطاف، إنها قصة هادفة، تريد إبراز قيمة الخطابات التسعة التى تشهد على أن المصرى كان شديد الولع بالكلمة والأحاديث التى لا تنتهى، وهى سمة فطرية يتحلى بها المصريون وسوف يحتفظون بها على امتداد تاريخهم(*)، إن هذا الإهتمام المتعاضم باللفظ وإن على حساب المعنى يظهر بكل وضوح فى عبارات المديح والتقريظ النفعية التى يعلنها الفلاح الفصيح فى دفاعه عن قضيته:

«أيا كبير الحجاب، يا سيدى، يا أعظم العظماء، يا مرشد ما هو غير موجود وما هو موجود. إذا هبطت إلى بحيرة العدالة لا ريب أنك ستبحر فيها مع الريح المواتية. ولن يُقتل شرا عك ولن تتقدم ببطء، ولن تتحطم عوارض سوارى سفينتك ولن تجرفك المياه ولن تعانى من مشاق النهر ولن تشاهد وجوهاً مرعوبةً. ومع ذلك سوف تتجه الأسماك إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة. فأنت أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ومُنذر لمن فقد أمه... أقم العدالة أيها الرجل المدوح الذى يمتدحه الذين يمدحون...».

كما يظهر هذا الإهتمام فيما يديه الفلاح المغلوب على أمره من لوم وعتاب:

«أنظر أنت أشبه بمدينة بلا حاكم وفرقة بلا قائد وسفينة بلا ربان وجماعة من البشر بلا مرشد. أنظر أنت أشبه بشرطى يسرق وحاكم يسلب...»

كان المصرى يترجم ما يجيش فى صدره إلى صور حسية قد ينقلها عن لغة المراكبية. ونقدم على سبيل المثال صورة الأسى كما كان يُطلق له العنان:

«كان جسدى ملأناً وقلبى ثقيلاً، فخرج ذلك من جسدى بسبب ما كان عليه من أحوال. وانفرج فاهى للحديث، وكأن صدعاً أصاب سدّاً فتسربت منه المياه. عندئذ

(*) وحتى الوقت الراهن. (المترجم)

حرّكت العُقَافَة(*) وافرغت مائى وطردت كل ما كان فى جسدى وغسلت ثيابى القذرة.
والآن توقفت عن الكلام لأن همومى بكاملها أمام وجهك».

كما تعتبر هذه القصة موحية إلى حدّ كبير بالنظر إلى أن كبرى النصوص الأدبية كانت معروفة على نطاق واسع من سواد الشعب. إنها تلهم بوضوح بعض مقاطع الشكاوى. وملتقى فيها بقدر من ذكريات الماضى المنقولة عن الأناشيد الملكية:

«يا كبير الحجاب أيا سيدى، أنت رع سيد السماء مع من يحيطون بك. أنت قوت البشر أجمعين، أنت المياه الهادرة، أنت إله النيل الذى يعيد الإخضرار إلى المروج ويخصّب الحقول المحروثة».

وإذا كان الأدب التعليمى قد طبع هذه القصة الشعبية بطابعه، فإن حكمة نابغة مباشرة من الشعب قد أضافت إليه لمسة شديدة الإنسانية:

«من فى حوزته الأملاك عليه أن يكون حليماً. السرقة أمر طبيعى لمن لا يملك. شيئاً» - «لأن أملاك الفقير هى كنسمة الحياة بالنسبة له. ومن يسلبها منه يطبق على أنفه(٧٠)».

تعتبر مغامرات سنوهى(**) أقدم قصص المغامرات وأكثرها شعبية بلا أدنى شك فى نظر المصريين، إذا أخذنا بعين الإعتبار عدد المخطوطات التى وصلت إلينا سواء دونت على أوراق البردى أو الأومستراكا(***)، وتعود إلى الفترة الممتدة من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة العشرين. تبدأ القصة بوفاة الملك أمن إم حات الأول. فيسافر موفدو البلاط الملكى إلى ليبيا لإحضار ولى العهد سنوسرت الذى كان يخوض هناك معارك طاحنة، ولكن سنوهى الذى تصادف وجوده فى هذا المكان ظنّ أنه اكتشف مؤامرة لصالح ابن ملكى آخر. وفجأة وقع فى نفسه الخوف فلاذ بالفرار.

(*) وتد طرفه معقوف. (المترجم)

(**) وليس «سنوحى» كما يكتب أحيانا. وأصله المصرى القديم «سانهت» أى «ابن الجميزة». (المترجم)

(***) اسم جمع ومفرده أوستراكون ويعنى اللخاف أو الشقف. (المترجم)

واجتاز الدلتا وعبر النيل ووصل إلى الجبل الأحمر على مقربة من هليوبوليس ثم اتجه شمالاً. وإذ أعياه الظمأ وهو في الصحراء، أنقذه البدو الرحل، وواصل سيره أيضاً في اتجاه الشمال حتى مدينة بيبلوس ثم اتجه إلى الريتنو^(٧١). وهناك استقبله أحد المشايخ وزوجه ابنته البكر ووهبه قطعة أرض ثم سلمه قيادة جيشه. وذات يوم دعاه بطل المصارعة في الريتنو إلى القتال، ونازله في معركة فريدة واستطاع أن يتصدى لهجمات الرجل القوى وتمكن في آخر المطاف من قتله بعد أن سدّد إليه سهماً من سهامه، وسط تهليل الآسيويين الذين تجمعوا منذ الفجر في مكان المعركة. وهكذا عاش سنوات طويلة و«أصبح آسيوياً». وبعد أن شبّ أولاده وكبروا صاروا بدورهم زعماء قبائل.. حتى جاء اليوم الذي أخذ الحنين إلى وطنه مصر يعتصر قلب سنوهي بعد أن تقدمت به السن. عندئذ طالبه مرسوم صادر من سنوسرت الأول بالعودة إلى البلاط الملكي. وحلّ سنوهي بمصر والدنيا لا تكاد تسعه من الفرح. واستقبله فرعون والملكة والأولاد الملكيون استقبالاً حاراً مهيباً. وشرع يعدّ هرمة في أراضيه الجديدة وانتظر أن توافيه المنية.

تُرى من كان سنوهي؟ لا شك أنه كان شخصية حقيقية في واقع الأمر، وأخذ القصّاص يضيف ما يحلوه إلى حياة هذا الشخص. وماذا إذن عن هذا الهروب وهذه الإقامة الطويلة في بلد أجنبي؟ أكان سنوهي إنساناً ميالاً إلى الخوف أم مجرد شخص اختار المنفى طوعاً وإيرادته؟ أم كان بالأحرى موفداً غير رسمي من قبل ملك مصر إلى البلدان الآسيوية فكان أشبه بالعميل السري. إنه افتراض على قدر من المعقولة في هذا العصر الذي بدأ الشرق الأدنى يتأثر بتقلبات سياسية خطيرة، وهو ما قد يفسره الإستقبال الودّي الذي حظى به سنوهي عند عودته. إن فقرة منازلته الرجل القوى في الريتنو تذكرنا بتقدم داوود لمبارزة جوليات^(*).

والقصة مكتوبة في لغة كلاسيكية آية في الجمال وصورها موحية إلى حد كبير.

(*) راجع سفر صموئيل الأول من العهد القديم من الكتاب المقدس: الإصحاح: ١٧. (المترجم)

أما الغريق فهي قصة أسطورية بحتة. إن مخطوطاً دون على ورق البردى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة يحتفظ بنصها الكامل.

كانت سفينة مصرية تشق عُبَاب البحر الأحمر عندما هبت عاصفة هوجاء فأغرقت السفينة بما عليها. وتمكّن شخص واحد أن يتعلق بقطعة خشب - ربما كانت جزءاً من سارية السفينة - واستطاع أن يصل بمفرده إلى شاطئ جزيرة نباتها وفير وغزير، إنها جزيرة الكا^(٧٢). وبعد أن نام لمدة ثلاثة أيام، وعندما استكشف موارد الجزيرة وأكل حتى شبع سمع فجأة هزيم رعدٍ، في حين كان يتقدم نحوه ثعبان ضخم: «كان طوله ثلاثين ذراعاً - أى أكثر من ستة عشر متراً - وطول لحيته أكثر من ذراعين وجسده مصفح برقائيق من الذهب وحاجباه من اللازورد الحقيقي». إن الذهب واللازورد من سمات الرمزية الشمسية والحية إحدى «شارات» الآلهة والملوك. ومن ثم حمله الحيوان الإلهي إلى جحره. وروى الغريق على مسامعه سلسلة مغامراته. وطمأنه الثعبان وأخبره بكلمات تنبئية قانلاً: سوف تصل سفينة بعد أربعة أشهر لتعود به. ثم قص عليه ما أَلَم به من نوائب: إن عائلته التي كانت تضم خمسة وسبعين ثعباناً قد احترقت من جراء نجم سقط من السماء. وأصبح الناجى الوحيد من هذه المحرقة. ووعد الرجل بإرسال هدايا نفيسة بمجرد عودته إلى مصر، وهو ما حدث على النحو الذى تكهن به الحيوان الإلهي.

وبطبيعة الحال يوفر لنا هذا النص أوجه شبه قاطعة مع غيره من النصوص اللاحقة. فلا يفوتنا أن نذكر ملحمة الأوديسة^(*) وغرق أوليسسيوس ووصوله عند شعب الفياكيس^(**). كما لا بد أن نذكر أيضاً رحلات السندباد البحري، ولكن الدلالة الأسطورية لهذه القصة أكثر عمقاً. إن العبرة التى يمكن استخلاصها منها تقربها

(*) ملحمة يونانية تنسب إلى هوميروس وتروى مغامرات أوليسسيوس. (المترجم)

(**) شعب خرافى كان يسكن جزيرة كورفو اليونانية الحالية (كيركيरा) الواقعة شمال غرب اليونان. (المترجم)

أكثر على ما يبدو إلى ملحمة جلجاميش(*) البطل السومري ثم البابلي. إن مواضعها الرئيسية تقترب أيضاً من كبرى المواضيع الأسطورية الثابتة لفكر البحر المتوسط بصفة عامة ومن بعض المواضيع الإفريقية الثابتة. فعندنا، بادئ ذي بدء موضوع الجزيرة: إنها مكان بعيد عن البشر وموقع محمى يعيش فيه إله أو كائن متميز نجى بمفرده من كارثة دمرت كل شيء. إنها جزيرة الحكيم أوتانافيستين(**) الناجى الوحيد من الطوفان مثل نوح(***)، ولما كانت الجزيرة «عنصراً إضافياً» إلهياً مؤقتاً فسوف تختفى بعد رحيل جلجاميش مثل جزيرة الكا أو جزيرة شيريا. أما موضوع نبات الحياة فهو الهدف الذى يسعى إليه جلجاميش عند أوتانافيستين. كما أن جزيرة الكا تزخر بالبخور وهو النبات «الذى يضيف صفة إلهية» (وهو اسمه فى اللغة المصرية القديمة). أما موضوع الثعبان فإنه يرمز عند القدماء والأفارقة على حد سواء، إلى الحياة الأبدية والخلود. فيبدو كما لو أن الحيوان يولد من جديد مع كل مرة ينسلخ جلده ويغيره. وفى باطن تربة الأرض يتغذى على عصارة النباتات التى يتجدد نموها على الدوام ومن ثم يتقاسم طبيعتها. ويظل ثعبان جزيرة الكا ملتزماً بهذا الدور لأن «البخور فى حوزته». أما الشخص الذى يلتقى به جلجاميش فسوف يبتلع نبات الحياة.

إن قصة الغريق المكتوبة فى لغة كلاسيكية رصينة رشيقة العبارة هى نص أدبى جدير بالاهتمام. وربما كانت فى الأصل قصة منتشرة فى أوساط بحارة شواطئ

(*) عن عرض وترجمة كاملة للمحمة جلجاميش راجع: د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء السادس: العراق وفارس. ص ص ٢١٦-٢٦٤. ولا سيما الصفحات من ٢٤٧ إلى ٢٥٩ الخاصة بالطوفان. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٧. وأيضاً د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم ص ص ٤٧٥-٤٨٢، وهى مخصصة لعرض قصة جلجاميش والطوفان. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٤. (المترجم)

(**) من أبطال أسطورة جلجاميش. وكان الوحيد الذى نجا من الطوفان. وقد منحته الآلهة الخلود. كما أحاطه جلجاميش علماً بوجود النبات الذى يمنح الخلود. (المترجم)

(***) راجع قصة نوح كما وردت فى العهد القديم من الكتاب المقدس: سفر التكوين: الإصحاحات: ٦ و ٧ و ٨. (المترجم)

البحر الأحمر الذين تربطهم علاقات وثيقة بأنباء بلاد ما بين النهرين القادمين فى هيئة قوافل والتي نلتقى بمواضيعهم الثابتة فى الآداب الكلاسيكية لحوض البحر المتوسط بالإضافة إلى بعض القصاصيين العرب المقيمين أيضاً عند شواطئ البحر الأحمر.

ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تطورت روحانية مصر وانتشرت. كان موقع مصر يضعها عند ملتقى طرق أفريقيا وآسيا والبحر المتوسط، فصارت البوتقة التي ينصهر فيها فكر العالم القديم. والشاهد على ذلك الإنتاج الأدبى الذى أبدعه هذا العصر.

يشهد تجديد الفن وأشكاله على الأهمية التي اكتسبتها منطقة طيبة؛ فقد خرج الأناثفة(*) على تقاليد منف المتواترة وأقاموا جبانتهم على الشاطئ الغربى من نهر النيل على مقربة من الشيخ عبدالقرنة وفى منطقة الطارف(**) تحديداً. وقد عثر فى هذا الموقع على البقايا الشديدة التدمير لمقبرتي أنثف الأول وأنثف الثانى المحفورتين فى صخر الجبل.

إن التصور الذى وجه تصميم مجموعة مونتوحتب الثانى الجنائزية فى الدير البحرى كان يوحى بالعظمة والشموخ. وأقيمت هذه المجموعة عند الطرف الجنوبى من الدارة الصخرية التى تشكل جرف الصحراء الغربية، وعند إحدى تفرعات الجبل الغربى الرئيسى^(٧٣). لقد أملت طبيعة الموقع إلى حد ما شكل هذا المعلم الأثرى، ومن المعبد الأدنى قرب الوادى يمتد طريق لمسافة كيلومتر واحد صاعداً فى اتجاه الغرب يكتنفه جداران. إن هذا الطريق الفخم المحفور فى الرمال الوردية يشكل مدخل المجموعة الجنائزية. ويفضى إلى ساحة فسيحة زرعت بأشجار الجميز فى صفوف منتظمة. لقد غرست الأشجار على جانبى طريق صاعد يتجه من الشرق إلى الغرب، ويتفق مع محور المعبد وينتهى عند شرفتين تلى إحداهما الأخرى وتعلوها. إن أربع

(*) وهم ملوك النصف الأول من الأسرة الحادية عشرة. (المترجم)

(**) وتقع إلى الشمال من بداية الطريق المؤدى إلى وادى الملوك. (المترجم)

شجرات تصطف على جانبي الطريق وتظل كل واحدة منها تمثالاً شامخاً من الحجر الرملي يصور الملك. ثم تأتي أربعة صفوف متتالية من الأشجار في الاتجاه الشمالي الجنوبي. وتكتمل على هذا النحو العلاقة السحرية الأوزيرية التي يقيمها الملك مع قوى التجديد والإحياء في عالم النبات. وعند الطرف الغربي من الساحة شيدت صفة تتكون من صفين من الأعمدة المربعة من الحجر الرملي تحمل الشرفة الأولى، وكانت تلتف حول كتلة الشرفة العليا التي أقيم في وسطها هرم الملك. كان يحيط بهذه الشرفة من جوانبها الثلاثة الجنوبي والشرقي والشمالي ممر يتكون من صفين من الأعمدة السداسية المضلاع. وبالإضافة إلى هذه المجموعة المعمارية التي يعلوها الهرم أقيمت عناصر أخرى مبنية أو محفورة في صخر الجبل. ومن ناحية أخرى ووسط فناء الأشجار الفسيح وإلى الشمال قليلاً من المحور الطولي، كانت حفرة عميقة تشير إلى مدخل ممر طويل يخترق الأرض بزاوية مائلة ليصل على بعد مائة وخمسين متراً إلى حجرة دفن فسيحة إلى حد ما، تقع على وجه الدقة، على خط عمودي أسفل الهرم وتضم مقبرة مونتوحتب الثاني التذكارية. كان كارتر Carter الذي باشر أعمال التنقيب في الموقع عام ١٩٠١ قد عثر في هذه الحجرة على تمثال جالس للملك مرتدياً ملابس أعياد اليوبيل بالإضافة إلى بعض عناصر المتاع الجنائزي. ومن ناحية أخرى، وإلى الغرب خلف الهرم أقيم فناء برواق بأعمدة وعند مستوى الشرفة الأولى التي يتصل بها. ومن هذا الفناء ينحدر ممر طويل مخترقاً صخر الجبل ليصل إلى حجرة الدفن التي لم يعثر فيها سوى على التابوت الحجري للملك. كما أن الفناء نفسه كان يقوم مقام الردهة التي تفضى إلى بهو أساطين كان يشغل مؤخرة المعبد ناحية الغرب وقد اندمج في تجويف طبيعي في الجبل. إن مقصورة جنازية مقامة في الجانب الغربي من هذا البهو كانت تظل كوة محفورة في الصخر تضم تمثالاً للملك.

وإن ظلت هذه المجموعة المعمارية من حيث تصورها قريبة نسبياً من أسلوب الدفن الذي أخذ به ملوك الأسرات السابقة من حيث اندماج الهرم والمعبد في مجموعة واحدة، إلا أنه في وسعنا ملاحظة بعض إرهاصات العناصر المعمارية التي ستسود إبان الأسرة الثامنة عشرة. فبدلاً من وجود حجرة الدفن داخل الهرم أو أسفله نلاحظ أنها نقلت في طرف سرداب طويل حفر في صخر الجبل. ولكن تقلصت ضخامة الهرم

إلى حدٍ كبير. وإن ظلت دلالاته الرمزية قائمة بما يتفق مع الأشكال الجديدة التي فرضتها طبيعة الموقع الجديد فى طيبة من ناحية والتطور المتنامى للرمزية الأوزيرية من ناحية أخرى.

إن المقبرة الملكية مركز جبانة شاسعة. فقد دُفن داخل أسوارها بعض الأميرات والمقربين من الملك. لقد تم الكشف عن ثمانية وعشرين قبراً. إن كبراء البلد وأعيانه قد أمروا بحفر مقابرهم الصخرية فى الجانب الشمالى من دارة الجبل أو على المنحدرات الواقعة بين المعبد الجنائزى والجبل. وهو ما فعله على سبيل المثال الوزير إيبى وحامل الأختام خيتى، ولكن اختفى العديد من هذه المقابر من جراء أعمال التشييد التى نفذتها الملكة حتشپسوت. إن هذا المعلم الصرحى هو السلف الذى سبق المعبد الذى ستأمر الملكة الطموحة بتشبيده شمال هذا المعبد بعد انقضاء خمسة قرون، وربما كان النموذج الذى سعت إلى محاكاته.

أما خلفاء المئاتحة وهم ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد تخلوا عن جبانة طيبة بعد أن وقع اختيارهم على الفيوم لتقام فيها عاصمتهم وعادوا إلى الشكل الهرمى البحت المتلائم مع التقليد القديم المتواتر. وفى مدينة اللشت تحديداً عند حدود الفيوم الشمالية عثر على هرمين يشبه ترتيب مختلف عناصرهما الأهرامات التى شيدت فى منف فى الماضى. كان هرم أمنمحات الأول يقع فى الشمال. أما هرم ابنه سنوسرت الأول فى الجنوب. كان ارتفاع هذا الأخير ٦١ متراً وطول ضلعه ١٠٦ أمتار ويبلغ إنحناء واجهاته ٤٩ درجة. كان بنيانه الداخلى من الكتل الحجرية غير المستوية ومرتببة فى طبقات تمتد من المركز فى اتجاه الزوايا ووسط الواجهات. والكسوة التى ما زالت مرئية فى المدامك الأدنى كانت تتكون من حجر جبرى صقله العمال بعناية فائقة. إن الممر الهابط الذى يصل إلى حجرة الدفن المحفورة أسفل الهرم، يخترق الأرض بدءاً من المدامك الأول للواجهة الشمالية. كان الممر مغطى فى بدايته بالحجر الجبرى ثم بالجرانيت والهرم محاطاً بسورين: فيضم السور الكبير مدخلاً ضخماً يتوسط واجهته الشرقية أى قرب المعبد الجنائزى. ومن هذا المدخل يبدأ ممشى كبير يحفه جداران وصفان من التماثيل الملكية الأوزيرية^(٧٤). إن الأشكال الجديدة لعمارة مونتوحتب الثانى قد أثرت بكل تأكيد، على تنسيق عناصر هذه المجموعة.

وفى اللاهون عند مدخل بحر يوسف شيد سنوسرت الثانى هرمه. وقد عثر فى حجرة الدفن على تابوت من الجرانيت هو آية فى الجمال. وفى حجرات الدفن المتاخمة والخاصة بالأميرات، خرجت إلى النور مجموعة رائعة من الحلى من الذهب والفضة واللزورد والفيروز والزمرد والعقيق الأحمر. إنه عمل رائع صاغته أنامل صائغ ماهر.

وفى هواره فوق الهضبة المشرفة على الفيوم نظر الإغريق بإعجاب إلى هرم أمنمحات الثالث ولا سيما إلى معبده الجنائزى. بل وشبهوا المعبد باللابيرانت Labyrinthe أو قصر التيه، دون أن يدركوا دلالة المعبد الجنائزى فى نظر المصرى القديم. ويستحيل علينا فى الوقت الراهن أن نتخيل مساحة هذا المبنى وتعقيداته، بعد أن أصابه دماراً بالغاً. واستناداً إلى الروايات الإغريقية المتواترة فمن المعتقد أنه كان يضم سوراً عظيماً واثنى عشر فناءً مسقوفاً وطابقين يضم كل طابق ألف وخمسمائة حجرة تشكل عدداً لانهائياً من المنعطفات والمخارج الزائفة(?) . فكان على حد قولهم، وفيما نعلم، واحداً من أهم المعابد الجنائزية وأكثرها تعقيداً وربما أطلق عليه اسم اللابيرانت فى وقت لاحق بسبب تماثل المخارج الصوتية غير المؤكدة لاسم التتويج الذى كان يحمله أمنمحات الثالث وهو نى-ماعت رع ومعناه بالمصرية القديمة «الحقيقة - العدالة فى حوزة رع»- تماثلها مع الاسم اليونانى(*) .

كانت هذه المقابر آخر المقابر الهرمية المصرية. أما البر الغربى لمدينة طيبة والذى سبق أن استخدمه ملوك الأسرة الحادية عشرة فسوف يتحول عما قريب إلى جبانة شاسعة للأباطرة الجدد وأعيان دولتهم وكبرائها. وهنا وإبان شهر أبريل من كل سنة ومع مطلع الشهر القمري الجديد سوف تقام من أجل الموتى الراحلين الإحتفالات بعيد الوادى.

كان نحّاتو طيبة شأنهم شأن المعماريين مبدعين نشطين. فمنذ إعادة توحيد البلاد على أيدي الأناتفة يبدو أن مدرسة جديدة فى فن النحت أخذت تتطور وتزدهر لتفرض أسلوباً مبتكراً أكثر صرامة وواقعية، جنباً إلى جنب مع أسلوب منف القديم

(*) وهو لاخاريس أميريس(?) . (المترجم)

ونزعته التقليدية المنمقة. وأول شاهد على هذا الإتجاه هو التمثال الملكى الكبير الذى عثر عليه كارتر فى البئر التى تفضى إلى مقبرة مونتوحتب الثانى التذكارية. إنه تمثال ضخمة من الحجر الجيرى يصور الملك ويبلغ ارتفاعه ١٨٣ سم ومن مقتنيات المتحف المصرى بالقاهرة فى الوقت الراهن(*) . وإذ أغفل النحات التفاصيل وأهمها، فقد كان يريد إظهار سلطان العاهل الملكى وسلطته من خلال تجسيم الأحجام بأسلوب يكاد يكون هندسياً. فيبرز الوجه قوة الشكيمة، والجسد عبارة عن كتلة متجانسة والجزع مستقيم والساقان غليظتان والقدمان عريضتان راسختان. يكشف هذا التمثال عن عزيمة وحيوية تلامسان الخشونة وفظافة القلب. كما تشهد تماثيل عثر عليها فى الكرنك عن هذا الوله الجديد بكل ما هو ضخم وعملاق. ونذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال، الصور الشخصية للملك سنوسرت الأول، ومنها التمثال الملون الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧٠ سم وهو من الحجر الجيرى، والأعمدة الأوزيرية التى يبلغ ارتفاعها ٣٧٥ سم وهى من الجرانيت، وصور سنوسرت الثالث ومنها التمثال العملاق الذى يبلغ ارتفاعه ٣١٥ سم وهو من الجرانيت الوردى ومن مقتنيات متحف القاهرة(**) أو صور أمنمحات الثالث ومنها التمثال الذى يبلغ ارتفاعه مترين وهو من الجرانيت ومن مقتنيات متحف برلين. هكذا يبرز فجر عظمة وشموخ حضارة طيبة. إن ملامح الوجوه واقعية وقلقة ومهمومة، وقد صورت أحياناً فى مراحل عمرية مختلفة من حياة صاحبها. وفى مقابل هذا الأسلوب الطيبى بسماته الخاصة الشديدة التميز نلتقى على الطرف الآخر بأسلوب نحأتى منف والشت بوجوههم البشوشة وفنهم الأكثر رقة والأقرب إلى الكمال المثالى والتقاليد المقررة. إن وجود هاتين المدرستين لخير شاهد على حيوية روح المبادرة الخلاقة التى تحلى بها الفنان المصرى، فضلاً عن اهتمامه بتجديد الأشكال ودلالاتها.

(*) فى الدور الأرضى: الرواق ٢٦. (المترجم)

(**) فى صحن الطابق الأرضى الواقع أمام مدخل مبنى المتحف. (المترجم)

ربما ظهرت مدرسة ثالثة فى تانىس(*) فى القسم الشرقى من الدلتا، لم تكن مدرسة بكل معنى الكلمة، ولكن تشهد التماثيل التى عثر عليها فى هذه المدينة على تأثيرات متنوعة. وإذا كان أسلوبها يلتزم إلى حد كبير بالتقاليد المقررة، إلا أننا نلاحظ وجود تأثيرات عناصر أجنبية ومواضيع آسيوية: فقد صور أمنمحات الثالث وهو يحمل قرابين مادية وقد توحد مع نهر النيل جالب الخير. ويشهد جزعه المكتنز على حيوية أسلوب الحرفيين. ومن حقنا أن نتساءل إذا كان هذا التمثال الذى عثر عليه فى تانىس هو صناعة محلية أم جاء من الجنوب؟ وعلى كل حال فغطاء رأس الملك الفريد فى بابه جدير بالملاحظة لأن جدائله تتقاطع حسب الذوق الآسيوى. كما جادت تانىس بتماثيل الملك أمنمحات الثالث فى هيئة «أبو» الهول، ولم يحط الوجه الملكى كما جرت العادة بغطاء الرأس الملكى المصنوع من الكتان وتتدلى منه على الكتفين قطعتا نسيج نوا ثنيا، واسمه النيمس عند قدماء المصريين. بل حلّ محله شعر لبدة الأسد وقد صور فى بساطة شديدة كزخرف يزدان به الرأس. لأن ملامح الأسد بصفته «حيوانا» ملكياً وإلهياً، كانت أهم بكثير من ملامح تماثيل «أبو» الهول الكلاسيكية – وفقاً للعادات الآسيوية.

واتسعت المملكة وتنوعت، وظهرت تأثيرات أجنبية. ومن الآن فصاعداً سوف تلعب مصر دورها عند ملتقى أفريقيا وآسيا. وتعاظمت قوة «مدينة الجنوب»(**) – طيبة – وعلا نجمها وأصبحت مهياةً لقتبوا مكانتها فى التاريخ.

ولكن فى هذه اللحظة بالذات ومن جراء التحركات الضخمة للشعوب الهندوأوروبية وما ترتب عليها من تقلبات سياسية فى آسيا – سوف يطرح للمرة الثانية السؤال حول قضية المؤسسة الفرعونية بعد أن قوضتها غزوات شعوب الهكسوس. فعلى امتداد قرنين من الزمن سوف تنقسم مصر من جديد وينفرط عقد

(*) الاسم اليونانى لمدينة جعن المصرية القديمة وصان الحجر حالياً. (المترجم)

(**) نيوت وسيت فى اللغة المصرية القديمة. وعن مختلف أسماء طيبة وألقابها. راجع: د. سيد

توفيق. أهم آثار الأقصر. النهضة العربية. ١٩٨٢. ص: ١٥-١٩. (المترجم)

وحدثها، إلى أن جاء من مدينة طيبة أمراء آخرون فحرروها واستعادوا وحدتها. فمع استرداد البلاد قوتها وسلطتها فى ظل الأسرة الثامنة عشرة عاد النظام الملكى إلى سابق عهده.

* * *

ينصب موضوع هذا الكتاب على دراسة هذه الأسرة الملكية. ونلاحظ غياب فكر عظيم وحدانى ومهيمن، وهو ما سيوجد فى وقت لاحق فى عصر الرعامسة. ولكننا نلاحظ أن صياغة أيديولوجية جديدة أخذت تتشكل آنذاك، لتنتشر وتطور من عهد إلى آخر، ليترك كل فرعون من الفراعنة بصمته الشخصية. وشهد هذا العصر فيضاً من الأشكال والأساليب والأفكار، شكلت بوتقة روحية سوف ينهل منها الرعامسة فيما بعد على نطاق واسع. ففي ذلك الزمان تحولت مملكة وادى النيل إلى إمبراطورية آسيوية وإفريقية مترامية الأطراف. هنا تكمن مصادر الفكر الإمبراطورى بحيويته الوثابة. وهنا نستطيع أن نفهم مختلف أوجه الروحانية المصرية.

وسعيًا وراء توضيح ما قلناه، سوف نحاول من خلال دفتى هذا الكتاب أن نقدم للقارئ قديراً كبيراً من النصوص المصرية المألوقة ولكن سوف نقدم فضلاً عن ذلك نصوصاً لم تُترجم من قبل أو لم تتل ما تستحقه من اهتمام. وإن نحاول أن نخضع هذه النصوص لهذه الأيديولوجية أو تلك ولكن سنعمل على ربطها بالفكر القديم بون تحيز وبلا أفكار مسبقة.

إن مهنة عالم المصريين تتطلب منه أن يكون مولعاً شغوفاً بما يقوم به، صبوراً فى عمله، سيساعده ولعه على الإحاطة عن كثر بكنه حياة الرجال الذين عاشوا قبل خمسة آلاف سنة والتعاطف مع تقاليدهم وأفكارهم بأن يتوحد مع صميم الحياة فى مصر الفرعونية ويندمج فيها. وإلى جانب ذلك فإنه مطالب بالتحدى بالصبر وتوخي الحيلة والحذر. فيتجنب الوثوق ثقة عمياء فيما يقوله هذا التأويل أو ذاك، لمجرد ذكره فى كتاب ما، ربما يكون قد عفى عليه الزمن، أو فيما توصلت إليه أعمال تنقيب محليه بون مضاهاتها بغيرها الأحداث عهداً، وأن يراعى على الدوام تبنى رؤية شاملة

للأحداث والأفكار. ولذلك فلا غنى عن معرفة اللغة. لقد ظل علم المصريات لفترة طويلة وما زال أحياناً نشاطاً ينكب عليه الهواة، فيقعوا بسرعة تحت تأثير قراءة مضللة لبعض الشروح والتعليقات أو بالاعتماد على المصادر اليونانية التي يصعب فى الغالب الوثوق فيها ثقة عمياء. علينا أن نقرأ النصوص المصرية مراراً وتكراراً بصبر وأناة ونفهمها من خلال الواقع الحى لعصرها والنفاذ إلى صميم جوهرها، ومن ثم علينا بعد ذلك وفى مرحلة لاحقة فقط، ألا نلجأ سوى إلى مراجع مختارة، وهى مفيدة على كل حال لأنها حصيلة جهود أجيال من العلماء. ومن ثم فإذا خاض المرء فى المناقشات إنطلاقاً من النظريات المطروحة نون معرفة باللغة، فكأنه يريد دراسة فرجيليوس(*) Virgile وشيشرون(**) Cicèron، بينما يجهل اللغة اللاتينية. إن علم المصريات شأنه شأن كل علم حقيقى يستوجب أن يتحلى الباحث بصفات التجرد وعدم الإنحياز والقدرة على إصدار أحكام صائبة والمواظبة على تناول ما اعتقدنا أنه حقيقة مقررة لطرحه على بساط البحث.

ليتنا نستطيع توفير هذه الشروط حتى نقدم عن نشأة الإمبراطورية المصرية صورة حقيقية ومنصفة تعتمد على الوثائق المصرية، من معالم صرحية ونصوص، بعيداً عن أى مراوغة، مع الإلتزام بالنزاهة العلمية. هكذا نعيد إلى الحياة طيبة عصر الأباطرة.

(*) (فرجيليوس (٧١-١٩ ق.م) أعظم شعراء روما. (المترجم)

(**) (شيشرون (١٠٦-٤٢ ق.م) أكبر خطيب وكاتب ومفكر عرفته روما. (المترجم)

(***) *la corvée* السخرة. لا ينبغي أن ينزعج القارئ من استخدام المؤلفة تعبير السخرة؛ لأنه يتم الخلط فى المعتاد بين السخرة وهى من مقومات العمل فى النظم الإقطاعية - كما فى مصر الفرعونية والعمل القائم على العبيد كما ستعرفه اليونان وروما القديمة، فى أزمنة لاحقة، وهو نظام أكثر تخلفاً مقارنة بالنظام السائد فى مصر الفرعونية، ولم تعرفه مصر الفرعونية كنظام اقتصادى اجتماعى عام، وإن طبق أحياناً فى بعض الحالات الفردية والإستثنائية على أسرى الحرب. لقد أورد الكتاب المقدس فى سفر الخروج، الإصحاح الأول الآية ١١- أن بنى إسرائيل قد عملوا بالسخرة - ولم يكونوا عبيداً - رغم كونهم من غير المصريين. ويمكن مراجعة هامش المترجم الوارد فيما سبق، عن معاملة العبرانيين فى ظل هذا النظام، فعندما ضلوا السبيل فى صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر ندموا أشد الندم على ترك مصر فقالوا: «كنا نجلس

(فى مصر) عند قَدْر اللحم وناكل من الطعام شبعنا (الخروج ١٦:٢). وأيضاً: «إننا نذكر السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم» (سفر العدد ١١:٥). فالصورة أبعد ما تكون عن السياط التى كانت تلهب ظهور العمال كما صورتها أفلام هوليوود!... وأود أن أضيف فى هذا المقام ما تقوله أمينة الشفيق: «إن مصر الحديثة المركزية تأسست فى جانب كبير منها على جهد وعرق عمال السخرة... وإليهم يعود الفضل فى جانب كبير مما نراه الآن من ترع وقنوات ومصارف وسكك حديد وأرض خضراء... لقد استدعى مشروع محمد على تسخير ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف فلاح لمدة أربعة شهور سنوياً (وهى فترة الفيضان-م) واستمرت السخرة طوال عهود عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق إلى أن ألغيت رسمياً فى ١٩ ديسمبر ١٨٩٩» (راجع فى هذا الصدد مقال أمينة الشفيق: «السخرة.. حالة مصرية. مجلة وجهات نظر. العدد ٣٣. أكتوبر ٢٠٠١ والمراجع التى تعتمد عليها). مع ملاحظة أن عدد سكان مصر فى عهد محمد على وقبلة وبعده كان على النحو التالى: ثلاثة ملايين نسمة فى أواخر القرن الثامن عشر و ٤٠٠ ٥١٤ ٢ عام ١٨٢٣ و ٤٤٠ ٤٧٦ ٤ عام ١٨٤٥ (عبدالرحمن الراقى، عصر محمد على، دار المعارف، ١٩٨٢ ص ٥٤٣). ويضم هذا العدد بالطبع الشيوخ والنساء والأطفال. كما نصت اتفاقية العمل الدولية رقم ٢٩ لسنة ١٩٢٠ ورقم ١٠٥ لسنة ١٩٥٧ على منع السخرة. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. أحمد زكى بدوى، مكتبة لبنان ١٩٨٦، ص ١٦٥) أضف إلى ذلك، أن قبائل بنى إسرائيل بعد أن بدأت فى اغتصاب أرض كنعان من أبنائها، حوالى القرن الثالث عشر، قبل الميلاد، كما هو وارد فى سفر يشوع من العهد القديم، قد عرفت نظام السخرة، بعد أن أسست مملكتها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما ورد فى سفر صموئيل الثانى، ٢٤:٢٠ وسفر الملوك الأول، ٦:٤. بل إن الملك سليمان ذاته «قد سخر ثلاثين ألف رجل من كل أرجاء إسرائيل»، سفر الملوك الأول، ٢٧:٥. واستخدمهم فى بناء معبده وقصره وعدد من المدن، ١٥:٩. (المترجم)

الفصل الأول

العالم فى زمن القرن الثامن عشر قبل الميلاد

١- فى أفريقيا

الهيمنة المصرية: عُرِف وتقليد موروث

ينبع النيل من قلب أفريقيا. ومنذ أقدم أزمنة تاريخهم المديد شرع المصريون يبحرون جنوباً مصعدين مجرى النيل أو يسيرون عبر الدروب القائمة عند ضفاف النهر.

النوبة والسودان

استرعت الأصقاع الواقعة فيما وراء الجندل الأول انتباه المصريين. كان الوصول إليها أمراً يسيراً، ولا يصطدم الداخل إليها بأية مقاومة. كانت السلطة المحلية موزعة على عدد من القبائل، لا تجمعهم وحدة سياسية فعلية. كانت هذه المناطق تشتهر بثرواتها المتنوعة: القمح والأبقار والعاج والأبانوس والبخور وريش النعام. وفى وادى العلاقى، وهو وادٍ قفر فى الصحراء الشرقية يلتقى بالنيل عند بلدة عنيبة فيما بين الجندل الأول والجندل الثانى، كان يوجد حجر الكوارتز المحتوى على الذهب وقد استخرجه المصريون منذ وقت مبكر من تاريخهم. وتشهد المخربشات التى عثر عليها على صخور الصحراء على قيام الحملات إلى هذا المكان منذ عهد الملك حت من الأسرة الأولى. وقد فتح جسر(*) المنطقة الممتدة من أسوان إلى تاخومبسو إلى الشمال من عنيبة، وهى المنطقة التى أطلق عليها الإغريق اسم نوديكاخوينوس(**)

(*) من الأسرة الثالثة. (المترجم)

(**) يتكون هذا المصطلح من كلمتين يونانيتين: نوديكّا وتعنى: ١٢ وخوينوس: التصحيف اليونانى لكلمة إترو المصرية القديمة وهو مقياس طول يعادل عشرة كيلومترات ونصف: ومن ثم فإن هذا المصطلح يعنى المنطقة الواقعة جنوب أسوان الممتدة لمسافة ١٢٥ كم تقريباً. (المترجم)

Dodekashène. واستناداً إلى ما جاء فى حجر پالرموشن سنفرو والد خوفو حملة عسكرية على النوبة وعاد منها بغنائم لا حصر لها وسبعة آلاف أسير. وفى زمن الأسرة السادسة قام أمراء أسوان باستشكاف أعماق هذه الأصقاع وتوصلوا إلى «دروب جديدة» لاختراقها وعادوا منها تحديداً ببعض الأقزام، لأن البلاط الملكى فى مصر كان مولعاً بهم. وقام ملوك الأسرة الثانية عشرة بتدعيم نفوذهم حتى جنوب الجندل الثالث، علماً بأن «الحدود» الرسمية كانت تقع إلى شمال قليلاً عند بلدة سمنة^(١).

ومنذ تلك الفترة كان من السهل التمييز بين منطقتين سوف تصبحان الإقليمين الرئيسيين فى نظر الإدارة الإمبراطورية. ويطلق على الإقليم الأول اسم واوات وهو النوبة السفلى الواقعة فيما بين الجندل الأول والجندل الثانى. وكان أبناء هذا الإقليم يدعون نحسيو. وربما كانت هذه العبارة تشير فى بداية الأمر إلى القبائل القريبة من النهر. أما اسم مچايو فكان يطلق أصلاً على رجال السهوب^(٢). ومنذ وقت مبكر، جُند المچايو فى قوات الشرطة وتحولوا إلى قوات مساندة شديدة الولاء فزاد الطلب عليهم. ولكن يبدو أن كلمة نحسيو قد أصبحت تدل منذ الأسرة الثانية عشرة على مجمل سكان النوبة.

وكانت كوش هى المنطقة الجنوبية الأخرى الهامة. وظهر الاسم لأول مرة على لوح حجرى يعود إلى العام ١٨ من عهد سنوسرت الأول، عثر عليه فى بوهن. وقد أثار تحديد موقع اسم المكان هذا، بعض المشاكل. فقد شاع استخدامه على نطاق واسع فى العالم القديم. «وانتقل الاسم إلى اللغة الأكديّة فى زمن الأسرة الثامنة عشرة وحظى على شعبية واسعة فى آسيا بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد عندما تحولت النوبة إلى قوة عظمى وضمت بلاد الفراعنة إلى ممتلكاتها وباتت تتدخل فى شئون فلسطين. وكان الغزاة الآشوريون يعرفون بلاد كوش حق المعرفة. وقد فاقهم الأخمينيون^(*) الذين اختاروا هذا الاسم للدلالة على الإقليم النوبى التابع لهم. وأخيراً

(*) أسرة ملكية فارسية أسست الإمبراطورية الفارسية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى فتوحات الإسكندر الأكبر. (المترجم)

فإن الكتاب المقدس الذى يذكر اسم كوش مراراً وتكراراً، قد انقذ اسم المكان هذا، من السقوط فى طى النسيان، لينقله إلى العصور الحديثة من خلال ترجمته إلى اليونانية واللاتينية^(٢)». وقد ترجمه شمپوليون Champollion بلفظ «أثيوبيا» متفقاً فى ذلك مع الترجمة السبعينية للكتاب المقدس^(*). وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى عام ١٥٨٠ ق.م، يبدو أن كوش كانت تدل إما على الإقليم الإدارى المحصور بين الجندل الثانى والجندل الرابع والذى يلى إقليم واوات أو كانت تدل بشكل عام على مجمل الممتلكات الإفريقية الواقعة جنوب مصر.

وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، علا نجم مدينة بوهن الواقعة على بعد خمسة كيلومترات جنوب مدينة وادى حلفا الحالية كما كانت مقر الحكومة المصرية. إن أعمال التنقيب التى باشرها إيمرى Emery عام ١٩٥٧ قد أثبتت بلا أدنى تحفظ أن محلات سكنية كانت موجودة فى هذا الموقع منذ الأسرات الأولى. وعُثر شمال المدينة على أوراق بردى وأختام جرار تحمل أسماء ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة^(٤). وشيدت القلعة منذ عصر سنوسرت الأول وكانت جزءاً من سلسلة التحصينات التى أقيمت فى ظل الأسرة الثانية عشرة، ولكن وجودها قرب التيارات السريعة للجندل الثانى جعلتها موقعاً إستراتيجياً على أكبر قدر من الأهمية. كانت بوهن مدينة مستطيلة الشكل محاطة بسور من الطوب سمكه خمسة أمتار ومن حولها خندق جاف عرضه سبعة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار ونصف. وسوف يقوم التحامسة^(**) بتطوير المدينة والمعابد والحصون بشكل ملحوظ.

إن العمل الذى قام به ملوك الأسرة الثانية عشرة قد ربط هذه الأراضى الإفريقية الجنوبية بمملكة مصر بروابط وطيدة. فكان مهم الأساسى توفير الرخاء الإقتصادى والأمان لمصر ولم يكن هدفهم الغزو السياسى.

(*) وهى أول ترجمة إلى اليونانية، وقد تمت فى الإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. (المترجم)

(**) الملوك الذين يحملون اسم تحتمس. (المترجم)

بلاد پونت

كما أقامت مصر علاقات دائمة مع بلد إفريقي آخر. إنه بلد تنبت فيه أشجار البخور الذي كان ضرورياً لآداء الشعائر الدينية. كما كان المصريون يجلبون منه الزرافات والقردة الكلبية الرأس والعاج والأبنوس والإلكثروم والأحجار الكريمة والأقزام أيضاً فى بعض الأحوال. إنه بلد إفريقي بلا أدنى شك. وإذا كان تحديد موقع پونت قد أثار بعض المشاكل، إلا أنه يبدو فى الوقت الراهن أن المقصود من بلاد پونت ليس الصومال الحالى، على وجه الدقة. ولكنها تغطى منطقة أكثر شمولاً تقع إلى الشرق من السودان جهة البحر الأحمر وإلى شمال أثيوبيا الحالية وغربها^(٥). وبالفعل كانت الرحلات تتم «بحراً أو براً» وهو ما يذكره مراراً وتكراراً النص الذى يروى وقائع الرحلة التى أرسلتها الملكة حتشپسوت إبان الأسرة الثامنة عشرة. تُرى كيف تمكن المصريون من جمع معلوماتهم عن هذه البلاد القصية؟ ربما عن طريق تقارير بعض المستكشفين المسافرين بمحازاة نهر النيل السودانى، بل وربما أيضاً من خلال الأقاويل التى تناقلها تجار القوافل الذين كانوا يتولون نقل منتجات هذه المناطق إلى موانئ البحر الأحمر.

إن أول رحلة رسمية كما سجلها حجر بالرمو تمت فى عهد ساحورع من ملوك الأسرة الخامسة. كان السفر إلى پونت يتم فى الغالب على متن سفن. فتبدأ الرحلة من كويتوس الواقعة على نهر النيل إلى الشمال من طيبة وتحمل معها أخشاب شجر الأرز اللازم لبناء السفن بالإضافة إلى السلع المطلوب مقايضتها وما يلزم الرحلة من طعام وماء. فتسير قافلة المسافرين عبر درب وادى الحمامات الذى يخترق الصحراء الشرقية، وصولاً إلى ميناء وادى جاسوس المطل على البحر الأحمر. كانت هذه الرحلة تستغرق أربعة أيام سيراً على الأقدام فى صحراء قاحلة تفتقر إلى نقاط مياه إلى أن أمر موتوحتب الثالث بحفر الآبار على امتداد هذا الدرب القفر. وفى وادى جاسوس يتم بناء السفن ثم يبحر الجميع فى اتجاه الجنوب.

كانت پونت جزءاً من «بلاد الإله» لأنها كانت تنتج البخور وهو النبات الذى «يجعل (الكائن) إلهياً». وسوف تتدفق «عجائب پونت» على طيبة فى ظل الأسرة

الثامنة عشرة. إن العلاقات مع هذا البلد شبه الأسطورية في نظر المصريين، سوف تتواصل على امتداد تاريخ مصر الفرعونية.

السهوب والصحارى الليبية في الغرب

والى الغرب من مصر تمتد الدلتا عند شاطئ البحر الأبيض المتوسط في اتجاه ما يُطلق عليه حالياً ليبيا التي كانت تضم آنذاك في جوفها السهوب والصحارى، فكانت منطقة تشجع على القيام بالغزوات. ومنذ قديم الزمن احتلت هذه المنطقة قرب الشاطئ شعوب الثحنو الذين يشبهون من الناحية العرقية سلالات أبناء وادي النيل. والشاهد على ذلك صلايات الشست التي نقشَت منذ عصور ما قبل التاريخ، وقد جرت العادة على تصويرهم في هيئة رجال شعرهم طويل مسترسل ويحملون حمالة ويضعون جراب عورة مستطيلاً. كانت معيشتهم قائمة على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات الداجنة وقدر ضئيل من الرعى. أما قبائل التيمحو الرحل القاطنون في السهوب ذات النجليات فكانوا يتميزون بشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء.

ويبدو أنهم عاشوا قبائل متفرقة لم تجمعهم أية وحدة سياسية، ولما كانت إقتصادياتهم ضعيفة، يعيشون عيشة الكفاف، ظل ثراء مصر ورخاؤها يشكل لهم على الدوام إغراءً يصعب مقاومته فحاولوا التسرب تدريجياً إلى الدلتا. لقد شنت عليهم بعض الحملات العسكرية الملكية تميزت بالحزم والإقدام وقضت على تهديداتهم بسهولة ويسر. وفي هذا الصدد أيضاً يظل حجر بالرمو مصدرنا المعتمد فيخبرنا أن سنفرو قد عاد من إحدى هذه الحملات وهو يقتاد ١١٠٠٠ أسيراً و ١٢١٠٠ رأس ماشية. ولم يشكل «الليبيون» خطراً عظيماً إلا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إبان إحدى غزوات شعوب البحر في عهد الرعامسة^(٦).

كانت سلسلة من الوحات تصطف من الشمال إلى الجنوب، على امتداد الصحراء لتشكّل في آن واحد، محطات للقوافل فيما بين البحر المتوسط وقلب أفريقيا بالإضافة إلى نقاط إستراتيجية هامة. وتقع واحة سيوة في الشمال. وسوف تصبح

فيما بعد مكاناً فضّ فيه **چوبيتر**(*)- **أمون** مغاليق الوحي ليختار الإسكندر الأكبر ويتوجّه ملكاً على مصر. أما وادي النطرون فقد كان أقرب إلى الوادي. ثم تصطف على التوالي في اتجاه الجنوب الواحات البحرية والفرافرة والداخلية والخارجية. ومنذ وقت مبكر قامت الإدارة المصرية بضم هذه الواحات. وفي ظل الأسرة الرابعة كانت واحة الفرافرة مقراً لحاكم مصري، وربما ينطبق الشيء نفسه على الواحات البحرية. وقد عثر في الواحات الداخلية على مصاطب تعود إلى الأسرة السادسة وعلى ألواح حجرية وغيرها من المعالم الأثرية. وفي هذه الواحات الأخيرة يواصل في الوقت الراهن باحثو المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO أعمال التنقيب. إن الكشوفات التي توصلوا إليها في بلدة بلاط بالواحات الداخلية وفي الواحات الخارجية أيضاً تثبت أن حكاماً مصريين كانوا يتولون منذ ذلك الزمن إدارة شئون هاتين الواحتين الأخيرتين بل وتم تحويلهما بالفعل إلى إقليمين مصريين.

كانت لهذه «الجزر» القائمة وسط الصحراء الغربية أهميتها السياسية الإستراتيجية فضلاً عن أهميتها الإقتصادية. فتمدّ مصر بموارد إضافية لا يستهان بها: فقد اشتهرت بزراعة الكروم بدءاً من الواحات البحرية حتى الواحات الخارجية، كما كان أبناؤها يقومون بتربية حمير صغيرة صهباء اللون، فكانت دواب لا غنى عنها في مختلف الأعمال ولنقل السلع والبضائع. كانت الحكومة المركزية تولى هذه الأملاك إهتمامها فأمرت بحفر الآبار الضرورية لإعاشة أبنائها، وشيدت فيها المعابد من أجل آلهة مصر.

٢- بلاد البحر المتوسط.

التجارة والسياسة

في الشمال كان البحر المتوسط الذي يصب فيه نهر النيل، يشكل حدود مصر الشمالية الطبيعية. وإن لم تقف هذه الحدود أبداً في وجه الرغبة في التوسع التجاري

(*) وهو عند الرومان المقابل للإله زيوس عند اليونان. (المترجم)

أو قيام أبناء وادى النيل بما يحلو لهم من مغامرات. لقد أثبت المصريون منذ أقدم عصور تاريخهم المديد أنهم ملاحون جسورون يتحلّون بالجرأة والشجاعة. فشقوا قبل الفينيقيين عباب مياه «الشديدة الإخضرار»، فأبحروا على متن سفن تبلغ ستين متراً طولاً وشراعها من الكتان وبدنها من خشب الأرز، يدفعها صفان من المجدفين، صف عند ميسرة السفينة وآخر عند ميمنتها. كان المصريون يطلقون اسم «الشديدة الإخضرار» سواء على البحر المتوسط أو البحر الأحمر. إن حركة المياه المتجددة على الدوام فى هيئة أمواج متلاحقة، كانت تعيد إلى أذهان المصريين إيقاع بورة حياة النبات التى لا تكلّ أيضاً ولا تتوقف. كانوا يبحرون بمحازاة الشواطئ مروراً بأرض كنعان متجهين إلى أكبر موانئ المشرق الآسيوى فى فينيقيا، كما دعموا علاقاتهم بجزيرتى قبرص وكريت منذ وقت مبكر. وإذا عدنا أدراجنا ناحية الجنوب نجد أن سيناء كانت أرضاً ملحقة بمصر.

كنعان - أرض - البدو

وفيما وراء صحراء النقب وإلى الشمال الشرقى من مصر، كانت تمتد أراضى شاسعة تجوب أرجاءها القبائل الرحل: إنها بلاد كنعان. إن القبائل البدوية التى تنحدر من أصول سامية كانت تعيش هنا على سلب ونهب القوافل وقد أطلقت عليها النصوص المصرية القديمة اسم نيمو شعى أى «السائرين على الرمال» أو اسم حريو شع أى «القاطنين فوق الرمال». وإبان الأسرة الثامنة عشرة قام بدو آخرون هم الشاسو بإثارة القلاقل والإضطرابات فى بلاد كنعان ضد مصر. ومنذ الأسرة الثالثة، كانت مصر مسئولة عن أمن الدروب فى هذه المناطق بواسطة شرطة يرأسها موظف خاص هو «حامل أختام الآسيويين». كانت كنعان منطقة غير محددة من الناحية السياسية وتنتهى عند البحر المتوسط بشاطئ رملى، كما كانت تضم آنذاك موانئ ثانوية مثل غزة وعسقلان وحيفا.

إن هيمنة مصر على هذا البلد واضحة كل الوضوح منذ وقت مبكر، والمحافظة

على هذا الوضع كان يتطلب مراقبة عسكرية متواصلة، فمن شرق الدلتا ومن غربها على حدّ سواء، كان ثراء وادي النيل يشكل إغراءً ومطمعاً يحركان بطبيعة الحال البدو الرحل القاطنين في السهوب والصحارى.

فينقيا

وإذا واصل المرء سيره في اتجاه الشمال يصل إلى أكثر مناطق الشرق الأدنى القديم ثراءً وازدهاراً، وسرعان ما أصبحت محل أطماع القوى السياسية السائدة في ذلك العصر. هذه المنطقة هي فينقيا التي لم تكن دولة بل مجموعة «دول- مدن» على رأس كل واحدة منها أسرة حاكمة من الأمراء أو مجلس مدينة. كانت تمتد من قمة جبل الكرمل(*) جنوباً وحتى مدينة أوغاريت - رأس شمرا حالياً - وهي أكثر الموانئ تطرفاً ناحية الشمال. كان البحر المتوسط هو العنصر الوحيد الذي يجمع شمل هذه المنطقة ويوحد مدنها. فكان يحد جانبها الشرقي وأكثر الأماكن مواتية للملاحة. كانت فينقيا ذاتها تنقسم إلى قطاعات تفصلها نتوءات لبنان الصخرية التي كانت تصل أحياناً حتى شاطئ البحر. وكان أهل البلاد يمارسون بعض أعمال الزراعة قرب مصب نهر الليطاني أو إلى الجنوب من عكا. إن أهم موردين كانا يشكلان ثروة فينقيا هما غابات أشجار الأرز الشاسعة التي كانت تغطي منحدرات جبل لبنان بالإضافة إلى مجموعة موانئها التي يحتضنها شاطئ مناسب لرسو السفن. فتمتد من الجنوب إلى الشمال مرافئ صور وصيدا وبيبلوس(**) وسيميرا وأرواد وأوغاريت. أما في الشرق فكان من الصعوبة بمكان عبور الجبل الشامخ. ولكن الإتصالات كانت سهلة في الجنوب مع مصر وفي الشمال مع وادي نهرى نجلة والفرات بعد عبور صحراء أعالي سوريا. كانت فينقيا ملتقى الطرق التجارية على اتصال دائم مع العالم القريب أو البعيد، مما أكسبها مكانة متميزة.

(*) ويشرف هذا الجبل على مدينة حيفا. (المترجم)

(**) أطلق المصريون على هذه المدينة اسم «كبن» في حين أسماها الأكاديون «جويله» أو «جيبيل». (المترجم)

كانت العلاقات مع مصر قديمة قدم الزمن، كما كانت ثابتة ومستقرة. واكتسبت بيبيلوس مكانة خاصة. لقد باشر **بيير مونتيه Pierre Montet** منذ عام ١٩٢١، أعمال التنقيب في موقع جبيل وهي بيبيلوس القديمة. فأخرج إلى النور بقايا معبد - كانت قد أشعلت فيه النار ثم تم تسويته بالأرض وغطى ببلاطات كبيرة. وعثر في أطلاله على قرابين جاءت من مصر وأسطوانات لختم لوحات يعود تاريخها إلى العصر الثيني^(*)، وتصور منذ هذه الفترة المبكرة إلهة بيبيلوس وقد ازدانت برموز مصرية. كما تم الكشف عن أواني تحمل خراطيش الملوك من **كاو رع** و**أوناس** و**بيبي الثاني**^(٧). كان السفر إلى فينقيا من الرحلات السهلة: سواء اختار المسافرون الطريق البرى بمحاذاة الشاطئ أو اختاروا طريق البحر: فإبان شهرى مايو ويونيو عندما تهب الرياح الموسمية كانت رحلة المراكب الشراعية الضخمة تستغرق أربعة أيام لقطع مسافة الستمائة وخمسين كيلومتراً التى تفصل دلتا النيل عن شاطئ فينقيا. وحسبما ورد فى حجر **پالرمو** أرسل سنقرو حول عام ٢٦٠٠ ق.م إلى بيبيلوس أسطولاً يتكون من أربعين سفينة بقيادة الأمير الملكى **مر إيب** لاحتضار أشجار الأرز الباسقة، لأخشابها الضرورية لبناء سفن أعالى البحار وصناعة أبواب المعابد أيضاً.

يبدو أن المدينة قد اعترفت فى ظل الأسرة الخامسة بالسيادة المصرية. بل من المحتمل أن المصريين شيّدوا هناك معبداً وزخرفوه. فقد صُوِّر فيه الملك **أوناس** بينما تحتضنه الآلهة بعلت «**سيدة بيبيلوس**» فى هيئة الإلهة **حتحور**. أما الإله الشمسى لمدينة بيبيلوس فقد أطلق عليه المصريون اسم «**رع القائم على بحيرة فرعون**». كما أن ملك بيبيلوس يدعى «**ابن رع فى البلدان الأجنبية**^(٨)». ومنذ ذلك الزمن، كانت البلبة الروحية تشكل سنداً للوحدة السياسية. إن أقدم وثيقة فى بيبيلوس كانت مدونة بعلامات **هيروغليفية** مستعارة من مصر. هل تزوج **ساحورع** ذاته أميرة من فينقيا؟ حقيقة يمكن

(*) أو العتيق ويغطى الأسرتين الأولى والثانية. (المترجم)

استنتاجها من نقشين نحتا في المعبد الجنائزى لهذا الملك فى «أبو» صير(*) وتصور على الجدارين الشمالى والجنوبى، مغادرة أسطول من أساطيل أعالى البحار وعودته. وكان وسط التكوين الجدارى تشغله، على ما يظن، صورة الملك. أما فى رحلة العودة، فيظهر بعض الفينقيين على متن السفن. ويمكن التعرف عليهم بفضل شعرهم الطويل المربوط بشريط ولحياتهم المدببة. كان فى صحبتهم نساء وأولاد وقد انضموا إلى طاقم السفن للترحيب بملك مصر والتهنئة له. ومن المعتقد أن الأميرة التى جاءت من أقاصى الأرض إلى بلاط منف كانت موجودة على السفينة التى تتقدم الموكب ولكن صورتها مهشمة تهشيمًا بالغًا فى الوقت الراهن. ومع ذلك ما زلنا نقرأ العبارات الآتية: «إن نفرت - أى «الجميلة» - تأتى إلى هنا بجوار ساحورع، ابن رع»^(٩).

بعد أن وُضع حد للفوضى والإضطرابات التى أعقبت الأسرة السادسة، أعاد الملوك الجدد هيمنتهم على الموانئ الفينقية وعلى بيبلوس بطبيعة الحال. كانت هذه الحماية تمنح مصر مكانة الصدارة فى تجارة البحر المتوسط، وتضمن لهم التحكم فى طرق التجارة فى آسيا. ويعتقد أن ملوك الأسرة الثانية عشرة كانوا يسيطرون ويشرفون على ساحل البحر المتوسط حتى مدينة أوغاريت. ومن غير المستبعد من ناحية أخرى أن حكمًا تساندتهم الحاميات، قد وقع على عاتقهم تدعيم الوجود المصرى فى كبرى مراكز التجارة الدولية هذه.

كان المصريون يطلقون فى معظم الأحوال على فينقيا اسم چاهى. لقد احتدم النقاش حول هذه التسمية. ولكن بالرجوع إلى نص حوليات تحوتمس الثالث^(١٠)، يبدو بوضوح أن منطقة چاهى مطابقة لفينقيا، لأن الملك كان مسئولاً عن «السهر على سلامة الموانئ»^(١١). فكان ذلك أهم إسهاماته لتأمين ازدهار الإمبراطورية الوليدة.

(*) وهو الاسم الحالى للاسم المصرى القديم «پر أوزير» أى «بيت أوزيريس». وفى الوقت الراهن يطلق هذا الاسم على عدد من البلدات: أبو صير فى محافظة الجيزة وأبو صير الملقى عند مدخل الفيوم وأبو صير بنا قرب سمند وأبو صير غربى الإسكندرية... (المترجم)

مدن الرمال

تعود أهمية المنطقة الواقعة بين أرض كنعان وفينيقيا من ناحية، والعمق الصحراوي من ناحية أخرى، إلى وجود مدن قوية ومحصنة في الغالب، وهي أشبه بالوكالات الكبرى التي تتوقف عندها القوافل. فكانت محطات يتزود فيها المسافرون عبر الدروب. ولا شك أن التحامسة قد أقاموا إمبراطوريتهم على أساس فرض هيمنتهم الحازمة على المدن الفينيقية لتكون في يدهم، ولكنهم اعتمدوا أيضاً على مدن الرمال هذه، فكانت فائدتها الإستراتيجية عظيمة الشأن.

كانت العلاقات مع مجنؤ تحديداً نشطة. فهذه المدينة تتميز بموقعها عند منافذ معابر جبل الكرمل شمال غرب فلسطين. وقد أوفد سنوسرت الثالث جحوتى حوتب إلى بلاط مجنؤ بصفته سفيراً فوق العادة. كما لابد أن نعيد إلى الذاكرة الحملة العسكرية التي خرج على رأسها القائد خوسويك في عهد سنوسرت الثالث ليشن هجوماً على مدينة سيشم - وهي نابلس في الوقت الراهن^(١٢). وبعد فترة قصيرة سوف تضطلع مدن دمشق وحلب وتدمر بدورها في صياغة تاريخ مصر والشرق الأدنى.

إن لفظ ريتنو - اسم علم يرد في النصوص المصرية للدلالة على ما يعتقد، على جوف هذه المناطق التي لم تكن قد توحدت حتى الآن، وتضم مدناً منتشرة في الصحراء، يحكمها في الغالب الأمراء ويتوقف عندها المسافرون والتجار، فهي محطات ضرورية فيما بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط وبين الجزيرة العربية وآسيا الصغرى. كما أن مشايخ محليين كانوا يتولون السلطة في واحة انبثقت فجأة من بين رمال الصحراء. وسوف يستقبل أحدهم سنوهى الذى كان، كما سبق أن ألقينا^(١٣)، موفداً غير رسمى لفرعون ويركز اهتمامه على عقد صداقات وتحالفات مع أمراء الصحراء هؤلاء. ولا يخامرنا أدنى شك فى أن ضرباً من ضروب الدبلوماسية الشرقية والسرية - كإرهاص للدبلوماسية الإمبراطورية العظيمة - كانت قائمة، وإن لم تصلنا عنها شواهد أخرى. كما أن لفظ ريتنو قد ظهر لأول مرة فى قصة سنوهى. ويميز البعض أحياناً بين ريتنو السفلى وريتنو العليا، وإن كنا لانعرف على وجه التحديد النطاق الجغرافى الذى تغطيه كلتا التسميتين.

جزر البحر المتوسط

يبدو أن بعض الصيادين كانوا يقيمون بشواطئ جزيرة قبرص منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وحول عام ٣٠٠٠ ق.م جاءت هجرة كارية(*) لتعمر الجزيرة وتطبعها بالطابع الذي ستحتفظ به طوال العصر اليوناني الروماني القديم: كان اقتصاد الجزيرة قائماً من ناحية على الزراعة، كما ازدهر بسرعة نشاطاً تعديناً حول أهم مراكز استخراج النحاس في قرويس في وسط الجزيرة. كانت قبرص مركزاً تجارياً كبيراً له علاقات ثابتة مع فينقيا، القريبة نوعاً ما، ومن المحطات المفضلة للتبادل التجاري مع مصر. ولكن من المعتقد وجود علاقات مباشرة.

وتطلق النصوص المصرية على جزيرة قبرص اسم ألاسيا.

ومنذ العصر الثيني في مصر استخدمت كريت بعض العلامات الهيروغليفية كمواضيع زخرفية، ومنها المخصص الذي يلحق بالكلمتين الدالتين على الصحارى أو البلدان الأجنبية(**). كانت هذه البلدان تمتد فيما وراء المناطق القاحلة المحيطة بالوادي. كما استخدمت موضوع السهمين المتقاطعين رمز الإلهة نيت التي كانت مدينة سايس(***) بالدلتا مركزاً لعبادتها. وعُثر على أوانى من كريت فى سقارة وسط أطلال المعبد الجنائزى للملك أوسركاف أول ملوك الأسرة الخامسة. ومن ثم يمكن القول إن العلاقات بين كريت ومصر موغلة فى القدم سواء كانت علاقات مباشرة (؟) أو تمت من خلال اتصال التجار والبحارة من أبناء مصر وكريت فى الموانئ الفينيقية، بصفتها كبرى مراكز التبادل التجارى الدولى.

وحول عام ٢٠٠٠ ق.م وهو التاريخ الذى يتفق وبداية الأسرة الثانية عشرة

(*) نسبة إلى منطقة كاليا فى آسيا الصغرى. (المترجم)

(**) مخصص الصحارى أو البلدان الأجنبية وارد فى المراجع الآتية:

برناديت مونى. المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. ترجمة: ماهر جويجاتى.

دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٢٧.

(المترجم) A. Gardiner. Egyptian Grammar. third edition. 1982 p.33, 488.

(***) الاسم اليونانى لمدينة «سلاو» المصرية القديمة وصا الحجر حالياً. (المترجم)

المصرية عرفت كريت انطلاقة مفاجئة. وهو العصر الذي شهد تشييد القصور فى مدن كنوسوس وفايستوس وماليا أساساً. ولكنها دمرت فى القرن الثامن قبل الميلاد من جراء كارثة. أكانت زلزالاً أم حرباً (؟). وسوف يعاد بناؤها لتدخل كريت مرحلة جديدة من حضارتها وتسجل أوج ازدهارها.

كانت العلاقات مع مصر راسخة وهامة. وقبل فترة قصيرة من بداية الأسرة الثانية عشرة لوحظ أن البلدين كانا يستخدمان فى آن واحد الأختام نفسها وهى فى هيئة قرص صغير، قد يزود أحياناً بمقبض صغير حلقى الشكل. والأختام مزخرفة بمواضيع مختلفة ذات أصول غير مصرية، من رسومات حلزونية أو مجدولة ومتشابكة... وخلال الأسرة الثانية عشرة المصرية استبدلت أحياناً بهذه الأختام أشكال صغيرة، تصور جعارين(*)، وقد لعبت هذه الأشكال فيما بعد دوراً متميزاً فى المناسبات التى كان يراد تخليد ذكراها. وفى ظل الأسرة الثامنة عشرة كان تتويج الملك أو زواجه أو حدث هام فى البلاط الملكى مناسبة لإصدار مجموعة من الجعارين لتذاع على نطاق واسع وتبلغ قصور الحكام الأجانب النبأ السعيد. وهكذا اتخذ بعض أبناء كريت من مصر مقاماً لهم واشتغلوا بالتجارة وصناعة الفخار. وكان زيت الزيتون على رأس قائمة ما يستورده هؤلاء الكفتيو، وهو الاسم الذى أطلقه المصريون عليهم. فكانت شجرة الزيتون مجهولة حتى الآن من المصريين.

وقد تخصص ميناء فايستوس الواقع فى جنوب الجزيرة فى التجارة مع الدلتا.

جزر القوقلادس(**) وبحر إيجه

ولا شك أن مصر قد ربطتها علاقات تجارية مع جزر بحر إيجه عن طريق الموانئ الفينيقية. ومنذ أولى الأسرات المصرية، يبدو أن جزيرتى ميلوس وساموس قد

(*) مع تجنب الخطأ الشائع. والصواب أن الباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال سورة البقرة. الآية ٦١. (المترجم)

(**) مجموعة من الجزر فى بحر إيجه. اسمها مشتق من الكلمة اليونانية «قوقلوس» وتعنى «دائرة». تبلغ مساحاتها الكلية ٢٥٧٢ كم^٢ وعدد سكانها فى الوقت الراهن حوالى ١٠٠٠٠ نسمة. (المترجم)

أمدتا مصر بالسبج المعروف أيضاً بالزجاج البركاني الذي استخدمه المصريون منذ هذه الأزمنة. كما أن المقابر المصرية الموهلة في القدم كانت تحتوى أحياناً بعض الأواني الفخارية المصنوعة في جزر بحر إيجه.

كانت جزر القوقلادس غنية إذن بالسبج والظران والمرمر ويسكنها شعب من العاملين في صناعة التعدين ومن البحارة وقد أقاموا قبل أهل جزيرة كريت ذاتها، علاقات تجارية مع منطقة طرواس(*) وجزيرة أويويا وعن طريقها بمنطقة فوكيس في شبه جزيرة اليونان. وحول عام ٢٥٨٠ ق.م تأثرت جزر بحر إيجه تأثراً عظيماً بحضارة كريت(**) أصبحت الإلهة الأم التي تعبد في ديلوس(***) الإلهة القومية لجزر القوقلادس.

وفي مصر بل وفي النوبة عُثر على أواني من طراز جزر بحر إيجه. ونذكر تحديداً هذا الإناء الرائع الجمال الذي تم الكشف عنه في مقبرة في أبيدوس ويعود تاريخه إلى الأسرة الثالثة عشرة.

أما المصطلح المصري حاو- نبوت المستخدم منذ عهد خوفو بل ومنذ عصر ما قبل الأسرات على ما يعتقد، فما زال غموض معناه «لفزاً» محيراً. إن شروحه متعددة. والكلمة تعني: «أولئك الذين حول السلة». فمن الراجع أن كلمة نبوت تدل على جزر أو وهدات أو أحواض غرينية(٩). بل إن الكلمة ذاتها ملتبسة المعنى، فقد تدل إما على منطقة جغرافية طبيعية أو على شعب. ويبدو على كل حال أن موقع الحاو- نبوت كان في الشمال. وساد الاعتقاد لفترة طويلة أن سكان جزر إيجه هم المعنيون بهذه التسمية. وقد حاول جان فيركوتير Jean Vercoutter أن يبرهن على أن المصطلح يدل بالأحرى على إحدى المناطق الشمالية في آسيا(١٤). ومنذ زمن قريب قيل أن فينقيا هي المقصودة(١٥). ويبدو في واقع الأمر أن تحديد موقع هذا المصطلح قد تغير

(*) تقع هذه المنطقة في الطرف الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وكانت عاصمتها طروادة. (المترجم)

(**) من أهم جزر بحر إيجه، وتقع في أقصى جنوبها. (المترجم)

(***) من أصغر جزر القوقلادس. (المترجم)

باختلاف العصور، استناداً إلى حصافة الفرضية الى تقدم بها فيركوتير ومفادها أن
أى تفسير لا يلغى بالضرورة تفسيراً آخر، على امتداد ثلاثة آلاف سنة من التاريخ.

وشمال بحر إيجه وفى القسم الشمالى من شاطئ آسيا الصغرى كانت طروادة
قد أصبحت مدينة كبيرة منذ عصر الأسرة الخامسة على وجه التقريب. ويبرهن
وجودها على تعاظم أهمية الملاحة منذ ذلك الوقت بين البحر الأسود وبحر إيجه. كانت
تجارة عبور البضائع من الشرق إلى الغرب، السبب وراء تأسيس طروادة. وقد
تعاظمت ثروتها من جراء ما تحصل عليه من رسوم عبور وتوقف السفن فى مينائها.
وسوف تلعب دوراً عظيماً فى السياسة الدولية إبان عصر الملوك الرعامسة.

وإذا حولنا أنظارنا إلى غرب بحر إيجه عند شواطئ البحر المتوسط نجد شبه
الجزيرة اليونانية التى كانت لا تزال منطقة فقيرة ومتخلفة. وسوف تشهد أولى تباشير
تطورها إبان العصر المينوى(*) تحت تأثير حضارة كريت، ولكن تاريخ اليونان كان لا
يزال حتى الآن فى مرحلة الطفولة.

سيناء

وإذا غادرنا غزة وكنعان وغيرنا اتجاهنا من الشمال إلى الجنوب وصلنا إلى
شبه جزيرة سيناء الصحراوية المرتفعة، وكانت منطقة شاسعة تابعة لمصر من جهة
الشرق وتشكل وحدة متصلة تقع إلى جنوب كنعان والريتنو.

كانت سيناء آنذاك جزءاً لا يتجزأ من مملكة وادى النيل. فكان المصريون
يستخرجون منها أحجار الكوارتز الحاوية على الذهب فتغسل فى مكانها ثم ينقل
الذهب داخل أكياس مصنوعة من الجلد تحت رقابة عسكرية مشددة. كما كانت
مصدراً للنحاس الذى يستخدم تحديداً فى صناعة التماثيل أو فى عمارة المعابد، كما

(*) وهو أقدم عصور حضارة كريت. (المترجم)

كانت توفر لمصر الأحجار الكريمة من فيروز ودهنج وزمرد. وتركز العمل في منجمين رئيسيين: المغارة، وهو الاسم الذى أطلقه أهالى المنطقة على التلال التى حفرت فى سفوحها محاجر الفيروز وليس على وادٍ، كما يقال أحياناً. وقد تم الكشف عن آثار لمحات إقامة مصرية على بعد ستة عشر متراً أسفل قمة التل، وهى عبارة عن منئى منزل مستطيل، شُيد معظمها من أحجار خشنة مرصوفة بلا ملاط ولا يتجاوز ارتفاعها المتر الواحد. كان مدخلها ضيقاً وتحميها الخنادق. كانوا يجلبون الماء من وادٍ قريب لا يبعد أكثر من كيلومترين. كانت المحاجر محفورة فى جانب التل المنحدر على مسافة ٨٥ متراً فوق الوادى. وإلى الشرق قليلاً شمال المغارة يقع ثانى أهم مناجم سيناء وهو سراييط الخادم. إنه عبارة عن هضبة من الحجر الرملى الأحمر، تشكل قمة نتوء جبلى يبلغ ارتفاعه تسعمئة متر وتتشعب منه الوديان^(١٦).

ومنذ الأسرات الأولى والمصريون يترددون على سيناء. وتشهد المخرِبشات المحفورة على صخور مغارة على قيام حملة فى عهد جسر. فاستحدثت آنذاك وظيفة «مدير كافة أشغال الملك» التابع لدائرة أشغال الملك. كان من كبار الموظفين وأحد أعضاء مجلس العشرة ولا تقع على عاتقه مهمة الأعمال الجارية فى محاجر مصر فحسب، ولكن كان يناط به فضلاً عن ذلك، تنظيم الحملات المتجهة إلى سيناء. ويبدو أن سنفرو قد خطى بسياسة تواجد مصر فى شبه جزيرة سيناء خطوات واسعة، وتحديدًا فى مجال الاستفادة من مناجم النحاس ومحاجر الفيروز فى مغارة. وإبان الأسيرة الخامسة زادت إلى حد كبير الحملات المتجهة إلى سيناء، وبدأ العمل يسير بصورة منتظمة: فحفرت مناجم بممرات ذات دعائم. ومع مطلع الأسيرة الثانية عشرة، بدى أن مناجم مغارة قد بدأت تنضب. ومن ثم شرع الملوك يرسلون الحملات الضخمة إلى سراييط الخادم التى لم تكن قد استغلت من قبل، على ما يبدو. كانت كل حملة تضم من سبعمئة إلى ثمانيمئة رجل بقيادة ضباط الخزينة الملكية؛ لأن الفيروز كان ملكاً لخزينة فرعون. وكان العمال رجالاً أحراراً وقَعُوا على عقود عمل. ومن الملاحظ أن بعض الآسيويين وكانوا غالباً من الريتتو ينضمون إلى هذه الفرق، ولكن بأعداد محدودة مقارنة بأعداد قاطعى الأحجار والنجارين وغيرهم من العمال المهرة. ومن الواضح أنهم كانوا لا يعملون فى المناجم ولكنهم كانوا يختارون بصفقتهم «خبراء»

يعرفون هذه البلاد، فيمكن إذا لزم الأمر، أن يقوموا بدور الوسطاء عند الإتصال بالبدو الرحل فى هذه المنطقة – وهم قبائل عدوانية يتوقون إلى الاستحواذ على ثروات جبال هذه الأصقاع.

كانت الدروب إلى سيناء كثيرة ومتنوعة. والمألوف منها فى المعتاد كان يجمع بين الطريق البرى والطريق البحرى: فتبدأ الرحلة من كويتوس إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة وتسلك وادى الحمامات مع تسجيل اسم الرحلة عند عبورها، على صخور الصحراء الشرقية ثم تبحر فى البحر الأحمر فى اتجاه الشمال وصولاً إلى سيناء. أما الطريق البرى فكان يسير بمحاذاة الجانب الغربى ثم الشرقى من خليج السويس ليصل إلى الوديان والجبال الغربية من شبه جزيرة سيناء.

سار هذا الوجود البشرى فى سيناء جنباً إلى جنب مع إدخال العقائد الدينية. فأقام ملوك الأسرة الثانية عشرة معبداً فى سراييط الخادم وعمل على تشييده، كل من أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع تحديداً. كان تحوت يعبد فى المغارة. ولما كان إلهاً قمرياً فربما اندمج فى الإله القمر المحلى الذى يعبده البدو وهذا ما قد يفسر القلب الذى أطلق عليه فى هذه البقاع فهو «رب الببو». أما حتحور «سيدة البلدان الأجنبية» فكانت تعبد فى سراييط الخادم. ولكنها لم تكن غائبة عن المغارة: فعلى إحدى صخور الموقع صورٌ جسرٍ يتبعه حتحور فى هيئة بقرة. ويمسك الملك بيديه الصولجان واس علامة الحياة. وأخيراً فقد انتشرت فى هذين الموقعين الرئيسيين فى سيناء عبادة ملكية من أجل سنفرو.

كانت الكتابة المصرية نموذجاً للكتابة المعروفة بالپروتوسينائية أو السينائية الأولى proto-sinaïtique التى عُثر على آثارها الأساسية فى سراييط الخادم اعتباراً من الأسرة الثانية عشرة: إنها كتابة فى خط مستقيم(*) قائمة على عدد محدود من العلامات تشير فى معظمها إلى صور العلامات الهيروغليفية. ويعتقد أن هذه العلامات شكلت أولى الأبجديات بالنسبة للأسىويين القاطنين فى هذه المناطق وفى المقام الأول

(*) تتميز هذه الكتابة بمقاطعها الصوتية الأحادية القيمة، وتمتد على خط أفقى، وتحل محل صور العلامات الهيروغليفية. (المترجم)

الذين كانوا يرافقون الحملات المصرية. وتستجيب هذه اللغة السامية البدائية لمبدأ الأكروفونيا acrophonie^(١٧).

أما عن المدونات المصرية الكثيرة التى حفرت على مر العصور على امتداد تاريخ الفراعنة على صخور جبال سيناء أو على الألواح التى أقيمت فى هذه المنطقة، فإنها تشكل منهل لا ينبض لفهم هذا التاريخ ومعرفة الملوك الذين نظموا هذه الحملات والرجال الذين قادوها. وهو ما يوفره لنا هذا النص المنحوت على لوح صخرى:

العام ٤٥، من عهد صاحب الجلالة الإله الكامل نى - ماعت - رع (أمنمحات الثالث)، محبوب حثور. إن الصديق الحميم للعاهل الملكى، المنتمى إلى مودته الحانية، قائد الجموع الغفيرة فى بلد الرجال الآخرين، العقل الفطن عندما يقدم تقريراً إلى سيده... لقد وصل بقدميه إلى حدود البلدان الأجنبية، مستكشفاً الوديان التى عميت مسالكها، وبلغ حدود المجهول، إنه يتاح ور، رئيس الخزائن الملكية، الصادق - القول، الذى أنجبه إيتو^(١٨).

لم يذهب يتاح ور إلى بلد أجنبى ولكن إلى «بلد الرجال الآخرين»، الممتد حتى حدود البلدان الأجنبية. فسيناء أرض مصرية، والفارق الوحيد القائم بين الوادى وشبه الجزيرة هو البشر الذين يعيشون على أرض كل منهما؛ فقد ظل المصريون يشعرون بقدر من الإحتقار تجاه البدو الرحل الذين «لا يسكنون فى مكان واحد ولكن تمشى سيقانهم على أراضى مساراتهم»^(١٩).

٣- إمبراطورية بابل

وناحية الشرق، كانت بلاد ما بين النهرين تغطى حوضى نهري دجلة والفرات، وكانا ينبعان من منطقة مجاورة فى جبال أرمنيا ويصبان فى الخليج الفارسى^(*).

كانت بلاد ما بين النهرين منطقة شاسعة للمواصلات: فجبال عيلام تحف

(*) أو الخليج العربى كما نطلق عليه. (المترجم)

واديان النهرين من جهة الشرق، أما روافدهما فتقود الإنسان إلى هضاب إيران وبلاد السند، وتحدّها من جهة الشمال الشرقي جبال زاغروس وشقت روافد نهر دجلة طرقاً توصل إلى بحر قزوين. وإذا كان مقدر لبلاد ما بين النهرين أن تكون أرضاً زراعية كما هو الحال بالنسبة لمصر، فكان اقتصادها اقتصاداً نهرياً، تغمر أرضها الفياضانات من مارس وحتى سبتمبر، إلا أنها كانت في المقام الأول طريق عبور عظيمًا على الصعيد الدولي ودروباً ممتدة للهجرات يقطعها البدو الرحل والباحثون عن موئل مستقر. وفي البداية نشأت المدن عند مخارج الدروب في المناطق التي تلتقي عندها القوافل بالأنهار: مدينة آشور على نهر دجلة وماري على نهر الفرات. أما بابل فقد ظلت لفترة طويلة قرية بسيطة شأنها شأن طيبة على نهر النيل، وكان مقدر لعاصمتي الشرق العظيمتين أن يكون مصيرهما مماثلاً.

وفي أعالي ما بين النهرين، استقر في بلاد آشور شعب ربما انحدر من أصول قوقازية. وقد عثر في هذه المنطقة على بقايا تعود إلى أواخر العصر الحجري القديم. «فكان الملوك من سكان الخيام» يهيمنون آنذاك عبر سهوب نهر دجلة، والبدو الرحل يسطون على القوافل التي تسلك الدروب القديمة التي تربط القوقاز ببحر قزوين. وتشكلت في بلاد ما بين النهرين السفلى، في بداية الأمر أسرات محلية تولت حكم المدن-الدولة. ونذكر منها كيش في منطقة أكّاد، وكان يقطنها الساميون ومدن أور وأوروك ولاجاش في بلاد سومر. إن أصول السومريين متنوعة وما زالت موضع جدال. وبادئ ذي بدء (؟)، فمن المحتمل أن بعض البدو الساميين الذين كانت ترعى ماشيتهم في الهضاب الوسطى بشبه الجزيرة العربية قد استقروا في المستنقعات الجنوبية، ولكن سرعان ما ظهر السومريون الذي يعنى اسمهم «الرعوس السوداء»، وربما (؟) قدموا من الهضاب الإيرانية حيث كانوا جزءاً من جماعة بشرية انبثقت منها أيضاً شعوب وادي السند. ويمكن عقد مقارنة بينهما تشمل عدداً من النقاط. ولكن أخذت الإسهامات السامية تتعاظم فيما بعد. وبدأت تلوح في الأفق الصراعات حول السلطة في لاجاش، ولا سيما بين الملوك وكهنة الإله ننجيرسو. هكذا ظهرت الطموحات السياسية.

وحدث أول «تجمّع» في القرن الرابع والعشرين ق.م، في زمن الأسرة السادسة

المصرية عندما وُحِدَ سرجون الأكادي بلاده وبلاد سومر. «لقد أحيطت طفولة سرجون بالأساطير تذكرنا إحدى فقراتها بقصة سيدنا موسى. لقد ولد من أب مجهول ومن أم كاهنة في قرية صغيرة على الفرات الأوسط. وأرادت أمه التخلص منه فتركته في سلة صغيرة وضعتها في مجرى النهر. والتقطه بستانى يعمل في بستان نخيل فأواه وأشرف على تربيته وعلمه مهنته، فكان في طفولته حامل الذكر. ولكن لم تنقُض فترة طويلة حتى بدأ نجمه يعلو. إن رعاية الإله عشتار له أدخلته إلى بلاط أور-زايابا ملك كيش فأصبح ساقيه، يقدم له الشراب. ثم ثار سرجون على سيده وأسس أجادا^(٢٠)». واغتصاب سرجون العرش يذكرنا من بعض النواحي بما فعله أمنمحات الأول وزير مونتوحتب الثالث^(٢١) الذي دعم وحدة مملكته الجديدة بعد أن ثار على سيده. إن مجموعة أساطير الشرق تشكل مجالاً فسيحاً لعلاقات التماثل الروحية.

واستطاع سرجون أن يغزو سومر ويحتلها بأكملها. وفي الشمال اضطر أمراء عيلام إلى الاعتراف بسيادته. كانت عيلام غنية بمناجم الفضة والديوريت، وتتحكم في طرق القوافل التي تبدأ من مدينة سوس لتنتهي في بلاد الهند. وزحف سرجون شمالاً بمحاذاة نهر الفرات إلى أن وصل إلى مدينة مارى فعاث فيها فساداً، ثم سار بمحاذاة نهر دجلة حتى مدينة آشور. بل واصل تقدمه حتى شمال سوريا وربما حتى جبال طورس. وبعد هذا «الانفجار» المفاجئ، لم تعد سلطة سرجون تسيطر في الحقيقة على كل هذه المساحة. فأصبح في واقع الأمر ملك سومر وأكاد، وأول من وُحِدَ بلاد ما بين النهرين. وأسس نظاماً ملكياً في عاصمة أجادا التي لا نعرف موقعها على وجه التحديد، وإن أقيمت على ما يرجح في مكان ما حول مدينة كيش. لقد عزز السلطة الملكية في مواجهة سلطة الكهنة وجمع الجزية التي يقدمها الأمراء المحليون. وعندئذ قادت سومر بلاد أكاد إلى ممارسة التجارة، وتشبعت الحياة السياسية والاجتماعية بالقانون السومري.

وبعد حوالي قرن من الزمن، انقضت على البلاد شعوب جوتي، وهم من سكان جبال الشمال وانهموا مؤقتاً سنوات الإزدهار التي عرفتتها المملكة الوليدة. فاجتاحوا المناطق الريفية وافسدوها وانطلقت طموحات المدن إلى الاستقلال الذاتي من عقالها. دام هذا الوضع قرناً واحداً. فاستطاعت الحضارة السومرية أن تستوعب شعوب

جوتى بالتدريج واستردت مدن الجنوب نشاطها التجارى لتستعيد ثراها. فى هذه الفترة كانت مصر أيضاً تعيش سنوات من الفوضى. فى العالم القديم المتحضر بغربه وشرقه، نلتقى بالزخم نفسه الذى يحرك التطور والازدهار وبفترات الصعود والهبوط ذاتها. وفى لاجاش تشهد أعمال الملك جوديا تحديداً على استعادة سومر لمجادها التليدة. فعندما شرع يشيد معبداً للإله ننجيرسو جلب من جبال أمانوس ومن المناطق السورية المجاورة أشجار الأرز والبقس والأحجار. ومن سواحل عُمان ومن وادى نهر السند، جاء الذهب والديوريت والعقيق الأحمر ومختلف الأشجار، ربما كان الأبنوس من بينها. وقدمت عيلام الأيدى العاملة بأعداد كبيرة. كل ذلك يقف شاهداً، فى أن واحد، على مدى ثراء الدولة التى تستطيع استيراد كل هذه المنتجات النادرة والغالية، وقدرتها على تأمين وسائل النقل^(٢٢).

حول عام ٢١٠٠ وقبيل قيام أمراء طيبة بتوحيد مملكة مصر، أسس أور - نامون من الأسرة الثالثة لمدينة أور، إمبراطورية كبيرة. ومن الآن خضعت المدينة لحكومة مركزية. وبالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين تحديداً كانت الإمبراطورية تضم مناطق فيما وراء نهر دجلة وحتى عيلام، بل من المعتقد أنها شملت مدينة سوس. هكذا بلغت سومر أوج قوتها. وإذا كان اللقب الملكى الجديد هو من الناحية الرسمية «ملك سومر وآكاد» إلا أن أور - نامون قد ركّز جلّ نشاطه فى إعمار سومر. فرمّم المعابد المهتمة وشق القنوات لتطوير الزراعة والتجارة وأصدر منظومة قوانين لتنظيم العلاقات الإقتصادية والاجتماعية بهدف إشاعة العدالة والتوازن فى المجتمع «حتى لا يُسَلَم الرجل الذى يمتلك شاقلا^(*) واحداً لمن يمتلك سبيكة ذهب^(٢٣)».

وفى عهد خلفاء أور - نامون تفتت الإمبراطورية شيئاً فشيئاً. وتحولت آشور عن خضوعها لحكومة سومر وطورت نشاطها التجارى حتى وصل إلى كبد وقيا^(**). ومن الآن أصبحت مقاليد السلطة فى أيدى أسرة جديدة عيلامية^(***) سيطرت على المناطق الواقعة شرق نهر دجلة. واستولى ملك مدينة لارسا فى سومر، على أور ليصبح «ملك

(*) عملة نقدية محدودة القيمة. (المترجم)

(**) فى أسيا الصغرى. (المترجم)

(***) نسبة إلى عيلام. (المترجم)

سومر وأكّاد». وأصبحت تجارة الثروات التي تعبر الخليج الفارسي(*) وتشمل الأحجار والمعادن النفيسة والعاج والنحاس، تتدفق من الآن على لارسا، وحصل عدد من المدن على استقلالها.

فى هذه الآونة وفى القرن الثامن عشر ق م تحديداً، نجد أن بابل وهى من المدن المطلّة على نهر الفرات، قد شرعت تنافس مدينة مارى فى السيطرة على كبرى الطرق التى تربط الخليج الفارسي بالبحر المتوسط. وكان حامورابى المتربع على عرشها صاحب ذكاء واضح ونفاذ بصيرة فذة وإدراك حاد فى اغتنام الفرص السياسية حتى شبهه البعض بالملك لويس الحادى عشر(**)، فى فرنسا(٢٤). فأعاد تجميع مناطق ما بين النهرين وأسّس إمبراطورية شاسعة تغالب الأيام. وخاض بجدارة «حرب الأنهار»، فاستطاع تحالف مدن الفرات أن يلحق الهزيمة بتحالف مدن نهر دجلة. وتوحدت من جديد سومر وأكّاد ودُمّرت مدينة مارى التى كانت تنافس بابل فى السيطرة على طرق التجارة. وأخضع حامورابى بلاد آشور. كما أدّت أسباب اقتصادية إلى استعادة بابل هيمنتها. وبالفعل فإن استمرار زحف الرمال على دلتا النهرين بلا هوادة قرب الخليج الفارسي، على الرغم من تنفيذ بعض الأعمال كشق القنوات، حول إذن التجارة الدولية بعيداً عن منطقة ما بين النهرين السفلى، بحثاً عن طرق أخرى. واستطاع حامورابى أن يجعل مدينته تتفوق على غيرها من المدن. وفى أعقاب الفتوحات العسكرية، أعيد تنظيم الإمبراطورية الجديدة تنظيمًا صارماً. وسوف تفرض قوانين حامورابى قواعدها على سائر بلدان الشرق الأدنى الآسيوى. بل إن مصر سوف تسترشد بمبادئها الرئيسية عندما أُرست منذ عهد تحوتمس الرابع أسس الأعراف والعادات التى وجهت دبلوماسيتها الدولية الوليدة(٢٥).

ولكن التوازن الذى عرفته إمبراطورية بابل ومملكة مصر اهتز وتقوض من

(*) أى الخليج العربى. (المترجم)

(**) حكم فرنسا من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣ ميلادية. بفضل سياسته الحاذقة استطاع أن يقضى على معارضة تحالفات الإقطاعيين؛ فكان من أهم صنّاع وحدة فرنسا فدعم السلطة الملكية وطور اقتصاد فرنسا. (المترجم)

جاء الإغارات الهندوأوروبية الكبيرة. ومن أحشاء هذه التحركات التي نزحت معها أقوام مهاجرة سوف يولد عما قريب عالم جديد.

هل قامت علاقات مباشرة بين مصر وبلاد ما بين النهرين؟ الأمر محتمل ولكن لم يبق الدليل عليه. ويبدو أن هذه العلاقات كانت قائمة، على كل حال، منذ أقدم العصور؛ لأننا نلتقى بمواضيع تصويرية من بلاد ما بين النهرين، وسومرية تحديداً، على بعض القطع الأثرية التي تعود إلى عصر ما قبل الأسرات في مصر. فمن مقتنيات متحف اللوفر في باريس سكين عثر عليه في جبل العركى بمصر العليا. لقد نقش على مقبضه وهو من العاج موضوع جلامش: إن رجلاً يرتدى القلنسوة السومرية المخروطية يمسك بثبات أسدين بذراعيه الممدودتين. كما أن صورة الحيوانات ذات الأعناق المتشابكة التي نشاهدها على صلايات الشست التي تعود، إلى عصر ما قبل التاريخ في وادي النيل وصورة الحيوانات الواقفة في تماثل تام على جانبي شجرة، نشاهدها أيضاً في بلاد ما بين النهرين.

هل قامت علاقات مباشرة عن طريق البحر الأحمر أو الصحارى؟ أم كانت علاقات غير مباشرة من خلال إلتقاء التجار في بيلوس أو في - مدن - الرمال؟ أم كانت ما تبقى من آثار حضارة موغلة في القدم لا نعرف عنها شيئاً، شملت مجمل هذه المناطق الشاسعة؟ من الصعوبة بمكان في الوقت الراهن أن نتقدم بإجابة شافية. ولكن وجود شواهد على قدم هذه العلاقات أمر محير.

٤- الغزوات الهندوأوروبية في آسيا

منذ مطلع القرن العشرين ق.م تقريباً وحتى القرن الثامن عشر، تحركت شعوب أرية كانت تقيم في المناطق الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود، وأخذت تزحف في اتجاه الجنوب. هكذا هبطت شيئاً فشيئاً، من الشمال موجات متلاحقة من

الجماعات البشرية.

ويبدو أن إيران قد اجتاحتها فى بادئ الأمر أولى الجماعات البشرية الآرية وهم الميديون والفرس الذين سيلعبون فيما بعد دوراً عظيماً فى التاريخ.

كما عبرت أقوام أخرى المضائق واستقرت فى الأناضول، واتخذت اسم الحيثيين الذى كان يطلق على السكان الأصليين، فقد أقام الوافدون الجدد بين ظهرانيتهم. لقد عان النظام الملكى الحيثى الجديد الكثير من صروف الدهر، قبل أن يتمكن من فرض نفسه كإحدى القوى العظمى فى العالم الشرقى، والمنافس المباشر لمصر. وسوف يتحقق ذلك فى وقت لاحق فى زمن الرعامسة.

كما جاء غزاة آخرون عابرين مباشرة من شطآن بحر قزوين فى المنطقة الجبلية لنابع نهري دجلة والفرات واستقروا فى بلاد الميئاني ليؤسسوا بسرعة فائقة نظاماً ملكياً قوياً، يضم مختلف الممالك الحورية والسامية القائمة فى المنطقة. وسوف تبرز بصفتها منافساً تجارياً وسياسياً لمصر. كان الحوريون يقيمون فى هذه البلاد منذ عدة قرون. وفى القرن التاسع عشر ق.م كانوا قد أسسوا بالفعل إمارة فيما وراء جبال طوروس. ويبدو أن الشعوب الغازية قد دفعتهم شيئاً فشيئاً إلى طرفى الأراضى الميئانية وبسطت سلطانها على هذه الشعوب الأقدم منها.

وصمدت الإمبراطورية البابلية وقاومت ببسالة، ولكن فى عهد سمسون - إلونا خليفة هامورابى وابنه، هبط فرسان كاشيون من جبال زاجروس. وأمكن التصدى لهم فى بداية الأمر، ولكنهم استطاعوا أن يتسللوا فيما بعد إلى السهل ليصبحوا عمالاً زراعيين. كانوا منظمين فى هيئة جماعات مسلحة فعاشوا أيضاً على السلب والنهب، وعندئذ تمردت من جديد المدن المتطلعة إلى الإستقلال. كانت بلاد ما بين النهرين تسكنها شعوب تعود إلى أصول متنوعة ولم تعرف الوحدة الجغرافية التى تميزت بها مصر. لقد ظهر ملوك أشاعوا الرخاء والإزدهار فى المنطقة ولكن الظروف العرقية والطبيعية لم تكن تتلاءم مع نشأة الشعور الوطنى، كما كان الحال فى وادى النيل. ومزقت الخلافات «بلدان البحر» المطلة على الخليج الفارسى. أما الكاشيون، وبعد انقضاء فترة، تمكنوا خلالها من التسلل إلى داخل البلاد بالطرق السلمية إلى حد ما،

فقد استعادوا أمجاد إمبراطورية هامورابى القائمة حول بابل وأسسوا أسرة حاكمة جديدة.

ومن الآن، شهد الشرق الأدنى الأسيوى قيام دول كبرى. وبعد أن أنجزت مقومات التأسيس والتنظيم التى استغرقت فترات متفاوتة، بدأت تهدد هيمنة مصر التجارية والسياسية فى البحر المتوسط والبلدان القائمة حول الأنهار. ولكن فى هذه الفترة بالذات كانت مصر تمر بمرحلة جديدة، شهدت أفول نجمها لتتوارى بعيداً فى الظل.

وبالفعل فإن الشعوب السامية التى طردتها تحركات الهجرة الزاحفة، حاولت أن تستقر إلى الجنوب قليلاً وحتى بلاد كنعان، وقد لحقت بهم جماعات أرية. وفى القرن الثامن عشر ق.م ومع تزايد أعدادها، انتهى بها الأمر إلى الدخول فى دلتا النيل. وتطلق عليها النصوص المصرية اسم حكاو خاسوت أى «أمراء البلدان الأجنبية»، أما الإغريق فقد ترجموا هذا الاسم بمصطلح هكسوس.

الفصل الثانى

أجانب فى ملكة مصر

١- الغزاة الهكسوس. مُلك قصير العمر فى وادى النيل

تقاعس السلطة الملكية المصرية

مع نهاية الأسرة الثانية عشرة وبوفاة أمنمحات الرابع حول عام ١٧٨٥ ق.م عانت مصر من أزمة فى وراثة العرش: فلم يترك الملك وريثاً راشداً فخلفته على ما يبدو، ملكة اسمها سويك - نفرو أى «جمال الإله سويك». كانت العاصمة لا تزال فى الفيوم وكان يُعبد فيها على وجه التحديد سويك، الإله- التمساح للأصقاع التى تنتشر فيها البحيرات والمستنقعات. ولا شك أن الملكة كانت ابنة أمنمحات الثالث ومن ثم أخت أمنمحات الرابع أو أخته غير الشقيقة. دام حكم سويك - نفرو حوالى أربع سنوات. وقد ذكر اسمها فى قوائم ملوك الكرنك وسقارة وفى بردية تورينو. وفى مقياس النيل القائم عند الجندل الثانى فى النوبة سجل مستوى ارتفاع الفيضان فى تاريخ يعود إلى العام الثالث من حكمها. وعلى جزء من أسطون يحتفظ به متحف القاهرة وعلى لوح حجرى عثر عليه فى هواره بالفيوم يذكر اسم الملكة إلى جانب أمنمحات الثالث. وافترض البعض احتمال أن تكون قد شاركته الحكم^(١)، وإن كنا نفتقر، من جهة أخرى، إلى أى برهان يؤكد ذلك. ويذكرنا مصيرها بالملكة نيتوكريس(*) التى أنهت الأسرة السادسة فى ظروف مماثلة.

إن الانتقال من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثالثة عشرة يظل فى نظرنا فى الوقت الراهن، سنوات بلا تاريخ. ويبدو أول ملك ثبت وجوده وهو أمنمحات - سويك حوتب الذى لا نعرف شيئاً تقريباً عن أصوله، قد حاول الارتباط بأسلافه ويشهد على ذلك الاسم الذى اختاره لنفسه. ومن غير المستبعد أيضاً أنه اتخذ الملكة سويك - نفرو زوجة له ليضفى الشرعية على تربيته على العرش. كما يبدو أن هذا الملك قد حكم مصر من أقصاها إلى أدناها، طوال أربع سنوات تقريباً، وإن لم نجد اسمه على أى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى نت - إقرت. (المترجم)

وثيقة جادت بها الدلتا. وشيّد بعض المقاصير فى معبد المدامود إلى الشمال من طيبة وفى الدير البحرى. كما يذكر اسمه على مقياس النيل عند الجندل الثانى.

ثم خلفه سى عنخ تاوى - سخم كارع الذى يعنى اسمه «هذا الذى يُحى الأرضين - قوى هو كا رع». ولكن وحدة مصر كانت قد انفرط عقدها فى عهده. فلم تعد السلطة الملكية تشرف على النوبة. بل ربما حكم كلاً من مصر العليا ومصر السفلى نظامان ملكيان منفصلان.

أما المرحلة التالية فهى من أكثر مراحل تاريخ مصر غموضاً. وإذا أخذنا بما تكشف عنه النصوص والمدونات، يبدو أن ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كانوا كثيرين. ولكن من المؤكد أن مصر قد عرفت فى هذه الفترة أسرات متوازية. لقد تولى بعض الملوك الحكم فى منف أو إيت - تاوى، قرب اللشت، وهى المدينة التى شيدها ملوك الأسرة الثانية عشرة فى الفيوم^(٢). ويبدو أن ملوكاً آخرين قد اختاروا تانيس مقراً لهم ونذكر منهم سمنخ كا رع - مر مشع وهذه الكلمة الأخيرة تعنى «القائد العسكرى». ولا شك أنه كان من العسكريين واستولى على السلطة فى الشمال. وقد وجدت مجموعة ألقابه منقوشة على تمثالين عثر عليهما فى تانيس ثم استولى عليهما فيما بعد أبوبى من ملوك الهكسوس. ومعنى ذلك أنه سبق حكم الملوك الغزاة. ولما كان من المستبعد أن يكون الهكسوس قد نقلوا هذين التمثالين من طيبة إلى الدلتا، فالأقرب إلى الصواب أن المدعو مر مشع كان من ملوك أسرة حاكمة فى الشمال.

وفى المقابل، وفى عهد تحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة نُقشت على جدران حجرة صغيرة فى معبد الكرنك أسماء الملوك المنتسبين إلى الأسرة الثالثة عشرة وحكموا طيبة ومصر العليا. ولم تنبس هذه القائمة بكلمة عن أمراء الشمال.

ولا تقدم لنا قوائم الملوك الأخرى أية معلومات. أما نص بردية تورينو الذى دُون بلا شك فى مصر العليا فى عهد رعمسيس الثانى، فإنه يضم سلسلة من أسماء الملوك مع توضيح عدد سنوات حكم كل منهم وكأنها متعاقبة ودون الإشارة إلى ملوك الذين عاصروا بعضهم لبعض. أما هانتون واستناداً إلى من نقلوا عنه، إذ ضاع مؤلفه، فقد كتب يقول: «تضم الأسرة الثالثة عشرة ستين ملكاً انحدروا أصلاً من ديوسبوليس»^(٣)

Diospolis وحكموا البلاد لفترة أربعمئة وثلاث وخمسين سنة^(٤)». ومن الواضح أن عدد السنوات مبالغ فيه إلى حد كبير ويبدو أنه لم يراعِ تزامن بعض سنوات الحكم المحلية.

وعن الأسرة الرابعة عشرة يقول مانتون: «كانت الأسرة الرابعة عشرة تضم ستة وسبعين ملكاً انحدروا من خويس^(*) Xoïs^(٥) واستمر حكمهم مئة وأربعة وثمانين سنة^(٦)». أما بردية تورينو فإن نصها شديد الغموض بالنسبة لنا. ويبدو أن الأسرة الرابعة عشرة هذه، قد تسلمت مقاليد الحكم فى خويس بينما كانت الأسرة الثالثة عشرة تحكم باقى البلاد. وربما حدث ذلك فى أعقاب تمرد محلى فى مستنقعات الدلتا، دون أن نعرف أسبابه أو الأحداث التى صاحبتة. فزاد الطين بلة، والتعقيد تعقيداً، حتى بات من الصعوبة بمكان تحليل واقع هذه الأسرات الفرعية والمتوازية.

ومع ذلك يمكن تمييز بعض اللحظات الهامة. نذكر على سبيل المثال عهد الملك سخم رع- سى واج تاوى- سوبك حوتب ويعنى اسمه: «رع شديد البأس- هذا الذى يعيد الإخضرار إلى القطرين- ليكن سوبك راضياً». وبفضل هذا الاسم يُستظل الملك بحماية اثنين من كبرى الآلهة التى خصتهما الأسرة الثانية عشرة بعبادة خاصة: رع وسوبك. وكأنه يعلن عن أصوله المنحدرة من الشمال أو عن رغبة فى الارتباط بملوك شرعيين. والفرضية الثانية هى الأقرب إلى الصواب، إذا لاحظنا أن والده كان يدعى مونتوحوتب أى «ليكن مونتو راضياً» وهو اسم طبيى^(**) بكل وضوح. ومن جهة أخرى فقد ذكر هذا الملك سوبك حوتب فى إحدى مقابر الكاب^(***) بمصر العليا كما شيد معبداً فى المدامود شمال طيبة. ولكن تم الكشف أيضاً عن اسمه فى اللشت بالفيوم. ولن نحيد كثيراً عن الحقيقة إذا ذهبنا إلى القول بأن مصر قد استعادت وحدتها لفترة قصيرة فى ظل حكمه. ويبدو أنذاك أن أسرة من الملوك الذين يحملون اسم سوبك- حوتب قد حاولت أن تؤسس حكمها للبلاد بعد أن حققت وحدة أرض مصر

(*) سخا، حالياً. (المترجم)

(**) نسبة إلى مدينة طيبة. (المترجم)

(***) شمال إدفو. (المترجم)

وسياستها. وخلف سخم رع - سى واچ تاوى، أخواه وكان خع سخم رع - نفر حوتپ أحدهما. فعندما باشر پير مونتيه Pierre Montet أعمال التنقيب فى بيبيلوس^(٧) كشف عن نقش يصور على ما يبدو أمير المدينة إلى جانب أحد ملوك مصر. صور الأول جالساً وقد تدثر برداء طويل ويمتد أمامه المتن الآتى: «إن أمير بيبيلوس إنتن(*) الذى سوف تتجدد حياته والذى أنجبه الأمير رين، صادق القول». لقد أنعم على هذا الأسىوى بلقب حاتى-ع (حرفياً: «الذى فى المقدمة بفضل ساعده» وهو اللقب الذى لا يحمله سوى كبراء مصر ومن بينهم حكام الأقاليم). كما مُنح صيرورات أبدية من النمط الأوزيرى. ويصاحب المتن ابتهالاً من أجل رع - حور - أختى. وكان يوجد أمام إنتن شخص آخر وإن اختفى فى الوقت الراهن، ولكن يمكن استجلاء علامات الاسم المحاط بخرطوش بكل وضوح وصولاً إلى أن صاحبه، هو خع سخم رع - نفر حوتپ. إن ما سبق يبرهن على أن هذه الذرية من الملوك قد بلغت درجة من القوة مكنتها من إعادة العلاقات التجارية والسياسية مع بيبيلوس كما أكدت هيمنتها على المدينة الفينيقية وأوجدت فى الوقت نفسه وحدة أيديولوجية وثيقة. وربما كان المدعو إنتن هو الأمير يانتين-حامو الذى عثر على اسمه فى محفوظات مدينة مارى.

إن تمثالاً للملك خع نفر رع - سوبك حوتپ شقيق خع سخم رع - نفر حوتپ عثر عليه فى جزيرة أرجو جنوب الجندل الثالث، فى السودان. ومن غير المعقول أن نذهب إلى القول بأن سلطان آل سوبك حوتپ قد وصل بعيداً إلى هذا الحد، جهة الجنوب. ولكن الأقرب إلى الصواب أن يكون هذا التمثال قد نقل إلى هذا الموقع إبان الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية فى زمن لاحق، بعد مرور ألف سنة تقريباً. فلا غرابة أن «تسافر» القطع الأثرية وتنتقل من مكان إلى آخر. فلا بد من تناول كل كشف أثرى بالفحص والتمحيص، وأن يُقيّمه حق التقييم علماء اللغة والمؤرخون. إن علم المصريين، شأنه شأن سائر علوم العصور القديمة، لا بد أن يتوخى الاعتدال والإتزان عند إصدار أحكامه وأن تكون بوحى من العقل. إنه يعتمد على إعادة صياغة وقائع

(*) هذا الاسم هو بلا شك الصيغة المصرية للاسم السامى يوناتان. (المؤلفة)

وأفكار موهلة في القدم، قد تطرأ تعديلات على تاريخها أو يضاف إليها الجديد، بين عشية وضحاها، مع كل كشف جديد.

وبعد هذه النهضة التي شهدت إزدهار البلاد، يبدو أن عدداً من الأسرات الحاكمة المحلية قد تقاسمت السلطة في أعقاب انفراط عقد وحدة الأرضين من جديد. فبعض ملوك الجنوب ذاته الذين نقشت أسماؤهم على معالم أثرية في الجبلين وفي أسيوط لم تذكرهم بردية تورينو، ربما كانوا على رأس أسرات تحكم مدناً تابعة إلى حد ما لمدينة طيبة.

وقبل فترة قصيرة من اجتياح الهكسوس للبلاد عرفت مصر ملكين ربما كانا معاصرين ولكن لم يصل ما نعلمه عنهما إلى حد الجهل المطبق. ففي شمال شرق الدلتا كان يحكم نحسى الذى يعنى اسمه «النوبى». كان الجنوب بلا شك موطنه الأصلي؟ وقد كرس تمثالاً للإله ست في مدينة أواريس التي كان من المنتظر أن تصبح عاصمة الغزاة - إن لم تكن قد أصبحت هكذا، كما اتخذوا من ست إلهاً راعياً وحامياً. هل كان سلوكاً نفعياً من أجل التحالف مع الحكام الجدد؟ أم كان نتيجة ورعاً شخصياً؟ فربما أميط اللثام في المستقبل عن وثائق أخرى تحيطنا علماً بحقيقة شخصية هذا الملك الغريب الأطوار. أما ديدومس فكان ملكاً على الجنوب وتذكره بردية تورينو. ولكن يبدو أن الآثار تؤكد على وجود ملكين يحملان اسم ديدومس: الأول ولقبه جد حوتب رع ونعرفه بفضل لوحين حجرين عثر عليهما في إدفو، أما الآخر ولقبه جد نفر رع فنعرفه بفضل لوح حجرى عثر عليه في الجبلين. ترى هل نحن بالفعل بصدد ملكين أو ملك واحد تغير اسمه الدال على لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى؟ وأياً كان الأمر، فمن المحتمل أن الغزاة قد انتشروا في البلاد في عهده، على حد قول المؤرخ اليهودى يوسيفوس(*) الذى نقل روايته عن كتابات مانقون في غمار مناظراته وهو يرد على أبيون. «لقد حكم البلاد فى الماضى ملك يدعى توتيمايوس (من الواضح أن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم المصرى ديدومس). وحدث فى زمنه، لا

(*) عاش هذا المؤرخ معظم حياته فى روما فى القرن الاول الميلادى وكتب باليونانية. (المترجم)

أعرف كيف، أن الله كان غير راضٍ علينا. عندئذ وصل فجأة من جهة الشرق قوم أخسَاء المنبت وصلت بهم الجسارة إلى حد اجتياح بلادنا. وكانوا على قدر من القوة مكنتهم من إخضاعها دون أن يطلقوا سهمًا واحدًا. وبعد أن قبضوا على أمرائنا، أضرموا النار بوحشية في مدننا ودمروا معابد الآلهة فصارت أثرًا بعد عين. وأذاقوا السكان الأمرين وألوان المعاملات الهمجية، فقتلوا البعض واسترقوا زوجات وأولاد البعض الآخر. ثم انتخبوا من بينهم ملكًا، اسمه سالييتس وقد اتخذ من منف مقرا له وفرض الجزية على مصر العليا ومصر السفلى وخلف وراءه الحاميات في أهم المواقع. واهتم بصفة خاصة بالأقاليم الشرقية فحصنها، تحسبًا لاحتمال قيام الآشوريين بغزو المملكة^(٨)».

يجمع هذا النص بين الشاعر التي اعتزت مصريي العصر الفرعوني والتي عانى منها مصريو العصر البطلمي وهو العصر الذي عاصر ماقتون بدايته. فقد ظل أبناء وادي النيل تتسلط عليهم مشاهد السلب والنهب والعنف التي ارتكبت قبل ذلك بأربعمئة سنة في القرن السابع ق.م، على أيدي الآشوريين وما عرف عنهم من قسوة وشراسة. وبالمثل سوف نلاحظ أن المصريين الذين عاشوا بعد القرن الثامن عشر ق.م سوف تظل حافظتهم مطبوعة بذكرى بشعة عن غزو الهكسوس. ومن الواضح بطبيعة الحال أن الآشوريين كانوا في ذلك العصر تحت سيطرة أمبراطور بابل، ومن ثم كانوا لا يشكلون أدنى خطر قد يهدد مملكة مصر. فينبغي إذن التحلى بالفطنة والتبصر عند استخدام المصادر اليونانية ومن ذهب مذهبهم من أخلافهم.

وفى تلك الأزمنة التي عمت فيها الإنقسامات استمر العمل على ما يبدو في المؤسسات التقليدية على الصعيد المحلي، وفي مطلع الأسرة الثالثة عشرة على الأقل. لقد احتفظت إحدى البرديات وهي بردية بولاق رقم ١٨ بميزانية البلاط الملكي في الجنوب، دون أن تعلمنا الوثيقة شيئًا عن الملك المقصود. لقد أعد هذه البردية كاتب من مدينة طيبة يدعى نفرحوتب، كان يسجل ميزانية الملك يومًا فيومًا. وكانت المصاريف تشمل القوائم المدنية التي تخص العائلة المالكة ومرتببات كبار الموظفين والهبات التي ينعم بها الملك على رعاياه ولا سيما بمناسبة الأعياد. وبالطبع كانت الموارد تتكون من

الضرائب وهى الموارد العادية (أخو بالمصرية القديمة أى «ما يتم تحصيله») والموارد غير العادية (إينو بالمصرية القديمة أى «ما يتم إحضاره»- وهى عبارة تدل أيضاً على الجزية). كان الكاتب يميز بعناية فائقة بين جملة الضرائب المنتظر جبايتها وما تم تحصيله فى واقع الأمر، فيحتفظ على الدوام بحصر للمتأخرات الواجب سدادها.

وقد وضع نصب عينيه تسجيل تفاصيل المصروفات: وعلى رأس أكبر المنتفعين من إنعامات الملك: الملكة وأخوات الملك. ويبدو أنهن كنَّ يشغلن مناصب إدارية فى الدولة. الأمر الذى ربما مهدّ لبروز دور المرأة فيما بعد فى إدارة دفة الحكم مع بداية الأسرة الثامنة عشرة. إن قائمة الموظفين طويلة ومتنوعة. فيحصل كبراء البلد على مرتبات: لا سيما الوزير وحاملو الأختام الثلاثة الذين يشغلون على التوالى وظائف القائد العام والمشرف العام على الحقول وكاتب المحفوظات الملكية. ومع ذلك لم يطل النسيان أصحاب الوظائف القليلة الشأن كالموسيقيين والمنشدين والعمال والحرفيين الذين يعملون فى خدمة الملك فيحصلون على قوتهم هم وعائلاتهم. أما المصاريف غير العادية فكانت تخص أعياد الإله مونتو الذى استمرت عبادته فى المدامود، فقد أولاه ملوك الجنوب هؤلاء، على ما يبدو بأكبر قدر من الإهتمام، شأنهم شأن ملوك الأسرة الحادية عشرة.

ولكن لم يسقط آمون فى طى النسيان. إن جزءاً من لوح من الحجر الجيرى، عثر عليه فى الكرنك ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن، يرصد كل ما أغدق به الملك خع نفر رع- سوبك حوتب من خيرات، على معبد إله الكرنك.

إن بعض الكشف الأثرية التى تعود إلى الصدفة البحتة قد أضافت اللثام عن بعض شخصيات كبار الموظفين، كنا لا نعلم عنهم شيئاً: نذكر منهم على سبيل المثال الوزيرين عنخو وإيمرو الذين عاشا فى زمن الأسرة الثالثة عشرة. فأصبحنا نعرفهم من خلال عدد كبير من التماثيل والألواح الحجرية فضلاً عن البرديات التى تذكر اسميهما. ولكن ما زال من الصعوبة أن نذكر بصددهما مزيد من المعلومات: فربما عرف هذا العصر عدداً من الوزراء الذين يحملون اسم إيمرو. هل كانوا ثلاثة؟

ويصعب التمييز بينهم. والشئ ذاته يقال عن عنخو: فهكذا كان يدعى الوزير الذى كان يعمل فى خدمته الكاتب الهمام نفرحوتپ، وربما عاصر عهد أمنمحات- سوبك حوتپ؟ أو عاش فى زمن سى واج تاوى- سوبك حوتپ الذى لم يذكر اسمه سوى فى بردية بولاق^(٩). وعلى كل حال فقد ورث الوزير - أو أحد الوزراء - عنخو منصب والده. وبالفعل تدعى والدته «زوجة الوزير» على أحد تماثيل ابنها. فهل كان هذا الوزير هو إيمرو كما افترض البعض؟ وهكذا ينهض البرهان على احتمال نشأة مخصصات عائلية.

إنه تاريخ صاغته الظلال أو عدم اليقين وطبعه تعاظم ومن السلطة وتخاذلها.

الهكسوس فى مصر

إن الغزوات الآرية القادمة من الشمال دفعت أمامها الآسيويين الذين تسللوا شيئاً فشيئاً فى دلتا النيل إبان الأسرتين. الثالثة عشر والرابع عشرة المصريتين. ولم يتمكن الملوك من وقف هذا التيار الخطير أو لم يعرفوا. وفى نهاية هذه المرحلة على حد قول مانقون وفى عهد ديد ومس، وبعد أن كانت هذه الحركة متدرجة فى بادئ الأمر، إلا أنها تحولت إلى غزو حقيقى اجتاحت البلاد.

ويبرهن علم أسماء الأعلام onomastique أن الغزاة كانوا من الشعوب السامية، وكنعانيين وأموريين أساساً. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا من الحوريين كما زُعم فى بعض الأحوال. فأسماء الأعلام ليست حورية ولا هندوأوروبية.

ومن بين هذه القبائل ربما انضمت إليها ذرية سيدنا إبراهيم. ويعرف الجميع تفاصيل رحلته الطويلة: فقد بدأها من أور فى سومر واتجه إلى حرّان، شرق الفرات وإلى الشمال الشرقى من حلب التى كانت مركزاً هاماً من مراكز عبادة القمر فى بلاد ما بين النهرين، ثم اتجه إلى مصر. ثم عاد أدراجه إلى أرض كنعان؛ حيث مكثت ذريته بعض الوقت قبل أن تعود إلى مصر فى ركاب الهكسوس بعد أن جذبتهم ثروات

وادي النيل. وهو ما يتفق مع التتابع الزمني الذي في متناولنا وهو سفر الخروج^{(١٠)(*)} الذي يخبرنا بأن العبرانيين طردوا من مصر بعد أن أقاموا فيها لمدة ٤٣٠ سنة. وإذا كان هروب العبرانيين من مصر قد حدث بالفعل في عهد رعمسيس الثاني^(١١) الذي حكم مصر اعتباراً من ١٢٩٠ ق.م يصبح هذا التتابع الزمني أقرب إلى الصواب لأسباب كثيرة، تحملنا على هذا الاعتقاد^(**).

أما عن تحديد تاريخ أول مكان أقام فيه الهكسوس لأول مرة على أرض مصر فيمكن أن نفترض تاريخاً هو أقرب إلى الحقيقة: فربما حدث ذلك في العام ١٧٣٠ ق.م تقريباً استناداً إلى وثيقة شديدة الأهمية ونطلق عليها إصطلاحاً اسم لوح العام ٤٠٠ وقد أقيم في مدينة تانيس في عهد رعمسيس الثاني، وعثر عليها مارييت Mariette في هذا الموقع عام ١٨٦٣. ثم غطّ اللوح الرمال من جديد بعد أن تم نسخ مضمونه لحسن الحظ. وأعاد الكشف عنه بيير مونتيه Pierre Montet إبان أعمال التنقيب التي باشروها في تانيس. ويوضح النص أن ملكي المستقبل رعمسيس الأول وسيتي الأول قد احتفلا إحتفالاً يوبيلياً بمناسبة مرور أربعمئة سنة على إقامة عبادة الإله ست في تانيس. ومن غير المستبعد أن هذه الواقعة تعود إلى عهد حور إم محب بينما كان كل من رعمسيس

(*) وهو ثاني أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. ويضم العهد القديم حسب تصنيف الكنيسة الكاثوليكية ٤٦ سفرًا، كما أنه ثاني أسفار التوراة، ومعناها بالعبرية الشريعة، وهي أحد أجزاء العهد القديم الأربعة (التوراة والتاريخ والحكمة والأنبياء). أما العهد الجديد فيضم ٢٧ سفرًا، على رأسها الاناجيل الأربعة. (المترجم)

(**) تقول رواية سفر الخروج أن فرعون خرج على رأس جيش جرار لمطاردة بني إسرائيل ولكنهم غرقوا جميعاً في البحر (الإصحاح ١٤ من سفر الخروج). أما رعمسيس الثاني فقد وافته المنية وهو في السابعة والتسعين من عمره تقريباً. كما أظهر فحص موميائه بوجود أعراض إلتهاب المفاصل الفقارية فيبست وغلظت ومن المؤكد أن هذا المرض قد جعل شيخوخة الفرعون غير مريحة (راجع روجيه ليشتنبرج وفرانسواز بونان: المومياوات المصرية. الجزء الثاني. ترجمة ماهر جويجاتي. ص ٣٩. دار الفكر. ١٩٩٩). فهل يعقل بعد ذلك أن يكون رعمسيس الثاني قد خرج على رأس جيشه لمطاردة بني إسرائيل ويغرق في البحر بعد أن بلغ من العمر أزدله وأصبحت مجرد حركته عملية مؤلمة؟ (المترجم)

وابنه سیتی لا یزالان یخدمان کضابطین فی الجیش المصری. أجل إن عبادة ست كانت قائمة فی شرق الدلتا، منذ أولى الأسرات، ولكن مع وصول الهکسوس أدمجوا هذا الإله فی الإله سوتخ الآسیوی، وأسبغوا علیه صفات جديدة، منها التاج المخروطی والقرنین، وهی جزء من غطاء رأس بعض الآلهة الآسیویة الأخری، نذكر منها علی سبیل المثال الإلهین ریشیپ و تیشوب. وبالفعل فإن صورة ست كما نقشت فی الجزء المقوس فی أعلى لوح العام ٤٠٠، تلتزم بهذا الشكل الجدید الذی نلتقى به أيضاً علی أحد جعارین الهکسوس. ولما كان حور إم محب قد حکم مصر من ١٣٢٠ إلى ١٣٢٠ تقريباً ق.م؛ فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن الآسیویین قد تسللوا لأول مرة إلى مصر اعتباراً من ١٧٣٠ ق.م.

استقر الهکسوس فی المدينة التی أطلق علیها أواریس وبالمصرية القديمة حوت وعرت أى «قصر المقاطعة» من الناحية الإدارية، إنها باختصار عاصمة.
وعن هذا الموضوع یقول مانتون:

«لقد وجد (أى سالیس زعیم الهکسوس) فی إقليم بلدة سترویت(*) مدينة ذات موقع مناسب، شرقی الفرع البویاستی للنهر، وكان یطلق علیها أواریس وفقاً لتقليد لاهوتی قديم متواتر. فأعاد بناؤها وحصنها بأسوار متينة. وفضلاً عن ذلك فقد شغلها بأعداد ضخمة من الجنود لحراستها وسلّحهم تسليحاً ثقیلاً وكانوا حوالی ٢٤٠٠٠ فرداً. وكان یأتی إلى هذه المدينة صيفاً سواء لیکیل قمحهم ودفع رواتبهم أو تدريبهم تدريباً راقياً من خلال المناورات التی بثّت الرعب فی نفوس الأجانب... كان یطلق علی هذا الشعب اسم «هکسوس» ومعناه «الملوک الرعاة» لأن هیک تعنی فی اللغة المقدسة «ملك» وسوس تعنی فی اللغة الدارجة «رعاة». إن اقتران هذين الاسمین یعطينا هکسوس»^(١٢).

إن الأصل الاشتقاقی لكلمة «هکسوس» كما أورده مانتون خاطئ. فإذا كانت كلمة حقا تعنی بالفعل «رئيس» فإن العنصر الثانی من هذا الاسم لا یتفق وكلمة

(*) الواقعة فی شمال شرق الدلتا. سلیم حسن. مصر القديمة. الجزء الرابع. الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٢. ص ٦٥. (المترجم)

شاسو الدالة على بدو أرض كنعان و شمال سيناء ولكنها تتفق وكلمة خاسوت أى «البلدان الأجنبية». إن لقب حقا خاسوت يظهر منذ الأسرة الثانية عشرة للدلالة على زعماء القبائل ومشايخ الصحراء الآسيوية.

ومن المحتمل أن مدينة أواريس قد شيدت فوق موقع الختاعة - قنتير قرب تانيس. إن أهمية هذا الموقع كانت معروفة منذ الأسرة الثانية عشرة: كان مركزاً إستراتيجياً يتحكم فى الطرق المؤدية إلى آسيا وملتقى التجارة. هكذا يبدو أن الآسيويين قد تحكموا فى بداية الأمر فى شمال شرق مصر ثم الدلتا.

إن تحديد مكان المواقع القديمة يشكل أحياناً قضية عويصة: فقد اعتبر البعض أن أواريس وتانيس شئ واحد^(١٣). كما تم الخلط بين پر رعمسيس - عاصمة رعمسيس الثانى والختاعة - قنتير^(١٤) وأواريس، منذ عهد قريب^(١٥).

وإذ ظل الغزاة محتفظين بعاداتهم السامية فقد تبناوا أيضاً أعراف المصريين. فكتبوا أسماءهم بالعلامات الهيروغليفية بل واتخذوا أحياناً أسماءً مصرية، وبوتوها على الجعارين وأحاطوها بخرطوش مسبق بأحد عناصر مجموعة الألقاب الملكية وهو «ابن رع»، فى حين كانوا زعماء قبائل، فأرادوا على هذا النحو، أن يندمجوا فى الأمجاد التليدة للوك الزمن الغابر. وإلى هؤلاء الزعماء الخاملى الذكر، ينسب عدد كبير من الجعارين التى عُثر عليها فى مصر، وكانت مزدانة على الطريقة الآسيوية بزخارف على هيئة وردة أو نجمة أو عناصر هندسية حلزونية أو متشابكة. ومن بين هذه الأسماء يسترعى بعضها اهتمامنا ونذكر منها على سبيل المثال اسمى يعقب - هر و عنات - هر ويتكونان من اسمين من أسماء الآلهة الكنعانية، ليوفرا دليلاً آخر على الأصول السامية لهؤلاء الغزاة.

ودامت إقامتهم فى هذا المكان لفترة ربع قرن حتى مطلع القرن السابع عشر ق.م. عندئذ تشكل الهكسوس كدولة تهيمن على الدلتا: وبقيادة زعيمهم ساليستس شرعوا آنذاك فى غزو مصر. ولا يبدو أنهم واجهوا مقاومة كبيرة. فكما لاحظنا كانت مصر منقسمة تحكمها عدة أسرات محلية، فكان من الصعوبة بمكان رسم استراتيجية شاملة. زد على ذلك، أن الهكسوس كانوا يمتلكون على ما يبدو سلاحاً

حربياً جديداً عظيم الفاعلية وهو المركبة الحربية التي تجرها الجياد. فاستطاع التفوق التكتيكي للغزاة أن يقضى بسهولة على جميع أشكال المقاومة المتفرقة.

إن الوثائق التي تحت أيدينا في الوقت الراهن، لا تساعدنا إلا في أضيق الحدود، على معرفة أسرات الهكسوس هذه. وبردية تورينو وهي قائمة الملوك الوحيدة التي تذكر الهكسوس مليئة بالفجوات. إن يوسيفوس ويوسابيوس الإفريقي اللذين نقلوا عن مانتون لا يتفقان دائماً على أسماء الملوك أو تتابع عهودهم. كما يمكن استخدام مصدر مصري آخر وإن كان محدوداً للأسف. نقصد بذلك قائمة كبار كهنة منف التي وضعت عام ٧٠٠ ق.م وتذكر أسماء الملوك الذين أقام هؤلاء الكهنة الشعائر في عهودهم. ولكنها لم تدون سوى أسماء ثلاثة من ملوك الهكسوس الذين لم يذكر إلا آخرهم، وهو أبوي، في المصادر الأخرى.

وبمقارنة هذه المصادر يمكن أن نتفق دون أن نجافي الحقيقة، بوجود أسرتين من ملوك الهكسوس^(١٦). ويجمع جمهور العلماء على صحة هذا الافتراض. ويُظن أن الأسرة الأولى وهي الأسرة الخامسة عشرة في مصر ضمت ستة ملوك وأن سنوات حكمهم قد دامت مئة وثمانية سنوات وذلك بالاستناد أساساً إلى بردية تورينو. لقد ضاعت جميع الأسماء ما عدا اسم آخر الملوك وهو: خع مودي. أما مانتون فيذكر أسماء ساليّس وبنون وأبخنان وأبوي وياناس وأسيّس أو كيرتوس. وعلى الوثائق المعاصرة قد يكون أبوي هو عا أوسر رع - أبوي في حين يطلق على ياناس اسم سي أوسر رع - خيان. أما الملك أسيّس فقد تحقق أن اسمه هو الملك شيشي الذي يرد اسمه على عدد كبير من الجعارين.

إن الأماكن التي جاءت منها أصلاً قطع الآثار التي تحمل أسماء هؤلاء الملوك لا تترك أدنى شك حول مدى امتداد سلطانهم. فقد حكموا مصر من أقصاها إلى أدناها وحتى النوبة السفلى وشاركوا أيضاً في حركة التجارة مع مدينة كرمها في السودان، والتي استمرت دون انقطاع. وإذا بدا أن المصريين لم يتغاضوا عن وجود هؤلاء الأجانب في بلادهم، فنلاحظ في المقابل أن قدراً من التلاحم قد تحقق على الصعيد الروحاني. فمن المؤكد أن هؤلاء الآسيويين، وكثرتهم الكاثرة من البدو الرحل،

قد حاولوا بعد أن استقروا فى أكثر بلدان الشرق ازدهاراً، أن يتكيفوا مع «النموذج» المصرى المبهر. فالعديد من ملوك الهكسوس يحملون أسماء مركبة من اسم الإله رع على الطريقة المصرية. إن الملك أبوبى أو الملوك الذين يحملون هذا الاسم، كانوا يلقبون: عا أوسر رع أى «عظيمة هى قوة رع» - ونب خيش رع أى «رع هو رب القدرة» - وعاقن رع أى «عظيمة هى بسالة رع». كما أن أبوبى هو أيضاً على الطريقة المصرية: «ابن جسد رع» و«الصورة الحية (للإله) رع على الأرض». هذه النعوت التى تكشف بعضها عن نزعة حربية لم يعهد لها إله هليوبوليس حتى الآن، وُجدت مدونة على صلاية حصل عليها الكاتب إتيو هدية من سيده الملك أبوبى^(١٧). وهى شهادة على أن الأجانب كانوا يعبدون الإله رع مثلما عبدوا سوتخ و بعل. فلا غرابة إذن، أن تكون الوحدة الأيديولوجية قد تحققت من حول الإله الشمسى. وكما لاحظنا^(١٨) من قبل كان أمير بيلوس فى زمن سنقرو^(*)، يحمل لقب «ابن رع للبلدان الأجنبية». فالجرم السماوى واهب الحياة، كان يُعبد فى شتى أنحاء الشرق وإن تنوعت أسماؤه. وفى عهد التحامسة والرعامسة، سنجد أن عبادة الشمس هى التى ستتولى أيضاً تدعيم الأواصر التى تربط مختلف بقاع إمبراطورية مصر على الصعيد الروحانى. كما لا ينبغى أن نغض الطرف عما قدمه الهكسوس من إسهام أيديولوجى إلى مصر. إن الآلهة الآسيوية سوتخ و بعل وعشتروت التى ستقوم بدور كبير فى الفكر الإمبراطورى الجديد فى عصر الرعامسة^(١٩)، بدأت آنذاك فى الدخول إلى مجمع الآلهة المصرى ومعها الإله - القمر الذى كان يعبد بدو آسيا الرحلى: والشاهد على ذلك أسماء الأعلام المستخدمة فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة^(٢٠). إن العالم القديم لم يعرف «الحدود» الروحانية. إن الإكثار من الآلهة يعنى تعاظم الفاعلية السحرية التى توفرها الحماية الإلهية. فلم يكن العالم قد عرف آنذاك التعصب وعدم التسامح.

ولكن سرعان ما ظهرت مقاومة سياسية تناهض وجود الأجنبى فى المملكة. وبالفعل فيبدو أن الهكسوس قد اختاروا آسيويين لشغل أهم المناصب فى الجهاز الإدارى للبلاد. ونذكر على سبيل المثال حامل الأختام هر الذى يتفق اسمه مع الجذر

(*) من الأسرة الرابعة. (المترجم)

السامى الذى يعنى «الشريف الكريم الأصل». وقد تولى هذا الشخص سلطاته قرب نهاية الأسرة الخامسة عشرة وامتدت لتشمل مصر، من أدناها إلى أقصاها، وبلاد النوبة وأرض كنعان^(٢١). وربما ساهمت وقائع، من هذا القبيل، فى إيقاظ الشعور الوطنى لدى المصريين.

بعد هؤلاء الملوك الأوائل الذين أطلق عليهم أحياناً اسم «كبار الهكسوس»^(٢٢) ظهرت مجموعة ثانية من الملوك ربما شكلت الأسرة السادسة عشرة فى مصر. ولا نعرف سوى القلة القليلة عن هؤلاء «الهكسوس المغمورين» الذين حكموا مصر على ما يظن اعتباراً من ١٦٢٠ أو ١٦١٠ ق.م. وتذكر بردية تورينو تسعة ملوك ولكن الفجوات تتخلل معظم أسمائهم. ومن المؤكد أن مساحة سلطتهم قد تقلصت ولم تعد تشمل البلاد بأكملها، وهو ما تؤكد الكشوفات الأثرية: فلم نجد أسماء ملوك الهكسوس على آثار النوبة فضلاً عن القسم الجنوبي من مصر العليا. فقد استعادت النوبة استقلالها. ويبدو أن الرغبة فى تحرير البلاد قد بدأت تشغل بال المصريين. ولا شك أن أبناء وادى النيل كانوا قد اتخذوا أيضاً من المركبة الحربية سلاحاً جديداً يخوضون به معاركهم.

وإلى هذا العصر تعود قطعة أثرية محيرة، ربما كانت تعبيراً عن التوتر القائم بين المصريين والآسيويين. المقصود تمثال صغير لأبو الهول يكشف رأسه الملكى عن خصائص آسيوية. إنه يسحق أحد المصريين بمخالبه^(٢٣). لقد عثر على هذا التمثال الصغير فى إحدى مقابر أبيدوس يعود تاريخها إلى زمن كانت السلطة الأجنبية ما زالت تمتد حتى شمال طيبة، وإن كان التمرد قد أصبح تهديداً واقعاً.

إن شخصية بعض هؤلاء الملوك الأجانب تفصح عن ملامحها. ونذكر تحديداً الملك خيآن المدعو ينأس عند مانتون. كانت سنوات حكمه طويلة إلى حد كبير، فدامت أربعين سنة بلا شك، فى فترة شهدت أوج حكم الأجانب فى مملكة مصر. فقد عثر على آثار تحمل اسمه فى مصر وأنحاء الشرق الأدنى، من كسفة جادت بها الجبلين، شمال طيبة وتمثال مشوه من الجرانيت جاء أصلاً من بوياسستيس فى الدلتا وغطاء زلعة من الألبستر عثر عليه فى أساسات قصر كتوسوس بجزيرة كريت وجعران وختم

فى أرض كنعان وأسد من الجرانيت فى بغداد. ومن بين مجموعة ألقابه يعبر اسمه الحورى عن طموحاته السياسية، إنه «هذا الذى يحيط بالأرض». فهل استطاع كما يقال أحياناً^(٢٤) أن يؤسس إمبراطورية شاسعة امتدت على ما يبدو من مصر العليا وحتى جزيرة كريت شمالاً وبغداد شرقاً، وتضم مصر وجزر بحر إيجة لتصل إلى نهر الفرات؟ هل كان الأول فى قائمة كبار الغزاة الذين فتحوا الشرق؟ ويمكن أن نترك العنان لخيالنا لنتصور ذلك ولكن هذه الفرضية الجذابة والمغرية لا تنهض على أساس راسخ. فمن الممكن أن نذهب أيضاً إلى القول بأن مختلف القطع الأثرية المذكورة قدنقلت بعيداً عن موطنها الأصلي فى أعقاب هزيمة الآسيويين وانسحابهم خارج مصر. ربما كان قولنا هذا هو الأقرب إلى الصواب.

كما أن معلوماتنا عن الملك أپوبى متوفرة إلى حد ما. ومع ذلك فما زال يكتنفه الغموض: هل عرف التاريخ ملكاً واحداً يحمل هذا الاسم وتعددت ألقابه بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى، وتنوعت من عا أوسر رع إلى نب خبش رع وأخيراً عا قن رع، وهى الأسماء التى سبق ذكرها. أم كانت أسماء لُقّب بها ثلاثة ملوك مختلفين؟ وأياً كان الأمر فقد امتد حكم عا أوسر رع لسنوات طويلة: وبالفعل فإن العام الثالث والثلاثين من عهده مذكور على بردية ريند Rhind الرياضية. كما وصلنا عدد من الشواهد التى تخص هذا الملك. وظل تأثيره قائماً أيضاً لفترة ما إلى الشمال من طيبة، فقد عثر هناك على ساكف باب نقش عليه اسمه مرتين على جانبى قرص الشمس المجنحة، وهى صورة مصرية تقليدية تدمج الصقر فى الجرم السماوى، وتعود أصولها إلى مدينة إدفو. كما أن إناءً من الألبستر يحمل اسم ابنته هريت تم حفظه فى طيبة على ما يبدو، إلى أن وضع فى مقبرة أمنحوتب الأول، من الأسرة الثامنة عشرة، حيث عثر عليه. وذهب البعض إلى احتمال أن تكون المدعوة هريت قد تزوجت من أحد أمراء طيبة. هل كانت من أسلاف فراعنة الأسرة الثامنة عشرة؟^(٢٥)

ولكن هذه «المغامرة» كانت حدثاً عابراً. وبالفعل فإن أپوبى الأوحى أو ثالث من حملوا هذا الاسم، وأياً كان الأمر، فإن الملقب عا قن رع سرعان ما إصطدم بمقاومة أمراء طيبة الذين استطاعوا تحرير مصر وأتاحوا لها أن تستعيد للمرة الثانية عظمتها القومية وتواصل مسيرة تاريخها المجيد.

٢- أمراء طيبة المحررون

طيبة الأبية المتمردة

حول عام ١٦٥٠ ق.م وإبان حكم الملوك الهكسوس الأوائل، يبدو أن نسل زعماء طيبة التابعين للأسرة الثالثة عشرة، قد حل محلهم نسل آخر من أمراء مدينة الجنوب ليشكلوا الأسرة السابعة عشرة على حد قول يوسابيوس الإفريقى. وفى هذا الصدد، تذكر بردية تورينو خمسة عشر إسمًا لملوك تربعوا على عرش طيبة. ومن بينهم تسعة أسماء مذكورة فى قائمة الملوك التى نقشها تحوتمس الثالث فى الكرنك فى المكان المعروف بحجرة الأجداد. كما نعرف عشرة منهم من مدونات الآثار التى عثر عليها فى طيبة ومصر العليا.

إن أهم كشف أثري يساعدنا على معرفة هذه الأسرة السابعة عشرة هو الكشف عن مقابر ملوكها. وتقع الجبانة الرئيسية على البر الغربى من نهر النيل فى طيبة عند سفح تل دراع أبو النجا وفى السهل الواقع أمامه، ويحدها من الجنوب الطريق الصاعد المتجه إلى معبد مونتوحتب فى الدير البحرى و وادى الملوك من جهة الشمال^(٢٦)، وتقع هذه الجبانة تحديداً، قبالة معبد الكرنك على البر الشرقى.

إن بردية أبوت Abbott وتعود إلى الأسرة العشرين ومن عهد رعمسيس التاسع، توفر لنا أيضاً معلومات على قدر كبير من الأهمية. إنها عرض لنتائج التحقيقات التى جرت بأمر من وزير طيبة فى أعقاب إنتهاك حرمة مقابر وادى الملوك. ويبدو أن جبانة ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين ذكرت أسماؤهم لم يمّسها أحد بسوء، ما عدا مقبرة سخم رع- شد تاوى- سوبك إم ساف، ومن ثم يقدم لنا النص قائمة شبه كاملة بأسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة والتى تؤكد فى بعض جوانبها صحة القابع الزمنى لبردية تورينو.

سعت مملكة طيبة الصغيرة جاهدة، ورغم صروف الدهر ونوائبه، أن تحافظ على الثقافة والأعراف التى تواترتها التقاليد المصرية العظيمة، لتصبح عن قصد وعمد، حصناً يزمو فى شموخ وأنفة بوطنيته. لم تعد مصر تتلقى خشب لبنان ولا حجر طرة

الجيرى الأملس ولا ذهب النوبة ولا أبنوس وعاج السودان. لقد بات من المستحيل تنظيم الحملات إلى محاجر أسوان أو إلى وادى الحمامات، ولكن الروح المصرية ظلت محتفظة بكيانها. وظلت أهرام دراع أبو النجا محتفظة بشكلها المقدس، وإن كان أقل ارتفاعاً، ومشيدة من الطوب، والتوابيت مصنوعة من خشب الجميز المحلى وأكثر تواضعاً من توابيت الأسرة الثانية عشرة التى كانت من الحجر أو من خشب الأرز. إن الأسلوب الفنى لمدينة طيبة الذى نشأ فى ذلك العصر يتميز بعلامحه الشديدة الواقعية. وظل الكتبة فى مدارس الحياة يعيدون نسخ، بلا كلل أو ملل، النصوص الأدبية بصفها الشواهد الحية على أقدم الثقافات، وقد وصلتنا العديد من هذه المستنسخات. إن طيبة الأبية المتمردة تصمد وتقاوم وتحافظ على التراث الوطنى.

إن ترتيب ملوك الأسرة السابعة عشرة ما زال مطروحاً على بساط البحث فى بعض جوانبه^(٢٧). وفى هذا المقام سوف نقتفى بالعالمين ستوك Stock وإيواردز Edwards، فنعتمد أساساً على بردية تورينو بعد أن قام إيبشر Ibscher تحديداً بترميمها. وربما كان رع حوتب أى «ليكن رع راضياً» هو أول أمراء هذه الأسرة، وقد شرع ينفذ بعض الأعمال الورعة فى موقعى كويتوس و أبيبوس المجاورين. إن نص مرسوم صادر فى كويتوس بهذه المناسبة، قد احتفظ به لوح حجرى عثر عليه مهشماً إلى عدة أجزاء، فى الموقع ذاته وكان مدفوناً على عمق كبير فى أساسات معبد بطلمى. إن القسم المقوس فى أعلى اللوح وهو من الحجر الجيرى قد اختفى تماماً. وما زال النص مدوناً على امتداد أحد عشر سطرأ أفقياً، وإن عانى من العديد من الفجوات التى يمكن تعويضها كلما كان المعنى المقصود مرتبطاً بأفكار أو صيغ تقليدية معروفة.

[العام....] من عهد صاحب الجلالة الحورس: «صاحب - الحياة - الطويلة -

الأمم».

السيدتان: «صاحب - السنوات - المزدهرة».

الحورس الذهبى: «هذا الذى يخضر من جديد»....

ابن رع: «رع حوتب، له الحياة»^(٢٨).

[صدر أمر من قبل] صاحب الجلالة إلى النبلاء وإلى حاشيته...:

«لقد التقى جلالتي بأبى (الإله مين) القائم على رأس الآلهة جمعاء. إن المدخل (إلى معبده) وبواباته كانت قد تهدمت». عندئذ [اثنوا] على صاحب الجلالة وقالوا: «أيها العامل الملكى، أيا سيدنا، فليأمر كا وُك بما ينبغى أن يحدث، لأن الإله حو قائم فى فمك ولا إله سىا ساكن [فى قلبك]^(٢٩). إن پتاح- سوكر [قد خلقك] والآلهة شكّتك. إنك نعمل الآن من أجلها لتشيّد معابدها... لقد وُحّدت الجنوب والشمال، وقلبك... على عرش حورس الأحياء... إنك تتولى إدارة شئون [كل ما يحيط به] قرص... إنك الملاذ المناسب للشعب، ومأوى البشر أجمعين. إنك لا تنام أثناء الليل، نهـر أثناء النهار، ساعياً من أجل كل مفيد لهذا البلد^(٣٠). لقد أقامك رع بصفته صورته^(٣١)...».

بقية المدونة مجرد شذرات محدودة ومن ثم يصعب ترجمتها ترجمة مترابطة.

إن هذا النص من حيث دلالاته العميقة يلتزم بالخط الأيديولوجى للنظام الملكى كما عرفته الأسرة الثانية عشرة^(٣٢). ومن الواضح إذن، أن رع حوتب بصفته أول ملوك الأسرة السابعة عشرة كان يقيم فى طيبة، إما مباشرة قبل أن يستولى الهكسوس على مجمل البلاد بعد أن كانوا يسيطرون على مصر السفلى فقط أو عندما تحولت طيبة إلى المعقل الآمن لحماية الفكر المصرى والحفاظ عليه بعد أن أصبح العدو الغازى يتحكم فى البلاد.

يبدو أن رع حوتب كان ملكاً سعيداً؛ فقد ظلت ذكراه حية فى طيبة حتى بعد مرور خمسة قرون، على حد زعم حكاية أشباح وصلتنا من خلال أربع أوستراكا هى فى الوقت الراهن من مقتنيات كل من تورينو و فيينا و فلورنسا ومتحف اللوفر فى باريس. تروى القصة حكاية خونسو إم حب كبير كهنة آمون - رع والذى يعنى اسمه «الإله خونسو فى عيد». فربما وُلد يوم الإحتفال بعيد هذا الإله الذى كان يعتبر الإله الابن فى ثالوث طيبة القائم حول آمون-رع. لقد عاش خونسو إم حب فى زمن الأسرة العشرين. وتتفق بداية النص مع اللحظة الذى شرع هذا الأخير فى البحث عن مكان يقيم فيه مقبرته عند تل دراع أبو النجا الذى كان آنذاك شديد الإزدحام من كثرة

المقابر المنتشرة فيه. وبعد أن أرسل بعثة لاستطلاع المكان المجاور لمقبرة الملك رع حوتپ، مرّ خونسو إم حب شخصياً بتجربة فريدة في بابها، فوجد نفسه في مقبرة مجاورة للموقع الذى وقع عليه الإختيار. وبينما كان بمفرده في الظلام الدامس ظهرت له روح. وفي هذه اللحظة كان يحدث نفسه قائلاً:

«لن أرى مستقبلاً نور القرص. لن استنشق نسمات الشمال. وستظل العتمة أمام وجهى على مر الأيام...» وعندئذ (تجلت) روح نورانية وقالت له «فيما يخصنى وعندما كنت لا أزال حياً على سطح الأرض كنت خازن رع حوتپ ملك مصر العليا... كما كنت ضابطاً في سلاح مشاته. ثم سرت أمام البشر وفي أعقاب الآلهة و«رقدت» (أى توفيت) في العام الرابع عشر من عهد من حوتپ رع ملك مصر العليا^(٣٣)». ومن ناحية أخرى يصعب قراءة كلمة رع.

وحول هذين الاسمين الملكيين تدور المناقشات وتؤثر على المكان الذى يخص الملك رع حوتپ. ويذهب البعض إلى القول بأن الاسم الأول ناتج عن خطأ ارتكبه الكاتب الذى كان عليه أن يدون نب حيت رع وهو لقب مونتوحوتپ من الأسرة الحادية عشرة، بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. وليس من السهل دائماً اتهام الكاتب بالإهمال. ولا سيما وأن اللقبين الذين يسبقان الخرطوشين يشيران تحديداً إلى نسوت فقط، أى «ملك مصر العليا». ويرى وينلوك Winlock^(٣٤) احتمال وجود خطأ في كتابة اسم من حوتپ (رع): إذ كان على الكاتب أن يدون من خپر رع لقب تحوتمس الثالث بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. ومعنى ذلك افتراض أن العمر قد امتد بهذه الروح النورانية لسنوات مديدة عاشتها في هذه الدنيا. لا سيما وأن حكم تحوتمس الثالث قد بدأ من الناحية الرسمية عام ١٥٠٤ ق.م تقريباً. ويؤسس وينلوك رأيه على العمر المثالى لحياة الإنسان المصرى وهو مائة وعشرة سنوات. وقد نذهب بصدد هذا الاسم الثانى، أنه يخص رابع ملوك الأسرة السابعة عشرة المذكور فى بردية تورينو وهو سى عنخ إن رع مونتوحوتپ. إن هذا الاحتمال يقرب إلى الصواب، فى أن واحد، كل من طريقة كتابة الاسم فى نص أوستراكون فلورنسا - وإن كانت ناقصة - ومدة حياة هذا الخازن، فضلاً عن توافقه مع القوائم التى تضع رع حوتپ على رأس الأسرة السابعة عشرة.

ومن المرجح أن ابنه «المولود من الزوجة الملكية العظيمة» قد خلفه. ولكن ضاع اسمه للأسف. ومن هذا الزواج الأميرى ربما ولد سخم رع (أى «رع شديد البأس») وپ ماعت (أى «هذا الذى يفتح دروب الحقيقة- العدالة») إنتف أو أنتف القديم أو أيضاً أنتف الخامس بالنسبة لنا، حيث أن الأنانقة الثلاثة الأوائل قد حكموا طيبة فى ظل الأسرة الحادية عشرة^(٢٥). أما رابع الأنانقة فقد حكم فى ظل الأسرة الثالثة عشرة. وقد حكم أنتف الخامس حوالى ثلاث سنوات قبل أن يخلفه أخوه الأصغر. إنه سخم رع هرو حر ماعت (أى «هذا الذى يفرح بالحقيقة- العدالة»)(*) أنتف (السادس) ويبدو أنه لم يتربع من جانبه على العرش سوى بضعة أشهر. كانت مقبرة أنتف لا تزال سالمة على حالها فى زمن الأسرة العشرين كما يؤكد التقرير المدون على بردية أبوت Abbott. أما الآن فلم يصلنا سوى هُريم من الحجر الجيرى - هو من مقتنيات المتحف البريطانى - وصندوق أنية كانوبية وتابوت وصلا إلى متحف اللوفر فى آن واحد، مع تابوت أنتف الصغير. واجتازت «رحلة» التابوتين مغامرات متلاحقة. فقد شاهدهما الرحالة ويلكنسون Wilkinson عام ١٨٤٩ فى منزل تاجر آثار يونانى يدعى تريانتوفيلوس Triantophilos. وعلى حدّ قوله فقد عثرا معاً قبل عدة سنوات فى دراع أبو النجا عند منتصف الطريق المؤدى إلى سفح التل. ويقول عالم المصريات بروكش Brugsch أنهما كانا عام ١٨٥٤ فى غرفة مهملات عند القنصل اليونانى. وفى هذه السنة ذاتها، شاهدهما مارييت A.Mariette فاشتراهما فى الحال ونقلهما إلى متحف اللوفر خلال شهر ديسمبر من السنة المذكورة.

كان تابوت أنتف القديم «هبة من أخيه الملك أنتف محبوب أوزيريس، إلى أبد الآباد»، استناداً إلى المدونة التى يحملها. وكان البدو الذين يُعتقد أنهم فتحوا التابوت قبل عرضه عند التاجر اليونانى قد عثروا بداخله على مخطوط ذاع صيته الآن وطبق الآفاق: إنه بردية پريس دافين Prisse d'Avennes التى نسخت عليها حكم الوزير پتاح حوتپ من الأسرة الخامسة وهى من كنوز مجموعات الآثار فى باريس. وكان الماركيز پريس دافين شخصياً قد اشتراها عام ١٨٤٥، بعد فترة قصيرة إذن من «الكشف» عن التابوت.

(*) هذه الجملة ترجمة: هرو حر ماعت. (المترجم)

كما أن ملكاً آخر هو سويك إم ساف الذى جاء ترتيبه فى بردية تورينو كرايع ملوك الأسرة السابعة عشرة يذكره البعض أحياناً قبل الأناقة. لقد استمر عهده ست عشرة سنة. ونعرف هذا العاهل الملكى من خلال بعض المعالم الأثرية كعدد من التماثيل عثر على أحدها فى أسوان فى المعبد المقام من أجل حقا إِب من حكام الأقاليم فى عهد بيبى الثانى والذى تم تأليهه بعد وفاته بفترة قصيرة. وهناك أيضاً لوح حجرى نونت عليه هبات لصالح معبد مونتو فى المدامود. ويؤكد بعض المخريشات فى وادى الحمامات والمؤرخة بالعام السابع من عهده، على ما قام به من أعمال فى المحاجر وبالتالي فإنها تشهد على أن مملكة طيبة كانت تتمتع بقدر من الحرية. وهو خير برهان على أن عهده يعود إلى فترة متأخرة من الأسرة السابعة عشرة مع بداية أفول نجم الهكسوس وتراجع هيمنتهم.

وقرب نهاية الأسرة السابعة عشرة ظهر أنتف آخر، الملقب نب خپر رع (أى «رع مورب الصيرورة»). إنه سابح ملك يحمل اسم أنتف. وكان على رأس أمراء سلالة طيبة الذين تحلوا بقوة الشكيمة والبسالة والإقدام، فحملوا على عاتقهم مهمة تحرير أرض مصر. وإلى عهد هذا الملك المدعو أنتف يعود مرسوم عثر عليه فى كويتوس. إنه أمر ملكى صادر إلى أمير المدينة. ومعنى ذلك أن مصر العليا أو ما يعادل ثمانية أقاليم على الأقل من أسوان جنوباً وحتى أبيبوس شمالاً كانت تابعة للأسرة الحاكمة فى طيبة وإن وجدت سلطات حاكمة فى كل مدينة. وهكذا شرعت طيبة فى تجميع الأقاليم الجنوبية. وقد نُقش المرسوم على الجانب الجنوبي من الباب الشرقى للمعبد. والنص فضلاً عن النقوش الملحق به، هو من مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن:

اليوم الخامس والعشرون، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثالث، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى - الذى تزمو به طيبة - نب خپر رع وابن رع: أنتف(*)، له الحياة مثل رع إلى أبد الآباد.

(*) من الغريب أن لقب «ابن رع» مدون مع لقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى» داخل خرطوش واحد. (المؤلفة)

مرسوم ملكى إلى مين إم حات (أى «الإله - مين- هو- الأول») حامل الأختام وأمير كويتوس وإلى كن إن (أى «صورة- من- أجلنا»؟) الابن الملكى وحاكم كويتوس وإلى منغ مين (أى «الإله- مين- خير») حامل الأختام وإلى كاتب معبد نفرحوتب- العظيم، وإلى جيش كويتوس بأسره وكهنة المعبد.

انظروا، لقد جاعكم هذا المرسوم لتحاطوا علماً بأن جلالتي قد أوفد الكاتب سا إمن («ابن- آمون») حامل الأختام الإلهى فى خدمة آمون و أوسر آمون (أى «آمون عظيم- البأس») للقيام بالتحقيق فى معبد الإله مين، وبالفعل فقد جاء كهنة من المعبد لدى جلالتي ليخبرونى أن حدثاً مؤسفاً قد وقع فى المكان المقدس بمعنى استقبال الأعداء^(٣٦) من قبل تيتى بن مين حوتب (أى «ليكن الإله مين راضياً») ملعوناً اسمه. فليطرح إذن أرضاً فى معبد أبى الإله مين، فليطرد من وظيفته الكهنوتية، هو وابن ابنه ووريث وريثه. فليطرح أرضاً ولتصادر أقواته وأطعمته المقدسة^(٣٧)، مع تجاهل اسمه فى المعبد من الآن فصاعداً، مع التصرف بالمثل مع كل شخص يشبهه، (كل شخص) عاصٍ وعدو الله. ونأمر بإتلاف كل ما كتبه فى معبد الإله مين وفى مكاتب الإدارة وعلى كل لفافة بردى.

أما عن أى ملك أو أى حاكم قوى يرأف به،، فلن يستطيع أبداً أن يتسلم التاج الأبيض ولن يضع أبداً التاج الأحمر على رأسه، ولن يتربع على عرش حورس الأحياء. والسيدتان لن تؤازراه كما تفعلان مع من تحبانه. كل حاكم أو كل أمير سيقترب من السيد له الحياة والصحة والقوة^(*) ليلتمس العفو عنه، فليُقدّم نويه وممتلكاته وحقوقه قرباناً لأبى الإله مين فى كويتوس. كما لا تسمحوا لكائن من كان، من المحيطين به أو لأقربائه أو لأبيه أو لأمه أن يشغلوا منصبه. اعملوا بحيث يتولى هذه الوظيفة حامل الأختام ورئيس الإستقبال مين إم حات. ولتُعطَ له الأقوات والأطعمة المقدسة. وليُسجل ذلك من أجله بوضوح كتابة فى معبد أبى الإله مين فى كويتوس، ومن أجل ابن ابنه ووريث وريثه^(٣٨).

(*) كان أمراء طيبة يطلقون أيضاً على أنفسهم هذا اللقب الملكى. (المؤلفة)

هكذا كان أمراء مدينة الجنوب يحكمون حكماً فردياً واضحاً ويحملون مجموعة الألقاب الملكية التقليدية ويسندون المناصب والوظائف إلى أصحابها في مدن مصر العليا.

إن نشاط أنتف السابع وأعماله تشهد عليها النقوش المنحوتة في معابد كويتوس وأبييوس والكاب والألواح الحجرية التي جاد بها معبدا الكرنك و إدفو. كان ملكاً بناءً ومحارباً. إن نقشاً جاء من كويتوس يصور الملك وهو يؤدي حركة طقسية تقليدية، شاهراً المقمعة البيضاء فوق مجموعة من الأعداء، في حضرة الإله مين، وعلى قاعدة تمثال عثر عليه في الكرنك نُحت خرطوشا الملك فوق صور لأسرى نوبيين وآسيويين مكبلين: إنها صورة تقليدية تنم عن عظمة مصر وسؤدها واتساع السلطة الملكية ومن إرهابات عصر الإمبراطورية. ويبدو أن حماساً قتالياً قد بدأ يلوح في الأفق. فقد عيّن نخت (أى «الباسل الجسور») أحد أبناء الملك، «قائداً للجيش». وسوف يدفن أنتف السابع وإلى جانبه قوسين وسهام ستة وضعت بجوار تابوته.

وتم تأمين ذرية زعماء طيبة. كان أنتف السابع قد تزوج الملكة سوبك إن سا إف. إنه اسم غريب بالنسبة لامرأة لأنه يعنى فى اللغة المصرية «سوبك هو حمايته». وهكذا فإن الضمير فى صيغة المذكر! ولكن ربما كانت تحمل اسماً آخر: حا عنخ إس (أى «واها! ليتها تحيا»). كانت إدفو موطنها الأصلي كما دفنت فيها. فتأكدت الوحدة بين أميرى طيبة و إدفو كتحالف راسخ. وكان مثل هذا التحالف قد ساهم قبل خمسة قرون فى إحياء النظام الملكى المصرى. وكشف العلماء فى موقع إدفو على عدد من المعالم الأثرية تحمل اسمها، ومنها ألواح حجرية وأسورتان وقلادة ذهبية. وتُدعى على الألواح الحجرية «أخت الملك وابنة الملك وحفيدة الملك»، وهى إشارة إلى أصولها المحلية. أما فى طيبة فهى «الزوجة الملكية العظيمة». ولما كانت قد عاشت قبيل الأسرة الثامنة عشرة التى نهضت بمصر من كبوتها فقد احتفظت عنها المدينة(*) بذكرى طيبة. وعلى لوح حجرى من مطلع الأسرة الثامنة عشرة عثر عليه فى طيبة، نجد أنها تُعبد جنباً إلى جنب مع الملكة عح حوتب والدة الملك أحمس محرر مصر.

(*) إشارة إلى طيبة فقد كان لفظ نيت من أسمائها ويعنى المدينة. (المترجم)

يبدو أن نموذج الأسرة الحادية عشرة كان نصب عيني هؤلاء الملوك الأناثفة الذين حملوا الاسم نفسه الذى لقب به الملوك الذين أعادوا إلى مصر وحدتها فى زمن مضى. ومن ثم لا يستبعد كما يقال أحياناً، أن جدران حجرة دفن أنتف السابع التى لا تحتفظ فى الوقت الراهن سوى ببقايا بسيطة لألوان، فصارت أثراً بعد عين، لا يستبعد إذن أن يكون الفنان القديم قد نقش على هذه الجدران نصاً أدبياً كان المصريون مولعين به ويسجل شهادته عن أزمنة مضطربة ونطلق عليه إصطلاحاً نشيد الضارب على القيثارة. ويعتقد أن تاريخ كتابة هذا النص يعود إلى الأسرة الحادية عشرة ولم يعمل ملوك الأسرة السابعة عشرة سوى إعادة نسخه. ويصعب علينا أن نصدر حكماً قاطعاً، إذ لم يصلنا النص الأصلي لهذا النشيد ولا نعرفه إلا من خلال نسخة نُقشت فى مقبرة پا إتن إم حب من الأسرة الثامنة عشرة وهى من مقتنيات متحف ليدن فى الوقت الراهن.

نشيد موجود فى مقبرة أنتف، صادق القول، والقائم أمام الضارب على القيثارة... إن مصيراً سعيداً قد انتهى الآن. ويمضى جيل ويحل محله أناس آخرون، منذ زمن الأجداد الأوائل. ومن كانوا آلهة فى الماضى يرقدون فى أهراماتهم، وبالمثل الأموات المجدون، ولكن مقار إقامة الذين شيبوا المقابر زالت من الوجود. ترى ماذا حدث إذن؟

لقد أصغيت إلى أحاديث إيمحوتب و جدف حور^(٢٨مكد)، التى يتفوه الناس أجمعون بكلماتها، ولكن أين هو الآن المكان الذى يقيمان فيه؟ لقد تصدعت جدرانها بل إن موقعه قد زال واندثر وكأنهم لم يوجدوا أبداً.

لا يعود أحد من المكان الذى يقيمان فيه ليخبرنا ماذا ألمّ بهما، ليحدثنا عما ينقصهما، لتهدأ قلوبنا، حتى يحين وقت انتقالنا أيضاً إلى حيث ذهبنا. تصرف إذاً بحيث يمتلئ قلبك فرحاً وسروراً وينسى الآن أنك ستصبح ذات يوم روحاً نورانية. جارى رغباتك على مدار أيام حياتك. ضع المرّ على رأسك وارقد أرقى أنواع الكتان وأنعمها وامسح نفسك بالروائع الحقيقية التى تخص الإله^(٢٩). أكثر من أفراحك ولا تسمح للأتراح أن تتسلل إلى قلبك. جارى رغباتك والملاذات التى تتوق إليها. افعل ما

تريد وأنت على سطح الأرض، لا تكدر قلبك إلى أن يحين اليوم الذى ينتحب فيه القوم عليك وينوحون. ولكن الإله - صاحب - القلب - الهادئ (أوزيريس) لا يسمع العويل. وصيحات أيام الحداد لا تخلص المرء من العالم الآخر^(٤٠).

هذه النبذة لإنسان منهك خابت آماله وتبخرت أحلامه، هذه المجاهرة ذات النزعة الإبيقورية(*) - قبل ألفى سنة على زمن الفيلسوف اليونانى - تبدو أقرب إلى المشاعر التى عبرت عن مكنونها فى عصر الفوضى السابق^(٤١). ولكن من الواضح أن أناة الأسرة السابعة عشرة - إن لم يكونوا المؤلفين الفعلين لهذا النص - إلا أنهم استعادوا عن طيب خاطر نموذج سميهم من الملوك الذين سبقوهم، ليؤكدوا على هذا النحو على شىء من الإستمرارية الأدبية. ومن جهة أخرى، فإن الأعراف التقليدية القاضية بانشاد الأغاني بمصاحبة القيثارة فى المقابر أثناء المأدب الجنائزية، تعود إلى أزمنة موهلة فى القدم. وقد استمرت حتى العصر اليونانى الكلاسيكى وهو ما يؤكد هيرودوت (II, 78-Chant de Linos)، لتظهر فى وقت لاحق فى القصائد الهوميرية (Odyssee, I, 53- Chant de l'aède Phemios) وفى العصر الهلينى أيضاً (Athénée, XIV, 620b sq.) والعصر الرومانى.

وأمام مقبرة أنتف السابع فى دراع أبو النجا تنتصب مسلتان صغيرتان من الحجر الرملى وكأنهما ترمى إلى الاستخفاف بأقوال المنشد. إن إكليلاً من الفضة يحتفظ به متحف ليدن ما زال يذكرنا بالمصير الملكى الذى كان ينتظر مدينته طيبة، فستصبح بعد فترة وجيزة - المدينة المنصورة.

طيبة المنتصرة

أما عن خليفة أنتف السابع فتذكر بعض قوائم الملوك ملكاً يدعى سى نخت رع (أى «هذا الذى جعله رع قوى البأس») ومع ذلك لم نجد له أثراً على أى معلّم مشيد. إنه مذكور فى قائمة الكرنك المنقوشة على أحد جدران الحجرة المعروفة إصطلاحاً

(*) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى أبيقور ٣٤١-٢٧٠ ق.م. (المترجم)

بحجرة الأجداد وجاء ترتيبه بعد أنتف السابع وقبل سقنن تاعا. كما يذكر أيضاً في مجموعة أخرى لأسماء الأجداد الملكيين الأوائل، تحتفظ بها مائدة قرابين من الأسرة التاسعة عشرة ومن مقتنيات متحف مرسيليا في الوقت الراهن. كما ورد اسم هذا الملك في مقبرة خع بخنت في دير المدينة، جنباً إلى جنب، أيضاً مع اسم سقنن رع تاعا. وكان على الأرجح زوج الملكة تتى شيرى التى سنتطرق إليها فيما بعد ووالد سقنن رع^(٤٢).

أما سقنن رع تاعا (أى «هذا الذى جعله رع باسلاً، وهو العظيم») فقد خلف أباه على رأس مملكة الجنوب وتزوج أخته عح حوتپ (أى «ليكن القمر راضياً») وسينجب منها ستة أولاد. وسيتولى اثنان من أبنائه وهما كامس وأحمس تحرير أرض مصر بشكل نهائى وإعادة وحدتها.

ولا شك أن هذا الكفاح قد بدأه سقنن رع تاعا، بينما كان ملك يدعى أبوهي يحكم فى أواريس ولكن سلطته الحقيقية كانت قاصرة على الدلتا، ولا تتجاوز مصر الوسطى. وقد وصلتنا رواية أسطورية، كُتبت فى عهد مرنپتاح من الأسرة التاسعة عشرة، على بردية هى بردية سالييه الأولى Sallier I^{er} وكان كاتب تحت التدريب يدعى پنتاؤور قد نسخها على الأوراق الثلاث الأولى من لفافة البردى. هذا النص الذى لا نمتلك منه فى الوقت الراهن سوى هذه النسخة يعانى للأسف من عدد من الثغرات.

حدث ذلك عندما أصابت الفواجم أرض مصر، فلم يعد فيها آنذاك سيد موهوب الحياة والقوة والإزدهار، ففى ذلك الزمان، لم يعد فيها ملك^(٤٣). أما الملك سقنن رع فكان أمير مدينة الجنوب. كان البؤس يخيم على مدينة الآسيويين، عندما كان أبوهي فى أواريس. كانت البلاد بأسرها^(٤٤) تقدم له منتجاتها قرباناً. وبالمثل فعل الشمال المحمل بكل ما لذ وطاب من إنتاج الدلتا. لقد جعل الملك أبوهي من (الإله) سوتخ سيده. وما عدا سوتخ، كان لا يقدم الخدمة لأى إله من آلهة البلاد. فشيد (من أجله) معبدًا بجوار قصره الملكى فكانت صنعته رائعة تغالب الأيام. ومع مطلع كل نهار كان ينهض فى مجده ليقدم إلى سوتخ قرابينه اليومية. وكان الكبراء يحضرون أكاليل الزهور، كما جرت العادة فى معبد رع - حور أختى.

وأراد الملك أبوبى أن يبلغ الملك سقن رع، أمير مدينة الجنوب رسالة استفزازية. وبعد انقضاء عدة أيام، استدعى الملك أبوبى [كبار موظفى^(٤٥)] [قصر]... [وأبلغهم أنه يريد] إبلاغ [رسالة إلى أمير مدينة الجنوب ويرفق بها] تقرير [خاص] بالنهر [ولكنه كان لا يعرف كيفية تحريره^(٤٦)]. عندئذ تحدث إليه الكتبة والعلماء [...] بالإضافة إلى كبار الموظفين وقالوا له: «أيها العاهل الملكى، [أيا سيدنا نريدك أن تترك^(٤٧)] بركة أفراس النهر [القائمة شرق مدينة الجنوب] لأنها تحرمنا من [النوم نهاراً] وليلاً [فالأصوات التى تصدرها تصم أذان أبناء مدينتنا]. وأجابهم الملك أبوبى قائلاً: «إن أمير [مدينة الجنوب... إن أمون] معه حامياً. إنه لا يستند إلى أى من الآلهة القائمة فى البلاد بأسرها، ماعداً أمون رع، ملك الآلهة». وبعد انقضاء عدد من الأيام، قام الملك أبوبى بإبلاغ أمير مدينة الجنوب برسالة ضمنها ما قال له الكتبة وأهل العلم والمعرفة (من أتباعه). ووصل موفد الملك أبوبى عند الأمير ومثل بين يديه. عندئذ قال (الأمير) لموفد الملك أبوبى: «لماذا أوفدت إلى مدينة الجنوب؟ لماذا ارتحلت لتصل إلى؟» فأجابه الموفد قائلاً: «الملك أبوبى هو الذى أرسلنى إليه لأبلغك ما يلى: «تصرف بحيث يتم إبعاد (حرفياً: طرد) بركة أفراس النهر القائمة شرق المدينة لأنها تقلق منامى نهاراً وليلاً. إن ما تصدره من أصوات يصم بالفعل أذنى». وكانت دهشة أمير مدينة الجنوب كبيرة لفترة طويلة حتى أنه لم يصل إلى الرد المناسب وإلى الرسالة التى سيبلغها إلى موفد الملك أبوبى. وأخيراً قال له: «أحقاً لقد وصل إلى مسامع سيدك الحديث [...] عن البركة القائمة [شرق مدينة الجنوب؟]» [فقال الموفد: امعن النظر] فى الموضوع الذى أوفدنى بسببه. [وأمر الأمير] بحسن معاملة موفد الملك أبوبى وأن يقدم له [كل ما لذ وطاب] من لحوم وفطائر [...] ثم قال له: «عد ادراجك إلى الملك أبوبى] وسوف أفعل كل ما ستقوم بإبلاغه. سوف تقول له... (ثغرة فى غير محلها)» عندئذ هم موفد الملك أبوبى وسلك طريق العودة إلى مقر إقامة سيده.

واستدعى أمير مدينة الجنوب كبار البلاط الملكى وجمع أهم رؤساء حاشيته، وكرر على مسامعهم الرسالة الشفهية التى كان أبوبى قد وجهها إليه، والتزم جميعهم الصمت (حرفياً: بفم واحد) لفترة طويلة، دون أن يصلوا إلى رد، موفق من عدمه. وأرسل الملك أبوبى^(٤٦)...

وعند هذا الحدُ تنتهى للأسف الشديد النسخة التى دونها الكاتب پنتاؤور.

ولأول وهلة قد يثير هذا النص الدهشة. ولكن إنطلاقاً من البرهان الذى توصل إليه ماسپرو Maspéro وليفيقر Lefebvre^(٤٧)، فإنه يرتبط بلا شك بتقليد قديم، يقضى بأن يتبادل الملوك أحياناً مسائل مطلوب حلّها مقابل دفع غرامة إذا لم يتوصل أحد الأطراف إلى الحلّ الصحيح. ونعرف السؤال الشهير الذى طرحه نختنبو من الأسرة الثلاثين على إيزوبيوس Ésope فقال له: «عندى فى مصر إناث أفراس تحمل عند سماع صهيل ذكور الأفراس الواقعة أمام مدينة بابل. ترى بما تجيب؟».

ولا يخامرنا أدنى شك أن إجابة سقن رع التى ضاعت كانت فى مثل رجاحة عقل اليونانى ابن فريجيا(*) Phrygiee، فكانت أيضاً من أساليب البرهنة على تفوق أمون رع على سوتخ. كما يكشف هذا النص عن الوضع السياسى إبان هذه الفترة. فنجد من جهة أن أمون رع كان يظهر منذ ذلك الزمان بصفته الإله الكبير. ومن جهة أخرى، فإن «بركة أفراس النهر» تنطوى على معنى مزدوج، أحدهما أسطورى والآخر سياسى. فلا شك أن أبناء طيبة كانوا يمارسون شعيرة قديمة يقومون بموجبها بتسديد الخطاطيف فى أجساد أفراس النهر فى بركة بالمدينة. فكانت الغاية من هذه الشعيرة حماية النظام الملكى المصرى، إذ كان ينظر إلى هذا الحيوان باعتباره «مستودعاً» للعناصر الضارة المؤذية. ولكن كان الأمر فى نظر الهكسوس من المحرمات التى تنطوى على تدنيس المقدسات. فإلههم سوتخ المندمج فى الإله ست كان فى وسعه التجسد فى فرس النهر أحد حيواناته المقدسة.

ومن المحتمل أن هذه الرسالة التى قد يقدم لنا كشف جديد نسخة أخرى كاملة وهو ما نرجوه ونتطلع إليه - من المحتمل أنها كانت بمثابة الإعلان عن بدء العمليات الحربية بين طيبة و أواريس. وعلى كل حال فإن مومياء سقن رع قاعا(**) التى عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى داخل تابوتها الأدمى الشكل، تحتفظ بجراح عميقة فى

(*) موطن إيزوبيوس. (المترجم)

(**) ويمكن مشاهدتها فى قاعة المومياوات بالمتحف المصرى: الطابق العلوى. الحجرة ٥٦. (المترجم)

الرأس، ربما كانت من آثار إشتباكات عنيفة مع الآسيويين الأجانب المقيمين على التراب الوطنى.

أما سقن رع قاعا فقد خلفه ابنه كامس (أى «الثور أنجبه»). وهكذا سوف تبدأ حرب التحرير.

وصلنا عدد من الوثائق التى تقدم شهادتها عن هذا الحدث. وبالفعل فقد عهد كامس إلى نيشى رئيس الخزنة بإقامة لوحين حجرين فى الكرنك تخليداً لذكرى انتصاره، والأحداث التى مهدت له. وقد عثر المهندس الفرنسى هنرى شيفرييه Henri Chevrier فى العامين ١٩٣٢ و ١٩٣٥، على أجزاء من اللوح الحجرى الأول فى أساسات الجناح الجنوبى من الصرح الثالث من معبد آمون - رع. ويروى النص بدايات الحملة ضد الهكسوس. كما دوت نسخة من هذا النص بالخط الهيروجليفى على لوحة صغيرة تعرف اصطلاحاً بلوحة كارنارفون رقم واحد Carnarvon n°1 عثر عليها اللورد كارنارفون عام ١٩٠٨ أثناء أعمال التنقيب التى كان يباشرها فى موقع دراع أبو النجا. وفى زمن أحدث، وعام ١٩٥٤ تحديداً، عثر شيفرييه أيضاً على اللوح الحجرى الثانى عند مدخل بهو الأساطين الكبير فى الكرنك. إن نص هذا اللوح هو «بقية» النص السابق ويروى نهاية حملة كامس. ويعتقد أن الأثرين قد نحتا فى وقت واحد. فالعلامات الهيروغليفية محفورة فى كل منهما باللون الأزرق كما أن أسلوبيهما وعبارتهما، تجمعها أوجه شبه أكيدة^(٤٨).

لوح الكرنك الحجرى الأول ولوحة كارنارفون الصغيرة

العام الثالث من عهد الحورس: «هذا الذى يتجلى فى مجده على عرشه»،

السيدتان: «هذا الذى يجدد العمائر»،

الحورس الذهبى: «الذى يسعد القطرين»

ملك مصر العليا ومصر السفلى: «لتخضر صيرورة رع»

[ابن رع]: «كامس، له الحياة، محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين، مثل رع للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى».

كامس، الملك القوى القائم فى طيبة، الملك الخير المعطاء. إن رع ذاته قد نصبه ملكاً، ومن أجله حقاً، أعاد الإخضرار إلى النصر.

المجلس الحربى الأول

تحدث صاحب الجلالة فى قصره إلى مجلس كبراء حاشيته قائلاً: «إن قوتى سوف تظهر نفسها. إن أميراً يقيم فى أواريس وآخر فى بلاد كوش، فأسيوياً وزنجياً يشاركانى مقعدى. كل واحد منهما يمتلك قسماً من مصر^(٤٩) فيتقاسمان معى البلاد... انظروا إن (أبوى) فى هرموبوليس، ولا يستطيع كائن من كان، أن يستريح مسترخياً بسبب استعباد الآسيويين له. أما أنا فسوف أخوض المعارك ضده وأسحق جسده. فما أتوق إليه هو تخليص مصر والقضاء على الآسيويين».

هنا تحدث كبراء مجلسه قائلين: «انظر لقد تقدم (؟) الآسيويون حتى القوصية^(٥٠) وأخرج جميعهم ألسنتهم^(٥٠)(؟). أما نحن، فنعيش فى سلام (حرفياً: «نحن نعيش حياة رطبة»^(٥١)) وشنئون مصر هى مسئوليتنا. إلفنتين قوية. وقلب البلاد ملكنا حتى القوصية. إن أكثر حقولهم خصوبة تُحرث من أجلنا. إن ماشيتنا ترعى فى مستنقعات البردى. والعلس يلقي به إلى خنازيرنا ولا يستولى أحد على قطعاننا... إن (أبوى) يمتلك بلاد الآسيويين ونحن نمتلك مصر. ولكن كائناً من كان، سوف يأتى ويقترب منا وينشط ضدنا، عندئذ سوف نلجأ إلى العمل ضده».

هذا الحديث الحذر الهيب الذى جمع على لسان واحد رجال البلاط، لم يكن من المنتظر أن يلقي أذاناً صاغية من كامس الثابت الجنان الواسع الذراع الشاكي السلاح.

(*) تعبيراً عن الاحتقار، كما تفعل أو نقول الآن. (المترجم)

ونفر قلب صاحب الجلالة من هذا الحديث البغيض: «أما عن نصائحكم....
[فسوف أقاتل] الآسيويين وهكذا يعود الإزدهار... [وتستقبلنى بالهتاف] البلاد
بأسرها، أنا الأمير المنتصر فى طيبة، أنا كامس حامى مصر وصائنها.

معركة نفروسي (٥٢)

عندئذ أبحرت فى النهر كرجل قوى للقضاء على الآسيويين، تنفيذاً لأوامر
أمون، الإله صاحب المشورات الصائبة. إن جيشى الباسل أمامى مثل وهج الذهب.
ورماة السهام من فرقة المجاو (٥٢) فى أعلى الأسوار (؟) ليسددوا السهام إلى
الآسيويين، وطردهم من أماكن إقامتهم. إن الشرق والغرب يجلبان الزيت عج (٥)، ويتم
امداد الجيش بما يحتاجه من طعام فى كل مكان. وأرسلت رماة السهام الأشداء من
فرقة المجاو، فى حين توقفت لحظة، فى محاولة لابعاد تيتى بن بيبى إلى داخل المدينة
(لا شك أنه كان حليفاً مصرياً للهكسوس متعاوناً مع العدو). ولم أمكّنه من الفرار.
ودحرت أيضاً الآسيويين الذين زحفوا فى اتجاه مصر (ولا شك أن النجدات قد
وصلت من أواريس)... عندئذ قضيت الليل على متن سفينتى، سعيد القلب.

وعندما ابيضت الأرض - (عند الفجر) - انقضضت عليه كما ينقض الصقر،
وعندما حلت ساعة تناول طعام إفطار الصباح، صرعه ودمرت سوره وذبحت أتباعه،
ودفعت زوجته إلى النزول إلى شاطئ النهر. وجنود جيشى كانوا أشبه بالأسد التى
تحمل صيدها، بينما كانوا يسوقون الخدم والماشية ويحملون اللبن والزيت عج
والعسل ويتقاسمون الغنائم، سعداء القلب. وهكذا استسلمت مدينة نفروسي....

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: محمد عبدالحميد شيمي: العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة،
ترجمة: ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون.
٢٠٠٥، ص: ١٩٦-١٩٧. (المترجم)

هكذا انتهت أولى حملات كامس بإحراز النصر على مدينة نفروسي ومنطقتها التي كانت تمتد إليها سلطة الهكسوس. إنه أول تفهقر تكبده الآسيويون. كان آمون الكرنك يقود منذ ذلك الزمن الهجوم المضاد.

ويكشف هذا النص عن صور واستعارات جديدة ذات أبعاد حربية: ومنها الملك - الصقر والجنود - الأسد والجيش - اللهب الحارق. كل ذلك في إطار تألف عظيم لقوى الكون من حول شخص الملك. إن أيديولوجية جديدة ترى النور إنطلاقاً من طيبة وسوف تتطور على مدار الأسرة الثامنة عشرة ولا سيما في عهد الملوك الرعامسة^(٥٤).

لوح الكرنك(*) الثاني^(٥٥)

جاءت عواقب هزيمة نفروسي قاصمة لظهر أبوي الذي فرّ على ما يبدو إلى عاصمته أواريس.

التقرير الوارد من مدينتك غير سار. لقد ابتعدت الآن - (لقد هربت) - إلى جانب جيشك. إن خطابك غث، عندما تجعلني أميراً بينما تريد أن تكون زعيماً ملكياً، مدعياً امتلاك ما اغتصبته، الأمر الذي سيؤدي إلى الإطاحة بك. سوف يشهد ظهرك هزيمتك، لأن جيشي من خلفك. ونساء أواريس لن يحملن أبداً، وشهواتهن لن تنتشر في أبدانهن، عند سماع صيحة حرب جلالتي.

كامس يبحر في النيل حتى أواريس

لقد رسوت عند بر - جد - كن^(٥٦)، سعيد القلب، لأنني جعلت أبوي يعيش لحظة يائسة، وهو أمير ريتنو^(٥٧)، بساعديه الواهنتين، فيتخيل في قلبه أنه يقوم بأفعال بأسلة، لا وجود لها إلا في نظره. ووصلت إلى إينيت - نت - خنت^(٥٨). وابتحرت حتى

(*) من مقتنيات متحف الأقصر. (المترجم)

المدينة لسؤال أهلها. وجمعت بعد ذلك السفن الواحدة خلف الأخرى، وقيدام (إحداها) على كوئل (السفينة السابقة). كان جنودى الأكثر بسالة يطيرون فوق النهر كما الصقر. وسفينتى الذهبية أمامهم، ومثل الصقر كنت فى مقدمتهم.

وتصرفت بحيث تتقدم سفينة الحماية حتى تخوم الصحراء ومن خلفه كانت سفن الأسطول (حرفياً: المزهرة) تشبه النسر التى تشق مستنقعات أواريس. بل وكنت أشاهد النساء فى أعلى قصره يتفحصن الشواطئ من خلال المزاغل. كانت أجسادهن ثابتة لا تتحرك لأنهن كن يروئن، بينما ينظرن بأرنبة أنفهن من أعلى أسوارهن^(٥٩)، مثل الفئران الصغيرة فى جحورها. وكن يقلن: «إنه هجوم».

أولى معارك أواريس

انظر، لقد حضرت مع حسن الطالع، وبقية (البلاد) معى. إن عملى له الدوام. وكما أن أمون الصنديد مزدهر فى الحقيقة^(٦٠) فلن أترك هناك وأسمح لك أن تطأ حقولنا بقدميك إلا وأنا معك. لقد خار قلبك ووهن، أيها الآسيوى الخسيس! انظر سوف أشرب نبيذ مزارع كرومك الذى سيعصره من أجلى الآسيويون الذين أسرتهم. سوف أدك مقر إقامتك دكاً (حرفياً: سوف أحرثه) وأقطع أشجارك وأضع يدي^(٦١) على نسائك لأنقلهن على متن سفنى واستولى على مركباتك.

وإذا كان النصر حقيقة لا يخامرها أدنى شك، بالنظر إلى ضخامة الغنائم التى تم الإستيلاء عليها وليتم حصرها بالتفصيل فيما بعد، إلا أنه لم يرد أى توضيح يبين طبيعة هذا النصر.

الغنائم

لن أترك مجرد لوح خشبى واحد لمئات السفن المصنوعة من خشب الأرز الناصر، وتحتوى كل ما كانوا يمتلكونه من ذهب ولازورد وفضة وفيروز وبلطات برونزية لا حصر لها، زد على ذلك الزيت والبخور والحبوب والعسل والخشب النفيس،

فضلاً عن كل منتجات الريقتو الطيبة. لقد استوليت على كل شيء ولم أترك مكاناً إلا وتركته خاوياً.

أيها الآسيوى، لقد قُضِيَ عليك (من الآن)، وومن قلبك، أيها الآسيوى الخسيس كنت تقول: «أنا سيد، فلا وجود لنظيرى حتى هرموبوليس وحتى بر-حتحور»^(٦١)، (ولا ممن كانوا يأتون بالجزية) إلى أواريس بين نهريها^(٦٢). لقد تركتهم فى كُرب، فلم يعد هناك الآن أحد. لقد دمرت مدنهم، لقد اضرمت النار فى مقار إقامتهم التى صارت تلالاً حمراء للزمن اللانهائى، بسبب الأضرار التى ألحقتها بمصر بعد أن وضعت نفسها فى خدمة الآسيويين عندما اغتصبوا سيدتهم مصر.

تقدم بقية النص تفاصيل جلية الفائدة عن الأحداث التى تلت أول معركة مظفرة خاضها كامس ضد الهكسوس. عندئذ سعى أبوبى إلى عقد تحالف مع ملك كوش الذى كانت سلطاته تشمل آنذاك النوبة بأسرها بل ويبدو أنها كانت تمتد حتى إلفنتين عند حدود الأرض المصرية ذاتها التى وقعت بالتالى بين فكى كماشة «الآسيوى والزنجى». كان فى وسع الملكين أن يتصلا بسهولة إلى حد ما، إذا سلكا الدروب التى تبدأ من مصر الوسطى لتنتهى عند واحات الصحراء الغربية ولا سيما الواحات البحرية، ثم الاتجاه جنوباً عبر دروب أخرى فى الرمال وصولاً إلى كوش. لقد استنجد أبوبى بملك كوش وهو ما يشهد عليه النص المذكور فيما يلى. فأوفد إليه رسولاً يحمل رسالة، نجح كامس فى الاستيلاء عليها قبل أن تصل إلى مقصدها. وبالنسبة لنا فمن العناصر الهامة التى وردت فى هذه الرسالة الإشارة الواضحة إلى حملة عسكرية سابقة كان قد خاضها كامس فى الجنوب، الأمر الذى يتفق كل الاتفاق مع خط سياسة ملوك الإمبراطورية ألا وهو تأمين الحدود الجنوبية قبل الهجوم على الشمال. ولم تصلنا أى شواهد عن هذه الحملة سوى مخربشتين محفورتين على صخور النهر قرب توشكا، إلى الشمال قليلاً من الجندل الثانى وتذكران اسم كامس. وهكذا تحدد هذه المدونة المقتضبة، أقصى ما وصل إليه تقدم أمير طيبة، فى غمار حملته ضد الجنوب، وكان شرطاً لا مناص منه قبل الهجوم المباشر على ملك الهكسوس.

أبوي ومالك كوش

ووضعت يدي على رسالته المكتوبة، إلى الجنوب من الواحة، على الطريق المؤدى إلى كوش. واكتشفت هذه الكلمات التي كتبها أمير أواريس:

«(من) عا أوسر رع، ابن رع أبوي - أرسل تحياتي إلى ابني^(٦٣) أمير كوش. كيف حدث أن نصبت نفسك أميراً دون أن تحيطني علماً بذلك؟ هل علمت ما فعلته مصر بي؟ إن الأمير المقيم فيها، كامس - القوى، له الحياة، قد شن عدواناً شرساً على أراضى - رغم أنني لم أهاجمه - تماماً كما فعل معك. لقد اختار القطران^(٦٤) لتدميرهما، قطري وقطرك، وعاث فيهما تخريباً. تعال إذن، أبحر في اتجاه الشمال ولا تخشى شيئاً، لأنه هنا معي في الوقت الراهن ولا أحد ينتظر في مصر (المقصود إذن هجوم مباغت) ولن أسمح له على كل حال أن يبتعد طالما لم تصل. «بعد ذلك سوف نتقاسم مدن مصر. ومنطقة خنت - إن نفر^(٦٥) ستتهلل فرحاً وسعادة».

انتصار كامس التكتيكي

(أنا) واج خپر رع^(*)، القوى، له الحياة، المتحكم في الأحداث:

لقد أخضعت لسلطتي الصحاري وقيدام الأراضى^(٦٦) والأنهار أيضاً. طريق الهزيمة لم أعرفه، لأنني لم أهمل جيشي أبداً. ولم يُعرض وجه رجل الشمال (أبوي) عني ولكنه كان يخافني في الواقع بينما كنت أبحر في النهر وقبل أن تستعر الحرب بيننا. وقبل أن ألحق به، أحسّ بأنفاسي الملهبة فأرسل (رسولاً) إلى بلاد كوش طلباً للحماية. ولكنني استوقفتهم ولم أسمح له بالوصول إلى مقصده. بل أمرت بالإمساك به ليعود أدراجه، وانزله جهة الشرق عند أطفيح^(٦٧).

عندئذ نفذت قوتي إلى قلبه وارتعد قلبه عندما أبلغه رسوله ما فعلته على أرض إقليم الكاب الذي كان لا يزال جزءاً من ممتلكاته. وبعد ذلك أرسلت فرقة من البواسل كانت عندئذ بعيدة جداً، وقامت باجتياح الواحات البحرية فيما كنت متواجداً في

(*) لقب كامس. (المترجم)

ساكا^(٦٨)، لتفادى أى هجوم يشنه العدو على مؤخرة قواتى. ثم أبحرت هابطاً فى النهر وقلبى قوى وسعيد، وقتلت كل متمرّد صادفته فى طريقى.

العودة المظفرة

ما أسعد الإبحار فى اتجاه الجنوب بالنسبة للأمير الذى يتقدمه جنود جيشه. لم يتكبّد أية خسارة، لم يستفسر أحد عن رفيقه، وقلوبهم لم تكن محزونة. كان يبحر على مهل فى اتجاه إقليم المدينة فى فترة فصل الفيضان. كان كل وجه وضاً وتفيض البلاد بالخيرات وشيطان النهر ترقص^(٦٩) و طيبة فى عيد. النساء والرجال كانوا يتقدمون لمشاهدتى وكل زوجة تعانق رفيقها، وما من وجه تذرف عينيه الدمع. كنت أحرق البخور من أجل آمون داخل قدس الأقداس، فى المكان الذى يقال عنه «تقبل كل ما لذ وطاب». لأن ساعده كان قد أعطى حسام قدرته لابنه الملك، له الدوام: واج خير رع، ابن رع: كامس - القوى، له الحياة والثبات والقوة، فقلبه مسرور مع كانه، مثل رع، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى.

إحياء ذكرى النصر

فأصدر صاحب الجلالة أمره إلى نيشى الشجاع، الشريف والأمير والمسئول عن الشئون السرية فى القصر الملكى ورئيس البلاد بأسرها وخازن ملك مصر السفلى^(٧٠)، وقائد القطرين وأول رجال البلاط ورئيس الخزنة (أمره قائلاً): «أطالبك أن تسجل على لوح حجرى كل ما أنجزه جلالتي ببسالة وأن يقام فى الكرنك و طيبة للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى». وقال (نيشى) فى حضرة صاحب الجلالة: «سأفعل طبقاً لما أمرتني به». وأثنى عليه الملك إكراماً له.

هكذا وبعد انقضاء ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة فإن مآثر كامس الذى عقد العزم على تحرير البلاد من سطوة الأجنبي لتستعيد مصر هيبتها وشرف منزلتها - ما زالت هذه المآثر - حية تغالب الأيام.

كما كان ملكاً نافذ البصيرة ثاقب الفكر. فلما أراد أن يؤكد انتصاره على الجنوب أصبح كامس على ما يبدو أول من نصّب «ابنًا ملكيًا» لمناطق الجنوب واختار تيقى لهذه المهمة. والشاهد على ذلك مخربشتا توشكا. هكذا استعادت مصر سيادتها على النوبة.

إننا لا نعرف شيئاً عن الأحداث التي تشير إلى نهاية عهد كامس. ولكن من المرجح أن المنية قد باغتته، فأدركته قبل الإنتهاء من إعداد مقبرته التي كانت لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، استناداً إلى ما ورد في بردية أبتوت Abbott. ولكن في تاريخ لاحق، والحفاظ على الجسد من انتهاك حرمة، نقل التابوت من المقبرة ليوارى في الأنقاض المجاورة. وقد تم الكشف عنه عام ١٨٥٧ ولم يغتصبه أحد، ولكنه كان في حالة سيئة من الحفظ. وعثر بجوار جسد الملك على بعض المصوغات والمتعلقات الشخصية. وتحمل قطعة حلى اسم أحمس أخى كامس وخليفته والذي وقعت على عاتقه مهمة دفنه. وتحمل الملك الجديد مسئولية مواصلة تحرير مصر وإعادة النظام الملكى الفرعونى إلى سابق عهده. لقد أصبحنا الآن قرب العام ١٥٨٠ ق.م.

٣- أحمس

وإعادة سلطة الفراعنة إلى سابق عهدها

طرد الهكسوس

النصوص التي تروى حملات أحمس ضد الهكسوس قليلة. والمصدر الرئيسى هو السيرة الذاتية لأحد ضباطه واسمه أحمس بن أبانا وقد نقشت على جدران مقبرته الصخرية فى الكاب جنوب طيبة(*) . الجزء الأول ويضم واحد وثلاثين سطراً دون على الجدار الأيمن من ردهة المدخل ودون الجزء الثانى وهو عبارة عن ثمانية أسطر على الجدار القائم مباشرة على يسار المدخل.

(*) وشمال إيفو على وجه التحديد. (المترجم)

يقول قائد البحارة أحمس بن أبانا، الصادق القول: إنى أحدثكم أنتم أيا جميع البشر، سوف أحيطكم علماً بالإنعامات التي كانت من نصيبى، فبحضور البلاد بأسرها كوفئت بالذهب سبع مرات^(٧١)، فضلاً عن الخدم والخادمت^(٧٢)، كما مُنحت قطع أرض تفوق الحصر، فسمعة الرجل تعتمد على ما قام به من أفعال، ولن تزول أبداً فى هذا البلد.

كما قال ما يلى: لقد ترعرعت فى مدينة الكاب، كان والدى قائداً (فى جيش) سقن رع صادق - القول، ملك مصر العليا ومصر السفلى، كان اسمه بابا بن رعنت، وأخذت مكانه قائداً على متن السفينة (المسماة) «الثور المحارب»، فى زمن رب القطرين نب - پحتى - رع^(٧٣)، صادق القول، كنت لا أزال حدثاً ولم اتخذ لنفسى زوجة وما زلت أنام بثياب الصبا.

وبعد أن أسست منزلاً، وألحقت بأسطول الشمال نظراً لشجاعتى، كنت أرافق العاهل الملكى على اليابسة، وألزمه فى نزحاته على متن مركبته، وضرب الحصار على مدينة أواريس^(٧٤).

لم ينبس أحمس بن أبانا بكلمة واحدة عن تقدم الجيش من طيبة فى اتجاه الشمال أو عن مساره أو الخطة التى نفذها أحمس. ولكن حدث مؤخراً أن لفت عالم المصريات البلجيكي كلود فاندرسليين Claude Vandersleyen انتباهنا إلى الملاحظات المدونة على ظهر بردية ريند Rhind الرياضية، التى تعود نسختها إلى العام الثالث والثلاثين من عهد أبوبى^(٧٥). إن هذه الملاحظات سجلها بلا شك الكاتب الناسخ لحظة وقوع أحداث معاصرة مهمة تعود إلى العام الحادى عشر من عهد ملك، لم يذكر اسمه، هذه الملاحظات موزعة على ثلاثة أعمدة:

العمود الأول - الشهر الثانى من فصل الجفاف من العام الحادى عشر، الدخول إلى هليوبوليس.

العمود الثانى - (١) اليوم الثالث والعشرون من الشهر الأول من فصل الفيضان، الهجوم...

(٢) ما فى جنوب سيله

(٣) الثانى (....) يوم، وصل إلى مسامعنا

(٤) الدخول إلى سيله

العمود الثالث - (١) (اليوم) الثالث من الشهر الأول من فصل الفيضان العام الحادى عشر مولد ست.

(٢) صدر صوت عن جلالة هذا الإله (لقد دوى الرعد)

(٣) مولد إيزيس. لقد أمطرت السماء.

لا شك أن هذه العمليات قد جرت من نهاية شهر أبريل وحتى نهاية شهر يوليو. وإذا كان من المرجح جداً أن العام الحادى عشر المقصود يعود إلى عهد أحمس^(٧٦)، تصبح الفرضية السديدة التى ساقها فانديرسليين Vandersleyen هى على النحو الآتى: «إن سرعة التقدم البرى التى تشير إليها السيرة الذاتية للقائد أحمس بن أبانا لا يقصد بها تحديداً سوى فتح هليوبوليس وسيله» - ثارو بالمصرية القديمة والقنطرة حالياً، «وإن باغت الملك العدو بالإستيلاء على سيله فقد استطاع أن يفصل أواريس عن مؤخرتها الآسيوية. وعندما بلغ خبر الإستيلاء على سيله على مسامع الكاتب، لم يكن الأمر سوى خطوة إلى الأمام فى سلسلة العمليات الهادفة إلى محاصرة أواريس، وإن كانت الأكثر جسارة بالنظر إلى بعدها عن قواعد القوات المصرية، وربما الأكثر إلحاحاً أيضاً لأنها كانت تقطع على الفور الطريق إلى المنطقة المطلوب محاصرتها. إن الاستراتيجية المطبقة فى هذا المجال واضحة كل الوضوح فورود اسم سيله مباشرة بعد اسم هليوبوليس يؤكد عدم الإستيلاء على أى تجمع سكانى هام فيما بين المدينتين، سواء كانت منف أو أواريس؛ فقد استطاع الملك أن يسلك طريق وادى الطميلات حتى بحيرة التمساح لينحرف هنا فجأة فى اتجاه الشمال».

إن المسافة التى تفصل هليوبوليس عن سيله تصل إلى حوالى ١٥٠ كم، استطاع أحمس أن يقطعها هكذا مخترقاً الصحراء، ليترب على هول المفاجأ أبلغ تأثير. إن بعض العلامات المبشرة كالرعد والأمطار قد مهدت لكبرى الأحداث المرتقبة. إنه الأسلوب الذى تختاره دائماً الآلهة لإبلاغ البشر.

ولا شك أن حصار أواريس التى تحصن الهكسوس بداخلها قد استمر لفترة طويلة، دون أن نستطيع تحديدها على وجه الدقة. ويتحدث أحمس بن أبانا فى سيرته

الذاتية عن العديد من الإشتباكات مع العدو على اليابسة وعلى صفحة مياه الترع والقنوات المحيطة بالمدينة. بل اضطر بعد الإشتباك الثالث أن يقاتل إلى «الجنوب» ليتصدى على ما يظن لهجوم على مؤخرة الجيش الملكى وجناحيه.

ضُرب الحصار على مدينة أواريس. وأُتيحت لى الفرصة لأبرهن على بسالتي على الأرض فى حضرة صاحب الجلالة. ثم رُقيت على السفينة «تلك التى تتألق فى منقب»، وعندئذ دارت المعركة على صفحة الماء فى القناة پا - جد - كو عند أواريس. وحصلت على غنائم. وعُدت بيد^(٧٧) وأُبلغ الحاجب الملكى بهذه الواقعة ونلت ذهب البسالة. ثم دارت المعركة من جديد فى هذا المكان وحصلت أيضاً على بعض الغنائم. فُعدت بيدٍ ومنحت من جديد ذهب البسالة.

بعد ذلك، كان علينا أن نقاتل فى مصر إلى الجنوب من هذه المدينة. ومن هناك، عدت بأسير رجل. ونزلت إلى الماء. انظروا لقد جئت به وكأنه مغنم ربحته على الطريق إلى المدينة^(٧٨). وعبرت الماء بينما كنت أحمله وتم ابلاغ الحاجب الملكى بما حدث. عندئذ كوفئت مرة أخرى بالذهب.

ثم تم الاستيلاء على أواريس. وأحضرت معى أسرى: رجلاً وثلاث نساء. فكان المجموع أربعة رؤوس. وقدمهم إلى صاحب الجلالة خدماً.

هكذا كان الهكسوس قد طردوا من مصر.

جذور الإمبراطورية

وإذ تحلى أحمس بالفطنة والحكمة فقد طارد الآسيويين المهزومين حتى مدينة شاروهين فى أرض كنعان. ولا شك أنها بلدة تل الفرعة الحالية إلى الجنوب من غزة وعلى خط عرض بئر سبع تقريباً.

يقول أحمس بن أبانا:

وضُرب الحصار على شاروهين لمدة ثلاث سنوات. وفى نهاية المطاف استولى

عليها صاحب الجلالة. ومن هناك أيضاً عدت بالمغانم: امرأتين ويدٍ. ومنحت من جديد ذهب البسالة في حين أُعطيت الأسرى خدماً.

وزحف الجيش الملكى فى اتجاه الشمال لتأمين حدود مصر الشمالية الشرقية تأميناً قاطعاً واستعادة بلا شك هيمنتها القديمة على الموانئ الفينيقية. وفى السيرة الذاتية لأحد ضباط أحمس الآخرين وهو أحمس - بن - نخبت، وكانت الكاب موطنه الأصلي أيضاً يُقال ما يلى:

لقد تبعت نب - پحتى - رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ومن أجله أسرت فى بلاد چاهى^(٧٩) رجلاً ويداً^(٨٠).

لقد ذهب أحمس إلى فينقيا ولكن لا يسعنا أن نؤكد أيضاً أنه وصل إلى نهر الفرات(٩) الحد الشمالى المثلالى للقاتحين المصريين.

ومن الآن فصاعداً سيلجأ الفراعنة مرغمين، إذا صح القول، إلى «الخروج» من الأطر السياسية القديمة المحصورة فى الوادى. فلن تنطلق الحملات العسكرية من الآن لأغراض إقتصادية فقط ولكنها ستضع الآن نصب عينيها تأمين حماية مصر، بفضل إحاطتها بحزام من البلدان الخاضعة لهيمنتها وما يشبه الدول العازلة والحاجزة التى سوف تقوم بحمايتها من الغزوات الأجنبية التى كانت خربتها فى الماضى القريب. وسوف يضطر فلاحو ضفاف نهر النيل أن يصبحوا جنوداً، وستتحول المملكة إلى إمبراطورية شاسعة.

كان كامس قد استعاد هيمنة مصر على الأراضى الإفريقية فى الجنوب. ولكن اندلاع الثورات اضطرت أحمس فى أعقاب حملاته السورية - حول العام الخامس عشر من عهده - أن يصعد النهر فى اتجاه النوبة والسودان. ويروى هذه الأحداث أحمس بن أبانا رفيق السلاح الوفى:

بعد أن أباد جلالته بدو آسيا، صعد النهر فى اتجاه خنت - إن - نفر، للقضاء على النوبيين. وقتل عدداً كبيراً منهم (أما أنا) فقد حملت معى من هنا مغنماً: رجلين على قيد الحياة وثلاث أيادٍ. ومن جديد منحت الذهب مكافأة لى وسلّمت لى امرأتين. عندئذ هبط صاحب الجلالة النهر متجهاً ناحية الشمال، وكان قلبه سعيداً، عن قدرة وقوة، لأنه فتح بلاد الجنوب وبلاد الشمال.

عندئذ اتجه آتا إلى الجنوب (من مصر). وهكذا كان مصيره يقترب من نهايته. فأمسكت به آلهة مصر العليا. والتقى به صاحب الجلالة عند تبت - تاعا - مو(؟) واقتاده أسيراً، في حين تحول سائر شعبه إلى غنيمة. أما من جهتي، فقد أحضرت معي جنديين أسيرين أخذتهما من سفينة آتا. ومنحت خمسة رؤوس فضلاً عن قطع أرض في مدينتي، تعادل خمس أرورات(*)، وعومل جميع البحارة بالمثل.

كما جاء عدو خسيس اسمه تيتي - عن. كان قد جمع من حوله رجالاً قلوبهم شريرة. فقتله صاحب الجلالة وصارت قواته كأنها لم توجد قط. ومنحت ثلاثة رؤوس وحقوقاً في مدينتي، مساحتها خمس أرورات.

كان العدو الأول هو آتا ولا ندرى إن كان هو اسم شخص أو لقب؟ ولكنه كان أجنبياً وربما نوبياً استناداً إلى علم أسماء الأعلام. أما الثاني وهو تيتي - عن (تيتي جميل) الذي يدل اسمه أنه مصري، فربما كان زعيماً أجنبياً متمصراً أراد إعادة إحتلال المنطقة المفقودة جنوب الجندل الأول أو كان بالأحرى مصرياً دبّر مؤامرة ضد أحمس.

وأياً كان الأمر، فقد استعاد أحمس سيطرته على الأراضى الجنوبية وإن لم يتجاوز بلا شك مدينة بوهن. فرمّم تحصينات المدينة وأعادها إلى سابق عهدها، فأصبحت بوهن عاصمة حقيقية لهذه المنطقة يدبر شئونها حاكم. وقام أحمس بتعيين تورع في هذا المنصب الذي سيتحول في عهد أمنحوتب الأول - خليفة أحمس - إلى منصب «الابن الملكى ورئيس بلدان الجنوب». إن هذه الوظيفة الرفيعة وهى باختصار منصب «نائب - الملك» كان يشغلها آنذاك چحوتى الذى خلف تيتي. (راجع مخربشات توشكا السابق ذكرها).

(*) المقابل اليونانى للاسم المصرى القديم سثات الذى يعادل ٢٧٣٥ متراً مربعاً أو أكثر من نصف فدان بقليل. (المترجم)

أحمس، ملكًا وإداريًا

يعتبر أحمس مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

وفى مصر ذاتها كان الأمر يحتاج إلى عمل ضخم لإعادة توحيدها وتنظيمها.

كان لابد من مواجهة السلطات المحلية لحكام الأقاليم بعد أن تحولوا إلى أسرات حاكمة حقيقية والعمل على إدماجهم من الآن، فى الإطار الأكثر رحابة لسلطة مركزية واحدة. وتحقيقًا لهذا الهدف يبدو أن أحمس قد استبدل بعض خالصائه الأوفياء بعدد من حكام الأقاليم المشكوك فى ولائهم(*) أو ثبت فى مناصبهم من مدّوا له يد العون. ولكن عن هذا الموضوع لم يصلنا سوى غيض من فيض.

يمكن أن نتصور أن أحمس عندما عقد العزم على إعادة الازدهار إلى الإقتصاد المصرى شرع تحديدًا فى تطهير القنوات والترع القائمة، وشق الجديد منها، وهو تصور لا يجافى الحقيقة. ولا شك أنه ليس مجرد صدفة، أن المقابر الثلاث التى تم الكشف عنها فى جبانة طيبة وأصحابها من موظفى أحمس، كانت اثنتان منها «للمشرفين على مخازن الغلال» حرى ونخت. كما نشطت التجارة نشاطًا ملحوظًا. ومن جديد وصلت إلى مصر المواد النفيسة القادمة من البلدان الأجنبية. وفى العام ٢٢ من عهده، وبفضل جهود الخازن نفر پرت وبحضور الملك والملكة أحمس - نفرتارى، أعيد فتح محاجر المعصرة قرب طرة، وقبالة منف:

أعيد استخراج الحجر الجيرى الجميل من أجل معابده (أى معابد أحمس) لملايين السنين، ومن أجل معبد يتاح فى منف والمعبد الجميل فى الكرنك - معبد آمون - وكل ما شيده صاحب الجلالة^(٨١).

والشاهد على هذا النشاط، اللوحان الصخريان اللذان عثر عليهما فى المحاجر ذاتها. كما أمر أحمس بلا شك بفتح محجر جديد للألبستر فى موقع بصرة على البر الشرقى من نهر النيل إلى الجنوب من أسيوط. وبالفعل فقد وجد اسم أحمس - نفرتارى مذكوراً فيه.

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، والصواب أن الباء تدخل على المتروك. (المترجم)

ونلتمس هذا الإنتعاش الإقتصادي، على نحو خاص، فى كبرى المشاريع الإنشائية التى نفذها أحمس سواء فى بوهن أو الكرنك أو هرمونتيس أو أبيدوس أو منف. وفى الكرنك شيدَ معبد على مقربة من معبد آمون - رع. كانت جدرانه من الحجر والأساطين والسقف والأرضية من خشب الأرز. وفى القسم الجنوبي من الجبانة بأبيدوس أقيمت مبانٍ شُيدت أساساً من الطوب، ومنها ضريحان تذكاريان أحدهما من أجله، أما الآخر فمن أجل جدته تيتى - شيرى والدة الأمير سقن - رع تاعا والتى كانت لا تزال على قيد الحياة.

وفى عام ١٩١٣ أخرج عالم المصريات الفرنسى ليجران Legrain إلى النور، لوحاً كبيراً من الحجر الجيرى^(٨٢) يحمل اسم أحمس، تم الكشف عنه قرب الصرح الثامن فى الكرنك الذى شيده تحوتمس الثالث وكان أمنحوتب الرابع قد دفنه فى هذا المكان. يتكون النص من ٣٢ سطراً وهو عبارة عن نشيد عظيم من أجل الملك الجديد. إنه قصيدة طويلة غنائية الأسلوب، نُظمت للإشادة بالازدهار الذى عمّ البلاد، مع عودة النظام الملكى. إنه أنشودة حقيقية تتغنى بالتحير.

الحورس : صاحب الصيرورات المهيبة.

السيدتان : صاحب(*) النهضات الجميلة.

الحورس الذهبى: الذى يربط الأرضين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب - پحتى - رع (أى: رع هو رب القوة).

ابن رع: محبوبه، أحمس، الحى إلى أبد الأبد.

إنه ابن آمون - رع، فهو من جسده ومحبوبه ووريثه، فقد وهبه عرشه.

الإله الكامل فى الحقيقة، القوى الساعد، الذى لا يعرف الكذب. إن ما يفعله مهيئاً على غرار رع.

إنه ابن جب ووريثه المنتصر فى بهجة وسرور.

(*) الإشارة هنا إلى الملك. (المترجم)

إنه من ذرية رع الذى خلقه.

الحامى، فأليه ينسب كل ما على سطح الأرض، إلى الملك النورانى، رب الفرح،
فما برح يعطى الأنفاس لأنوف النساء، ويهب الحياة بلا انقطاع، ويقيم الحقيقة والعدل
للأمد الطويل.

ملك الملوك فى سائر البلدان، العاهل الملكى الذى ربط الشاطئين، وأتى بالعُجب
العجاب. قديرة هى تجلياته بالقوة. إنها تدفع كل من يجلّون الآلهة المفعمة بالحياة
والقوة، إلى الإنحناء.

إنه الأول فى السماء والثانى على الأرض، فبهاؤه يخلق النور. إنه محبوب
أمون. إن منصبه مضمون للأمد الطويل مثل منصب الإله - صاحب - الوجه - الجميل
(أى: پتاح)، إنه رب السنين، وشبيه رع فى جلاله، والذى يسمح له الإله بأن يعرف
معبده.

إنه عيد جميع الآلهة، وملك الجنوب فى به، وأمير الشمال فى البلد المحبوب^(٨٢)،
وعمود المساء ودقة [الأرض]، فَيُسَيَّرُ شئون كل ما يحيط به القرص، لقد استقر التاج
الأبيض والتاج الأحمر فى ثبات على رأسه، إن نصيبى حورس و ست خاضعان
لسلطانه.

لقد تجلى متألّقاً وجميلاً منذ طفولته، وكانت كل ساعة من ساعاته رائعة، إلى
أن نال التاج العظيم، رافعاً الريشتين عالياً، فى حين أن قدرة الصلّين (تعلو) وجهه،
مثل قدرة حورس بعد أن تولى زعامة الأرضين.

أيها العاهل الملكى الذى استمال التجليات فى مجدها فى خميس^(٨٤)، يا رب
عمليات الشروق المتألّقة، أيا حورس إن الحب الذى من وحيك، يغالب الأيام. فأليك
يسعى أهل الجنوب وأهل الشمال وأهل الشرق وأهل الغرب. إنه سيد رابط الجأش.
ثابتة هى أرضاه، بعد أن تسلم ميراثه من الذى انجبه، (تسلّم) القطرين. والشعوب
التي أجبرها على الهروب أعطيت له، من قبل والده المعظم.

لقد أخذ الـ«حنميت» بقبضة يده وأمسك الـ«رخيت»، فى حين يمتدحه الـ«پعت»

مهللين^(٨٥). وكل امرئ يقول: إنه سيدنا. ويقول الـ«حاو-نبوت»: نحن من أتباعه. وتقول الأراضى: نحن ملك له.

إنه الملك الذى سلمه رع السلطة وعظمه آمون. إنهما يعطيانه دفعة واحدة، الشيطان والأراضى التى يسطع عليها رع. ويتقدم الأجانب معاً مذعورين ليظلوا واقفين أمام ساحة عدالته. إن سيفه المسنون فى خنت-إن-نفر، وصيحته - صيحة الحرب فى بلاد الفينقيين، إن الخوف الذى يثيره صاحب الجلالة هو فى هذه البلاد أشبه بالذى ينشره الإله مين، سنة وصوله، عندئذ يحضرون هدايا جميلة محملين بالجزية التى تقدم للملك.

وعندما يظهر [...] فهو كالقمر وسط النجوم. ساعده جميل عندما يتقدم، وخطاه سعيدة وقدماه ثابتتان ونعلاه سريعان فى حركتهما، إنه الشكل المقدس الذى يحطّ عليه رع. إن آمون هو حمايته، ووالده المعظم الذى ما برح يحبه، بينما يرسم له دروبه.

الشاطئان يقولان: واهاً! ليتنا نراه! الشعب بأسره مفعم بالحب الذى يحركه فى النفوس، والعيون منبهرة عند مشاهدة هذا العاهل الملكى، والقلوب تُسرّع نحوه. ونشاهده على غرار رع عندما يشرق، أشبه بتوهج القرص، مثل خبرى عندما يظهر متألقاً للناظر إليه. إن أشعته فى الوجوه مثل أشعة أتوم فى شرق السماء. والنعائم ترقص فى الوديان، هكذا تفعل عندما يسطع الإله النورانى فى كبد النهار وجميع الأفاعى اتقدت ناراً.

إنه الملك المتفرد الذى تعبد سوتيس^(٨٦) وتبجله سيشات^(٨٧). إن هيبة تحوت إلى جواره، (تحوت) الذى يمهده بالمعرفة. إنه يرشد الكتبة إلى الحسابات الصائبة، إنه الساحر العظيم، إنه مالك الحب أكثر من أى ملك (آخر)، إنه محبوب حورس ورع. إنه

(*) نجمة الشعري اليمانية وسيبيت عند المصريين القدماء. وهى أيضاً إلهة. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص ١٨٢-١٨٤. (الترجم)

يتصرف بحيث تتفانى من أجله القلوب المفعمة بالتهاليل والتهنئات، فى حين تظل رغبات الثناء والمدح فى الأبدان.

اسمعوا أيا يعت وحنميت ورخت، أيا جميع أهل (مصر). اتبعوا هذا الملك فى مساعيه، ضعوا مجده إلى جوار غيره من البشر. تطهروا من أجل اسمه، كونوا أطهاراً من أجل حياته. انظروا، إنه إله فى هذه البلاد، حيّوه مثل رع، اعبدوه مثل القمر، إنه ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب - پحتى - رع، الحى إلى أبد الآباد، الذى ربط كافة البلدان الأجنبية.

الثناء أيضاً على سيدة البلاد التى تتسيد على شواطئ حاو نبوت، إن اسمها مرفوع فوق كل بلد من البلدان الأجنبية وتحدد مصير الجماهير. إنها الزوجة الملكية وأخت العاهل الملكى وابنة الملك والوالدة الملكية المعظمة. إنها تمتلك المعرفة وتربط مصر وتحيط الجنود برعايتها وحمايتها، إنها تدفع الفارين أمامها إلى الإلتفات وراءهم إنها تطوق البدو(?) وتعيد الهدوء إلى مصر العليا وتدحر من تمرّبوا عليها - إنها الزوجة الملكية عح حوتپ، لها الحياة!

كما أمر صاحب الجلالة بصنع ما يخلد ذكرى والده آمون - رع، ومنها: قلائد كبيرة من الذهب وسلاسل من اللازورد الحقيقى وأختام من الذهب وأباريق من الذهب وزلع وأنية من الفضة ومذابح من الذهب وموائد قرابين من الذهب والفضة وقلائد مينات يختلط فيها الذهب والفضة باللازورد والفيروز وإناء من الذهب للـ«كا» بقاعدة من الفضة وإناء من الفضة الموهمة بالذهب، بقاعدة من الفضة، من أجل الـ«كا»، وطبق من الفضة وزلع من الجرانيت مملوءة بالأدهان وأطباق كبيرة من الفضة والذهب، مقابضها من الفضة وقيثارة من الأبنوس المكّفت بالذهب والفضة وتماثيل من الفضة لأبو الهول وقاعدة تمثال (?) من الذهب. كما أمر جلالتي ببناء مركب ضخّم ليشق مياه النهر ويكون اسمه «قوى - هو - قيدام - آمون». سوف يصنع من خشب الأرز، من أفضل أنواع لبنان، حتى تتم رحلته الأولى فى مطلع السنة... وسوف تقام السوارى أيضاً من خشب الأرز، وكذلك المقصورة والأرضية^(٨٧)...

وإذا كان هذا المقطع الأخير، على وجه التحديد، يؤكد أن مصر قد عرفت من الآن اقتصاداً مزدهراً، وإذا كان الملك قد أصبح من جديد العاهل الأوحـد في ربوع الوادى وابن الآلهة وحامى الشعب، وإذا كان عالماً ومحـبباً ومهيباً، شأنه شأن من سبقوه، فسوف تتعاضم هذه الصفات مع اعتلاء الرعامسة العرش، إلا أن عنصرين جديدين يبرزان هنا، ويسترعيان الإنتباه: نقصد بذلك إشراك الملكة فى إنتصار الملك والثراء الحديث العهد الذى حظى به آمون الكرنك.

السيدات الثلاث فى البلاط الملكى

كنّ ثلاثاً، ثلاث سيدات مرموقات وينتظر إحداهن مصيراً إلهياً، وعلى رأسهن تيتى - شيرى والدة سقن رع تاعا وجدة الفرعون أحـمس، ومن بعدها ابنتها عـح - حوتب وأخت سقن رع تاعا وزوجته ووالدة أحـمس. وأخيراً أحـمس - نفرتارى ابنة السابقة وأخت أحـمس وزوجته.

وتأسيساً على ما سبق نلاحظ حقيقتين: فنجد من جهة أن أعداداً كبيرة من الأسماء سواء كانت مؤنثة أو مذكرة يدخل فى تركيبها اسم القمر. ونلاحظ من جهة أخرى، الأهمية المتعاضمة للنساء فى البلاط الملكى ومشاركتهن فى الإحتفالات الرسمية.

فتدخل كلمة «قمر» - عـح - فى تركيب اسم أحـمس(*) أى «القمر ولّده» أو «وُلِدَ القمر». فربما ولد الطفل يوم أحد الأعياد القمرية. وذلك بالإضافة إلى اسم عـح حوتب أى «ليكن القمر راضياً» واسم أحـمس - نفرتارى وهو اسم مركب يعنى «أحـمس - جميلته». والأسماء التى تضم المقطع إـعـح - مع ملاحظة أنه ينطق عـح عندما يقع فى أول الكلمة - كثيرة فى عائلة سقن رع - تاعا. إنها الصياغة نفسها التى جاءت منها أسماء تحوتـمس(**) أى «تحوت ولّده» أو «وُلِدَ تحوت». فقد كان تحوت فى مصر



(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم عـح مس. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم چحوتى مس. (المترجم)

«إلهًا - قمرًا» من الطراز الأول. هل نحن أمام برهان على وجود طقس عائلي؟ أو كان من الضروري دمج هذه الظاهرة في حركة روحية أكثر شمولاً؟

ففي العالم الآسيوي كانت الشعائر التي تقام من أجل «الإله - القمر» منتشرة على نطاق واسع منذ أزمنة موعلة في القدم. ففي بلاد سومر ساد تصور عن قصة خلق الكون، مفاده أنه قد ولد من البحر الأولى، في بادئ الأمر، جبل كوئي يتكون من السماء (=أن) والأرض (=كي) اللذين أنجبا الإله الهواء - إنليل - الذي فتقهما وفصل بينهما. ويقترب هذا النظر الذهني من مثيله في هليوبوليس. وانجب إنليل القمر ثانياً الذي أصبح والد الشمس أوتو. ومن ثم فقد كان وجود القمر في عالم سومر، وهو إله مذكر، سابقاً على الشمس. ومع إختلافات محلية، يظل هذا النموذج شديد الشبه في عالم بابل. وفي بلاد آشور كان يطلق على «الإله - القمر» اسم سين. وقد احتفظ تقويمها بذكرى الأعياد والمؤسسات البدائية التي تعود إلى زمن كان الملوك ما زالوا يسكنون الخيام: ونذكر على وجه التحديد «الشهر سين». كان «الإله - القمر» محل تبجيل وإجلال عظيمين من جانب البدو. وقد سبق أن ذكرنا^(٨٨) أن سيناء التي كانت أرضاً عاشت فيها القبائل حياة ترحال، استقر فيها بسرعة الإله المصري تحوت، فأدمجه بدو الصحراء، على ما يظن، في الإله - القمر المحلي الذي كانوا يعبدونه. وفي منطقة بلاد ما بين النهرين أيضاً كانت مدينة حرّان شرق الفرات وشمال شرق حلب إحدى أكبر المراكز الآسيوية المكرسة لعبادة القمر. وكانت من بين المدن التي توقف عندها النبي إبراهيم عند رحيله إلى مصر^(٨٩). وفي الأناضول أيضاً كان يُعبد القمر آرما. وكان الحوريون يعبدون كوكب الليل كوشوش^(٩٠).


ومن جراء كبرى عمليات تداخل الشعوب الناجمة عن الغزوات الهندوأوروبية في آسيا، ربما اختلطت الأفكار الدينية، وإن كانت متقاربة أصلاً كما لاحظنا. ومع أولى الفتوحات التي حققها أمراء مدينة الجنوب، عادوا بالأسرى الذين عملوا خدماً وبدأوا يفلحون حقول مصر. ومن الراجح أن هذه العبادات قد أثّرت في الفكر المصري، فأمدّت عبادة الكوكب مع والإله تحوت بحيوية جديدة تشهد عليها أسماء الأعلام المصرية.

وفى هذا الصدد تشدّ اهتمامنا جزئية بسيطة تتعلق برسم العلامات الهيروغليفية، وهو ما لاحظته فانديرسليين Vandersleyen^(٩١)؛ فبينما تُرسم العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر فى المعتاد على النحو الآتى ، يلاحظ أن الشكل الذى اتخذته هذه العلامة منذ نهاية الدولة الوسطى  تذكّرنا برسومات بلاد ما بين النهرين. إن الاختفاء المفاجئ لهذه الطريقة فى رسم هذه العلامة فى عهد أحمس، سار جنباً إلى جنب مع طرد الهكسوس بصفة نهائية. ويعبر عن رغبة أكيدة فى الإقلاع عن العادات والأعراف الآسيوية. ولكن ظلت مع ذلك الأسماء القمرية شائعة.

أما عن دور النساء فى بلاط أحمس فهو ظاهرة لافتة للأنظار.

كانت الجدة تيتى - شيرى التى عاصرت فى طيبة كافة أحداث حروب التحرير منذ ولادة سقن - رع تاعا، لا تزال على قيد الحياة بعد طرد الهكسوس. وبالفعل فإن جزءاً من لوح حجرى محفوظ فى لندن^(٩٢) (University College) يسوق الدليل على ذلك. وللأسف فإن الجزء الأسفل من اللوح مهشم. فلم يبق سوى الطرف العلوى من شخصين. فأمام الإله مونتو الذى يكشف عن وجوده المتن الذى يشير إلى «مونتورب طيبة» كان يقف أحمس ومن خلفه «الأم الملكية تيتى - شيرى». وتقول المدونة:

اليوم السابع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف [من العام؟]، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتى رع، ابن رع: أحمس، لقد شيد مبنى ليرمم جزءاً من معبد والده مونتورب طيبة وثور هرمونتيس.

ومن ثم وبعد تتويج أحمس، شاركت تيتى - شيرى فى الإحتفال الرسمى الذى أقيم بمناسبة ترميم معبد مونتو فى طيبة. فكانت لا تزال إذن «السيدة» الأولى فى البلاط الملكى. وقد ضاع تحديد السنة. ولكن إذا كانت ملاحظة فانديرسليين التى سبق أن أشرنا إليها صحيحة، فلا بد أن يعود تاريخ هذا اللوح الحجرى إلى السنوات الأولى من عهد الملك، لأن العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر داخل الخرطوش كانت لا تزال تحتفظ بالشكل .

وشأنه شأن ملوك مصر على وجه العموم كان أحمس يكن لأسلافه إحتراماً ورعاً. إن نص لوح حجرى يعود تاريخه إلى هذا العاهل الملكى وكشف عنه سير

فليندرز بيتري Sir Flinders Petrie فى أبيدوس فى مقصورة تيتى - شيرى الجنائزية ينقل لنا «حديثاً» دار بين العاهل الملكى وزوجته، بشأن جدتهما والأوقاف الجنائزية الخاصة بها:

فى يوم من الأيام، كان صاحب الجلالة جالساً فى قاعة المقابلات الرسمية، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب - پحتى - رع. وابن رع: أحمس، له الحياة. كانت السيدة النبيلة، لها الثناء كل الثناء، صاحبة السحر المهيّب، ابنة الملك، وأخت الملك والزوجة الإلهية^(٩٣) والزوجة الملكية العظيمة، أحمس - نفرتارى، (ليتها تحيا!)، كانت جالسة إلى جوار صاحب الجلالة. وتحدث الملك إلى رفيقته، بحثاً عما قد يفيد الموتى العظماء: كرش الماء وتقديم القرابين على المذبح والعمل على استعادة موائد القرابين و«إخضرارها»، عند مطلع كل فصل من فصول السنة والعيد الشهرى لاكتمال القمر بديراً وعيد طلعة الكاهن سم^(٩٤) وعيد القرابين الليلية فى اليوم الخامس من كل شهر وعيد اليوم السادس والعيد حاك والعيد واج وعيد تحوت، واليوم الأول من كل فصل من الفصول فى السماء والأرض^(٩٥).

فأجابته أخته قائلة: «لما استرجاع كل ذلك إلى الذاكرة؟ ماذا تقصد بهذا الحديث؟ ماذا ألم بقلبك؟»

فقال لها الملك: «لقد تذكرت والدة والدتى ووالدة أبى، الزوجة الملكية العظيمة، تيتى - شيرى، الصديقة القول. أجل فما زالت مقبرتها ومقصورتها قائمتين على أرض طيبة وأرض أبيدوس. لقد قلت لك ما قلته لأن جلالتي يرغب أن يقيم من أجلها هرمًا ومعبدًا فى الأرض المقدسة (الجبانة)، هبة فخمة من جلالتي. سوف تُحفر بحيرته وتغرس أشجاره وتحدد قرابينه وتُلحق هيئة من الموظفين بالمعبد، وتخصص له الحقول والقطعان، فضلاً عن الكهنة الجنائزين والكهنة المرتلين الذين سيؤدون عملهم، فكل واحد منهم يعرف واجبه».

تفوه صاحب الجلالة بهذه الكلمات، فى حين كان ذلك فى طور التشييد. لقد فعل كل ذلك لأنه كان يحبها حباً عظيماً. ولم يحدث أبداً أن صنع ملوك الزمن الماضى من أجل أمهاتهم ما يشبه ذلك.

ثم بسط صاحب الجلالة ساعده ومدّ يده^(٩٦) وصنع (كُتَب) أيضاً من أجلها صيغة تقديم القرابين: «قربان يقدمه الملك إلى جب والتاسوع الإلهى والتاسوع الصغير... إلى أنوبيس المشرف على المقصورة الإلهية (حتى يعطى) آلاف أرغفة الخبر و(أباريق) الجعة والثيران والطيور والأبقار... من أجل كا... [تيتى - شيرى]^(٩٧)».

إن تيتى - شيرى التى أغدق عليها حفيدها الملك والآلهة كل هذه الخيرات، كان ينتظرها مصير سعيد بعد وفاتها. وحتى تظل على قيد الحياة كانت تمتلك مقبرة تذكارية فى أبيدوس ومعبدًا فى طيبة. وربما كانت مقبرة أبيدوس التذكارية قد لحق بها بعض الدمار. وبالنظر إلى سنّ تيتى - شيرى فمن المعتقد أنه كان قد شيدّ قبل فترة طويلة. ولذلك فقد خصها أحمس ببعض المباني الأخرى فى طيبة. ومن غير المستبعد أيضاً أن بعض الأملاك قد خصّصت لها فى منف^(٩٨).

كانت ملكة عظيمة ووالدة ذرية مجيدة ويحتفظ لها المتحف البريطانى فى الوقت الراهن بتمثال صغير، سوف تظلّ ملامح وجهه الشابة الرقيقة تغالب الأيام، إلى أبد الأباد.

وبوفاة تيتى - شيرى، احتلت ابنتها عح حوتپ والدة أحمس، مكان الصدارة فى البلاط الملكى وكان دورها السياسى بكل تأكيد بالغ الأهمية، كما يشهد عليه نص اللوح الحجرى الكبير فى الكرنك الذى سبق ترجمته. بل من غير المستبعد أنها قامت بدور الوصية على العرش أثناء الفترات الطويلة والمتكررة التى غاب فيها أحمس، وهو يحارب بعيداً فيما وراء الحدود.

إن الوثائق الخاصة بها التى وصلتنا قليلة جداً. ومع ذلك فإن لوحاً حجرياً جاء من إدفو، ومن مقتنيات متحف القاهرة فى الوقت الراهن، يشهد على إقامة طقوس جنازية فى معبد المدينة من أجل عدد من الملكات، ومن بينهم عح حوتپ. وكان يشرف على هذه الطقوس كاهن وعب^(٩٩) مرتبط بالعائلة المالكة وسوف يخلفه ابنه فى هذا المنصب. وفى القسم المقوس فى أعلى اللوح يؤدى الرجل الطقس الدينى أمام ملكتين:

زوجة آمون الإلهية، الزوجة الملكية العظيمة، عح حوتپ، صادقة القول. والزوجة الملكية، والأخت الملكية، سوبك إم ساف^(١٠٠)، صادقة القول.

أما النص المنقوش على اللوح الحجري فيقول:

قربان يقدمه الملك إلى حورس الإدفوى(*) وإلى أوزيريس وإيزيس ليقدما
القرايين التي تنبعث مع كل صوت^(١٠١): الخبز والجمعة والثيران والطيور، وكل ما لذّ
وطاب وجميل وطاهر، من أجل كا والددة الملك والزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ،
صادقة القول، وأيضاً من أجل ابنها نب - پحتى - رع، صادق القول.

لقد قال: «قمت بترميم مقبرة الإبنة الملكية سويك - إم - ساف، بعد أن وجدتھا
مدمرة». كما يقول هذا الكاهن وعب: «أنتم أيها الذين ستعبرون أمام هذا اللوح
الحجري، إنى أتحدث إليكم إنى أتصرف بحيث تدركون إلى أى مدى وصلت الخطوة
التي خصّنتى بها الزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ. فقد عينتني لأوفر لها القرايين
والحققتني بخدمة تمثال جلالتها ومنحتني جانباً من أطعمتها: منه رغيف خبز بيت
والخبز پرسن وإبريقى جمعة وقطع متنوعة من لحم البقر. لقد رُقّيت إلى منصب رفيع،
بعد أن كنت أشغل منصباً أدنى. كما أغدقت علىّ بانهامات أخرى. فمنحتني أملاك
مختلفة فى إدفو حتى أتمكن فى المقابل أن أقدم القرايين لجلالتها^(١٠٢).

إن «الإرتقاء الإجتماعى» الذى عرفه هذا الرجل وهو خادم الملكات الأمين،
سيستمر فى حياة أحمس - نفرتارى. وجدير بالملاحظة أن هيئة كبيرة من الموظفين
المرتبطين ارتباطاً خاصاً بالزوجات الملكيات قد بدأت تتشكل^(١٠٣). إنه شاهد آخر
يضاف إلى غيره من الشواهد، على الأهمية الجديدة التى تمتعت بها النساء فى
البلاط الملكى بمدينة طيبة.

وبوفاة عح - حوتپ ومع تبوأ الملكة أحمس - نفرتارى - زوجة أحمس - مكانة
رفيعة منحتها نفوذاً بالغ التأثير، صار هذا الواقع من البديهيّات الواضحة كل
الوضوح. ورزقت الملكة الجديدة من زواجها بأحمس بأربعة أبناء وابنة واحدة هى
الأميرة سات - آمون (أى ابنة - آمون). ومن المرجح أن الابن البكر أحمس - عنخ الذى
صوّر على كتلة حجرية من الكرنك^(١٠٤) ولا نعرف عنه شيئاً خلاف ذلك - قد توفى

(*) نسبة إلى إدفو ومعبدھا. (المترجم)

وهو فى ريعان الشباب. أما الابن الثانى أمنحوتب (أى: ليكن آمون راضياً) فسوف يتربع على العرش عند وفاة والده.

وتحمل أحمس - نفرتارى ألقاباً سياسية. إنها «تلك التى تتولى أمر سائر الأرضين» و«تلك التى تقف على رأس مصر العليا ومصر السفلى». ومن واقع نص لوح أبيبوس الحجرى الذى سبق عرضه نلاحظ أنها كانت تشارك زوجها قراراته. وفى جزيرة صاى الواقعة فى السودان فيما بين الجندل الثانى والجندل الثالث من نهر النيل، عُثر على معالم أثرية تحمل اسم أحمس - نفرتارى وهى عبارة عن كتل من الحجر الرملى وتمثال. ولكن الحذر واجب عند تناول هذا النوع من الشواهد: لأنه لا يمكن القول تأسيساً على ذلك، أنها قامت بدور ما فى بلدان الجنوب. فمن المحتمل أن تكون هذه القطع الأثرية قد نقلت إلى هذا الموقع فى وقت لاحق.

كما أنعم عليها أيضاً بلقب دينى على قدر كبير من الأهمية فكانت «الخادمة الثانية للإله آمون». وفى إطار التراتب الهرمى الكهنوتى كان هذا المنصب يندرج مباشرة بعد كبير الكهنة القائم على الشعائر. وفى عام ١٩٢٥، استخرج هنرى شيفرييه Henri Chevrier كتلة من الحجر الجيرى من حشوة الصرح الثالث لمعبد آمون - رع^(١٠٥). وقد نقشَت على هذه الكتلة صورة الملك أحمس فى صحبة زوجته وابنه أحمس - عنخ، وهو يقدم للإله خبزاً أبيض. كانت تؤطر المشهد خمسة أعمدة من نص نُحتت على يمين الكتلة الحجرية وسطرين أفقيين فى قسمها الأدنى. وإذا واصل شيفرييه أعماله عثر فيما بعد على بلاطة أخرى من الحجر الجيرى، تضم باقى هذا النص موزعاً على ثمانية عشر عموداً رأسياً، والمدونة وهى مهشمة للأسف، تقدم وصفاً للإحتفالات التى أقيمت عند تنصيب الملكة أحمس - نفرتارى فى وظيفتها الدينية المرموقة والوهبة التى أوقفها الملك لصالحها فى هذه المناسبة:

اليوم السابع، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان(*) [من العام؟] من عهد صاحب الجلالة ملك مصر السفلى ومصر العليا: نب - پحتى - رع، ابن رع: أحمس
فلْيَحْيَ للزمن اللانهائى والزمن الأبدى!

(*) أخت بالمصرية القديمة. (المترجم)

فى حضرة [قضاة] ربوع المدينة وكهنة معبد آمون يتم إنجاز ما أعلن عنه فى
جلالة القصر الملكى... [بانعام] منصب الخادمة الثانية للإله آمون، على الزوجة الإلهية
والزوجة الملكية [أحمس - نفرتارى]... كأملاكها، ابن عن ابن، وورث عن وريث...
قائمة بأملاكها: ذهب: ١٦٠ شنع^(١٠٦) - فضة: ٢٥٠ - برونز ٦٧(?) وكل واحد منها
يعادل ٦ شنع. وأعطيتها إياها نصيب أربعة. الجملة حوالى ٢٠٠. الثياب: من ٢٠٠ إلى
٤٠٠ شنع. وأعطيتها إياها نصيب مئتين. وطُرح لتغطية الشعر: ٨٠ إلى ٢١٠ شنع.
وما يعادل نصيب ١٥٠. أوعية الأدهان: ١٣ إلى ٧٨ (شنع) ما يعادل نصيب ٥٠.
المجموع الكلى: حوالى ١٠١٠ شنع. كما منحتها خادماً وخادمة و ٤٠٠ مكيال قمح
 وخمس قطع أرض زراعية بالإضافة إلى الـ ١٠١٠ شنع هذه. كل ذلك بينما كانت
تحصل مقابل منصبها على ٦٠٠ شنع.

وفى ختام الوثيقة (التي تشهد على تسلمها) هذا المنصب، قالت:

«إننى راضية عما صُرف لى». وتمّ التصرف وفقاً لذلك. بحيث لا يأتى أحد
ليقوم بتبديل (هذا القرار) وأقسمت أمام الرب (أمون). عندئذ توجه إليها كبار قضاة
المدينة وكهنة معبد آمون لتسجيل إسناد المنصب إلى الزوجة الإلهية والزوجة الملكية
العظيمة أحمس - نفرتارى، ليتها تحيا! ثم ألبست ثوب وظيفتها. وهو واحد من بين
مئتين منحها إياها صاحب الجلالة، فى حين كانت فقيرة ومعدمة. كما أمر جلالتى بأن
يُشيد لها مسكن. ولتجنب أى التماس محتمل قد تتقدم به ألق أخوها لخدمتها،
وهكذا استبعدت أى مناقشة.

عندئذ عَبدَت الإله لصالح صاحب الجلالة، أمام كبار البلاط الملكى قائلة: «لقد
ألبسنى عندما كنت معدمة وأتاح لى أن أكون ثرية بينما كنت فقيرة».

وبعد ختم حجة الملكية فى حضرة الملك شخصياً، وُضعت إلى جوار الصورة
الراعية الحامية للإله آمون، يوم عيده إبان شهر كيهك فى الأقصر(?) فى حضرة
العاهل الملكى والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة، ليتها تحيا!...

عندئذ تحدث جلالة هذا الإله قائلاً: «أنا حاميا وكفيلها. ولن يحدث أبداً أن
يُطعن فى سلامة هذا المنصب، أى ملك من ملوك الأجيال القادمة، ولكنه سيكون حقاً

مسلمًا به للزوجة الإلهية أحمس - نفرتارى، ابن عن ابن، للزمن الأبدى وللزمن
اللانهاى باعتبارها تشغل وظيفة الزوجة الإلهية. ولا يحق لأحد سواها أن يناقش
الأمر. ولا أحد غيره فى مقدوره أن يجادل فيه (١٠٧).

هذا النص فريد فى بابه. إنه يحدد بوضوح طبيعة مختلف الإجراءات الرسمية
التي تعزز تسلم أحمس - نفرتارى منصبها الكهنوتى المرموق: الدخول الموقوف عليها
وقبول الملكة الشروط المادية لتتبوأ هذا المنصب وتسجيلها بصفة رسمية من قبل كبار
الشخصيات العلمانية والدينية فى طيبة وشغل هذه الوظيفة التي كان ينظر إليها
باعتبارها أشبه «بطريق جديد». فيقال علناً أن الملكة - وإن كانت ابنة وزوجة الملك! -
«فقيرة ومعدمة». لقد تخلت إذا صح التعبير عما كان يسترها لترتدى الثوب المقدس
الذى يبدو أشبه بالوجه الخارجى لشخصية جديدة. إن آمون هو مصدر ثرائها وثروتها
عن طريق الملك. لقد نذرت نفسها من الآن للإثنين، الأمر الذى يتضح أيضاً من لقبها
كزوجة.

كل ذلك يختلف كل الاختلاف مع إحتفالات تنصيب كبير كهنة آمون، على سبيل
المثال (١٠٨). ويخيل لنا أن المقصود هو مجرد منصب شرفى يُورث، والهدف منه إلقاء
الضوء على شخص الملكة وذريتها وإثراؤهم.

وظلت فى عهد ابنها أمنحوتب الأول محتفظة بدورها البارز فى البلاط الملكى.
ولما كانت ملكة مرموقة، فتنسب إلى عائلة أمراء طيبة الذين حرروا البلاد من الوجود
الأجنبى، فقد أقيمت من أجلها بعد وفاتها شعائر رسمية. والشاهد على ذلك نقوش
معابد طيبة فى الكرنك والشيخ عبد القرنة والرامسيوم. ولكن لابد من الإشارة على
وجه التحديد إلى الورع الشعبى الذى ارتبط بشخصها، كما تشهد عليه صور
لا حصر لها للملكة المؤلهة: لقد تم الكشف عن ألواح حجرية، يصل عددها فى الوقت
الراهن إلى أكثر من مئة، فى أهم المراكز التي أقيمت فيها من أجلها الشعائر؛ وفى
منطقة طيبة نذكر الكرنك والقسم الشمالى من جبانة دير المدينة بالبر الغربى فضلاً
عن منطقة أبيدوس أو على مقربة من هرقليوبوليس. وتظهر صورة أحمس - نفرتارى

فى رسومات بضع وخمسين مقبره من مقابر الأشراف فى طيبة. إن مجموعة ضخمة من التماثيل والتماثيل الصغيرة تشهد على حيوية الشعائر التى أقيمت من أجلها على امتداد خمسة قرون وحتى الأسرة الحادية والعشرين. وفى معظم الأحوال نجد أن هذه التماثيل سوداء اللون ومن الخشب المطلى بالقار؛ فالأسود هو لون الكلب البرى الضخم، المسمى خطأ ابن أوى، والذي كان يحوم فى المساء حول الجبانات وأصبح أصل ملامح شخصية أنوبيس^(١٠٩). والأسود هو مادة القار المستخدم لحماية الجسد فى ترتيبات طقس التحنيط، فكان وثيق الصلة بأفكار الموت واستعادة الحياة وتجديدها. ولا شك أن هذه المضاهاة المطلوبة مع كبرى آلهة الخلود تبرر انتشار استخدام اللون الأسود فى التماثيل الصغيرة التى تصور أحمس - نفرتارى.

إن الشعائر التى كانت تقام من أجلها قد ربطتها بكبرى آلهة مصر. كانت والدة أمنحوتب الأول الذى أله هو أيضاً، وبصفتها هذه، تعتبر مساوية لإلهة - أم، فكانت حامية وحارسة. وكان معبدها الجنائزى فى الشيخ عبدالقرنة المركز الرئيسى لإقامة شعائرها. وخصصت لها مجموعة من الكهنة تضم كبير كهنة و«خدّام الإله»^(*) وكاهناً جنائزياً. كان موظفون علمانيون يتولون إدارة أملاك معبدها، التى تشمل الحقول والماشية والمخازن والورش وشونة حبوب. كان هؤلاء «الموظفون» يضطلعون بعملهم هذا، إلى جانب وظيفتهم فى خدمة آلهة أخرى ومنها آمون الكرنك على سبيل المثال.

وعند وفاتها، حُطّ جثمان الملك ليسجى فى مقبرتها المحفورة فى صخر دراع أبو النجا إلى الشمال الغربى من معبد القرنة. وفى أعقاب أعمال النهب والسلب التى حدثت فى أواخر عصر الرعامسة، نقل التابوت والمتاع الجنائزى إلى المقبرة رقم ٣٢٠ فى الدير البحرى^(**) التى استخدمت كخبينة لعدد كبير من رفات ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لحمايتها من الاعتداء عليها. وعُثر فى هذه الخبينة على الجسد المحنط للملكة الإلهية وعلى تابوتها وأنيتها الكانوبية^(١١٠) فضلاً

(*) (حم نثر فى المفرد، أى كامن عادى. (المترجم)

(**) (وهى مقبرة الأميرة إن حعبى. (المترجم)

عن تابوت «مرضعتها» راى وجسدها، فقد أرادت ألا تفارقها أبداً. ويؤكد علماء الآثار «أن موميا الملكة بعد تخليصها من الأشرطة التى كانت تدثرها قد كشفت عن موميا امرأة طاعنة فى السن بيضاء البشرة. ولكن الجسد تحلل عندما تعرّض للهواء. وكان طول الموميا ١٦١ سم». هكذا هلك الغلاف البدنى «للزوجة الإلهية» التى تعتبر واحدة من أعظم ثلاث ملكات فى بلاط طيبة قرب عام ١٥٨٠ ق.م (١١١).

الكرنك – أول الروائع المهيبة

ما زال النطاق الشاسع الذى يشغله معبد الكرنك فى الوقت الراهن، وهو المنطقة المقدسة الأكبر على مستوى العالم، ما زال يوحى للمتددين عليه بعظمة طيبة التليدة. لقد غابت المعابد الأيام لتشهد رغم ما أصابها من دمار، على الإيمان العميق الذى كان يحفز ملوك مصر وشعبها، فقد أصبح آمون «الأوحد، المتفرد» (١١٢)، ملك الآلهة الفائق القدرة.

وفى عام ٦٠ ق.م وقبيل الغزو الرومانى لمصر بفترة قصيرة استرجع ديودورس الصقلى (*) ما كتبه من قبله هيكاتيوس الأبيرى الذى عاش على ضفاف نهر النيل وعرف طيبة وأثارها، استرجع ما قاله هذا الأخير ليكتب هذه السطور: «لم يرد إلى أى مدينة على سطح الأرض هذا القدر من القرايين من ذهب وفضة وعاج. كانت تغصّ بعدد كبير من التماثيل العملاقة والمسلات من الحجر الأحادى الكتلة. إن المباني الأربعة التى شيدت فيها يأخذ جمالها وعظمتها بالألباب» وعن معبد الكرنك قال: «إن أحدها وهو الأقدم يبلغ محيطه ثلاثة عشر إستاديا (**) stade وارتفاعه خمسا وأربعين ذراعاً (***). وسمك الأسوار أربعاً وعشرين قدماً (****). وفضلاً عن هذه الأبهة

(*) مؤرخ يونانى. القرن الأول ق.م. كتب تاريخ العالم منذ بدء الخليقة. (المترجم)

(**) مقياس طول فى بلاد اليونان القديمة يعادل ١٨٠ متراً تقريباً. (المترجم)

(***) كانت الذراع تعادل نصف متر تقريباً. (المترجم)

(****) كانت القدم تعادل ٢٢ سم تقريباً. (المترجم)

والفخامة نذكر وفرة القرايين النفيسة التى تكرر للإله فلا تبعث على الإعجاب بفضل روعتها فحسب، بل أيضاً بسبب إتقان صنعتها. لقد ظلت المبانى قائمة حتى الآونة الأخيرة. ولكن سلب الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة فى عهد قمبيز(*) الذى أضرم النار فى معابد مصر^(١١٣). بل سبق أن قدم اللوح الحجرى الكبير فى الكرنك وصفاً للثروات التى وهبها أحمس^(١١٤) إلى آمون - رع من حلى مقدسة ومتاع ضرورى لإقامة الشعائر التى صنعت من مواد نفيسة. هكذا بدأت كنوز معبد الكرنك تتجمع.

والبقعة التى كانت فى الماضى مجرد قرية فلاحين ومراكبية أصبحت مدينة شامخة رفيعة الشأن. فكانت مسقط رأس الأمراء الذين حرروا أرض الكنانة مرتين من الفوضى والغزاة. ولما كانت طيبة مهد الملوك الأقوى فى التاريخ، فمن الطبيعى أن تصبح أيضاً أصل الدنيا(**): فتصوّر كهنة آمون - رع أن هنا فى المدينة المقدسة، انبثقت ذات يوم أكمة مقدسة خارج المياه الأولية ومن حلقة الخواء الأجذب. عندئذ، عاشت طيبة أول أيام الكون واستطاع آمون النورانى أن يرسى دعائم العالم ويقيمها عليها. هذا هو آمون.

فأحد أشكاله فى السماء وجسده يقيم فى جبل الموتى وتمثاله فى طيبة، ولكن آمون «واحد». إنه يظل متوارياً عن الأعين، خافياً حتى على الآلهة الأخرى ذاتها... ومع ذلك، فإنه قريب من مخلوقاته بقلبه وبمحبه ويسهر على مصيرهم. فتقول الأرامل: أنت زوجى، ويقول الأطفال: أنت أبونا وأمنا. والغنى سعيد ببهائك والفقير يعبد وجهك^(١١٥).

وفى نظر المؤمنين به، كان آمون الإله المتعدد الأشكال القوى الرؤوف. إنه الإله الأوحد المتفرد وإن كان من الصعب إغفال الفاعلية السحرية التى تتحلى بها الآلهة الأخرى، كل فى «حقل إختصاصه» المحدد. اتسمت الروحانية فى العصور القديمة بطابع التسامح وربما بالتشدد فيه. كانت مولعة على وجه الخصوص بإقامة الشعائر وترديد التعويذات بغرض الحماية والوقاية. كان البشر يسعون إلى الحصول على

(*) إبان الاحتلال الفارسى الأول (الأسرة السابعة والعشرين). (المترجم)

(**) أو أم الدنيا كما نقول فى الوقت الراهن عن مصر. (المترجم)

العون الإلهى بمختلف أشكاله. ولكن هذا المجمع الإلهى الضخم، بما يوفره من دعم ومساندة وفاعلية، كانت تهيمن عليه جلالة آمون مدينة طيبة، إنه آمون الكرنك الذى ظل الملك الجليل، سواء اتخذ هيئة إنسان أو كبش، إنه آمون - رع الذى ما زالت صورته المنحوتة أو المرسومة تلاحق المسافرين أثناء تجوالهم فى طيبة. إن آمون، الإله الشمسى لبهاء الشرق ورونقه، كان ينتظره مصير باهر فى المنطقة الممتدة من شاطئ البحر المتوسط وحتى البلدان الواقعة فيما وراء نهر دجلة والبحر الأسود وحتى وسط إفريقيا. وما زال وجوده الإلهى قائماً فى الكرنك.

الكرنك مدينة مقدسة شاسعة، أشبه بزخرف على هيئة مشبكات تتداخل فيها أبراج الصروح والبوابات الشامخة والمسلات المنتصبة وأبهاء الأساطين والدهاليز السرية ومقاصير قدس الأقداس المظلمة، كلها عناصر تشهد على ورع جماهير شعب، على امتداد ما يقارب الألفى سنة.

وعلى بعد ٣٠٠ متر من شاطئ النهر تمتد الأملاك المقدسة بطول ١٦٠٠ متر. وفى الوسط أقيم سور - يحدد مسكن آمون - رع، يبلغ ٦٠٠ متر طولاً و ٥٠٠ متر عرضاً. وفى الشمال يلتف سور أصغر بكثير، حول معبد موتو. أما فى الجنوب فقد شُيّد «قصر» الإلهة موت زوجة آمون و«الأم الإلهية» التى قد تتحول إذا لزم الأمر إلى أسدة(*) مرعبة ومحاربة. ومن هذا «القصر» يمتد طريق تحفه على الجانبين تماثيل أبوالهول ليصل إلى سور معبد آمون.

لم يكن المعبد فى نظر المصرى القديم مكاناً للصلاة والخشوع والخلوة مع النفس، بل مكاناً مفضلاً تغمره القوى السحرية. إنه «بيت» الإله الذى كان يقيم فيه، ولا بد بالتالى من حمايته من العناصر المعمارية التى قد تنال منه حتى يمكن صون نظام الكون والحفاظ عليه، وهما المهمة التى يتكفل بها الآلهة والملوك. كما أنه مكان للرموز والتناسق والتناغم بين عالم الآلهة وعالم الأحياء. هكذا بدأ تشييد معبد كلاسيكى عند شاطئ النيل، ومرفأ القارب الإلهى. ثم بدأ طريق يمتد من الغرب فى

(*) مؤنث أسد. المعجم الوسيط. (المترجم)

اتجاه الشرق تحفه على الجانبين تماثيل أبو الهول برأس كبش: كان فى وسع الإله أن ينفذ إلى داخل البدن المنحوت فى الحجر الرملى أو الجرانيت، ليشكل على هذا النحو حرساً أمام «بيته» حمايةً له وفرض وجوده المقدس على المؤمنين. كان بُرجا الصرح العاليان يتخذان شكل شبه المنحرف ويكتنفان المدخل الضيق. كان شكلهما يشير إلى هيئة جَبَلَى الأفق، فمن وسطهما تبرز الشمس عند الفجر. وهكذا يدخل الإله إلى معبده كما تدخل الشمس إلى أعالي السماء. يلى ذلك فناء تكتنفه الصُّفَات أحياناً وصمم لاستقبال عامة الشعب الذى كان فى وسعه أن يشاهد من هذا المكان، المواكب الاحتفالية بمناسبة الأعياد الدينية. وكان لا يسمع بعد ذلك بدخول بهو الأساطين إلا للكهنة فقط وبعض المحظوظين. كان هذا البهو أشبه بغابة شاسعة من الأساطين ذات التيجان المتنوعة: فكانت بردية الشكل أو لوتسية أو نخيلية، فتعكس على هذا النحو وفرة النباتات التى تكسو أرض مصر. أما السقف فكان فى أغلب الأحوال باللون الأزرق ومرصع بنجوم صفراء. لأن النحاس هو المعدن الذى صنعت منه النجوم، كما أن الذهب يشكل بدن الشمس. إنها محاكاة نضرة زاهية الألوان للمشهد الطبيعى. وبينما كان السقف يميل إلى الانخفاض تدريجياً، كان المرء «يصعد» (*) فيما بعد فى اتجاه قدس الأقداس الذى يضم ناووساً من الحجر الصلد، ومن الجرانيت فى أغلب الأحوال، لتوضع فيه الصورة الإلهية. كان الناووس يرمز إلى التل الأولى المنبثق من المحيط الأزلّى، فمن فوقه استهلّ الخالق عمله. فى هذا المكان كان يتم اللقاء السامى بين آمون - رع والملك الذى كان لازماً عليه كل يوم أن يقيم الشعائر الخاصة بايقاظ الإله ونهوضه وزينته وتناوله وجبات الطعام وبلحظة نومه مع حلول المساء^(١٦). كان كبير كهنة الشعائر و«الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة» (وعب) يحلّون محل العاهل الملكى فى إقامة الطقوس الدينية. كانت الطهارة فريضة واجبة. فعندما يبارح آخر الكهنة المكان مع حلول المساء، يصل الأمر إلى ضرورة إزالة الآثار ذاتها التى تتركها خطواته فى الرمال أمام الناووس، حتى لا تدنس أية نجاسة صورة الإله. وإذ تم الحفاظ على الإله على هذا النحو، فإنه يضمن تماسك العالم وحماية مصر.

(*) مع انخفاض سقف المعبد، كانت أرضيته ترتفع تدريجياً. (المترجم)

وفى نظر من شاهد الكرنك يبدو أن تتبع هذا المسار المبدئى من الأمور الصعبة. فكل ملك من ملوك مصر، على امتداد أكثر من ألف سنة، أخذ على عاتقه إضافة مبناه الخاص إلى المعبد الكبير - معبد آمون - رع - تعبيراً عن ورعه وتقواه. هكذا تعددت المباني وأقيمت جنباً إلى جنب أو تداخلت وتشابكت. وقبل الرعامسة شيد ملوك الأسرة الثامنة عشرة معبد الكرنك. ومن خلال استعراضنا لتاريخ هذه الأسرة سوف نقدم تحليلاً لأعمالهم وثرواتهم.

وعن المباني التى شادها أحمس الذى كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة، مثلاً يحتذون به بصفته محارباً وبنّاءً، فإن غيضاً من فيض عناصرها، ما زال قائماً. ومن بين ما كشف عنه موريس پييه Maurice Pillet فى أساسات الصرح الثالث، عثر على كتل من ألستر حثتوب، كانت أصلاً جزءاً من مقصورة استراحة القارب المقدس التى شادها العامل الملكى من أجل آمون.

وشرع أحمس يطور سلك الكهنة فى طيبة فاستحدث إذا صح القول منصب كبير الكهنة وأسبغ على كل حال، على هذا الحبر العظيم منزلة رفيعة جديدة. كان المصريون يطلقون على هذا الكاهن لقب: «الخادم الأول للإله آمون». وفى إطار تراتب هرمى على قدر كبير من التنظيم كان هؤلاء «الخدام» أربعة. لقد فهم الإغريق هذا المصطلح على غير معناه ولذلك فقد ترجموه بكلمة «نَبِيّ» prophète. ولا شك أنهم فسروا اللقب الخاص بكبير كهنة هليوپوليس وهو كبير «الرّائين» تفسيراً خاطئاً. كانت كلمة «يرى» لا تخرج فى هذا السياق عن دلالتها المادية، فتعنى إطالة النظر فى النجم السماوى وتبتعد تماماً عن القدرة على رؤية ما وراء الواقع وما هو ممكن، ورؤية المستقبل والقبول به.

وقد وصلنا اسمان من هؤلاء الكهنة الكبار الذين عينهم أحمس: الأول هو چحوتى الذى كان بالإضافة إلى ذلك «رئيس حاملى الختم الملكى». والآخر هو مين - مونتو الذى كان أيضاً «الأب الإلهى لآمون». وهكذا ظهر هذا اللقب لأول مرة، ليصبح فيما بعد لقب غيره من «خدّام الإله»، فقد كان «الآباء الإلهيون» يشكلون ما يشبه تراتباً هرمياً موازياً، فكان فى وسع حامل لقب «الأب الإلهى» أن يصبح الخادم

التالى للإله بل أول هؤلاء الخدام. كما كان مين- مونتو «حامل الختم الملكى». فلم تعرف مصر خطأ فاصلاً واضحاً بين السلطتين الدينية والدنيوية. ولأن ماهية الملك كانت إلهية فى جوهرها، كان من السهل على الكهنة أن يجمعوا بين المناصب الكهنوتية والملكية. وسوف تصبح هذه الظاهرة، فيما بعد مصدر النفوذ الواسع الذى اكتسبه كبار الكهنة، لينتهى بهم الأمر إلى تهديد النظام الملكى.

الفصل الثالث

الفاخون الأوائل

أو

نشأة الإمبراطورية

فى أقل من خمسين سنة، سوف تعود مصر لتصبح من جديد، القوة الأولى فى عالم الشرق.

ضرورة الفتوحات وأساليبها

إبان الحروب التى خاضها أحمر من أجل إعادة توحيد مصر وحمايتها، كانت الدول الجديدة التى رأت النور فى آسيا، فى أعقاب الغزوات الآرية قد أسست أنظمة ملكية قوية، ترتب على وجودها تحول عميق الأثر على التوازن الدولى الذى ظل سائداً حتى الآن.

وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، كانت دولة الميتانى فى وديان أعالى نهري دجلة والفرات هى الأقوى بين سائر الدول. وإنطلاقاً من عاصمتهم واش شوجانى استطاع ملوك الميتانى أن يسيطروا سلطانهم شرقاً على بلاد آشور المستقلة والمناطق الواقعة شرق نهر دجلة وفى الشمال على المنطقة التى ستعرف فى وقت لاحق تحت اسم أرمينيا وإلى الغرب على أعالى سوريا. أما فى آسيا الصغرى فقد ظل النظام الملكى الحيثى لا يقوم سوى بدور ثانوى. وسوف يصل إلى أوج سلطته فى زمن الأسرة التاسعة عشرة المصرية والملوك الرعامسة. أما بابل التى كانت تعيش فى ظل الملوك الكاسيين، فقد استعادت دورها كعاصمة إقتصادية كبرى وتبنت آنذاك سياسية تهدئة سلمية مركزة جل اهتمامها على ما يبدو، على تأمين طرقها التجارية.

ولكن فى هذا العالم الجديد الذى أخذ يتشكل شيئاً فشيئاً، سوف تقوم دول صغيرة أيضاً بدور له شأنه بفضل موقعها ذاته. وبالفعل فإن فينقيا التى ظلت مصر تفرض هيمنتها عليها، منذ أكثر من ألف سنة، أصبحت الآن النافذة الحيوية المطلّة على البحر المتوسط لكل من الميتانى إلى الشرق منها والخاتى إلى الشمال. وبالمثل

فإن أرزاوا - وربما يقابلها حالياً موقع قيليقية(*)- وكينزواتنا الواقعة إلى الشرق قليلاً في اتجاه جوف جبال طوروس واللّتين تفصلان خاتى عن البحر، سوف تمزقهما دسائس لا حصر لها. إن نفوذ الخاتى ومصر فى الدول الثانوية بل وهيمنتها عليها، كان محل صراع بين الدولتين الكبيرتين، فتسعى الأولى بطبيعة الحال إلى التحالف معها فى حين كان من مصلحة مصر الحيلولة دون تحقيق هذا التقارب. كما حيكت مثل هذه الدسائس حول نهارينا^(١)، إلى الغرب من نهر الفرات وحول نوحاسا إلى الجنوب قليلاً واللذين كانا يقفان حائلاً أمام المنافذ البحرية المباشرة للميتانى. وأخيراً فإن الأمور وهى مملكة الأموريين التى تأسست إلى الغرب من حلب، كان مقدر لها أن تلعب فى المستقبل دوراً إستراتيجياً هاماً، أشبه بالدولة الحاجزة لصدّ الطموحات المتنافسة.

إن النزاعات والدسائس والصراعات حول مناطق النفوذ، أصبحت لأول مرة من سمات السياسة الدولية الجديدة وعملت على تغيير موقف مصر التقليدى المسالم، لتركز جل اهتمامها على أمنها وأمن منافذها التجارية. ومحل الإمارات التى سادت فى الماضى وظلت متفرقة حتى الآن، ظهرت إلى الوجود ممالك قوية لتدحض فكرة أن الهيمنة التقليدية التى تمتعت بها مصر على الشرق الأدنى قضية مسلّمة. وقاد هذا الواقع الجديد مصر إلى سياسة الفتوحات، سواء كانت وقائية أو دفاعية، لتنتهى إلى تأسيس إمبراطورية شاسعة.

كان لابد من الآن، أن تمتلك مصر أداة قوة لا غنى عنها: بمعنى جيش شاكى السلاح ومنظم تنظيماً جيداً يضم قوات برية وبحرية. كان ثمرة الصراع ضد الهكسوس، درساً فعّالاً، ترتب عليه إدخال تغييرات خطيرة لا سيما على صعيد التسليح وفنون الحرب.

كان لابد أن يتحول الجيش، أكثر من أى وقت مضى، إلى عنصر له صفة الثبات والدوام ليصبح قوة رئيسية وإضافية تعزز السلطة الفرعونية. لقد عرفت مصر عسكريين محترفين جعلوا من الجندية مهنتهم وهو ما لاحظناه عند قراءة سيرة حياة

(*) قيليقية: جنوب شرق الأناضول. (المترجم)

أحمس بن أبانا. كان الملك يمنحهم الأراضي والمكافآت السخية والخدم، لا سيما من بين الذين وقعوا في الأسر في أرض المعركة. كانت ترقيات هؤلاء الجند تتوقف على شجاعتهم في ساحة الوغى وإقرار الملك بتميزهم وتفوقهم، وكان يكافئ ضباطه المخلصين على ما قدموه من خدمات نزيهة لسنوات طويلة، فيمكن أن يقدم لهم معاشاً مناسباً. كان العسكريون المحترفون يشكلون في زمن السلم حاميات الحصون والقلاع ويسهرون على حراسة الحدود ومصبات نهر النيل، بل ويذهبون إلى حد صيانة الأمن في المناطق النوبية والسودانية. كان هذا الجيش من المحترفين تعززه قوات المجندين الجدد. وفيما مضى، كان ملوك الأسرة الثانية عشرة «يجندون» الجند فيختارون فرداً من بين كل مئة تقريباً. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة، تم تعميم التجنيد بالقرعة. ويبدو أن الخدمة العسكرية الإجبارية بالقرعة كانت تنطبق على مجمل أفراد العائلة وليس على كل فرد على حدة. وقد أنيط بالسلطة المركزية تحديد عدد المجندين الذين تقدمهم كل عائلة. فقد يتغير هذا العدد وفقاً لأهمية الحملة العسكرية، ويبدو أن بعض الإعفاءات كانت تمنح على أساس معايير لا نعرفها على وجه التحديد وربما كانت تحابي العائلات الكثيرة للأفراد(*) وبالإضافة إلى الجيش الدائم والمجندين بالقرعة كانت قوات المرتزقة تتكون في الغالب من «أفضل عناصر الأسرى الذين أسرهم صاحب الجلالة في أرض المعركة». ومن بين هذه الفرق الأجنبية كان أهمها وأكثرها مهارة وخبرة رماة السهام النوبيين الذين كانوا مرهوبى الجانب. واعتباراً من أمنحوتب الثالث ظهر الشرادته - وموطنهم الأصلي ساردس في آسيا الصغرى - ليشكلوا نخبة المرتزقة في الجيش المصرى.

بل إن تشكيل الجيش ذاته بدأ يتطور ويتنوع. وظلّ سلاح المشاة الوحدة التكتيكية الرئيسية. وكانت كل سرية تتكون من مئتي فرد يقودها حامل الراية، ولكن ظهر سلاح جديد: ألا وهو سلاح المركبات. كانت المركبة تتكون من صندوق خفيف من

(*) لاحتياج مصر إلى زيادة عدد سكانها. ألا يمكننا في العصر الحديث أن نطبق عكس هذا المبدأ للحد من زيادة السكان فيتم إعفاء أبناء العائلات قليلة الأولاد، (٢ أو ٣)، وإن كان جميعهم من الذكور. (المترجم)

الخشب مغطى أحياناً بالجلد أو المعدن ويجرها جوادان وتحمل على متنها رجلين هما قائد المركبة والمحارب. والملك فقط هو الذى كان يقف بمفرده على متن المركبة. ويفضل تحريك خصره الذى التف من حوله عنان الفرس، حركات بارعة كان يقود المركبة، بينما انشغلت يداه فى التعامل مع القوس، فيمطر الأعداء بوابل من سهامه. كان الفرس صغيراً ومرهفاً ودقيق البدن. ومن الراجح أن جبال وسط آسيا إلى الشرق من بحر قزوين كانت موطنه الأصلي. لم تعرف مصر أبداً سلاح الفرسان. إذ كان الأمر يتطلب تنظيم عملية تربية الخيول وترويضها على نطاق واسع وهما من الصعوبة بمكان، ويتجاوزان قدرة البلاد على توفيرهما. كانت الإسطبلات الملكية مليئة بالحياد التى تم أسرها فى ساحات القتال أو التى كانت فى عداد الجزية الواردة إلى البلاد أو «المستوردة» من بلاد نهر العاصى أساساً. وكان سلاح المركبات من أفضل ما يضمه الجيش المصرى وعلى رأس قواته المسلحة. وكان ضباطه يتلقون ذات التعليم الموسوعى الذى يحصل عليه الكتبة.

مع ظهور سلاح المركبات تعدت الخطط العسكرية. وفى أرض المعركة، ومع بدء الهجوم كانت المركبات المصطفة فى انتظام تنقض على العدو. وفى أعقابها وللحفاظ على ما أحرزته من تقدم يزحف المشاة لتعزيز هذه المكاسب، أما فى حالة فشل هذه الهجمة الأولى، تصبح مهمة المشاة محاولة صدّ تقدم العدو. عندئذ تستعد المركبات للقيام بانقضاض ثانٍ. وأخيراً وبعد إحراز النصر يقع على عاتق المركبات أيضاً مطاردة العدو لتحويل هزيمته إلى انكسار شوكته واندحار قواته. وتصور النقوش والرسومات الجدارية الفرسين اللذين يجران مركبة فرعون وقد رفعاً قوائمهما الأمامية عالياً لتشكيل خطأ مائلاً وسط اللوحة، يبرز عظمة تكوين الانتصار وشموخه. وأسفل بطن الدابتين حشر الأعداء المهزومين حشراً وهم يهرولون وكأنهم وحوش أثناء رحلات الصيد فى الصحراء. كان الملك الواقف على متن المركبة المشدود القوس صورةً مهيبة للنصر المظفر.

كما تطور التسليح. فبعد أن كان رماة السهام يستخدمون قوساً طويلاً ثم مركباً بعد عصر الهكسوس، أصبحوا يستخدمون سهاماً بسن معدنى. والسيوف

بمقبضها الطويل والمزدانة أحياناً بنقوش ذهبية أصبح نصلها مصقولاً على الجانبين، كما كان طرفها مستديراً. وهكذا فعند استخدامها بيد واحدة أو بكلتا اليدين كان الهدف منها دائماً تجريح الجسد أكثر من النفاذ إلى أعماقه. وعرف المصريون سلاحاً آخر أشبه بسيف نصله منحني، أطلقوا عليه اسم خيش، كما استخدموا أحياناً بلطة كانت رأسها من النحاس في بداية الأمر ثم أصبحت من البرونز^(٢) وبمقبض من الخشب. كما كانت الحراب الطويلة المدببة والخناجر القصيرة الحادة والمقامع الكمثرية الرأس، في عداد قائمة الأسلحة الدفاعية.

أما الترس المصنوع من الخشب المكسو بالجلد فكان يحمي جسد الجنود. وفي كثير من الأحوال كان قائد المركبة الحربية يتحكم في العنان بإحدى يديه، في حين يمسك بيده الأخرى ترساً خفيفاً لحماية المحارب. أما الدروع المصنوعة من البرونز فكانت لا تزال بالغة الندرة. كما كان استخدام الخوذات محدوداً ما عدا بالنسبة للمرتزقة الشرادنة، إذ لم يكن التسليح واحداً بالنسبة لكل من الجيش المصري وفرقه الأجنبية. فقد سمح لهم الفراعنة أن يحتفظوا بتجهيزاتهم الحربية الأصلية. فوسائل الإجهاز على العدو كانت متنوعة إذن، الأمر الذي كان يشكل له على الدوام عنصر مفاجئة.

ومن الآن فصاعداً سوف تقوم القوات البحرية بدور عظيم الأهمية ولا سيما في عملية نقل الفرق العسكرية. فسوف تدور رحى كبرى المعارك البحرية في وقت لاحق في عصر الرعامسة. كما جرى تجنيد أفراد القوات البحرية عن طريق القرعة ويبدو أنهم كانوا يُختارون أساساً من بين سكان الدلتا. وعلى متن كبرى السفن الملكية الشراعية كان المجدفون البواسل يقوبون الجيش المظفر وفي أعقابها يأتي سلاح الإمداد والتموين على متن سفن اصطبلات. ومن سوريا إلى السودان سوف تبحر سفن الشحن لنقل أموال الإمبراطورية. إنها سفن ضخمة تبلغ ستين متراً طويلاً. وقد صُنعت من خشب البلاد أو من خشب الصنوبريات الوارد من لبنان. كانت القاعدة البحرية الرئيسية موجودة آنذاك في منف التي كان يطلق على مينائها اسم پرو نفر أي «الخروج السعيد» أو «رحلة سعيدة!». فحتى الآن لم يكن في مصر موانئ تطلّ

على البحر. كان تحوتمس الثالث أول من أدرك أهمية جزيرة فاروس(*) إلى الغرب من مدينة الإسكندرية الحالية وشرع يشيد ميناءً كبيراً سوف يتولى الرعامسة تطويره فيما بعد.

كان الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة. ففي ميادين القتال كان التهامسة لا يكتفون فقط بوضع الخطط الحربية في صحبة ضباط أركان حربهم بل كانوا أيضاً على رأس جنودهم عند الهجوم على العدو. فكانوا «المسئولين» العظام أصحاب الانتصارات المجيدة.

كانت الإدارة العسكرية تشكل دائرة خاصة من دوائر السلطة، تحت إمرة الوزير، فكان دوره مماثلاً لوزير الحربية في العصر الحديث، ويجتمع بصفة منتظمة بقواد الجيش الذين يعرضون عليه التقارير الخاصة بأحوال الفرق العسكرية والحصون ونقاط الحدود وينقل إليهم الأوامر التي يتعين عليهم تنفيذها. ولكنه يحيط الملك علماً بكل ذلك، بصفته القائد الأعلى.

١- مع الجيش من السودان إلى الفرات

أمنحوتب الأول: هل كان عامل استقرار أم فاعلاً؟

تولى أمنحوتب الأول وهو ابن أحمس والملكة أحمس- نفرتاري زمام الحكم حول عام ١٥٥٧ ق.م. وفي وسعنا أن نحدد تاريخ تربعه على عرش البلاد بشيء من الدقة. وبالفعل واستناداً إلى نص مدون على ظهر بردية إيبيرز Ebers نعرف أن العام التاسع من عهده شهد شروقاً إحتراقياً للنجم سوتيس^(٢). وتحدث هذه الظاهرة بعد أن يظل النجم سوتيس (الشعرة اليمانية) غير مرئى لمدة سبعين يوماً وهي فترة

(*) قبل الإسكندر الأكبر. (المترجم)

إقترانه بالشمس لتصبح رؤيته ممكنة بعد ذلك، قبيل شروق الشمس. وبفضل الحسابات الفلكية أمكن تحديد تاريخ هذه الظاهرة.

امتدَّ حكم أمنحوتب الأول ليصل إلى إحدى وعشرين سنة على أقل تقدير. وفي مقبرة ضابط من أبناء طيبة يدعى أمن إم حات يعلن أنه ظل في خدمة العاهل الملكى طوال هذه الفترة. ومن جهة أخرى صُوِّرَ العاهل الملكى على أحد أبواب الكرنك «وهو يحتفل بأول أعياده اليوبيلية»^(٤). وتظهر صورة مماثلة على باب من أبواب معبد الملك الجنائزى فى القرنة. ولما كان الإحتفال بأول يوبيل يقام من حيث المبدأ فى العام الثلاثين من عهد الملك^(٥)، وإن لم يوجد ما يجبر الملك أن يتقيّد بهذه المدة، فمن المعتقد أن مدة حكم أمنحوتب للبلاد تتراوح بين إحدى وعشرين وثلاثين سنة. وحددَ مانتون عشرين سنة فقط. ومجموعة ألقاب الملك الرسمية على النحو الآتى:

حورس : الثور الذى يربط الأراضى،

السيدتان: عظيم هو الرعب الذى يثيره (الملك)،

حورس الذهبى: هذا الذى تدوم سنواته،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: جسر كا رع (أى: «مقدس هو كا (الإله) رع»).

ابن رع : أمنحوتب، (أى: «ليكن آمون راضياً»).

كان لابد من الحفاظ على فتوحات أحمس المجيدة وتعزيزها. وفى أعقاب والده، واصل أمنحوتب الأول الحروب فى أراضى الجنوب.

ويتحدث الموظف الأمين أحمس بن أبانا قائلاً:

قمت بقيادة سفينة جسر كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى، بينما كان يصعد النهر متجهاً إلى بلاد كوش لتوسيع حدود مصر. وضرب صاحب الجلالة هذا النوبى(?) الخسيس وسط جيشه ذاته واقتيد مكبلاً بالأصفاد. (ومن الجيش) لم يتبق شيئاً والذين ولّوا الأدبار حُصدوا حصداً وطرحوا على جانبهم وكأنهم لم يوجدوا قط... ثم ذهبنا لإحضار الشعب وقطعان العدو المهزوم. وجئت بأسير وأهديته إلى

صاحب الجلالة. وبعد ذلك، وفي خلال يومين اصطحبت الملك من البئر العليا (الجنـدل الثاني) إلى مصر. وكوفئت بالذهب وأحضرت خادمتين غنيمَةً، فضلاً عما قدمته إلى صاحب الجلالة. ومُنحت لقب «محارب الأمير»^(٥).

أن يكون أمنحوتب الأول قد وصل إلى جنوب الجنـدل الثاني في السودان، يؤكِّده النص المحفور في مقبرة أحد النبلاء ويدعى أحـمس- پـن نخبـت وهو ضابط آخر من أبناء مدينة الكاب:

لقد اصطحبت چسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. ومن أجله أُلقيت القبض في بلاد كوش على أسير حيٍّ. ومن جديد حاربت من أجل چسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى ومن أجله استوليت إلى الشمال من إيمـاو- كحك^(٦)، على ثلاث أيادٍ^(٧).

ربما كانت كاروى، إلى الشمال من الجنـدل الثالث، هي أبعد نقطة وصل إليها الزحف المصري. واستناداً إلى معلم أثري يعود إلى پـن- تا- ورت الملقب «الكاهن وعب الذى يدخل إلى جوار آمون»، فإن «چسر كا رع رب الأرضين أمنحوتب (قد وصل) إلى كاروى»^(٨).

لم نعثر حتى الآن على إفادة واضحة عن قيام أمنحوتب الأول بحملة عسكرية إلى آسيا. ولكن في مدونة تعود إلى العام الثاني من عهد خليفته تحوتمس الأول يعلن هذا الأخير أن إمبراطوريته تمتد من طُمبُس في السودان، إلى الشمال قليلاً من الجنـدل الثالث، وحتى نهر الفرات. وربما كان من الصعب تحديد تاريخ هذا التقدم الكبير للمصريين في آسيا بالسنة الأولى من عهد تحوتمس الأول، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود وثيقة واحدة تشير إلى قيام هذا الملك بحملة عسكرية آسيوية. والأقرب إلى الصواب أن نذهب إلى القول بأن أمنحوتب الأول نظراً لطول عهده قد واصل في اتجاه الشمال التقدم الذى بدأه والده.

وأياً كان الأمر، فإن نشاطه في سيناء جدير بالذكر، على كل حال. وتشهد على ذلك المدونات المنحوتة في معبد حتحور بسراييط الخادم وبعض مخازن القرابين التى تحمل اسمه^(٩).

ولا ندرى شيئاً عن ظروف وفاته، إن إنيني من أشراف طيبة وأحد خلصائه
والذى ظل فى خدمة التحامسة الثلاثة الأوائل، أمر بأن ينقش فى مقبرته فى الشيخ
عبد القرنة(*) النص الآتى:

قضى صاحب الجلالة زمن حياته فى سعادة السنين والرضا. ثم بعد أن ارتفع
إلى السماء، اتحد مع قرص الشمس وامتزج بمن كان قد انبثق منه^(١٠).
وبالنسبة لعاهل ملكى، يا له من إختلاط تقليدى بالشمس(**) وصولاً إلى ذروة
التبجيل والتأليه.

تحوتمس الأول المحارب المنتصر

عند وفاة أمنحوتب الأول حول عام ١٥٢٠ ق.م ثارت مشكلة الخلافة. فمن إقتران
الملك بأخته عح حوتب الثانية، أنجب أبناء ماتوا وهم فى مقتبل العمر، كما رزق بابنة
واحدة على الأقل هى الأميرة أحمس. ويبدو أن الملك قد رزق من سن سنسب إحدى
محظياته، بابن يدعى تحوتمس الذى كان لا يزال على قيد الحياة عند وفاة والده الذى
ربما اختاره ليخلفه، بل من المحتمل أنه شارك أباه الحكم. تستند هذه الفرضية فى
الوقت الراهن إلى وجود نقش يصور أمنحوتب الأول وتحوتمس الأول معاً جنباً إلى
جنب، وقد جادت به مقصورة الألبستر التى شادها الملك فى الكرنك^(١١). وإضافة
الشرعية على تربيته على عرش البلاد، ربما تزوج الأميرة أحمس التى كانت تنتمى إلى
سلالة الأسرة المالكة الحاكمة، لأنها ابنة الزوجة الملكية العظيمة. وتذهب فرضية
أخرى، إلى أن هذه الأميرة أحمس التى أصبحت ملكة، ربما كانت الأخت الصغرى
للملك أمنحوتب الأول، ومن ثم فقد كانت ابنة الملك أحمس وأحمس نفرقارى^(١٢). ولكن
تفتقر هذه الفرضية إلى وثائق مقنعة. إن الفرضية الأولى حول تتابع خلافة العرش هى

(*) وهى المقبرة رقم ٨١ من مقابر أشراف طيبة. (المترجم)

(**) نعيد إلى الأذهان أن كلمة شمس من النوع المذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

التي تلقى في المعتاد القبول على أوسع نطاق. وهو ما يؤكد على ما يبدو، نص لوح حجرى نقش عليه المرسوم الملكى الذى وجهه الملك الجديد إلى تورا نائب الملك فى النوبة. هذه الوثيقة التى تم الكشف عنها فى وادى حلفا هى من مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن. كما ورد هذا النص نفسه مع إختلافات بسيطة فى الصياغة، على الجزء المتبقى من لوح حجرى آخر عثر عليه فى كويان فى الصحراء الشرقية فى النوبة، على مقربة من مناجم الذهب فى وادى العلاقى، ومن مقتنيات متحف برلين حالياً.

مرسوم من الملك إلى تورا الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. انظر، لقد سلّم إليك هذا المرسوم الملكى، لابلانك بأن جلالتي قد ظهر ظهوراً مجيداً بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى على عرش حورس الأحياء. ولن يوجد أبداً مثله. وهكذا تحددت قائمة ألقابى:

الحورس: الثور القوى، المحبوب من الحق والعدالة.

السيدتان: هذا الذى يشع مثل شعلة الصلّ، الفائق القوة.

حورس الذهبى: صاحب السنوات السعيدة، الذى يعيد الحياة إلى القلوب.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخيركا رع، (أى: «عظيمة هى صيرورة كارع»)

ابن رع: تحوتمس، ليته يحيا للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى!.

افعل بحيث تقدم القرابين لآلهة الجنوب والفنتين وتقام التسبيحات الشعائرية من أجل حياة وازدهار وصحة عاخيركا رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

كما أطلب منك أن تتصرف بحيث يؤدي القسم باسم جلالتي، أنا الذى ولدتُه سن سنّب، والدّة الملك^(١٣)، لتكون فى صحة طيبة!

كما أن الهدف من هذه الرسالة إحاطتك علماً بأن القصر الملكى سالماً ومزدهراً.

اليوم الحادى والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الأول، يوم حفل التتويج^(١٤).

وفى القسم المقوس من أعلى اللوح الحجرى، صُورَ تحوتمس الأول وهو يؤدى الشعائر الدينية إلى كيانين إلهيين، فى صحبة ملكتين: وهما زوجته أحمس ونفرتارى - ولا شك أنها أحمس نفرتارى حماته المحتملة التى كانت على ما يظن لا تزال على قيد الحياة. فكان وجودها مؤشراً وضماناً على استمرارية الأسرة المالكة الحاكمة. إنها السند الذى يعول عليه لدرء الصعوبات التى ربما كانت تشوب سلاسة وراثة العرش.

ومن أجل مصر شرع تحوتمس الأول يغزو إمبراطورية مترامية الأطراف سوف تضمن لها الازدهار والثروات الطائلة. كما ستحميها من ناحية أخرى من كل هجوم مباشر تشنه عليها قوى أجنبية.

وفى العام الثانى من عهده أمر بنقش نشيد للنصر على صخور طُمبِس فى السودان، كله تفاخر واعتزاز. وبعد قائمة الألقاب الملكية التى تؤكد على سلطانه وسيادته يقول نص المدونة:

إنه يظهر ظهوراً مجيداً بصفته كبير القطرين ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس، إذ كانت مصر العليا ومصر السفلى، نصيبى الربّين حورس وست. والآن لقد اتحدت الأرضين. إنه يجلس على عرش جب^(١٥) ويضع على رأسه البشنت المتألق. وهكذا تسلم صاحب الجلالة ميراثه. واستراح حورس على عرشه ليوسّع حدود طيبة وممتلكات «هذه - التى - أمام سيدها» (طيبة) حتى يعمل من أجلها الحاونبوت والبدو (حرفياً: «المقيمون على الرمال»)، وهم سكان الصحارى، الملعونون من الله. ورجال الجنوب يهبطون سائرين مع تيار النهر ورجال الشمال يصعدونه، وقد اجتمعت البلدان الأجنبية قاطبة، وجاءت حاملة الجزية من أجل عاخيپركارع الإله الكامل، (إله) المرة الأولى، ليحى إلى أبد الآباد!

قوى هو حورس، رب القطرين. البدو يقدمون له الشكر والحمد، فى حين تسجد قبائلهم أمامه. وأبناء البلد يرقصون من أجل صاحب الجلالة وينحنون أمام صلّه.

لقد أجهز على زعيم النوبيين. والزنجى الذى أخذه بقبضة يده، خائر القوى، لا يبدى أية مقاومة. لقد وُحِدَ (عند حدوده) حدود جيرانه. لم يبق شخص واحد على قيد الحياة من بين الرجال - من- أصحاب- الشعر- المجعد الذين تمربوا على حمايته، لم يبق منهم كائن من كان. لقد طُرح النوبيون أرضاً بعد أن أجهز عليهم وألقى بهم على جنبهم، مبعثرين على أراضيتهم. وتفوح فى وديانهم الرائحة الكريهة للجثث. إن طلاء فمهم أشبه بتدفق وابل من المطر^(١٦). والطيور الجارحة فوقهم بأعداد كبيرة بسبب ضعفهم. إنها تحمل (إلى أوكارها) ما أخذته بمخالبها، بينما يندفع التمساح نحو من يحاول الفرار. ويتوارى من الحورس صاحب الساعد القوى، كل من رزح تحت وطئة مآثره، هو الأوحـد المتفرد، ابن أمون الذى أنجبه الإله الخفى الاسم، سليل ثور التاسوع، والصورة المجيدة للجسد الإلهى الذى يُتم تسابيح باو(*) هليوپوليس الشعائرية^(١٧).

وشيد سادة القصر قلعة حصينة من أجل جيشه. لا يوجد قط رجل واحد من بين الأقواس التسعة مجتمعة، يتجاسر على الزحف نحوه لأنه أشبه بفهد شرس يهيم حول قطعان فى مراعيها، ومجد صاحب الجلالة يصيبهم بالعمى.

لقد وصل إلى حدود الأرض كلها، وعبر أطرافها بفضل ساعده القوى الساعى إلى المعركة. ومن الآن لن يجد من يتجاسر على منازلته. لقد اجتاز ودياناً كانت مجهولة من أسلافه، فلم يراها أبداً من كانوا يرتدون (التاج) پشنت. وتمتد حدوده الجنوبية إلى جنوب هذه البلاد وحدوده الشمالية حتى هذه المياه الشهيرة الشاردة التى يهبط تيار مجراها ناحية الجنوب^(١٨). لم يحدث أبداً من قبل شئ مماثل، لغيره من الملوك.

أما الآن فقد انضم اسمه إلى مدار السماء ولامس أطراف الأرض. ويُقسم الجميع باسمه فى كل بلد من البلدان، بسبب عظمة مجد صاحب الجلالة. ولم تلتق بشئ مماثل فى محفوظات أسلافه منذ (زمن) خدام حورس^(١٩). إنه يعطى النسمة لمن يتبعه وقرابينه تُقدم لمن يسير على سراطه. أجل، إن صاحب الجلالة هو حورس

(*) الواو علامة الجمع. (المترجم)

الذى استأثر بملك (بضم الميم) ملايين السنين. إن جزر الدائرة الكبرى فى خدمته والأرض قاطبة تحت نعليه.

إنه ابن رع المنتمى إلى جسده، إنه محبوبه تحوتمس، فليحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى. إنه محبوب آمون - رع، ملك الآلهة والده البهى الذى خلق الكمال، إنه محبوب تاسوع الكرنك الإلهى، فله الحياة والثبات والإزدهار، إنه السعيد على عرش حورس، بينما يقود الأحياء أجمعين، مثل رع، إلى أبد الآباد (٢٠).

يتلَوْن هذا النص «الإمبراطورى» الأول بالصور الزاهية والحماسة المتقدمة والصيغ المفخمة والواقعية المفرطة أحياناً. ومن الآن، فإن الإمبراطورية سواء فى قسمها الأسيوى أو الإفريقى، باتت تغطى مناطق شاسعة، وكانت مدينة طيبة الساهرة، عاصمة الشرق الجديدة وقلبها النابض. كان آمون - رع أبا الملك الذى ولد من صلبه، يرشد العاهل الملكى ويحمى فتوحاته.

ويعززها تحوتمس الأول بإقامة لوح حدودى حجرى عند شاطئ نهر الفرات، كان لا يزال قائماً فى مكانه فى عهد تحوتمس الثالث الذى شاهده، بعد مرور زهاء خمسين سنة.

ولا نعرف سوى معلومات غير دقيقة عن تفاصيل العمليات العسكرية الطائلة التى كانت ضرورية.

وبادئ ذى بدء اضطر تحوتمس الأول أن يصعد نهر النيل ومعه جيشه. ويحدثنا أحمس - بن - نخبت عن مآثره قائلاً:

وتبعت عا خپر كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ومن أجله قبضت على أسيرين فى بلاد كوش، عدا الذين جنّت بهم أيضاً من كوش ولم أحسب حساباً لهم (٢١).

ويأتى أحمس بن أبانا على ذكر تمردين محتملين متتاليين فى الجنوب القصى:

كنت اصطحب عا خير كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى على متن سفينته، بينما كان يصعد النهر فى اتجاه خنت - إن - نفر لقمع تمرد (حدث) فى البلدان الأجنبية ودحر إغارة قادمة من جهة الصحراء^(٢٢). وأقدمت فى حضرته على عمل بطولى وسط مياه وعرة كانت تُحدق بالسفينة فى ممر من الجندل بالغ الخطورة (الفقرة مهمشة. ومن المرجح أن الملك قد أحيط علماً بوقوع تمرد جديد لايبعد كثيراً عن موقعه). عندئذ خرج صاحب الجلالة عن طوره وكأنه فهد، وسدد سهمه الأول ليظل مستقراً فى صدر هذا العدو الخسيس. [وهرب المتمردون] وقد خارت قواهم بسبب لهب صله. وفى لحظة، وقعت هناك مذبحه رهيبه واقتيد جميع السكان أسرى. عندئذ هبط صاحب الجلالة فى اتجاه الشمال، بعد أن أصبحت كل البلدان الأجنبية فى قبضته، بينما كان نوبى خسيس يتدلى عند قيادام السفينة الملكية ورأسه إلى أسفل. ونزلنا إلى الشاطئ عند الكرنك^(٢٣)، لتكريس العدو للإله آمون - رع وتقديم القرابين للإله النصر.

بعد انقضاء ثمانية أشهر على هذه الحملة، اضطر تحوتمس الأول فى العام الثالث من عهده أن يعود إلى خوض المعارك ضد كوش. وتشهد على ذلك المدونات الصخرية الثلاث التى أمر نائب الملك تورا بحفرها فى جزيرة سهيل وفى أسوان. ويعود تاريخ الثلاث إلى «اليوم الثانى والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الثالث، من عهد الملك» - أى عند بداية شهر إبريل.

● فى جزيرة سهيل:

أمر صاحب الجلالة بإزالة العوائق من هذه القناة (التي كان سنوسرت الثالث قد شقها عبر صخور الجندل الأول^(٢٤)) بعد أن وجد أن الأحجار قد تراكت فيها، بحيث استحال على أية سفينة أن تعبرها. ثم هبط فى مجرى النهر سعيد القلب بعد أن أجهز على أعدائه. إنه الابن الملكى تورا^(٢٥).

● فى أسوان:

عاد صاحب الجلالة من بلاد كوش بعد أن قضى على أعدائه^(٢٦).

واضطر تحوتمس الأول أن يتوغل فى أعماق أفريقيا. وبالفعل فإن مدونة للعاهل الملكى سيتولى حفيده تحوتمس الثالث تجديدها، قد حفرت على الصخرة المعروفة إصطلاحاً بحجر المروة، قبالة بلدتى الكنيسة وكركس، فيما بين الجندل الرابع والجندل الخامس. تعتبر هذه المدونة الأثر الأبعد، جهة الجنوب، الذى تم تسجيله على أرض الواقع. إن الشذرات المتبقية من النص تذكرنا بنص ألواح الحدود الحجرية من عصر سنوسرت الثالث^(٢٧).

أما معلوماتنا عن انتصارات الملك فى آسيا فهى شحيحة. فمن خلال سيرة حياة كل من أحمس بن أبانا وأحمس - بن - نخبت وهما من خلصاء الملك، نعرف أنهما شاركا أيضاً فى الحملات العظيمة التى قادت إلى هذه الفتوحات ونعرف احتدام المعارك التى دارت فى بلاد نهارينا الملاصقة للشاطئ الأيمن من نهر الفرات.

● أحمس بن أبانا:

وبعد ذلك (حملات السودان)، رحلنا إلى الريتنو للترويح عن النفس^(٢٨) عبر البلدان الأجنبية. ووصل صاحب الجلال إلى نهارينا، وما إن التقى بهذا العدو الخسيس^(؟)، حتى دارت رحى المعركة، ف وقعت مذبحه كبرى، وكان من الصعوبة بمكان إحصاء عدد الأسرى الذين أتى بهم من انتصاراته. ومع ذلك، كنت على رأس الجيش، واستطاع صاحب الجلالة ملاحظة مدى بسالتي. وأسرت مركبة حربية وجيادها وعدت بها وقدمتها إلى الملك. ومن جديد كوفئت بالذهب^(٢٩).

● أحمس - بن - نخبت:

ومن جديد حاربت من أجل الملك عا خير كارع. وفى بلاد نهارينا أسرت أيضاً من أجل الملك ٢١ يداً وفرساً واحداً ومركبة حربية. كما اصطحبت الملك وعدت من بلاد شاسو بأعداد غفيرة من الأسرى لم أستطع حصرهم^(٣٠).

تكشف هذه الروايات عن قدر من العنف وحوادث عدد من الإشتباكات المسلحة. ويبدو إذن أن تحوتمس الأول قد وصل إلى شواطئ نهر الفرات. ومن المؤسف حقاً ألا تذكر أسماء الأعداء الذين تصدى لهم آنذاك: هل كان الأموريون والميتانيون قد ظهوروا

منذ ذلك الوقت على مسرح الأحداث؟ ثم وبعد أن عاد متجهاً ناحية الجنوب خاض المعارك فى الريتنو وفى كنعان.

كما نعرف واقعة غنيمة الأفيال التى سجلتها المدونة التى أمرت حتشپسوت ابنة تحوتمس الأول بنحتها فى معبدها الجنائزى بالدير البحرى لتخلد إلى أبد الأباد الأمجاد الحربية لوالدها العظيم:

إن بسالة الملك عا خير كارع قد أعادته من إنتصاراته فى بلاد الجنوب وبلاد الشمال، بعدد من الأفيال. كان صاحب الجلالة شخصياً قد اصطادها فى بلاد نهارينا، بينما كان عائداً على متن مركبته بعد أن قضى على الريتنو العليا. كان صاحب الجلالة قد وصل إلى بلاد نبي عندما التقى بهذه الحيوانات. لم يكن شىء مماثل قد حدث لأى من أسلافه. عندئذ عاد ومعه أفيال هذا البلد وأعطاهما لمعبد أبيه آمون رب عروش الأرضين، بعد رجوعه مقتدراً قوياً منتصراً، واجهازه على أعدائه^(٢١).

هكذا أسس تحوتمس الأول إمبراطورية مصر، فخرج على رأس جيشه ليسلك طرق آسيا وإفريقيا ودروبها. ولكن هذه الهيمنة المصرية التى شملت مناطق مترامية الأطراف سرعان ما أيقظت طموحات منافسه، فلم تمر عدة عقود حتى حاولت الميثانى أن تنصدى لهذا التوسع ولكن ذهبت جهودها سدى.

حكم تحوتمس الأول مصر لفترة عشر سنوات تقريباً. ثم «استراح الملك فى سلام، وارتفع إلى السماء، بعد أن أتم سنواته، سعيد القلب^(٢٢)».

تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية

عند وفاة تحوتمس الأول حول عام ١٥٢٠ ق.م، ثارت من جديد قضية وراثة العرش. ويعتقد أن ثمرة اقتران العاهل الملكى بالملكة أحمس كانت ولادة خمسة أبناء^(٢٣)، نعرف اثنين منهم حق المعرفة: أولهما هو الابن البكر، الأمير أمن مس، القائد العام للجيش المصرى، وكان لا يزال على قيد الحياة فى العام الرابع من عهد

أبيه^(٣٤). أما الثانى وهو واج مس فتظل أصوله من الأمور المشكوك فيها. وأياً كان الأمر، يبدو أن هؤلاء الأمراء قد وافقهم المنية قبل وفاة أبيهم الذى رزق أيضاً، على ما يظن من إحدى المحظيات^(٣٥)، وهى على كل حال امرأة ذات أصول ملكية، تدعى موت نفرت (أى «موت الجميلة»)، رزق منها ابناً اسمه تحوتمس سوف يصبح الملك تحوتمس الثانى.

أن تنتسب موت نفرت إلى الأسرة الحاكمة واضح كل الوضوح، وإن كنا نجهل اسم والدها على وجه الدقة، وربما كان أمنحوتب الأول^(٣٥)، وفى هذه الحالة قد تصبح أخت الملكة أحمس، ونشاهدها إلى جانب تحوتمس الثانى على تمثال للعاهل الملكى قائم أمام الصرح الثامن فى معبد الكرنك، فتظهر هنا بصفتها «ابنة الملك وأخت الملك»، إنها محبوبته: «موت نفرت». وقد وُضع هذا الاسم الأخير داخل خرطوش^(٣٦). كما عثر على تمثال آخر يصور موت نفرت فى المعبد الجنائزى للأمير واج مس، على البر الغربى لمدينة طيبة. ويعلن المتن أن «عا خپر إن رع (اسم تتويج*) تحوتمس الثانى) الإله الكامل ورب الأرضين، أمر بإقامة هذا المعلم الأثرى من أجل والدته موت نفرت زوجة الملك ووالدة الملك^(٣٧)».

ولتدعيم حقه الشرعى فى التربع على العرش تزوج الأمير تحوتمس من أخته غير الشقيقة المولودة من اقتران الملك بالأميرة أحمس، وهى الأميرة حتشيسوت التى يعنى اسمها «الأولى على السيدات النبيلات». ومن الآن أصبحت هذه الأميرة تحمل ألقاب الملكات العظيمات فى بلاط طيبة: «ابنة الملك وأخت الملك والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة^(٣٨)».

ويبدو أن تحوتمس الثانى كان فى شرح الشباب عند ارتقائه العرش: «كان صقراً لا يزال فى عشه... ومنذ ذلك الحين كان ملك السوداء^(**) وحاكم الحمراء^(**)^(٣٩) وانتصر على الشاطئين واستأثر بهما^(٤٠)».

ويبدو أن سنوات حكمه كانت قصيرة نسبياً وفى حدود عشر سنوات، ومن المحتمل أن العاهل الملكى قد وافقته المنية متأثراً بمرض عضال بلا شك، وهو فى

(*) (أو اسم نسوييتى - ملك مصر العليا ومصر السفلى). (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الثلاثين من عمره تقريباً وأن نشاطه العسكرى الشخصى كان محدوداً جداً فى واقع الأمر حتى وإن اضطر الجيش المصرى أن يتحرك منذ السنة الأولى من عهده لسحق تمرد وقع فى السودان.

نعرف هذه الأحداث بفضل مدونة أمر الملك المنتصر بنحتها فى الصخر فى الطريق المؤدى من أسوان إلى جزيرة فيلا:

فى اليوم الثامن، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان، من العام الأول، الشروق المتألق على عرش حورس الأحياء لصاحب الجلالة:

حورس: الثور القدير، صاحب القوة الباسلة.

السيدتان: صاحب الملك (بضم الميم) الإلهى.

حورس الذهبى: صاحب الصيورات المسيطرة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خير إن رع (أى: «عظيمة هى صيرورة رع»).

ابن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة.

إن أباه رع هو حمايته السحرية، مثله مثل آمون، رب عروش الأرضين، فمن أجله يقضيان على أعدائه.

كان صاحب الجلالة فى قصره. قديراً كان مجده والرعب الذى يثيره يعم ربوع الأرض. هيئته كانت قائمة على ضفاف الحاونبوت، وحصتا حورس وست كانتا تحت سيطرته، والأقواس التسعة تحت نعليه. والآسيويون المحملون بالجزية يأتون إليه بينما حُرّم النوبيون من النسمة. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحدوده الشمالية إلى تخوم المستنقعات^(٤١).

(وبعد مرور ثلاثة قرون سوف يعود سيقى الأول إلى استخدام المصطلحات نفسها عند وصف الإمبراطورية المصرية^(٤٢)).

لقد أصبحت آسيا من ممتلكات صاحب الجلالة ولا يُردّ موقفه أبداً على امتداد البلاد الفينقية.

جاء من يُخبر الملك هذا النبأ: «لقد عمّ التمرد بلاد كوش الخسيصة، ومن يخضعون لرب القطرين، شرعوا يتمرّدون ليهزموه. بل إن أبناء مصر (المستوطنين) قد قادوا قطعانهم بالفعل إلى داخل أسوار هذه القلعة التي بناها والدك، إبان حملاته المنتصرة - (والدك) عاخير كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا للزمن اللانهائي! - ويتأهبون لطرد البلدان المتمردة ونوبيي خنت - إن- نفر. وبالفعل، فإن زعيماً من شمال بلاد كوش الخسيصة قد انضم إلى التمرد وفي الوقت نفسه كان معهم اثنان من النوبيين وأولاد زعيم من بلاد كوش الخسيصة هذه، الذين سبق أن أُجبروا على الفرار أمام صاحب الجلالة يوم المذبحة (التي أقدم عليها) الإله الكامل. كان هذا البلد قد انقسم إذن إلى خمس مناطق وكان كل واحد يسهر على سلامة نصيبه».

(يمكن التأكد من وجود هذه التحالفات التي كان يعقدها زعماء القبائل في أزمنة سابقة، من واقع النصوص التي تسرد تفاصيل الحملات الأفريقية إبان الأسرة السادسة، ومنها الحملة التي خرج حرخوف على رأسها^(٤٢)).

عندئذ وبعد أن استمع صاحب الجلالة إلى ذلك، ثارت ثائرتة كالفهد. وقال: «حقاً وكما أننى أحب رع وأمتدح أبى آمون سيد الآلهة ورب عروش القطرين، أقسم بأننى لن أترك أحداً من ذكورهم حياً وسوف أحنى ظهورهم».

وأرسل صاحب الجلالة إلى النوبة جيشاً جرّاراً، فى غمار حملة النصر هذه، للقضاء على كل الذين كانوا قد تمردوا عليه وكشفوا عن عصيانهم على رب القطرين. وصل جيش صاحب الجلالة إلى كوش الخسيصة، وكان بقيادة مجد الملك، بينما كانت سورة غضبه الحربى تجهز على من يتقدمون نحوه. عندئذ أباد الجيش هؤلاء الأجانب، ولم يترك أحداً من الذكور حياً عملاً، بأوامر صاحب الجلالة، ومع ذلك فقد أُستثنى صبي من أولاد زعيم كوش الخسيصة واقتيد أسيراً مع حاشيته إلى حيث يقيم الملك. كان مكانهم تحت قدمى الإله الكامل، إذ كان صاحب الجلالة قد تجلّى مشرقاً على

عرشه، بينما كان يُساق الأسرى الذين أتى بهم جيشه. وعاد هذا البلد ليصبح من أملاك العاهل الملكى، كما كان فى الزمن الغابر.

كانت صياح الشعب تتعالى فرحاً والجيش يتהלّل من نشوة السعادة. كانوا يحيون رب القطرين ويعلنون على الملأ عظمة هذا الإله الخير من خلال أفعاله الإلهية. حدث ذلك بسبب هيبة صاحب الجلالة، زد على ذلك، بمقدار ما كان أبوه آمون يحبه، أكثر من أى ملك آخر عاش من قبل، منذ أقدم أزمنة الأرض.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خير إن رع.

ابن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة^(٤٤).

يبدو أنها كانت المرة الأولى التى لا يشارك فيها الملك بشخصه فى حملة عسكرية. وقيل أن تحوتمس الثانى كان رقيق الصحة ولهذا السبب على ما يعتقد وافته المنية فى سن مبكرة^(٤٥).

وفى عهده نشأت عادة جديدة مفادها أن تستقبل طيبة واحداً أو أكثر من أبناء الزعماء الأجانب لتنشئتهم تنشئة مصرية، حتى إذا عادوا إلى أوطانهم، ساعدوا عند الضرورة فى الحفاظ على ترابط الإمبراطورية وتماسكها. وفيما بعد، وبعد إنقضاء مئات السنين سوف يلجأ الفاتحون الرومان أيضاً إلى هذا الأسلوب ذاته.

وعن حملة عسكرية محتملة إلى آسيا، لم تصلنا الإشارة إليها إلا من خلال سيرة حياة أحمس- بن- نخبت وإن شابها الغموض:

لقد اصطحبت عا خير إن رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. وعدت ومعى أعداد غفيرة من أسرى الشاسو أحياء. ولم أحصيهم^(٤٦).

من المحتمل أن بعض القبائل فى كنعان أو فى الريفنوق قد تمردت، ربما بتحريض من الميثنانى الذى سيفعل الشئ نفسه فيما بعد. وعرف تحوتمس الثانى كيف يحافظ على الإمبراطورية.

ثم «ارتفع إلى السماء واتحد مع الآلهة»^(٤٧)، وهو لا يزال فى ريعان الشباب.

نحو أيديولوجية جديدة

جميع هذه النصوص التي تقدم سرداً للحملات العسكرية التي تم تنظيمها عند مطلع الأسرة الثامنة عشرة، مع قدر من التفاصيل، ويختلف سياقها من نص إلى آخر، تكشف بوضوح عن وجود أيديولوجية جديدة أخذت معالمها تتشكل شيئاً فشيئاً.

لقد بدأ المصريون يدركون ضرورة قيام الإمبراطورية التي أراد ملوكهم أن تمتد لتصل إلى حدود الأرض. وبعد عدة قرون سوف يتطلع الرعامسة أيضاً إلى تحقيق الهدف نفسه. كما عرفت مصر نشاطاً عسكرياً محموماً نشأ من الخوف من حدوث غزوات أجنبية أخرى، فقد ترك الهكسوس ذكرى مؤلمة لا تنسى. ففيما وراء الأراضي التي وفرتها الطبيعة لتأسيس «الوحدة» المصرية، تركز اهتمام مصر أيضاً على البلدان البعيدة عنها إلى حد ما، لجعلها مناطق أمنة.

وأصبح الملك الأداة المتميزة لكل نصر. إنه المهيمن و«المستحوذ» بفضل نار صله، على وجه التحديد، وطبيعته النارية، فهو الابن المنبثق من جسد آمون-رع. وسوف تصوغ هذه الأفكار أحد أعظم الموضوعات في عصر الرعامسة: موضوع الملك الذي في وسعه أن يندمج في قوى الكون الحيوانية والكوسمية(*) ويتسلح بالتالي بقدراتها الطبيعية والسحرية. كما أن النصر هو نتيجة التقارب القائم بين الملك والآلهة والمشاركة التي تجمع بينهما: ومن هذه الآلهة نذكر رع، وعلى نحو خاص، آمون الذي سيتعاضد بدوره بصفته إله المعارك الحربية. فسوف يمدّ يده ليسلم فرعون بلطة الحرب، ويقف إلى جواره في وسط المعركة.

بدأت هذه الأيديولوجية تلوح في الأفق منذ أولى الفتوحات البعيدة. وقد تأكدت إبان الأسرة الثامنة عشرة لتصل إلى أوج ازدهارها في عهد ملوك الرعامسة. وفيما بعد سيلجأ إليها ملوك العصر المتأخر نَوو الأصول الأجنبية، ليستخدموا هذه الأدبيات الملحمية العظيمة، في أغراض سحرية، بعد أن تحولت في نظرهم إلى «مستودع»

(*) نسبة إلى كوسموس COSMOS أي العالم في نظامه المحكم المرتب، وبخاصة ما يتصل بتركيبه الفلكي. مجمع اللغة العربية. المعجم الفلسفي. القاهرة ١٩٨٣. ص ١٥٣. (المترجم)

للتعويذات الفعالة، فيمكن أن نلاحظ بينها أوجه شبه شكلية. ولكن من الأهمية بمكان ألا يغيب عن بالنا أن النصوص الإمبراطورية التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة العشرين، لم تؤلف بواسطة صيغ منقولة عن نصوص سابقة، بل تعبر، في أغلب الأحوال، عن مشاعر متنوعة ومتعددة، في شكل فيض من الكلمات المتكاثفة، وهذا لا يمنع أحياناً أن تقدم وصفاً موفقاً.

وتشهد قائمة الألقاب الملكية عن هذا التحول الدائم للفكر. فينظر إلى أمنحوتب الأول بصفته «هذا الذي يربط الأراضى». وسوف يرد هذا اللقب في كثير من الأحوال ضمن قائمة ألقاب الرعامسة. واعتباراً من تحوتمس الأول نجد أن الاسم الحورى للملك يلحق به مباشرة صفة «الثور القوى»- التي صار وجودها فيما بعد، من الأعراف الثابتة.

ومع نص طُمبُس المشهور^(٤٨) ظهرت «لغة» جديدة، كما تشهد عليه أربع مدونات صخرية مقتضبة منحوتة في هذا الموقع ذاته:

● الحورس، الثور القوى، المحبوب من الحقيقة - العدالة، الإله الكامل، عاخير إن رع،
الذى أجهز على بلاد كوش،
محبوب آمون- رع.

● الحورس، الثور القوى، المحبوب من الحقيقة - العدالة، ملك مصر العليا ومصر
السفلى، رب القطرين، عا خير إن رع،
الأمير الذى دمر الزوج،
محبوب آمون، رب عروش القطرين.

● السيدتان: هذا الذى يشع مثل لهب الصلّ، الإله الكامل ورب القطرين،
عا خير إن رع،
الذى استولى على الأرض،
محبوب مونتو، رب طيبة.

- حورس الذهبى: صاحب السنوات السعيدة الذى يعيد الحياة إلى القلوب،
ابن رع الذى ينتمى إلى جسده، تحوتمس، صاحب الإشراقات الشمسية.
سيد النوبة فى ربوع البلاد وفى كل مكان من أماكنها،
محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين^(٤٩).

هكذا، فعلى الصخور المشرفة على النهر، ومن جندل إلى آخر، وحتى الجندل الرابع، تأكدت هيمنة مصر وملوكها وآلهة طيبة على أراضى أفريقيا القصية. كانت هذه المدونات أكثر من مجرد إشارات تدل على تبعية هذه البقاع لمصر. فلما كانت الكلمة فى الفكر القديم، عنصر خلاق موهوب الحياة، فقد كانت أيضاً أداة سحرية لردع حركات التمرد المحتملة واقناع القائمين بها بالعدول عن سلوكهم، كما كان لها فاعلية السلاح ذاته وناجعة مثله. كان خيتى الثالث ملك هرقليوبوليس يتحدث إلى ابنه مري كارع قائلاً: «الكلمات أقوى من أية معركة حربية»^(٥٠).

وإذ اقتفى تحوتمس الأول بكل من أحمس وأمنحوتب الأول فقد خلق الإمبراطورية على الصعيدين المادى والروحى.

٢- الأمراء والقادة العسكريون: كبار مؤسسى الإمبراطورية

الوزراء ونواب الملك

الوزير إيمحوتب وهو ثانى من حمل هذا الاسم، شغل منصبه فى عهد تحوتمس الأول. كان من خلصاء الملك، كما كان المربى المشرف على تنشئة الأمير واج مس والأولاد الملكيين. إن جزءاً من مدونة، جاد به المعبد الجنائزى للأمير يذكر ما يلى:

أما عن عمدة المدينة، الوزير إيمحوتب (أى «هذا- الذى- يتقدم- فى سلام») فقد عُنَّ مربياً لتنشئة الأولاد الملكيين لك مصر العليا ومصر السفلى: عاخير إن رع، بالنظر إلى مدى الحظوة التى كان يتمتع بها عند العامل الملكى^(٥١).

المعلومات هزيلة. ولكنها أكثر تحديداً بالنسبة للأفارقة.

فمنذ الآن يتضح بجلاء أحد المبادئ الأساسية لسياسة الإمبراطورية كما سيطورها تحوتمس الثالث^(٥٢): ألا وهو بكل بساطة تأمين بقاء الحاميات العسكرية فى أسيا ولكن التأكيد على إقامة إدارة مصرية راسخة فى إفريقيا.

فقبل أن يُنشئ أمنحوتب الأول منصب نائب الملك، ومنذ عهد أحمس كان شخص مكلفاً سنوياً بجباية الجزية من منطقة واوات ثم إرسالها إلى طيبة. والمقصود بذلك حور- مين أمير مدينة الكاب إلى الجنوب من طيبة والذى يحتفظ له فى الوقت الراهن متحف مدينة فلرونسا بلوح حجرى. يقول نص اللوح:

لقد قال: أتممت سنوات عديدة بصفتى أمير مدينة الكاب مقدماً منتجاتها إلى رب الأرضين. وكنت موضع مديح، فلم يجد أحد خطأ واحداً قد ينسب إلىّ. وبلغت سن الشيخوخة وأنا فى بلاد واوات بعد أن نلت ثقة (حرفياً: ملأت قلب) سيدى. كنت أهبط النهر سنوياً محملاً بمنتجات هذا البلد من أجل الملك، ولم أتوقف عن القيام بهذه الرحلة المظفرة، دون أن يؤخذ علىّ مأخذ واحد^(٥٣).

إن وظيفة «الابن الملكى، رئيس بلاد الجنوب»- وهى التسمية الرسمية الأولى لمنصب نائب الملك- لم تظهر على وجه اليقين إلا فى العام السابع من عهد أمنحوتب الأول على مخربشة فى سمنة^(*) وتحمل اسم أحمس المدعو تورا^(٥٤). وفى العام الثامن من عهد الملك نفسه، اسند هذا الأخير إلى تورا مهمة بناء معبد فى جزيرة أوردونارتى^(**). إن مخربشة صخرية أخرى تعرفه على النحو الآتى:

(*) جنوب الجندل الثانى. (المترجم)

(**) قرب سمنة. (المترجم)

العام الثامن، من عهد ملك مصر العليا ومصر السفلى جسركارع(*) . الشريف والأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى، الصديق الأوحى، وموضع ثقة الملك فى بلاد الجنوب، الذى فوضه رب القطرين لممارسة سلطاته، إنه الابن الملكى تورا^(٥٥).

كما رأينا أن تحوتمس الأول قد أبقاه فى منصبه^(٥٦) فأبلغه نص المرسوم الذى أعلن ارتقاءه عرش البلاد، لإذاعته على الملأ.

ومن ثم يمكن القول أن نائب الملك هو منفذ قرارات سلطات طيبة فى الممتلكات الجنوبية.

ونعرف عائلة تورا معرفة مثيرة للإهتمام من خلال المدونة المنحوتة على تمثال مكعب لهذا الشخص وهو من مقتنيات المتحف البريطانى (رقم 888، من حجر الكوارتزيت. ارتفاعه ٥٣سم). ونجهل الجهة التى جاء منها، وربما كانت الدير البحرى(?) . نحتت النصوص على الرءاء الذى تدثر فيه الرجل الجالس القرفصاء وتلامس ركبته ذقنه. وقد ظهر هذا الموضوع الثابت، فى تشكيل تماثيل الأسرة الثانية عشرة. نقرأ على ظهر التمثال: الكاتب الملكى وكبير الكهنة المرتلين.... تيتى بن أحمس- پا ثنى، كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون، وابن أحمس- ساتيت، الإبن الملكى ورئيس بلاد الجنوب^(٥٧).

وتأسيساً على ذلك، فربما كان أول نائب ملك معروف هو فى الحقيقة أحمس- ساتيت والد تورا، الذى لا نعرف عنه شيئاً خلاف ذلك.

وتأكدت صحة سلسلة النسب هذه، من مدونات منحوتة على تمثال آخر يعود إلى تورا، كشف عنه ناڤيل Naville فى أطلال المعبد الجنائزى للملك مونتوحتب بالدير البحرى. كما استأثرت هذه العائلة أيضاً منذ تورا بمنصب آخر على قدر كبير من الأهمية، ألا وهو منصب «كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون».

وهكذا نشأت حول العائلة الملكية عائلات قوية، كان فى وسعها بفضل الإنعامات الملكية أن تتوارث هذه المناصب العليا، أباً عن جد.

(*) من ألقاب أمنحوتب الأول. (المترجم)

كان سن هو الذى خلف تورا ليظل فى وظيفته حتى عهد تحوتمس الثانى.
والشاهد على هذه الحقيقة مدونة نحتت على باب معبد سمته:

● فعلى المصرع الأيسر يوصف سن على النحو الآتى:

الأثير الذى ينتسب إلى بطانة الملك، عمدة مدينة الجنوب، المشرف العام على
مخزن الغلال المزوج للإله آمون، الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. لقد كلف بالإشراف
على بلاد المچاى بأسرها، بالنظر إلى ما له من تأثير عظيم على قلب ملك القطرين.

● وعلى المصرع الأيمن يقدم سن فروض التبجيل والتكريم للإله خنوم وللعاقل
الملكى على النحو الآتى:

التهليل للإله خنوم والسجود أمام من يضرب^(٥٨). . . (؟) حتى إرتفاع السماء
وحتى عرض الأرض وحتى أغوار الشديدة الإخضرار- من قبل سن الابن الملكى
وحاكم بلاد الجنوب الذى يقول: «المديح والثناء لك، كما تقول لك آلهة الأفق. فليعبدك
أمير النجوم فليثن عليك تاسوع الشمال العظيم، على مدار النهار وللزمن الأبدى
وللزمن اللانهائى»^(٥٩).

كما استمر سن فى منصبه فى عهدى حتشپسوت وتحوتمس الثالث.

لا شك أن أمنحوتب الأول، رغبة منه فى مراقبة الإضطرابات التى يثيرها أهل
واحات الصحراء الغربية، قد عين حاكماً على غرب الوادى. فمن مقتنيات متحف
اللوفر Le Louvre لوح حجرى للمدعو إيت- نفر، أمير الواحة. وبعد صيغ القرابين
التقليدية، يؤكد هذا اللوح على أن هذا الرجل كان من الذين نالوا حظوة عند العاقل
الملكى:

قربان يقدمه الملك إلى أوزيريس، رب بوزيريس، والإله العظيم سيد أبيبوس-
حتى يعطى القرابين التى تخرج مع الصوت (أى أن النطق باسمها يظهرها إلى
الوجود): الخبز والجعة والثيران والطيور والأدهان والثياب الكتانية وكل ما هو طيب
وطاهر، يعتمد عليه أى إله فى معاشه، وكل ما جادت به السماء وكل ما خلقتة الأرض
وكل ما جلبه النيل من مغارته، وكل ما يطعم فضلاً عن واقع استنشاق نسمة ريح

الشمال العليا وشرب الماء عند شاطئ النهر- (حتى يعطيها) إلى كا أمير الواحة،
الصديق الحميم للعاهل الملكى ومحبوه، بالإضافة إلى زوجته المحبوبة يى. إنه أثر
أعدّه أخوه الكاتب حور- إم- أخت، ليت حياته تتجدد (٦٠)؛

وللأسف نجهل على وجه التحديد طبيعة وظيفته.

أمراء الكاب

عند موقع الكاب على مسافة ٨٨ كم جنوب طيبة، تم الكشف عن جبانة تبعد
كيلومتريين عن نهر النيل. لقد حفرت المقابر فى الصخور الواقعة على جانب السهل،
ونقرت نقراً فى المنحدر الجنوبي لتل صغير. وهنا عثر على «بَيْتِى الأبدية» لرجلين كانا
من أشجع رفاق ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فأبليا بلاءً حسناً فى المعارك التى
خاضاها، نقصد أحمس بن أبانا و أحمس بن نخبت(*) . ويفترض أن أولهما ظل
يخوض المعارك حتى بلغ سن السبعين تقريباً، بدءاً من عهد أحمس وحتى نهاية عهد
تحوتمس الأول. فختتم سيرة حياته بقوله:

لقد أصبحت طاعناً فى السن وبلغت من العمر أرذله. ولكن تظل حظوتى كما
فى السابق... وسوف أرقد فى المقبرة التى جهزتها بنفسى (٦١).

حقاً لقد احتفظ الزمن بذكراه، ولا يقلق راحته فى «بيت الأبدية» سوى تطفل
السيّاح الفضوليين.

ولما كان أحمس بن نخبت مزهواً بلا شك بما قدّمه من خدمات جسورة
ومخلصة فقد دُون فى مقبرته بدافع من الكبرياء، حصراً بالقائمة الطويلة للملوك الذين
ساعدهم فى فتوحاتهم وفى تأسيس الإمبراطورية، فضلاً عن الإنعامات التى أغدقوها
عليه:

(*) يضم هذا الموقع مقابر أخرى نذكر منها مقبرتى پاخرى و رنى من الأسرة الثامنة عشرة
ومقبرة سيتاو من عصر الرعامسة. (المترجم)

لازمت الآلهة، ملوك مصر العليا ومصر السفلى. وكبرت وأنا بجوارهم، وكنت
فى أعقابهم فى البلدان الأجنبية جنوباً وشمالاً، وفى كل مكان ذهبوا إليه.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتى رع (أحمس)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: چسر كا رع (أمنحوتب الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر كا رع (تحوتمس الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع (تحوتمس الثانى)

وصولاً إلى هذا الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع
(تحوتمس الثالث)، له الحياة إلى أبد الآباد^(٦٢).

ومنحنى الملك چسر كا رع سوارين وقلادتين وحلقة للعضد وسيقاً وعصابة
رأس ومروحة مرصعة وجميعها مموهة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر كا رع أربعة أساور وأربع قلائد وحلقة للعضد وست
ذبابات(*) وثلاثة أسود وبلطتين وجميعها مموهة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر إن رع أربعة أساور وست قلائد وثلاث حلقات للعضد
وبلطتين من الفضة وجميعها مموهة بالذهب^(٦٣).

(تتزايد أعداد المكافآت وتتعاظم قيمتها)

هكذا بلغت شيخوخة سعيدة، منتسباً طوال حياتى إلى بطانة الملك وملت
إنعامات أصحاب الجلالة. وكنت مفعماً بحب القصر الملكى لذاتى.

وتجددت هذه الإنعامات من جانب الزوجة الملكية العظيمة ماعت كا رع
(حتشپسوت). وأشرفت على تربية إبنتها البكر، الإبنة الملكية ماعت - نفرو - رع، عندما
كانت لا تزال طفلة رضية^(٦٤).

إن هذا الجندى العظيم^(٦٥) الذى ظل - بعد أن أصبح شيخاً عجوزاً - يحظى
برعاية بلاط طيبة الذى تفانى فى خدمته على أرض كافة ساحات القتال فى آسيا

(*) قلادة كانت تمنح للعسكريين تقديراً لشجاعتهم فى المعارك الحربية. ويحتفظ المتحف المصرى
بالقاهرة بنموذج رائع الجمال. الطابق العلوى، القاعة رقم ٤. (الترجم)

وإفريقيا، وقع عليه الإختيار قرب نهاية حياته ليكون مربى الأميرة ثمرة زواج حتشپسوت من تحوتمس الثانى، كدليل على آخر مظاهر التقدير التى حظى بها مقابل إخلاصه الصادق لسنوات طويلة. كان الملوك يعرفون كيف يكرمون أتباعهم المخلصين. إن پاخرى حفيد أحمس بن أبانا، وهو ابن بنته، كان عمدة مدينتى الكاب وإسنا، فضلاً عن كاتب الخزينة الملكية، وله مقبرة فى الكاب تقع إلى اليمين قليلاً من مقبرة جدّه. وقد ترك لنا شواهد مثيرة للإهتمام. إنه نص طويل يضم تحديداً صلوات جنازية وتأملات حول العالم الآخر ومحاولة تبرير سلوكه طوال حياته على سطح الأرض.

صلاة من أجل خدمة القرايين

قربان يقدمه الملك إلى آمون، رب عروش القطرين، عاهل الزمن الأبدى وسيد الزمن اللانهائى، الملك صاحب الريشتين الكبيرتين^(٦٦)، الأوجد المتفرد، الأزلى، كبير الأزمنة العتيقة [الذى خلق البشر] والآلهة، إنه الشعلة الحية المنبثقة من نون، الذى يهب البشر النور،

- (وأيضاً قربان يُقدم) إلى نخبت، بيضاء الكاب، سيدة السماء التى تقف على رأس القطرين،

- وإلى أوزيريس، أول أهل الغرب، رب ثنى وكبير أبييوس،

- وإلى حتحور سيدة الصحراء، ذات القلب القوى من بين سائر الآلهة،

- وإلى پتاح-سوكر، رب شتايت^(٦٧)،

- وإلى أنوبيس، سيد رو ستاو^(٦٨)،

- وإلى التاسوع الكبير وإلى التاسوع الصغير،

حتى تُعطى، ما يقارب الألف من أرغفة الخبز ومن أوانى الجعة ومن الثيران ومن الطيور. وما يقارب الألف من القرايين المادية وألف هدية تتجدد على الدوام، وكل ما ينبت على ظهر الأرض، وألف من كل ما هو جميل وطيب وطاهر، مما يقدم قرباناً لرب الزمن الأبدى.

وحتى تُعطى القدرة على تناول أرغفة الخبز التى تتراكم أمامه، واللبن الوارد من مائدة قرايينه.

وحتى تُعطى (إمكانية) شرب الأمواه المتدفقة من إلفنتين^(٦٩)...

(كل ذلك) بمناسبة عيد الشهر وعيد اليوم السادس وعيد منتصف الشهر وعيد الطلعة الكبيرة وعيد شروق سوتيس والعيد واج وعيد تحوت وعيد الميلاد الأول وعيد ميلاد إيزيس وعيد خروج مين وعيد خروج الكاهن سم، وإبان وجبة طعام المساء وإبان فيضان النهر وإبان أعياد السماء فى أيامها، وعلى مدار كل يوم من الأيام^(٧٠). لقد ألبست ثوباً طاهراً من أرق أنواع الكتان، من الكتان نفسه المستخدم لزينة الجسد الإلهى. لقد مسحت بزيت صافٍ وسوف تشرب على مقربة من مائدة القرايين وتتقاسم خيراتها، فأنت عين الأعيان الذى يتقدم أصحاب الخطوة،

- من أجل كا أمير الكاب وعمدتها، الكاتب پاخرى (أى: «الرئيس»)، الصادق القول، كاتم أسرار سيده، فى كل خير.

تأملات حول العالم الآخر

سوف تدخل وسوف تخرج سعيد القلب، مشمولاً برعاية سيد الآلهة. عندما يحل كبر السن، سوف تنال دفنة جميلة بعد الشيخوخة. سوف تدرك مكانك فى التابوت (حرفياً: «مالك- الحياة») وتتحد بالأرض فى صحراء الغرب، وتتحوّل إلى با^(٧١) حى، يتناول بكل تأكيد الخبز والماء ونسمات الهواء. سوف تنجز تحولاتك إلى طائر العنقاء أو الطائر الخطاف أو إلى صقر أو بلشون، حسب رغبتك. سوف تبحر مجدّفاً بون أن يصدقك أحد وتعبر الأمواه الدافقة لتعود إليك الحياة من جديد. ولن يُطرد باؤك من جسدك، ففى صحبة الأموات المتألقين (النجوم؟) سوف يصبح^(*) من الآن إلهياً. إن أشهر الباو^(**) سيتحدثون معك. وتصبح صورتك وسطهم^(٧٢) حتى تتلقى ما تجود به الأرض. سوف تتناول الماء وتستنشق النسمة العلية وترتوى بقدر

(*) (هكذا فى صيغة الغائب. (المترجم)

(**) جمع با. (المترجم)

رغبة قلبك. وتعود إليك عيناك لترى وأذناك لتسمع الكلمات. ويتكلم فمك وتسير ساقاك وتتحرك من أجلك يداك وساعداك. ويصبح لحمك مكتنزاً وعضلاتك ملساء. سوف تسعد بكل جسدك، وتُحصي أعضائك: إنها موجودة بالكامل فى صحة تامة وفى أحسن حال ولن يطولها مكروه. وإرادتك تكون معك، فى حقيقة الأمر، لأن قلبك كما كان فى الماضى سيكون لك إلى الأبد. عندئذ سوف تصعد إلى السماء وتفتح... وترفع إليك الإبتهالات على مر الأيام، عند مائدة قرابين وبن نقر (أى: «هذا- الذى- يظل- كاملاً- على- الدوام» = أوزيريس). وتتناول الخبز المقدس أمامه، إنها القرابين الخاصة برب الأرض المقدسة (أى: الجبانة).

- من أجل كا أمير الكاب وعمدتها وأمير إسنا وعمدتها، من أجل من يشرف على إحصاء الغلال من إسنا وحتى الكاب. القادر اليقظ الذى بلا أخطاء، إنه الكاتب پاخرى، الصادق القول.

سوف تأكل الخبز إلى جوار الله، على مقربة من سلّم رب التاسوع. سوف تنفصل عنه، على مقربة من مقر إقامة وسط أفراد المحكمة العليا. عندئذ سوف تتجول بينهم وتصبح صديق خدام حورس، وتصعد وتهبط دون أن يصدك أحد، ولن تُطرد من باب الدوات^(٧٣). فمن أجلك سوف تُبلج أبواب الأفق بلجاً، وتُفتح مزاليجها وتدخل قاعة الماعتين(*) الكبرى^(٧٤)، ويتولى استجوابك الإله المقيم فيها. عندئذ تستطيع التوقف فى العالم الآخر والسير بخطى واسعة فى مدينة الإله حعبي (النيل). ويسعد قلبك بينما تقوم بأعمال الحرث فى حقول البوص^(٧٥). ويوفر لك عملك إعاشتك، وتحصل على حصاد وفير.

وفى المعدية، تُبَت الحبل المناسب، فتتمكن من الإبحار كما يتوق إليه قلبك، بلا هوادة. ومع كل فجر جديد سوف تغادر لتذهب بعيداً، لتعود أدراجك فى المساء. ومن أجلك سوف توقد شعلة الليل، إلى أن يحين وقت سطوع نور الشمس، من جديد على صدرك. وسيقال لك: مرحباً! مرحباً! فى بيتك هذا، بيت الأحياء. وسوف ترنو إلى

(*) مثنى ماعت. (المترجم)

رع فى أفق السماء، وتشاهد آمون عندما يشرق، وتظل يقظاً سعيداً، طوال النهار. ومن أجلك سوف تُطرد جميع الشرور من الأرض. وتعبّر الزمن اللانهائى فى فرح، بفضل مديح الإله الذى فى داخلك(*) (الضمير). وسوف يظل قلبك معك ولن يهجرِكَ. ويبقى طعامك فى مكانه.

- من أجل كا الكاتب باحرى.

حياة بارة

وقال: «أنا من الأعيان والعظيم الفائدة لسيدي، أنا رأس مُحَنَك، لا أعرف الإهمال. لقد سرت على الدرب الذى سعيت إليه، لأننى أعلم مال الحياة. لقد قيّدت الحدود فى السجلات و«الشيطان» فى جميع شئون الملك. فجميع ممتلكات القصر الملكى كانت على غرار ممتلكات حبيبى، بينما يواصل جريانه فى اتجاه الشديدة الإخضرار^(٧٦). كانت لغتى قاطعة للحفاظ على أوضاع (ممتلكات) سيدي الملك. وكنت أخشى ما أخشاه، ارتكاب أى قصور. لم أدع الصمم عند الوفاء بما يستوجب الدفع، لم استول ولو على جزء ضئيل من المصروفات. كان قلبى ذاته هو الذى يرشدنى إلى طريق خلاص الملك والمقربين منه. كان قلمى المصنوع من البوص، قد حولنى إلى رجل معروف على نطاق واسع ويضمن نجاحى فى الحكمة... وأتاحت لى طبيعتى السديدة أن أرتقى... فإذا وُضعت على الميزان، سوف أخرج كاملاً دون نقصان ومزدهراً. وفى غدواتى وروحائى يظل قلبى مماثلاً. لم أكذب أبداً على الآخرين. وأعلم أن إلهاً يقيم فى الإنسان وأعرفه^(**) وأعلم كيف أميز هذا عن ذاك. لقد أنجزت الأمور وفقاً لما صدر من أوامر. لم أطرح أسئلة إلا فيما يخص المسائل التى يُطلب عنها تقرير. لم أتفوه بكلمات رائجة فى أوساط العوام. لم أرو شيئاً على مسامع سواد الناس. أنا نموذج لكرم القلب، أنا إنسان محل كل تقدير، حظى بكل المن، منذ أن خرج من بطن أمه.

(*) من حقنا أن نقارن هذه العبارة بقول أبى المغيث الحلاج بعد مرور حوالى ٢٥ قرناً:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت قال أنت.

ديوان الحلاج. دار معد ودار النمير. دمشق. ١٩٩٩ ص ٢٨. (المترجم)

(**) راجع أيضاً بيت الحلاج السابق ذكره. (المترجم)

أنا باحرى عمدة الكاب، صادق القول، الذى أنجبه مربى الابن الملكى الكاتب إترورى،
صادق القول، وولده سيدة البيت كام، صادقة القول».

نداء إلى الأحياء

وقال: «انصتوا إذن، أنتم يا من تعرفون الحياة. إنى أتحدث إليكم دون مواراة،
أيها الأحياء الذين ما زلتم على قيد الحياة، أنتم يا أيها الأمراء والرجال القائمين على
سطح الأرض، أيا خدام الإله، أيها الكهنة ذوو الأيدي الطاهرة، والتابعون لهم، أنتم
أيها الكتبة الذين يمسون لوحة الكتابة والعارفين بالكلمات الإلهية، أنتم جميعاً، أيها
المتنازون مع نويكم، الذين يظهرون تميزهم عندما تمتدحون أعمالكم، إن رع رب
الزمان الأبدى سوف يمتدحك وسوف تفعل الشئ ذاته نخبت، بيضاء الكاب، وكل
(كيان إلهي) فعال في مجال وظيفته. سوف «تستعيون لونكم الأخضر» من أجل
أولادكم حسبما تقولون: «قربان يقدمه الملك» وفقاً لما هو مكتوب (هنا) و«قربان يخرج
مع الصوت» وفقاً لأقوال الأقدمين، والذي يصدر من فم الله. إن من يمدّ يده سوف
يعمل بما يتفق مع ماعت، منجزاً ما ينبغي أن يكون ومطابقاً للنواميس، ويصبح
شاهداً على ذلك أمام هذا اللوح الحجرى. ومن ثم سوف تصبح آلاف أرغفة الخبز
وآلاف أوعية الجعة ومئات الآلاف من كل ما لذ وطاب، قرابين طاهرة من أجل
الأوزيريس عمدة الكاب وعمدة إسنا وكاتم أسرار مسئول الخزانة إبان الترحال
جنوباً، إنه كاتب الحسابات المتميز باحرى، صادق القول.

إنى أقول لكم وأتصرف بحيث تدركون أننى قصدت فيما قلته خطاباً لا يجنح
إلى المبالغة ولا ينطوى على تبسيط مجحف أو لبس، ولا يترتب عليه الدخول فى
مشاحنات مع الآخر، وعندما يُنطق به لا يسبب إحراجاً للمُعوز. إنه حديث ممتع يروح
عن النفس، ولا يملّ القلب من سماعه. إن نسمة الفم لا يبتلعها المرء ولا تهرب ولا
يترتب عليها إعياء. إذا تصرفتم على هذا النحو، سوف يكون الأمر طيباً فى نظركم
وتكتشفون... وتمتدحون. عندما كنت على سطح أرض الأحياء، لم أرتكب ثمة خطأ
ضد الإله. ولذا فقد أصبحت روحاً نورانية، يتوفر لها كل شئ، وحولت مكانى فى
الجبانة إلى مكان ممتع، فأمتلك كل ما احتاج إليه ولن أكفّ عن الاستجابة^(٧٧). إن

المتوفى والد لمن يعمل من أجله ولا ينسى من صب له قليلاً من الماء. ومن المناسب لكم أن تنصتوا (إلى هذا الحديث) (٧٨)».

يكشف هذا النص عن مختلف جوانب «الآلية» السحرية التى تضمن البقاء على قيد الحياة بعد الوفاة. إنه أشبه بترنيمة لإقامة العدالة فى الأرض ولحرية الحركة فى العالم الآخر، من أجل وجود أبدى يغالب الزمان. إن حرية التحول إلى مختلف الأشكال وحرية السير والتنقل والدخول إلى كافة الأماكن السماوية أو الأرضية فى أرجاء الكون، قد شكّل على الدوام المقومات الجوهرية التى كان المصرى القديم يتطلع إلى تحقيقها من خلال التجديد الأبدى. كما ينطوى النص على نداء محرك للمشاعر موجه إلى الذين ما زالوا على قيد الحياة ويمرّون أمام هذه المدونة لتلاوة صيغة الخلاص التى ستتيح للتقدميات أن تتكس على مائدة قرابين المتوفى، تكديساً سحرياً بفضل القدرة الخالقة للكلمة(*) عند النطق به. إن اللوجوس فى مصر وسيلة لبلوغ الأبدية المادية. وهنا نجد أن شخصية آمون عظيمة القدر، إنه الملك الأول والنور البدئى. إن الفكر الدينى الذى ظل يتطور منذ آلاف السنين أخذ يزداد رسوخاً ويزداد شمولاً حول الشخصية المقدسة لسيد الكرنك.

أبناء طيبة

تعتبر مقابر الأفراد بالبر الغربى لمدينة طيبة، فى نظرنا، سفراً ضخماً يروى تاريخ البشر فضلاً عن تاريخهم السياسى والدينى. ولما كان فكر كبراء طيبة وعظماؤها مشغولاً بأمر تبرير استقامة وجودهم وأهميته، حتى تقدم لهم خدمة القرابين فى الدنيا ويصدر حكم أوزيريس لصالحهم فى العالم الآخر، فما زالت تطل علينا شخصيتهم من خلال الوصف الذى تقدمه صورهم المنحوتة أو المرسومة على جدران مقابرهم والنصوص المدونة عليها.

(*) مؤنث لفظى ومذكر معنوى، كما فى إنجيل يوحنا (١:١): فى البدء كان الكلمة. (المترجم)

إن موائد القرابين في الشيخ عبد القرنة ودراع أبو النجا، الخاصة بالأفراد الذين خدموا أوائل فراعنة الإمبراطورية المصرية لم تعد تمون الآن بالأطعمة وتشتمت أمتعتهم الجنائزية بل وموميائاتهم أيضاً في أقاصى المعمورة وأدناها، ويأتى السائحون في أفواج متعاقبة ليعكروا صفو «بيتهم» الأخير. ولكن تظل ذكراهم حية ويُنطق اسمهم كما كانوا يودون. إنها ومضة حياة أخيرة وربما كانت وثبة الوجود القصوى لإحياء العناصر اللامادية لكيان أصحاب النفوذ في طيبة الذين عاشوا قبلنا في سالف الزمان، منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة مضت.

إن إينينى كبير المشرفين على مواقع العمل فى الكرنك والمدفون فى المقبرة رقم ٨١ بالشيخ عبد القرنة، ظل يخدم ملوكه فى إخلاص وأمانة بدءاً من أمنحوتب الأول وحتى تحوتمس الثالث. لقد جمع بين أعلى المناصب الدينية والروحية، إستناداً إلى مجموعة وظائف تقليدية شائعة، فكان:

الشرىف والأمر ومدر كافة الأعمال فى الكرنك.

ویمتد سلطانه إلى بیت الفضة المزوج.

وختمه موجود على بیت الذهب المزوج.

إنه من یختم كافة العقود فى معبد آمون.

إنه الأمر والمشرف العام على شونة غلال آمون المزوجة^(٧٩).

كما كان أيضاً:

مدر الأعمال فى الجبانة الملكية،

والمشرف العام على كافة طقوس الخدمة الدينية فى معبد آمون^(٨٠).

كان من كبار المشرفين على الأموال الملكية وكبير المهندسين، سواء عند تشييد معبد آمون أو مقبرة العاهل الملكى، كما كان كبير إدارى الكرنك وأملك إلهه.

وإذا بدأنا بعهد أمنحوتب الأول، نجد أنه كان مشرفاً نشطاً على مواقع العمل:

كنت أتعقد ما صنعه صاحب الجلالة... من البرونز ومن نحاس آسيا والقلاند منات^(٨١) والأوانى والقلاند العريضة. كنت أدير كافة الأعمال بينما كانت سائر

الوظائف تحت إشرافى. كنت أمر بإقامة [الإحتفالات^(٨٢)].... بمناسبة أعياد مطلع
الفصول أيضاً، من أجل أبى آمون، رب عروش القطرين. كانت هذه الأمور من
مسئولياتى، ويتم تفقدها من أجلى، فقد كنت مخطئها^(٨٣)...

وفيما بعد أثره تحوتمس الأول تقديراً لمهاراته:

وملاً قلبه منى. عندئذ صرت أميراً والمشرف العام على شونة الغلال المزوجة.
وصارت حقول القرابين الإلهية تحت إدارتى وسلطانى. وكل الأعمال المتميزة تجمعت
لتصبح من إختصاصى. وتفقدت كبرى المنشآت التى كان ينفذها (الملك) فى
الكرنك^(٨٤)... كانت مهنة أحبها (حرفياً: من أجل قلبى)، وكان تصرفى تصرف
شخص يعرف. ولم يصدر إلى أبداً أمراً من إنسان يكبرنى سناً. سوف أمتدح لعلمى،
بعد انقضاء سنوات وسنوات، من قبل من سيحاولون محاكاة ما حققته، عندما كنت
الرئيس... كنت فم السماء لكل عمل من أعمال التشييد. كانت أفضالى مستقرة فى
القصر استقراراً راسخاً، وكذلك الحب الذى يكنه نحوى رجال البلاط. وأمدنى صاحب
الجلالة بالخدم وكانت شونة الغلال الملكية مصدر قوتى، على مر الأيام^(٨٥).

كما كان مكلفاً أيضاً عند عودة الحملات العسكرية التى ينظمها العاهل الملكى،
باستقبال الأسرى والجزية التى ستزيد، سنة بعد سنة، من ثروة معبد الكرنك. وفوق
صورة لأسير زنجى أحضره تحوتمس من الجنوب ويقدمه إلى آمون يوضح المتن:

مشاهدة الزنوج القائمين على رأس الأسرى من أجل قرابين آمون الإلهية، فى
أعقاب سقوط كوش الخسيصة - وفى ذات الوقت (مشاهدة) جزية كافة البلدان
الأجنبية التى وهبها صاحب الجلالة لمعبد آمون بصفتها مورداً سنوياً^(٨٦).

إنه من «يشاهد» كافة كنوز الآلهة، وربما كان من يتولى توزيع الثروات على
مختلف معابد مصر. إن جدولاً منحوتاً فى مقبرته يوضح كمية مكاييل البخور المقدمة
إلى كل معبد من المعابد، ولا ندرى فى أية مناسبة، فيؤكد بذلك على مناقبه كمحاسب،
فضلاً عن الأهمية المتعاظمة لمعبد الكرنك:

معبد آمون: ٤٤٠

معبد موت: ٨ ١/٢

معبد خونسو: ٨ ١/٢

معبد بتاح: ٨ ١/٢

... ؟

حريم الجنوب^(٨٧): ٨ ١/٢

معبد أحمس- نفرتارى الجنائزى^(٨٨): ١٤ ١/٢ .

وتواصلت مسيرة حياته المهنية فى عهد تحوتمس الثانى:

كنت أملاً قلب الملك فى كل مكان. يا لعظمة ما فعله من أجلى، إنه يفوق ما فعله أسلافه أهمية. ومن ثم أصبحت شيخوختى شيخوخة شخص رفيع الشأن، لأنى مكثت على امتداد الأيام أحظى بإنعامات صاحب الجلالة. كنت أكلُ (من الطعام) الذى تجود به مائدة الملك: من خبز قرابين العاهل الملكى وأيضاً من الجعة واللحوم السمينية والخضروات والفواكه بأنواعها والعسل والحلوى والنبيد والزيت. هكذا ضمنت كل احتياجاتى بأكبر قدر من الوفرة فى الحياة، حسبما قاله صاحب الجلالة شخصياً، بسبب الحب الذى كان يكنه لى^(٨٩).

تتوطد العلاقة الحميمة عندما يُقدّم طعام فاخر مكافأةً على الخدمات الحميدة والمخلصة! وفى الأزمنة الخوالى استمال الملك سنفرو الساحر جدى إلى بلاطه وكان قد بلغ من العمر مئة وعشر سنوات، فوعده بتقديم أطعمة دسمة ووفيرة^(٩٠). فمصر بلد تطوّقه الصحارى، فما أن يشهد نهراً فيضاً منخفضاً حتى تنتشر المجاعة وتعم.

كان إينينى نبيلاً مرموقاً يحب أيضاً حياة الحقول وأن يخلد إلى الراحة فى حديقته المزروعة أشجاراً وزهوراً. أحب المصريون على الدوام ما تزخر به الحدائق من نباتات وفيرة وما تضيفه ظلالها من جو عليل وتدخله رؤية الزهور على النفس من راحة وسعادة واسترخاء، وظلوا مولعين بها للتباين الشديد بينها وجذب الصحارى القاحلة المحيطة.

عندئذ «رحل إينينى ليعاين حقوله وماشيته الموجودة فى الدلتا^(٩١)».

وصور على جدران مقبرته وهو يتجول فى حديقته أو جالساً تحت عريش فى صحبة زوجته «ست البيت»(*) عح حوتپ»، كتعبير واضح عن حبه للطبيعة.

إنه يعبر بحيرته القائمة فى الغرب، ويتناول بعض المرطبات تحت أشجار الجميز، ويشاهد أشجاره الباسقة الجميلة، بينما غمرته مدائح آمون، هذا الإله المعظم، رب عروش القطرين(٩٢).

ثم يقدم إلى ذريته متباهياً متفاخراً قائمة بتفاصيل مزرعته: ٢٣ نوعاً من مختلف الأشجار منها ٧٣ شجرة جميز و٢١ شجرة برساء و٧٠ شجرة نخيل بلح و١٢٠ شجرة دوم وه أشجار تين و١٢ كرمة معرشة وه أشجار فواكه و١٦ شجرة أرغفة(?) وه أشجار عناب و٣ أشجار نخيل بلح مذكر و١٠ أشجار إثل... وغيرها، - ومجموعها ٥٦ - ولم نتوصل إلى التحقق من أنواعها حتى الآن. يا لها من أملاك رائعة مخصصة لإصاحبها فى رقدته الأبدية.

إن السلطة التى كان يتمتع بها إينينى وانشغاله بأن يحيا حياة عادلة وهادئة، وهى المثل الأعلى الذى كان يتطلع إليه كل مصرى فى هذه الدنيا، قد تركا أثراً عميقاً فى وجوده. إنه يستخلص من تجارب حياته درساً ما زال يحرك مشاعرنا:

إنى أتحدث إليكم أيها الرجال، انصتوا إليّ وافعلوا الخير الذى فعلته أنا شخصياً، وتصرفوا على النحو ذاته. لقد قضيت زمن حياتى فى سلام، دون حدوث مكروه. لقد مرت أيامى والسرور فى قلبى. لم ينتبأنى أبداً شعور بالعداوة، لم أشهر أبداً بأحد، لم أرتكب الشر أبداً، لم أسلك سلوكاً مؤذياً. كنت أقوى الجميع، ولم تصدر أبداً من جانبى غلطة أو هفوة. كنت رجلاً صاحب قلب نافع لسيده فلا يعرف الكل. كنت رجلاً ينصت إلى ما يقوله رئيسه. لم أكن أعارض الكبراء القائمين فى القصر الملكى. كما انجزت ما كان يرجوه إله مدينتى، وأخلو من أحاديث التجديف فى حق الأمور الإلهية. فمن قضى سنوات حياته وهو رجل يمتدحه الجميع سيظل باؤه حياً بجوار سيد الكون ويبقى حسن السمعة فى فم الناس. وتنسب ذكراه وفاعليته إلى

(*) مازلنا نطلق أحياناً هذا اللقب على الزوجة. (المترجم)

الزمن اللانهائي. الكاتب إنيني، الصادق القول، الرجل المبجل، الأمير، المشرف العام على شونة غلال آمون المزبوجة^(٩٢).

إنه رجل عدل وسلام، ينأى بنفسه بعيداً عن دسائس القصر، رجل ما زال الكرنك يحتفظ ببصمته ويخلد ذكره إلى الأبد^(٩٤).

كما تظهر صورة أخرى لأحد رجال البلاط، الملازمين للسيدات العظيمات في بلاط طيبة. ويكاد يكون من أصحاب الحظوة في حريم الملكة عح حوتب (الثانية)، زوجة أمنحوتب الأول^(٩٥) الذي عاش كارس في عهده. كان حاجب الملكة، والمسئول أيضاً عن المالية إلى جوار العاهل الملكي. وعلى لوح حجرى جاء من دراع أبوالنجا، يقدم وصفاً لصدق وفاء خدماته «الحميمة» وما ناله من الملكة من إنعامات مكافئة له: وتحديدًا إقامة مقبرته في أبيدوس بجوار مقبرة أوزيريس التذكارية^(*). هل كان رجل دسائس أم رجل بلاط؟ من الصعب إعطاء جواب شافٍ بعد انقضاء كل هذه السنوات. ويظل النص الآتي يغالب الأيام:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام العاشر، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: چسر كا رع، ابن رع: أمنحوتب، المنتسب إلى جسده ومحبيب أوزيريس، له الحياة.

أمر صادر من الأم الملكية إلى الحاجب كارس، النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والصديق الأوحد والمشرف العام على بيتى الذهب والمشرف العام على بيتى الفضة والمشرف العام على أملاك الأم الملكية عح حوتب، فلتحى. لقد أمرت الأم الملكية أن تشيد من أجلك مقبرة على مقربة من سلّم الإله العظيم رب أبيدوس^(٩٦)، مع الإبقاء على كافة مناصبك فضلاً عن الإنعامات التى حظيت بها. سوف توضع تماثيلك فى المعبد ضمن حاشية الإله العظيم. وسوف تخصص لها قرابين طاهرة^(٩٧)، ويصبح خبزها عظيم النفع ويتحدد عدده كتابةً... وفيما بعد، سوف تكرر من أجلك قرابين

(*) المعروفة بالأوزيريون. (المترجم)

جنائزية، وهو ما تفعله الزوجة الملكية من أجل من تحبه. من أجل الحاجب كارس، النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام على الأملاك.

إنه الأوحـد المتفرد، إنه رجل ثقة يتحد مع جسد الإلهة سخمت ويصاحب سيده في كافة ما تتخذه من إجراءات. إنه كاتم أسرار من تتولى أمر الشعب، إنه ابنها الروحي الحقيقي، ومن تنور معه أحاديث سرية ويعرف مقاصد سيده ويبلغ القصر الملكي بجميع الأمور ويجد الحلول ويقلل من وطأة المشاكل. وتنهض سيده عند سماع صوته. إنه القريب من الحقيقة – العدالة، ومن يعرف ما يخص القلب ومن يعود حديثه بالنفع على سيده. عظيم هو الخوف الذي يشيعه في بيت الأم الملكية. إنه رجل له وزنه فيما يقوم من أعمال ولكلماته تأثيرها الخير. إنه صاحب الوجود الغامض السرى عند تصريف أمور القصر، والرجل ذو الفم المختوم فيما يسمعه من أحاديث، ورجل البلاط «حائل العقد» (*)، والمشرف العام على الأملاك – إنه كارس القائد القوى اليقظ في خدمة الأم الملكية، لا فرق عنده بين الليل والنهار، إنه الحاجب كارس (٩٨).

إنه رجل غامض. ويبدو أن تأثيره كان عظيماً وإن كنا نجهل أصوله.

إن رئيس النحاتين چحوتى وموطنه الأصلي هيراكنبوليس إلى الجنوب من طيبة وكان كبير الحرفيين في عهد تحوتمس الأول، أمر بنحت إعلان مبادئ أخلاقية وتقرير عن أنشطته المألوفة على لوح حجرى في مقبرته. إننا أمام شكل آخر من أشكال هذا الجهاد الأكبر الذى تخوضه الكلمات ضد الموت الذى يتهيا له چحوتى فى صفاء وهدوء، بكل ما أوتى من نشاط:

رئيس النحاتين الذى أثنى عليه إلهه منذ طفولته المبكرة والذى رقااه الملك. إنه يقظ فيما ينجزه من أعمال. كان رجلاً بصير القلب (**)، عند القيام بأعماله جالبة الخير. ويُنطق باسمه نظراً إلى طابعه (البشوش). لم يرتكب خطأ واحداً فى حق سيده. ولم تخرج من فمه أبداً كلمة سوء. إن قلبه عادل وسط كبار السادة.

(*) هكذا فى الأصل، كما نقول فى أحاديثنا، فى الوقت الراهن. (المترجم)

(**) عكس أعمى القلب. (المترجم)

لقد أنجزت كل ما يرجوه البشر وما تمتدحه الآلهة، على الدوام. وهكذا فليتها
تُمْكِّن داري، دار الأبدية، أن تظل راسخة وتزدهر سمعتي في فم سواد الناس، بعد
انقضاء السنوات وبعد أن يوقنوا من بقاء انجزاتي. لقد صَنَعْتُ لنفسي مكاناً للمتعة،
إنه هذا المسكن في الجبانة. لقد عمل الرجال من أجلي كما كانوا يبتغون. ولم يوجد
قط وجه حزين طوال فترة العمل. كنت أخرج من بيتي مبحراً في اتجاه الحقول التي
آلت إلى عن طريق الميراث. وبمحرثي الذي يجره عجلان، أحرث الأراضي الواقعة
على مقربة من مقبرتي في الجبانة وأزرعها بنفسى. إن إلهي هو الذي خصني بها،
لأنني أنجزت ما كان كآؤه لا يتوقف عن مدحه والثناء عليه. وأعطاني الشاهد على ذلك
بجوار الجبانة التي ما زالت عامرة مزدهرة وعلى الدوام.

كما كنت أحظى بإنعامات سيد القطرين. لقد أُتِيح لي أن أكون في قلب البشر،
إذ كان الحب الذي يَكُنُّه الناس لذاتي، على مقربة من إلهي. لقد صنع ما صنع، نظراً
إلى امتياز طباعى وفائدة نصائحي، ولن يجد كائن من كان، خطأ واحداً ارتكبه ضد
البشر ولم أسرق أملاك أحد.

ثم يصل إلى فكرة تلاحقه وتشغل باله، وهى النداء إلى الأحياء الذين يدعوهم
إلى التعهد بالحفاظ على حياة جحوتي بأن يقوموا بتلاوة صيغة القرايين فلا يتركون
قواه الحيوية تضمحل وتفنى.

أيها جميع الكهنة نوى الأيدي الطاهرة، أيها جميع الكهنة المرتلين، أيها جميع
الكتبة، أيها جميع البشر، يا أيها الأحياء الذين ما زلتُم على سطح الأرض، سوف
تعبرون أمام هذه المقبرة، سوف تمتدحكم آلهة مدنكم على مر الزمان ما دمتُم في
الدنيا، سوف تعيدون «الاخضرار» إلى وظائفكم لصالح أبنائكم بقدر ما ستقولون،
عندما تتوقفون أمام هذا اللوح الحجري: قريان يقدمه الملك من أجل كا الأوزيريس
جحوتي، الصادق القول، أمام الإله العظيم، إنه الرجل المبجل رئيس النحاتين، تفوهوا
إذن باسمي وسوف يكون ذلك مفيداً لكم. لقد وسَّعت الطريق المؤدى إلى موائد
قرايينى بمقدار ٢١ ذراعاً^(٩٩).

يُظهر هذا النص بوضوح أن المقبرة كانت مكان عيد ومتعة أبدية، يستغرق

تجهيزها جانباً كبيراً من حياة المرء، إنها المكان السحري لاستعادة حياة الرجال وتجديدها، شريطة أن يعاونهم الذين ما زالوا يعيشون على سطح الأرض.

كما شغل جحوتى نفسه باهتمامات ذهنية. إن مدونة فى مقبرته تحدد، بعد ديباجة المقدمة المألوفة، أن العطايا المطلوبة تخص القلب والروح:

قربان يقدمه الملك إلى حورس هيراكنبوليس... حتى تُعطى الفطنة والذكاء والمديح والحب والحكمة وكل ما هو من صميم كا رئيس النحاتين جحوتى، الصادق القول (١٠٠).

٣- المعابد والآلهة

مع الفتوحات تطورت معابد الآلهة وازداد ثراؤها. فقد عاد الجيش المنتصر من إفريقيا وآسيا ومعه غنائم لا حصر لها وأيدى عاملة سهلة من أسرى الحرب. وتعاضمت أعداد المباني والمنشآت. وإذا أراد فراعنة العصر الإمبراطورى الإعراف بجميل الآلهة وعلى رأسها الإله آمون وشكرها على تسديد خطاهم، صاروا من كبار بناء «القصور الإلهية».

وفى الكرنك على وجه الخصوص اتسعت المنطقة المقدسة المخصصة للإله آمون - رع.

إن أمنحوتب الأول، بمساعدة مدير أعماله الإنشائية إينينى، وبالإضافة إلى مقصورة الألبستر التى سبق ذكرها (١٠١) والمخصصة لاستراحة المركب المقدس، شيد باباً كبيراً من الحجر الجيرى جنوب معبد آمون، وقد عثر على جزء منه فى أساسات معبد تحوتمس الثالث الواقع بين الصرحين السابع والثامن على محور الكرنك الشمالى الجنوبى. يقول النص التكريسى:

لقد شيد أثراً من أجل أبيه آمون، فأقام باباً كبيراً يبلغ ارتفاعه عشرين ذراعاً (٤٠، ١٠ أمتار)، إلى جوار بابى المعبد، وهو من الحجر الجيرى الأبيض الجميل الوارد من طرة. هكذا يفعل أمنحوتب بن رع (١٠٢).

وفى عهد تحوتمس الأول تطور الكرنك إلى حد كبير وزادت مساحته فى اتجاه المحور الغربى الشرقى، وأمام المعبد الأصى الذى بناه ملوك الأسرة الثانية عشرة. وشيّد إينينى سوراً جديداً يلتف حول مجموعة العناصر المقدسة للإله آمون التى كانت قائمة آنذاك. وعلى اثنين من جوانبه أقام فناءً داخلياً تكتنفه الصفات، يتكون من أعمدة من الحجر الرملى متعددة الأضلاع ذات ستة عشر وجهاً. وأقيمت تماثيل أوزيرية عملاقة تمثل الملك. كما شيّد صرحان جديدان كمدخل وهما الخامس والرابع حالياً. كان لا يوجد حتى الآن سوى صرح واحد هو السادس فى الوقت الراهن. وفى الواقع فإننا نرقم الصروح طبقاً للمحور الغربى الشرقى، بادئين من نهر النيل، أى أننا نبدأ من الأحدث. وهكذا أصبح الصرح الرابع يشكل مدخل المعبد. كان طوله ١٣ متراً وعرضه ٤ أمتار. إن أبراج الصرحين مهدمة فى الوقت الراهن إلى حد كبير ويفترض أنها كانت قائمة فوق قاعدة من الحجر الرملى ومكسوة بحجر جيرى ناعم من طرة. وقد ثبتت عند واجهاتها سوارٍ عالية ترفرف فى أعلاها الرايات لتشير من بعيد إلى وجود المعبد المقدس، كما أقيمت أمامها المسلات. وخلف الصرح الخامس شيّد بهو أساطين يتكوّن من خمسة أساطين من خشب الأرز.

ويوفر لنا إينينى فى سيرة حياته بعض التفاصيل حول هذه الأعمال:

تفقدت المباني الشامخة التى أقامها (الملك) فى الكرنك، وشيّدت قاعة عظيمة ذات أساطين، كما شيّدت بجوارها صروحاً ضخمة من الحجر الجيرى الأبيض الجميل الوارد من طرة، كما أقيمت السوارى المقدسة بجوار الباب المزدوج الضخم للمعبد وكانت سوارٍ من خشب الأرز ومن أفضل ما انتجته لبنان، وطرفها العلوى من الذهب الخالص... كما تفقدت الباب الكبير أثناء تشييده (واسمه) «قوية-هى-هيبة-آمون». إن مصراعه الرئيسى من نحاس أسيا. وظلّ الله عليه (أى على الباب) وكان مشغولاً بالذهب. كما تفقدت مسلّتى المعبد السامقتين أثناء إقامتهما وهما من الجرانيت، وقد اقيمتا أمام الباب المزدوج الضخم للمعبد. كما تفقدت المركب المقدس أثناء تسوية خشبه وصنعه وكان يبلغ ١٢٠ ذراعاً طولاً و٤٠ ذراعاً عرضاً، وقد خصّص لنقل هاتين المسلتين. فوصلتا سالتين إلى أرض الكرنك^(١٠٣).

هاتان المسلتان وهما من الجرانيت الوردى وطرفهما المدبب مغطى بالذهب الخالص، أقيمتا أمام الصرح الرابع وكان يشكل آنذاك مدخل المعبد، وذلك بمناسبة العيد اليوبيلى للملك، وهو ما تؤكدُه المدونات التى يمكن قراءتها على الواجهتين الغربية والجنوبية من هذا الأثر:

● الواجهة الغربية: لقد صنع أثراً من أجل أبيه آمون القائم على رأس القطرين. لقد أقام مسلتين باسقتين بجوار بابى المعبد وكان مُريّماهما من الذهب الخالص.

● الواجهة الجنوبية: إن سيد الآلهة قد قدس من أجله العيد اليوبيلى على الشجرة إيشد(١٠٤)(*) .

ومن حقنا أن نتساءل عن الوسائل التقنية التى كان يستخدمها المصريون لنقل هذه المسلات الضخمة المنحوتة من كتلة حجر واحدة. سوف نروى فى هذا المقام أقوال هنرى شيفرييه Henri Chevrier الذى ظل لفترة طويلة مدير الأعمال فى معبد الكرنك، وكما نقلها إلينا كلود ترونيكر C.Traunecker وچان- كلود جولفان J.C.Golvin(١٠٥): «فى عصرنا، حيث تتحول كل صغيرة وكبيرة إلى أرقام حسابية وتتحول إلى معادلات أو رسومات بيانية أو يبتلعها الحاسوب الإلكتروني، من الجدير ملاحظة أن المصريين كانوا يجهلون كل هذه الأدوات المساعدة، ورغم ذلك استطاعوا أن يصنعوا العجائب... واسمحوا لى فى هذا الصدد أن أروى طُرفة أؤكد أنا شخصياً على صدقها. ففى عام ١٩٣٣، كنت قد شرعت آنذاك فى إقامة صقالة حول الأسطون الأيسر من الباب الشمالى للفناء الكبير. فتوقفت فى الأقصر لجنة من المهندسين المتجهين إلى أسوان لكهربة الخزان، وكان الوحيد الموجود آنذاك(**)». وجاءوا لزيارة الكرنك وكما تعودت أن أفعله مع الكثير أصبحت مرشدهم السياحى. وعندما شاهدوا ما أقوم به من عمل سألنى أحدهم: «ماذا تفعل هنا؟» فأجبتُه قائلاً: «كما ترى فإن هذا الأسطون مائل وأريد تصحيح وضعه». ونظر كل واحد منهم إلى الآخر ثم سأل أحدهم: «من أى مدرسة تخرجت؟» فقلت: «من الفنون الجميلة». وكان من الواضح أنهم لم يقتنعوا أننى

(*) شجرة مقدسة. (المترجم)

(**) أى قبل بناء السد العالى. (المترجم)

اخترت الحل السليم. هذا ما حدث. وعند عودتهم من أسوان بعد انقضاء عشرة أيام جاءوا لمقابلتى: كانت الصقالة قد رفعت والأسطون مستقيم، بعد أن اتخذ وضعاً عمودياً واستعاد توازنه. فقال أحدهم: «ولكن ماذا فعلت لتصل إلى هذه النتيجة؟ إذ لا يمكن حساب ذلك». فإذا كان من المستحيل حساب ذلك، فلا يمكن إبتكاره! ولم أجد أن الإجابة ضرورية. ولكن سرت معهم لمسافة قصيرة حتى وصلنا إلى مسلة الملكة(*) وقلت لهم وأنا أشير إلى هذا الأثر الشامخ: «الإرتفاع: ٨٠, ٢٠ متراً والوزن ٨٠٠ طن. ماذا فعل سن موت الذى لم يكن خريج مدرسة الفنون الجميلة؟» إن مهندسينا يتجاهلون بل ويهملون قيمة التجريب. فبالتجربة التى اعتمدت عليها استطعت أن أقوم وضع هذا الأسطون ومقابله الأيمن، وهكذا انجزت العديد من الأعمال الأخرى.... كان المصريون لا يعرفون سوى وسيلة واحدة لمضاعفة القوى، وهى الرافعة. كانوا يجهلون الرَحْوِيَّة(**) cabestan البسيطة والبكرات واستخداماتها المتعددة، فى هيئة مجموعة بكرات صغيرة... أما الأسلوب الذى كان مستخدماً فى مصر على نطاق واسع فهو المزلفة المصنوعة من طمى النيل، فتشكل مسطحاً مائلاً ميلاً طفيفاً الغرض منه نقل الأثقال. كان الحجر الأحادى الكتلة يوضع فوق زلاقة متينة مصنوعة من الخشب، ثم تبلل التربة الواقعة مباشرة أمام الزلاقة حتى تنساب بسهولة أكبر فوق التربة المبللة. «إن مُعامل إحتكاك الطمى، الرصراص إلى حد كبير، بسطحه المبلل يعادل صفراً تقريباً». ويضيف شيفرييه بأسلوب يميل إلى الخبث: «ربما استخدم من جانبى لغة لم يألّفها علماء الآثار، فأطلب منهم المَعذرة. ولكن لا بد أن أقر أنني فوجئت إلى حد ما عندما قرأت أن المصريين عندما كانوا يروون التربة أمام الزلاقات، كان هدفهم تجنب زيادة سخونة الخشب».

هكذا فإن المهندسين المعماريين فى العصر الحديث المولعين بعلم المصريات، يستعيدون أساليب الأزمنة الغابرة، وإن كان أسلوباً تجريبياً، إلا أنه فعّال وناجح إلى

(*) وهى مسلة الملكة حتشپسوت القائمة بين الصرحين الرابع والخامس. (المترجم)

(**) لفظ أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ويغنى فى الميكانيكا: آلة لرفع الأثقال أو جرّها تشبه الملفاف، ولكن أسطوانتها رأسية. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة. ١٩٦٠. (المترجم)

حدّ كبير. ويكفى أن نشاهد مثال الكرنك. ولا تشكل الآلات بالضرورة تقدماً، ومع ذلك فلا تعتبر بالقطع علاجاً عالمياً للقضايا التقنية التي تصادف البشر. والدليل على ذلك الدرس الذي يقدمه لنا المصريون.

إن الكرنك بعد أن تعاظمت مساحته وازدان بالذهب، ظهر كبير كهنة جديد هو پا رن نفر ليخلف مين - مونتو ويقيم الطقوس الدينية. كانت مكانته لا تزال متواضعة نسبياً، ولكن زمن كبار الأحبار بات قاب قوسين.

كما أصبحت أبيدوس، وهى مكان أوزيريس المقدس، موقعاً لكبرى أعمال التشييد. إن النص المنحوت على لوح من الحجر الرملى الذى عثر عليه فى أبيدوس ذاتها، ومن مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يعطينا فكرة دقيقة إلى حدّ ما، عن ضخامة الأعمال التى انجزها تحوتمس الأول ومدى وفرة الثروات الإلهية. ويظل الملوك والآلهة متحدّين فى تبادل الخدمات تبادلاً مقدساً، ليجلب الخير لكل منهما.

القسم العلوى من الأثر مهشم تهشيماً بالغاً. ويفترض أن تحوتمس الأول قد خصص مطلع النص ليستعرض أمام الكهنة المجتمعين الأعمال التى كان يُزمع تنفيذها فى معبد أوزيريس. ويبدأ نصنا برد الكهنة:

...كم هو ممتع فى قلب البشر! كم هو جميل فى نظر الآلهة! إنك تشيّد أثراً من أجل أوزيريس، وتجلب البهاء إلى أول أهل الغرب، إلى الإله العظيم، (إله) المرة الأولى الذى حوّل آتوم عرشه إلى عرش مرموق وعظّمه ومجّدّه أمام أولاده. فمن أجله عمل الملوك منذ تأسيس هذا البلد. فمن أجله ولدت، لقد أنجبك فى استقامة قلبه لاتمام ما خلقه فى هذا البلد وترميم مقاصير الآلهة وجعل معابدها تغالب الأيام. فإليك يعود الذهب، والفضة ملكك ومن أجلك فتح الإله جب ما بداخله^(١٠٦)، وقدم لك تاتن^(١٠٧) ثرواته. إن البلاد الأجنبية بأسرها تعمل من أجلك وتجموع الأراضى المصرية تحت

إشرافك، والأحجار الكريمة من مختلف الأنواع تُرصع قصرك. ومن هم ضمن حاشيتك لا يحتاجون شيئاً. واقض بما لا بد أن يحدث. ومُر بما ينبغي عمله. فما يتوق إليه كاؤك، سوف يحدث.

عندئذ يُصدر صاحب الجلالة أمره إلى الخازن (قائلاً): «باشِر الأعمال، بحيث تأتى... بأذكى خُدّام المعبد أجمعين ونخبة كهنة الساعة من الذين على دراية بفن الإدارة، على أن يكون علمهم حكمة وإدراكاً رشيداً، ولا يخالفون الأوامر الصادرة إليهم. شيد مبنى من أجل أبى أوزيريس وأسس مقامه للزمن الأبدى، واجعل الأشياء الأكثر استغلاً جالبة للخير. ولكن تصرف بحيث يستحيل رؤية جسده أو مشاهدته أو التعرف عليه. وابن أيضاً من أجله مركباً يُحمل على الاكتاف، وهو من الفضة والذهب واللازورد والنحاس الأسود ومن سائر أنواع الأحجار الكريمة».

لقد سبق أن وهبته أعداداً كبيرة من موائد القرايين والمصلصات والقلائد منات والمباخر والكؤوس. هكذا لن استرد القرايين التى اقدمها له، كما أنها لن تتوقف أبداً. ومن أجله أيضاً صنعت مركبه المقدس نشمت، من خشب الأرز، ومن أفضل ما انتجته لبنان. إن قيادته وكونه من الذهب الخالص، إنه يدخل الفرع والسرور على الأمواه (ذاتها) عندما يبحر الإله على متنه إبان عيد بلدة بيكر^(١٠٨).

كما أمر جلالتي بأن تشكل له تماثيل للمجمع الإلهى العظيم القائم فى أبيوس. وهكذا سُمى كل إله من آلهته باسمه:

خنوم، رب حرور^(١٠٩)، الأبيد وسى.

خنوم، رب الجندل، الأبيد وسى.

تحوت، أكثر الآلهة قدرة والقائم على رأس حسيرت^(١١٠).

حورس القائم على رأس ليتوبوليس^(*).

حورس المنتقم لأبيه.

وإب - وإوات الجنوب.

(*) التصحيف اليونانى لمدينة خم المصرية وأوسيم حالياً. (المترجم)

واپ - واوات الشمال (١١١).

كانت أجسادها الرائعة تكتنفها الأسرار. (وموضوعة) على حوامل من الذهب الخالص. كانت صنعتها أفضل من تلك التي وجدت من قبل وأروع من التي توجد في السماء. كانت أكثر استغلاً من الوضع القائم في اللوات. كانت جديرة بمزيد من الإحترام مقارنة بالآلهة (الأولية) الساكنة في نون.

صنع جلالتي كل ذلك من أجل والدي أوزيريس، من شدة حبي له، وأكثر من سائر الآلهة. ومن ثم، سيبقى اسمي، ويوم عملي، في منزل أبي أوزيريس، أول أهل الغرب، ورب أبييوس، للزمن الأبدى وللزمن النهائي.

استمعوا إلى إذن، أيها الآباء الإلهيون لهذا المعبد، أيها الكهنة نوو الأيدي الطاهرة، أيها الكهنة المرتلون... وأنتم يا جميع كهنة الساعة (١١٢) في هذا المكان المقدس، قدموا القرابين من أجل مقبرتي، مؤنوا مائدة قرابيني، اعملوا على تخليد العمل العظيم الذي قام به صاحب الجلالة، انطقوا اسمي، استعيدوا في ذاكرتكم مجموعة ألقابي، مجدوا صورتي، وبجلوا تمثال جلالتي وضعوا اسمي في قم خدامكم وذكراي بجوار أولاد أولادكم - لأنني ملك قدير بسبب ما فعله، إنه أكثر الجميع بسالة، وسوف يتذكر الجميع اسمي في «مقابل» ما حققه في هذا البلد، أكثر بكثير مما تعرفونه. هذه الأقول لا تنطوي على إفك أو مغالاة.

لقد شيدت المباني من أجل الآلهة، وجعلت معابدها رائعة، من أجل المستقبل، وشكلت معابدها على أحسن وجه، لقد رمت منها ما كان مهدماً، لقد تفوقت على كل ما صنع من قبلي. وتصرفت بحيث يعرف الكهنة نوو الأيدي الطاهرة واجباتهم والمطلوب منهم. وأرشدت الجاهل إلى ما كان لا يعرفه. لقد حققت أكثر بكثير مما فعله الملوك الآخرون الذين سبقوني. إن آلهة زماني قد غمرها السرور ومعابدها تهلل فرحاً.

لقد رسمت حدود البلد المحبوب لتصل إلى حدود ما تحيط به الشمس. لقد زدت الراحين تحت وطأة الخوف قوة، لأنني طردت الشر بعيداً عنهم. لقد جعلت مصر الأولى (أبناء) الأرض قاطبة خدامها.

لا تؤدوا فقط المديح والثناء للإله آمون^(١١٣).

يكشف هذا النص بكل وضوح عن كبرياء الفاتحين الأوائل وشموخ الإمبراطورية التي كان تحوتمس الأول مؤسسها ومدشن شكل جديد من أشكال الفكر السياسى، سوف يصل إلى أوجه فيما بعد فى عصر الرعامسة.

كما أقيمت غيرها من «قصور الآلهة» فى ربوع البلاد تمجيداً للآلهة المحلية، بعيداً عن الموقعين الكبيرين فى الكرنك وأبيدوس. وفى مدينة هابو على البر الغربى لمدينة طيبة بدأ أمنحوتب الأول تشييد معبد، واصل العمل فيه تحوتمس الأول، ثم قام تحوتمس الثانى بتوسيعه على نطاق كبير. إنه مبنى تحيط به الأعمدة وقدس الأقداس فى هيئة «سيلا»^(*) cella. كان الرواق يتكون من جدار منخفض، يسمح لضوء الشمس بالدخول من خلال فتحات عريضة. وسيتولى الملوك الكوشيون والبطالسة استكمال وتوسيع ما بدأه ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل. إن السور الأصلى سوف يضمه السور الكبير للمعبد الجنائزى للملك رمسيس الثالث^(**).

٤- المقابر والشعائر الجنائزية:

وادی الملوك

عند إعداد مقبرته دشّن أمنحوتب الأول موقع جبل طيبة. وفى عام ١٨٨١ تم الكشف عن مومياة أمنحوتب الأول فى «خبيئة» الدير البحرى. كان طولها ١٦٥ سم. كما دثرت بالكامل بنسيج برتقالى اللون، مثبت بقطع عادية من النسيج، وكان قناعه الجنائزى من الخشب والورق المقوى الملون. كانت المومياة مغطاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بأكاليل من الزهور الزرقاء والصفراء والحمراء. وقد تعرّف عليها عالم

(*) وهى الهيئة التى يتخذها قدس الأقداس عند الإغريق والرومان. (المترجم)

(**) الذى يطلق عليه اصطلاحاً فى الوقت الراهن معبد مدينة هابو. (المترجم)

النباتات شفينفورث Schweinfurth واسماؤها العلمية هي *Sesbania aegyptiaca* (*) و *Accacia nilotica* (**) و *Carmanthus tinctorius* (***) و *Delphinium orientale* . يا لها من أبهة نباتية فخمة تعبيراً عن تجديد الحياة بألوان السماء والشمس ودماء الحياة. وقد عثر على زنبور عمره ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة في القابوت المصنوع من خشب الأرز. لقد جذبتة رائحة الزهور وظل محبوبساً بعد إطباق غطاء القابوت الثقيل ليطن دون شك لفترة طويلة قبل أن يصبح آخر رفاق العاهل الملكي في أبعديته.

وفي عام ١٨٩٦ و ١٨٩٨ كشف سبيجلبرج Spiegelberg ونيوبيري Newberry عن معلمين أثريين متجاورين في منطقة دراع أبو النجا . أحدهما وهو الشمالى يخص الملكة أحمس- نفرتارى أما الآخر وهو الجنوبى فكان المعبد الجنائزى لابنها أمنحوتب الأول، والذي شيده إينينى النشط المتأبر باستخدام مواد نفيسة: «لقد أقيمت الأبواب من النحاس المصنوع من قطعة واحدة وكانت تماثيله من الذهب الخالص»^(١١٤). من المحتمل أن الملك قد اختار أيضاً الدير البحرى، فى مكان يقع تحديداً عند الشرفة الوسطى من معبد حتشپسوت ليقيم قبراً تذكاريّاً أو بدأ فى إقامة قبره قبل أن يعدل عن هذا المشروع^(١١٥).

وبالفعل فإن مقبرة الملك الحقيقية قد حفرت فى صخر الجبل الغربى وفى دراع أبو النجا أيضاً. وقد كشف عنها اللورد كارنافون Carnavon عام ١٩١٤. ومنذ ذلك الوقت، كان تخطيطها هو التخطيط الكلاسيكى ذاته الذى التزمت به المقابر الملكية فى الأسرة الثامنة عشرة: فبدأ من المدخل الذى تخفيه صخرة ضخمة يمتد دهليز طويل هابط مخترقاً صخر الجبل. وعند منتصف المسافة تكتنفه من على الجانبين حجرة وكوة، وينتهى بباب يطل على بئر شديدة العمق يصل إلى تسعة أمتار ويضيق عرض الدهليز تدريجياً كلما سرنا هابطين، لينتهى بقاعة أولى طولها ثلاثة عشر متراً ونصف تفضى إلى حجرتين لصرف أنظار اللصوص على ما يظن وتضليلهم، وكانت هذه الظاهرة موجودة فى أهرام الأسرة الرابعة. كانت صخرة ضخمة تسد الباب

(*) وهى زهرة السسبان. (المترجم)

(**) وهى زهرة السنط. (المترجم)

(***) وهى زهرة القرطم. (المترجم)

الموجود بين قاع البئر والقاعة الأولى. وبعد ذلك ننتقل إلى قاعة ثانية طولها سبعة أمتار ونصف تقودنا مباشرة إلى حجرة الدفن المستطيلة الشكل ذات الأبعاد الشاسعة، إذ يبلغ طولها ١٢,٢٠ متراً. أما السقف فتحمله أربعة أعمدة مربعة. إن مجمل هذا المسار انطلاقاً من مستوى الأرض عند مدخل المقبرة، كان يتطلب من المرء أن يسير على مهل على امتداد اثنين وستين متراً تقريباً^(١١٦). كانت هذه المقبرة المنقورة في الصخر لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، أى بعد مرور خمسة قرون، وهو ما تؤكدته بردية أبوت Abbott، ولكن تم الاعتداء عليها فيما بعد ونهبها وسلبها.

واعتباراً من تحوتمس الأول تبدل التنسيق العام للمجموعة الجنائزية. فبعد أن كانت المعابد الجنائزية والمقابر متجاورة في المجموعة الهرمية، انفصلت عن بعضها وفقاً للموقع الجديد المستخدم. فمن الآن فصاعداً سوف تشيد المعابد عند الحدود الفاصلة بين الأرض الزراعية والصحراء الغربية. وسوف يكون تصميمها عبارة عن «قصور» للآلهة والملوك الذين تقام لهم معاً الشعائر الدينية. وتطلق عليها النصوص المصرية اسم قصور ملايين السنين. إن رسمها التخطيطي ورموزها مشابهة لمثيلاتها في المعابد الإلهية: كان صرح المدخل يتقدم فناءً كبيراً تكتنفه أحياناً الصفات ويليها بهو أساطين واحد أو أكثر وعدة حجرات ملحقة ثم قدس الأقداس. كانت طقوس الخدمة اليومية متماثلة. أما المقبرة الملكية الصخرية فهي منفصلة عن المعبد وكانت تنقر في سفح الجبل الغربى الذى يصل إليه المرء عبر وادٍ جفت مياهه ووسط مشهد طبيعي من الجبال الصخرية والصحارى القاحلة. وربما وقع الاختيار على هذا الموقع لأنه مكان منعزل وموحش. وأطلق عليه العرب اسم يبيان الملوك وأسميناه نحن الغربيون وادى الملوك. وبعد تحوتمس الأول سوف يدفن فيه ثمانية وخمسون من ملوك الإمبراطورية وهم جميع الفاتحين العظام الذين صنعوا مجد مصر وضمنوا ثرائها وازدهارها.

كان تحوتمس الأول ملكاً مبدعاً في مختلف المجالات. هل كان إينينى وراء اختيار هذا الموقع المنعزل؟ وعلى كل حال فقد كان هنا أيضاً مدير أعمال الملك وأشغاله وكاتم أسرارته.

لقد تفقدت أعمال الحفر (التي تتم من أجل) المقبرة الصخرية لصاحب الجلالة. لم يكن فى وسع أحد أن يرى، ولم يكن فى وسع أحد أن يسمع. كنت أسعى إلى عمل كل ما قد يكون مفيداً، إذ كان رأسى يقظاً ومنتبهاً^(١١٧).

ولكن كل هذه الثروات الى تحتفظ بها هذه المقابر الفسيحة، لم يكن من المنتظر ألا تشد إليها أطماع البشر وجشعهم.

نشأت آنذاك عبادة خاصة فى جبانة طيبة وتحديداً فى قرية العمال الجديدة بدير المدينة: وهى عبادة أمنحوتب الأول الذى كان كما عرفنا أول من افتتح موقع طيبة على البر الغربى وأسس كما هو واضح النقابة الطائفية لعمال الجبانة الملكية التى يطلق عليها اصطلاحاً «خُدَّام مكان الحق». ومن المحتمل أن هذا هو السبب الذى حمل العمال من قلاعى الأحجار وقاطعيها ومن نحاتين ونجارين ورسامين - حملهم على النظر إلى أمنحوتب الأول بصفته إله المنطقة وقديسهم «الحامى الراعى». كانت هذه العبادات متنوعة، وأصبحت عدة تماثيل للملك محل تبجيل وإجلال، وربما كانت قد نقلت من معبد الكرنك إلى البر الآخر: كانت التماثيل تُعرف بأسماء مثل «أمنحوتب البلاط» و«أمنحوتب الحديقة» و«أمنحوتب المبحر على سطح الماء». وكلها صور قد تكون جاءت من أحد أفنية الكرنك أو إحدى حدائقه وكانت من أخفها وزناً بحيث تستطيع بالفعل أن تبحر على صفحة نهر النيل أيام الأعياد. كما نجد أيضاً «أمنحوتب رب المدينة» - وربما كانت دير المدينة هى المقصودة. وقد ورد هذا الاسم مراراً وتكراراً على الأومستراكا(*) التى عثر عليها فى قرية العمال. ومن الراجح أيضاً إقامة معبد مخصص للملك أمنحوتب الأول، بصفته راعياً وحامياً مبعلاً ولكن بصفته المستشار الناصح أيضاً. كان يستشار فى هذا المكان فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة اليومية. كان العمال يلجؤون إليه لحل نزاعاتهم البسيطة وخصوماتهم. وكان أمنحوتب الأول مشاركاً فى ممارسات العرافة^(١١٨). كان فى استطاعته أن يرشد إلى السارق فى حالات السرقة، إما بتحريك تمثاله أو بأن يتحدث أحد الكهنة باسمه، ومن ثم يمكن أن نقرأ الآتى على سطح أوستراكون القاهرة رقم ٢٥٢٤٢:

(*) جمع أوستراكون. (المترجم)

فى اليوم العشرين، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٩، قام العامل خع إم واست بابلاغ أمنحوتب، بما يلى قائلاً: «تعال إالى، يا سيدى وقيم من أجلى الأعمال التى أنجزتها، من أجل العامل قنأ بن روتى، أقصد بذلك جانباً من تابوت، كان خشبه ملكاً لى». وطأطأ الإله رأسه وقال مؤكداً: «هذا يعادل ١٥، وسرير من خشب: ١٢، وأربعة قوائم سرير: ٣ حققات (١١٩)، ومروحة: ٢ حققات... غار (١٢٠) من العلس: ٣ حققات.. المجموع ٣١ ديناً ونصف (١٢١) من النحاس (١٢٢).

وبالعودة إلى ظهر الأوستراكون، يفهم أن قنأ كان قد دفع إلى خع إم واست ٢٤ ديناً من النحاس، مقابل بعض الأعمال، ولكن اعتبر هذا الأخير أن هذا المبلغ غير كافٍ، فالتمس تدخل أمنحوتب الأول الذى قدر مبلغ ٣١ دين ونصف.

كان من إختصاص المحاكم العمالية أن تصدر أحكاماً فى الشئون المحلية البسيطة. ولكن كان من الممكن فى جميع الأحوال الأخذ بالحكم الصادر من أمنحوتب الأول. وطبقاً للأيدىولوجية الملكية فى مصر، وإذ كان الملك هو «الراعى الصالح» الذى يرعى شعبه ويحميه، كانت روابط حميمة تجمع العاهل الملكى ورعاياه من البشر حتى أدق تفاصيل مشاغلهم الحياتية.

كانت الأعياد الشعبية تصاحب هذه الطقوس الدينية التى تقام من أجل الصورة الملكية. فيشهد الوادى مواكب إحتفالية ضخمة تظهر أثناءها صورة العاهل الملكى وسط جموع الشعب التى تهلل فرحاً. كان حاملو الصورة المقدسة وكهنة الشعائر الدينية هم عمال دير المدينة الذين يتخذون عندئذ ألقاب الكهنة العظام ليصبحوا لفترة هذا العيد «كهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة» و«خدّام الإله». كان البشر أمام الآلهة، سواء بسواء، لا فرق بينهم.

وقد عثر على وقائع الترتيبات الشعائرية الخاصة بعبادة أمنحوتب الأول، على عدد من البرديات، نذكر منها بردية شيستر بيتى Chester Beatty رقم ٩، من مقتنيات المتحف البريطانى، وهى نسخة حرّرت فى عصر رعمسيس الثانى. كما أن نصين مماثلين يعودان إلى العصر ذاته، يحتفظ بهما فى الوقت الراهن متحف القاهرة ومتحف تورينو. وفضلاً عن ذلك فإن بعض النقوش التى نحتت فى عهد سيسى الأول

على الجدار الشرقي من بهو الأساطين في معبد آمون الكبير، تقدم وصفاً لهذه الشعائر الملكية التي غابت الأيام. وفي مدينة هابو أيضاً وتحديداً في معبد رعمسيس الثالث الجنائزي، سُجِّلَت على الجدار الشمالي من الفناء الأول إشارة إلى هذه العبادة. وترتبط الفقرات الرئيسية بالترتيبات الخاصة بالقرايين وخدمتها^(١٢٢).

وبعد عودة النظام الملكي إلى سابق عهده وتأسيس الإمبراطورية، شهدت مصر إزدهاراً جديداً. ومع تربع امرأة على عرش البلاد كادت هذه الإنجازات أن تتعرض للضياع. ولكن تحوُّل المس الثالث، وهو من أبرز التحامسة وأكثرهم تألقاً، كان يتحلى بسمات بطولية كقائد عسكري وبفكر ثاقب كإداري فطن، فاستطاع أن يستعيد عظمة الإمبراطورية ويدعمها.

الفصل الرابع

حتشيسوت، الملكة الغاصبة

١- غموض وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة

عند وفاة تحوتمس الثانى حول عام ١٥٠٤ ق.م، ثارت بحدة قضية وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة.

كانت الزوجة الملكية العظيمة حتشپسوت قد رُزقت من اقترانها بالعاهل الملكى الراحل بابنتين: الأولى هى الأميرة نفرورع أى «جمال رع». وعندما كانت لا تزال فى سن الطفولة، وكما سبق أن ذكرنا، تولى المعلم المربى أحمس - بن - نخبت تنشئتها، ليتمتع، على هذا النحو، فى نهاية حياته المهيبة بمنصب مرموق. ثم خلفه فى هذه الوظيفة، الأثير سنن موت^(١). أما الأميرة الثانية التى انجبها الزوجان الملكيان فهى مريت رع - حتشپسوت أى «محبوبة رع، حتشپسوت» المسماة حتشپسوت الثانية. ومع ذلك فقد أنجب تحوتمس الثانى ابناً من الخادمة أست أى إيزيس، وأطلق عليه اسم تحوتمس الذى سيصبح فيما بعد، تحوتمس الثالث. ومن الواضح أنه سوف يتزوج الأميرة الشرعية مريت رع - حتشپسوت التى لن تقوم بدور ملحوظ فى التاريخ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ هذا الزواج. إن الخطوط العريضة لتعاقب وراثة العرش معروفة، ولكن لما كان الأمير لا يزال حديث السن، فقد اصطدم بطموحات زوجة أبيه.

إننا ندرك بوضوح إلتباس الموقف عند قراءة النص الوارد فى سياق حياة إينينى:

وحل مكانه ابنه، بصفته ملك القطرين. وحكم متربعاً على عرش هذا الذى انجبه. وأخته الزوجة الإلهية «حتشپسوت» كانت تدير شئون البلاد، وخضعت الأرضان لسلطانها. وعمل الجميع من أجلها وحنن مصر رأسها من أجلها، من أجل بذرة الإله النورانية. إنها قلّس(*) قيدام مصر العليا ووتد رسو أبناء الجنوب وقلّس كوثل مصر

(*) حبل غليظ من حبال السفن. (المترجم)

السفلى وسيدة الأوامر^(٢). خيرة هي مقاصدها والشاطآن راضيان عندما تتحدث^(٣).

أغلب الظن أن حتشپسوت قد تولت وصاية العرش عندما كان الأمير تحوتمس لا يزال حدثاً فى سن الطفولة، الأمر الذى يفسر أنها قامت بتصريف شئون البلاد، ولكن وصاية العرش سوف تتحول إلى مبرر فى خدمة طموحاتها الأخرى.

الملك المصطفى

عند تحليل النصوص الرسمية، يبدو من الواضح أن الأمير تحوتمس قد ظلّ لصفر سنه ملكاً بالاسم حتى العام الخامس (أو السادس؟)، بل ربما كانت حتشپسوت قد شاركت من قبل تحوتمس الثانى الحكم. وبالفعل فإن مدونة منقوشة على الصرح السابع من معبد آمون - رع فى الكرنك، تضع هذه الكلمات على لسان تحوتمس الثالث:

لقد تصرف أبى آمون - رع - حور أختى بحيث أتجلى متألّقاً على عرش حورس الأحياء، فأدخلتُ فى حضرته إلى المعبد وأخبرت آنذاك بنبؤة مفادها أننى سوف اتسلم حكم القطرين (واستحوذ) على عروش جب وعلى منصب خبرى، إلى جانب أبى، الإله الكامل عا خپر إن رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، له الحياة إلى أبد الآبـار^(٤).

وفى زمن لاحق، وفى العام ٤٢ من عهده، أمر تحوتمس الثالث بنقش نص فى معبد الكرنك على الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبي من حجرة قائمة جنوب قدس الأقداس. يوضح هذا النص ظروف اختياره من قبل آمون. ويبدو أن وقائع هذا المشهد قد حدثت فى حضرة تحوتمس الثانى:

أنا ابنه (ابن آمون). لقد أمر بأن أبقى على عرشه بينما كنت لا أزال صغيراً فى عشه، لقد انجبنى من بذرة شهوته.... كنت صبياً فى معبد مدينته، بينما لم أكن قد فتحت لى المغاليق حتى الآن بصفتى «خادم الإله»، بل كنت منذ ذلك الزمن قد

اتخذت شكل وهيئة «عمود- أمه»^(٥)، وأشبهه الصبى حورس فى خميس. وذات يوم، بينما كنت واقفاً فى القسم الشمالى من القاعة الخضراء...^(٦) كان آمون قد جعل السماء فى عيد بسبب جماله، فنال عجائب طائلة، فى حين كانت أشعته فى عيون البشر بصفتها تجلياً (للإله) حور آختى^(٧). كان الشعب يغدق عليه المديح والتهليل... عندئذ أمر جلالته بأن يُحرق البخور من أجله، بينما كانت تقدم له فى الوقت ذاته قرابين طائلة من أبقار وعجول وصغار حيوانات الصحراء... كان (أمون) يقطع المسافة عند جانبى القاعة الخضراء، وكانت قلوب الذين أمامه^(٨) لا تفهم معنى تصرفه، فى حين كان يبحث عن جلالتي فى كل مكان. وفجأة تعرّف علىّ، وتوقف... فسجدت أمامه وانبطحت أرضاً وانحنى ساعداى فى حضرتة. فأقامنى بعد ذلك أمام جلالته، بينما كنت واقفاً فى مكان الرب^(٩). عندئذ حقق من أجلى العجائب... ففتح من أجلى أبواب السماء العليا، وأزاح من أجلى مصراعى الأفق. وارتفعت نحو السماء مثل صقر إلهى، وتأملت هيئته الخفية القائمة فى المنطقة العليا وعبدت جلالته^(١٠)... وشاهدت صيرورات إله الأفقين على دروبه السرية فى السماء. لقد أقامنى رع ذاته. وارتقيت فى المدارج الرفيعة بفضل التيجان التى على رأسه وصله المتفرد مثبت على جبينه... ووهبت كل تألقه وشبّبت على حكمة الآلهة وأخذت منها كفايتى وكأنتنى حورس الذى نشأ وترعرع فى بيت أبيه آمون- رع. وأخيراً منحت بالكامل كل الامتيازات الإلهية.

وثبّت تيجانى وانتظمت قائمة ألقابى.

وبادئ ذى بدء، وُضِعَ الصقر فوق السرخ^(١١)، وجعلنى شديد البأس كالثور القوى، وتصرف أخيراً بحيث أتجلى فى طيبة بصفتى اسمى:

حورس: الثور القوى الذى يتجلى فى طيبة.

وجعلنى أرفع السيدتين: وأعاد ملكى الذى يغالب الزمن مثل ملك رع فى السماء بصفتى اسمى:

السيدتان: ذلك الذى يدوم ملكه مثل ملك رع فى السماء.

ثم شكّنتى كصقر ذهبى ومنحنى قوته وبسالته وكُرسنى على عرشى عن طريق
تيجانى بصفتى اسمى:

حورس الذهبى: صاحب القوة، شديد البأس والتجليات المقدسة.

وجعلنى بعد ذلك أشرق كملك مصر العليا ومصر السفلى وثبّت صيروراتى مثل
صيرورات رع، بصفتى اسمى:

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، من خپر رع (أى: «فلتبّق
صيرورة رع!»).

أنا ابنه، المنبثق منه، والصورة التى تشكّلت على هيئة الذى يتّراس
حسيريت^(١٢)، كما أنه يوحد كافة صيروراتى، بصفتى اسمى:

ابن رع: تحوتمس المتحد من حيث صيرورته - ليته يحيا للزمن اللانهائى
وللزمن الأبدى...

وتصرّف بحيث تأتى البلدان الأجنبية بأسرها منحنية بسبب مجد صاحب
الجلالة، فالخوف الذى أثيره استقر فى قلب الأقواس التسعة والأراضى المصرية
وُضعت تحت نعلّى. ويسلمنى النصر فى يديّ حتى أوسّع حدود مصر...

لقد صنع أبى آمون كل ذلك بسبب عظمة الحب الكبير الذى أكنّه نحوه. إنه
يبتهج بسببى أكثر مما فعل من أجل أى ملك آخر عاش فى البلاد من قبل، منذ أن
«رُبطت». فأنا ابنه ومحبيه. هذا ما يرجوه كاؤه الذى سيتحقق^(١٣).

هذا النص موشى بالإشارات إلى أصول تحوتمس الثالث الإلهية، وعلاقته
الحميمة بالإله آمون - رع الذى قام هو نفسه بتحديد عناصر قائمة ألقابه الملكية. إن
العاهل الملكى الشاب قد اختارته الآلهة واصطفاه والده الملك المتربع على العرش.

إن إعلان التتويج بصفة رسمية والذى نقش نصه على الصرح السابع من
صروح الكرنك قد حدث فى القصر الملكى بمشاركة كبار رجالات مصر وأشرافها:

فى اليوم الرابع، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الأول (أى فى مطلع الربيع)، حدث آنذاك التجلى المتألق للابن الملكى... تحوتمس، ليته يحيا للزمن النهائى وللزمن الأبدى، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى...

قال جلالتى (لرجال البلاط المجتمعين لحضور الإحتفال): «اعلموا إذن ما يلى: إن قلب جلالتى يتجه إلى الخير والفاعلية... كابن خير يحقق من أجل من أنجبه أفعالاً مفيدة... إن مشيئة جلالتى هى أن يفعل عملاً حسناً لصالح من خلق كمالى»...

هنا أجاب رجالات البلاط وأشرفها على صاحب الجلالة قائلين: «أنت حامى سيد الآلهة... كم هو رائع أن تودّ تجميل معبد أبيك آمون-رع، ملك الآلهة، من خلال تشييد مبانٍ جديدة ومعالم صرحية تلوم إلى الأبد، أنت وريثه. اعمل إذن، اعمل إذن. واصل عملك، وأنت حى ومتجدد وشاب على الدوام، مثل رع على مرّ الأيام^(١٤)».

وكما جرت العادة فإن نبأ تربع ملك جديد على عرش البلاد^(١٥) كان يذاع فى التوّ واللحظة، فى الأراضى النوبية والسودانية. كما تشهد مدونات منحوتة فى العام الثانى فى معبد سمّة بالسودان على مدى إهتمام الملك الشاب، فور تسلمه السلطة، بهذه البقاع القصية من أراضى الإمبراطورية. وقد أضيفت إلى قائمة ألقابه «المحلية» وإلى اسم حورس الذهبى تحديداً، صفة «المحبوب من الإله ديون القائم على رأس النوبة^(١٦)».

وتتولى الآلهة المصرية «تقديم» العاهل الملكى إلى آلهة الجنوب، حتى تمنحه السلطة على مناطقها:

كلمات قالها يون موفت إلى ديون القائم على رأس النوبة، الإله العظيم، رب السماء: «ليت ابنك ومحبوبك من خير رع يركن إلى الراحة فى معبدك ويرث عرشك. ليته يكون ملك مصر العليا ومصر السفلى، فى هذا البلد دون أن يحتاج أبداً إلى التجديد. ليتك تضع مجده، وتشكل هيئته فى قلوب النوبيين والمانتوي، مكافأة له على قيامه بتشيد هذا المبنى الجميل من أجلك ليغالب الأيام».

كلمات قالها ديون القائم على رأس النوبة: «أيا بُنى الذى ينتسب إلى جسدى، أيا محبوبى تحوتمس. إنى أثبت من أجلك مقامك كملك، أنت الشبيه (بالاله) حورس

الجالس على العرش. إنك توحد القطرين، بالنظر إلى أنك حي إلى أبد الآباد. لقد رفعتك قدرتك، لقد رفعتك فطنتك، لقد رفعت لتصبح سيد الپشن١٧). إن قرنيه على رأسك، وينبثقان أمامك، إن ريشتيه تلتقيان فوق شعر رأسك. إن الخوف منك استقر في البلاد الساهرة والهلع الذي تثيره قائم في أجساد الجهلة. إن اسمك يتقدم اسم الآلهة، لبتك تعمل بصفتك حياً مثل رع(١٨)».

إن الآلهة والملوك «رفاق» أساسيون. لقد قام تحوتمس الثالث بتشيد معبد في سمنة كرسه للإله ديتون، وفي الوقت نفسه أمر بترميم المعبد الذي سبق أن أقامه سنوسرت الثالث:

لقد شيد الإله الكامل من خير رع مبنئ، هو معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل من أجل أبيه ديتون، القائم على رأس النوبة، ومن أجل خع كا ورع(١٩)، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وبالفعل كان جلالتي قد وجد المعبد المشيد من الطوب قد أصابه دمار شديد. ومن ثم فقد تصرف بصفته ابناً يمتلئ قلبه حباً لأبيه، بعد أن أسند إليه الشاطآن، وبعد أن رفع ليصبح الحورس، سيد هذا البلد. لقد وضع الله في قلبي (الرغبة) في إقامة مبنئ من أجله. لقد تصرفت بحيث يكون السيد. تماماً كما سمع لي أن أكون سيدياً. لقد جعلت معبده راسخاً متيناً للزمن الأبدى، بقدر ما هو عظيم، وأعظم من أي إله آخر(٢٠).

(كان ديتون في هذه الأماكن هو الولي الراعي والحامي لها).

تؤكد جميع هذه النصوص على القدر الملكي الذي كان ينتظر الملك الشاب الذي يبدو أنه استهل عهده محاطاً في نظرنا، بأفضل ما يكون من رعاية وحماية.

وفي العام الثالث من عهده، قام بإجراء تعيينات لكبار الكهنة، وقد دون نب واوى كبير كهنة أوزيريس الجديد في أبيدوس النص الآتي على لوح حجرى:

حدث ذلك في العام الثالث، عندما أنعم على سيدى من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، برعايته بسبب ما فعلته من أجله. فتم ترقيتي إلى منصب كبير

(*) من ألقاب سنوسرت الثالث. (المترجم)

كهنة أوزيريس، واستعاد جميع وظائف هذا المعبد إخضرارها، تحت سلطة جلالة الملك (٢٠).

وشغل هذه الوظيفة حتى العام السادس.

وفى العام الخامس، اختار تحوتمس الثالث الوزير أوسر - آمون الذى يُدعى أحياناً أوسر. ويحدد هذا التاريخ نص بردية هى من مقتنيات متحف تورينو فى الوقت الراهن:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من فصل الفيضان، من العام الخامس، من عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع، ابن رع: تحوتمس. فى هذا اليوم، مَثَل الكاتب والخازن الملكى أوسر - آمون التابع لمعبد آمون - مَثَل بين يدي صاحب الجلالة. عندئذ قال الملك: «إن قلبى يميل إلى حد كبير، نحو اختيار أوسر - آمون وزيراً. إنه رجل غنى بالسنوات منذ ميلاده. إن ثلاثين من سنواته (كُرست؟) للفرعون السيد الطيب. إنها لفترة طويلة» (٢٠مكد).

وإذ ما-زلنا فى العام الخامس، فإن الجزء العلوى من لوح حجرى عثر عليه فى سيناء بسرابط الخادم، يُظهر الملك الشاب بمفرده وهو يقدم قرباناً للإلهة حتحور (٢١).

ويلاحظ بعد العام الخامس، أن تحوتمس الثالث لن يظهر فى إطار تتابع وقائع الإحتفالات الرسمية أو يُصور مع حتشپسوت، ولكنه فى الصف الثانى فى أغلب الأحوال. ومن الراجح أن طموح زوجة أب الملك، قد حملها فيما بين العامين الخامس والسادس، على تحويل وصاية العرش إلى ملكية مغتصبة. ولكن ما زال من الصعوبة بمكان فى إطار مجموعة الوثائق المتوفرة فى الوقت الراهن، أن نتعرف على وجه الدقة على طبيعة المؤامرات أو الدسائس التى مهدت لهذا الوضع.

الولادة الإلهية والسياسة

فى العام السابع جرت الإحتفالات الرسمية التى شهدت تتويج حتشپسوت.
وتحددت قائمة ألقابها:

- حورس (أو حورس الأنثى): ذات الكاءات القوية.
- السيدتان: التى تستعيد سنواتها إخصرارها.
- حورس الذهبى: ذات التجليات الإلهية.
- ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع («الحقيقة – العدالة، هى كا الإله رع»).
- ابنة(**) رع: خمئت- إيمن- حتشپسوت (تلك التى تتحدّ مع آمون، إنها أكثر السيدات نبلاً وشرفاً).

ولإضفاء الشرعية على تربعها على العرش، لجأت حتشپسوت إلى تبريرات سياسية وأسطورية.

كانت تريد اقناع الآخرين بأن أباهما تحوتمس الأول قد ميزها وفضلها منذ زمن طويل وأشركها فى شئون الدولة. وإذا كانت تستنجد بأبيها تحوتمس الأول وفضلته على زوجها تحوتمس الثانى، فسبب ذلك على ما يظن، هو أن أباهما كان ملكاً لامعاً ومهيباً، ولكن يمكن أن نضيف إلى ما سبق أن الملك المتربع على العرش كان فى حقيقة الأمر، وفى ظروف نجهلها، قد وقع اختياره بالفعل بصفة رسمية على الأمير الشاب تحوتمس ليخلفه على كرسى الملك. وهو ما قد يبرهن عليه بعض النصوص التى سبق ذكرها. وتأكيداً لمزاعمها أمرت الملكة بنحت مدونة على الواجهة الشمالية من الصرح الثامن القائم جنوب معبد آمون-رع بالكرك. إن نقشاً يصور الملك تحوتمس

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

الأول، واقفًا أمام ثالث طيبة: آمون وموت وخونسو. ويلقى العاهل الملكى خطاباً من أجل آمون:

إنى قادم إلى جوارك، أيا سيد الآلهة. إنى أسجد أمام جلالتك، لأشكرك على إعطائك السوداء والحمراء إلى ابنتى ماعت كا رع ملك (*) مصر العليا ومصر السفلى، ليتها تحيا إلى الأبد! تماماً كما فعلت من أجلى... إنى سعيد لأنك استجبت لدعائى. وفى المرة الأولى التى فعلت شيئاً من أجل جلالتي، منحتنى ملكك فى حضرة القطرين، وأشدت بكمالى عندما كنت لا أزال صبيّاً... وخضعت السوداء والحمراء لسلطانى. أنا راضٍ عن الإنتصارات التى منحتنى إياها، وكل بلد من البلدان الأجنبية التى سبق أن تمردت، هى من الآن تحت نعلّى، هذه البلدان التى طوّقتها تلك التى على الجبين (أى الصل) فيأتى أبناؤها الآن محملين بالجزية. لقد قوّيت هيبتى فى أجسادهم بينما تعبر صيحاتى - صيحات الحرب - بلدانهم، فترتعد أطرافهم. لقد استحوذت عليهم منتصراً، عملاً بأوامرك، وصاروا خداماً إلى جوارك. وزعماء البلدان الأجنبية بأسرها يطأطئون رؤوسهم. إنهم يخضعون من الآن للجزية، ويعملون لصالح معبدك... ومن أجلك نفدت كل توجيهاتك، وقلبك فرح بسبب كل ما فعلت. لقد أسندت إلى ملكى، أنت، يا سيد الزمن الأبدى وأقمتنى أمام التاسوع....

إن قلب جلالتي مشغول الآن بها... لقد فعلت ما لا يكفّ كاؤك عن الإشتياق إليه. لقد أصدرت الأوامر وفقاً لتوجيهاتك. وكم كانت كل أفعالى موفقة... ومن أجلى، جدّد انعاماتك، من أجل ابنتى ذات الكأاء المقتدرة، ملك (*) مصر العليا ومصر السفلى، (ابنتى) التى أحببتها والتى اتحدت بك، إنها أثيرة الآلهة. فليستعد هذا البلد الذى فى قبضتها إخضراره وامنحها سعادة سنوات ملك مديدة... كم هو جميل وطيب ما سبق أن صنعتته من أجلى، ليتك تسمعنى إذن وتنصت إلى النداء (الذى أعلنه) للمرة الأولى، فضلاً عن الأدعية التى أرفعها من أجل محبوبتى (٢٢).

هكذا يمكن أن يُقال أن عهد حتشپسوت كان قائماً على خدمات متبادلة بين الإله (آمون) والملك (تحوتمس الأول). فمقابل سلوك الملك الذى سارع على الدوام إلى تلبية الأوامر الإلهية كان ينبغى على آمون أن يستجيب لمطلبه.

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

إن عدداً من الوثائق ومنها جعران يحتفظ به متحف اللوفر يُظهر اسمى تحوتمس الأول وحتشپسوت، جنباً إلى جنب^(٢٣). ولكن ربما يعود إلى تاريخ لاحق لاستئثار الملكة بالحكم.

هل نحن أمام ملك وملكة قام أبوهما باختيار أحدهما ليخلفه؟ وفضلاً عن «معركة» الإلهين الأبويين، تضاف إليها معركة أصداء هاتف الوحي الإلهي.

لقد نُحتت مشاهد تتويج حتشپسوت على الكتل الحجرية للمقصورة المعروفة اصطلاحاً بالمقصورة الحمراء التي شيدتها الملكة لتكون استراحة لمركب آمون، فيما بين العامين ١٦ و١٧، من عهدا والتي أعيد استخدام عناصرها عند إقامة مبانٍ أخرى. فبعد أن أعلن الإله آمون الذي صُوِّرَ على رأس موكب إحتفالي طويل، ما يكشف عنه الوحي الإلهي لصالح حتشپسوت، نشاهد هذه الأخيرة خارجة من «إشراقات قصرها» مرتدية ملابس «زوجة الإله» لتنضم إلى الموكب الذي سيتوقف في معبد الكرنك، في عدد من الأماكن، في حين يستمر الإله في إعلان أقوال الوحي الإلهي، كشواهد متعددة على نهار «رائع مثير للإعجاب». ومع عودة حتشپسوت إلى قصرها تتربع على العرش الكبير. وعلى جبين الملكة تستقر الإلهة- الصلّ وارت حكاو أي «ذات المفاتن السحرية العظيمة». وبعد أن خلعت الملكة ملابسها بصفتها «زوجة الإله» ترتدي «زينة رع». وتتسلّم توجيهات آمون وتُشكره على اعتلائها عرش الملكة^(٢٤).

ما تقدم يعتبر التفسير الأسطوري الأول للسلطة التي استحوذت عليها ابنة تحوتمس الأول. ولكن تحوتمس الثالث أيضاً ينطلق من اختيار شخصي افصح عنه الإله.

وللبرهنة على شرعية حتشپسوت في الملك، يوجد تبرير أسطوري ثانٍ. إنه نص مسهب تصاحبه الصور. وقد نقش على جدران معبد الملكة الجنائزى في الدير البحري وعلى الرواق الغربي من الشرفة الثانية. تبدأ النقوش عند الطرف الجنوبي من الصُفّة وينتهي عند طرفها الشمالي. وإذا تسعى الكلمات والصور من خلال إزدواجية فاعليتها السحرية إلى إضفاء الواقعية على مسردها، فإنها تروى ولادة حتشپسوت بعد أن جامع آمون- رع الملكة أحمس، عندما اتخذ ملامح والدها.

لا يُقصد بذلك كما يقال أحياناً أنه نص «دعائي» - لأن هذه الكلمة لها دلالة ملتبسة في عصرنا، ولكن المقصود أسطورة حقيقية تعود إلى أصول موغلة في القدم، وإن اتخذت هنا شكلاً رسمياً بفضل بعض الكهنة المخلصين للكتهم، على ما يظن. إن موضوع الولادة الإلهية الذي يؤكد على الأصول الجسدية الإلهية للملوك، سبق صياغته في شكل حكاية شعبية^(٢٥)، بمناسبة ميلاد ملوك الأسرة الخامسة الثلاثة الأوائل، بصفتهم أبناء رع وامرأة أحد الكهنة. إنه موضوع شائع في الفكر القديم، ظل مزدهراً في مصر لفترة طويلة. وبعد مرور ألف سنة على هذه الأحداث وبعد أن كانت الولادة الإلهية قد صاحبت ميلاد ملوك آخرين، سوف يقدم كتاب كاليستانوس المنحول عرضاً يوضح فيه كيف أن نختانبو آخر ملوك مصر قد لجأ إلى بلاط پلا^(*) Pella وكان ساحراً عظيماً قد أخبر الملكة أولامپياس^(**) من خلال رؤيا رأتها في نومها، أنها ستحمل بابن من معاشرة الإله آمون لها. ومن المعتقد أن نختنبو ذاته قد قام بدور الإله، ومن اقترانهما ولد الإسكندر، ومن ثم استطاع أن يبرر تربيته على عرش الفراعنة، أسوة بما فعله البعض الآخر من قبله. ربما كانت هذه الحكاية الخرافية تستند إلى قصة روج لها الملوك المقدونيون في مصر، واستلهموها من تقاليد وطنية متواترة، سياسية وأدبية، موغلة في القدم.

أصبح نص الدير البحري موضوع عدد من الدراسات، ونذكر على سبيل المثال، دراسة عالم المصريات الألماني هلموت برونر^(٢٦) Hellmut Brunner الذي اعتقد منذ عهد قريب، أنه تعرّف على ستة عشر مشهداً متتالياً، جاءت من ثلاثة مصادر: رواية أسطورية وخطابات الآلهة وشذرات من طقوس دينية. أما فرانسوا دوما F.Daumas فيتحدث عن متتالية مسرحية، وهو على حق فيما ذهب إليه^(٢٧).

يبدو أن النصوص والصور، تعبّر عن ثلاثة مواضيع كبرى: ١) الحمل والولادة - ٢) القبول في عالم الخالدين - ٣) الملك الأرضي. ويعتقد إن كل موضوع من هذه المواضيع، أو كل فصل من هذه الفصول، ينقسم بدوره إلى عدد من المشاهد. بل وفي

(*) مدينة يونانية قديمة وعاصمة مقنونيا. (المترجم)

(**) والدة الإسكندر الأكبر. (المترجم)

وسعنا أن نتساءل - ولا سيما أن النص ذاته والصور نفسها قد صُوِّرت في معبد الأقصر لصالح أمنحوتب الثالث، ثم جزئياً من أجل وعمسيس الثانى، فى المعبد المكرس لوالدته الواقع شمال الرامسيوم - فى وسعنا إذن أن نتساءل إذا كنا لا نتعامل هنا مع «كراسة مسرحية» تضع على خشبة المسرح الآلهة والملوك، جنباً إلى جنب. إنه أشبه بالمسرح الدينى الذى عرفته القرون الوسطى فى الغرب والذى كانت تقدم عروضه بهدف معنوى من أجل الملوك، وهذا ما يمكن أن نفترضه على الأقل.

أولاً: الحمل والولادة

١ - المشورة الإلهية

يُبْلَغ آمون الآلهة بانجاب ملك جديد سوف يولد كثمرة لجماع إلهي:

هكذا تحدّث آمون إلى الآلهة بشأن ميراث رب القطرين. لقد اشتهيت رفيقة ومحبوبة الملك (تحوتمس الأول)، الملكة أحمس والدة ماعت كارع ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى.... سوف أكون حامى جسدها (فى فجوة سابقة فى النص، ربما وردت إشارة إلى «ثمرة» هذا الإقتران ألا وهى حتشپسوت). كنت منذ ذلك الوقت قد وهبتها كافة الأراضى المصرية وكافة الأراضى الأجنبية، وسوف تتولّى قيادة الأحياء أجمعين... من أجلها وحدت الأرضين فى سلام... سوف تشيّد معابدكم(٢٨)، وتجمّل مقاصير قدس أقداسكم فخمة... وتعمل من أجل دوام قرابينكم وحتى يعود الإخضرار إلى موائد قرابينكم، وفى زمنها سوف تأمر بتساقط الأنداء من السماء. أما أنتم فستعملون على تدفق أنهار نيل عظيمة(**) إليها، وتبسطون خلفها حمايتكم السحرية من حياة وقوة.

ووافقت الآلهة(٢٩). إنه التمهيد أو العرض العام «للمسرحية» التى سيرد فيما بعد وصف لمشاهدها، من خلال استرجاع الماضى.

(*) (هكذا فى الذكر. (المترجم)

(**) (أى مياه الفيضان الوفيرة. (المترجم)

٢- آمون وتحوت أو السيد وكاتم أسرارهم

(خطاب آمون مشوه إلى حد كبير)

كلمات قالها تحوت:

«هذه المرأة التي تحدثت عنها والتي تُدعى أحمس، جميلة بل وأجمل من سائر نساء هذا البلد بأسره. إنها زوجة العاهل الملكى عا خپر كا رع(*)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا إلى الأبد(٣٠)».

يقوم تحوت باصطحاب آمون إلى جوار الملكة أحمس بعد أن اتخذ هيئة الملك تحوتمس الأول.

٣- الاقتتران

يوضح نقش الصورة الإله والملكة جالسين وجها لوجه وقد تداخلت سيقانهم. آمون، هذا الإله النبيل، سيد عروش القطرين قد تحول ليتخذ هيئة صاحب الجلالة عا خپر كا رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى زوج الملكة. ووجد هذه الأخيرة بينما كانت تستريح فى بهاء قصرها. واستيقظت على رائحة الإله وابتسمت فى حضرة صاحب الجلالة. وفى الحال اقترب منها وهو يتحرق شوقاً وحمل إليه شهوته، وتصرف بحيث ترى هيئته كإله. وبعد أن دنا منها وبينما كان مسروراً لرؤية جمالها، إذا بحب آمون ينفذ إلى جسدها. وغمرتها رائحة الإله، التى جاءت جميع شذاه من بلاد بونت... وفعل معها جلالة آمون كل ما كان يشتهي. كما تصرفت هى بحيث يُسرّ بفضلها وعانقته.

كلمات قالتها أحمس الزوجة الملكية والأم الملكية فى حضرة جلالة آمون، هذا الإله النبيل، سيد عروش القطرين:

(*) لقب تحوتمس الأول. (المترجم)

«أيا سيدى كم هى عظيمة قدرتك، إنه أمر عزيز الشأن أن يُرى صدرك بعد أن اقترنت بجلالتى فى روعتك، بينما تنتشر أنداؤك فى مختلف أعضائى».

وبعد ذلك صنع جلالة هذا الإله معها - من جديد - كل ما كان يشتهيهِ، كلمات قالها آمون سيد عروش القطرين للملكة:

«حقاً، إن خمنت- إيمَن-حتشپسوت، هو الاسم الذى ستحملة هذه الفتاة التى وضعتها فى جسدك (وفقاً) لهذه الكلمات التى تفوهت بها. سوف تتولى هذه الوظيفة الملكية الجالبة للخير فى هذا البلد بأسره. بسالتى وقدراتى لها وقوتى لها وتاجى الكبير ملكاً لها، فتنسبد على القطرين وتقود الأحياء أجمعين... وصولاً إلى ما يحيط بالسماء... وسوف أتألق عليها. وتتحد الأرضان من أجلها، وفى كافة أسمائها، على عرش حورس الأحياء. سوف أؤمن حمايتها السحرية من خلفها، كل يوم، وبالتزامن مع الإله القائم فى قرصه (أى: «رع»)(٣١)».

٤- الإله خنوم، الصانع الرسمى الذى يشكّل جسد الطفل الإلهى

يطلب آمون من الإله الفخارى فى جزيرة إلفنتين أن يشكّل على دولا به جسد «الابنة المحبوبة التى أنجبها».

خنوم :

«سوف أشكّل ابنتك هذه، ماعت كارع. فعليها تتوقف الحياة والإزدهار والصحة والقرايين والأطعمة والمتعة والحب وكل ما لذ وطاب. سوف تكون هيئتها أروع من هيئة الآلهة بفضل منصبها المرموق بصفقتها ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى».

بينما كان خنوم يعمل على دولا به، كان يتحدث إلى الطفل الذى أخذ جسده يتشكل شيئاً فشيئاً. و«ترتطم» الكلمات بالغلاف الجسدى الذى ما زال مبهماً، شأنها شأن أعداد من المفاتن السحرية، فتختلط باللحم الذى يظهر إلى الوجود وقد أبدعته

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

الأنامل البارة للإله الصانع العظيم. والحقائق التي تعبر عنها سوف «يضمها ويدركها» إذن، جسد الطفل الإله ذاته. ولا يقتصر الأمر على مجرد أحاديث بل إننا أمام سحر خالق للحياة، إنه من صنع فخارى جليل فى سموه، فيمزج الصلصال البسيط بروائع الكلمة وأعاجيبها:

إنى أشكك أنت المنبثقة من جسد هذا الإله، رب الكرنك. لقد أتيت إليك لأخلقك أجمل من سائر الآلهة. إنى أعطيك كل الحياة وكل القوة وكل الثبات وكل فرح القلب، الآتية منى. إنى أعطيك كل الازدهار والأراضى المصرية، فى أن واحد. إنى أعطيك كل البلدان الأجنبية والشعب بأسره. إنى أعطيك كل قربان وكل طعام. إنى أعطيك أن تظهرى فى مجد عرش حورس، مثلك مثل رع. إنى أمنحك البقاء على رأس كائنات الأحياء أجمعين بعد ظهورك متألقة بصفتك ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى - كما أمر به أبوك آمون - رع الذى ما برح يحبك على الدوام^(٣٢).

هـ - البشارة من قبل الإله تحوت

[كلمات قالها تحوت رب الكلمات الإلهية]... إلى السيدة النبيلة، ابنة جب ووريثة أوزيريس، القائمة على رأس القطرين، وإلى مصر العليا ومصر السفلى، وإلى الأم الملكية أحمس:

«إن آمون رب عروش القطرين، فرح بمنصبك المرموق بصفتك السيدة النبيلة، ذات الجاذبية الآسرة والحظوة المرموقة والتي تشرف على الملذات، إنها غاية فى الرقة، والمحبوبة إلى أبعد الحدود. إنها ترى حورس وتتأمل ست^(٣٣)، إنها محبوبة الكباش (أى: «آمون») وتسعده... وتتحد بالإله حورس، فهى محبوبته التى يقال عنها، أن كل شيء يحدث من أجلها^(٣٤)».

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

الإله خنوم والإلهة حقات يرافقان الملكة إلى حجرة الولادة. وأمامهم تاسوع من الآلهة يتكون من ثلاثة صفوف يضم كل صف منها ثلاثة آلهة. ويؤكد الرقم تسعة على التعددية وأهمية العون الإلهي. ويصطحب آمون هذا التاسوع. وأمام إله الكرنك ربما كانت توجد مدونة من ثلاثة عشر سطرًا تشرح وقائع عملية الوضع ولكنها مهشمة في الوقت الراهن للأسف تهشيمًا بالغًا.

أما الصورة التالية فتُظهر الملكة جالسة على عرشها وهي تحتضن الطفل الحديث الولادة. وأمامها تقدم أربع آلهات - قابلات علامة الحياة إلى ابنة الإله، وخلفها أربع آلهات أخرى: ومن بينها صُورَت إيزيس ونفتيس وهما معاونتان ضروريتان لكافة أشكال الولادة وإعادة الولادة. وعلى اليمين تجلس مسخنت التي تشرف على عملية الوضع عملاً بتقليد قديم متواتر.

كلمات تقولها مسخنت:

«لقد نُصَّبَ الطفل بصفته ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى، سوف أؤمن على الدوام من خلفك حمايتك السحرية، على غرار رع. إنني أمنحك الحياة والقوة أكثر من أي كائن آخر. إنني أسند إليك الحياة والإزدهار والصحة - والفاعلية والشهرة والسعادة - والأطعمة والقرايين وكل ما هو طيب وجميل. ليتك تظهرين متألقة بصفتك ملك^(*) مصر العليا ومصر السفلى، إبان أعداد كبيرة من احتفالات اليوبيل - أنت الحية^(**) الثابتة في نوامها، القوية فتظل لذة القلب مع كائنك، في هذين القطرين اللذين تتسيد^(***) عليهما على عرش حورس للزمن اللانهائي^(٢٥)».

هكذا نجد أن الصفات الجسمانية والصفات المعنوية والروحية، وهي المصادر المتجددة للطاقة الحيوية، قد اكتسبتها الملكة منذ ولادتها.

(*) (هكذا في المذكر. (المترجم)

(**) (مؤنث حي. (المترجم)

(***) (هكذا في المذكر. (المترجم)

ومن اللافت للنظر أن خمسة من معاونين الرئيسيين الحاضرين هذه الولادة وهم خنوم، وحقات ومسخت، وإيزيس ونفتيس كانوا من القائمين بأدوار رئيسية فى وقائع ولادة ملوك الأسرة الخامسة الأوائل استناداً إلى رواية الحكاية الخرافية القديمة. وتعود فكرة الولادة الإلهية إلى تقاليد مصرية موغلة فى القدم قامت حتشپسوت بتطويرها وصبغها بطابع رسمى لتستمر ويكتب لها الدوام، بعد ذلك.

ثانياً: القبول فى عالم الخالدين

١ - تقديم الطفل إلى آمون

يتقدم هذا الإله الجليل لرؤية ابنته ومحبوبته، ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع، ليتها(**) تحيا، وذلك بعد أن ولدت فكان قلبه سعيداً، إلى أبعد الحدود. ومدّت حتحور ساعدها إلى صاحبة الجلالة (إذ كانت الإلهة - الأم تتولّى رعاية المولود الجديد) واحتضنت بقوة، الطفل الصغير (حرفياً: «فرخ البطة»).

آمون إلى حتحور:

«إنك تقدمين إلى ابنتى ذات السنوات العديدة، ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى الذى يقف على رأس الأحياء أجمعين، رب الزمن الأبدى وكافة الشهور. إنى أهبه كل حياة وكل قوة وكل صحة، من أجل حمايته السحرية».

آمون إلى الطفل:

«التحية لك يا ابنتى التى من جسدى، أيا ماعت كارع، الشكل المتألق المنبثق منى. سوف تكونين(**) ملكاً(*) وتستأثرين بالقطرين على عرش حورس مثل رع». عندئذ عانقها وضمها بين ساعديه واهتم بشئونها لأنه يحبها، أكثر من أى شىء آخر.

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

أمون إلى حتحور:

«لقد أعطيتها كل حياة وكل قوة وكل صحة نابعة مني».

أمون إلى الطفل:

«أهلاً ومرحباً، أهلاً ومرحباً، في سلام، أيا ابنتي التي تنتمي إلى جسدي، أيا محبوبتي ماعت كارع. سوف تكونين(*) ملكاً(**) وتستأثرين بالتاج على عرش حورس الأحياء، للزمن اللانهائي».

حتحور إلى الطفل:

لقد جعلك أبوك تشرقين متألفة على عرش حورس. إنني أمنحك إذن إلى جوارى كل حياة وكل قوة. إنني أمنحك كل ثبات. إنني أمنحك كل صحة. إنني أمنحك كل لذة القلب. كما أمنحك أيضاً الأراضي المصرية قاطبة والأراضي الأجنبية قاطبة، حتى يكون قلبك مسروراً، بينما تدبرين شئون الأحياء بأسرهم، متجلية على عرش حورس مثل رع للزمن الانهائي(٣٦)».

٢- الرضاعة الإلهية

وتقوم حتحورتان(***) برأس بقرة برعاية المولود. واثنان أخريان تتوليان إرضاعه هو وكائه. وعلى يمين النقش نشاهد اثني عشر كا سبق إرضاعها ويتم تسليمها للإله - النيل. هكذا فإن العناصر الخصبة للكون والسماء في هيئة حتحور زوجة الشمس(****) ووالدته(*****) والنهر الغدق- تروى ظمأ الصبي الصغير وتمد

(*) هكذا في المذكر. (المترجم)

(**) هكذا في المؤنث. (المترجم)

(***) مثني حتحور. (المترجم)

(****) مذكر في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(*****) التزمنا بالمذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

مصادر طاقته بالغذاء. وإذ أُطعم المولود الجديد بالسائل الإلهي ذي القيمة الروحية، فسوف تكون حياته شباباً أبدياً نشطة وخالدة^(٣٧). الأمر الذي سيحدث مع هيراقليس(*) الذي سترضعه هيرا(**) عندما تم تأليهه.

أمر آمون بإطعام صاحبة(***) الجلالة في آن واحد مع كائناتها، بكل حياة وبكل قوة، وبكل ثبات وبكل ازدهار وبكل سعادة، وأن تتحقق لها ملايين السنين على عرش حورس جميع الأحياء، للزمن اللانهائي.

(إن ترديد هذه العبارات مراراً وتكراراً ترديداً ضرورياً، بما لها من قيمة سحرية، يؤكد بلا كلل أو ملل على صفات الملكة ومناقبتها بفضل قوة الكلمات، فتخلقها على هذا النحو خلقاً).

جوقة الآلهة المرضعة:

«لقد حضرنا لنمارس حمايتنا السحرية فنعطى الحياة والثبات والقوة من خلفها، فضلاً عن حماية كائنها مثل رع، للزمن اللانهائي».

الحتحورتان اللتان ترضعانها:

سوف نُنشئك بصفتك ملك مصر العليا ومصر السفلى، لها(***) الحياة والنوام والقوة، ليكون قلبك سعيداً على عرش حورس، لتكوني على رأس الأحياء أجمعين وتدبرين شئون القطرين في سرور وتستأثرين بتاجي الجنوب والشمال، أنت القائمة على عرش أتوم – طبقاً لما أمر به سيد الآلهة^(٣٨)».

(*) من أبطال الميثولوجيا اليونانية ويطلق عليه اللاتين اسم هرقل. (المترجم)

(**) في الميثولوجيا اليونانية إلهة الزواج والأمومة. (المترجم)

(***) هكذا في المؤنث. (المؤلفة)

٢- تجديد المصائر

يبدأ بالإتحاد مع عالم الآلهة. وتتقدم بعض الآلهة الأخرى لتجدد الوعود السابق قطعها والتمنيات بمُلك يغالب الأيام ويمتدّ إلى أركان العالم. إنها الآلهة تحوت وأمون للمرة الثانية وأنوبيس وخنوم والإله - النيل.

٤- يشب الطفل ويترعّرع في حماية حتحور والآلهة

أ - صورة حتحور وهي لاتزال ترضع الطفل ويتعبّد لها تحوتمس الثالث (!).
كلمات تقولها حتحور البقرة الذائعة الصيت القادمة على رأس الآلهة جمعاء - إلى ماعت كارع، ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين:
«يا ابنتى، يا محبوبتى، يا ماعت كارع، أنا أمك التى خلقت جمالك، لقد أقمتك على عرش حورس (ورك) ملك الجنوب والشمال. إنى أمنحك السنوات التى تعود إلى الزمن الأبدى».

ب- البقرة المقدسة التى يسير العجل أيس فى أعقابها تلحق يد الطفل الذى شبّ وترعّرع.

عنوان المشهد:

معانقة الجسد الإلهى ولعقه والإتحاد بالملك، حياة وقوة.

هكذا يتم الإعلان عن المصير الإلهى والملكى للصبية وهو ما يؤكد أيضاً بمزيد من الوضوح الحديث الذى أفاضت به حتحور، سيدة لندرة، سيدة السماء وملكة الآلهة المقيمة فى معبد الدير البحرى:

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

«يا ابنتى المحبوبة ماعت كارع، لقد حضرت سعيدة بما تكئين نحوى من حب. أنا راضية عن هذا المبنى المقدم منك، عن مكان الراحة الكاملة هذا، الذى شيدته من أجلى.

(المقصود المقصورة التى كرس لها فى الدير البحرى والتى شيدت فى عهد حتشپسوت. إنه تزامن بين رواية فى الحاضر وواقعة سوف تحدث، فى المستقبل. إن حتحور تُطعم حتشپسوت وتشرف على تنشئتها. وعندما تصبح هذه الأخيرة ملكة سوف تأمر بإقامة مقصورة لهذه الإلهة. وهكذا يتداخل الزمانان: الماضى والحاضر).

«إنى قادمة من به، إنى ذاهبة إلى بى، إنى أتجول فى المستنقعات القائمة فى تخوم دروب حورس وأتوقف فى خميس^(٢٩) لتأمين حماية حورس. إن عطرى هو عطر شعب بونت وشذاك سيكون أزكى من شذا الآلهة. أيا ابنتى ماعت كارع التى تنتمى إلى جسدى، أيتها «الحورس المؤنثة» الذهبية، أنا والدتك ذات اللبن العذب، إنى أضع جلالتك من ثدى حتى يصبح هذا اللبن الذى ينفذ فىك حياة وقوة. إنى أعانقك، إنى ألعق جسدك بلسانى الرقيق الخارج من فمى. ليتك تولدين وتتجددين على مر الأيام، على يدى أبيك آمون الذى وضع تحت نعليك الأراضى قاطبة».

ومن الآن، أصبح مصير حتشپسوت هو مصير الآلهة ذاته. إنها أحد أوجه «مربيتها» حتحور ووالدها آمون. كما أن أپيس يوجه كلامه إلى الطفل-الإله ويقدم له مساهمته:

كلمات يقولها أپيس الثور الجميل الذى يسافد إناثه:

«لقد حضرت لحماية ابنتى المحبوبة... ماعت كارع ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى. فلتقدم لها قطعان أكثر المستنقعات بعداً، فلتتكاثر من أجلها المواشى، هى التى أنجبت من أجل حسات (اسم بقرة مقدسة)».

ج - إذا كان حتحور وأپيس يشكلان هنا قرينين، فإن مشهداً آخر هو بمثابة

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

«مقابله»، إذ يضع حتحور وأنوبيس معاً. وتتنطق حتحور بكلمات مشابهة لما قالتها في المشهد السابق. في حين يساهم أنوبيس، مثله مثل الآلهة الأخرى في تربية الصبية:

«أيا ابنتى ماعت كارع إنى قادمة إلى جوارك. إنى أعظمك فى منصبك المرموق بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى. إنى اضع حب الآخرين لك، فى قلب كل الناس... ليت قلبك يكون سعيداً مع كائك على عرش حورس الأحياء أجمعين، للزمن اللانهائى(٤٠)».

إن أيبس هو رمز سخاء الحياة الخصبة الخلاقة.

إن أنوبيس هو رمز الحياة المحمية حماية سحرية، إلى أبد الآباد.

إن حتحور تتجدد إلى الأبد، مثل السماء والشمس.

إننا فى عالم من التوافقات الروحية التى تسعى إلى الفعاليات الناجعة على أكمل وجه، فتضمن الخلود للملكة المستقبل التى أنجبته الآلهة وأطعمتها ونشأتها.

٥- التطهر من قبل آمون و رع حور أختى

يصب الإلهان الماء المقدس على الطفل.

«كونى طاهرة، أنت وكاؤك، ومقدسة فى عظمتك كملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، أيتها المفعة بالحياة».

• آمون: كلمات تقال أربع مرات (ويُنطق بها على الأرجح بالاستدارة على التوالى نحو الجهات الرئيسية الأربع، وفقاً للطقس الدينى الشمسى فى المقام الأول).

«كونى طاهرة، كونى طاهرة، أيا ماعت كارع المنتمية إلى جسدى. إنى امنحك الإحتفال بملايين الأعياد اليوبيلية، بأعداد لا حصر لها، بصفتك ملك(*) الأرضين ورب(*) الأحياء».

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

● رع - حور أختي: كلمات تُقال أربع مرات:

«كونى طاهرة، كوني طاهرة، أيا ماعت كارع، يا محبوبتى. إنى أعطيك الإستئثار بالقطرين بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى وأعطيك الإشراقات المتألقة على عرش حورس وقيادة الأحياء أجمعين، كما أمر به والدك آمون - رع الذى ما برح يحبك(٤١)».

هكذا فإن الإلهين الشمسيين يُبلغان الكون فى جهاته الرئيسية الأربع، بطهارة الطفل المقدسة وتولى الملك فى المستقبل.

٦. آمون يتولى تقديم حتشپسوت إلى كافة آلهة مصر

آمون جالس على عرشه يحتضن الطفل وأمامه تقف ستة آلهة: تمثل ثلاثة منها، «جميع آلهة الجنوب» والثلاثة الأخرى «جميع آلهة الشمال». كان الرقم ثلاثة يدل فى مصر القديمة على الجمع، وإن كان يشير أيضاً إلى التعددية اللانهائية.

يتقدم آمون لمشاهدتها واحتضانها. ثم يتصرف بحيث يتأملها جميع آلهة مصر العليا ومصر السفلى. كلمات يقولها آمون - رع سيد السماء وملك الآلهة:

«شاهدوا ابنتى خنمت - إن - حتشپسوت، ليتها تحيا. أحببها، ظللوا عليها!»

كلمات قالتها جماعة الآلهة إلى آمون:

هذه الفتاة خنمت - إمن - حتشپسوت وهى لك، ليتها تحيا! سنظللها فى الحياة وفى السلام. أجل إنها ابنتك، إنها صورتك التى انجبتها ووفرت لها كل شىء. لقد وهبتها بسالتك وقدرتك وقوتك وسلطاتك السحرية وتاجك العظيم. إنها من نرية جسدك. الأراضى المصرية تابعة لها والبلدان الأجنبية ملك لها، فضلاً عن كل ما تشمله سيدة السماء (حتحور) وتغطيه وما تحيط به الشديدة الإخضرار. لقد خلقتها

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

على صورتك، أنت العارف بالزمن الذى لا حدود له. لقد وهبتها نصيب حورس حياةً وسنوات ست قوة... سوف نمنحها كل حياة وكل قوة ونوفرهما لها، وكل صحة وكل سعادة القلب اللتين نقدمهما، وكل أنواع القرابين والأطعمة التى نعطيها. سوف تبقى مع كائنها على رأس كائنات الأحياء، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى على عرش حورس مثل رع للزمن اللانهائى^(٤٢)».

إن العلاقة الحميمة التى ربطت ابنة «ملك الالهة» بآلهة مصر، هى بمثابة المقدمة الضرورية التى مهدت لتتويجها الأسطورى. ومع خروجها من دائرة الخالدين أصبحت تدبر بالحق الإلهى شئون البشر.

ثالثاً: الملك الأرضى

١- الهالة الإلهية. الرحلة وتسلم السلطة السياسية

الفتاة الجميلة حتشيسوت بقدها المشوق، تصاحب أباهما فى رحلة على صفحة نهر النيل، بينما تستقبلها الآلهة فرحة مهللة.

أرادت صاحبة(*) الجلالة أن ترى كل شىء بنفسها. وبإحدى ذى بدء، تحدثت إلى الشعب الذى استمع إليها وخرّ ساجداً بسبب هيبتها. وبالفعل فقد أصبحت جلالتها ممشوقة القوام وجميلة المظهر، وأكثر من أى شىء آخر. كانت وقارتها إلهية، وهيئتها هيئة إله(**)، وإلهها(**) فى كافة تصرفاتها، ونورانية مثل إله(**). هكذا فكما كبرت صاحبة الجلالة كانت تتحول إلى صبية جميلة وناضرة وإلى واجت فى أفضل أحوالها. وتقدم مظاهر التبجيل لهيئتها الإلهية لسعادة من خلقها. كان ساعدها قوياً ومنذ ذلك الحين كان فى إمكانها إقامة الشعائر.

رحلت صاحبة الجلالة إلى مصر السفلى (فنحن فى طيبة) فى صحبة والداها عاخيركارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا إلى الأبد! عندئذ جاءت

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

والدتها حتحور التى على رأس طيبة، وواجت مدينة بى، وأمون رب عروش القطرين،
وأتوم سيد هليوبوليس، ومونتو سيد طيبة، وخنوم سيد المياه الرطبة، وكافة الآلهة
المقيمة فى طيبة وكافة آلهة مصر العليا ومصر السفلى.

(وعلى امتداد المسار النهري للمركب الملكى، يتم إخراج تماثيل الآلهة لاستقبال
تحوتمس الأول وابنته).

كانت (الآلهة) تُجزل لها المديح وتجوب الدروب الجميلة من أجلها. وعند قدومها
تحضر معها كل حياة وكل قوة وتبسط من خلفها حمايتها السحرية. فيأتى أحدها تلو
الآخر، وهكذا تقضى خلفها سحابة كل يوم. وكانت (الآلهة) تقول:

«مرحباً! مرحباً! أيا ابنة آمون! فبعد تفقد عناصر حكومتك فى ربوع البلاد، ها
أنت تعيدى إرساء أسسها الجهرية، وترممين كل ما كان قد تهدم وتشيدى البنايات
الصرحية فى المعابد وتزودى بالأطعمة، موائد قرابين من أنجبك.
(هنا أيضاً تتداخل الأزمنة فى هذه الرواية الأسطورية).

إنك تجوبى الأراضى المصرية وتوقعين فى الأشرار البلدان الأجنبية، بأعدادها
التي لا حصر لها. إنك المنتصرة وسط الثحنو. وتضربى النوبيين بساعد قوى،
بواسطة مقمعتك البيضاء وتبيدين قادة الجيوش وتأسرين زعماء بلد ريتنو، بعد أن
أنهكوا من جراء المذبحة التى ائخذها والدك. وقوائم الجزية التى جلبتها تعدّ بملايين
البشر، إنها غنيمة بسالتك. وتوجهين الآلاف منهم للعمل بمعابد المدن. إنك تكرسين
قرباناً عظيماً فى الكرنك، فى سلّم آمون، ملك الآلهة ورب عروش القطرين.

ومكافأة لك، تمنحك الآلهة السنوات، وتمنحك حياة وقوة، إنها تتمدحك، لأن
قلبها وهب الحكمة للبيضة التى شككتها. وترسم الحدود بعيداً جداً، بقدر عرض
السماء وحتى تخوم الظلمات التى تتحد مع الليل. وتمتلى الأرضين بأولاد أولادك، لأن
كمية بذرتك وفيرة. وباعك فى قلب شعبك، سوف يعمل عملاً خلاقاً، أنت يا ابنة
ثور - أمه التى ما برحت تحبها الآلهة^(٤٣)».

٢- التتويج الأسطوري

أ. تمثل الملكة الشابة في صحبة حتحور بين يدي أتوم وخنوم وغيرهما من الآلهة التي سوف تسلمها التيجان كرموز ملكها الأرضي، فضلاً عن المواهب التقليدية.

● (كلمات يقولها) أتوم رب الأرضين، الهليوبوليتاني القائم على رأس التاسوع، رب المعبد: «إني أعطيك سنوات حورس والزمن الأبدى ونصيب حورس وست، حياة وقوة. سوف تدبرين شئون الأراضي المصرية، في حين تعمل البلدان الأجنبية وتكونين حية(*) مثل رع».

● (كلمات يقولها) خنوم رب السماء:

«إني أعطيك كل حياة وكل قوة وكل ثبات وكل صحة، نابعة مني. إني أعطيك ميراث جب ووظيفة أتوم. إني أعطيك سنوات الربين (حورس وست) في متعة القلب. إني أمنحك إدارة الأراضي المصرية القاطبة وكل البلدان الأجنبية».

إن كيائنا إلهياً يُدَوّن هذه المواهب.

عندئذ حضرت نخبت و واجت وقد أمسكتا في يديهما بالتاجين. وتقولان: «إننا نضع من أجلها التاجين على رأسها، حتى تمتلك الأرضين بفضلهما...» عندئذ ترفعهما الملكة وتظل سعادتها على عرش حورس للزمن اللانهائي. وتضعهما أمامها وتستأثر بالتاجين: الأبيض والأحمر، وتتحد بهما».

عندئذ تُدَوّن أسماء العاهلة الملكية، من قبل الإله تحوت وقرينته الإلهة سيشات.

ب- وتتكرر مثل هذه الإحتفالية في حضرة آمون. وتقف الملكة أمام آمون الجالس على عرش، وقد ارتدت الزى الملكي وتضع الپشنث على رأسها. وصورت خلف الملكة باو مدن مصر الرئيسية أو ربما أرواح الملوك الموتى والمؤلهين^(٤٤) الذين يربطون الملكة الشابة بسلالة الأسرة الحاكمة. كما يُدَوّن تحوت وسيشات للمرة الثانية قائمة الألقاب الملكية.

(*) مونت حى. (المترجم)

إنهما مشهدان توأمان يتصدرهما من ناحية الإلهان الكبيران الخالقان فى الشمال وفى الجنوب وهما أتوم وخنوم والإلهتان الحاميتان للنظام الملكى المصرى. ومن ناحية أخرى يقف على رأسهما آمون الطيبى(*)، سيد مجمع الآلهة. هكذا تعترف آلهة عواصم أقاليم مصر بالنظام الملكى الجديد.

٣- التتويج الدنيوى

إننا الآن على ما يعتقد فى القصر الملكى. ولكن من غير المستبعد أن وقائع المشهد تدور فى الحقيقة فى الدير البحرى، وهو ما قد يدل عليه بعض العبارات. فتُظهر الصورة تحوتمس الأول جالساً على عرشه على يسار المشهد واضعاً يده على كتف ابنته حتشپسوت وساعدها الأيمن، فى حين أنها ترتدى نقبة الرجال. وعلى اليمين نشاهد ثلاثة صفوف من رجال البلاط.

ويراها جلالة أبيها، هذا الحورس. كم هو إلهى هذا الذى خلقها، وعلى قدر كبير من البسالة. إن ذهنها ثاقب وتاجها عال. إنها تزن أقوالها وفقاً للحقيقة والعدالة. إن مركزها الملكى رفيع من جراء ما يفعله كاؤها. والأحياء قائمون فى فجوة ساعديها... وقال لها جلالتها:

«تعالى أيتها النورانية التى ضمنتها (فى الماضى)، حتى تتمكنى من رؤية حكومتك فى القصر وأفعال كائناتك المرموقة، وحتى تتمكنى من تسلّم منصبك الملكى، أنت الذائعة الصيت بقدراتك السحرية، القوية بفضل بسالتك، أنت المتسيّدة على القطرين. سوف تمسكين بالرجال ذوى القلب الخسيس (أعداء حتشپسوت؟) وتظهرين متألقة فى قصرك ورأسك يزينه الپشنفت الذى سيستقر على هذا النحو فوق رأس وريثة حورس التى أنجبته، أنت ابنة التاج الأبيض ومحبوبة واجت. سوف تُمنحين التيجان من قبل من يقف على رأس العروش الإلهية».

وتصرف جلالتي الآن، بحيث يدخل نبلاء الملك وكبراء الدولة والأصدقاء ورجال

(*) نسبة إلى مدينة طيبة. (المترجم)

البلاط وزعماء الرخيت، ليلبغهم أمراً يتعلق بإقامة جلالة ابنته حورس، أمامه فى قصره. عندئذ جلس الملك شخصياً فى قاعة الإستقبال الرسمية المخصصة «للكهنة الجنائزين»^(٤٥) (قد تعزز هذه العبارة الرأى القائل بأن وقائع هذا المشهد تحدث فى الدير البحرى؟). وبينما خرّ جميع الحاضرين سَجْداً «فى القصر»^(٤٦)، قال لهم صاحب الجلالة:

«إن ابنتى هذه، خنمت- إمن- حتشيسوت، ليتهأ تحيا! إنى أقيمها مكانى على عرشى، فسوف تتربّع بكل تأكيد على أريكة الأعاجيب هذه. سوف تُصدر أوامرها إلى الشعب فى أرجاء القصر الملكى وسوف تقودكم، وتنصتون إلى أقوالها وتتخذون مع أوامرها. من يعبدها سوف يحيا، ولكن من يقول عنها أقوالاً مسيئة مجدفاً ضد صاحبة الجلالة^(*)، سوف يموت. أما كل من يطيعها «بقلب واحد» باسم جلالتهأ، عندئذ وبصفة مؤكدة، سوف يذهب فى الحال إلى الحجرة المخصصة لخصاء الملك^(**) المقربين، مثلما كان يُستقبل فيها، من سبق أن عمل من أجلى. لأنك إلهية بالطبع، يا ابنة الإله، فمن أجلها تقاتل الآلهة فى واقع الأمر. إنها تبسط قوتها السحرية من خلفها على مرّ الأيام، وفقاً للأمر الصادر عن أبيها، سيد الآلهة».

سمع نبلاء وكبراء الدولة وزعماء الرخيت هذا الأمر الذى يرمى إلى الإرتقاء إلى مكانة مرموقة، بابنته ماعت كارع، ملك^(**) مصر العليا ومصر السفلى، ليته^(*) يحيا إلى أبد الآباد! عندئذ خرّوا ساجدين عند قدميها، إذ «سقطت» الكلمة الملكية هكذا، وسطهم. ثم عبدوا الآلهة جمعاء، من أجل ماعت كارع، ملك^(**) مصر العليا ومصر السفلى، ليته^(*) يحيا إلى أبد الآباد! وخرجوا أخيراً، بكلمات سعيدة وكانوا يرقصون ويصلّون. وجميع الرخيت القاطنين فى المقر الملكى سمعوا ذلك. كما جاعوا بالكلمات السعيدة ذاتها، رافعين أدعية، بلا حدود. وانفتحت جميع قاعات المقر الملكى عند النطق باسمها. وجميع الجنود يهللون ويرقصون من شدة الإبتهاج ويعلنون على الملأ اسم صاحبة الجلالة الملكة، وإن كانت لا تزال فتاة صغيرة. ولكن الإله العظيم كان يحرك

(*) فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى الذكر. (المترجم)

قلوبهم نحو ابنته ماعت كارع، ليتها تحيا إلى أبد الآباد! هكذا عرفوا أن آمون هو والد هذه الطفلة الإلهية وساهموا بكل تأكيد في إظهار مجدها على أكمل وجه. وكل إنسان، كائنًا من كان، يحبها في قلبه بلا انقطاع ويعبدها على مر الأيام، سوف يبقى متألقًا ومزدهرًا إلى أبعد الحدود. ولكن كل إنسان، كائنًا من كان، سيتفوه بالسوء ضد اسم صاحبة الجلالة، سيفنيه الله في الحال، والآلهة التي تؤمن حمايتها السحرية على مر الأيام، سوف تتصرف على النحو ذاته.

كان جلالة أبيها قد استمع إلى كل ذلك. (ومن ثم استقبلت) جماهير الشعب في توافق تام اسم ابنته بصفته الاسم الملكي (الجديد). أجل إن صاحبة الجلالة(*) كانت لا تزال صبية، ولكن قلب الملك كان يميل إليها، إلى أبعد الحدود.

عندئذ أمر صاحب الجلالة باحضار الكهنة المرتلين من أجل إعلان أسمائها(*) العظيمة التي تتحكم في استئثارها بمنصبها الملكي بصفتها ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، وأن تدون في الوقت نفسه، على جميع المباني وعلى جميع أختام «تلك التي توحد الأرضين والتي تُسم الرقض- حول- الجدار»^(٤٦). وجميع الآلهة التابعة لاتحاد الأرضين (مصر) قد تزينت. كان الملك يعرف أنه من المناسب الإحتفال بهذا التتويج في رأس السنة، قبل السنوات المسالة لتلك التي ستقوم بالاحتفال بملايين أعياد اليوبيل المهيبة التي لا تعد ولا تحصى. عندئذ، أعلنت أَسْمَاؤُهَا (على الملأ)، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى. وتصرف الإله بحيث يُستدعى في قلوبهم جميع الأسماء التي سبق له أن حددها شخصيًا. (يلى ذلك سرد لقائمة الألقاب^(٤٧)).

ورغم أن الصور باللغة التشوّه، فإن ما بقى منها يدفعنا مع ذلك، إلى الظن أن الملكة كانت تؤم بنفسها مختلف الاحتفالات الطقسية التي سبق الإشارة إليها.

(*) (هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) (هكذا فى الذكر. (المترجم)

٤- الحفل الختامى لتكريس تتويج الملك

وبعد ذلك يقوم الكاهن يون مَوتَف(*) باصطحاب حتشيسوت إلى الـ«پر-ور»^(٤٨) حيث تقام للمرة الثانية شعائر التطهر. ويصب عليها الكاهن الماء وعلامات الحياة من إبريق على هيئة صليب بعروة. والإله حا-البُحيرة الذى كان يُعبد فى الفيوم وغرب الدلتا- يكرر العملية:

إنى أطهرُك بهذا الماء المفعم بالحياة والقوة، وسيد كل ثبات وكل صحة (وكل) فرح. ليتك تحتفلين بأعياد يوبيلية عظيمة لا حصر لها، مثل رع، للزمن اللانهائى^(٤٩).

هذا الماء هو خليط امتزج فيه السائل بالكلمات.

عندئذ يصطحبها حورس الإدفوى لتتويجها مرة أخرى وأخيرة، مدعماً سيادتها وسلطانها بشكل قاطع وللمرة الثالثة.

إن حورس وست وهما «الراعيان الحاميان» للنظام الملكى منذ القدم، يقومان آنذاك بتسليمها التاجين على دفعتين.

● ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك^(**) مصر العليا يظل ثابتاً، فتنجلين متألقة^(***) على عرش حورس وتقومين بقيادة الأحياء أجمعين مثل رع، للزمن اللانهائى^(٥٠).

تظهر حتشيسوت أمام قصرها مرتديةً تاج الجنوب الأبيض تتقدمها خمسة بيارق.

● ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك^(**) مصر السفلى يظل ثابتاً، فتنجلين متألقة^(***) على عرش حورس^(٥١).

ظهور جديد للملكة، يشبه الظهور السابق، ولكنها تضع على رأسها هذه المرة التاج الأحمر.

(*) أى «عمود-أمه» من أسماء حورس. (المؤلفة)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(***) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

إن حتشيسوت فى نظر الآلهة والملك والبشر وفى حضرتهم، هى ملكة مصر.

يا لها من دراما طقسية مهيبة. إنه اخراج مسرحى ضخم جرى صياغته بطبيعة الحال بعد أن استأثرت الملكة الطموحة بالسلطة فى ظروف مازلنا، فى الحقيقة، نجهل كل أبعادها، ولا يعتبر هذا العمل كما يقال فى كثير من الأحيان «دعاية رخيصة». إن هذا الفكر يكشف عن فكر حى، بالإضافة إلى أن تنسيق وقائعه ومشاهده وترابطها، تعود فى مجملها إلى تراث روحى عرفته مصر منذ أقدم العصور. والشئ المؤكد أن حتشيسوت قد أحاطت نفسها بأصدقاء أقوياء أوفياء توصلوا إلى صياغة مجموعة شعائر دينية مستوحاة من تقاليد دينية وأدبية، هدفها تبرير إقدام الملكة على إغتصاب عرش مصر.

هذا النص الذى وُضع خصيصاً من أجل حتشيسوت، وفى ظروف محددة سيصبح نموذجاً سوف يعود ملوك العهود اللاحقة إلى «نسخه من جديد».

ومن غير المستبعد، وإن كنا نفتقر إلى دليل قاطع، أن الإقرار بالوهية الملوك ألوهية جسدية وتكريس تتويجهم كانا، على هذا النحو، موضوع لتساوير مهيبة يتم تمثيلها تمثيلاً إيمانياً. ويعتبر النص الذى عرضنا له أول مثال حقيقى. إن نشاط الملكة لا يعتبر سياسياً بقدر ما هو دينياً. إنه يقدم إسهاماً عظيم الأهمية للأسطورة الملكية بمختلف مقوماتها، ولكن منذ الآن بات يلوح فى الأفق خطر بالغ الأثر. فهل سيستطيع كهنة آمون أن يتحكموا فى اختيار وريث العرش، اعتماداً على كشف مغاليق الوحي وعلى الأسرار الدينية؟

تظهر مع حتشيسوت صورة متجددة للعاهل الملكى المصرى، صارت مصدر نظرية فى الملك، ستظل فى جانب منها، النظرية السائدة عند الرعامسة، بعد أن شهدت تطورات ملحوظة، على أيدي ملوك الأسرة الثامنة عشرة الآخرين.

فيتمتع الملك منذ ولادته وبإصرار، بصفات جسمانية ومعنوية: ومنها الجمال. إذ نقرأ فى مدونة فى سبيوس أرتميدوس^(*) *Speos Artémidos* جنوب بنى حسن بمصر الوسطى العبارة التالية: «أنت جميلة وجميلة الجميلات»^(٥٢). كما توصف بالقوة

(*) إسطنبول عنتر حالياً. (المترجم)

والعظمة والمجد والصحة والبهجة. إن الملك هو سيد الزمان والمكان إلى مالا نهاية. إن حتشيسوت بصفتها ملكة الكون هي «سيدة كل ما تحيط به العين العليا»^(٥٣) أى الشمس، وفقاً للصورة القديمة للسماء - الصقر الذى كانت عيناه تمثلان الأزهران أى الشمس والقمر. وطيبة مركز هذا الكون^(*). ففى سياق مدونة سيبوس أرتيميدوس نفسها، تقول حتشيسوت: «لم أعطِ ظهري لمدينة سيد العالم ولكن وأيت وجهى شطرها»^(٥٤). ومن هذه المدونة أيضاً ننقل هذه الصورة عن نظام ملكى يغالب الأيام ويقاوم الزمن:

راسخة هي قائمة ألقابى، مثل الجبال. وعندما يسطع قرص الشمس، فإن أشعته تلامسها. إن حورسى عالٍ فوق السرخ للزمن اللانهائى^(٥٥).

وتؤكد النصوص بشكل أكثر وضوحاً على العلاقة المتزايدة بل والجسدية، على الاتحاد اللصيق القائم بين الآلهة والملوك. إن حتشيسوت هي «بذرة النور»، إنها «أعضاء الإله». ونسجل من مدونة سيبوس أرتيميدوس هذه الجملة التى قد تعبر عن سورة العاطفة العشقية: إن ابتلاع أندائه هو خبزى. إنى أحياء من أعضائه، فأنا وهو واحد^(٥٦).

الملكة والملك

ترى ماذا حدث للملك الشاب تحوتمس الثالث بعد العام السابع؟ وما هي الدسائس الخطيرة التى دفعت من سيصبح الإمبراطور العظيم إلى الرضوخ مؤقتاً وقبوله القيام بدور ثانوى؟ لا نعلم شيئاً. ولكنه حاضر فى المشاهد الدينية والسياسية وغيرها.

وكما رأينا^(٥٧) فى الدير البحرى، فإن صورة حتحور وهى ترضع حتشيسوت يعبدها تحوتمس الثالث. وبطبيعة الحال فقد كانت لفته من جانب أتباع الملكة تنم عن سياسة حكيمة.

وفى نقش يحتفظ به متحف القاهرة، صورَ مركب آمون المقدس فى إطار موكب إحتفالى، وعند بداية رحلته، نرى تحوتمس الثالث يؤدى شعيرة إطلاق البخور. أما فى

(*) فى نظر اليهود، أورشليم القدس، هى مركز الكون! (المترجم)

المحطة الثالثة، فإن حتشپسوت هى التى تقدّم القريان. وعند ابجار المركب على صفحة النهر فإن تحوتمس الثالث هو الذى يقوده بالمجداف، فى حين تقف حتشپسوت أمام الناوس الذى يضمّ التمثال الإلهى^(٥٨).

وفى بعض الأحوال تحتفظ معابد النوبة بدليل وجود الملكة والملك. ففى بوهن^(٥٩) دون نسان تكريسيان:

● النص الأول داخل الباب الأول:

لقد شَيّد هذا المبنى من أجل أبيه حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل.

● والثانى على أحد أبواب القاعة الثانية:

لقد شَيّدَت هذا المبنى من أجل أبيها حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل^(٦٠).

هل كانتا مدونتين تكريسييتين متعاقبتين؟ من الممكن. ولكن توجد مشاهد يظهران فيها معاً، جنباً إلى جنب.

ففى معبد سمّة^(*) حيث كان يعبد أيضاً الملك سنوسرت الثالث، تقف الإلهة ساتيس – إلهة إلفنتين – والإله ديون النوبى، أمام الملكين الذين يرتبط كلاهما فى سياق المدونة بسلالة الأسرة الحاكمة:

● حديث موجه إلى ساتيس:

إن ابنتك ومحبتك [ماعت كارع] ورثتك المفعمة بالخير وزوجة الإله والزوجة الملكية العظيمة المنبثقة منك، قد أطعمتها من لبنك. إنها ابنتك المنتسبة إلى جسدك. لقد شَيّدَت من أجلك مبنى، تعبيراً عن شكرها لك.

(*) جنوب الجندل الثانى. (المترجم)

● كلمات قالها ديون القائم على رأس النوبة:

يا بنى، يا محبوبى من خير رع كم هو جميل هذا المبنى الكامل الذى شيدته
من أجل ابنى المحبوب، ملك مصر العليا ومصر السفلى خع كا ورع(*) . ومن الآن
سيبقى اسمه مزدهراً، للزمن الأبدى(٦١).

ونلتقى فى معبد قمنة بالتواؤم ذاته بين الآلهة والعاملين الملكيين:

● يتحدث خنوم إلى حتشپسوت:

يا ابنتى، يا محبوبتى... فى الثناء والمديح لهذا المعبد الجميل الذى يقاوم
الزمن، وشيدته من أجلى.

● تحوّر تتحدث إلى تحوتمس الثالث:

مرحباً، مرحباً، فى سلام... ملك مصر العليا ومصر السفلى من خير رع. إن
قلبى سعيد عندما أتأمل كمالك. كم هو راضٍ والدك خنوم بسبب هذا المبنى(٦٢).

كما يلتقى «الصنوان» الملكيان بمناسبة العيد اليوبيلى. وهكذا فعلى أحد أعمدة
الشرفة الثانية بالدير البحرى...

● ... صورت حتشپسوت أمام آمون:

الإحتفال الأول بالعيد - سد ليتها تؤدى منه أعداداً لا حصر لها!

● كما صور تحوتمس الثالث أمام رب الكرنك:

الإحتفال الأول بالعيد - سد. ليتة يؤدى منه أعداداً لا حصر لها!(٦٣)

وفى الدير البحرى أيضاً يقف أنوبيس أمام الملكين ويتحدث إلى حتشپسوت
قائلاً:

إنى أجدد من أجلك الإحتفال بالأعياد - سد بعظمتها وأعدادها الكثيرة.

(*) سنوسرت الثالث. (المؤلفة)

فى حين تتحدث حتحور إلى تحوتمس الثالث قائلة:

إنى أجدد من أجلك الأعياد- سد(٦٤).

ونصل إلى هذه الصيغة الغريبة للعبارات المنقوشة على تمثال «الابن الملكى(*)»، قائد حاملى الأقواس: إينينى. وربما كانت هذه العبارات تستعيد الموقف الملتبس حتى فى أذهان الأشخاص الذين عاشوا إبان هذا العصر:

أداء المديح والثناء من أجل ماعت كارع، الإلهة الكاملة وسيدة القطرين، بالتزامن مع تبجيل الإله الكامل من خير كارع، سيد إقامة الشعائر... حتى يقدمنا القرايين التى تخرج (إلى الوجود) عند النطق بها... (٦٥)

إن ألقاب الملك الأساسية المصاحبة لصفة «الإله الكامل» التقليدية موزعة توزيعاً حصيفاً ودقيقاً على الملكين وقد اتحدا معاً من خلال الإجلال والإحترام ذاتهما.

إن نحسى المنحدر من أصول نوبية، كما هو واضح من اسمه، والمشرف العام على الخزانة قد أمر بنقش أسماء الملكة والملك على ساكف باب مدخل مقبرته التذكارية فى جبل السلسلة.

ويبدو أن تحوتمس الثالث قد خرج فى العام ١٦، على رأس حملة عسكرية إلى وادى المغارة فى شبه جزيرة سيناء. إن اللوح الحجرى الذى يخلد ذكراها والذى أقامه خرواف أحد قواده يعبر عن «الحرج» ذاته. ففي الجزء المقوس فى أعلى اللوح نشاهد حتشپسوت وتحوتمس الثالث وهما يقدمان قرباناً إلى الإله سوبتو والإلهة حتحور. ويوضح المتن ما يلى:

العام ١٦، من عهد جلالة ماعت كارع ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى محبوب(**) الإله سوبتو، رب الشرق.

الإله الكامل من خير رع، محبوب حتحور، سيدة الفيروز.

(*) (إنه مجرد لقب شرفى. (المؤلفة)

(**) (هكذا فى الذكر. (المترجم)

وتؤكد المدونة ذاتها على الآتى:

كان الملك على رأس جيشه ليطأ بقدميه وديان خفية ويملا قلب الحورس القائم فى القصر بأن يجلب لصاحب الجلالة.... [باقى النص مهشم] (٦٦).

إن تحوتمس الثالث الذى ظلت صفته الملكية مؤكدة، جنبا إلى جنب، مع الوضع ذاته للملكة، ربما ظل يقوم آنذاك بدور قائد الجيش؟ ولا شك أنه كان عاجزا فى هذه الفترة وظل ينتظر لحظة تسلمه مقاليد السلطة. فهل كان الجيش مجالاً مناسباً له، ليساعده على استعادة عرش أجداده فيما بعد؟ وكما سيتأكد لنا سيصبح قائداً صنديداً وأكثر القواد بسالة وإقداماً فى التاريخ. ومن المحتمل أن رجال الجيش كانوا من المؤيدين المخلصين له.

ولكن زمرة عريضة كانت تلتف حول حتشپسوت وتضم رجال البلاط الذين أسندت إليهم كبرى مناصب الدولة وكان وجودهم يفسر العجز المؤقت للملك الشاب.

كما أن إلتباساً آخر يضيف فى نظرنا، عدم اليقين على هذا العصر، وينبع من «الطبيعة» ذاتها للملكة. أكانت ملكاً أم ملكة؟ فكما لاحظنا، كانت النصوص تشير إليها تارة، فى صيغة المذكر أو فى صيغة المؤنث، تارة أخرى. كما يكشف فن صناعة تماثيلها عن «عدم اليقين» ذاته، عند تشكيل ملامحها الجسمانية: وجه نحيف وجسد شبابى يرتدى نقبة ملكية أو فستان بحمالتين كما شاع استخدامه عند النساء، وبصدر قوى العضلات أو بثديين مستديرتين، وعلى الرأس التيجان التقليدية أو غطاء رأس حتحورى، بخصلات مقصبة كما فى تمثال أبو الهول فى أحد متاحف روما (٦٧). أما تمثال نيويورك لأبو الهول (٦٨) فإنه يبرز أنوثته رغم كل شىء: إن لبدة الأسد الكثيفة وأذنى الحيوان العريضتان تطفى على الوجه الرقيق بقسماته اللطيفة للمرأة التى حاولت التنكر لطبيعتها، فأرادت أن تكون ملكاً لتحقيق طموحاتها على أكمل وجه.

٢- صعود نجم كهنة آمون وهيمنة أصحاب الحظوة

شكّل عهد حتشپسوت تهديداً للإستقرار الداخلى للدولة. وبالفعل، فقد تقاعست الملكة بلا شك، عن الإهتمام بالمصالح العليا للحكومة المصرية وصار شغلها الشاغل تدعيم حكمها، بأن أحاطت نفسها بمجموعة من الخلفاء الأوفياء وعهدت إليهم بأعلى المناصب.

حپوسنب

هكذا فقد كان حپوسنب فى آن واحد، وزيراً وكبير كهنة آمون- رع، الأمر الذى لم يحدث أبداً من قبل. فكان أشبه فى العصر الحديث برئيس وزراء يشغل فى الوقت نفسه منصب بابا روما. وكافأت حتشپسوت كهنة آمون الذين ساندوها وشدّوا من أزرها، فخصّتهم بأرفع المناصب الواسعة السلطات، وهو وضع ظل يرتاب منه على الدوام أسلافها فتجنبوه. فكان أول «تنازل» بالغ الخطورة، سوف يترتب عليه فيما بعد متاعب ومشاكل جمة للملوك الذين خلفوها.

كان حپوسنب ينتمى إلى عائلة من الكهنة. كان أبوه حپو «كاهنا طاهر اليدين والكاهن المرتل الثالث فى خدمة آمون»^(٦٩). كانت هذه الرتبة تحتل وضعاً وسطاً فى السلم الهرمى لكهنة الكرنك. كما كان أخوه أيضاً مرتبطاً بمبعد آمون. وكان لهذه العائلة مكانتها فى البلاط الملكى: فوالدته كانت «مرضعة ملكية». وكان يقع الإختيار على المرضعات الملكيات، من بين زوجات الضباط وكبار الموظفين الذين تربطهم، تأسيساً على ذلك، علاقة حميمة بالعاهل الملكى، لأن قرابة الرضاعة كان لها القدر نفسه من الإحترام مقارنة بقرابة الدم. وللحصول على هذا اللقب، لم يكن من الضرورى بلا شك أن تستمر الرضاعة لفترة من الزمن، بل كان يكفى أن تقرب المرأة ثديها من الطفل الملك للحظات محدودة^(٧٠). كما كانت زوجة حپوسنب مخصصة للإله

والملكة. وعُثر في الفناء الأول من المعبد الجنائزى للملكة بالدير البحرى على أوستراكون صغير من الحجر الجيري، بُنيت عليه قائمة قرابين جلبتها أمنحوتب زوجة حپوسنب إلى معبد آمون راعى هذا المكان، ولا سيما خمسة أنية بخور من أجل إحراقه. ويبدو أنها كانت مقدمة شخصية من العائلة، خلافاً للقرابين التى أحضرها كبير الكهنة ذاته^(٧١).

كانت اختصاصاته تمتد لتشمل مجمل أملاك آمون. وعلى تمثال حپوسنب، وهو من مقتنيات متحف اللوفر، يمكن أن نقرأ:

لقد شغلت منصبى بصفتى كبير الرؤساء فى الكرنك فى معابد آمون، وفى كل الأراضى التابعة (للإله) آمون، لأن الذهب كان على ختمى^(٧٢).

وبالإضافة إلى هذا المنصب المرموق شغل أيضاً منصب «مدير جميع كهنة(*) الجنوب والشمال». ولأول مرة نجد أن منصب كبير كهنة آمون يخوله حق الرئاسة على سائر العبادات.

إن النص الجنائزى الخاص «بتبرئته» المدون على أحد تماثيله الموجود حالياً فى متحف مدينة بولونيا بإيطاليا، يقف شاهداً على علو كعب هذا الشخص من الناحية السياسية:

النبيل الأمير الذى يقترب من الجسد الإلهى، صاحب النعم الثابتة. عظيم هو الحب الذى يبعثه فى النفوس. إنه يرتقى بالقصر الملكى ذاته، إنه العالم الذى يفض مغاليق أسرار القاسوع الإلهى... رئيس أسرار الصلّين، ومدير أعلى المناصب، كبير كهنة آمون، إنه حپوسنب، فيقول^(**):

«كنت من الأعيان وأقيم العدل فى الأرض كما يفعل إلهى. لقد حضرت الآن إلى مدينة الزمن الأبدى، إلى إقليم الزمن اللانهائى. لقد انجزت ما كان يرجوه البشر

(*) أى «خدام الإله». (المؤلفة)

(**) من الملاحظ أن وظيفة الوزير لم تذكر إلا على تمثال اللوفر. هل معنى ذلك أنه لم يشغلها إلا بصفة مؤقتة؟ (المؤلفة)

وما كان يمتدحه جميع الآلهة. لقد اصطحبت الحورس، سيد القصر واطعت كل الأوامر التي أصدرها إلى. لم أقصر في أى عمل انجزته، من أجل رب القطرين. لم ارتكب من جانبي أى خطأ فى القصر ولم يوجه إلى رجال البلاط أى لوم ولم يؤخذ على أى إهمال فى تصرفاتى فى معابد المدن. ولا يوجد أى عمل سرى أفضيته للخارج. لقد ارتقيت مستقيماً من الأفضال والمنن التى يتمتع بها خلصاء الملك، وأرقد الآن فى الغرب الجميل. إن بائى فى السماء وجسدى فى القبر. لقد اتحدت بالإله الذى أخلصت له على الدوام (٧٣).

شارك حيوسنب فى كل أحداث عصره الهامة: من كبرى الإنشاءات إلى الرحلات والأسفار. إن النص المنقوش على تمثال اللوفر يقدم حصراً بالعديد من الأعمال الضخمة التى كان يسهر على متابعتها وتفقدتها، من بوابات ومقاصير الناووس ومركب آمون وصروح. إنها سلسلة طويلة من الأعمال وهناك جملة استرضائية تذيّل كل انجاز من انجازاته وكأنها، لازمة تتكرر بلا انقطاع:

صُنِع لصاحبة(*) الجلالة ماعت كارع، ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين ليتها تحيا(*)، فى حين كنت مدير الأعمال بفضلها(*) (٧٤).

وكان يطيب له أن يصور نفسه فى قاعة مقبرته الرئيسية وهو يشرف على قطع أشجار البخور فى بلاد پونت: فنشاهد حيوسنب واقفاً بين الصحراء الوردية والبحر، مرتدياً نقبة طويلة، مستنداً إلى عصا كبيرة، وينظر إلى الرجلين اللذين لم يتبق سواهما وهما يقتلعان أحد الأشجار النفيسة التى ستنقل إلى مصر (٧٥)، هكذا سجل أعظم حدث شهده عهد حتشپسوت!

وشأنه شأن عظماء عصره شيد حيوسنب لنفسه مقبرة تذكارية (٧٦) - هى المقصورة رقم ١٥ حالياً - وسط تلال جبل السلسلة على البر الأيسر من نهر النيل على بعد ١٢٠ كم جنوب الأقصر و ٦٠ كم شمال أسوان. كما كان الموقع يضم محاجر عظيمة

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

الأهمية للحجر الرملى الناعم. وكانت مقبرته فى الشيخ عبدالقرنة فسيحة إلى حدّ ما. إن أساطين متصلة تحدد المدخل عن يمينه ويساره. وكان ممر طويل يفضى إلى قاعة مزدانة بالرسومات وإن كانت مشوهة تشويهاً بالغاً فى الوقت الراهن، وما زالت تحتفظ بقواعد أربعة أساطين مستديرة. وكانت بئر تؤدى إلى حجرة الدفن.

سن موت...

كان سن موت من أكثر رجال البلاط المقربين إلى حتشپسوت.

إنه: الصديق الأوحد والمشرف العام للزوجة الإلهية والمشرف العام على المقر الملكى والمشرف العام على كافة الأعمال الملكية، ويمتد سلطانه إلى كل وظيفة إلهية، والمشرف العام على شونة آمون المزدوجة والمشرف العام على حقول آمون والمشرف العام على قطعان آمون والمشرف العام على حدائق آمون وخادم المركب أوسرحات للإله آمون ومدير خدم مونتو فى هرمونتيس وخادم ماعت^(٧٧). هكذا كان من نصيبه ألقاب البلاط الملكى ومناصب الكهنة المتعددة ويدين بكل شىء، إلى إنعامات الملوك.

كان والداه رع مس وحات نفر وشهرتها تيوتيو، رقيقى الحال، وإن كانت والدته تمتلك بعض الأراضى. وعلى حد قول بعض علماء المصريات^(٧٨) ربما كان سن موت جندياً فى مستهل حياته. وتستند هذه الفرضية إلى نص أحد التماثيل الذى يطلق عليه وصف...

...المقاتل الباسل بفضل ساعده، المصاحب للملك فى البلدان الأجنبية جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً... فظل يُمنح ذهب الحظوة على الدوام^(٧٩).

من المحتمل إذن أنه رافق فى بداية الأمر تحوتمس الأول فى حروبه الأجنبية. ومن ثم فقد تُشبه مسيرة حياته المهنية فى بعض جوانبها حياة أحد الرجال البواسل الآخرين، نقصد أحمس- بن- نخبت^(٨٠). وبالفعل فقد كان سن موت أيضاً مثل هذا الأخير، المعلم المربى لأميرة ملكية هى نفرو رع المولودة من اقتران تحوتمس الثانى بحتشپسوت. لقد ارتبط بالبلاط الملكى منذ عهد تحوتمس الثانى. وربما دفعه طموحه

منذ وقت مبكر، ليصبح أحد أفراد الجماعة الملتفة حول الملكة الشابة وسرعان ما نجح في الفوز بتقديرها. والشاهد على ذلك، على وجه التحديد، التماثيل العديدة التي تصوره، وكلها هبات ملكية. وقد أقيم أحدها في معبد الإلهة مَوت بالكرنك...

...حتى يظل في معبد مَوت، سيدة إيشرو^(٨١)، ويتلقى القرابين التي تتراكم أمام هذه الإلهة العظيمة^(٨٢).

إن مصدر الوجبات الغذائية المخصصة للعظيم سن مَوت في العالم الآخر، سيصبح المصدر نفسه الذي تأتي منه وجبات الإلهة زوجة آمون.

ومن عهد إلى آخر، سيظل مرتبطاً بأصحاب السلطان، في وقت من الأوقات. ويصوره تمثال - مكعب يحتفظ به متحف برلين وهو يمسك بربيبته الطفلة نفروع. ويقول النص بلا مداورة:

أنا من الكبراء والأعيان، المحبوب من سيده والذي يلم بأعاجيب سيدة القطرين. لقد أعلی (*) من شأنى أمام القطرين. لقد رقانى إلى «الفم الأعلى» فى منزله، بل وفى ربوع البلاد قاطبة. كنت أعمل وأنا أترأس أسمى الأفراد وأبرزهم. كنت أعظم مديرى الأعمال. كنت فى هذه البلاد تحت إمرته، إلى أن تحين لحظة رُسوه (وفاته). والآن فأنا على قيد الحياة، إلى جوار سيدة القطرين ماعت كارع ملك (**). مصر العليا ومصر السفلى، ليتها تحيا إلى أبد الآباد^(٨٣).

وبالفعل فبقيادة سن موت السديدة، أنجزت كبرى أعمال حتشپسوت، فكان على وجه التحديد، المهندس المعمارى الذى شيد معبدها الجنائزى بالدير البحرى. وقدّم هو شخصياً وصفاً لأنشطته المتنوعة فى سياق النص المنقوش على تمثال الكرنك:

صدرت الأوامر إلى المشرف العام سن موت بإدارة كافة أعمال الملك فى الكرنك وفى هرمونتيس وفى معبد آمون (الذى يطلق عليه) «رائعة الروائع» (أى معبد الدير

(*) تحوتمس الثانى. (المؤلفة)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

البحرى) وفى معبد موت فى إيشرو وفى حريم آمون الجنوبى (أى معبد الأقصر)،
إرضاءً لجلالة هذا الإله المعظم، جاعلاً منشآت سيد القطرين مباركة وخيرة.

(كما صدرت إليه الأوامر) بتعظيم الأعمال... وجعلها مباركة وخيرة، دون أن
يظل وجهه أصمّ، طبقاً لأوامر القصر الملكى. كما صدرت إليه الأوامر بأن يكرّس
نفسه لذلك، لفرط ما كان له من تأثير على قلب (تحتّمس الثانى؟ أم الملكة؟) وتحقق
ذلك، على أكمل وجه، تنفيذاً للأوامر الصادرة، وكان ذلك مفيداً فيما أنجز، وفقاً لرغبة
صاحب الجلالة حول هذا الموضوع. أنا مخلص وعادل ولا مثيل لى ونو قلب شديد
البأس. (أنا أعمل) بلا انقطاع فى المعالم الإنشائية لسيد الآلهة، أنا سن موت، خازن
ملك مصر العليا ومصر السفلى، وخادم الإله آمون^(٨٤).

أكان متكبراً مزهواً بنفسه؟ ربما، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه
القصيدة القصيرة التى نظمت تمجيداً له، وهى جزء من هذا النقش ذاته:
إنه يقول:

أنا أعظم العظماء فى هذا البلد بأسره، أنا الذى يُنصت إلى ما ينبغى
الإنصات إليه، أنا المتفرد الأوحّد من بين سائر المتفردين - والمشرف العام فى خدمة
آمون، أنا سن موت.

أنا، فى الحقيقة، صديق الملك الحميم، أنا الذى ينجز كل ما يمتدحه سيده، على
مدار الأيام - والمشرف العام على قطعان آمون، أنا سن موت.

أنا من يكتشف الحقيقة ولا يظهر بمظهر المتحيز ويسعد بكلماته رب الأرضين،
أنا قم نحن - وخادم الإلهة ماعت، أنا سن موت.

أنا من يُصدر الأوامر... فى مخزن قرابين آمون كل عشرة أيام - والمشرف
العام على شونة آمون المزدوجة، أنا سن موت.

أنا من يؤمّ أعياد الآلهة على مدار الأيام، من أجل حياة وازدهار وصحة السيد
الملكى - والمشرف العام على حقول آمون، أنا سن موت.

أنا أقوى الأقوياء، على رأس العظماء، فأدير كل الأعمال الإنشائية من أجل
القصر الملكي وأشرف على كافة أعمال الحرفيين - ورئيس خدم مونتو في هرمونتيس،
أنا سن موت.

أنا من تعرض عليه شئون القطرين ورئيس الجنوب، بينما الشمال تحت ختمى،
فمساهمات منتجات البلدان الأجنبية تحت سلطانى.

أنا من يعرف الجميع، ما اتخذته من إجراءات فى القصر الملكى، أنا كاتم
أسراره الحق، أنا محبوبه، والمشرف العام على حدائق آمون^(٨٥)، أنا سن موت.

وتشهد مدونة صخرية قرب أسوان أنه كُلف أيضاً بقطع مسلتين كبيرتين وربما
كانتا المسلتين اللتين اقيمتا من أجل آمون فى معبد الكرنك^(٩) أو اللتين اقيمتا على
الأرجح فى إلفنتين:

أنجز هذا العمل من أجل الزوجة الإلهية، التى تدبر شئون ربوع القطرين، من
قبل حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق المفعم بالحب، والمشرف العام العظيم، أنا
سن موت وأنا النبيل والأمير وكاتم الأسرار المقرب من الزوجة الإلهية، ومن يسعد
بكلماته سيدة القطرين، وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام العظيم فى خدمة
الأميرة الملكية نفرو رع، لقد جئت لإقامة المسلتين الكبيرتين لملايين السنين، أنا سن
موت...

حدث ذلك من أجل مجد صاحبة(*) الجلالة^(٨٦).

كان طموحاً بلا شك، ومتكبراً بكل تأكيد، ولكنه وفى مخلص للكتة التى جمعته
بها أوجه اتفاق كثيرة. تلك هى الصورة التى يمكن أن نرسمها للشريف النبيل
سن موت. كما كان لشخصيته ملامح أخرى.

أقام سن موت لنفسه مقبرة تذكارية فى جبل السلسلة، هى المقصورة رقم ١٦،
وتتكون أساساً من حجرة تبلغ ٢٤٧ سم عمقاً و ٢٤٥ سم عرضاً و ١٩٨ سم ارتفاعاً.

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

وتتضم كوة بها تمثال لصاحب المقبرة. ويحتفظ السقف بآثار ألوان تُشكل زخرفاً هندسياً على هيئة دوائر حلزونية، خضراء فى وسطها ومحيطها باللون الأحمر، وأشرطة أفقية خضراء أو عديمة اللون بالتناوب ولكنها محاطة باللون الأصفر^(٨٧). تلك هى ألوان الكون والحياة الأساسية. كما رسمت على الجدران مشاهد دينية تصور سن موت وهو يتعبد للآلهة.

حفرت أولى مقبرتيه فى الشيخ عبد القرنة وتحمل رقم ٧١. ومن المعتقد أن العمل فيها قد بدأ فى العام السابع^(٨٨). وشُيّدت الأخرى وهى الثانية فى وقت لاحق، كإنعام تفضلت بها صاحبة الجلالة، وكانت فى الدير البحرى ذاته وتحمل الرقم ٣٥٢، وحفرت أسفل معبد الملكة وتوجد حجرة الدفن فى الجزء المقدس من هذا الأثر العظيم. ويفضى ممر هابط إلى حجرة تتميز على نحو خاص بسقفها الفلكى الذى يصور الديكان(*) Decan والكوكبات constellations: نذكر منها الجوزاء والشعرى اليمانية والمشتري وزحل والدب الكبير ونجم القطب الشمالى ودوائر شهور السنة الإثنى عشر. ويظهر الاسم الحورى للملكة وهو «ذات الكامات القوية»(**) وسط الكوكبات لأن صورة حتشيسوت موجودة فى كل مكان. كما أن صورة سن موت موجودة فى معبد الدير البحرى ذاته. فخلف أبواب مقاصير أنوبيس أو حتحور أو تحوتمس الثالث، على حدّ سواء، يمكن رؤية صورة الأثير القوى صاحب الخطوة، راکعاً وقد أدار يديه فى وضع التعبد فى اتجاه قدس الأقداس «لتقديم المدائح إلى ماعت كارع».

إن شكل تابوت سن موت يشبه تابوت الملكة الثانى. إنه شاهد محرك للمشاعر يعبر عن مودة حقيقية. وقد عثر عليه عالم المصريات الأمريكى وينلوك Winlock

(*) من كلمة Decanus اللاتينية وهى من مشتقات Deka أى عشرة. والديكان هو الجنى المهيمن على كل عشر درجات من دائرة البروج السماوية. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى-٢٠٠١. ص ١٥١. (المترجم)

(**) «أوسرت كاو»، بالمصرية القديمة. (المترجم)

مهشماً، إلى أكثر من ثلاثة آلاف جزء، ولكنه استطاع ترميمه وإعادةه إلى شكله الأصلي، فكانت لعبة كبيرة احتاجت منه تحمل ما لا يطاق من صبر وجلد.

وأخر المطاف دفن سن موت في مقبرته في القرنة. هل كان قد فقد حظوته؟ أمن جانب الملكة؟ أو بتحريض من حزب تحوتمس الثالث؟ وما زال تاريخ اختفائه وظروفه الدقيقة سرّاً دفيناً. ومن المرجح أنه توفى قبل الملكة. وشُوّهت تماثيله وحُطّمت، شأنها شأن تماثيل حتشپسوت، وقام بهذا العمل تحوتمس الثالث بعد أن أصبح العاهل الملكى الوحيد وانفرد بالسلطة.

بعض أعيان الدولة الآخرين..

كان حپوسنب و سن موت اللذان يتحكما في كافة المناصب الكهنوتية والدينية الكبرى، من أهل الحول والطول ومن أصحاب السلطة والنفوذ في عهد الملكة. وينظر إليهما بصفتهم من المقربين إليها ومن نوى الخطوة.

ولكن هناك آخرين من الذين انحازوا إلى حزب الملكة وتصدّوا لأكثر من عقد من الزمن، لحزب تحوتمس الثالث.

ونذكر وزيراً آخر نال بعض الأهمية في عهد حتشپسوت: إنه أحمس وشهرته عامثو، وربما كان سابقاً على حپوسنب؟ أو حاكماً في جنوب البلاد؟ وإليه تنتسب سلالة حقيقية من الوزراء. إن ابنه أوسر كان وزيراً منذ العام الخامس^(٨٩) وسوف يصبح حفيده رخ مى رع وزيراً في عهد تحوتمس الثالث. ولا نعرف أحمس سوى معرفة محدودة، إذ لم تصلنا عنه سوى وثائق قليلة نسبياً، ففي مقبرة في الشيخ عبد القرنة نقرأ هذا النص الأخلاقي، بجملة وصيغه المألوفة أحياناً:

لم يضرب أباه. لم يدخل التعاسة على أمه. لقد حقق كل ما برح الملك يمتدحه على مرّ الأيام. كان الكذب مكروهاً له. لم يقترفه أبداً. لم يأكل مما تمقته الآلهة، ومن ثم سوف يتناول إلى جانبهم من الطعام الذى يقدم على مائدة رع، كل يوم والزمن اللانهائى والزمن الأبدى... إنه أحمس المقتدر والنبيل والأمير وشهرته عامثو الذى يحقق تحوله إلى با حى. إنه المشرف العام على المدينة والوزير الذى يعزز الحقيقة

والعدالة ويطرد الشرور، إنه العظيم فى مقامه الرفيع. ومن ثم سوف يرى من جديد بيته إبان زمن حياته. ويضمن الحماية السحرية لأولاده على مرّ الأيام، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى^(٩٠).

ويخفى علينا «ترتيب» هؤلاء الوزراء. ومن المعتقد أن تحوتمس الثالث قد صعد إلى هذا المنصب فى العام الخامس أحد العاملين الممتازين فى خدمة الملك وهو أوسر أمون وشهرته أوسر. هل عُزل عندما تسلمت حتشپسوت مقاليد السلطة؟ من المحتمل. وربما شغل هذا المنصب حپوسنب لفترة قصيرة أو أحمس وشهرته عامثو، بيد أن هذا الأخير كان والد أوسر. هل حدثت نزاعات عائلية؟ أم مصالح وراثة عرش متعارضة؟ سوف نفهم بوضوح هذا العهد «المزبوج» واغتصاب حتشپسوت للحكم عندما ستصبح تحت تصرفنا وثائق جديدة. إن إعادة صياغة تاريخ مصر هى أيضاً لعبة كبيرة تحتاج إلى صبر ورجاحة عقل.

كما كان چحوتى وفيّاً لحتشپسوت مخلصاً لها وخازنها الأكبر، وخلف إينينى فى هذا المنصب. فقد قام بإمداد كبرى المنشآت فى الدير البحرى والكرنك على حد سواء، بما تحتاجه من معادن. وعند عودة رحلة پونت^(٩١) كان هو الذى يزن المنتجات الجلوية أو يكيلها. إن نصي اللوحين الحجرين اللذين عُثر على أولهما فى فناء مقبرته بدراع أبو النجا وحالياً فى متحف نورثهامپتون Northampton والآخر عند الجدار الشمالى من الحجرة الأولى - يشهدان بإسهاب على أنشطته:

كل أعاجيب البلدان الأجنبية وكل ضرائب جزيتها وأفضل منتجات بلاد پونت الرائعة، تقدم بأسرها إلى أمون، رب الكرنك من أجل حياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة، وحتى يمتلئ بيت هذا الإله المعظم الذى وهبها القطرين. هذا الإله كان يعلم أنه (*) يقدمها له.

أنا الذى كنت أعدّ حصراً بكل ذلك، تعبيراً عن مدى تأثيرى على قلب صاحب

(*) الضمير فى المذكر رغم أنه يشير إلى حتشپسوت. (المترجم)

الجلالة. كانت حظوتى وطيدة لديه(*)... منذ أن ميّزنى من بين أفراد حاشيته. كان يعرف أننى مخلص وفى نحوه، عارفاً أننى أنجز، ما يُقال. كان فمى لا ينبس بكلمة حول شئون بيته. وصعدنى إلى منصب مدير قصره، لأنه كان على علم بذكائى فيما أفعل. أنا الذى كنت أختتم الخزينة. إن مختلف أنواع الأحجار الكريمة كانت فى معبد آمون بالكرنك الذى كان مقدساً حتى السقف بنسرائب الجزية. أبداً لم يحدث شيء مماثل، منذ زمن الأجداد.

وأمر صاحب الجلالة أن يصنع... بالذهب الخالص، وبأفضل ما يأتى من الصحارى، داخل قاعة الأعياد الكبرى. وحُدّت المقادير بالمكيال حقاً^(٩٢)، من أجل آمون فى حضرة البلاد قاطبة. المجموع الكلى: ٨٨ حقاً من الذهب الخالص أو ما يعادل ٨٥٩٢ بين ونصف (حوالى ٨٠٠ كجم) لحياة وازدهار وصحة ماعت كارع ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، ليته(*) يحيا إلى أبد الآباد^(٩٣).

يلقى هذا النص الضوء على خطرين مرتبطين بعهد المغتصبة التى أرادت أن تكون فرعوناً. نقصد بذلك إبراز أصحاب الخطوة المتميزين والثروات التى حصل عليها آمون ومعبده.

وفى معبد موت أقامت حتشپسوت أيضاً نمثالا يحمل اسم سن إم إمع وتصفه مدونات مقبرته رقم ١٢٧ فى الشيخ عبدالقرنة بألقاب «الكاتب الملكى وحامل ختم ملك مصر السفلى والمشرف العام على الخزينة وكاتب الحسابات». كان كبير المشرفين على صندوق مالية الحكومة ومن ألقابه: «المشرف العام على مكان النبيذ والمشرف العام على النباتات الناضرة والمشرف العام على الريشة والصدف». وكان يشغل وظائف مماثلة فى الأملاك الإلهية بطيبة: «المشرف العام على أملاك موتوفى هرمونتيس وكاتب حسابات مواشى آمون». إن الصفات التى يُنعت بها تبرز الإمتيازات التى كان يتمتع بها إلى جوار الملكة. إنه «عينا وأذنا ملك مصر السفلى وكاتم أسرار الملك فى كل وظيفة والمعلم الحكيم والعظيم حياً^(٩٤)».

(*) (مكذا فى المذكر. (المترجم)

إن مدونات مقبرته جديرة بالملاحظة إلى حد كبير. فيتم تعريف آمون في ديباجة أحد النصوص على النحو الآتي:

رب الحقيقة والعدالة، ملك الآلهة جمعاء، أعظم العظماء، أبو الآباء، سيد الملايين، فلا مثيل له، الأوحد المتفرد، الذى خلق ما يكون وشكل ما يوجد، الذى ربط أعضاء البشر، الذى يلهب الحياة المنبثقة من نون ويفتح كل العيون^(٩٥).

ومن جهة أخرى فقد نسخ سن إم إمح فى مقبرته النص الذى دونه باحرى فى مقبرته^(٩٦). فهل جمعتهم روابط عائلية؟ أو كانا على علم بنص وجد سن إم إمح متعة فى إعادة نسخه؟

ومقارنة بالنص السابق، فإن قراءة المدونة المنقوشة على تمثال من الحجر الرملى ومن مقتنيات متحف نيويورك فى الوقت الراهن، تكشف بوضوح طبيعة الفكر الدينى المصرى. هذا التمثال يعود إلى ساتپ كا و، أمير ثنى ورئيس خدام الإله فى الإقليم الثينى.

فليتكرم الملك بمنح قربان إلى أونوريس^(*) (إله الإقليم المحلى)، أعظم الآلهة وملك السماء، حاكم القطرين وسيد الكون فى كل مقر من مقارّه، الإله العظيم الذى جاء إلى الوجود بذات نفسه، الأقدم الأصلى الذى خلق الأقدمين الأصليين. لقد كان يتمتع بالقوة والذكاء، منذ أن انبثق من نون، هو الذى يعطى تآلقه للبشر والذى يضئ نوره التاسوع، الذى يحيا لرؤيته^(٩٧).

الإيمان واحد ولكن الآلهة وأسماءها وأشكالها مختلفة. إن الارتباط الحميم بأحد الآلهة سواء كان آمون أو أونوريس، يحمل المؤمن على سلوك الدروب الروحية ذاتها: فكل إله هو الأعظم والأوحد المتفرد والأقدم والأصل. ولكن هذه الرؤية لا تعنى أى امتياز لهذا الإله على حساب غيره من الآلهة. إن مجمع الآلهة المصرية هو مستودع ضخم للقوى الفائقة للطبيعة التى تتراص عناصرها الخيرة المباركة، جنباً إلى جنب، وتتراكب لسعادة البشر. إن فكر أمنحوتپ الرابع الذى شاع الإشادة بروائع إبداعاته، من جراء إغفال فترة الإختمار الروحية الطويلة التى تشهد عليها

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إن-حرت. (المترجم)

النصوص التي سبقته - إن هذا الفكر لم يأت من فراغ. إنما ينطلق كما سنرى من التقاليد المصرية المتواترة وأكثرها عمقاً. ولكن الملك الشاب المتصوف ظلّ على امتداد أربعة عشر عاماً، يضيف إليها التعصب وعدم التسامح.

كان كل إنسان يعبد في مدينته الإله الذي وقع عليه اختياره. ولكن آمون - رع، «ملك الآلهة»، يظل إله الملوك المقيمين في طيبة.

إن وجود «حزب» يناصر تحوتمس الثالث شيء ملحوظ، وإن كان من الصعوبة بمكان تأكيده، مع ذلك. وبالفعل نجد أن بعض الشخصيات في سياق المسارد التي تروى مراحل حياتهم الوظيفية يتجاهلون الملكة، قصداً وعمداً.

فقد سبق أن لاحظنا^(٩٨) أن نب واوى قد عُيّن في منصب كبير كهنة أوزيريس في أبيدوس من قبل تحوتمس الثالث في العام الثالث. ويبدأ النص بإعلان، يهدف إلى التأكيد على ما يبدو، على تسلم العاهل الملكى الشاب مقاليد الحكم:

وُهب مع إنعامات الملك من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، إلى نب واوى كبير كهنة أوزيريس^(٩٩).

وعندما أخذ هذا الأخير يقدم حصراً بقائمة ترقياته، يذكر الملك مرة أخرى، ولكنه لم ينبس بكلمة عن الملكة.

هذه الشاعر أكثر وضوحاً في مدونة لوح حجرى عثر عليه في مقبرة نب آمون بدراع أبو النجا:

إن سيدي عا خير إن رع(*)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد جدّد من أجلى إنعاماته، فنصّبني مشرفاً عاماً في إدارة القصر الملكى.

إن سيدي من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد حدّد من أجلى إنعاماته، فرقّاني لأصبح الأول، وعيّنني مشرفاً عاماً على أملاك الزوجة الملكية نبتو (إحدى زوجات تحوتمس الثالث).

(*) من ألقاب تحوتمس الثانى. (المترجم)

إن سيدي من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى قد جدّد من أجلى إنعاماته، فنصّبني مشرفاً عاماً على كافة سفن الملك. لأننى لم أقترف أفعالاً سيئة. ويستحيل على المرء أن يجد خطأ ينسب إليّ، كما لم أصبح رفيقاً لجرم. ومن ثم فقد ارتقيت إلى مرتبة إيماخو^(١٠٠)، فى حين احتفظت بالحظوة التى تجعلنى صديق الملك الحميم^(١٠١).

إن حياة وظيفية بدأت فى عهد تحوتمس الثانى وتعاظمت فى ظل تحوتمس الثالث تتجاهل تماماً حتشپسوت.

ولا شك أن هذه الأخيرة كان لها معارضون متشددون، عقدوا العزم على أن يظل ابن تحوتمس الثانى محتفظاً، بمفرده بالسلطة.

وإذ أرادت الملكة بلا شك أن تضى رونقاً وأبهة على عهدها، فقد نظّمت حملات تجارية فخمة وأقامت العديد من المعالم الإنشائية فى مصر والنوبة، على حدّ سواء.

٣- عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلافة:

الحملات التجارية

كان من الصعب على الملكة أن تخرج على رأس حملات عسكرية، ومع ذلك فقد تترك بعض المدونات شكاً يراود الباحث، ولكن الفرعون إنطلاقاً من تقليد متواتر، هو الظافر المنتصر. ومن المحتمل أن حتشپسوت إذ أرادت أن تتباهى باللقاب تمجدها وإن لم تكتسبها، استأثرت لصالحها بقائمة مصطلحات أسلافها. وهذا ما يفسّر سيطرتها على آسيا كما وردت فى نص الولادة الإلهية^(١٠٢).

وقبل فترة قصيرة كشف عالم المصريات المصرى لبيب حبشى^(١٠٣)(*) فى جزيرة سهيل على مخربشة يقول نصها:

(*) يحمل أحد شوارع الأقصر اسم هذا العالم الجليل ويقع بجوار فندق إيتاپ، ويصل شارع معبد الكرنك بكورنيش النيل. (المترجم)

إن تي، النبيل، حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق الأوحد، المشرف العام على الخزينة، المسئول عن ضرائب الجزية، إنه يتحدث قائلاً: «لقد اصطحبت [ماعت] كارع، الإله (*) الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى ليته يحيا. ورأيتُه بينما كان يصرع النوبيين في حين تم اقتياد زعمائهم أسرى ليمثلوا بين يديه. رأيتُه يدمر بلاد النوبة بينما كنت في معية جلالته».

ولكن قيام حتشپسوت بحملة عسكرية إلى النوبة يظل أمراً مشكوكاً فيه. فلا ريب أن شواهد أخرى كان يُفترض العثور عليها وهو ما لم يحدث. ومن جهة أخرى فإن بداية الخرطوش الملكي في هذا النص مشوهة والعلامات المتبقية قد تسمح لنا بقراءة أخرى هي من خير رع. هذه الفرضية الأخيرة هي الأقرب إلى الصواب، بالنظر إلى أن تحوتمس الثالث قد اضطر عند تولّى حكم البلاد بمفرده، أن يعود إلى فتح أراضي الإمبراطورية التي كانت التهديدات تحاصرها من كل جانب، بسبب خمول الملكة على الصعيد العسكري، كما هو واضح كل الوضوح. فمن بين المقربين منها لا يُذكر سوى عدد قليل من العسكريين. ولا شك أن الجيش قد ظل إلى جانب الملك الشاب.

الرحلة إلى بلاد بونت

إنها أهم الحملات التجارية التي قامت بها الملكة. إن رواية وقائعها يرويها نص مسهب ومصوّر بالنقوش المنحوتة على الجانب الجنوبي من الرواق الثاني بالدير البحري. إنها مجموعة مقابلة لمجموعة الولادة الإلهية المنحوتة على الجانب الشمالي من الرواق نفسه.

قامت هذه الحملة في العام التاسع، وكانت بقيادة حامل الختم نحسى.

(*) هكذا في المذكر وفي بقية النص أيضاً. (المترجم)

المقدمات

يُصور النقش الملكة واقفة أمام آمون الجالس على عرش. وخلف الملكة صُورَ
مركب الإله المقدس محمولاً على أكتاف الكهنة ويتولى تحوتمس الثالث إطلاق البخور
في اتجاهه.

● المديح:

الحورس : ذات الكأءات القديرة.

السيبتان : ذات السنوات التي تستعيد إخضرارها.

الحورس الذهبي : ذات التجليات الإلهية.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كا رع،

صورة آمون المقدسة، فقد رغب أن تجلس على
عرشه.

من أجلها أعاد الإخضرار لميراث القطرين ومُلك
مصر العليا ومصر السفلى.

لقد منحها كل ما يحيط به قرص الشمس، وما
يحتضنه جب ونوت.

فمن الآن لا أعداء لها في بلدان الجنوب، ولا
غرماء لها في بلدان الشمال.

السماء والبلدان الأجنبية التي خلقها الله، تعمل
جميعها من أجلها.

إنها تتقدم نحوها بقلب مذعور وزعماؤها
يطأطئون رؤوسهم، ويحملون على ظهورهم
ضرائب الجزية.

ويقدمون لها أولادهم حتى تُعطى لهم نسمة
الحياة، بفضل عظمة أمجاد أبيها آمون الذى
وضع جميع البلدان تحت نعلها (١٠٤).

● آمون يفضّ مغاليق الوحى ووعد الإله:

الملك(*) ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، صاحب الجلالة
المنتمى للقصر الملكى، اقترب من سلّم سيد الآلهة. سُمع أمر صادر عن العرش
العظيم، إنه هاتف من الله ذاته، يوصى بالبحث عن دروب تفضى إلى بونت وشق
الطرق المؤدية إلى مرافئ البخور. ويستدعى الأمر أن ينقل الجيش على صفحة الماء
وبراً، من أجل جلب أعاجيب بلد الإله لتقديمها إلى هذا الإله الذى شكّل جمالها(**).
وتصرّف الجميع وفقاً لما أمر به جلالة هذا الإله المعظم ووفقاً أيضاً لرغبة صاحبة(**)
الجلالة، فى هذا الصدد.

كلمات قالها آمون، رب عروش القطرين:

«مرحباً، مرحباً، فى سلام أيا ابنتى الوديدة التى فى قلبى، أيا ماعت كارع
ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى شيد المعالم الصرحية الجميلة وطهر مقر
التاسوع العظيم وملأ معبدى بذكرى حبها.

أنت الملك، أنت(**) التى استأثرت بالقطرين، أنت غنمت إمن حتشيسوت،
فقرابينك عظيمة، وطاهرة هى أطعمتك، إنك تدخلين الرضى إلى قلبى، فى كل لحظة.
لذلك فأنا أعطيك كل حياة وقوة إلى جانبى، وكل ثبات إلى جانبى، وكل صحة إلى

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المؤلفة)

جانبي، وكل سعادة إلى جانبي. كما أعطيك كل الأراضى المصرية وكل الأراضى الأجنبية، حتى يفرح قلبك بفضلها. لقد خصّصتها لك منذ زمن بعيد.

كما أعطيك پونت بأكملها حتى حدود الأراضى الإلهية، أعطيك أرض الله التى لم تطأها الأقدام حتى الآن، ومرافئ البخور التى يجهل وجودها شعب مصر. كانت تصل إلى مسامعه أحاديث كثيرة عنها، نقلًا من فم إلى فم، واستنادًا إلى أقوال رجال الزمن الماضى. وبالفعل، فقد سبق أن جلبت الأعاجيب من هذا البلد إلى جوار أبائك ملوك مصر السفلى ولكن واحدة تلو الأخرى، وذلك منذ زمن الأجداد، وإلى ملوك مصر العليا أيضًا، إلى أولئك الذين عاشوا فى الماضى ولكن مقابل عدد كبير من الهدايا. ولن يصل أحد أبدًا إلى هذه الأراضى باستثناء موفديك، وبالفعل سوف أتصرف بحيث يتجه جيشك إليها، سوف أوجهه على صفحة الماء وبرًا، ومن أجلها سوف افتح الطرق بل والسرية منها. سوف «أحرث» مرافئ البخور، هذا الإقليم المقدس من البلد الإلهى. حقًا إنه مكان للمتعة واللذات. لقد أوجدته من أجلى، لإنعاش قلبى وترطيبه، بالتزامن مع قلب والدته حتحور، سيدة تاج پونت الكبير، سيدة السماء، الساحرة العظيمة التى تقف على رأس الآلهة جمعاء.

سوف يستولون (أى جنود الجيش المصرى) على البخور كما يرغبون، ويحملون سفنهم بأشجار البخور الناضرة وبمختلف المنتجات الطيبة لهذا البلد، إلى أن ترضى قلوبهم. لقد فتننت أبناء پونت الذين كانوا يجهلون شعب مصر، لقد استملت ملتحي^(١٠٥) البلد الإلهى نحو حبك. سوف يرفعون إليك الهتافات والتهايل وكأنك إله، بقدر ما كان مجدك عظيمًا، فى ربوع البلاد. أما أنا فأعرفهم لأننى سيدهم، إنهم يعرفون أننى آمون-رع المنجب الذى قامت ابنته بربط «الجزر» (ربما تشير هذه الكلمة إلى حاو-نبوت؟)، ابنته ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

لقد فعلت ذلك لأننى والدك الذى أشاع الفرع منك وسط الأقواس التسعة. سوف يتقدمون فى سلام نحو الكرنك، حاملين معهم أعاجيب عظيمة، وكل الأشياء الجميلة والطيبة من البلد الإلهى والتى ستقوم جلالتك بإرسال من يحضرها: إنها أكوام من البخور وأشجار ثابتة محملة بالبخور الناضر وسوف يختلطون فى بهو

الأعياد، حتى يراها جميع الآلهة. سوف تتولى صاحبة الجلالة شخصياً الإشراف على نموها في الحديقة التي تحف بمعبدى، حتى يفرح قلبى بفضلها.

سوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتى وسط الآلهة وسوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتك وسط الأحياء للزمن اللانهائى. السماء والأرض ستفيضان بخوراً والعطور سوف تحل فى بيتك الكبير. سوف تقدمينها لى طاهرة وصافية لتُستخرج منها (الأدهان) المخصصة للأعضاء الإلهية، كى يُقدّم البخور وكى تُعدّ الأدهان وكى يُحتفى بتمثالى بالقلائد. وبينما أقوم برشّ الماء الطهور من أجلك، سوف يهلل قلبى فرحاً عند رؤيتك (١٠٦).

● مرسوم ملكى:

حتشپسوت متربعة على العرش توجه كلامها إلى رجال البلاط. يقف أمامها ثلاثة من كبراء الدولة ولكن صورهم مشوهة تشويهاً بالغاً. يذكر النص اسم اثنين منهم: نحسى و سن موت.

العام التاسع - عندئذ تنعقد جلسة فى قاعة الإستقبالات ويظهر الملك وسط إشراقات قصره المقدسة متربعا على العرش العظيم المصنوع من الذهب الخالص، واضعاً التاج آتف (١٠٧) على رأسه. يُسمح للكبراء والأصدقاء بالدخول للاستماع إلى مشروع المرسوم.

مرسوم ملكى صادر إلى عظماء الكبراء والآباء الإلهيين وأصدقاء الملك: «سوف أتألق فى وجوهكم للزمن الأبدى، كما تمناه أبى. وعلى كل حال، ظلت (رغبة) العمل العظيمة فى قلبى. سوف أفعل كل ما يُمجّد من انجبنى، عملاً بما تنبأ به. من أجله سوف أكرّس قرابين كان يجهلها فى الزمن الماضى، أبائى المبجلين. سوف أعمل عملاً رائعاً من أجل سيد الزمن الأبدى. سوف أفعل أكثر مما أنجز من قبل. سوف أفعل بحيث يمكن أن يقال فى الأزمنة القادمة: كم هو كامل كل ما حدث بسببها!» وذلك من فرط ما كان اهتمامى به مباركاً وخيراً وكان قلبى مهتماً كل الإهتمام بما أمر به.

أنا نوره الوضاء... لقد نفذت إلى داخل الإله العظيم، لقد أنارنى، لقد اختارنى

لأنه يعرف امتيازى. سوف أقول لكم شيئاً هاماً فتنصتون إليه ليصبح سطوعى من أجلكم على أرض الحياة: «اقتفوا أثر أفعالى». أنا الإله الأمر بما هو آتٍ إلى الوجود، لا أتفوه أبداً بما هو مُضرّ، أنا محبوبته. إن كائى هو الذى يُخرج كل شىء إلى الوجود، حسب رغبته. تمسكوا بما أمرت به، لأن طول عمركم فى الحياة، فى فمى. انصتوا إذن، سوف يكون كل ذلك مباركاً وخيراً بالنسبة لكم فى الزمن القادم، ومفيداً فى المستقبل.

انظروا، لقد أمرت جلالتى أن تكرر قرابين لمن خلقتى وأن تزداد كمية الأدهان من أجل الأعضاء الإلهية، الأدهان التى أمرت بإعدادها له. وأن تكون كمياتها أكبر مما كانت عليه، فى الزمن الماضى، بفضل أرقى أنواع شحم البقر النقى وأن يتم إمداد احتياجاته من القرابين، على أكمل وجه.

ومن ثم أمرت جلالتى بإرسال (حملة) إلى مرافق البخور وأن تفتح لها أفضل الطرق وتتعرف على ما يجاورها من أماكن وتستكشف دروبها وفقاً لأوامر أبى آمون... سوف تقتلع الأشجار من البلد الإلهى ليعاد زرعها... فى حديقة ملك الآلهة. سوف يتم جلبها إلى هنا محملة بالبخور فى حقيقة الأمر ليتم فى الحال عصر الأدهان التى طَلَبْتَهَا، لأعضاء الجسد الإلهى (١٠٨).

ينطوى الحديث فى بعض مقاطعه على تهديد ضمنى. فيؤكد على نحو خاص على الخيرات والبركات التى توزعها الملكة على كل من يذعن لما تقوله. كما أنه خطاب من أجل تعظيم المجد الأوحد للإله آمون. هذا النص الذى يتخذ شكل المرسوم، يكشف بوضوح عن الإتجاهين اللذين اتَّسم بهما هذا العهد.

الرحلة

• ركوب السفن:

صُوِّرت خمس سفن من سفن أعالى البحار: ما زالت اثنتان منها راسيتين. أما أشربة الثلاث الأخرى فمتوحة للريح. يمكن مشاهدة مقصورة القيادة بمسطحيتها،

أحدهما فى المقدمة والآخر فى المؤخرة. القيدام والكوثل مرتفعان. السفينة بلا سطح ولها سارية واحدة وعدة أشرعة والدفة تتكون من مجدافين عريضين تحركهما من الخلف قطعة خشب معقوفة إلى الداخل^(١٠٩).

تضم الحملة مائتين وعشرة رجال: أى ثلاثين مجدِّفًا لكل سفينة، وطاقم مكون من واحد وعشرين فرداً، يرافقهم ثمانية جنود وضابط. ومنذ البداية تبدو هذه الرحلة مسالة إلى أبعد حدٍّ. وقد نقل معها تمثال ضخّم من الجرانيت الوردى يُصوِّر آمون والملك لإقامته عند شواطئ بونت:

لقد صنَّعتُ تمثالاً من أجل أبيها آمون - رع، رب عروش القطرين، إنه صورة شامخة (تمثل) ماعت كارع وآمون - رع، رب مجاى وأمير بونت (البلد) المحبوب. لقد شكَّتها صاحبة الجلالة بمقتضى ما يمليه قلبها، لتقام فى البلد الإلهى. هكذا تقترن صورة هذا الإله بصورة ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. لقد شكَّتا من كتلة واحدة من الجرانيت الصلد. والتاسوع الكبير القائم فى بلاد بونت سوف يضمن من خلفهما حمايتهما السحرية، سوف تزدهران وتبقيان فى مكانهما للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى، أمام مرافئ بخور بونت، المكان المقدس لسعادة القلب^(١١٠).

عندئذ تنطلق الرحلة:

وأبحر جيش صاحبة الجلالة على صفحة الشديدة الإخضرار (المقصود بها هنا: البحر الأحمر) وسلك الطريق الجميل الذى يفضى إلى البلد الإلهى ورسى فى بونت فى سلام، وفقاً لكلمات آمون سيد الآلهة وربّ عروش القطرين الذى يقف على رأس الكرنك - ليعود منها بكافة أعاجيب المنطقة بأسرها، ذلك بقدر ما كان (آمون) يحب ابنته ماعت كارع، أكثر من الملوك الذين عاشوا فى الزمن السابق. ولن يحدث ذلك لغيرهم من ملوك مصر السفلى الذين سيأتون إلى الوجود فى هذا البلد، على امتداد الزمن اللانهائى.

• الوصول والاستقبال

رست السفن عند شاطئ بونت، وما زالت قيادتها متجهة ناحية الجنوب. المشهد الطبيعي مشهد إفريقي نموذجي: فيضم أشجار نخيل البلح والجميز ونخيل الدوم وجوز الهند والبخور، إلى جانب أكواخ مخروطية الشكل، محمولة على مجموعة أوتاد. ويصعد المرء إليها على سلم. أما الفونة فتضم بعض القردة وأحد الطيور.

تجرى وقائع الإستقبال فيما بعد وفي مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ الذي يشير إلى وجوده المجاور لشريط من الماء. وعلى اليسار يقف قائد الحملة نحسى الذي يتكأ على عصا طويلة، ويتقدم الضابط والجنود المسلّحين بالبلط والحراب والتروس. وعلى مائدة منخفضة وضعت الأشياء المعدة للمقايضة: قلائد ذهبية ولآلى وأساور وسيف. ومن جهة اليمين يأتي الزعيم پارحو، فيتقدم ناحية المصريين وتتبعه زوجته إيتى، بأردافها الممتلئة شحمًا، لأنها كانت تعاني من بدانة مفرطة مرضية ومصابة بداء انحناء العمود الفقري إلى الأمام. هل المقصود صورة كاريكاتورية أم سمة من السمات العرقية لدى قبائل الهوتانتوت أو البوشمان أو الأقزام؟ وسار من خلفهما ابناهما وابنتهما. هكذا تواجدت القبيلة بأكملها. ويقود الحمار الذي يحمل الملكة ثلاثة من أبناء البلد.

ويقدم النص شرحاً لما سبق:

وصل الموفد الملكى فى صحبة الفرقة التى كانت فى معيته إلى البلد الإلهى والتقى بكبراء بونت. كان محملاً بأشياء جميلة وطيبة مقدمة من القصر الملكى، من أجل حتحور، سيدة بونت - ذلك لحياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة.

عندئذ جاء كبراء بلاد بونت منحنين مطأطئين رؤوسهم، لاستقبال هذه الفرقة الملكية. وعبدوا آمون - رع، فهو الأول الأقدم فى الأرضين، الذى يطأ بقدميه البلدان الأجنبية. كانوا يقولون متوسلين السلام: «لماذا وصلتكم إلى هذا البلد الذى يجهله شعب مصر؟ هل هبطتم عبر دروب السماء؟ أم سافرتكم عن طريق البحر والبر؟ كم هى خضراء أرض البلد الإلهى وطأه رع بقدميه، من أجلكم. أما ملك البلد المحبوب، ألا يوجد طريق يودى إلى جلالته حتى نحيا بفضل النسمات التى يهبها (١١)؟».

● التجارة والمساومات

على يمين المشهد نُصبت خيمة الموفد الملكى. وتكدست أمامه منتجات بونت. وعلى اليسار، صف طويل من أبناء بونت يُحضرون أشياء أخرى مماثلة. وعلى رأسهم نشاهد أيضاً الزعيم پاراحو وزوجته الضخمة الجثة.

أُعدت خيمة الموفد الملكى وفرقته، فى مرفأ البخور فى بونت على شواطئ الشديدة الإخضرار ليستقبلوا كبراء هذا البلد. عندئذ يُقدّم لهم الخبز والجعة والنبيد واللحوم والفواكه وكل شىء وارد من البلد المحبوب، وفقاً للأوامر الصادرة من القصر الملكى. (وبدوره) تقدم زعيم بونت حاملاً هداياه عند شواطئ الشديدة الإخضرار، أمام الموفد الملكى^(١١٢).

وبعد ذلك لا تسمح المدونة المشوهة سوى بقراءة كلمتى: «ذهب» و«بخور»، وهما من منتجات إفريقيا التقليدية. أما الباقي فكان عبارة عن مقايضة ومساومات.

● تحميل الشحنة وركوب السفن

وانهمك المصريون فى أعمالهم. فبعد إقتلاع أشجار البخور حُمِلت بمدَرها(*) ووضعت فى سلال عريضة مثبتة بحبال فى أوتاد من خشب لتُحمل على أكتاف ستة رجال، ثلاثة فى المقدمة وثلاثة فى المؤخرة. وتنتمى هذه الأشجار إلى الأنواع التى تعرف علمياً على النحو الآتى:

(بوسقيلا ثوريفيرا) Bosweila thurifera –

(بوسقيلا كارتيرى) Boswella carteri –

(بوسقيلا پاپيجيرا) Bosweila papygera –

(كوميفورا بيدومكولاتا)^(١١٣) Commiphora pedumculata –

(*) طين لزج متماسك. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

وكما هو فى المعتاد فى المشاهد المصرية، تنجز الأعمال فى جو من المرح
والبهجة. فىصيح أحد الرفاق مخاطباً زميل له:

«انتبه لقدميك، يا زميلى! لأن الحمولة ثقيلة جداً»

أو:

«كل شىء سيسير على ما يرام بالنسبة لنا. إن أشجار بخور البلد الإلهى
سوف تصل إلى معبد آمون. سوف تستقر هناك، حيث ستقوم ماعت كارع بغرسها
لتنبت فى حديقتها، قرب معبدها، كما أمر به والدها»^(١١٤).

والحمولة على قدر كبير من الأهمية

كانت السفن محملة بمقادير ضخمة من أعاجيب بلاد پونت البالغة الوزن: كافة
الخلاصات العطرية الزكية الرائحة، من بلاد الإله، وأكداس من البخور وأشجار بخور
ما زالت تحتفظ بنضارتها، والأبنوس والعاج الأصيل والذهب الأخضر من بلاد عامو
واللادن والقرفة والمر والبخور ومسحوق تجميل أسود والقردة والنسانيس والكلاب
وكمية كبيرة من جلود نمور الجنوب، فضلاً عن أناس بأولادهم. ولم يحدث أبداً من
قبل أن نقلت أشياء مماثلة (على أيام)، أى ملك من الملوك الذين ظهرُوا على وجه
الأرض، منذ قديم الزمان^(١١٥).

كما صُوِّرت فى النقوش أبقار وزرافة وفهد، فضلاً عن ذلك فقد أحضر أمير
پونت كمية من المر وجاء أحد أبنائه بقصعة تحتوى تبراً.

أما تمثال آمون والملكة المقام على الشاطئ فسيظل شاهداً على عظمة مصر
وقوة إله طيبة:

هكذا أتيح لهذا البلد أن يرى صاحبة الجلالة وأباها، أمير پونت على مدار كل
يوم من الأيام، بقدر ما كان مجده مهيباً وخيراً وعزيراً، وأكثر من مجد سائر الآلهة
الأخرى وبقدر ما كان حبه لابنته ماعت كارع عظيماً^(١١٦).

العودة إلى طيبة

عاد جيش رب القطرين فى سلام، ونزل إلى الشاطئ عند الكرنك فى فرح وسرور. كان كبراء پونت فى معيته وقد احضروا معهم ما لم يجلبه أبداً إلى مصر من قبل، ملوك مصر السفلى الآخرون (-احضروا) أعاجيب بلادهم - بقدر المجد المهيّب الذى كان يتمتع به آمون- رع، هذا الإله المعظم، رب عروش القطرين.

● الملكة على رأس المستقبلين

يتقدم حاملو الجزية فى صفوف طويلة قادمين من پونت وبلدان إفريقيا. زعماء پونت يحيون ماعت كارع ويسجدون أمام «ذات الكاءات القوية». ..ونوبيو خنت- إن- نفر وسائر البلدان الواقعة إلى جنوب مصر يأتون منحنين، خافضى الرأس وهم يحملون الجزية حتى المكان الذى تقيم فيه صاحبة الجلالة... إن جميع البلدان فى خدمتها...

ويقول زعماء پونت وهم يتوسلون منها السلام: «تحية لك، أيا ملك البلد المحبوب، أيتها الشمس(*) التى تنير مثل القرص (أتون)، أيا سيدتنا وسيدة پونت، أيا ابنة آمون، ملك الآلهة. لقد انضم اسمك إلى المدار السماوى ومجد ماعت كارع جاب عبر الدائرة الكبرى (المحيط الذى يحيط بالعالم)».

كما يقول زعماء نيمايو^(١١٧) وزعماء إيرم^(١١٨) إلى صاحبة الجلالة، متوسلين منها السلام: «تحية لك»^(١١٩).

حدثت هذه الوقائع وسط تهليل جماهير الشعب فرحاً وابتهاجاً. أكانت فى الحقيقة عيداً من أعياد الإمبراطورية؟ أم إنفعالاً حماسياً مقصوداً، اقتضته صور الملكة والنص المرافق؟

(*) فى المؤنث رغم أنها اسم مذكر فى المصرية القديمة. (المؤلفة والمترجم)

• القرايين المقدمة إلى آمون

سوف تضاف المنتجات القيمة الواردة من پونت والنوبة والسودان إلى كنوز إله الكرنك وثروته، فتعظمها بفضل من تعلن أنها ابنته الملكية.

الملك ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يكرّس أعاجيب پونت وثروات البلد الإلهي وقد اختلطت بجزية بلدان الجنوب وأعاجيب منتجات كوش الخسيسية وإسهامات البلد النوبي، من أجل آمون رب عروش القطرين الذي يقف على رأس الكرنك...

٣١ شجرة بخور ناضرة، أعجوبة پونت من أجل آمون.

وتحت الأشجار تتكدس غيرها من القرايين:

ذهب - (فى هيئة العديد من الحلقات)

مسحوق تجميل أسود - (فى أكياس صغيرة)

عصى رماية أبناء پونت

أبنوس (فى هيئة جذوع)

أكداس ضخمة من البخور النضر.

ومن النوبة والسودان ورد:

ذهب خالص (فى هيئة حلقات أو فى قصعات).

جلود نمور بكميات كبيرة.

نمر حى، تم أسره من أجل صاحبة الجلالة.

٣٣٠٠ رأس ماشية (١٢٠).

كما تم إحضار ريش النعام وبيضها وأقواس وخشب نفيس ولا سيما الأبنوس، بالإضافة إلى زرافة.

إن حتشيسوت «تدفع» مقابل تربعها على العرش، فتوزع على كهنة طيبة ثروات الإمبراطورية الإفريقية.

إنه مشهدٌ نضر أسر وجذاب، فوسط الشمس والأترية يزن الآلهة والبشر جزية الجنوب ويكيلونها، وتؤم الملكة الإحتفالات أمام آمون الجالس على عرش. إن موازين ضخمة وهى موازين تحوت البالغة الدقة تتكس عليها حلقات الذهب. ويراقب عملية الوزن الإلهان حورس و ديبون (النوبى) وتتولى الإلهة سيشات تدوين النتائج بكل دقة. ويسجل المقادير جحوتى الصائغ ورئيس الخزينة^(١٢١) الذى يرفع تقريره إلى الملكة. ويفعل الإله تحوت الشئ نفسه مع آمون.

● حتشيسوت الإلهية

وإذ بدى أن الملكة تشارك فى هذه العمليات، ستقوم بأداء فعلٍ سرى صوفى، من الأفعال المألوفة فى الشعائر الإلهية والذى يعتبر فى نظر جماهير الشعب المجتمعة للإحتفال بالعيد، عملاً يحدد بشكل قاطع ألوهية الملكة.

إن الملك شخصياً، إن ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يمسك بمكيال من الذهب الخالص ويمد ساعده فى اتجاه قمة كوم. إننا نشاهد هنا أول الأفعال الميمونة: كَيْل البخور الطازج المخصص للإله آمون، رب عروش القطرين وسيد السماء، فضلاً عن أفضل منتجات شتى «المحاصيل» الرائعة الواردة من بلاد بونت.

عندئذ بدأت صاحبة الجلالة ذاتها، (تمسح) بيديها كل جسدها بأفضل أنواع البخور. ويصبح عطرها أشبه بالشذا الإلهى؛ إذ اختلطت رائحتها برائحة بونت، ثم (تظهر) بشرتها كما لو كانت مكفّنة بالذهب الخالص، متألقة كالنجوم، داخل بهو الأعياد، فى حضرة جميع أهل البلاد. عندئذ يُقدم جميع أفراد الشعب على أداء شعيرة التهليل والإبتهاج ويحيون فى الوقت نفسه رب الآلهة. ويشيدون بالعظيمة ماعت كارع، وصفاتها الإلهية، بسبب ما حدث لها من أعاجيب رائعة^(١٢٢).

بعد المساهمات العظيمة التى صبّت فى خزانة الكرنك وما أضيف إليها من

ثروات طائلة نصل إلى ذروة «المشهد» الذى أمكن صياغته صياغة بارعة. أهى مجرد حيلة لبقة؟ دون أدنى شك. لقد لاحظ فيكتور لوريه Victor Loret^(١٢٣) أن كتاب الموتى يؤكد على ضرورة رسم الصور بألوان مخلوطة بماء مذاب فيه صمغ البخور. إن هذا المحلول السائل القابض يعطى لوناً دافئاً. وتصبح البشرة لامعة عند مسحها بهذا المحلول. هكذا تبدو حتشپسوت فى نظر الشعب موهوبة، فى آن واحد، بعطر أبيها الإله آمون وبشرته المتألقة. إنه تأكيد على النتائج المترتبة على الولادة الإلهية.

كانت الخطة بارعة. فقد عرفت حتشپسوت كيف تستفيد بحذق وذكاء، من ميل البشر إلى السذاجة وسرعة التصديق. كان كهنة آمون والملكة الطموحة «شركاء فى الخداع»، فالتقت مصالحهم وارتبطت. ولكن أين مصلحة مصر من كل ذلك؟(*)

أما تحوتمس الثالث فأين هو؟ إن تصاوير الدير البحرى لم تهمله. ففى إطار ما يعتقد أنه سيصبح موكباً إحتفالياً رسمياً، نراه مرتدياً التاج الأزرق ويرافق مركب آمون ويطلق البخور فى اتجاهه وتسير حتشپسوت فى أعقابه، وتضع الپشننت على رأسها وتمسك بيدها العصا الكبيرة، رمز القيادة الآمرة.

ومن المرجح أن رحلة پونت هذه، كانت روتينية، شبيهة برحلات أخرى تم تنظيمها من قبل. ولكن كهنة وحرفيى طيبة عملوا على تعظيم هذه الرحلة تحديداً، وتمجيدها من خلال رواية حماسية، قصد تخليدها من خلال نقوش آية فى الجمال ونص مسهب، تمجيداً للملكة الساعية إلى الشرعية.

الحملة إلى محاجر أسوان

كانت المسافة التى قطعتها هذه الحملة أقل بكثير من سابقتها وإن تم إبرازها أيضاً والتأكيد على قيمتها.

(*) ألا يقوم هذا الحكم على مفارقة تاريخية؟ (المترجم)

ففى العام ١٥، وهو عام الإحتفال بيوبيلها، قامت حتشپسوت بارسال سن موت- إلا إذا كان خليفته أمنحوتب - على رأس عدد من السفن بحثًا عن كتلة واحدة من الجرانيت فى محاجر جزيرة سهيل قرب أسوان لاستخدامها فى تشكيل مسلتين. وتُروى هذه الأحداث على الجدار الغربى من الصُفَّة الأولى من معبد الدير البحرى.

فقد ألهمت ذات يوم وهى مستكينة فى القصر بتفاصيل العملية:

كنت قد خلدت إلى الراحة فى القصر وتذكرت من خلقتنى. عندئذ أمرنى قلبى بأن أقيم من أجله مسلتين من الذهب الخالص قد يتداخل هُريَمهما (*) مع السماء (وقد تقامان) فى القاعة الجلية ذات الأساطين، بين الصرحين الكبيرين (الذين شيدهما) الملك، الثور القوى، عا خپر كارع (تحتمس الأول)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الحورس الصادق القول. عندئذ قادنى قلبى، ودفعنى إلى التفكير فى كلمات البشر الذين سيشاهدون معلمى الإنشائى بعد مرور سنوات وسنوات، ويتحدثون عما صنعتته. فأياكم والتحدث قائلين:

«لا أدرى، لا أدرى حقًا، لما صُنِعَ ذلك، ليشكُل حتى أقصنى إرتفاعه تلاً من الذهب وكأنه شىء جاء على نحو طبيعى إلى الوجود».

إنى أقسم

وكما أن رع يُعزّنى،

وكما أن أبى آمون يمتدحنى،

وكما أن أنفى يعود إليه الشباب فى الحياة والقوة،

وكما أننى أرتدى التاج الأبيض واتجلى متألقة بالتاج الأحمر،

وكما أن حورس وست وحدًا حصتيهما من أجلى،

وكما أننى أدبر شئون البلاد مثل ابن إيزيس وقوية مثل ابن نوت (ست)،

وكما أن رع يغرب فى قارب المساء ويستقر فى قارب النهار استقرارًا يقاوم

الزمن ويتحدّ بوالدتيه (**) فى القارب الإلهى،

(*) هُريم المسلة هو قمتها المدببة. (المترجم)

(**) هكذا! مثنى والدته. (المترجم)

وكما أن السماء راسخة وثابت هو كل ما خلقته،

وكما أنني سأبقى للزمن اللانهائي مثل نجم لا يفنى، وأرقد في الحياة مثل أتوم،

وكما أن هاتين المسلتين الشامختين اللتين صنعتهما جلالتي من الذهب الخالص، من أجل أبي آمون، حتى يظل اسمي مخلداً وراسخاً في هذا المعبد للزمن الأبدى والزمن اللانهائي، فإن (هاتين المسلتين الشامختين) هما من كتلة واحدة من الجرانيت الصلد، دون رباط أو وصلة.

لقد أمرت جلالتي بالقيام بهذا العمل في اليوم الأول، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات، من العام الخامس عشر. (ليستمر العمل) حتى اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف، من العام السادس عشر، أو ما يعادل سبعة أشهر، منذ بدء (العمل) في المحاجر (١٢٣مكد).

إن نصاً آخر يعزو هذا الأمر إلى تحوتمس الأول:

إن أباك عاخير كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى هو الذي أصدر أوامره بإقامة هاتين المسلتين وسوف تقوم جلالتك بتجديد هذا المعلم الصرحي (١٢٤).

تم نقل المسلتين من أسوان إلى الكرنك، في بداية الأمر، من المحاجر وحتى شاطئ النيل فوق زحافات من خشب. ثم وضعتا على متن صندل طويل وربطتا بحبال متينة، عندئذ تحرك الصندل هابطاً نهر النيل تسحبه ثلاثون سفينة موزعة على ثلاثة صفوف، يضم كل صف منها عشر سفن. وربطت السفن بحبال مثبتة في القلاع، إن تسعمئة وثلاثين مجدفاً وملاحاً بمعدل ثلاثين مجدفاً لكل سفينة - كانوا يعملون بفضل سواعدهم المفتولة على سير هذا الموكب الطويل. وعند شاطئ طيبة كان البحارة والمجندون ينتظرون على رصيف المرفأ، وصول الحمولة الثقيلة لإنزالها إلى البر. وبالتزامن مع هذه الواقعة، كانت تقدم القرايين إلى الآلهة احتفالاً بوصول المسلتين، وذلك في حضرة الكهنة وكبراء البلاط. كان الجميع يهللون تحية للملكة ولتحوتمس الثالث في المقام الثاني.

وأمرت الملكة بإقامة المسلتين داخل قاعة الأساطين(*) التي شيدها تحوتمس الأول، فيما بين الصرح الرابع والصرح الخامس. إنه مكان غير مألوف لإقامة المسلات التي تنتصب في المعتاد، أمام صرح المعبد في حين أن المقصود من هذه القاعة أن تكون قاعة الإحتفال بتنصيب الملك أو بعيدة اليوبيلى. ومن جانب الملكة، ربما كان ذلك عبارة عن شهادة جديدة عن اهتمامها من جهة، بربط أعمالها الإنشائية بأعمال أبيها وهو ما أكدّه من قبل على ما يبدو، النص الذي سبق الإشارة إليه، كما أرادت من جهة أخرى، أن تؤكد على صفتها كملكة في قاعة مخصصة لإحتفالات التتويج. ولإدخال المسلتين في هذه القاعة الضيقة كان لابد في البداية من إحداث ثغرة في الجدار، وهدم أربعة أساطين في الشمال وأسطونين في الجنوب وفتح السقف ثم العمل على عبور المسلتين الصرح الرابع البالغ ثلاثة عشر متراً طولاً وأربعة أمتار عرضاً. إن هذا العمل الشديد الصعوبة هو مفخرة يستحق عليها مهندسو طيبة المعمارىون كل التقدير.

كان إرتفاع المسلة الشمالية التي ما زالت في مكانها ثلاثين متراً تقريباً. أما المسلة الجنوبية فهي محطمة. وتوجد بقاياها عند مدخل المعبد وقرب البحيرة المقدسة. وجزء آخر منها تحول إلى رحاية طاحونة، عثر عليه في أبو تيج بمحافظة أسيوط. تؤكد المدونات أننا أمام معلمين صرحيين أقيما تمجيداً للملكة، وفقاً لأسلوب ينشد غزارة الصور والصفات تأكيداً على التطور الملحوظ الذي عرفته الأيديولوجية الملكية وهو ما سبق أن لاحظناه:

...ابنة آمون - رع القائمة في قلبه، المتفردة في نظره،

التي جاءت إلى الدنيا بجواره،

الصورة المتألقة لسيد الكون،

(*) وهي خلاف بهو الأساطين الذائعة الصيت الذي يقع في الوقت الراهن بين الصرح الثانى والصرح الثالث. (المترجم)

التي خلقت باو(*) هليوبوليس كمالها،

التي استأثرت بالقطرين، على غرار الإله الذي خلق ذاته، بذاته وأتى بها إلى الوجود لترتدى تيجانه،

التي جاء وجودها مثل وجود خپري(١٢٥)،

ذات الإشراقات الوضّاءة مثل إشراقات إله الأفقين،

إنها البيضة الطاهرة، والبذرة المتألقة التي غدّتها الساحرتان العظيمتان والتي أظهرها آمون ذاته على عرشه، في هليوبوليس الجنوب، واختارها لتسهر على مصر وتحمل النبلاء والشعب.

إنها الحورس المنتقم لأبيه،

إنها محبوبة ثور - أمه الذي أنجبه رع ليخلق من أجله «بذرة» نورانية على الأرض ويؤمن ازدهار البشر.

إنها صورته الحية. ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى(١٢٦).

● من أجل هيبة آمون

لقد أقامت معلماً صريحاً من أجل أبيها آمون، رب عروش القطرين، الذي يقف على رأس الكرنك. فمن أجله شيدت مسلتين شامختين من جرانيت الجنوب الصلد، كان قسمهما العلوي من الذهب الخالص، ومن أفضل أنواع الصحارى. فيشاهدان المرء من شاطئ النهر. إن أشعتهما تغمر القطرين، في حين يسطع بينهما القرص (أتون) كما يتجلى من شرق السماء(١٢٧).

من أجل ذلك منحت الذهب الخالص بلا حدود. لقد كيّله بمكيال، كما يُكَيَّل القمح. وأعلن جلالته كميته بمراى الأرضين المتحدتين. والآن يعرف ذلك، الجاهل والحكيم، على حدّ سواء(١٢٨).

(*) جمع با. والواو علامة الجمع. (المترجم)

● من أجل سيادة الكرنك وهيمنته

أنا أعلم أن الكرنك هو أفق السماء وأكمة المرة الأولى والعين المقدسة لسيد الكون ومقر قلبه، فيحمل جماله وهو «غلاف» أولئك القائمين في معيته (١٢٩).

في غبش القاعة تفرض المسلطان نقوشهما الملونة ولمعان الذهب الذي يكفت قاعدتيهما، في حين يبرز من الظلمة الهريمان المصنوعان من الذهب الخالص و«يختلطان بالسماء». إنها ترجمة في هيئة معلّم صرحى للأيدولوجية المرتبطة بشكل المسلة: إنه الحجر المتميز المنبثق من ظلمات الخواء، ففوقه سطعت الشمس في اليوم الأول من أيام العالم.

٤- مبانٍ شامخة في مصر والنوبة

إن العديد من المباني الأخرى، تخذ عهد حتشپسوت على أرض مصر وفي الأراضي الإفريقية. إنها عبارة عن مباني جديدة أو معابد قديمة، تهدمت وأعيد ترميمها بفضل رعاية الملكة واهتمامها وجهد سن موت ومثابرتة. فقد عقدت العزم على أن تظل في خدمة الآلهة.

الدير البحري

عندما يمضي المرء مبتعداً عن نهر النيل الهادئ، ويتقدم غرباً عبر رمال الدير البحري الوردية، من الصعب عليه عند مشاهدة عظمة وشموخ «معبد ملايين السنين» الخاص بالملكة، ألا تهتز مشاعره. إن صعود الشرفات الثلاث والأحاديير عند سفح جبل الصحراء الغربية، صعوداً وثيداً، وتماثل الصُفّات وتناظرها، ورشاقة الأساطين، بالإضافة إلى التوازن الرائع للكتل الشامخة وما تضيفه على هذه المجموعة من انطباع غريب بالرقّة والسلاسة، وبياض الحجر الجيري الساطع تحت أشعة الشمس، نجد أن هذه العناصر مجتمعة تجعل من وجود الملكة ذات البشرة الذهبية وجوداً فعلياً، حقاً إن هذا المعبد هو جسر جسرٍ أى «أروع الروائع». لقد عرف سن

موت كيف يصوغ مجموعة معمارية تتألف خطوطها وأحجامها وألوانها طبقاً لنسب توافقية تصل إلى حد الكمال: إن الخط الرأسى الصاعد الممتد عبر الأحادير والشرفات المتدرجة، يقابله الخط الأفقى العريض للصفات فيُحدث توازناً رائعاً، بينما يُشكّل الحجر الجيرى الأبيض ببريقه الذهبى وحدة متناغمة، لا يكاد يخلّ بها سوى بابين من الجرانيت الوردى.

لقد حُفر نصف المعبد فقط، ومنه قدس الأقداس، فى صخر الجبل.

لم يكن سن موت مبدعاً بالكامل فى كل ما صمّمه. فإلى الجنوب قليلاً كان مونتو حوتب الأول^(١٢٠) قد شيد معبده الجنائزى وكان تخطيطه قريب الشبه بمعبد الدير البحرى إلى حد كبير، من حيث مراعاته الموقع الطبيعى ببراعة ومهارة.

وعند الحد الفاصل بين الأرض المنزرعة والصحراء كان سن موت، قد شيد فى الأصل معبد الإستقبال الذى كشف عنه كارتر Carter وكارنارثون Carnarvon عام ١٩١٠، ولكنه كان مهدماً إلى حد كبير.

من هنا كان يبدأ طريق صاعد يسير فى الإتجاه شرق-غرب، نحو معبد حتشيسوت. كانت تحفه تماثيل أبو الهول ويفضى إلى فناء فسيح بعد أن يكون على ما يعتقد قد اجتاز صرحاً. وفى الأصل كان هذا الفناء محاطاً بأسوار تحطمت فى الوقت الراهن. وكان يضم حوضين على شكل حرف T تنمو فيهما نباتات البردى والزهور وتحيط بهما الحدائق. وحاولت حتشيسوت أن تُوقلم فيه أشجار البخور التى جلبتها من بلالذ بونت.

يتكون المبنى الشامخ ذاته من ثلاث شرفات متدرجة ترتبط فيما بينها بواسطة أحدور صاعد يخترق محور المعبد.

كانت الشرفة الأولى أو الفناء الأدنى تكتنفه، أسوار منخفضة وعريضة تنتهى عند الغرب بصفة مزبوجة ذات صفى أساطين وتستند إلى الجدار الذى يحمل الشرفة الثانية وينقطع امتدادها عند الوسط لعبور الأحدور الصاعد. كان كل جناح من جناحي الصفة يضم صفى أساطين يتكون الأول من أحد عشر عموداً واجهته الأمامية مسطحة وواجهته الخلفية مستديرة ومقناة. ويضم الصف الثانى أحد عشر أسطواناً،

يتكون كل أسطون من ستة عشر ضلعاً، أطلق عليها شمبوليون الأساطين البروتودورية Protodoriques، إذ كانت في نظره قريبة الشبه من الأساطين الكلاسيكية اليونانية. ترى هل كان سن موت مصدر إلهام المهندسين اليونانيين؟ وعند كل طرف من طرفي الصفة كان ينتصب تمثال أوزيرى عملاق للملكة. ولم يتبق في مكانه، في الوقت الراهن، سوى التمثال الشمالى. إن نقوشاً موزعة على عدد من الصفوف تزخرف الجدار الخلفى من الصفة: فصورت في الجنوب عملية إقامة المسلتين القادمتين من أسوان. أما في الشمال، فصورت مشاهد الصيد البرى والصيد النهري، كما صورت الملكة في هيئة أسد منتصر على أعدائها، عملاً بالأيقونوغرافيا الشعائرية التقليدية.

كما كانت تكتنف الشرفة الثانية، من جهة الغرب، صفة مزدوجة ينقطع إمتدادها عند الوسط لعبور أحدها، وتتقدم الجدار الذى يحمل الشرفة الثالثة. تتكون هذه الصفة من صفين من اثنين وعشرين عموداً مربعاً. كان يحف الشرفة من الناحية الشمالية صفة أخرى غير مكتملة تضم خمسة عشر أسطوناً من الطراز البروتودورى ذى الستة عشر ضلعاً وتفضى إلى أربع كوات غير مزخرفة. ينتهى امتداد الصفة الغربية ناحية الشمال وناحية الجنوب، بأعمدة مقصورتين محفورتين فى صخر الجبل ويسقف مقببى. مقصورة الشمال مكرسة للإله أنوبيس وتتكون من بهو أساطين والسقف باللون الأزرق المرصع بالنجوم الصفراء ويرفعه اثنا عشر أسطوناً من الطراز البروتودورى، وعلى الجدران تصور النقوش حبشيسوت وتحوتمس الثالث، وهما يقدمان القرابين للآلهة. وبعد هذه القاعة تتعاقب ثلاثة مقاصير، أما مقصورة الجنوب فمكرسة للإلهة حتحور، وهى محفورة فى الصخر وتضم بهوى أساطين بروتودورية وتيجان حتحورية للمقصورة الأولى التى تتقدم سلسلة من الحجرات المحفورة فى صخر الجبل. وقد حفرت كل واحدة منها عند مستوى أعلى من الأخرى وتتصل فيما بينها بواسطة درجات. فعلى جدار المؤخرة من الصفة الغربية نقشتمت جهة الشمال مشاهد ونصوص الولادة الإلهية. أما رحلة بونت فقد نقشتمت فى الجهة الجنوبية.

وتتكون صفة الشرفة العليا من ستة وعشرين عموداً أوزيرياً للملكة. إن باباً من الجرانيت يفضى إلى الفناء الداخلى الذى يبلغ أربعين متراً عرضاً وستة وعشرين متراً عمقاً. وربما كان يشكل فى الأصل بهو أساطين يضم مئة وثمانية أساطين ذات

سنة عشر ضلعاً لكل أسطون. وتقوم في الوقت الراهن(*) بعثة مصرية بولندية بإعادة تشكيل صفوف الأساطين. ويعتبر هذا البهو تنويجاً حقيقياً للشرفة الثالثة وتكتنفها من جهة الشمال مقصورة شمسية غير مسقوفة. أما من ناحية الجنوب فتوجد مقصورة جنازية مقبأة مكرسة للملكة ولوالدها تحوتمس الأول. وجدارها الخلفي، وهو الجدار الغربي، يزدان بباب وهمي. ويعتقد أن هذه المقصورة كانت تستخدم في إقامة الشعائر الجنازية الملكية.

ووفقاً لمجموعة علاقات أيديولوجية تتوافق نسبها بحصافة وتتوازن توازناً يعادل العلاقات القائمة بين مختلف العناصر المعمارية، يتشابك موضوعا الحياة والموت ويتداخلان، باعتبار أن الوفاة ليست سوى لحظة يمكن قهرها وتجاوزها تجاوزاً سحرياً. وعلى جانبي الشرفة الثانية نجد أن الإله الجنازي أنوبيس المشارك النشط في بعث المتوفى وعودته إلى الحياة، كان محل توقير وتكريم في الجهة الشمالية. أما حتحور الإلهة السماوية والمرضعة واهبة الحياة، فكانت تعبد في الجهة الجنوبية. وعلى جانبي الشرفة الثالثة كانت تقام الشعائر الشمسية من أجل الإله حور آختي في الجهة الشمالية، أما في الجهة الجنوبية فتقام الشعائر الجنازية من أجل الملوك. إن الانسجام القائم بين مختلف المواضيع على قدر كبير من التطور. إن عناصر معبد الدير البحري من حيث موقعها واتجاهها، تتوفر فيها أبعاد منظومة نجمت عن تبادل الأفكار وإعمال الذهن، سواء من حيث التوازن القائم بين كتله أو التوافقات الروحانية السامية.

تتداخل مع ما سبق، كبرى الرموز المصرية المرتبطة بالحياة المتجددة على الدوام: وهي الحقائق والزهور والأشجار في الشرفة الأولى، والأسود التي تحمي الطريق الصاعد إلى مدخل الشرفة الأولى، والثعابين التي تلتف على نفسها، على امتداد حاجز الطريق الصاعد إلى الشرفة العليا. كل هذه العناصر هي رموز واستدعاء سحري للحياة. فقد كان المصريون مولعين ولعاً شديداً بالنظام والإعتدال والتوازن والسحر، معاً وفي آن واحد.

(*) صدر الأصل الفرنسي من هذا الكتاب عام ١٩٨٦. (المترجم)

ومن وسط الجدار الغربى، من معبد ملايين السنين هذا، نصل إلى القسم المخصص لقدس الأقداس الذى ندخل إليه عبر باب ثانٍ من الجرانيت الوردى. كان يتكوّن من ثلاث حجرات متلاحقة على التوالى، تضم على جانبيها عددًا من الكوات لحفظ كل ما هو ضرورى لإقامة الشعائر.

كانت تقام الطقوس الدينية فى الدير البحرى من أجل الملكة وأبيها تحوتمس الأول والإله آمون - رع ومن أجل أنوبيس وحتحور وحمور آختى، فى المقاصير الملحقة.

وتعبّر الآلهة عن الإعتراف بالجميل:

كلمات قالها آمون - رع، رب عروش القطرين الواقف على رأس «أروع الروائع»:

«مرحبًا، مرحبًا فى سلام، أيا ابنتى التى من صلبى، يا محبوبتى ماعت كارع، فى هذا المعبد الطاهر، المزدهر ببركاته وخيراته الذى شيدته فى المكان النورانى، (مكان) المرة الأولى. إن قلبى سعيد، إلى أبعد الحدود. وأتجلى متألّفًا عندما أشاهد جمالك، بينما تمسكين المجداف، وتقدمين الماء الرطب، أنت يا صاحبة اليدين الطاهرتين... الإبنة المباركة الخيرة لأبيها، وريثة من أنجبها. لبتك تملكين هذا الميراث لملايين السنين!... إن اسمى هو الذى يتقدم اسم القاسوع الإلهى، إن اسمك هو الذى سيتقدم اسم الأحياء، مثل رع للزمن اللانهائى^(١٣١)».

الكرنك

أما فى الكرنك فقد أمرت حتشپسوت بإقامة مقصورة لاستراحة مركب آمون عندما كان يشارك من خلال تمثاله فى المواكب الإحتفالية. ونطلق عليها إصطلاحاً المقصورة الحمراء^(١٣٢)، بالنظر إلى لون الحجر الذى شُيدت منه، وهو حجر الكوارتزيت الوردى، الذى يميل لونه أحياناً إلى الأحمر الطوبى ويُجلب من منطقة الجبل الأحمر شرق مصر الجديدة. وقد استطاع هنرى شيفرييه Henri Chevrier أن يجمع أجزاء هذا البناء الصرحى، لأن خلفاء حتشپسوت قد أعادوا استخدام أحجارها فى منشاتهم ونذكر منهم فى المقام الأول أمنحوتب الثالث الذى استخدمها

فى أساسات الصرح الثالث. وتم الكشف عن كتله الأولى والتعرف عليها، من قبل ليجران Legrain فى الرابع من يناير ١٨٩٩، عند الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الصرح. وعثر على كتل أخرى موزعة داخل مبانٍ لاحقة فى الكرنك، كالممر الذى يربط الصرح الثالث بالصرح الرابع ومعبد پتاح وغير ذلك...

ربما كان هذا الأثر الجميل قائماً فى الأصل أمام مقصورة قدس الأقداس الرئيسية أو أمام مسلتى تحوتمس الأول^(١٣٣). وقد نقش على مشاهد طقسية تنصدها حتشپسوت: منها مشاهد إعتلاء الملكة العرش وتتويجها، كما لاحظنا من قبل^(١٣٤)، ومشاهد تقديم القرابين والتعبد وشعائر تأسيس المعبد ومواكب الأعياد الإحتفالية. كما صور تحوتمس الثالث أحياناً، وإن كان يحتل المكانة الثانية^(*).

وعلى المحور الشمالى الجنوبى من المعبد الكبير، أمرت الملكة ببناء الصرح الثامن من الحجر الرملى. ومن المحتمل من جانب آخر، أن تشييد هذا الصرح كان قد بدأ فى عهد تحوتمس الثانى، إذ أقيم تمثالان عملاقان لهذا الملك عند واجهته الجنوبية.

فى مصر، بعيداً عن الكرنك

وبعيداً عن الكرنك، وفى مصر تحديداً، أمرت حتشپسوت فيما بين العامين الخامس والسادس، بإقامة مقصورة من الحجر الرملى ومسلتين فى جزيرة إلفنتين، كُرسَتْ جميعها للثالوث المحلى: خنوم وساتيس وأنوكيس.

وفى هرموبوليس، حيث كان يعبد الإله تحوت والآلهة الثمانية الآخرون من ثعابين وظيفادع التى خلقت العالم، أمرت ببناء معبد من الحجر الجيرى الأبيض وأعادت تنظيم شعائر العبادة:

(*) يمكن مشاهدة هذه المقصورة فى الوقت الراهن فى المتحف المفتوح بمعبد الكرنك بعد أن تم تجميع ما عُثر عليه من أحجارها وإعادة بنائها فى فترة التسعينات من القرن الماضى، بمعرفة المركز الفرنسى المصرى بالكرنك، تحت إشراف المهندس الفرنسى لارشيه Larché. (المترجم)

تحت العظیم سلیل رع... لقد صنعت من أجله مذبحاً من الفضة والذهب، فضلاً عن صناديق لحفظ الأقمشة وشتى أنواع الأبوات، من أجل محل إقامته. (إن الكاهن) الذى يدخل وجهاً لوجه (مع الإله) والذى يقود التاسوع الإلهى بأكمله فى موكب إحتفالى كان يجهل مهمته. كان المكان يفتقر إلى الشخص الكفء. كانت رؤوس الآباء الإلهيين خاوية... عندئذ شيدت معبده الكبير من الحجر الأبيض الوارد من طرة وكانت أبوابه من البستر حتنوب والمصاريع من النحاس والنقوش من الذهب الخالص، ورائعة (كانت صور) صاحب الريشتين العاليتين. وجعلت جلالة هذا الإله يشرق متألقاً فى أعياده فى هيئة نحب كاو(*)، وأقيمت من جديد الإحتفال بعيد تحوت(١٣٥).

وصلنا هذا النص من المدونة الكبيرة التى أمرت حتشپسوت بنحتها فوق باب مدخل المعبد المحفور فى الصخر التى أشرفت على إقامته إكراماً للإلهة پاخت(**) على مقربة من بنى حسن فى مصر الوسطى. أطلق الإغريق على هذا المعبد الكهف اسم سپوس أرتميدوس Speos Artemidos، وعرفه العرب تحت اسم إسطبيل عنتر. أما المصريون فقد أسموه «البيت الإلهى فى الوادى». لقد أقيم فى العام العاشر، بالنظر إلى ورود إشارات إلى حملة پونت.

إن جزءاً كبيراً من الصفة التى تتكون من صفين من الأعمدة المربعة مدمر. وما زال ممر ضيق طوله ثلاثة أمتار يفضى إلى القسم الخاص بقدس الأقداس. وفى مؤخرته كوة كانت تضم على ما يعتقد التمثال الإلهى:

كانت پاخت العظيمة تحوم فى الوديان عند الشرق. إن الطرق التى عصفت بها الأمطار قد تعطلت. وتوقف التطهر بالماء. عندئذ أعدت بناء معبدها من جديد بأن حفرته (فى صخر الجبل)... من أجلها ومن أجل تاسوعها. كانت مصاريع (الأبواب)

(*) (ثعبان يمن بالنعم ويجود بالخيرات. معنى اسمه «ذاك الذى يمدّ الكاءات بالمؤن». لمزيد من التفاصيل، راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص ٢٩٢-٢٩٣. (المترجم)
(**) إلهة أسدة أو قطة واهبة الأمطار الغزيرة. (المؤلفة)

من السنط ومكفنة بالنحاس و... كان من الذهب الخالص. ومن جديد استعاد الكهنة
نور الأيدي الطاهرة وظائفهم (١٢٦).

وعلى امتداد وادي النيل واصلت الملكة أعمال ترميم المباني الشامخة التي
خربها الهكسوس، تحديداً:

أقيمت مذابح النار وتعاضمت مساحات المقاصير وهي المقار المحببة إلى جميع
الآلهة، (واستعاد) كل إله المعبد الذي كان مُغرماً به، فيستريح كماؤه على عروش... لقد
أقمت حجرة سرية داخل (كل) معبد، بعيداً عن المكان الذي تطأه الأقدام. لقد شكّل
جسد كل إله من الذهب الخالص الوارد من بلاد عامو، وتم تأمين إقامة أعياده منذ
افتتاح (المعبد)، وفي الفصل المحدد لها، مع الإلتزام بالقاعدة التي وضعتها. لقد أعدت
العمل بالتقاليد والأعراف التي سبق تحديدها منذ الأزمنة السحيقة. إن فكرى الإلهي
يستشرف المستقبل وقلبي الملكي يبشر بالزمن الأبدى (١٢٧).

اسمعوا إذن، أنتم جميعاً، يا أيها الأشراف ويا عامة الناس، مهما كانت
أعدادكم. لقد أنجزت كل ذلك بدافع من قلبي... فما كان خرباً صار مزدهراً. وقومت
ما كان قد تقوّض، منذ زمن إقامة الآسيويين في قلب الدلتا، في أواريس، بينما كان
البدو بين ظهرانيتهم يدمرون ما كان قد شُيد. أرايوا أن يحكموا ويتسيبوا، وهم
يجهلون رع.

كان سلوك البشر قد توقف عن الإلتزام بما أمر به الله إلى (حين قدوم)
جلالتي. عندئذ تربعت بثبات على عروش رع، فوعدت بسنوات لا حدود لها، عندما
تسلمت مقاليد السلطة. لقد أقبلت بصفتي حورساً متفرداً مثل لهب يحرق أعدائي.
وطردت ما كان مقيماً في نظر الله العظيم. عندئذ ذهبت الأرض بنعالهم (أي نعال
الهكسوس). تلك هي قاعدة أبي أبائي الذين ظهر كل منهم في زمنه. فلن يخالف أحد
أوامري وقائمة ألقابى راسخة رسوخ الجبال. وعندما يتألق القرص الشمسى (أتون)،
فإنه يبسط أشعته عليها (على القائمة). شامخ هو حورسى فوق السرخ، للزمن
اللانهاى (١٢٨).

ما تقدم هو تعريف موغل فى المصرية للنظام الملكى. فهل ذهبت حتشپسوت إلى الظن بأنها طردت الهكسوس؟ هذا ما قد يستتجه الفكر العقلانى فى أيامنا هذه، الشديد الإلتصاق بالمعنى الحرفى للنصوص. أما بالنسبة للمصريين، فإن عهد كل فرعون من الفراعنة، هو فى حد ذاته مجمل التاريخ، الموزع على سنوات عهده الشخصى. ومع تنصيب كل ملك من الملوك، وبالتزامن مع تسلمه التيجان والصوالج(*)، فإنه يستأثر لحسابه بأعمال أسلافه. وإذا صح التعبير، فإنه يأخذها على عاتقه لتصبح من منجزاته. فلا وجود للملوك كأفراد، ولكن لذرية شرعية واحدة، يمثلها كل ملك على امتداد سنوات حياته على الأرض. ولا يقصد بذلك الفرعون بمعناه المجرد، بل الفرعون الدائم الوجود، إلى أبد الآباد، قد تختلف وجوهه وأسماءه، ولكنه يظل بعيداً عن الزمن بفصوله ومختلف مواسمه. إنه الصورة الحية للعاهل الملكى. فيستمد النظام الملكى المصرى معظم مقوماته من فكرة، ومن عمل يتواصل عبر الزمان، أكثر مما يتجسد فى فرد. ويتولد تناغم هذا التاريخ الفريد وتناسقه فى المقام الأول من الألفاظ والسحر المؤثر والكلمة التى تخلق الرباط الذى لا غنى عنه، للتألف المتواصل للنظام الملكى.

ولذلك وكما ظهرت ثغرة فى هذه السلالة السليمة، سوف يتم ملاحقة ذكرى هذا المغتصب الباغى مثل حتشپسوت أو محطّم التقاليد المتواترة مثل أمنحوتب الرابع. لذا كان لابد من تدمير اسميهما كعنصر من عناصر الحياة، ليسقط فى طى النسيان. كانت حتشپسوت تعرف ذلك حق المعرفة، عندما سعت بشتى الطرق إلى الارتباط بملوك مصر وتتابعهم، فى محاولة منها لتربير تربعها على عرش البلاد. وبفضل النصوص التى أمرت بنقشها تحقيقاً لهذا الغرض، فإننا نقف بطريقة أفضل على أبعاد التصور المتسامى للنظام الملكى فى نظر المصريين فيستجيب، فى واقع الأمر للقواعد نفسها التى تعرف عالم الآلهة: شدة الاهتمام بالحقيقة والعدالة واحترامهما وحماية البشر والحفاظ على نظام العالم. فمنذ أمد بعيد، وعلى الدوام، ظل الملوك والآلهة مرتبطين ارتباطاً لصيقاً، سواء فى الاحتياجات اليومية أو فى

(*) جمع صولجان. المعجم الوسيط. (المترجم)

ضرورة تأمين التوازن الكونى. إن نصاً آخر فى سپوس أرتيميدوس بالغ الدلالة. فتقول
حتشيسوت عند حديثها عن آمون:

إنى أرتقى بالحقيقة والعدالة اللتين يحبهما، لأننى أعرف أنه يحيا بفضلهما.
ولذا فهو خبزى أنا أيضاً، وارتوى من أندائه. وفى الحقيقة فأنا وهو جسد واحد. لقد
انجبى لأنشر قوته وهيبته فى هذا البلد، فأنا سيد كافة الملوك^(١٣٩).

لا شك أن حتشيسوت كانت شديدة الذكاء، أو أن كهنة آمون كانوا يعملون من
أجلها... لصالحهم؟

فى النوبة

كما سعت حتشيسوت إلى تأكيد وجودها فى أراضى الجنوب أيضاً.

وفى موقع بوهن على بعد خمسة كيلومترات جنوب وادى حلفا، وقد غمرت مياه
بحيرة ناصر هذا الموقع فى الوقت الراهن، وعند ملتقى واوات وبلاد كوش، كان
سنوسرت الأول قد أقام فى زمن سابق معبداً مكرساً للإله حورس فى بوهن. ومن
المحتمل أن تحوتمس الثانى كان قد شرع فى إقامة معبد آخر، إلى الجنوب قليلاً، وإن
كان يعتبر من انجاز حتشيسوت فى معظمه. لقد شُيّد من الحجر الجيرى والحجر
الرملى وقُطعت أحجاره وسُوّيت بدقة فائقة. كان يتكون من بهو أساطين تحمل سقفه
ثلاثة صفوف من ستة أساطين، يليه القسم الخاص بقدس الأقداس، المقسم إلى خمس
حجرات وتكتنفه من الجانبين صفة مكونة من أساطين ذات أربعة وعشرين ضلعاً. كان
يحيط بالمعبد سور من الطوب. ومن هذه المجموعة كلها التى سيواصل تحوتمس
الثالث زخرفتها، لا يتبقى سوى بعض المداميك.

وإلى الشمال قليلاً عند موقع إبريم أمرت حتشيسوت بإقامة مقصورة محفورة
فى صخر الجبل على البر الشرقى من النهر. وقد فعل خلفاؤها الشئ نفسه. وكافة
هذه المقاصير التى أقامها تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى ورعمسيس الثانى، تتميز
بتماثل رسمها التخطيطى وبساطتها: فتتكون الواجهة عند مستوى سفح التل من باب

ضيق يعلوه ساكف منحوت وتحده دعامتان تحمل بعض المدونات باستثناء مقصورة حتشيسوت. ثم يدخل الزائر إلى حجرة صغيرة إلى حد ما، محفورة في الصخر ومفتوحة في الجهة الغربية وتطلّ على النهر. وهي مستطيلة الشكل والجانب الأطول عمودى على المدخل وسقفها منخفض ومن المحتمل أنه كان ملوناً. وجدار الخلفية وهو الشرقى تشغله كوة تضم تماثيل تواجه المدخل^(١٤٠). وعلى الجدران نُقشت النصوص والمشاهد. هذه المقاصير قريبة الشبه من حيث تخطيطها وتشبيدها من مقابر جبل السلسلة التذكارية. والمقصورة التي أقامتها حتشيسوت مكرسة لكل من حورس وساتيس جزيرة إلفنتين.

كما أمرت الملكة بإقامة مسلة صغيرة من الجرانيت فى إبريم.

مقبرتنا حتشيسوت^(١٤١)

أمرت الملكة بتشبيد مقبرتها الأولى فى منحدر صخرى يشرف على الوادى الغربى(*) القائم بين وادى الملوك ووادى الملكات، وسوف يدفن فيه فى زمن لاحق أمنحوتب الثالث وأى. إنه أحد الوديان الصحراوية بالبر الغربى لمدينة طيبة. وتوصل كارتر Carter وماسيه Mace عام ١٩٠٣ إلى الكشف عن المقبرة. كانت محفورة على مسافة ٤٠ متراً من أعلى الجرف الصخرى وعلى ارتفاع ٦٧ متراً من الوادى. ولأنها تتجه مباشرة ناحية الغرب، كانت أشعة الشمس الغاربة تدخل مباشرة فى ممر المقبرة عند الاعتدال الخريفى(**). كان منعطف يفضى بعد ذلك إلى القسم الأوزيرى من المقبرة. وأخيراً كان ممر ثانٍ يؤدى إلى حجرة الدفن التى وضع فيها التابوت الأول المعدّ للملكة وهو من الكوارتزيت الأصفر. بل وشرع الحرفيون ينقشون مقتطفات من

(*) ونصل إليه من الطريق نفسه الذى يؤدى إلى وادى الملوك الرئيسى، ولكن يتفرع منه طريق آخر يقود الزائر إلى الوادى الغربى وقبل حوالى ٤٠٠ متر من وصوله إلى الوادى الرئيسى. (المترجم)

(**) أى عند تسامت الشمس على خط الاستواء أو يوم ٢٣ سبتمبر تقريباً. وهى ظاهرة مشابهة لما يحدث فى معبد أبو سمبل الكبير، وإن فى تاريخ لاحق. (المترجم)

كتاب الموتى. ثم هُجر كل شيء وترك في مكانه. وظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. وفي زمن لاحق سطى عليها اللصوص ونهبوها بأن تدلوا بواسطة حبل من أعلى الجرف الصخري. ولم يتبق سوى التابوت الذي تم انزاله بصعوبة بالغه إلى قاع الوهدة وهو من مقتنيات متحف القاهرة(*) في الوقت الراهن.

واعتباراً من العام السابع، بدأ تشييد مقبرة ثانية وهي مقبرة ملكية. ووقع الاختيار على مكان في الوادي الذي كان يرقد فيه تحوتمس الأول ويقع على الجانب الآخر من الجرف الصخري(**) الذي كان يستند إليه معبد الملكة الجنائزي. وأشرف حيوسنب على تشييد المقبرة التي استمر العمل فيها حتى العام ١٦، وحفرت في عمق صخر الجبل وتضم ممرات يبلغ طولها ١٥, ٢١٣م. وتقع حجرة الدفن على عمق ٩٧م ولا تضم أبار. ويعتقد هايز Hayes أن التخطيط الأولي كان يفترض وجود وسيلة اتصال بالمعبد^(١٤٢). وقد وضع في الحجرة تابوت الملكة الحجري، ولكن سرعان ما تحول ليسجى فيه جثمان والدها تحوتمس الأول. لماذا هذا الاستبدال؟ لا ندري. فلم يُعَدَّ على مقبرة الملك ولم تقع فيها أعمال سلب ونهب. ولكن هذا الانتقال تم على جناح السرعة: بل إن التعديل الذي أدخل على التابوت الحجري جرى بطريقة خرقاء يعوزها الحذق والمهارة. كان تابوتا الملك الخشبيان كبيران ويصعب إدخالهما في التابوت الحجري. فتركا في مكانهما ووضع المومياء مباشرة في التابوت الحجري. وأعدَّ تابوت ثالث للملكة. هكذا ليرقد الأب وابنته، جنباً إلى جنب.

تعتبر هذه الواقعة بمثابة تبرير أخير من جانب الملكة، لما حدث في حياتها وإن جاء بعد وفاتها.

لا نعرف على وجه التحديد ظروف وفاة حتشيسوت، بعد أن اغتصبت عرش مصر، لمدة ستة عشر عاماً.

(*) في صحن الطابق الأرضي. (المترجم)

(**) هذا الجرف الصخري يفصل وادي الملوك عن الدير البحري ويحلو لبعض الهواة أن يتسلقوه للعبور من الدير البحري إلى وادي الملوك أو العكس. (المترجم)

الفصل الخامس

خوتمس الثالث

أو المجد الإمبراطوري

فى العام ٢٢، من «عهده»، أى عام ١٤٨٠ ق.م تقريباً، تبوأ تحوتمس الثالث أخيراً بمفرده عرش مصر، ليحتفظ بعد ذلك بسلطاته لفترة ثلاثين سنة، ويصبح واحداً من ألمع ملوك تاريخ مصر وأكثرهم مهابة. وإذ تحلى بالشجاعة ونفاذ البصيرة، فسوف يبدأ بإعادة فتح الإمبراطورية الآسيوية التى كانت تحاصرها التهديدات من جراء انحسار نشاط حتشيسوت العسكرى، وأرسى القواعد الأساسية لإقامة الجهاز الإدارى الذى سيتولى الإشراف على مجمل البلدان الخاضعة لهيمنته وابتدع أيديولوجية إمبراطورية حقيقية وجديدة.

الإله الكامل، رب السعادة، سيد التجليات الوضّاءة الذى استحوذ على التاج الأبيض ووحد القوتين (البشتت)، حياة وقوة. إنه صورة رع وورث الإله الذى وهبه حكومة الشاطنين، وابن التاج الأبيض الذى أنجبه التاج الأحمر^(١)، والذى أقامته الساحرتان (الصلان)، وبذرة أتوم المتألقة، وبيضة خبرى الفطنة، ومن أعيان ماعت، منذ أن كان فى بطن (أمه).

لقد مُنح الأسود والأحمر، كما أن مصر العليا ومصر السفلى فى قبضته. ومجده فى عنان السماء والتخوف منه يخترق الأرض، والرعب الذى يثيره فى النفوس يجوب كل بلد من البلدان الأجنبية.

إنه ملك الملوك وأمير الأمراء والقرص الشمسى (أتون) لكافة البلدان،

إنه ابن رع: تحوتمس، صاحب الصيرورات الكاملة^(٢).

١- الملحمة البطولية:

حملات الفرعون السبع عشرة إلى آسيا

عندما وجد تحوتمس الثالث نفسه، سيد مصر الأوحى، كان الوضع فى الشمال خطيراً.

وبالفعل، فإذا كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل، قد هُزموا بقدر من السهولة، على ما يبدو، الأمراء الآسيويين، فلأنهم وجدوا أنفسهم يتعاملون على الدوام مع أعداء متفرقين لم يربطهم وفاق أو اتفاق. ولكن الممالك الهندوأوروبية الجديدة كانت قد زادت من قوتهم: ونذكر على وجه التحديد الميئانى الذى فرض سيادته على أعالي الفرات، فسعى بعد ذلك بالضرورة إلى التوسع حتى الشاطئ الشمالى من سوريا ليكتسب على هذا النحو، منافذ بحرية لا غنى عنها. كانت المنطقة الواقعة بين حلب وكركميش هى الطريق الطبيعى الذى يربط النهر العظيم بالبحر المتوسط. فمن استحوذ عليها فرض هيمنته المؤكدة على القسم الأمامى من آسيا الشمالية. وشأنها شأن سوريا، كانت هذه المنطقة مقسمة إلى عدد من المدن والإمارات. ويبدو إذن أن ملوك واشوجانى(*) قد انتهزوا فرصة الضعف المؤقت الذى عانت منه مصر عندما كانت تحكمها ملكة لا تستطيع الخروج على رأس جيش لشن الحروب، فسعوا إلى تشكيل تحالف عريض معادٍ لها بقيادة أمير قاش من الناحية الرسمية. كانت قاش قلعة منيعة تقع على نهر العاصى فى سهل البقاع وسوف تظل حتى فى زمن رمسيس الثانى، مركز كل الحروب ضد مصر.

يُعيد تحوتمس الثالث إلى الأذهان هذه الأحداث على لوح حجرى نُقش فى العام ٤٥ من عهده، وأقيم فى جبل برقل. تقول المدونة:

لقد أناط (أمون - رع) بى حكم بلاد ريتو، خلال الحملة الأولى. لقد تقدموا ليحاربوا جلالتى. كان الرجال بالملايين وبعشرات الآلاف، وزعماء كافة البلدان الأجنبية يمتطون جيادهم. كانوا ٣٣٠ أميراً ومع كل أمير من الأمراء جيشه(٢).

(*) عاصمة الميئانى وهى تل الفخارية حالياً. (المترجم)

ولما كان تحوتمس الثالث مدركاً الخطر الذي يتهده، قام بالحملة الأولى، منذ السنة الأولى من حكمه. وسوف يصل عدد هذه الحملات سبع عشرة، قادها الملك الشاب إذ كان عمره يناهز الثلاثين آنذاك. وقد تحلى برؤية سياسية وبراعة استراتيجية جديرتين بالملاحظة.

إننا نعرف هذه الحملات معرفة مؤكدة، على وجه التحديد، بفضل المدونة المسهبة التي أمر الملك المنتصر بنقشها على الجدارين الشمالي والغربي من الممر الملتف حول قدس أقداس معبد آمون- رع الكبير بالكرك. إنها عبارة عن ٢٢٥ سطراً من النصوص يبلغ كل سطر ٢٥ متراً طوياً. إنها أطول وأقدم رواية تاريخية، معروفة إلى يومنا هذا، ونطلق عليها إصطلاحاً حوليات تحوتمس الثالث (*). احتاج الأمر من حرفي طيبة قدر كبيراً من المهارة والصبر لإعداد هذا النص. ولكن بفضل مجهودهم هذا، كانوا ينجزون عملاً عظيماً، ليس من الناحية المادية فحسب، بل من الناحية الروحية أيضاً، فكان مقدر له أن يخلد أمجاد مصر ويبقيها حية. كان الماضي في نظر المصري، وبمعنى آخر كان التاريخ، لا يتكون فقط من مجموعة وثائق تصنف في المحفوظات، ولكنه يضم كبرى الروايات التي تعظم الأفعال والأحداث وتمجدها، من خلال الألفاظ، لتستعيد حياة فعلية، عندما يقرأ المرء هذا النص، وبفضل السحر الذي تنطوي عليه الكلمة.

قاد العمليات العسكرية ملكاً، فكان ضابطاً مرموقاً، استطاع إبان حملاته الأربع الأولى، أن يكسر شوكة تحالف الأمراء الآسيويين، فأحرز النصر في معركة مجنّو وحافظ بعد ذلك على فتوحاته على أكمل وجه. وربما كانت الحملات الأربع التالية أهمها جميعاً، إذ أتاحت لمصر أن تصل إلى حدود نهر الفرات وتؤكد لمرتين متعاقبتين

(*) يحتفظ متحف اللوفر بأجزاء من هذه الحوليات وتروى وقائع ست حملات من الخامسة إلى العاشرة وارتفاعها خمسة أمتار تقريباً ويتجاوز عرضها المتر بقليل. وهي من مجموعة سالت Salt وحصل عليها المتحف عام ١٨٢٦ بناء على توصية من شامپوليون Champollion.

G. Andreu, M.-H. Rutschowskaya, Ch. Ziegler, L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette,

(المترجم). 1997, pp. 109-110.

سيطرتها التامة على الموانئ الفينيقية. كان للحملات اللاحقة مجرد قيمة شكلية غايتها تأمين الوجود المصرى فى آسيا. وجاءت الحملة السابع عشرة لتقرر بشكل قاطع فى أعقاب عدد من المعارك، على تماسك الإمبراطورية برعاية الفرعون.

معركة الاستيلاء على مجدو والزحف نحو الشمال

من يرازا (مدينة فى شمال غرب فلسطين) وحتى مستنقعات الأراض (الفرات) كان الجميع قد تمربوا ضد صاحب الجلالة^(٤).

ذهب تحوتمس الثالث لاستشارة آمون فى معبده قبل أن يتجه ناحية الشمال: خرجت من معبد أبى آمون، ملك الآلهة الذى أمر بأن يكون النصر من نصيبى^(٥).

سيجرى العرف من الآن فصاعداً، استشارة إله طيبة قبل قيام كل حملة عسكرية. وفى عهد الرعامسة، سوف يستطيع پتاح إله منف أن يصدر أوامره بزحف القوات العسكرية أو يبلغ الملك برؤيا مطمئنة يراها فى منامه.

تحرك الجيش فى مطلع شهر يوليو. وبدأ الزحف الكبير للعجلات الحربية وحاملى الأقواس والمشاة والجهاز الإدارى، سارت فرق التموين فى أعقاب الجيش، أو بمعنى آخر قطعان الأبقار والماعز. إنه صف غاية فى الطول، كثير الضجيج والصخب يتقدمه الملك:

إن الملك ذاته، هو الذى يرشد جيشه على الطريق، إنه الباسل المقدام أمامه، وأشبهه بوهج لهب^(٦).

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الرابع، من فصل الإنبات (١٤ يوليو تقريباً)، من العام الثانى والعشرين من عهده، اجتاز صاحب الجلالة حصن ثارو (القنطرة)، إبان حملته الأولى المظفرة (التي شنها) لدحر المتمردين وطردهم وتوسيع حدود مصر فى بسالة وقوة وسلطان ونشوة النصر^(٧).

وفى التاسع عشر من يوليو تقريباً، وهو تاريخ رأس السنة المصرية المدنية، بدأ العام الثالث والعشرين من عهد الملك الشاب. وبعد انقضاء تسعة أيام على عبور الحدود وصل الجيش إلى غزة، ليرحل فى اليوم التالى، ويصل بعد أحد عشر يوماً إلى مدينة يحم الواقعة على بعد ١١٧ كم تقريباً شمال غزة، ويعتقد أنها يما الحالية، عند السفح الجنوبى من جبال الخليل. بدأت سرعة تقدم الجيش تتباطأ، كلما ابتعد عن مصر، علماً بأنه لم يخض حتى الآن، أية معركة على ما يبدو. فقد كانت القوات المتحالفة تنتظر فرعون بعيداً إلى الشمال، ربما لإبعاده بقدر الإمكان عن قواعده. كان هدف تحوتمس الثالث موقع مجنؤ الحصين القائم عند منافذ ممرات جبال الخليل، شمال غرب فلسطين، حيث كان الأمراء الذين ناصبوه العداء قد تجمعوا.

عند هذه النقطة من تقدمه رأى فرعون من الضرورى إحاطة ضباطه علماً بحقيقة الموقف والتشاور معهم فى أفضل الطرق التى يجب أن يسلكها. كانت أمام الجيش ثلاثة طرق: الأول هو عبارة عن ممر ضيق يتميز بإمكانية مفاجأة العدو ولكنه يتطلب مزيداً من الوقت لتجميع الجيش. أما الطريقان الآخران فكان يفضى الأول إلى الشمال من مجنؤ والآخر إلى الجنوب منها، ويفترض أن تتقدم القوات فى أرض مكشوفة، الأمر الذى قد يتيح للقوات المتحالفة إمكانية شن هجوم مفاجئ.

فى اليوم السادس عشر، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين من عهده، وصل الجيش إلى مدينة يحم. وهناك أمر صاحب الجلالة بعقد مجلس حربى لجيشه المنتصر.

(يُوصف جيش فرعون على امتداد هذا النص بأنه جيش «منتصر» ويوصف أعداؤه بأنهم «أخسَاء». ولا يقصد بذلك لغو ولغو بغير طائل، بل الفائدة المرجوة من القدرة الإبداعية للألفاظ والكلمات. هذا ليس حشواً أو كلاماً فى الهواء، بل هو بالأحرى سلوك ذهنى واع).

إنه يقول: «هذا العدو الخسيس من أبناء قاش، قد دخل إلى مجنؤ، إنه هنا فى هذه اللحظة، وقد جمع من حوله زعماء كافة البلدان الأجنبية الذين كانوا على صفحة ماء مصر (إنها استعارة نهريّة تؤكد على التبعية المتواصلة والوفاء والخضوع)

والنهاريتا ... والسوريين وأبناء قودا (كيليكية*) وجيادهم وجيوشهم وأقوامهم. بل إن (هذا العدو الخسيس) قد قال: لقد نهضت لأحارب صاحب الجلالة، هنا فى مجنّو. فقولوا لى إذن ماذا يدور فى خلدكم.

وبنبرة مشوبة بالحذر تحدّث أفراد أركان حرب أرض المعركة معاً وبصوت واحد قائلين:

كيف نسير عبر هذا الطريق الضيق؟ فيُروى أن العدو متواجد هناك، خارج (قلعة مجنّو) بأعداد لا حصر لها. ألا يقول الواقع (إننا إذا سلطنا هذا الممر) أن الجواد سيضطر إلى السير فى إثر جواد (آخر) وبالمثل سيتقدم الجيش ومن معه من رجال؟ فهل ستضطر مقدمتنا أن تحارب فى حين تظل مؤخرتنا متوقفة هنا فى عرونا (وهى آخر محطة يتوقف عندها الجيش قبل مجنّو عند منفذ الممر على بعد ستة أو سبعة كيلومترات من المكان) فلا تستطيع المشاركة فى المعركة؟ فى حين يوجد طريقان (آخران).... ولكن فليتقدم سيدنا الجسور على الطريق الذى يبدو الأنسب إلى قلبه. ليته يتصرف بحيث لا نضطر إلى السير فى هذا الطريق الصعب الوعر.

حمية الملك الشاب وبسالته:

أقسم، أن ما دام رع يحبنى، وما دام أبى آمون يكرمنى ويستعيد أنفى شبابه حياة وقوة، أقسم أن جلالتي سوف يتقدم عبر هذا الطريق (الضيق) المؤدى إلى عارونا. فمن منكم يريد السير عبر هذين الطريقين اللذين تحدثتم عنهما فليذهب. ولكن من منكم يريد أن يكون فى معية جلالتي فليتبعننى...

عندئذ قالوا فى حضرة الملك: «فليتصرف والدك آمون، رب عروش القطرين القائم بالكرنك وفقاً لرغبتك. أجل، سوف نبقى فى معية جلالتك، أيأ كان المكان الذى ستتجه إليه، هكذا يتصرف الخادم فى إثر سيده».

عندئذ أصدر جلالته أوامره إلى الجيش بأسره: سوف يحمى سيدكم المقدام خطاكم فى هذا الممر. انتبهوا! لقد أقسم جلالتي قائلاً: «لن أسمح لجيشى أن يخرج من هذا المكان أمامى». كان العاهل الملكى قد عقد العزم فى قلبه، أن يتقدم على رأس

(*) جنوب شرقى الأناضول. (المترجم)

جنوده. ونظم كل شىء. بحيث يعرف كل فرد ترتيبه فى هذه المسيرة، وجواد فى إثر جواد، وكان صاحب الجلالة يتقدم الجيش^(٨).

قضى الجميع ثلاثة أيام فى يحم. وعبروا الممر فى اليوم التاسع عشر، بعد رحيلهم من مصر. كان جنود المقدمة «قد ملؤوا بالفعل وهدة الوادى»، أمام مجنؤ، بينما كانت تسعى المؤخرة إلى اللحاق بهم على مهل إنطلاقاً من عارونا.

ومع حلول المساء بدأت سهرة الإستعداد للمعركة، فى ليل الصحراء الرطب.

عسكر صاحب الجلالة وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره: «استعدوا! اشحنوا أسلحتكم! فمع مطلع الفجر سوف نزحف لمحاربة العدو الخسيس...» كان الملك يستريح فى خيمته. وتم إمداد القادة بما يحتاجون إليه. وقُدِّمت حصص أغذية للفرق الملائمة وتم نشر حراس الليل. عندئذ أخذوا يصيحون: «فليكن قلبكم ثابتاً! فليكن قلبكم ثابتاً! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» كما كان الجميع ساهرين فى خيمة صاحب الجلالة، وجاء من يقول لجلالته: «الصحراء هادئة وأيضاً مشاة الشمال ومشاة الجنوب^(٩)».

طوال سهرة الاستعداد للمعركة، ربما كان يدور بخلد الشاب تحوتمس، أن على شجاعته ورجاحة عقله، سوف يتوقف غداً مصير مصر.

وفى اليوم التالى، فى اليوم الحادى والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين، من عهده (أى بعد يومين من الرحيل من يحم) وفى اليوم المحدد لعيد رؤية الهلال الجديد، نهض الملك مع تباشير الفجر. وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره بالانتشار^(١٠).

يبدو أن هذه الأوامر، كانت تقضى بتوزيع الجيش المصرى إلى جنوب الحصن وشرقه، بل وربما إلى شماله، وحتى جانبه الشمالى الغربى^(١١). فقد نذهب إذن إلى القول، بأن قسماً من الجيش قد سلك على ما يظن أحد الطريقتين العريضين، المؤدى إلى شمال القلعة. إنه سلوك حذر محسوب من جانب تحوتمس الثالث. هكذا كان العدو قد دفع دفعاً إلى الممرات الجبلية لجبال الخليل مما اضطره إلى خوض المعركة وهو يواجه الشمس المشرقة.

ومع طلوع النهار، بدأ الاستعراض العظيم للأسلحة، وسط تطاير غبار الرمال والصراخ وصهيل الجياد. كان ذهب وفضة العجلات الحربية يتألقان على ضوء النهار. كان فرعون الشجاع أول من انقضَّ على العدو وهو في وسط المعمة، فالآلهة تؤازره. يتقدم صاحب الجلالة على متن مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، وتزدان بَعْدَ الحرب، مثل حورس صاحب الساعد القوى ورب القدرة، ومثل موتو مدينة بطيبة، في حين يعضد آمون ساعده... وفي خضم المعركة تسرى قوة ست في مختلف أعضائه (١٢).

أما عن المعركة ذاتها، فالمؤرخ المتعطش إلى الوقائع يخرج خالي الوفاض. إن النص الذي يتسم بقيمة سحرية أكثر منها تاريخية، بالمعنى الحديث للكلمة، يشيد على الفور بانتصار الملك ويمجده دون إغفال لمسة فكاهية أحياناً:

عندئذ استحوز صاحب الجلالة على الأعداء وهو على رأس جيشه. وعندما رأى هؤلاء أن صاحب الجلالة قد تأكد من تشديد قبضته عليهم، لاذوا بالفرار في اتجاه مجنؤ وقد تعثرت خطاهم وسقطوا على رؤوسهم والفزع يرتسم على وجوههم. لقد تركوا جيادهم ومركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة. وتم سحبهم، ورفعوا على أسوار المدينة بشدهم من ملابسهم، لأن الجماهير كانت قد أغلقت أبوابها. بل تركوا أحياناً ملابسهم تتساقط لتسهيل رفعهم إلى أعلى السور. واهأ! لو أن جيش صاحب الجلالة «لم يشغل قلبه بالسلب والنهب»، لاستولى على مجنؤ على الفور! هكذا «سحب» على جناح السرعة عدو قانش الخسيس، وفي الوقت نفسه عو مجنؤ الخسيس (أي الأمراء الممثلون للمدن)، لادخالهم إلى المدينة، لأن الفزع الذي يثيره صاحب الجلالة، تسرب إلى أبدانهم وظلت سواعدهم بلا قوة. كانت «نورانية» (الصل) الملك قد استحوزت عليهم.

عندئذ استولى جنود الملك على المركبات الحربية المصنوعة من الذهب والفضة، بعد أن أصبحت غنيمة لهم. وقتلوا المطروحين أرضاً الذين تناثروا هنا وهناك، وكانهم أسماك وقعت في سلة صيد. وبدأ الجيش المنتصر لصاحب الجلالة يُعد حصاراً بأمالك الأعداء. كما تم نهب خيمة هذا العدو الخسيس المكفته بالفضة...

كان الجيش بأسره يطلق صيحات الفرح ويجزل من المدايح والتهاليل للإله
أمون بسبب النصر الذي وهبه لابنه في ذلك اليوم. كان الجنود يكرمون صاحب
الجلالة ويمتدحون قدراته. وقدموا له الغنائم التي جمعوها: من أيادٍ ومركبات من ذهب
وفضة وأشياء كثيرة رفيعة القيمة^(١٣).

يبدو أن هذه المعارك لم تكن شرسة. فقد ضرب الحصار حول المكان، دون
مقاومة ظاهرة من جانب العدو. ومنذ أن قُهر للمرة الأولى، انصرف الجنود للهو
والفرح وأخذوا يسلبون وينهبون أرض المعركة. ولكن استطاع أمراء أسيا أن يلجؤوا
إلى القلعة الحصينة وإخراجهم منها، كان لابد من حصارها حصاراً مانعاً، استغرق
سبعة أشهر. وألقى تحوتمس الثالث في قواته خطبة عصماء ناشدهم فيها قائلاً:

إن جميع زعماء الشمال محتجزون الآن داخل هذا الموقع. فالاستيلاء على
مجبو يعنى الإستيلاء على ألف مدينة. فاستولوا على المدينة بإقدام وبسالة!^(١٤)
بدء الحصار وترتيباته:

قدروا طول وعرض المدينة التي أحيطت بخندق وسُورت بأشجار صغيرة تنتمي
إلى مختلف الخلاصات العطرية الطيبة. ووقف صاحب الجلالة ذاته فوق موقع محصن
شرقي المدينة، ساهراً عليها ليل نهار... (موقع) محاط بسور من تشييده... اسمه «من
خير رع هو الذي حاصر الآسيويين». ووزع الرجال للسهر على خيمة صاحب الجلالة.
وقال لهم: «فليكن قلبكم ثابتاً! فليكن قلبكم ثابتاً! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» ولم
يُسمع لكائن من كان منهم، أن ينتقل إلى الخارج، خلف هذا السور، إلا للقيام بأعمال
الحصاد عند باب الموقع الحصين^(١٥).

وعلى الصرح السابع بمعبد الكرنك، نشاهد صورة حية تعبيراً عن هذا السهر
الملكي. يالها من صورة تذكرنا بعصر لاحق، عصر الرعامسة:

جلس جلالتي أمام المدينة مثل أسد يتأهب للهجوم. كنت يقظاً ليل نهار، على
حدِّ سواء^(١٥مكد).

وعلى دعامة من دعامات معبد بوهن تم نحت النبا في الحال، مع تمجيد أبعاد
الإنتصار وتعظيمه، لأن الكلمات تكتسب هنا قوة ردع لثنى أبناء أراضى الجنوب عن

مجرد احتمال التفكير فى التمرد:

تحوتمس هو: الملك الذى ينشط بسيفه. البطل الذى لا مثيل له، الذى يُجهز على الأجانب ويدوس بقدميه بلاد ريتنو ويقتاد زعمائهم أسرى أحياء ويستولى على مركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة التى ما زالت جيادها مشدودة إليها.

وأبناء بلاد ثحنو ينحنون بسبب مجد صاحب الجلالة، وقد حُمِلت جزيتهم على ظهورهم، ويمشون مشية الكلاب، حتى تُعطى لهم نسمة الحياة^(١٦).

إنه زهو وعُجب المنتصرين سواء كانوا من التحامسة أو الرعامسة.

إن نص لوح حجرى أقيم بمعبد پتاح بالكرنك، يعلق على هذه الأحداث على النحو الآتى:

لقد منحنى أبى آمون كافة بلاد چاهى الأجنبية، بعد أن تجمعوا واحتجزوا فى مدينة واحدة. عندئذ تسرّب إلى قلوبهم الخوف الذى أثيره. كانوا يتساقطون وقد خارت قواهم بينما كنت أقترّب منهم. ومن ظل على قيد الحياة لم يستطع الهروب. لقد حاصرتهم فى مدينة واحدة. لقد شيدت أمامهم جداراً سميكاً حتى أحرمتهم من نسمة الحياة، بفضل أمجاد أبى آمون الذى يرشدنى إلى الطريق المستقيم ويفضل كافة النصائح المفيدة التى يغدقها على^(١٧).

إن نص اللوح الحجرى المقام فى جبل برقل فى العام ٤٥، يقدم وصفاً لعملية الإستسلام التى تمت بعد سبعة أشهر بسبب المجاعة، أكثر حيوية وأكثر طرافة من نص الحوليات الرسمى:

تساقطوا على وجوههم وانقلبوا، ثم ولجوا إلى داخل مجنّو. واحتجزهم جلالتى فيها لمدة سبعة أشهر. لم يكن فى استطاعتهم الخروج. عندئذ توسّلوا إلى جلالتى قائلين: «اعطنا النسيمات، أيا سيدنا! فلن نتمرد أبداً بلاد ريتنو، مرة أخرى». عندئذ سُمح لهذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا فى صحبته، بالخروج للمثول بين يدى جلالتى، وجاء معهم كافة أولادهم. كانوا محملين بجزية طائلة من ذهب وفضة، وجلبوا معهم كل ما يمتلكونه. جاؤا بجيادهم ومركباتهم الحربية المصنوعة من الذهب

والفضة، فضلا عن المركبات المدهونة بمختلف الألوان وكافة زرودهم وأقواسهم وسهامهم وكل ما يمتلكون من أسلحة. فكل ما أتوا به لمحاربة جلالتي، حملوه إلى الآن، بصفته جزيتهم. ومن وقفوا فوق الأسوار كانوا يهللون ويهتفون لى، كى أمنحهم نسمة الحياة. وسمحت بأن توزع عليهم الأطعمة. عندئذ أعلنوا قسماً قائلين: «لن نعود ثانية إلى اقتراف أفعال سيئة فى حق سيدنا من خپر رع طوال زمن حياتنا، لأننا شاهدا مجده وقدرته. ليته يعطينا النسمات، حسبما يرغب!» إن ما حدث هو من فعل أبى آمون - رع، رب عروش القطرين وليس من فعل بشر.

عندئذ أعاد إليهم جلالتي الطرق المؤدية إلى مدنهم ورحلوا جميعاً وقد امتطوا الحمير.

(إنه وضع مشين فى نظر المصرى القديم. فالحمار وهو حيوان ينتسب إلى ست، كان مخصصاً تقليدياً لنقل الأحمال).

لأننى كنت قد استوليت على جيادهم. واقتدت أقوامهم إلى مصر بالإضافة إلى ما يمتلكون من خيرات^(١٨).

وإن كانت الحملات العسكرية، تؤمن الدفاع عن القطر المصرى واتساع رقعته، فإنها تعتبر فضلاً عن ذلك، مصدراً مهولاً لتعاظم ثروات مصر، ومن ثم الإزدهار الداخلى.

الشاهد على ذلك على وجه التحديد، الغنائم التى دخلت البلاد نقلاً عن أرض معركة مجنؤ والتى وردت عنها قوائم تفصيلية أعدّها كتبة الجيش فى سياق نص الحوليات:

● بيان بالغنائم التى جلبها جيش صاحب الجلالة من مدينة مجنؤ: ٣٤٠ أسيراً حياً، ٨٣ يداً، ٢٤٠١ حصاناً، ١٩١ مهراً، ٦ أحصنة للسفاد...

مركبة حربية مطعمة بالذهب، كان بدنّها من الذهب أيضاً، وتخص هذا العدو الخسيس. (الإشارة هنا، إلى أمير قادش، على ما يعتقد). ومركبة جميلة مطعمة بالذهب كانت تخص أمير مجنؤ، ٨٩٢ مركبة تابعة لجيشه، المجموع الكلى: ٩٢٤.

زَرَد واحد جميل للقتال من البرونز كان يخص هذا العدو الخسيس، زرد واحد جميل من البرونز للقتال يخص أمير مجنّو، ٢٠ زرد قتال (من البرونز) تخص جيشه الخسيس، ٥٠٢ قوساً، ٧ أوتاد وأساطين صغيرة مطعمه بالفضة كانت جزءاً من خيمة هذا العدو الخسيس.

كما استولى صاحب الجلالة على ماشية هذه المدينة...: ١٩٢٩ بقرة و٢٠٠٠ عنزة و٢٠٥٠٠ خروف.

(احتاج الأمر إلى جهاز إدارى ضخّم. فياله من موكب طويل كثير الجلبة، كان يسير في أعقاب جنود الملك!)

● قائمة بما أحضره الملك بعد ذلك، ويعود إلى مقتنيات هذا العدو الخسيس في ينعم وفي نجس وفي حرنكرو (كلها مدن تقع إلى الشمال من مجنّو والتي حالت على ما يعتقد دون تقدم الملك في اتجاه مدينة صور وإن وصل إليها بعد ذلك). كما جلب في الوقت نفسه مقتنيات المدن التي وضعت نفسها على مياحه.

ما جلب لفخامة صاحب الجلالة:

نساء هذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا معه [٤٧٤ شخصاً] و٣٨ ماريانو تابعين لهم (أسماء المحاربين الأسويين)، وأولاد هذا العدو الخسيس والأمراء الذين كانوا معه: ٨٧ شخصاً و٥ ماريانو تابعين لهم، ١٧٩٦ خادماً وخادمة بما في ذلك أولادهم، ١٠٣ من غير المحاربين الذين كانوا قد تخلوا عن هذا العدو الخسيس بسبب الجوع، المجموع ٢٥٠٣ أشخاص.

ووجدت أيضاً أقداح من الأحجار الكريمة ومن الذهب. وأنوات أكل متنوعة. وجرة ضخمة على الطراز السوري. وأوانى وقصعات وأطباق وأحقاق للشرب وجرار وسكاكين، أو ما مجموعه: ١٧٨٤ لبن (أكثر من ١٦٤ كجم).

حلقات ذهب عُثر عليها بينما كان جارى صياغتها ومعها فضة في هيئة حلقات عديدة، و٩٦٦ لبن وقلت واحدة (أو ما يعادل ٨٩ كجم تقريباً من الذهب الخام والفضة الخام).

تمثال واحد من الفضة كان جارى تشكيله... وتمثال لهذا العدو الخسيس كان رأسه من الذهب. ثلاث عصى برؤوس آدمية. ستة كراسى تُحمل على الأكتاف مصنوعة من الأبنوس والعاج وخشب الصندل، كانت تخص هذا العدو الخسيس ومعها ستة مقاعد. ست موائد كبيرة من العاج وخشب الصندل، وسرير من خشب الصندل مغشّى بالذهب وكافة أنواع الأحجار الكريمة، على طريقة الصولجان الخاص بهذا العدو الخسيس المغشّى بالكامل بالذهب. تمثال لهذا العدو الخسيس من الأبنوس المغشّى بالذهب رأسه من اللازورد، وأدوات أكل من البرونز، والعديد من الثياب الخاصة بهذا العدو الخسيس.

● وبعد ذلك قُسمت الأراضى المزروعة إلى حقول، عُيّن عليها مراقبو القصر الملكى لجمع المحصول.

قائمة بالمحصول الذى أحضره معه صاحب الجلالة من حقول مجنّو: ٢٠٧٣٠٠ غرارة حنطة وشعير، بعد استبعاد ما حُصد وتم الإستيلاء عليه من أجل جيش صاحب الجلالة^(١٩).

إن المحتويات النفيسة فى مغارة على بابا، شىء لا يذكر مقارنة بهذه الثروة من الغنائم. ولكن الشرق الأدنى الذى تتقاطع عنده دروب التجارة التى تسمح بانتقال ثروات أفغانستان الأكثر بعداً وبابل والجزيرة العربية لتصل إلى البحر المتوسط، كان منطقة لتبادل ثروات الشرق على نطاق واسع، وكانت موانئ فينقيا مكاناً بالغ الأهمية لتجارة كل ما هو نادر ونفيس. ومن هذا المنطلق نفهم طموحات القوى العظمى التى احتلت الساحة الدولية آنذاك، فسعت إلى بسط هيمنتها على هذه البلاد.

لم يكن جميع هذه المغامم مخصصة للخزائن الملكية. فقسم منها كان يصب فى خزائن آمون، سيد الإنتصار ومرشد العاهل الملكى. فمن مدونة الصرح السابع بالكرك نقرأ:

أتى جلالتي بالنساء اللواتى كنّ ينتسبن إلى هذا العدو الخسيس مع الأولاد، وأتيت فى الوقت نفسه بنساء الزعماء الذين كانوا معه وكافة الأولاد. وقدم جلالتي هؤلاء النساء وهؤلاء الأولاد إلى مخازن أبيه آمون بصفتهم خدماً. وقدمت منتجاتهم إلى معبد الإله بصفتها الإسهام الأول لبلاد ريتنو^(٢٠).

وبعد انتصار مجنّو، واصل تحوتمس الثالث بما تحلى به من حذر وفطنة، سيره شمالاً حتى مستوى مدينة صور تقريباً، محققاً النجاحات نفسها.

هكذا حطّم التحالف الذى قاده أمير قاش، وحشده على ما يظن سوتاتار ملك الميتانى. وضمن السيطرة على بلاد ريتنو والتحكم فى الموانئ الفينيقية. وبدءاً من هذه السنة ذاتها نظم غزو ريتنو:

وعين صاحب الجلالة مجدداً الزعماء لكل مدينة من المدن^(٢١).

ولما كان يسعى إلى عدم الإخلال بالتوازن التقليدى فى آسيا - الأمر الذى ظل على الدوام شغله الشاغل - فقد أبقى على الحكّام المحليين وأسرّات الأمراء الحاكمة، ولكنه قام «بتعيينهم». وكما لاحظنا لقد تم تقسيم البلاد إلى مقاطعات خاضعة للضريبة العقارية. كما فرض رسوماً على وجه التحديد على محاصيل الحصاد.

سوف تصبح صروح المعابد الأماكن المكرسة من الآن، لإعلان الإنتصارات الملكية المرتبطة على هذا النحو بالآلهة التى تأمر بها ولعرضها على المشاهدين، كما يثبتها الحجر ويخلدها، إلى أبد الأبد.

ويحتفظ الصرح السابع من معبد آمون - رع بالكرك، بتكوين رائع يصور بأقل قدر من التفاصيل السيئيات الشامخة للملك تحوتمس الثالث، المهيمن بجسده المائل فى شموخ على «أكوام» الأسرى الراكعين أمامه، فى حين يكرسهم للإله آمون بمقمعته البيضاء التى رفعها إلى أعلى، تعبيراً تقليدياً، عن قدرة فرعون الممتدة إلى خارج حدوده، وإن اتخذ هذا التعبير هنا، شكلاً حماسياً به قدر من المبالغة.

وفى هذا المقام، يستهل العامل الملكى عملاً سوف يصبح فيما بعد من الأعراف

الثابتة، فيأمر بنحت على الصرحين السادس والسابع قوائم بشعوب الشمال التي وقعت في الأسر^(٢٢)، ويشار إليهم بمواطنهم الأصلي، سواء كان مدينة أو قطراً، أو باسم الشعب الذي ينتمون إليه، مع الإلتزام برسم العلامات المقطعية عند كتابة الأسماء الأجنبية، وذلك دون التقيد بأي ترتيب جغرافى محدد، ودون إمكانية التعرف على «خط سير» حملة الملك. وتأكيداً على هيمنته الإمبراطورية وإبرازاً لها بشكل أفضل، يُلحق بهذه القائمة بياناً بأسماء شعوب الجنوب التي تم إخضاعها^(٢٣).

وفى العام التالى وهو العام ٢٤، خرج تحوتمس الثالث، من جديد على رأس جيشه متجهاً إلى الشمال. ويبدو أن الأمر اقتصر على مجرد مناوشات محدودة. ولكن منذ ذلك الوقت، ظهرت ملامح السياسة البارة التي اتبعها العاهل الملكى الشاب: فأراد من جهة، أن يتأكد بنفسه من الأوضاع القائمة فى البلدان التي تم فتحها، ومن جهة أخرى، فإن تواجدده هو وجنوده، قمين بإجهاض أية محاولة تمرد أو عصيان.

هذا السلوك النابه الشجاع من قبل فرعون، جعل الشرق القديم ينظر إليه نظرة كلها هيبة. وهكذا ترسل إليه آشور القصية الجزية إكراماً له، فتقدم له على وجه التحديد «اللازورد فى هيئة كتلة واحدة»^(٢٤). وللأسف فإن هذا المقطع شديد التشوه. إنه تعبير عن سياسة صائبة، فلما كانت آشور تبحث عن حليف محتمل يقف إلى جانبها ضد الميئاني، وكانت لا تزال خاضعة له فى ذلك الزمان، سعى ملوك آشور على ما يعتقد، إلى التخلص من هذا الوضع بالإرتباط بحلفاء أقوىاء.

وقام فى العام ٢٥، بحملة جديدة لمراقبة الأحوال فى آسيا. ويتميز «التقرير» الرسمى، بسمة خاصة يشهد على ولع المصريين بالتعرف على البلدان الأجنبية والأشياء المجلوبة منها. فقد أمر تحوتمس الثالث بأن تحفر بالنقش البارز صور، هى آية فى الجمال «الفلورة»^(٢٥) التي التقى بها فى الريتنو الأعلى^(٢٥)، فضلاً عن بعض أنواع الحيوانات. وإذا لم يجد مكاناً كافياً على «جدار الحوليات»، صوّرت هذه المشاهد

(*) لفظ دخيل أقره مجمع اللغة العربية ويعنى: أنواع النبات فى مكان ما وفى زمن معين. مجمع اللغة العربية. المعجم الجغرافى. القاهرة. ١٩٧٤. ص ٧٥. (المترجم)

الرائعة فى الحجرات الواقعة، فى مؤخرة معبد الكرنك الكبير. ويعرف هذا المكان باسم «الحديقة النباتية». أحقاً كان قلة المكان هو السبب؟ أم كان اختياراً مقصوداً عن عمد للدلالة التى ينطوى عليها المكان؟. وبالفعل تتصل هذه الحجرات بقدس الأقداس الذى يشكل الحجرة المحورية الثالثة لمبنى آخ - منو^(٢٦) الذى شيده تحوتمس الثالث، على محور يتعامد على محور المعبد الكبير والقائم إلى الشرق منه. هكذا فإن الآخ - منو أو معبد «استعادة حياة (الملك) وتجديدها» كان يتصل اتصالاً مباشراً بالمشاهد التى تصور العالم الطبيعى لاسيما فلورة آسيا التى كانت تساهم على هذا النحو فى اكتمال ازدهار القوى الحية للفرعون - بفضل القدرة السحرية للصور والتماثل القائم منذ زمن سحيق بين الحياة الأبدية وتجديد الحياة النباتية. كانت الإمبراطورية تشارك فى استعادة حياة الملك وتجديدها، إبان الأعياد الطقسية التى تقام بهذه المناسبة.

وبعد ذلك، لا يرد ذكر سوى للحملة الخامسة التى خرجت فى العام ٢٩. ربما لم نعثر على نص وصور الحملة الرابعة. وعلى كل حال، فإن مدونة الحوليات الطويلة لا تنبس عنها بكلمة واحدة.

لم يصلنا سوى بعض الشواهد عن نشاط تحوتمس الثالث فى سيناء، حيث أوفد كباراء البلاط الملكى على رأس بعض الحملات. إن لوحاً حجرياً عثر عليه فى سراييط الخادم يشير إلى سا مونتو، خازن الملك والصدىق الأوحد والمشرف العام على مصبات النيل، عندما خرج فى العام ٢٥...

...على رأس جنود الملك ليجلب لصاحب الجلالة، كل ما يتوق إليه من منتجات البلد الإلهى، من فيروز بكميات لا حدود لها. فسلك الطريق نفسه الذى سار فيه سيده وتجاوز ما كان قد أمر به... ومنحت حتحور العظيمة (كل نعمها) إلى قدرة صاحب الجلالة: فأصبحت الآبار أشبه ببحيرات فى زمن الفيضان والمنحدرات الصخرية تفضى (تلقائياً) إلى كنوزها المكنونة^(٢٧).

وعلى لوح حجرى آخر، عثر عليه فى سراييط الخادم أيضاً، ومؤرخ بالعام ٢٧، صور تحوتمس الثالث فى الجزء المقوس العلوى من اللوح، وهو يقدم قرابين فى هيئة

أنية إلى الإلهة حتحور سيدة هذه الأماكن. والنص المدون عبارة عن أمدوحة مسهبة تعظم الملك. فالصفات الحربية التي ينعت بها، تعتبر إرهاباً للشاعرية الغنائية لعصر الرعامسة:

إنه بطل لا مثيل له، الملك القادر الذي يفخر به البشر... واضعاً الرعب الذي يثيره وسط الأقواس التسعة، إن الخوف منه قد كبل البلدان الأجنبية... إن قوة ابن نوت (ست) على ساعديه... إنه الثور صاحب القلب الصارم^(٢٨).

هكذا ولدت مع تحوتمس الثالث، أيديولوجية جديدة.

لقد أعاد العاهل الملكى الشاب فتح إمبراطورية آسيا، وانهار التحالف الذى تزعمه أمير قاش بتحريض من الميتانى وتقوض. وفى مرحلة لاحقة سوف يوفر تحوتمس الثالث كل التدابير التى تضمن الأمن لممتلكاته الآسيوية.

حدود نهر الفرات

إن الحملات الأربع التى قادها فرعون فى آسيا من العام ٢٩ إلى العام ٣٣، من عهده كانت حاسمة وفاصلة فى تأسيس الإمبراطورية. وبكل ما أُوتى من حذر تكتيكى وفطنة سياسية نابهة، أمّن تحوتمس الثالث سيطرته على الموانئ الفينيقية، لمرتين متتاليتين إذن، من خلال الحملتين الخامسة والسابعة، كما تصدى لأحد عدويه الرئيسيين الذين سوف يوقع بهما الهزيمة، وهما أمير قاش، إبان الحملة السادسة وملك الميتانى إبان الحملة الثامنة. إن هذه الهيمنة الوطيدة الراسخة على موانئ فينقيا، لم تكتسب هنا بعداً تجارياً فقط، بل عسكرياً بالإضافة إلى ذلك، الأمر الذى أتاح للعاهل الملكى أن ينقل قواته العسكرية والفرق الإدارية إلى المناطق السورية بطريقة أسهل مقارنة بالطريق البرى. هكذا نشأ طريق بحرى إمبراطورى سيعود الرعامسة إلى استخدامه.

إن الحملات العسكرية والمآثر البطولية، إلى جانب الانتصارات وأعمال السلب والنهب، هى لُحمة وسداة نسيج ملحمة تحوتمس الثالث.

على غرار جنود هانيبال (*) في كاپوا (**)

في العام ٢٩، كان صاحب الجلالة في بلاد چاهى، يثخن تفتيلاً في البلدان المتمردة عليه، إبان حملته الخامسة المظفرة. وجرى سلب ونهب ميناء وارتت في الشمال، ثم مدينة تونيب وجلب منهما غنائم وفيرة: ١٠٠ دين من الفضة و ١٠٠ دين من الذهب ولازورد وفيروز وأوانى الطعام من البرونز والنحاس. وبعد ذلك أبحر صاحب الجلالة ناحية الجنوب متجهاً إلى مصر، إلى أبيه آمون-رع، في سعادة القلب. (وفي طريق العودة إذن) استولى على مدينة أرواد ومحاصيلها. (أرواد ميناء هام تمتد من خلفه سهول جوف سوريا الخصبة). واقتلعت كل أشجارها الجميلة. عندئذ اكتشف صاحب الجلالة بلاد چاهى، من أقصاها إلى أدناها، فضلاً عن بساطينها الزاخرة بالفواكه. كما عثر على النبيذ وكان لا يزال في معاصره، غزيراً متدفقاً كمياه الأنهار، وحبوب القمح في الصوامع أكثر عدداً من حبات الرمال على الشطآن. غمر الجيش بهذه الثروات... وكان جنود صاحب الجلالة سكارى، ويمسحون بشهوتهم يومياً بالزيت، كما في أيام العيد في البلد المحبوب (٢٩).

الرهائن من الأسر الحاكمة

في العام ٢٠، تم الإستيلاء على قلعة قادش «وقُطعت أشجارها، وحُصدت غلالها»، وهما عملان رمزيان يعادلان الحكم بالإعدام: يعنيان تدمير القدرتين الحيويتين الكامنتين في النبات، فإشاعة الجوع (***) ومن جديد كان المصير نفسه ينتظر مينائى سيميرا و أرواد.

عندئذ استعاد تحوتمس تقليداً حديثاً وعمل على تعميمه بعد أن كان والده تحوتمس الثانى قد استهله (٢٠).

(*) هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م). قائد قرطاجى. حارب الرومان. وكاد يستولى على روما. (المترجم)

(**) كاپوا: مدينة في جنوب إيطاليا. احتلها هانيبال عام ٢١٥ ق.م. وأقام فيها معسكر إستراحة شتوية. استعادها الرومان عام ٢١١ ق.م. (المترجم)

(***) ألا تفعل قوات الإحتلال الإسرائيلية الشئ نفسه، في فلسطين المحتلة. (المترجم)

واصطحب أولاد الزعماء وإخوتهم إلى مصر ليقوا فيها بصفاتهم رهائن. وعند وفاة زعيم من هؤلاء الزعماء، سيطلب صاحب الجلالة رحيل ابنه ليحل محله. كان مجموع الأولاد الذين تم اصطحابهم خلال هذه السنة: ٣٦ غلاماً^(٣١).

هكذا أصبحت ذرية الأسرات الحاكمة من أبناء وإخوة، تحت سيطرة ملك مصر. وخصّصَ حى بعينه فى الأقصر لاستقبالهم. فكانوا يتلقون فى هذا المكان تنشئة وتعليماً مصريين. وأصبحوا فى وسعهم، إذا آن الأوان، أن ينقلوا إلى بلادهم عادات مصر التليدة وثقافتها، وهكذا يصبح تمردهم أقل احتمالاً. وغدت هذه الفكرة مبدئاً سياسياً دائماً.

تدفق الثروات

مع كل حملة كانت منتجات أسيا النفيسة والنادرة تتدفق على طيبة بكميات كبيرة. ولضخامة هذه الثروات، فإن سرد وقائع الأحداث العسكرية لكل حملة من الحملات، كان يلحق به بيان بأنواعها ومقاديرها، باستثناء حملة واحدة، هى السابعة التى تعود إلى العام ٣١ بالنظر إلى كمياتها الوفيرة:

كل ميناء يرسو عنده صاحب الجلالة، كان يُمدّه بكافة المؤن من خبز لذيذ ومختلف أنواع الأرغفة وزيت الزيتون وبخور ونبيذ وعسل وكافة أنواع فواكه هذه المنطقة. كل ذلك بكميات كبيرة، لم يعهدها من قبل جيش صاحب الجلالة. هذه الحقيقة ليست إفكاً. فكل شئ مدون فى سجل القصر الملكى. ولكن لا يُذكر على هذا المعلم الصرحى لتجنب الإكثار من الكلمات والألفاظ لتوفير المكان (اللازم لتوضيح) الظروف التى أحاطت بجمع هذه الغنائم. وبالتالي لن تذكر (أيضاً) محاصيل بلاد ريتنو التى تضم كميات كبيرة من الحبوب والشعير والعلس والبخور وزيت الزيتون الطازج والنبيذ والفواكه ومختلف طبيبات هذا البلد. وسوف تُسجّل فى الخزينة كما تسجل منتجات النوبة^(٣٢).

عبور نهر الفرات

وفى العام ٣٢، جند تحوتمس الثالث كل قواه لقهر الميئانى بعد أن كرّس جلّ اهتمامه استعداداً لهذه الحملة.

ويبدو أن قسماً من الجيش سلك الطريق البرى، لتأمين الإستقرار فى بلاد ريتتو، فى حين ركبت فرق أخرى البحر وصولاً إلى بيبيلوس.

وفى المدينة أمر ببناء السفن:

وأمرت بالقيام بأعمال التجارة لبناء أعداد من السفن من خشب الأرز الوارد من جبال بلد الإله، عند مشارف سيدة بيبيلوس (يوضع اسم الإلهة بعلت أو حتحور محل اسم المدينة). وحملت على عربات تجرها الأبقار^(٣٣).

إنه موكب عسكري طويل وغريب يخترق صحراء أعالي سوريا: فيا له من مشهد مثير للدهشة يتكون من أبقار بخطواتها المتثاقلة فوق الرمال، تجر عربات شددت عليها السفن التى ستستخدم لعبور نهر الفرات وصولاً إلى البر الآخر فى بلاد الميثانى. لم يترك العاهل الملكى شيئاً للصدفة، ففكر ملياً قبل تنفيذ مشروعه، متحلياً بعبقريّة تكتيكية لا تقبل الجدل.

من المؤكد أنه ملك يستحق كل مديح بالنظر إلى ما حققه من نجاح بقوة السلاح، هو الذى عبر المجرى العظيم أثناء مطاردته الذين هاجموه، فخرج على رأس جيشه بحثاً عن العدو الخسيس حتى بلاد الميثانى^(٣٤).

يبدو إذن بكل وضوح أن موقع الميثانى هو البر الأيسر من نهر الفرات ويتميز إذن عن نهارينا التى يميل البعض إلى الخلط بينهما إستناداً إلى النص الآتى:

عندئذ أقام صاحب الجلالة لوحاً حجرياً فوق تل نهارينا، بأن حفر هذا التل على يمين المجرى العظيم^(٣٥).

إن نص لوح جبل برقل يؤكد نص الحوليات:

قام صاحب الجلالة على رأس جيشه بعبور المجرى العظيم فى نهارينا حتى البر الأيسر من هذا النهر. ثم أقام لوحاً حجرياً آخر بجوار لوح «أبيه»، عا خير كارع^(٣٦)، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

(*) لقب تحوتمس الأول وهو جد تحوتمس الثالث فى واقع الأمر. (المترجم)

لقد فرقت النصوص بكل وضوح بين اسمى الميثنى والنهارىنا. ومن ثم، فمن المعتقد أن الأولى كانت قائمة على البر الأيسر من النهر، فى حين كانت الثانية على البر الأيمن. وهو ما يؤكد أيضاً التاريخ. ففى زمن الرعامسة عندما سيقوم الخاتى بابتلاع الميثنى بالكامل أو تقريباً، سيظل ينظر إلى أمير نهارىنا بصفته حليفاً مستقلاً عن الخاتى^(٣٧).

كل ما فعله إذن تحوتمس الثالث، هو مجرد الإغارة على الميثنى، دون أن يكون فى نيته خوض معركة تقوده إلى أبعد من ذلك، ليندفع بعيداً جداً عن قواعده. هكذا يشكل نهر الفرات بالنسبة للمصريين «الحدود» الشمالية المثالية، ليظل هكذا.

ولكن هذه الإغارة كانت استعراض عضلات على قدر كبير من الأهمية، إذا اعتمدنا على ما تقوله المدونة المنحوتة على لوح حجرى قائم فى معبد هرمونتييس:

عبر (الملك) نهر المجرى العظيم وداس بقدميه أراضى الشاطئين اللذين أحرقهما اللهب، للزمن الأبدى...^(٣٨)

ولكن هذه الإغارة فى الأراضى الميثنانية توغلت لمسافة إيترو واحد إستناداً إلى ما جاء فى الحوليات، وهو ما يعادل عشرة كيلومترات:

ما من (عدو) كان ينظر خلفه، بل كانوا يفرون وقد أطلقوا سيقانهم للريح، وكأنهم قطعان من ماعز الجبل، فى حين انطلقت جيادهم مسرعة^(٣٩).

بعد هذه الملحمة الحربية التى لا سابق لها، لم يرجع تحوتمس الثالث، هذا القائد المحنك، مباشرة إلى طيبة:

فلم يتوقف عن الترحال فى بلاد چاهى ليقتل المتمردين الذين لا زالوا موجودين، ويوزع الخيرات على الذين يقيمون على مائة^(٤٠).

ومن الجندل الرابع على نهر النيل وحتى نهر الفرات، عادت الأراضى الآسيوية والأراضى الإفريقية التى أخضعت بفضل هيبة الفاتح العظيم فقط، لتصبح من جديد «فى قبضة» مصر:

لا وجود للمتمردين فى بلاد الجنوب، وبلاد الشمال تأتى منحنية بسبب مجدى. إن رع هو الذى أمر بذلك، من أجلى. لقد طوّقت كل ما تحيط به العين النورانية. لقد أعطانى البلد فى طوله وعرضه، لقد ربّطت الأقواس التسعة وجزر وسط الشديدة الإخضرار والحاو- نبوت والبلدان الأجنبية المتمرّدة. وعندما عدت أدراجى إلى الجنوب فى اتجاه البلد المحبوب، بعد أن وضعت خنجرى (على) النهارينا، فإن هول الخوف الذى أثّره، كان فى فم الساكنين- على- الرمال. كانوا قد أوصدوا أبوابهم على أنفسهم ولم يتجاسروا على الخروج بسبب الخوف من الثور، الملك - البطل^(٤١).

إن ما يربط بلدان الإمبراطورية المصرية هو مجد السلاح والخوف من الفاتح العظيم.

ولأول مرة أقيم فى الكرنك تمثال ضخم «لطيبة المنتصرة»، فى هيئة إلهة تمسك قوساً وسهماً.

مطاردة الأفيال وقنصها

يقف تحوتمس الثالث، على رأس سلسلة الفراعنة المعروفين بالرياضيين^(٤٢). فبين معركة وأخرى، كان يتفرغ لممارسة رياضة الصيد. ففى منطقة نبي وهى مدينة هامة فى بلاد نهارينا، تصدى لقطيع مكون من ١٢٠ فيلاً. كانت هذه المأثرة، شأنها شأن كل الأفعال البطولية، من صنع الآلهة ويأمر منها:

فعل آخر من أفعال القدرة التى كلفنى بها رع. لقد أتاح لى أن أبرهن من جديد، على عظمة بسالتى فى مياه نبي (الفرات)، عندما أمر بأن التقى بقطيع من الأفيال. صارع جاللتى ١٢٠ منها. لم يحدث أبداً، منذ زمن الإله، أن أقدم، على مثل هذا العمل، ملك من هؤلاء الملوك الذين ارتدوا فى الماضى التاج الأبيض. إنى أقول ما أقوله، بلا مبالغة أو كذب. لقد تصرفت على هذا النحو، طبقاً لما أمرنى به آمون - رع، رب عروش القطرين^(٤٣).

يبدو من الواضح أن تحوتمس الثالث، بينما كان يمارس رياضة الصيد العظيم هذه، تعرض لخطر جسيم عندما هاجمه أحد هذه الحيوانات، وانقذه من هذا الموقف أحد رفاقه الأوفياء، هو القائد المقدام آمن إم حب الذي روى هذا الحدث، في مدونة نحتها بمقبرته في طيبة:

وشهدتُ ماثرة أخرى موفقة، قام بها رب الأرضين في نبي. كان يطارد مئة وعشرين فيلاً للحصول على أنيابها. وأمسكتُ بأضخم هذه الحيوانات الذي كان قد هاجم صاحب الجلالة. وبترت يده (أى خرطوميه) عندما كان لا يزال حياً أمام الملك، وبينما كنت في الماء وسط صخرتين. كافأني سيدي الملك فأعطاني ذهباً ومنحني.... ثلاثة ثياب وخمسة أزواج (من النعال)^(٤٤).

حراسة الإمبراطورية

من العام ٢٤ وحتى العام ٤١، ظل العاهل الملكي الفطن يُنظم سنوياً حملة عسكرية إلى أسيا لسحق بعض حركات التمرد التي قامت هنا أو هناك، ومن ثم فقد أمّن الوجود الدائم لمصر في هذه المناطق ليعود محملاً بغنائم وفيرة:

في العام ٣٥:

كان صاحب الجلالة في بلاد چاهى إبان حملته العاشرة المظفرة. ووصل صاحب الجلالة إلى عارينا (وهى مدينة في منطقة حلب). إن نهارينا - هذا العدو الخسيس - كان قد حشد هناك الجياد والرجال.... (من المعتقد أن الميتماني لم يكن غائباً عن هذه الحشود. إن فجوة طويلة في النص وفي غير محلها، تعترض سياق النص الذي يستأنف روايته عند عبارات «أطراف الأرض» التي قد تعضد ما ذهبنا إليه من تأويل). كانت أعدادهم أكثر من حبات رمال الشيطان، وفي حالة تأهب لخوض المعركة ضد صاحب الجلالة. عندئذ تقدم هذا الأخير، وقام جيشه بشن الهجوم بون توقف إلا «للإمساك والإصطحاب». واجتاح صاحب الجلالة هؤلاء الأجانب بفضل قدرة

أبيه آمون الذى وهبه البسالة والقوة.... ولانوا بالفرار وسقط الواحد فوق الآخر، من قدام الملك (٤٥).

تلى ذلك قائمة بالغنائم ومنها ١٠ أسرى و ٨٠ فرساً و ٦٠ مركبة حربية.
وفى العام ٣٩ تمرد البدو شاسو فى النقب ولكن سرعان ما قام الجيش المصرى بسحق هذا العصيان.

الحملة الأخيرة

فى العام ٤٢، شكّل ملك ميثانى وأميرا قادش وتونيب، تحالفاً أخيراً. وصل تحوتمس الثالث إلى سيميرا عن طريق البحر، وسار على الطريق الساحلى واستولى على ميناء إيرقاتا المجاور والموالى للمتحالفين. ثم زحف صوب تونيب التى استولى عليها وسار مُصعداً فى نهر العاصى حتى وصل إلى قادش، وكان من المنتظر أن تدور هناك، رحى معركة فاصلة.

إن بعض الإيضاحات عن سير وقائع هذه المعركة يوفرها لنا إمن حب رفيق الملك فى جميع مآثره الحربية:

أطلق أمير قادش أنثى فرس فاخرقت، وهى تعدو جيش الملك.

(يا للهياج الذى أثارتته وسط سلاح مركبات فرعون).

وعدوت وراعها على قدمى شاهراً سيفى. فبقرتها وقطعت ذيلها الذى وضعته أمام العاهل الملكى. عندئذ تعبد الجميع للإله، من أجلى ومن أجل ذلك.

(كانت شعيرة التعبد للإله تؤدى أحياناً لصالح شخص يُراد جلب البركات الإلهية عليه).

ومنحنى الملك الفرخ. وبعد أن عانقنى تسرب الإبتهاج والإغتباط إلى جسدى (٤٥مكرر).

(توقف الملك هنا، عن الإنعام على جنديه العظيم بالذهب مكافأةً له، ليخصّ رفيق السلاح بعطفه الودود).

وبعد إحباط حيلهم، لجأ الأعداء إلى داخل قاش. ولا يبدو أن الحصار قد دام طويلاً. ويضيف أمن إم حب قائلاً:

وبعد ذلك اختار من وسط جيشه كافة الرجال البواسل لتحطيم الجدار الجديد الذي كانت قاش قد أقامته. أنا الذي حطّمته، فكنت أول البواسل أجمعين، فليس أمامي من يستطيع عمل ما فعلته. وعندما خرجت من المدينة اصطحبت أسيرين من الماريانو. ومن جديد كافأني سيدي الملك بكل الأشياء الطيبة التي ترضى القلب^(٤٦).

بعد هذه الحملة المظفرة الأخيرة، لم يعد أحد ينازع تحوتمس الثالث سلطته. أصبحت هيئته عظيمة القدر في الشرق وفي إفريقيا، على حدّ سواء. وتدفقت الثروات على طيبة: بدءاً من جباية الجزية، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض البلدان ولا سيما قبرص أو خاتى أو أشور، كعلامة من علامات التقدير لأمجاد الفاتح المغوار وإكراماً له.

ملحمة أسطورية

عن هذه السنوات المديدة التي شهدت كل هذه الحملات العسكرية، وعن مآثر الملك البطولية وقادته وجنوده، ومن أمثلتها حياة إم حب - تولدت على وجه اليقين المسارد الأسطورية والحكايات. وعاشت إحداها من خلال حكاية الإستيلاء على يافا على يدى چحوتى، أحد قادة تحوتمس الثالث والذي وجد وجوداً حقيقياً^(٤٧). ومع ذلك يصعب علينا ربط هذا الحدث، بهذه الحملة أو تلك، من الحملات التي نُظمت على امتداد أكثر من سبع عشرة سنة.

وعلى كل حال فإن مخطوط الحكاية^(٤٨) يعود إلى منتهى سنة لاحقة على عهد تحوتمس الثالث. ولكن ذهن البشر المولع بحبك القصص حول وقائع حقيقية، يحلو له أن ينسج الحكايات الخرافية التي تتناقلها فيما بعد، الذاكرة من جيل إلى آخر.

لقد ضاع مطلع النص. كان چحوتى قد ضرب إذن الحصار حول يافا. ويبدو أن دفاعات المدينة كانت منيعة. ومن المحتمل أيضاً أن چحوتى قد خطر على باله أن يلجأ إلى الحيلة. وبالنسبة لنا تبدأ القصة فى اللحظة التى تشهد اجتماع القائد المصرى وأمير يافا فوق أرض محايدة بلا شك، وأقاما فى الطعام والشراب واللهو.

بعد انقضاء ساعة. ولما كان الشراب قد أخذ فيهما، تحدث چحوتى إلى [أمير يافا].... (فجوات متعاقبة فى النص).

فى هذه الأثناء (وصلت مقمعة) الملك من خير رع، وجاء من يخبر چحوتى بذلك. فقال له الأمير: «أتحرق شوقاً لرؤية مقمعة الملك من خير رع الكبيرة والتى تسمى... الجميلة. أقسم وكا الملك من خير رع، فما دامت فى حوزتك الآن... أحضرها لأراها!» وهو ما فعله چحوتى: فأحضر مقمعة الملك... وتقدم ناحية الأمير قائلاً: «انظر إلى، أيا أمير يافا! ها هى [مقمعة] الملك من خير رع، الأسد المتوحش، ابن سخمت، لقد أعطاه آمون [قدرته]». عندئذ رفع يده وضرب أمير يافا على صدغه. فسقط هذا الأخير... أمامه. ثم وضعه چحوتى على وتد [وربطه بوثقاق] من جلد و[أحضر] وزناً من نحاس... وربط هذا الوزن الذى يعادل أربعة نمس(?) فى قدمى الأمير.

عندئذ أمر چحوتى بإحضار مائتى سلة كان قد طلب صنعها وأنزل فيها مئتا جندي. وملئت سواعدهم بالحبال والأوتاد ووضعت الأختام (على السلال). كما أعطى الجنود نعالهم وعصيتهم وأسلحتهم(?). ثم قام خمسمئة رجل أقوياء بحمل (السلال). كان قد قيل لهؤلاء الرجال: «عندما ستدخلون المدينة ستخلصون رفاقكم ثم تستولون على أفراد الشعب كله وتوثقونه فى الحال بالحبال».

وخرجوا وقالوا لقائد مركبة أمير يافا: انصت إلى ما قاله سيدك: ستذهب إلى أميرتك لتقول لها: «فليفرح قلبك لقد أعطانا سوتخ الآن چحوتى مع زوجته وأولاده. انظري لقد أخضعهم وقارى». وهذا ما ستظنه بشأن هذه السلال المئتين المملوءة (فى الحقيقة) برجال محملين بالأوتاد والحبال. عندئذ سار أمامهم، ظناً منه أنه يرضى قلب أميرته قائلاً: «لقد ألقينا القبض على چحوتى».

عندئذ فُتحت الأبواب أمام الجنود الذين نفثوا إلى داخل أسوار المدينة المنيعه. وانقنوا رفاقهم وقبضوا على شباب أهل المدينة وشيوخها. وفي الحال أوثقوهم بالحبال (وربطوهم إلى) الأوتاد. هكذا تسلط ساعد فرعون القوى على المدينة.

وأثناء الليل، أوفد جحوتى (رسولاً) إلى مصر، لدى سيده ملك مصر من خبر رع ليقول له: «فليفرح قلبك! إن ربك الكامل آمون قد أعطاك أمير يافا، وكل شعبه ومدينته. ابعث إذن رجالاً ليتسلموا الأسرى. هكذا ستملأ بالخدم والخادمت، أملاك أبيك آمون - رع، ملك الآلهة، لأنهم سقطوا تحت نعليك للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى».

إننا أمام حيلة قديمة تذكرنا بغيرها من الحيل، هى جزء من رصيد الحكايات وخرافات العصور العتيقة. فالجنود الذين ضربوا الحصار حول طروادة، دخلوا إلى المدينة وهم قابعين داخل حصان من خشب. الأكثر إثارة، وجه الشبه مع على بابا فى الألف ليلة وليلة: فالسلال تذكرنا بالزلع التى استخدمها زعيم الأربعين حرامى لإخفاء ونقل القنلة المكلفين باغتيال على بابا وعائلته. ومن الراجح أن المؤلف العربى، وكانت مصر بلا شك موطنه الأصلى، كان على دراية بهذه الحكاية القديمة التى تعود إلى عصر الفراعنة.

٢- مصر الإمبراطورية:

الثراء والروحانية

من أجل تعريف للإمبراطورية

إنه ثور قوى القلب. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحتى الحدود الأولى لهذا البلد. وتصل حدوده الشمالية إلى مستنقعات آسيا (الفرات) وحتى أعمدة نوت^(٤٩) (أى الأعمدة التى ترفع السماء).

العالم فى طوله وعرضه ملك لفرعون.

وفى أزمئة الملاحم الآسيوية هذه، لم تشكل الإمبراطورية الإفريقية أى مشاكل للعاهل الملكى. ويوجد مؤشر واحد على قيام حملة فى العام ٥٠ من عهده، استناداً إلى مدونة منحوتة على أحد صخور جزيرة سهيل. فقد خرج تحوتمس الثالث على رأس جيشه فى اتجاه الجنوب، بعد أن نمت إلى علمه بلا شك، نبأ تفجر تمرد سودانى. وتعطل تقدمه عند إلفنتين بعد أن وجد أن القناة التى أعدت فى عهد سنوسرت الأول قد غطتها الأحجار.

فى اليوم الثانى والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام ٥٠، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى من خپر رع،

أمر صاحب الجلالة بتنظيف هذه القناة بعد أن وجدها ممتلئة بالأحجار، إلى حد كبير، حتى أن سفينة واحدة لا تستطيع الإبحار عبرها. وبعد أن اجتازها، أقلع فى اتجاه الجنوب، سعيد القلب وذبح الأعداء. ومن الآن سوف يُطلق على هذه القناة «تلك التى تفتح طريقاً مواتياً من أجل من خپر رع».

ومنذ الآن سيتكفل صيادو إلفنتين سنوياً بتنظيف هذه القناة (٥٠).

من الواضح أن تحوتمس الثالث قد بسط سيطرة مصر إلى ما وراء الجندل الرابع.

وبعد أن انتهى العاهل الملكى من فتح أراضى الإمبراطورية، قام بتنظيمها تنظيمًا صارمًا. كان تحوتمس الثالث قائداً عسكرياً مرموقاً، وكان فضلاً عن ذلك، إدارياً نافذ البصيرة ثاقب الفكر، إنه مؤسس حقيقى لإمبراطورية مترامية الأطراف. وعند اختيار وسائل ربط أجزائها بالسلطة المركزية فى طيبة، قسّم أراضى الإمبراطورية إلى «شطرين» كبيرين وفرّق بينهما.

كان حكام وموظفون مصريون يقومون بإدارة الأراضى الإفريقية وفقاً للمبادئ التى سبق أن طبقها أسلاف العاهل الملكى. كان نائب الملك الذى اختار مدينة بوهن مقرّاً له، تابعاً تبعية مباشرة لفرعون، وتحت إمرته حكومة مستقلة بذاتها. وكان قائمقام ينوب عن نائب الملك فى الإدارة الخاصة لإقليمى واوات وكوش. وتم استثمار

هذه الأراضي استثماراً منظماً، تجسد في إرسال الجزية السنوية، وفضلاً عن ذلك، فقد تم تمصيرها وتشبيد المدن والمعابد^(٥١) مع وحدة الشعائر الدينية.

أما مبادئ إدارة الأقاليم الآسيوية فكانت تختلف اختلافاً جذرياً. فالأراضي التي تم فتحها من القنطرة وحتى الفرات، تغطي مساحة شاسعة وتشكل لمصر مصدراً متعاضداً من القوى والثروات. كان عدد سكان مصر يقدر آنذاك، على ما يرجح، بستة أو سبعة ملايين نسمة. ومن المحتمل أن عدد سكان الأقاليم السورية بما في ذلك فلسطين كان يتراوح ما بين ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة. كانت الزراعة مزدهرة وغنية بمحصولها من القمح. كان سهل مجنّو الذي يضم ١٥٠ كم من الحقول المزروعة يدر على وجه التقريب محصولاً قدره تحوتمس الثالث بحوالى ١٥٠٠٠ هكتولتر من الحبوب أى ٢٠ هكتولتراً للهكتار^(*) الواحد. وهو محصول يعادل مثيله في مصر. كما أن الواجهة المهيبة لشاطئ بحر فينقيا كانت تفتح أمام مصر كبرى الطرق التجارية الدولية.

ففي حين لم تعرف إفريقيا سوى حكومات قبائل، كانت آسيا تتمتع بماض قائم على حضارات عريقة، فكانت كنعان وفينقيا وريتو وحصون الرمال المنيعة منظمة على هيئة عدد كبير من الدول والإمارات والجمهوريات الحضرية. إن القائمة التي نقشها تحوتمس الثالث في معبد الكرنك تضم مائة وعشرة أسماء. فلم يكن في مقدور العاهل الملكى أن يتجاهل كل هذا الماضى التاريخى، فيقوض ازدهار المدن السورية، فيفرض عليها حكومة مركزية، على طريقة ما فعله مع ممتلكاته الإفريقية. ومن ثم فلم يغير شيئاً من البنية السياسية للإمارات التي فتحها. إن «الدول» المئة وعشرة التي ضمت إلى الإمبراطورية، أصبح بعضها بأسراتها الإمراتية الحاكمة، وبعضها الآخر بمؤسساتها الجمهورية، «في حماية» ملك مصر الذي فرض عليها أقل قدر من الأساليب القسرية. فترك لكل مدينة ولكل إمارة حق إدارة شئونها إدارة مستقلة، واكتفى تحوتمس الثالث بتكوين «هيئة إدارية»، موزعة على مجموعة من المقاطعات

(*) الهكتولتر يساوى ١٠٠ لتر، و١٩٨ لتراً تساوى أردباً. أى أن الهكتولتر يساوى نصف أردب تقريباً. أما الهكتار فيساوى فدانين وثلاث. (المترجم)

الخاضعة لحكام مصريين. وفى واقع الأمر، لم يشكل هذا التقسيم سوى هيكل إدارى يسهل جباية الضرائب. كان هذا النظام يمثل فى الواقع أهمية كبيرة بالنسبة للإدارة المصرية، يفوق ما يعنيه بالنسبة لأمرء الإمبراطورية ومدنها. كان الحكام المصريون فى الأساس موظفين إداريين مهمتهم تصريف الشئون المالية، ومكلفين بجباية الجزية المفروضة على كل دولة، بما يتناسب وثرواتها.

هكذا قامت بين طيبة ومدن آسيا علاقات قائمة على المنفعة وقانون الأعراف والعادات، كانت على قدر كبير من الأهمية لمستقبل العلاقات الشخصية: وكما سبق أن لاحظنا^(٥٢) كان الفرعون يقوم بتنشئة أبناء الأمراء تنشئة مصرية، فى رفقة الأولاد الملكيين فى البلاط الملكى وازدهرت العلاقات الإدارية إزدهاراً ملحوظاً. وقام المصريون بشق الطرق التى سار عليها الموفدون الملكيون متعجلين، فى همة ونشاط. فكانت فى واقع الأمر وسيلة اتصال سريعة. كان القادة العسكريون يقومون بجولات تفقدية. وينتقل فرعون سنوياً إلى هذه الأقاليم عملاً بسياسة تضمن إقامة علاقات ثابتة ووجود دائم. وانشئت فى طيبة دائرة حكومية خاصة، مهمتها الجمع فى مركز واحد كافة المراسلات مع وكلاء الإدارة المصرية فى المقاطعات المتبادلة مع مدن وأمرء الإمبراطورية، وحفظها بعناية فائقة فى محفوظات هذه الدائرة الحكومية. لقد تم الكشف عن جانب كبير من هذه السجلات فى تل العمارنة، وإن كانت تنسب فى الحقيقة إلى عهدى أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع. ولما كانت الصيغ والديباجات المستخدمة فى هذه الدائرة الحكومية قد استقرت على أكمل وجه، فى هذا العصر؛ ففى وسعنا أن نستنتج أن القواعد الإدارية التى كانت سائدة فى السابق فى عهد تحوتمس الثالث، كانت مشابهة إلى أبعد حد.

ونشأت علاقات قانونية. كانت حكومات آسيا مطالبة أساساً بالقيام بالتزامات مالية بل وعسكرية كالشاركة فى بعض العمليات الحربية. فتقدم الأساطيل الفينيقية عوناً لا يستهان به فى حماية الشواطئ، وكما لاحظنا كان إسهماً عظيماً فى نقل القوات المسلحة وتأمين تموينها. وذلك فضلاً عن الإلتزامات السياسية: فكان محظور على أية دولة من الدول أن تتعامل مباشرة مع بلد أجنبى آخر. ومقابل هذه الإلتزامات

كان لكل دولة حقوقها . فيتولى فرعون توفير ما تحتاجه من حماية وتأمين وحدة أراضيها .

هكذا نشأت وازدهرت أيديولوجية جديدة تهدف إلى تحويل العاهل الملكى فى طيبة إلى شخصية إلهية عظيمة، توحد أراضي الإمبراطورية فى تضافر روجى رجب، فتأتى الأقوام من كل حدب وصوب، لتلتف حول شخص فرعون^(٥٢).

ولما كان تحوتمس الثالث حريصاً على تأمين ازدهار اقتصاد الأراضي التى «ربطها» وتنميتها تجارياً فقد كان أول من فكر فى تزويد مصر بميناء يطل مباشرة على البحر. حتى الآن كان جميع موانئ مصر نهريّة. كانت منف على نحو خاص، تقوم بدور بارز فى التجارة الدولية، وأخذت طيبة تنافسها، ولكن هذه المدينة كانت أكثر بعداً من البحر. كما ازدهرت أيضاً موانئ الدلتا ونذكر على رأسها سايس وبوياس^(*). ولكن إنشاء ميناء كبير يطل على البحر، سيصبح ميناء عبور دولى، فيزيد من اجتذاب ثروات الشرق إلى مصر.

وعندما عقد تحوتمس الثالث العزم على إقامة هذا الميناء البحرى وقع إختياره على موقع، كشف عن عبقرية العاهل الملكى، إذا صح القول أو على أقل تقدير عن بعد نظر وبصيرة ثاقبة. فقد كان مقدر لهذا الموقع أن يقوم فيما بعد بدور بارز فى وسائل مواصلات العصور القديمة عن طريق البحر: ونقصد بذلك الموقع، الجزيرة الملاصقة للساحل المصرى والتى سيطلق عليها الإغريق فى زمن لاحق جزيرة فاروس Pharos. فكان أول من أدرك أهمية موقعها. كانت قائمة غرب الدلتا وبالتالى مرسى حتمى للسفن المتاجرة مع مصر: فالسفن الشراعية القادمة من الجزر الإيونية^(**) أو الإيجية^(***) كانت تدفعها بطبيعة الحال الرياح الموسمية التى تهب من الشمال، خلال

(*) وهما صا الحجر و تل بسطا، حالياً. (المترجم)

(**) نسبة إلى البحر الإيونى ويحد بلاد اليونان من جهة الغرب. (المترجم)

(***) نسبة إلى بحر إيجة ويحد بلاد اليونان من جهة الشرق ويفصلها عن تركيا: (المترجم)

فصل الصيف. كما كانت فى طريق السفن الفينيقية القادمة من صور أو صيدا أو بيلوس والمتجهة إلى موانئ قوريناثة(*) ثم إلى قرطاجنة فيما بعد. كما كانت الجزيرة محطة مراقبة فريدة فى بابها، تسمح برصد، فى آن واحد، أعالي البحار ومجمل شاطئ الدلتا، بدءاً من التخوم الليبية وصولاً إلى مصب الفرع الكانوى من النيل. وقد تم الكشف إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس وإلى الجنوب منها، عن بقايا منشآت بحرية ضخمة غمرتها فى الوقت الراهن مياه البحر، وقد بدأ تحوتمس الثالث فى إنشائها واستكملها من بعده الملوك الرعامسة(٥٤).

ضرائب الجزية والعظمة والوفرة

من العام ٢٢ وحتى العام ٤٢، وبعد تقرير كل حملة من الحملات، توفر لنا نصوص الحوليات، تفاصيل بالغة الدقة، حول ضرائب الجزية الطائلة التى تصب فى مدينة طيبة العاصمة الإمبراطورية.

ويميز النص بكل وضوح بين عبارة إينو (أى «ما يتم جلبه») التى تشير إلى جزية بلاد أسيا وعبارة باكو (أى «حصيلة العمل») القادمة من البلاد الإفريقية. ونجد أن مفردات اللغة ذاتها تؤكد هنا على الفوارق الإدارية التى حددها تحوتمس الثالث.

وخلاف هذه الضرائب السنوية المفروضة على مختلف مناطق الإمبراطورية الشاسعة ونذكر منها جاهى وريتو فى الشمال وواوات وكوش فى الجنوب، كانت مصر تتلقى أيضاً الجزية الى تقدمها بلدان بعيدة إلى حد ما، تعبيراً عن ولائها وإن كانت خارج نطاق الهيمنة المصرية المباشرة، فتنشد ودّ فرعون ورضاه أو الرغبة فى التحالف معه. كان هذا هو وضع قبرص الجزيرة القريبة الواقعة فى البحر المتوسط، وأشور أيضاً وخاتى، ربما بقصد «التصدى» لدولة ميثانى وبابل القصية، فضلاً أيضاً عن بونت بحكم التقاليد المتوارثة.

(*) منطقة برقة فى ليبيا. (المترجم)

وتخصصت أشور بالإضافة إلى بابل فى إرسال اللازورد الجميل النقى، القادم من أفغانستان عبر وديان روافد نهر دجلة. وكانت قبرص ترسل النحاس وخاتى الأحجار الكريمة ويونت البخور.

ولكن كانت الثروات متنوعة وكمياتها التى لا تحصى مذهلة:

منتجات الزراعة وتربية الماشية

كانت محاصيل كوش وواوات تملأ سنوياً الشئون المصرية. وعند عرض كل قائمة من القوائم، وبعد ذكر المنتجات المقدمة حتى أدق تفاصيلها، تتكرر الجملة الآتية وكأنها لازمة ثابتة: «كل ذلك فضلاً عن السفن المحملة بكل منتجات البلد الطيبة، بالإضافة إلى محاصيل هذا المكان». وعلى امتداد أربع سنوات أيضاً ظلت جاهى ترسل قمحها.

وجاءت الفاكهة بمختلف أنواعها من آسيا: من جاهى فى العام ٢٩ ومن ريتنو فى العام ٣٣.

من هذه المناطق ذاتها، كان يُستورد العسل والنبيذ أيضاً بكميات كبيرة، لا سيما من ريتنو: ٦٠٨ زلعة فى العام ٣٤ و٢٠٩٩ فى العام ٣٥ و١٤٠٥ فى العام ٣٩. كما كانت مصر تتسلم أيضاً الزيت من جاهى ومن ريتنو فى المقام الأول.

كانت الأبقار والأغنام ترد سنوياً بكميات ضخمة من البلدان الشمالية والجنوبية نذكر منها على سبيل المثال:

العام ٢٤: ٤٥ بقرة وعجلاً. و٧٣٩ ثوراً و٥٧٠٣ رأس ماشية من خراف وماعز، مقدمة من ريتنو.

العام ٢٩: ٦١ رأس من الأبقار و٣٦٣٦ رأس ماشية، مقدمة من جاهى.

العام: ٣١ من ريتنو: ١٠٤ ثيران وأبقار و١٧٢ عجلاً وعجلة و٤٦٢٢ رأس ماشية. ومن كوش: ٣٤٣ رأساً من الأبقار. ومن واوات: ٩٢.

العام ٢٣: من ريتنو: ٥٩٢ رأس من الأبقار و٥٣٢٣ عنزة، ومن كوش: ٤١٩ رأساً من الأبقار، ومن واوات ١٠٤ رؤوس من الأبقار.

يا لها من صفوف طويلة وصاخبة، كانت تعبر، على طريقته، عن عظمة مصر وهيبة الإمبراطورية!

كما كانت الحمير تأتي من آسيا: ٧٠ من جاهي في العام ٣٤، و٤٦ من ريتنو في العام ٣٨.

كما لم تعرف مصر تربية الخيول التي أصبحت من الآن، حيواناً لا يمكن الاستغناء عنه، في سير المعارك الحربية، فكانت تأتي من آسيا. ويتم تربيتها وترويضها في بلاد نهر العاصي.

وفي العام ٢٤ أرسلت ريتنو ٢٤ جواداً.

وفي العام ٢٩ أرسلت جاهي ٣٢ جواداً.

وفي العام ٣٠ أرسلت ريتنو ١٨٨ جواداً.

وفي العام ٣٣ أرسلت ريتنو ٢٦٠ جواداً.

وفي العام ٣٥: ٢٢٦ جواداً.

وفي العام ٣٨: ٣٢٨ جواداً.

وفي العام ٣٩: ٢٢٩ جواداً.

وفي العام ٣٨ (!) أرسلت قبرص جوادين.

كما أن توفير ما تحتاجه مصر من جواد، كان يعتمد أساساً على ما يتم الإستيلاء عليه في أرض المعركة.

المواد النفيسة

كانت مصر بلد الذهب. وفضلاً عن مناجمها في سيناء، كانت تتدفق من هذا المعدن النفيس كميات كبيرة، تأتي أساساً من إفريقيا. وإلى جانب جمال الذهب

المتألق، كانت له قيمة رمزية: فلا يصيبه تلف أو فساد، شأنه شأن لحم الآلهة، الذي يتكون منه. كانت توابيت الملوك تصنع من الذهب لضمان سلامتها ولتغالب الزمن، فهكذا تتحول إلى بيوت إلهية للأبدية، ومقدسة مثل أجساد الآلهة. وفي زمن لاحق، سوف تُصنع من أجل أجاممنون(*) الأتریدی(**) أقنعة ذهبية، ليكتسب وجهه التألق الأبدى للآلهة النورانية والخلود الجسدى. هكذا تتقارب الأفكار.

فى العام ٣٣ أرسلت ريتنو ٤٥ دين من الذهب (يعادل الدين ما يقارب ٩٢ جراماً) وأرسلت كوش: ١٥٥.

فى العام ٣٤ أرسلت ريتنو ٥٥ دين وكوش ٣٠٠ دين وواوات ٢٥٥٤ دين.
فى العام ٣٧: ٧٠ دين من كوش.

فى العام ٣٨: أرسلت واوات ٢٨٤٤ دين (٢٦١ كيلو جراماً!) من الذهب.
فى العام ٣٩: أرسلت كوش ١٤٤ دين.

فى العام ٤١: أرسلت كوش ١٩٥ دين وواوات ٣١٤٤ دين (٢٩٠ كجم).
فى العام ٤٢: أرسلت واوات ٢٣٧٤ دين (٢١٨ كجم).

وكانت مناجم صحراء النوبة منتجة للذهب على نطاق واسع.
إلى جانب الذهب كانت الفضة متوفرة فى بلاد النهرين.

فى العام ٣٩: سلمت ريتنو إلى مصر ٤٩٥ دين من الفضة.

كما كانت قبرص ترسل النحاس بكميات كبيرة. ولم يقتصر الأمر على قبرص، بل كان يرسل أيضاً عن طريق چاهى وريتنو، والأمر اللافت للإنتباه فى نص الحوايات أن النحاس والقصدير يذكران دائماً، جنباً إلى جنب، فى قوائم الجزية. الأمر الذى يحملنا على الاعتقاد بالنظر إلى القيمة التى كان المصرى يضيفها على الكلمات

(*) ملك يونانى أسطورى ابن أتره، قام بضرب الحصار حول طروادة. (المترجم)

(**) نسبة إلى الملك الميكاني أتره Atrée. (المترجم)

ومنطوقها، أن بعض صناعات البرونز(*)، كانت قائمة منذ ذلك الزمان في مصر. وهكذا، ففي العام ٢٩، جاء النحاس والقصدير من جاهى، وفي العام ٢١ من ريتنو، وكذلك في السنوات ٢٤ و٢٨ و٤١ و٤٢.

كانت تصل إلى مصر من آشور وبابل وقبرص وخاتى أنواع مختلفة من اللزورد. ونذكر تحديداً، من بابل في العام ٢٢، في أعقاب الحملة الثامنة الذائعة الصيت التي شنّها تحوتمس الثالث على الفرات.

أما الأحجار الكريمة فقد قدمتها خاتى في العام ٢٢ وريتنو في العام ٤٢. كانت الممتلكات الإفريقية بطبيعة الحال، ولكن ريتنو أيضاً، ترسل العاج والأبنوس والخشب العطري ولا سيما خشب الصندل.

المواد المصنّعة

ومن ريتنو أيضاً كانت ترد كل سنة في واقع الأمر، مواد مصنّعة من الذهب، أو الفضة أو النحاس، نذكر منها أساساً، الأواني والكؤوس ولكن أيضاً الموائد المصنوعة من خشب الصندل المطعم بالعاج.

كما ترد من ريتنو شحنات الأسلحة:

ففي العام ٢٨ كانت تضم ٤١ زردٍ ورماح من البرونز وتروس وأقواس ومختلف أنواع أسلحة القتال.

في العام ٤١: زرد واحد من البرونز وبلطات ورماح من البرونز.

في العام ٤٢: زرد واحد من البرونز وأسلحة قتال.

كما كانت هناك مركبات من معادن نفيسة:

في العام ٢١: وردت تسع عشرة مركبة من الفضة.

وفي العام ٣٣: مركبة واحدة من الفضة.

وفي العام ٣٤: وردت تسعون مركبة من الذهب والفضة أو من الخشب الملون.

(*) وهو سبيكة من النحاس والقصدير. (المترجم)

وفى العام ٢٥: مركبة واحدة من الذهب وأكثر من عشر مركبات من الفضة.
وفى العام ٢٨: تسع مركبات من الذهب والفضة و٦١ مركبة من الخشب الملون.
وفى العام ٣٩: مركبات من الفضة والذهب.

البخور

كان البخور والمر من منتجات بونت الرئيسية إلا أنهما كانا جزءاً من جزية
چاهى وريتتو. ففي العام ٢٢ أرسلت بونت ١٦٨٥ حقات أى ما يعادل ٧٤٨٢ لتراً، فى
حين سلّمت ريتتو فى السنة نفسها ٨٢٨ زلعة و٦٩٣١ زلعة فى السنة التالية....

الخدم والنساء

وأرسل الخدم والنساء من أفريقيا وريتتو. ومن هذه المنطقة الأخيرة، تلقى
فرعون كعلامة تقدير واحترام على ما يبدو، بنات الزعماء لينضموا إلى حريمه وجاءت
معهن «بائئات»(*) قيمة. ولا شك أن نساء ريتتو كنّ يوصفن بالجمال والحسن، فيمتعن
الناظر إليهن.

ففى العام ٢٤ استقبل تحوتمس الثالث:

ابنة أحد الزعماء، محملة بذهب ولازورد بلدها. إن الحرس والخدم والشغاليين
والخادمت المصاحبين لها، كان عددهم ثلاثين فرداً^(٥٥).

وإذا كانت النوبة والسودان تساهمان، على ما يبدو، فى جميع المجالات، ولا
سيما فى ازدهار مصر الإقتصادي، فإن أهم مواقع التجارة الدولية كانت چاهى
بمعنى الموانئ الفينيقية بطبيعة الحال، ولكن ريتتو أيضاً. إن مدن الرمال كانت مركز

(*) البائنة: ما تحمله العروس من بيت أبيها من مال أو جهاز عند زفافها. المنجد فى اللغة العربية
المعاصرة. دار المشرق. بيروت. طبعة ثانية. ٢٠٠١. (المترجم)

هام لتجارة المنتجات النفيسة الواردة من بلاد النهرين أو الجزيرة العربية أو آسيا الصغرى. كانت محطات ضرورية لا مناص منها تتوقف عندها القوافل التي تقطع الدروب التجارية الطويلة عبر الصحارى. فكم من عمليات التبادل والصفقات، كانت تتم داخل أسوارها، حيث كان يتركز آنذاك جانب من ثروات الشرق. ومن هنا نفهم لماذا أراد تحوتمس الثالث، أن يضم إلى إمبراطورية، هذه الأماكن الإستراتيجية والوكالات المتخمة بالثروات.

كانت طيبة الإلهة المنتصرة، قد أصبحت المخزن الضخم الذى يحتوى على المنتجات الحيوية والنفيسة للعالمين الآسيوى والإفريقى. وعلاوة على كل ذلك لابد أن نضيف المنتجات الخاصة بمصر ذاتها من ذهب وفيروز ودهنج(*) ونحاس سيناء والغنائم الوفيرة التى يتم جمعها من أرض المعارك. كانت مصر أرض الكنوز الأسطورية، ووصلت إلى قمة الإزدهار، كما لم يحدث من قبل، بفضل بسالة وفطنة ملكها وبفضل مؤازرة الآلهة.

أعياد النصر

واعتراف الملك بجميل الآلهة

أقيمت الإحتفالات الخاصة احتفاءً بالانتصارات، أما برنامجها فيستعرضه نص الحوليات فى الكرنك:

العام ٢٢. عاد جلالتي من أولى حملاته المظفرة... وعلى امتداد ثلاثة أشهر ظل يدعم فتوحاته... فى بلاد ريتنو. إن حصناً أمرت بتشبيده يخذ انتصاراتى وسط أمراء لبنان. سوف يحمل اسم «من خير رع هو الذى ربط البدو».

والآن، لقد نزل إلى البر فى طيبة^(٥٦). إن أبى آمون فى فرح وسرور... لقد احتفل جلالتي إكراماً له، بعيد النصر، فكان أمراً مبتكراً، عند عودتى من الحملة

(*) أو الملاخيت. (المترجم)

الأولى المظفرة، بعد أن أجهزت على الريتو الخسيس ووسعت حدود مصر فى العام الثالث والعشرين من عهدى، فى زمن الانتصار الأول الذى خصنى به آمون.

وسوف يُحتفل بأول أعياد النصر هذه، بمناسبة أول عيد يقام من أجل آمون. واستمر خمسة أيام.

ويُحتفل بثنائى أعياد النصر هذه، يوم «دخول - الإله» بمناسبة ثانى عيد يقام من أجل آمون. واستمر خمسة أيام.

أما الإحتفال بعيد النصر الثالث فإنه يتزامن مع خامس أعياد آمون فى حنكت-عنخ (معبد تحوتمس الثالث الجنازى) عندما يعود هذا الإله الجليل من عيده الجميل فى الوادى^(٥٧). واستمر خمسة أيام.

لقد حدد جلالتي قرباناً وفيراً من أجل آمون بمناسبة عيد النصر هذا، الذى ابتكرته مؤخراً. يضم (القربان) خبزاً وجعة وأبقاراً وعجولاً وثيراناً وطيوراً وظباءً وغزلاناً وبخوراً ونبيداً وفاكهة وخبزاً أبيض، ومختلف ما لذ وطاب، وذلك على مدار السنة^(٥٨).

هذا الاعتراف بجميل آمون، بعد أن أصبح المرشد الهادى الذى يوجه المعارك يجد ترجمته أيضاً فى الثروات الضخمة التى كانت من نصيب طيبة، فتدفقت عليها بكميات وفيرة.

لقد أعطاه جالتي كل الغنائم... التى جلبها ساعدى القدير، من الإنتصار الأول الذى خصنى به، ليمتلى مخزنه. لقد وهبته الخدم لينسجوا من أجله الكتان الملكى والكتان الأبيض وكافة أنواع الكتان (وهبته) الفلاحين ليعملوا فى حقوله ويحصلون محاصيله ويملؤن شؤنه بالقرايين الإلهية. قائمة بالآسيويين رجالاً ونساءً، وبالنوبيين والنوبيات الذين وهبهم جالتي لأبى آمون، منذ العام ٢٣ وحتى وضع هذه الوثيقة فى المعبد: ١٥٨٨ سوريا... (وللأسف تمنعنا فجوة فى النص من تحديد عدد الإفريقيين).

وسلمه جالتي بقرة حلوباً كانت تخص ماشية مصر العليا ومصر السفلى وبقرتين حلوبين تخص ماشية چاهى وبقرة حلوب تخص ماشية كوش فكان المجموع

أربع بقرات حلوب، ليتم حلب لبنها في أباريق من الذهب الخالص على مرّ الأيام،
وإتاحة تقديمه على هذا النحو إلى أبى آمون.

كما منحه جلالتي ثلاث مدن قائمة في ريتنو العليا: اسم إحداها نوجس
والثانية ينوعم والأخيرة حرنكرو.

(كانت المدن الثلاثة جزءاً من التحالف الذى انعقد ضد تحوتمس الثالث).

والرسوم التى سيتم جبايتها بصفتها ضرائب سنوية، ستخصص للقرابين
الإلهية التى يحصل عليها أبى آمون.

كما يقدم له جلالتي، مختلف أنواع الثروات من ذهب وفضة ولازورد وفيروز
ونحاس أسود وبرونز ونحاس وقصدير وألوان بكميات كبيرة، من أجل تشييد مبانى
ومعالم أبى آمون، وذلك من شدة حبى له الذى يفوق حبى (لغيره) من الآلهة.

وجمع جلالتي من أجله سرب إوز للماء البركة وكانت مخصصة للقرابين الإلهية
اليومية. ومنحته إوز سميئة، كل يوم من الأيام. إنه دخل ثابت للزمن الأبدى من أجل
أبى آمون^(٥٩).

قد يقال أنه حصر «لا يلتزم بأى ترتيب»، فيخلط بين الطعام الضرورى والماشية
والمواد النفيسة والإيراد الوارد من ثلاث مدن أجنبية وينتهى بوصف حظيرة الطيور.
ولكنه حصر جيد التعبير عن مدى اهتمام الملك بإرضاء آمون. إن نقوشاً منحوتة على
الحائط الجنوبى من الممر الواقع جنوب منطقة قدس أقداس المعبد الكبير، تستكمل
بصرياً هذا العرض المتنوع، وتؤكد بطريقة عينية على ضخامة الثروات التى كانت
تُسَلَّم لكهنة طيبة: ونشاهد تحديداً المسلتين الشامختين اللتين قدمهما الملك، وتوجد
إحداهما فى إسطنبول فى الوقت الراهن^(٦٠)، بالإضافة إلى ساريتين براياتهما، وقد
خصصتا لصرح المعبد وصنعتا من خشب الأرز وغُشّى طرف كل منهما بالذهب
الخالص. كما صورت أشياء هامة نفيسة من ضروريات إقامة الطقوس الدينية: من
صناديق صغيرة إلى أدوات رقيقة وموائد قرابين وقلادات عريضة وأدوات زينة

للتماثيل الإلهية، فضلاً عن الذهب والفضة والبرونز والأحجار الكريمة. إن آمون يتربع على العرش ويسهر تحوتمس الثالث على «خدمته».

ولا تتوقف عند هذا الحد، مظاهر العرفان بالجميل، كما يفصح عنها العاهل الملكى الذى يبدو أنه أشرف بنفسه بعد العام ٢٣، على التوسع فى أملاك الكرنك المقدسة وحسن إدارتها. أكانت لفئة سياسية؟ أم نظرة إرتياب نحو كهنة طيبة؟ أو على عكس ذلك نتيجة تفاهم، تعاهد عليه كل من الملك والكهنة فى أعقاب اختفاء حتشپسوت، وربما عجل من هذا التفاهم، تربع العاهل الملكى الشاب على العرش؟ لا يسعنا فى هذا المقام سوى أن نعرب عن بعض التكهنات حول الحقائق التى أوجت بالوقائع التى ترونها الحوليات، من جديد:

لقد مسحتُ من أجله، الحقول والبساتين وأراضى الحرث الشاسعة، ووقع إختيارى على أفضلها فى مصر العليا ومصر السفلى، لأشكل منها الأراضى الصالحة للزراعة وتقديم ما تنتجه من قمح إلى القرابين الإلهية اليومية. لقد حددّ جلالتي ذلك مؤخرًا، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

كما حدّد جلالتي القرابين الإلهية المخصصة للمسلات الأربع الشامخة^(٦١) التى أقمتها حديثًا، من أجل أبى آمون: وهى عبارة عن ١٠٠ رغيف خبز متنوعة و٤٠٠ أباريق جعة أى ما يعادل ٢٥ رغيفًا وإبريقًا واحدًا لكل مسلة (كان الكتبة المصريون مولعين بالحسابات الدقيقة...)

كما أعدّ جلالتي من أجله حديقة جديدة مزروعة بمختلف أنواع النباتات المفيدة لإنتاج الخضروات لإمداد القرابين الإلهية اليومية. وقد حدّد جلالتي ذلك، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

وإلى حريم الإله جاء الملك....

... بالنساء الجميلات من أركان الأرض.

وقام بإدارة الكرنك:

انظروا، لقد أعدّ جلالتي كل أثر وكل قانون وكل قاعدة، من أجل أبى آمون، رب عروش القطرين الذى يقف على رأس الكرنك، وذلك من شدة إدراكى لمجده وقدرته.

أنا حكيم بفضل (إرشاداته) المفعمة بالبركة، فاستكين فى جسده... لم أهمل شيئاً مما أمرنى به، سواء بالنسبة للأشياء التى كان يتطلع إلى وجودها أو ما يحبه كآؤه. وأنجزت ذلك من أجله طبقاً لأوامره، مدفوعاً من قلبى، فاعلاً بساعدى من أجل أبى، فخالقى يسعى إلى انجاز كل ما هو مفيد له... وكشف جلالتي عن هذه الأشياء المفيدة: كتوسيع المبانى لتصبح فعالة للزمن الآتى، وتوضيح أعراف الطهارة ونظم الإدارة وتزويد هذا المعبد بالمؤن من أجل أبى آمون...

إنى لا أبالغ، ولا أقول كلاماً على سبيل المباهاة أو التفاخر قائلاً: «لقد فعلت كذا»، فى حين أن جلالتي لم يفعله. كما لم أنجز شيئاً من أجل سواد الشعب، يمكن أن يوصف بالمبالغة. لقد فعلت ما فعلته من أجل أبى سيد الآلهة... فإنه يعرف عندما يقول المرء أنه فعل شيئاً، فى حين لم يفعله فى واقع الأمر. فهو الذى يعرف السماء، وهو الذى يعرف الأرض، وهو الذى يشاهدها بالكامل، فى ظرف ساعة. إنى أقسم، تماماً كما أن رع يحبنى، وأن أبى آمون يمتدحنى، وأن الشباب قد عاد إلى أنفى، حياةً وقوةً، أنى حقاً، فعلت كل ذلك.

ويوجه كلامه إلى الكهنة قائلاً:

اسهروا على القيام بواجباتكم، لا تهملوا أيّاً من تقاليدكم. كونوا أطهاراً، كونوا نزهاءً، فى كل ما يتعلق بالشئون الإلهية، تجنبوا الأفعال المحرمة^(٦٢).

وفى الكرنك لا تقدم «الخدمة» للإله آمون وحده دون غيره من الآلهة. ولكن تقدم أيضاً للإله پتاح المنفى^(*) الذى أقيم له معبد داخل أسوار الكرنك المقدسة^(**). ولكن هذه «الخدمة الإلهية» كانت تأتى بعد «خدمة» آمون من حيث الترتيب. وعلى لوح حجرى أقيم فى معبد پتاح يُصدر تحوتمس أوامره الآتية:

(*) (نسبة إلى مدينة منف. (المترجم)

(**) (وتحديداً فى القسم الشمالى. (المترجم)

أمر جلالتي، أن توضع من جديد قرابين وفيرة من أجل أبي آمون في الكرنك، عندما يستريح فيه: اثنتى عشرة كومة قرابين تضم كل شيء، وذلك في يوم «دخول الإله»، وفي كل عيد من أعياد آمون، بالإضافة إلى ما كان موجوداً من قبل.

وعندما يأخذ جلالة هذا الإله المعظم كفايته مما قُدّم له من أطعمة، سوف يتم رفع كومة واحدة من هذه الأكوام التي تضم كل شيء، لتسلم إلى كهنة الساعة، في معبد أبي آمون بالكرنك.

وبعد ذلك سيتم وضع كومة قرابين تضم كل شيء، وستة أرغفة سنو لترتفع أمام تمثال ملايين (السنين) لجلالتي الذي سوف يمدّ عندئذ يده في اتجاه هذا الإله المعظم وهذه القرابين...

وعندما يأخذ هذا التمثال كفايته مما قُدّم له من قرابين، يتم رفعها لصالح معبد پتاح، رب الحقيقة والعدالة، القائم إلى جنوب جداره، طبقاً لقاعدة القرابين الموضحة في هذا المعبد^(٦٣).

تأمين تبادل الخدمات:

أمر جلالتي بوضع قرابين جديدة لصالح أبي پتاح، القائم إلى جنوب جداره في طيبة: تضم ٦٠ رغيفاً من أصناف متنوعة وإبريقى جعة وخضروات وأرغفة خبز، وذلك من أجل القرابين اليومية، بالإضافة إلى ما كان موجوداً من قبل. وعندما يأخذ الإله كفايته من هذه الأشياء، فلتوضع عندئذ أمام تمثال جلالتي^(٦٤).

● ثم تعود الأطعمة إلى كهنة الساعة في معبد پتاح.

يوضح تبادل «الأطعمة» على هذا النحو، الصلة الوثيقة التي تربط «الآلهة» الثلاثة: آمون وپتاح بصفتهم إلهي عاصمتي المملكة القديمة والإمبراطورية الجديدة وثالثهما الملك.

وبعد عودة فرعون من حملته الآسيوية الأولى «ملاً أيضاً معبد پتاح بكل ما لذّ وطاب، من مختلف الأنواع: من ثيران وطيور وبخور ونبيد، بالإضافة إلى قرابين الفاكهة من كل صنف^(٦٥)».

وأحياناً بمناسبة بعض الأعياد الخاصة تحديداً، كانت هذه الأطعمة تحرق، على هيئة محارق ضخمة، فتقوى رائحتها وتنتشر صعوداً إلى عنان السماء، إذا أخذنا بعين الاعتبار كمياتها الضخمة والمتنوعة. وهكذا، فمن أجل پتاح:

وضع جلالتي من أجله: ثوراً وزلعة نبيذ وإوزتين سمينتين وأربع حمامات وفاكهة وأربعة مكاييل راتنج ودقيق وأربعة أرغفة خبز أبيض ونباتات وخضروات وعشرين إناءً وعشرة أباريق جعة وخمس دجاجات للمائدة ومئتي رغيف خبز للقرابين المتنوعة، واردة من معبد آمون وأربعة مكاييل بخور وحلوى وعشرين رغيف خبز، واردة من مخازن فرعون.

تحدد ذلك، بصفته حقاً يورد سنوياً، ويحرق يومياً في حضرة الإله (٦٦).

كما أن رع - حور أختي إله هليوبوليس العتيق يتلقى أيضاً الأطعمة من الفرعون الهمام.

كما حدد جلالتي قرابين إلهية للقيام بالمذائح الشعائرية من أجل أبي رع - حور أختي عندما يسطع... وحدد جلالتي من أجله قرابين من البذور لضمان استمرارية الإحتفالات الشعائرية بمناسبة عيد رؤية الهلال الجديد وعيد الأيام الستة ويومياً، وفقاً لما هو متبع في هليوبوليس. لأن جلالتي قد اكتشف أن حرث البذور في حقول چاهي، أمر حسن (٦٧).

إنها صورة فرعون في الحقول. إن القيمة الرمزية للبذور التي تعيد الحياة إلى النباتات، تشبه شمس الأفق التي تعيد الحياة إلى البشر.

أجل إن عرفان تحوتمس الثالث بالجميل يتجه إلى الآلهة جمعاء، وإن تميزت ثلاثة منها على وجه التحديد. وبعد انقضاء قرنين من الزمن، وفي عهد رعمسيس الثاني، سوف يصور آمون وپتاح و رع - حور أختي... وفرعون، جنباً إلى جنب، في قدس أقداس معبد أبو سمبل الكبير متحدین إتحاداً مقدساً، لخير البشرية.

إن منابع أيديولوجيا الرعامسة تنهل من معين التحامسة. فمع تأسيس الإمبراطورية نشأت حركة فكرية قوية وتجديد روحاني، سيطرت عليها تحديداً، تصور جديد لشخص الملك ومصير مصر.

أيدولوجيا الإمبراطورية الأولى

صار الملك من الآن «بطلا» ضرورياً، لا مناص منه. إنه الأول في المعارك. والأعداء يسرون في أعقابه «كما تسير الكلاب». إن قوته «تشبه قوة ابن نوت»^(٦٨). وفرعون «قلعة حصينة، عظيمة الفائدة لجيشه»^(٦٩)، فهو سور من نحاس ويتحد بالعالم في أشكاله الحيوانية «إنه الصقر ذو الساعد المقدام» و«الثور القدير القلب»^(٧٠) وفي أشكاله الكونية «إنه يتألق وسط الأقواس، مثل النجم الذي يعبر السماء»^(٧١)، إنه الابن المولود من صلب الآلهة.

سوف يعمل الرعامسة على تطوير هذه المواضيع^(٧٢) في سياق فكر شديد الثراء، مع تنوع تعبيراته المرموقة، في أغلب الأحوال، التي تبرهن على استقلاليتها الروحانية، وإن ارتبطت بتقليد إمبراطوري تواتر منذ ظهوره، إبان الأسرة الثامنة عشرة. لم يكن الأمر كما يقال أحياناً، مجرد نسخ كلمات وعبارات، يتم تصنيفها في محفوظات سرية، بل كان انتقال أيدولوجيا تأكدت بوضوح على امتداد مئات السنين، بعد أن نشأت في عهد تحوتمس الأول، لتصل إلى ذروة تطورها في عهد الملوك الرعامسة. إن الملوك الأجانب الذين سيحكمون مصر فيما بعد، هم الذين سيستخدمون هذه النصوص ليستقوا منها مجرد شرعية لفظية.

أدرك تحوتمس الثالث لأول مرة أبعاد الإمبراطورية، فتصورها من جانبه، على ما يبدو كمجموعة بلدان أعضاء في دولة إتحادية، في حالة البلدان الآسيوية، أما بالنسبة للبلدان الإفريقية، فكان يعتبرها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالبلد الأم، فتشكّل معه امتداداً طبيعياً لا انفصل. إن الرباط الذي يشدّ وثاق هذه الإمبراطورية الشاسعة المكونة أساساً من دول اتحادية، كان لابد أن يتجسد في شخص الملك، الإله ذاته، القادر على الاندماج في مختلف آلهة المدن والمناطق التي تم فتحها. هكذا لم تصبح الإمبراطورية من الآن، مجرد مجموعة سياسية مترابطة ومتماسكة ولكن كانت أيضاً، وربما منذ تلك الأزمنة القديمة تحديداً، وحدة روحية ضخمة.

إن تحليل نص منحوت على لوح كبير من حجر الجرانيت، يبلغ ارتفاعه ١٨٠ سم، كان قائماً في حجرة تقع إلى الشمال الغربي من قدس أقداس معبد الكرنك

الكبير، ومن مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يكشف لنا الكثير عن هذا الموضوع. كما أنه ترنيمة تتغنى بانتصارات الفاتح العظيم. إنه نشيد إمبراطورى حقيقى، الأول فى هذا المضمار، نشيد جَزَلٍ وغنائى ومزهو:

كلمات قيلت من قبل أمون - رع، رب عروش القطرين: مرحباً بك بجوارى، أنت الذى تفرح لرؤية جمالى، أيا ابنى، يا حامى، يا من خير رع، ليتك تحيا إلى أبد الأباد!

إنى أتألق بسبب ما تكنه لى من حب، ويفرح قلبى عند قدومك الميمون إلى معبدى. إن ساعدى تنضمان إلى جسدك، لتؤمنان حمايتك السحرية وحياتك. كم هى ممتعة رقتك بين أحضانى. سوف أبقيك فى مسكنك إلى الأبد. ومن أجلك سوف أصنع العجب العجائب.

إنى أعطيك القوة والنصر على كافة البلدان الأجنبية. وفى كافة الأراضى (٧٣)، أقيم مجدك والرعب الذى يثيره (*). إن الفرع الذى تستشعره (النفوس) فى حضرتك يصل إلى حدود أعمدة السماء الأربعة.

إنى أشيد بهيبتك فى الأجساد جمعاء. وانشر صيحة حرب جلالتك، على امتداد الأقواس التسعة، فأمراء كافة البلدان الأجنبية قد تجمعوا فى قبضتك. إنى أبسط شخصياً الساعدين وأربطهم من أجلك.

إنى أقيّد النوبيين بعشرات الآلاف وبالألاف. لقد وقع أهل الشمال فى الأسر بمئات الآلاف. إنى أعمل ليسقط أعداؤك تحت نعليك، وتطى الأعداء أصحاب القلوب الخسيسة، طبقاً لما أمرت به، من أجلك.

ومن الآن، فالأرض فى طولها وعرضها، وأهل الغرب وأهل الشرق، خاضعون لسلطانك. إنك تدوس بقدميك كافة البلدان الأجنبية وأنت سعيد القلب. ولا أحد من حاشيتك يستدير إلى الوراء، فأنا هاديك ومرشدك، وسوف تتمكن من اللحاق بهم.

(*) من الأهمية بمكان أن يراجع القارئ الهامش ٧٣ فى آخر الكتاب، ضمن هوامش الفصل الخامس، لدلالته فى توضيح المصطلحات المستخدمة فى هذه الجملة. (المترجم)

لقد عبرت مياه ثنية نهارينا العظيمة، بقوة واقتدار كما أمرتك. وعندما يسمع
الأعداء صيحتك - صيحة الحرب - يدخلون في جحورهم. عندئذ أحرّمهم من نسمة
الحياة، لأننى أضع الخوف منك، فى ثنايا قلوبهم.

إن متوهّجتى (الصل) التى على جبينك تُحرقهم، إنها تبديد الفسقة والأثماء،
وتحرق سكان الجزر بلهيبها. إنها تقطع رؤوس الآسيويين. فلم يبق منهم أحد، وتم
القضاء على أولاد زعمائهم.

وجعلت (أنباء) إنتصاراتك تنتشر فى ربوع البلاد، بينما ثعبان جبينى يضىء
جسدك.

فلا وجود لإنسان واحد قد يتمرد عليك، على امتداد كل ما تحيط به السماء.
إنهم يأتون حاملين جزيتهم على ظهورهم وينحنون أمام جلالتك، بناء على أوامرى.
وأتصرف بحيث تخور قوى أعدائك عندما يحضرون إلى جوارك وقلوبهم محترقة
وأطرافهم مرتعدة.

لقد أتيت،

وحملتك على سحق أمراء فينقيا. وأمدّهم تحت أقدامك،

فى ربوع البلاد.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بصفتك رب النور،

وتتألق فى وجوههم مثل صورتي.

(كانت المدن الفينقية تعبد شمش(*) إله الشمس العظيم فى الشرق الأدنى
القديم(**). وكانت بعض المدن مثل بيبيلوس تعبد آمون - رع. وعندما يتجلى تحوتمس

٧

(*) هكذا بالشين. ويمكن عقد مقارنة مع كلمة شمس العربية وشمش العبرية. (المترجم)

(**) ويشمل بلاد بين النهرين وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس وسوريا وبلاد العرب. (المترجم)

الثالث بصفته الشمس الإلهية كان يضيفى بلا منازع الشرعية، لسلطانه على هذه المناطق).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق شعوب آسيا وضرب زعماء آسيويى ريتنو.
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بعد أن ارتدى حلة (الحرب)،
بينما تمسك أسلحة المعركة، على متن مركبتك.

(فى مواجهة الآسيويين الذين يجنحون إلى التمرد، كلما تغير الملك المتربع على
عرش مصر، يؤكد تحوتمس على قدرته وقوته، بالكشف عن استعداداه لخوض
المعركة).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الشرقية والسير فوق أبناء مناطق بلد الإله.
لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك نجماً يُطلق ضياءه مثل لهب،
ويعطى أنداءه.

(إن استخدام مصطلح «سحق» بالنسبة لبلاد پونت هو مجرد استخدام شكلى.
ويقدم النص وصفاً لانطلاق النيزك الذى يختلط تألقه عند وصوله إلى الأرض مع تألق
الأنداء. فالفكر المصرى هو فى الغالب فكر إنطباعى، يترجم العواطف التى تتركها فى
نفس المرء الصور الحسية. ويقوم النيزك بدور بارز فى حكايات بلاد پونت. راجع فى
هذا الصدد قصة الغريق. فربما عرفت پونت عبادة النجوم؟).

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق الأرض الغربية، فتنحني كريت وقبرص بسبب مجدك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، ثوراً دائماً الشباب، قلبه ماضى العزيمة

وحاد القرنين، فيستحيل مهاجمته.

(كانت عبادة الثور الأبيض، وهو ثور شمسي إذن؛ منتشرة على نطاق واسع

فى كريت)

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق سكان الجزر، وترتعد بلاد الميثانى

تحت وطأة التخوف منك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك تمساحاً، فهو رب الرعب وسط المياه،

يصعب الإقتراب منه.

(الإشارة هنا إلى عبور نهر الفرات واختراق الميثانى)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق جزر الوسط (السيكلاد^(*)) والشديدة الإخضرار

ترزح تحت وطأة صيحاتك. صيحات الحرب.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك منتقماً جباراً، فيظهر ممجداً،

على ظهر الثور الصريع.

(*) أرخبيل يونانى فى جنوب بحر إيجه. موطن حضارة كانت مدمرة فى الألف الثالث قبل

الميلاد. (المترجم)

(يظهر الملك هنا مندمجاً في حورس المنتقم لأبيه أوزيريس. في حين أن الثور الصريع هو ست).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الليبيين وبلاد الأوينتيو رهن قوة مجدك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك أسداً متوحشاً،

بينما تحولهم إلى جثث على امتداد وديانهم.

(تظل المعارك شكلية. فإذا كان المقصود بالأوينتيو في واقع الأمر الدانيون(*) Danaéens، يكتسب هذا المقطع أهمية بالغة لمعرفة التاريخ الديني. وبالفعل فإن وادي نيميا Némée كان يقع في بلاد الدانيين(**). ويقال أن هيراكليس(***) قد صرع الأسد الذائع الصيت في هذا الوادي. ومن ثم فإن الحكاية الخرافية المصرية تعود إلى زمن أقدم بكثير مقارنة بالكلاسيكية اليونانية).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضي الأكثر بعداً، وما تحيط به الدائرة الكبرى،

مربوط في قبضتك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، صقراً بجناحين،

يستولى على ما يراه حسب رغبته.

(*) نسبة إلى دانيه Danaé وهي من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) في منطقة كورنتوس الحالية ببلاد اليونان. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(الدائرة الكبرى هي المحيط الذي يحيط بالعالم المخلوق. ومن ثم فالكون بأكمله ملك لفرعون. فبصفته صقراً محلقاً في السماء، فإنه يشمل بنظراته أملاكه الشاسعة من أقصاها إلى أدناها).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق النوبيين، وحتى بلاد شاعت في قبضتك،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك مثلك مثل أخويك اللذين ضمنت

سواعدهم من أجلك، تعبيراً عن النصر.

(إن اتحاد حورس وست في شخص فرعون، خير ضمان لاستتباب السلام والتوازن في مصر. ومن ثم لن تتاح للنوبيين فرصة التمرد).

لقد وضعت أختيك (إيزيس ونفتيس) خلفك لتأمين حمايتك السحرية، بينما ساعدا جلالتي في السماء لطرد الشر.

إنى أقوم بحراستك يا بنى، يا محبوبى، أيا حورس «الثور القوى الذى يظهر فى طيبة»، الذى انجبته من صلبى، أيا تحوتمس الذى أنجز من أجلى كل ما كان يتطلع إليه كائى.

لقد شيدت معبدى، إنه إنجاز من إنجازات الزمن الأبدى. لقد جعلته أضخم وأكثر اتساعاً مما كان عليه فى السابق. إن روعة جمال بوابة من خير رع المزبوجة الكبيرة، كان لها وقع بهيج عند آمون - رع.

إن مبانيك أضخم من مبانى أى ملك من الملوك الذين سبقوك إلى الوجود. لقد أمرتك بتشبيدها وأنا راضٍ عنها. ومن ثم، أقيمك على عرش حورس فتغالب الزمن، لملايين السنين، وتقود الأحياء للزمن اللانهائى^(٧٤).

إن ملك الكون، الكيان الإلهي العظيم المتعدد الأشكال، هو الضامن الأسمى لقماسك الإمبراطورية وترباطها، بعد أن كفل فتح أراضيها. وإذا ظلت دول آسيا تحتفظ كل واحدة منها، بحكمها الذاتى من الناحية السياسية وإدارتها الخاصة، إلا أن كياناً روحياً واحداً شاملاً، يهيمن عليه الفرعون- الإله، يجمعها فى أسرة واحدة مع مصر إلى جانب ممتلكاتها الإفريقية. ويستمد الملك شرعية سلطته الدنيوية من اندماجه الشخصى فى كافة كبرى آلهة الشرق والبحر المتوسط.

كانت إمبراطورية التحامسة تتكون من بلدان تنتظم فى مجموعها، فى دولة إتحادية، تلتف حول شخصيتين مقدستين تتمثلان فى الفرعون وإله الكرنك أمون- رع، اللذين أصبحت لإرادتهما السيادة على صعيد العالم.

وفى وقت لاحق وبعد انقضاء مئتى سنة، سوف يتطلع الرعامسة إلى جعل إمبراطورية مصر مجموعة مرتبطة أيضاً على الصعيد السياسى، وتتكون من إمبراطورية شاسعة موحدة خاضعة لسلطتهم التى ما زالت روحية ولكنها دنيوية أيضاً، وعاصمتها الجديدة پر- رعمسيس، الواقعة فى قلب أراضى الإمبراطورية، عند الحدود الفاصلة بين مصر وآسيا^(٧٥).

٣- الشئون الداخلية

وكبار موظفى الإمبراطورية

كانت العائلة الملكية تقيم فى قصر الأقصر. وثلاث زوجات كن بجوار الملك. اثنتان منهن حملتا لقباً مرموقاً، هو «الزوجة الملكية العظيمة». الأولى وهى حتشپسوت- مريت رع (أى «محبوبة رع»)، من الراجح، أنها كانت ابنة تحوتمس الثانى وحتشپسوت، فبفضلها اكتسب الأمير الشاب تحوتمس المولود من تحوتمس الثانى وإحدى محظياته، شرعية إنتسابه إلى الأسرة المالكة. فكانت «تلك التى ترافق

أخاها الإله الكامل. إنها الزوجة الملكية الأولى التي لا تبتعد أبداً من جوار رب القطرين^(٧٦)». أما الثانية وهي سات-إعح (أى «ابنة-القمر») فكانت والدتها «مرضعة الإله الكبرى». أما الثالثة وهي نبتو، فكانت زوجة «عادية». وسجلت الأسماء الثلاثة فى مقبرة الملك بواى الملوك، على وجه التحديد.

جاءت ثمرة هذه الزيجات الثلاث ابنين هما أمنحوتب الذى خلف أباه وتحوتمس وثلاث بنات هن نفرتارى (أى «جميلة») ومريت آمون (أى «محبوبة آمون») وباكت.

إننا أبعد ما نكون عن «الكثرة» التى شاعت فى عصر الرعامسة، رغم وجود بيت الحريم الذى تعمّره فى المقام الأول، الأميرات الأجنبية اللواتى يُرسلن إلى فرعون لكسب ودّه. إنها بداية سياسة سوف يترتب عليها، عما قريب، ازدحام قصور طيبة أو پر-رعمسيس بالجماليات القادمة من آسيا، فكنّ بلا شك، هدايا يقدرها الملك حق قدرها. وعلى الجدار الشمالى، من إحدى «حجرتى الحوليات» بالكرنك وهى الحجرة الشمالية تحديداً، يصور نقش تحوتمس الثالث ترافقه سيدات البلاط، وهن يحركن المصلصات بينما يقوم الملك بتكريس كميات ضخمة من الجزية من أجل الإله آمون وذلك فى أعقاب حملاته السورية.

وشأنه شأن ملوك وادى النيل، كان تحوتمس الثالث يوقّر ويجلّ السلالة التى انحدر منها والتى يؤمّن مستقبلها. فمنذ العام ٢٢ وهو عام بداية حكمه الفعلى للبلاد، قام بترميم وتزيين تمثال للملك أمنحوتب الأول، أمام الصرح الثامن فى الكرنك، بالإضافة إلى تمثال لوالده تحوتمس الثانى. وفى العام ٤٢، وبعد أن وضع حداً لحملاته الآسيوية العسكرية «وبينما كان لا يزال فى الطريق نحو مدينة الجنوب» أصدر أوامره بترميم وتزيين تمثال آخر لأبيه تحوتمس الثانى «حتى يظل اسم أبيه الإله الكامل، عا خپر كا رع، ثابتاً يقاوم الزمان، فى معبد آمون، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى^(٧٧)». هكذا يُسجّل مدى اهتمامه بمشاركة الملوك الذين سبقوه وبانتمائه إلى سلالته، مشاركتهم فيما يشيده من معالم أثرية إبان عهده. لا شك أنه مظهر من مظاهر البرّ بالوالدين، ولكنه فضلاً عن ذلك، ضرورة أساسية من أجل وحدة الأسرة الحاكمة^(٧٨).

كما يتجلى ذلك بوضوح أكبر، فى المقصورة المسماة أخ منو^(٧٩) المشيدة إلى الشرق من المعبد الكبير. فتعلن المدونة التذكارية المنحوتة فى دهليز القسم الجنوبى:

أقام الملك من خيروع، بناء من أجل أبائه ملوك مصر العليا وملوك مصر السفلى. لقد شيد من أجلهم مجدداً، معبداً كبيراً للملايين السنين من الحجر الأبيض الجميل- الحجر الجيرى المستخرج من طرة، وكان فى روعة أفق السماء ومفعماً بالبركة، بقدر أى عمل أنجز ليغالب الأيام، على امتداد الزمن اللانهائى. وأمر صاحب الجلالة أن تُدَوَّن على سطحه أسماء أبائه، لتدوم على مر الزمان وتظل قرابينهم مزدهرة^(٨٠).

وإذ أراد تحوتمس الثالث مشاركة أجداده، فقد صور نفسه فى هذا المبنى فى حجرة تقع عند الجانب المواجه للغرب من قاعة الأعياد، وهى القاعة الرئيسية من أخ منو- فنشاهده وهو يقدم القرابين لواحد وستين ملكاً من أبائه، بدءاً من سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة. وقد صُوِّر هؤلاء جالسين، أمام آخر الأبناء الذين من نسلهم. لقد قام پريس دافين Prisse d'Avennes بتفكيك جدران هذه الحجرة عام ١٨٤٢ ونقلها إلى باريس، لتصبح فى الوقت الراهن من مقتنيات متحف اللوفر Le Louvre وتعرف تحت اسم «قائمة ملوك الكرنك»^(*).

كما كان البلاط يضم كبار موظفى الإمبراطورية. إنهم جميع رفقاء الملك المخلصين الذى اصطحبوه فى معاركه وسهروا على حسن إدارة الأراضى المصرية والأجنبية، ونعرف هؤلاء الرجال، على وجه التحديد، من خلال الصور والنصوص التى نقشوها على جدران مقابرهم المحفورة بالشيخ عبدالقرنة فى البر الغربى من النهر. إنهم بعد وفاتهم الظاهرية على سطح الأرض، لا يبعدون كثيراً عن العاهل الملكى الذى ظلوا يعيشون «على مياهه».

يلتزم ترتيب النقوش والرسومات فى أغلب الأحيان ببعض الأعراف. فبجوار مدخل المقبرة يمكن أن نرى مشاهد تقديم القرابين للآلهة الشمسية، ثم مع الإبتعاد إلى غبش الداخل نرى الآلهة الجنائزية. وعلى جانبى باب المدخل وفى اتجاه الحجرة

(*) وقد حل محلها حالياً فى معبد الكرنك مستنسخ ردىء. (المترجم)

الداخلية، يستعرض صاحب المقبرة واجبات منصبه، فيصورها في مشاهد نضرة تنبض بالحياة. وفي هذا المكان وإبان الأسرة الثامنة عشرة، كان يصور في الغالب الملك الجالس على العرش. أما بقية الزخارف فهي متنوعة وتساعد في بعض الأحيان، على فهم شخصية صاحب المقبرة ومعالم حياته.

الوزراء

ثم نتطرق إلى الحديث عن كبراء الدولة أو أعيانها الذين فوضهم العاهل الملكى جانباً من سلطاته.

ومن الآن، ونظراً إلى التطور الملحوظ الذى عرفته مصر وتعاظم أهمية الشئون المطلوب معالجتها وكثرة عددها أصبح منصب الوزير مزدوجاً: فعُين وزير لمصر العليا ومقره طيبة، ووزير آخر لمصر السفلى يقيم فى منف، فى أغلب الأحوال، كانوا رجالاً اختارهم الملك ومن ثقاته الذين يعتمد عليهم.

وتشكلت عائلات كبيرة من الإداريين، أصبحوا من المقربين للملوك ونالوا حظوة عندهم. كانت حتشپسوت قد عيّنت أحمس وشهرته عامثو وزيراً^(٨٨). وكما سبق أن ذكرنا، قام تحوتمس الثالث فى العام الخامس من «عهده» بإسناد هذا المنصب إلى ابن عامثو، واسمه أوسر آمون الملقب أيضاً أوسر. وفيما بين العام ٢٨ والعام ٣٢، أسند هذا المنصب إلى رخ مى رع حفيد عامثو وابن أخى أوسر. وقد اتخذ كلاهما من طيبة مقراً لهما. وربما كان نفروين وزير الشمال أخا أوسر.

وخلف العم وابن الأخ وهما أوسر و رخ مى رع فى مقبرتيهما، فى طيبة، مدونة عظيمة الشأن فى نظرنا، لأنها تحدد بوضوح أبعاد واجابات منصبهم.

أوسر

إن أوسر آمون الذى يعنى اسمه «أمون قدير»، استطاع أن يجمع بين كبرى الوظائف والألقاب الدينية. وقد ورث معظمها عن أبيه عامثو. ولما كان وزيراً، فمن

الطبيعى أنه كان أيضاً «خادم ماعت» و«هذا الذى يملأ أذننى حورس عدالةً وحقيقةً» و«هذا الذى يقضى سحابة يومه فى زراعة العدالة». وكان الخازن الأكبر «المشرف العام على بيت الفضة وبيت الذهب» و«كاتب الأحجار الكريمة من مختلف الأنواع». كما كان «المشرف العام على المعابد الستة الكبرى» و«الكاهن وعب فى خدمة آمون» و«القائم فى بطانة الإله مين»^(٨٢).

وفى مقبرته رقم ١٣١ بالشيخ عبدالقرنة يروى أوسر الإحتفالات التى صاحبت تنصيبه فى وظيفته:

عندئذ انعقدت جلسة ملكية فى قاعة المقابلات الرسمية الكبرى الغربية (فى حضرة) من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وسُمح بدخول كباراء البلاد والأصدقاء وكبار الموظفين الملكيين وأعيان «المكان الأوحى» وشخصيات القصر المرموقة والرفيعة الشأن وحاشية حورس، ليقدّموا تحياتهم للعاهل الملكى. ثم صدر الأمر بدخول الوزير عامثو لبحث الوضع فى القطرين وإعلان... وقال صاحب الجلالة إلى الأصدقاء المتواجدين هنا: «... إن الشيخوخة تحسب الآن حساب ساعاتها». عندئذ أردف هؤلاء قائلين: «أيها العاهل الملكى، يا سيدنا، أنت تعرف أن الوزير قد تقدم فى السن، وبدأ ظهره ينحنى، والنظم (التي يملئها) تتجاوز مدينته. ومن ثم ارتق بالارغبة التى فى قلبك واصدر قراراً عادلاً، مفعماً بالخير. امعن النظر فى هذه الحقيقة: «قد يكون من المفيد للقطرين أن يقام شخص آخر، كعصى شيخوخته». وقال لهم صاحب الجلالة: «حسناً، ولكن ابحثوا إذن من أجلى (عن شخص مناسب) لمعاليتكم، تكون قراراته مرضية فى أفعال...». عندئذ انبطحوا على بطونهم، وسجدوا أمام صاحب الجلالة. واستعرضوا عدداً من الأفعال المفيدة وأحيط هذا الأخير علماً بها: «إنك تحمى القطرين، بصفتك مخلوق أبىك، إنك توفر الأمن لمصر... إنك تسن القوانين لملايين وملايين السنين، لإرضاء الشعب، إنك تجلب الإزدهار على عامة الناس، إنك تسوس القطرين بحيث تحتل الوظائف مكانها (الصحيح). إنك تدعم حدودك فيما وراء الأقواس التسعة. إن رع يسطع وفقاً لما تقرره وترضى بميراث ابن إيزيس. إن أباك هو الذى أجلسك على عرشه. وشديد هو الرعب الذى تثيره فى ربوع البلاد، أنت الذى تتجلى ممجداً، مثل الفائق القدرة الذى فى السماء. اسمح إذن لابنه (أى ابن الوزير

عامثو) واسمه أوسر، وكان كاتب الخزينة الإلهية فى معبد آمون منذ عهد أبيك
عا خپر كا رع، الصادق القول... (اسمح بابلاغه) بتعيينه الصادر عن القصر، وأن
يذا ع النبأ. إنه ذكى وماهر وحسن السجية وسيصبح عصا شيخوخة كاملاً». وفى
أعقاب ذلك، وجه صاحب الجلالة كلامه إلى الوزير قائلاً: «يا لها من فائدة، أن تكون
شعبيته قد استقرت، من قبل فى القصر، حيث لم ترتكب فيه، أنت شخصياً خطأً
واحداً، أو أى فعل يستوجب اللوم ولم يصلنى أبداً بلاغ واحد ضدك. إنى أعرف حق
المعرفة، أن ابنك أوسر، موات ومفيد فى تصريف شئون البلاد. إنه شخص عادل
(وفقاً) لتعاليمك، كما أن قلبه وعقله «قد تفتّحا»، بفضل حكمتك. تصرف بحيث يستمد
فاعليته منك. هكذا سيصبح لك عصاً للشيخوخة، وهو ما ينبغى أن يتم لشخص
يستحق الإشادة بمناقبه، تعبيراً عن الإمتنان لذيوع صيته. فمن المفيد أن يحل محل
أى شخص، آخر مثيل له»...

(تزخر السطور المتبقية من النص بالعديد من الفجوات فتحول دون تقديم
ترجمة ذات معنى)(٨٣).

يكشف النص عن خواطر حول توريث الوظائف، بشأن اختيار ربما سبق
لفرعون أن قرره. ولكن انتقال المناصب من الأب إلى الابن، فى بلد كانت العائلة هى
الخلية الأساسية التى يتشكل منها المجتمع، كان على الدوام من الأمور المطلوبة(*).
فمنذ حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م، فى عهد الملك إيسيسى من الأسرة الخامسة، كان الوزير
پتاح حوتپ، يطالب الملك بأن يصبح ابنه البكر «عصا للشيخوخة»، ويخلفه فى وظائفه
المرموقة. ومن ثم برزت خطورة أن تظل كبرى مناصب الدولة بين أيدي عائلات
واسعة النفوذ من أصحاب الحول والطول. وفى ظل ملك قوى الشكيمة مثل
تحوتمس الثالث، لم يكن الخطر ذا بال. ولكن ما أن يظهر ملك ضعيف حتى يتعرض
النظام للمخاطر.

(*) مازال المثل الشعبى يقول: «ابن الوز عوام» و«ابن الفاره حقّاره». (المترجم)

وكرجع الصدى لما تقدم، وصلتنا شهادة الوزير أوسر التي أعلنها منحوتة على لوح من حجر الجرانيت الرمادي المحفوظ في الوقت الراهن في متحف مدينة جرينوبل(*) Grenoble.

أنا من الأعيان المرموقين. كنت كاهناً طاهر اليدين، ينفذ إلى داخل معبد آمون. لقد وضعت الأدهان على الأعضاء الإلهية. لقد زينت آمون - مين. لقد حملت آمون إبان عيده، ورفعت مين على منصته. لم أرفع الكتف في بيت السيد الذي ينحني أمامه الجميع. لم أرفع الساعد في بيت «هذا الذي يرفع الساعد» (من صفات آمون - مين). لم أتحدث بصوت عالٍ في معبد سيد الصمت. لم أتقوه بالأكاذيب في بيت رب الحقيقة. لم أدنس الطهارة الإلهية. لم اقتطع شيئاً من قرابين الإله... أنا أوسر. لقد رُقيت إلى هذه الوظيفة المرموقة، عمدة للمدينة ووزيراً^(٨٤).

لقد تم الكشف عن العديد من تماثيل هذا الشخص. ويمثله أحدها راکعاً، وقد عثر عليه في الكرنك، وهو من مقتنيات متحف اللوفر حالياً. إن مقبرته التذكارية رقم ١٧ في جبل السلسلة، مدمرة تدميراً بالغاً، في الوقت الراهن^(٨٥).

رخ مي رع

إن ابن أخيه الذي خلفه أصبح وزيراً «رفيع المقام والقدر». كان ابن نفروين أخى أوسر ووزير الشمال.

ويفصح اسمه عن ذلك، فقد كان «عالمًا مثل رع» وتعرفه مدونات مقبرته المحفورة في الشيخ عبد القرنة على النحو الآتي:

إنه النبيل والأمير ورئيس رؤساء الإستقبال ورجل الأسرار، الذي يدخل في مقاصير قدس الأقداس، فلا يوجد باب بينه وبين الإله. لا يجهل شيئاً مما هو في السماء أو على سطح الأرض أو في أي جانب من الجوانب الخفية في اللوات. إنه

(*) مدينة في جنوب شرق فرنسا. (المترجم)

الكاهن سم فى پر- نسر وكبير الرائن فى پر- ور^(٨٦)... الأقوى بين «جميع من يرتنون النقية» (أو جميع الرجال)... إنه الأوحى المتفرد، المفعم بالبركة، المفعم بالبركة^(٨٧).

ويتفجر اللغو المصرى ممتدحاً سلطانه وقدرته، والشئ نفسه يكشف عنه^(٨٨) شموخ مقبرته رقم ١٠٠ التى حفرت فى الطرف الجنوبى من جبل القرنة وتخطيطها على هيئة حرف T الإفرنجى ويمتد رواقها الأوسط لمسافة ٣٠ متراً داخل الصخر. والحجرة التى نصل إليها ضيقة إلى حد كبير وتتميز بسقفها الموازى لمنحدر الجبل ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. وإلى الغرب نجد أن الكوة ترتفع ستة أمتار فوق مستوى المقبرة. ويذهب نورمان دى جارس ديفيز N.de Garis Davies، إلى أن هذا التدرج اللافت للنظر، ربما كان مستمداً من عمارة الدير البحرى التى تستطيل شرفاتها المتراكبة.

كما يجدر بالملاحظة، أن أهمية هذه المقبرة تعود إلى ما تزدان به من نصوص ونقوش، إذ يشكل كلاهما مصدراً بالغ الثراء، بل وفريد فى بابه، للتعرف على مقومات «وظيفة» الوزير.

● تنصيب رعى مى رع والتعليمات الملكية:

تم إدخال كبار موظفى المجلس فى بداية الأمر إلى قاعة الإستقبالات الرسمية لفرعون، ثم حضر الوزير رعى مى رع الذى رُقِيَ حديثاً (إلى هذا المنصب).

قال له صاحب الجلالة: «عليك أن تسهر من الآن، على حجرة استقبالات الوزير وتراقب كل ما يحدث فيها، لأنها ركيزة البلاد قاطبة. لاحظ، فأن يكون المرء وزيراً، ليس بالأمر الهين والسار، بل قد يكون ذلك أحياناً، مُراً مرارة الصبر.

الوزير هو النحاس الذى يحمى ذهب بيت سيده.

(فالذهب هو مادة لحم الآلهة الذى يمثل فرعون ابن رع. أما النحاس الأقل

بريقاً ومادة النجوم، فإنه يمثل الوزير الذى يبدو أنه قد أصبح منذ حياته الأرضية مشاركاً فى الطبيعة الكونية لسيدته).

فلا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة، ولا يختار تابعيه من بين كائن من كان، من الأفراد. وإذا أقام امرؤ فى كنف سيده، عليه أن يبذل كل ما فى وسعه، وهو يعمل من أجله، ولكن لا يصح أن يفعل الشيء نفسه مع شخص آخر.

سيأتى إليك أصحاب المظالم، من الجنوب والشمال، ومن أرجاء البلاد... عليك أنت، السهر على أن يتم كل شيء، طبقاً للقانون، وطبقاً أيضاً لحقهم، مع كفالة العدالة لكل امرئ. على القاضى أن (يحيا) سافر الوجه، لأن الماء والهواء ينقلان مختلف تصرفاته ولا يجهل أحد أفعاله. إذا حدث خطأ فيما يفعله قاضٍ آخر وإذا لم يعلن بقم المكلف بالتحقيق القضائى، فيسعرفه الجميع من خلال كلمات الشخص المقدم للمحاكمة. وبالفعل فلما كان هذا الأخير يقف بجوار المكلف بالتحقيق القضائى فسوف يعلن قائلاً: «إن ما يحدث هنا، لا يُعصدّ صوتى» (أى لا يُنصفنى).

أجل، إن المأوى المضمون لكل قاضٍ هو أن يتصرف وفقاً للناموس، عند حكمه فيما يلتمسه الشاكى. وهكذا لن يستطيع من يحاكم أن يقول: «لم تقض بالعدل». أمعن النظر فى هذه الحكمة الواردة فى كتاب متف والقائلة: «الملك المبجل يقابله وزير يراعى القوانين ويحترمها...». [تجنب أيضاً] ما يقال عن الوزير خيتى، ومفاده أنه كان يهضم حقوق المقربين إليه لصالح الآخرين(*) (من شدة حرصه على توخى الحياد، حتى لا يظهر بمظهر من يحابى خلصاءه)... وإذا استأنف شخص (من المقربين إلى خيتى) حكماً كان يودّ الوزير أن يصدره من أجله، وإذا أمعن هذا الأخير فى رفضه، فكان إسرافاً فى العدالة ومغالاة فيها... ولكن المحاباة سلوك ممقوت فى نظر الله.

(*) (ويقترّب من هذا المفهوم المثل الشعبى: «سألوا الزبون: مال لحمتك مشغطة؟ قال: أصل الجزار معرفة». (المترجم)

واليك توصية عليك الإلتزام بها: انظر إلى من تعرفه، نظرتك إلى من لا تعرفه، ومن تربطك به أواصر القرابة نظرتك إلى البعيد عن بيتك. فالقاضي الذي سيتصرف على هذا النحو سوف يكون من الناجحين الفالحين في وظيفتهم. لا تصرف أى شاكٍ قبل أن تنصت باهتمام إلى كلماته. وإذا جاءك من يرفع شكواه إليك، فلا ترفض ما يقوله باعتباره أمراً سبق قوله، من حَقك إبعاده ولكن بعد أن تُفهمه لماذا تبعده. لقد اعتاد الناس القول: يود الشاكي الإنصات إلى ما يقوله في رفق ولطف، أكثر من الإستجابة إلى شكواه(*).

لا تستشط غضباً بلا حق على إنسان. اكتفِ فقط بإظهار سخطك على من يستحق ذلك. عليك أن تثير الخوف حتى يخشاك الناس. إنه قاضٍ (حقيقى) هذا الذى يتهيبه الناس.

أجل، سوف تحقق النجاح عند القيام بوظيفتك إذا توخيت العدل، فما يرغبه الناس فى المقام الأول، ضمان العدالة والإنصاف فى تصرفات الوزير. إنه من يسهر على القوانين بكل ما أُتى من دقة، منذ زمن الله (أى منذ اليوم الذى شهد خلق العالم)...

لاحظ أيضاً، أن المرء يظل يشغل وظيفته، طالما يعمل وفقاً للتعليمات الصادرة إليه. كل شئ يسير بالنسبة له، على أحسن وجه، إذا ظل يعمل طبقاً لما قيل له. لا تتوقف لحظة واحدة عن إقامة العدل الذى تعرف قوانينه. لا تنضم إلى الإنسان المتعجرف، لأن السيد الملكى يفضل الوَجَل على المعتد بنفسه. إعمل إذن طبقاً للتعليمات الصادرة إليك. أجل، لقد وُضع كل ذلك أمامك لكى تقوم بانجازه^(٨٩).

لم تقتصر واجبات الوزير على العدالة والتجرد والإنصاف، وإن كانت واجبات أخلاقية ضرورية فى الحقيقة، ولكن أعباء الوظيفة ومسئولياتها عديدة ومتنوعة.

(*) إن الكثير من الأمثلة الشعبية مازالت تعبر عن هذا المفهوم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: «لا قينى ولا تغدّينى» و«وش بشوش ولا جوهر بملو الكف».. (المترجم)

• واجبات الوزير ومقتضيات آداب الرسميات:

القواعد المنظمة لجلسات عمدة المدينة ووزير مدينة الجنوب، فى القاعة الكبرى لاستقبالات الوزير وما ينبغى أن ينجزه الوزير الشريف عند انعقاد الجلسات.

سوف يجلس على متكأ له ظهر، وتوضع حصيرة على الأرض، ويرتدى ملابس وظيفته. وتوضع وسادة خلف ظهره وأخرى تحت قدميه... ويقبض بيده على صولجان السلطة. وتُفرد أمامه أربعون لفافة من جلد (تضم نص القوانين). وكبراء الجنوب العشرة حاضرون متواجدين على الجهتين: المشرف العام على القصر على يمينه، ومراقب من له حق الدخول على يساره، أما الكتبة فهم الأقرب إليه.

وإذا خاصم أحد المتظلمين، كائنا من كان، من القائمين بجواره، فسوف يصغى الجميع إلى أحدهم تلو الآخر. ولن يتم الإصغاء إلى آخر الحاضرين قبل أول الحاضرين. ولكن إذا قال أول الحاضرين: «لن نستمع إلى أى شخص من الذين بجوارى (أى قبلى)». عندئذ سوف يحتجزه حجاب الوزير.

سوف يُقدم تقرير إلى الوزير عن إغلاق المواقع الحصينة فى اللحظة المواتية وعن فتحها، عندما يحين ذلك. كما يقدم له تقرير حول حالة حصون الجنوب والشمال، وعن كل ما يخرج من القصر الملكى وما يرد إليه، على حدّ سواء، وكل ما يخرج أيضاً من أراضى المقر الملكى وما يرد إليها. ويقع على عاتق الموفدين التصريح بهذا الخروج أو هذا الوارد. كما يقدم له المشرف العام على الحجاب والحجاب والمشفرون على الأطيان، تقارير عن أنشطتهم.

كما يتعين استقبال الوزير يومياً، ليخى السيد الملكى ويقدم له فى قصره، تقريراً عن أحوال القطرين. سوف يدخل إلى البيت الكبير، فى حين يقف حامل الأختام بجوار أسطون الشمال. وعندما يستهل الوزير سيره ويظهر عند مدخل الباب العالى المزبوج، عندئذ يذهب حامل الأختام لاستقباله ويقدم له تقريراً قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة. لقد حضر جميع المفتشين ليبلغونى قائلين: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة والقصر الملكى سليم ومزدهر». عندئذ يقدم الوزير تقريراً إلى حامل الأختام قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة إذن، وكل مواقع المقر الملكى سليمة ومزدهرة. كما

أخبرنى جميع المفتشين بناءً على جولاتهم، فغلق المواقع الحصينة وفتحها كانا يتمان فى الوقت المناسب». ويعد أن يتبادل هذان الموظفان من أصحاب الرتب الرفيعة التقارير، سوف يأمر الوزير بفتح كافة أبواب القصر الملكى، ليُسمح بدخول كل من يحق له الدخول وبالخروج بالمثل، ويشير إلى ذلك كاتب الوزير كتابةً.

لن تمنح سلطة إقامة العدالة فى القاعة الكبرى المخصصة لاستقبالات الوزير لأى نبيل. وإذا صدر اتهام ضد أحد الكبراء المرتبطين بهذه القاعة، عندئذ سوف يُحال إلى مكان المحاكمة، ليتولى الوزير (شخصياً) معاقبته بما يتناسب مع ما ارتكب من ذنب. لن تمنح السلطة لأى نبيل لتوقيع عقوبة الضرب فى قاعة الوزير الكبرى، إذ سوف يُقدم لهذا الأخير التقرير المتعلق بكافة «الدوافع والبواعث» ثم ينتقل (شخصياً) إلى قاعة المحاكمة.

أما عن كل مبعوث مكلف بمهمة، يوفده الوزير إلى أحد الأعيان، سواء كان من أرقى الرتب أو من أحطها، فعليه ألا ينحنى وألا يتكأ بجواره بل يلتزم بإبلاغ رسالة الوزير، وهو واقف أمامه فيتحدث ثم يهيم بالإنصراف. فمبعوث الوزير هو الذى يصطحب حكام الأقاليم ومديرى القصور^(٩٠) إلى قاعة المحاكمة. ومبعوث الوزير هو الذى يضع القواعد... وإذا حدث عندما قدّم هذا المبعوث تقريره أن اشتكى قائلاً: «لقد أوفدت مكلفاً بمهمة إلى جوار أحد الأعيان ولكنه احتكم (إلى العدالة) وأمر بأن أُصفع صفقة مؤلمة على قفاى^(*)». عندئذ سيقدم الشخص المعنى للمحاكمة... وفى قاعة الاستقبال الكبرى يتولى الوزير شخصياً توقيع القصاص الذى يتناسب مع الخصومة محل النزاع. إنه ليس مجرد جزاء، بل عقوبة قد تصل إلى حدّ بتر أحد الأعضاء...

أما عن كافة الوثائق المنسوخة التى يرسلها الوزير إلى كائن من كان، من العاملين بقاعة المحكمة - وهى وثائق غير سرية - فلا بد من إعادتها إليه، على أن

(*) ألا تزال هذه الممارسة شائعة فى بعض الظروف؟ بل هناك مثل شعبى يقول: «ضرب الحاكم شرف». وهو من الأمثال الدالة على ما كان فى نفوس المصريين فى العصور الخوالى من الخنوع للحكام المستبدين حتى كانوا يعدون الإهانة منهم شرفاً يفخرون بنواله. راجع: أحمد تيمور باشا، الأمثال العامة. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ٢٩٨. (المترجم)

ترفق بها السجلات الخاصة بها، ويختتمها القضاة والكتبة المنوط بهم متابعة هذه القضايا. ثم يفضيها الوزير، وبعد أن يطلع عليها يعيدها إلى جهتها الأصلية، بعد أن يبصمها بختمه. ولكنه إذا طلب وثيقة سرية، فإن المسئولين عنها لا يستطيعون التصريح بتداولها. ومن جهة أخرى، فإن أى مبعوث أوفده الوزير بشأن هذا الموضوع، بناء على طلب المدعى، فمن حقه أن ينتقل بها.

أما فيما يتعلق بأى عريضة مرفوعة إلى الوزير، بشأن الأراضى الزراعية، فإنه ينظر فيها بنفسه، بالإضافة إلى الجلسات التى عقدها المشرف العام على الحقول ومحاكم السجل العقارى. وقد يحدد مهلة شهرين، لأراضيه فى مصر العليا ومصر السفلى. ولكن لن تتجاوز هذه المهلة ثلاثة أيام للأراضى الزراعية المتأخمة لمدينة الجنوب أو لمقر إقامة الملك، وذلك طبقاً للقانون. وسوف يحدد جلسة لكل مدعى وفقاً للقانون الذى بين يديه.

ويناط به، استدعاء قضاة الإقليم ثم صرفهم، بعد أن يقدموا تقاريرهم عن أحوال المنطقة الخاضعة لسلطتهم القضائية. لابد أن يُعرض عليه نص كل وصية، فمن اختصاصه وضع الختم عليها.

كما يناط به، منح الأراضى فى كل حوزة جنائزية(؟). أما بالنسبة للشاكي الذى سيقول: «إن حدودنا متحركة». فلا بد من النظر، إذا كانت هذه الحدود ثابتة بفضل ختم شخصية رسمية. وفى هذه الحالة سيقوم الوزير بسحب الأراضى الممنوحة من قبل المحكمة التى غيرت حدود (الحوزة).

أما المحاجر جميعها، فإذا جاء إليها، كائن من كان، للوقوف على ما تحتويه والذى سيقدم عريضة خطية، فلن يسمح له بالدخول إلى قاعة الجلسات. وكل مدعى سيقصد مباشرة السيد الملكى، بعد تحرير وثيقة خطية، سوف «يعاد» إلى الوزير.

ومن اختصاص الأخير، إرسال كافة مبعوثى القصر الملكى وإيفادهم إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور.

ويناط به، إرسال خطابات القصر وكافة أوامره ومراسيمه.

ويناط به، اختيار كبراء مصر العليا ومصر السفلى ورأس مصر العليا والأرض الشاسعة (إقليم أبيدوس) لتعيينهم فى سلك القضاء. ويتعين عليهم تقديم تقرير، عن كل ما يجرى فى المنطقة الخاضعة لولايتهم القضائية، مع بداية كل فصل من الفصول الثلاثة (أى كل أربعة شهور)، على أن يصطحبوا معهم الكتب المعنية والقضاة التابعين لهم.

ويناط به، حشد الجنود الذامبين والعائدين، لمرافقة السيد الملكى عند مبوطه نهر النيل أو صعوده.

ويناط به، تحديد موارد مدينة الجنوب والمقر الملكى (ذاته)، وفقاً للتعليمات الصادرة عن القصر الملكى.

ويمثل بين يديه، مسئولو طائفة موردي الأمير، لتموين قاعة استقبلاته الخاصة، بالإضافة إلى قضاة الجيش لإعلامهم بالقانون العسكرى.

كما يسمح أيضاً بدخول كافة الموظفين، من أصحاب الرتب العليا والدنيا إلى قاعة الوزير الكبرى، حتى يتمكن كل واحد منهم أن يحى زميله.

ويناط به، إرسال (الرجال) لقطع الأشجار، وفقاً للتعليمات الصادرة من القصر الملكى.

ويناط به، إيفاد مستشارى الإقليم لشق قنوات الري فى ربوع البلاد.

ويناط به، إيفاد حكام الأقاليم ومديرى القصور لتأمين فلاحه الأرض مع حلول الفصل الجاف.

ويناط به، تعيين المشرف العام على الحجاب فى القاعة الكبرى بالقصر الملكى.

ويناط به، تعيين من سيستمع إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور ومن يسافر إلى مصر العليا ومصر السفلى. وسيتم إبلاغه بجميع الكلمات وبأحوال القلاع الجنوبية وحبس أحد اللصوص، (على حد سواء). ولكن سيتولى شخصياً أمر السلاب النهاب، فى أى إقليم من الأقاليم ويتولى محاكمته.

ويناط به، إرسال الجنود وكتابة مسح الأراضي، استعداداً لرحلة السيد الملكى.
ولا بد أن تبقى تقارير الإقليم المكتوبة، فى قاعة استقبالاته للاستفادة منها فى كل دعوى مرتبطة بالأراضي المزروعة.

ويناط به، ترسيم حدود كل إقليم وكافة الحقول وتقدير كل القرابين الإلهية وإعداد العقود.

ويناط به، صياغة الأحكام وإمعان النظر فى التظلمات، عندما يتشاجر شخص مع جاره.

ويناط به، تعيين كل من يتم ترقيته فى قاعة المحكمة.
وإليه تُسلّم كافة التبليغات الصادرة عن القصر الملكى.

ويناط به، الاستماع إلى الأوامر.

ويناط به، إبداء الرأى فى مسائل العجز فى الإيرادات الإلهية.

ويناط به، فرض الضرائب على كل من يخضع لها، (فيحدد) كافة الرسوم الواجب سدادها له.

ويناط به، الفصل فى كافة الدعاوى.

ويناط به، تحديد التخفيضات فى إيرادات الأجهزة الإدارية....

ويناط به، فتح بيت الذهب بالمشاركة مع حامل الختم.

ويناط به، إعداد حصر بكافة الثيران المطلوب حصرها.

ويناط به، التفتيش على المخزون من الماء كل عشرة أيام ويفعل الشئ نفسه مع المخزون من الطعام....

وينبغى أن يقدم له تقرير عن شروق النجم سيرىوس(*) و....النيل، كما ينبغى أن يقدم له تقرير عن أمطار السماء.

(*) الاسم اليونانى للنجم سبيت فى المصرية القديمة والشعرى اليمانية فى العربية. (المترجم)

ويناط به، تجهيز الأسطول....(٩١)

(نهاية النص مشوهة تشويهاً بالغاً).

مما لا شك فيه أن الوزير شخص ذو حول وطول: إنه القاضى الذى يحكم فى كافة المنازعات، الكبيرة منها والصغيرة، على حدّ سواء، إنه سيد الأراضى التى يرسم حدودها مع تعيين زمن الحرث والفلاحة والإشراف على عمليات الرى والأمر بقطع الأشجار ومراقبة مخزون المياه والطعام، مراقبة منتظمة، والقيام بحصر قطعان الماشية إذا لزم الأمر. إنه على رأس الجهاز الإدارى: فيعين الموظفين ويرقيهم، ويشكل الصلة الأساسية التى تربط الحكومة المركزية بسلطات الأقاليم. إنه المدبر، المشرف على الخزينة وجابى الضرائب ومختلف الإيرادات ويتسلم جزية البلدان الأجنبية. إنه يدير الجيش بقواته البرية والبحرية، ويسهر على انتقالات العامل الملكى فى حله وترحاله. ويراقب الظواهر الطبيعية والكونية.

إن الرسومات البالغة الجمال الى تزدان بها مقبرة رخ مى رع وتبعث الحياة فى عالمه، بفضل أشكالها وألوانها النضرة، تكشف فى الوقت نفسه عن أنشطته بصفته السيد العظيم الواسع الذراع. إن المتون التوضيحية التى ذيلت بها هذه الرسومات جليلة الفائدة.

كان رخ مى رع يستيقظ مبكراً ويتلقى عرائض الفقراء، لحظة خروجه من منزله عند مطلع الفجر:

إنه يخرج مع طلوع النهار لآداء الشعائر الدينية اليومية والإستماع إلى مظالم الشعب والإصغاء إلى عرائض مصر العليا ومصر السفلى. إنه لا يصدّ أحداً، أكان من سواد الشعب أم من كبرائه، ويُغيث التعساء، ويساعد من يرزح تحت حمل ثقيل ويردّ الشر إلى من اقترفه(٩٢).

ربما كان أيضاً، شأنه شأن المصريين الذين عاشوا فى ذلك الزمن، قريباً من الأرض السمراء يعشق الحياة وسط الحقول، محباً للريف. فنشاهده من خلال هذا

النص وسط الفلاحين وعلى مقربة من طيور محلقة وبجوار قطعان من الماشية فى المراعى:

«إنه يروّح عن نفسه وهو يشاهد الأبقار، والعمل فى الحقول تسليته، فيتأمل الأعمال الموسمية فى الفصل الجاف وفى فصل الإنبات»^(٩٣).

كان خبيراً فى الشئون المالية، له شأنه. فالعديد من المشاهد المصورة فى مقبرته تشير إلى أن تسليم الضرائب والرسوم وإسهامات مختلف المنتجات، يتم على أفضل وجه^(٩٤). إن صوراً حية كلها نضارة، لا تخلو من بعض الدعابات، ترسم صورة خلافة للوزير رخ مى رع، وهو يتسلم نيابة عن الملك الجزية الواردة من الإمبراطورية. إنه يدخل إلى قاعة الاستقبال، يتقدمه الكتبة والخدم حتى...

... يتسلم جزية بلاد الجنوب، بالإضافة إلى جزية بلاد بونت وريتنو وجزيرة كريت، إلى جانب غنائم كافة البلدان الأجنبية التى ما برحت تجلبها أمجاد صاحب الجلالة من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى^(٩٥).

وعلى امتداد أربعة صفوف، تسير المواكب التى لا تنتهى، لدافعى الجزية محملين بمنتجاتهم ومواردهم النفيسة^(٩٦). إن مشاهد هزلية تساعد على تجنب رتابة المناظر التى تتتابع على وتيرة واحدة: إن قرداً واقفاً فوق قطعة خشب أبنوس يمسك نوبى، ويضع رجله فوق رأس هذا الأخير، فى حركة ترمى إلى محاكاة شعيره الحماية الطقسية. إن قرداً آخر، أخضر اللون يتسلق العنق الطويل لزرافة وردية اللون. وفى هذا الصدد نجد أن الألوان تبرز الجانب الفكاهى من اللوحة. وفى الغالب يتم مراعاة الأنماط العرقية. إن تنوع الأزياء المبرقشة، تُحوّل مشهد تقديم الجزية إلى عيد فولكلورى. أما الصف الخامس من هذه اللوحة الرائعة، فيصور تتابع الغنائم أى موكب الأسرى، ويُعرف المشهد على النحو الآتى:

استصحاب زعماء بلدان الجنوب، ومعهم فى آن واحد، أبناء زعماء بلدان الشمال وأفضل الغنائم التى أحضرها صاحب الجلالة من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من كل البلدان الأجنبية لتملئ المخازن، وليعملوا خدماً للقرايين

الإلهية، لأبيه آمون، رب عروش القطرين، حسبما وضع هذا الأخير مجمل البلدان الأجنبية فى قبضته، فى حين يترنح الزعماء تحت نعليه^(٩٧).

كان رخ مى رع مسئولاً نشطاً عن إقتصاد مصر، وفضلاً عن ذلك، كان يتفقد المشاغل ويسهر على حسن إدارة حرفيَّي معبد آمون ويتسلم الهبات المخصصة لخزينة الإله^(٩٨).

وفى لحظات راحته، وهى نادرة ومحدودة بلا شك، كان يمارس رياضة القنص والصيد النهري، ويقضى أوقاته فى لهو وبهجة. فيقيم الموائد العائلية أو الرسمية، وكان المصريون مغرمين على الدوام، بالاحتفال بالأعياد^(*)، فيجلس رخ مى رع فوق أريكة، بجوار زوجته مريت أى «المحبوبة»، ويلامس المصلصلات التى تقدمها له بناته، فى حين يحضر له ابنه الزهور والفواكه التى قطفها من حديقته:

خُذ زهور اللوتس هذه، الواردة من حديقتك، لا تحرم نفسك منها. ليت حديقتك تمدك أيضاً، بمختلف أنواع الفاكهة والنباتات النضرة التى تنبت فيها، حتى تشبع من كل ما تقدمه لك من أطعمة وحتى تتدفق عليك قرابينها. فليتوحد قلبك بهذه الأزهار المتجددة، وعليك أن تتمتع بالجو المنعش الرطب فى ظلال أشجارها. افعل فيها، كل ما يرغبه كاؤك للزمن اللانهائى والزمن الأبدى^(٩٩).

(الإنسان والحديقة متحدان، كما تتحد حياة الإنسان بحياة النبات، ويتجددان إلى أبد الآباد على الطريقة الأوزيرية).

ويوجد عازف على القيثارة ضرير وموسيقيون، احتفاءً بعيد الطبيعة هذا. ويتعالى شدى الأغانى.

● وينشد ثلاثة مغنين معاً بصوت واحد:

فلتكن نسمة الشمال العلية، من أجل أنفك. اتحد بالقرابين التى وهبها الملك

(*) وما زالوا. (المترجم)

والتي ترتفع فوق مائدة سيد الكون. ليت كأك يرضى بها! أنت يا عمدة المدينة، يا من
يمتدحه آمون...

● العازف على القيثارة:

فلتتألق هذه السنوات التي اختصك بها الله. ليتك تتممها وقد ألفت الثناء
والمديح، وفي ازدهار وفرح. ليت صوتك يكون عادلاً، بينما تقع الهزيمة بأعدائك في
المكان الذي تتحد فيه، بالزمن الأبدى وبالزمن اللانهائى.

● العازف على العود:

ليتك تقضى يوماً سعيداً فى المديح والثناء! ليتك تقضى يوماً سعيداً! وبالمثل
يكافأ شخص ممدوح، بأن يمضى تمثاله (حرفياً: صنوه) أيضاً، يوماً سعيداً. أنت، يا
عمدة المدينة، الذى ستبقى ذكراه عطرة حتى بعد انقضاء السنين (١٠٠).

تنطوى هذه النصوص وهذه الصور على قيمة مزدوجة: إنها تقدم لنا مشاهد
من واقع الحياة. ولكن أصداها ودلالاتها أكثر عمقاً. لأن غايتها ضمان أبدية أعياد
الطبيعة هذه، فى إطار الحقول والحدائق بفضل سحر الصورة والكلمة. ومن ثم وبعد
أن يحل الجسد المصنوع من الحجر محل الجسد الحقيقى من لحم ودم، ستبقى
سعادة الأيام كما هى دون تبديل بفضل السحر.

القادة العسكريون البواسل

آمن إم حب. صديق الصبا للملك

إن آمن إم حب هو من أكثر عناصر الجيش الملكى بسالةً، ومن الذين نعرفهم
أكثر من غيرهم. فقد نجح ذات يوم، فى إنقاذ حياة العاهل الملكى فى مستنقعات نهر
الفرات القصية، إبان رحلة صيد لقنص الأفيال (١٠١). كان ضابطاً فى الجيش وقائد
حملة الأقواس، ومن المعتقد أنه كان رفيق صبا لمن سيصبح تحوتمس الثالث. وبالفعل

فإنه يحمل لقب «ولد الكاف». ويدل هذا اللفظ الأخير، على المؤسسة المسئولة عن تربية أمراء العائلة المالكة إلى جانب أولاد بعض أعيان البلد وأبناء أمراء البلدان الأجنبية^(١٠٢). وتأسيساً على ذلك نزداد فهماً للعلاقة الحميمة التي ربطت الرجلين والصفات المتميزة التي نُعت بها أمن إم حب:

النبيل الأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى، والصديق المحبوب وكاتم الأسرار المفعم بالبركة في خدمة رب القطرين وأثير الإله الكامل، ورفيق الملك منذ أن كان في عُشّه وأثيره منذ طفولته والقائم على رأس الأصدقاء والأول في حاشية العاهل الملكى... فَمَ ملك مصر العليا وأُذنا ملك مصر السفلى والمقيم في قلب حورس في قصره... فيرافقه أثناء سيره على الماء وعلى الأرض وفي كافة البلدان الأجنبية... لا يهجر رب القطرين في أرض المعركة، عندما يدور القتال ضد ملايين البشر... الذي يدخل بمفرده إلى جوار الملك... الرجل المقتدر الساهر على رب القطرين^(١٠٣).

هذه الصداقة المديدة وهذه العلاقة الحميمة في المعارك، ربما دعمهما أيضاً رباط شخصى آخر: فقد كانت باكى زوجة أمن إم حب «مرضعة» الأمير الطفل تحوتمس. وكما سبق أن لاحظنا، كان هذا اللقب شرفياً، في بعض الأحيان:

إنها المرضعة العظيمة لسيد القطرين وأثيرة الإله الكامل، صاحبة الرضاعة العظيمة الفائدة والثدى الرقيق والساعدين اللذين يحتضنان الإله الكامل^(١٠٤).

إنهما شخصان كانا يعيشان في ظل الملك.

وكما رأينا كان أمن إم حب متواجداً، في كافة حملات تحوتمس الثالث العسكرية. وعندما تربع ابن هذا الأخير أمنحوتب الثانى على العرش، ظل أمن إم حب، يخدم العاهل الملكى الجديد ببسالة وإقدام.

كما تحتفظ مقبرته رقم ٨٥ فى الشيخ عبدالقرنة بوصف لمشاهد هادئة، وهو يتناول قسطاً من الراحة فى حديقته ويمارس رياضة الصيد فى مستنقعات النيل وشعوره بالبهجة والسرور وهو يستقبل نور الشمس.

إنه يخرج من المدينة ويتأمل آمون ويستقبل النور المتألق الذي يهبه قرص الشمس (أتون) دون توقف. إنه يرفقه عن نفسه في المستنقعات، إنه يدخل إلى حديقته ويخرج منها، ليرطب قلبه تحت أشجار الجميز. ويرتوى من ماء البحيرة ويستنشق عبير أزهار اللوتس الأبيض ويقطف أزهار اللوتس الأزرق^(١٠٥).

تلك هي الحياة التي كان يعشقها المصريون، وإن كانوا محاربين أشاوس مرهوبى الجانب.

القواد العسكريون

بالحيلة والدهاء استطاع حچوتى أن يستولى على يافا^(١٠٦). ومن خدعته هذه، نشأت حكاية خرافية. وتتقاسم متاحف أوروبا ما تبقى من مقبرته^(*): كأس من ذهب وإناء من الألبستر فى متحف اللوفر Le Louvre وأربعة أحقاق من الألبستر فى فلورنسا وجعران للقلب مطعم بالذهب فى ليدن وخنجر فى دارمشتات Darmstadt بألمانيا. فالأشياء التى كانت مخصصة لمساعدته على استمرار حياته فى العالم الآخر تحولت إلى قطع معروضة فى المتاحف، ليشاهدها الزائر. يا له من ضرر مادمى بل وأخلاقى، أساساً فى حق «الذى كان يحتل مكاناً فى قلب رب القطرين» و«الذى كان يملأ المخازن باللازورد والفضة».

كان قائداً عسكرياً تقياً، فإلى جانب مناصبه العسكرية المرموقة، كان يشغل وظائف «الأب الإلهى» للإله أونوريس^(**) فى مدينة ثنى القريبة من أبيدوس والعاصمة

(*) ربما كانت هذه الظاهرة من سلبيات توزيع أثارنا على متاحف العالم. فلا تسمع أن يلمّ المشاهد من نظرة واحدة شاملة، بما عثر عليه الأثريون فى مكان واحد. ومثال ذلك أن أثار توت عنخ آمون معروضة كلها فى جناح واحد من المتحف المصرى. فهل كانت تترك هذا التأثير بالإنبهار لو كانت موزعة على عدة متاحف. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إنوحریت ومعناه «ذاك الذى أعاد القصية». (المترجم)

القديمة لملوك مصر الأوائل. ولكن التمييز بين ما هو دنيوى وما هو روحانى ظاهرة حديثة.

أما ثانونى الذى حمل أيضاً لقب القائد العام، فقد كان أساساً «كاتب الجيش». كان من كبار الضباط الإداريين ومؤرخاً رسمياً ومن خلصاء الملك. وعلى لوح حجرى عثر عليه فى مقبرته رقم ٧٤ يقدم وصفاً لمسار حياته المهنية:

لقد اصطحبت الإله الكامل، القيم على الحقيقة والعدالة، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خير رع... لقد تمكنت من مشاهدة مآثر الملك البطولية وكل ما أنجزه فى كافة البلدان الأجنبية. فاقنات زعماء بلاد چاهى أسرى إلى البلد المحبوب، وسلب ونهب كل مدنهم وقطع أشجارهم. لم يوجد بلد واحد يستطيع مقاومته. فأنا الذى جعلت الإنتصارات التى حققها، تغالب الأيام، لأننى دوت الأحداث كما جرت. كنت رفيق الإله الكامل وكاتم أسرارهِ، وهكذا ضمنت رعايته على مرّ الأيام... لقد كتبت من أجله (تقريراً) عن حملاته العسكرية العديدة... (١٠٧).

كان چوانفيل(*) Joinville عصره بالنسبة لمصر. ولكنه اضطلع بالعديد من الأنشطة الأخرى:

حشد فرق المجندين. إحاطة كل رجل من رجال الجيش بواجباته... إعداد قوائم بالجنود والكهنة وعب وخدم الملك وكافة حرفى البلاد والثيران والطيور والماعز (١٠٨).

ولما كان مكلفاً بفرض رقابته على أملاك الجيش وحسن مظهر أفراد الفرق العسكرية، فقد صوّر فى مقبرته موكباً عسكرياً من «الفرق الأجنبية»: أربعة نوبيين يتقدمهم حامل العلم، وجميعهم بدناء، إبرازاً لقيمة العناية التى توفرها لهم الإدارة العسكرية. إن جواداً رائعاً وردى اللون، يرفع فى آباء رأسه بعرفه الأصهب، لأن سلاح المركبات كان عنصراً أساسياً فى ميادين القتال. ولما كان اللون الوردى قد

(**) چوانفيل: ١٢٢٤-١٣١٧. كاتب حوليات فرنسى. دوت تاريخ حياة ملك فرنسا لويس التاسع الذى قاد إحدى الحملات الصليبية على مصر وأسره المصريون فى المنصورة. (المترجم)

دخل حديثاً ضمن الألوان التي تستعملها، فرشاة الرسام المصري، كان ينظر إليه كلون نفيس، تزدان به أيضاً بشرة النساء الجميلات وأبدان الفراشات. كان الرسام المصري رساماً إنطباعياً، من جميع الجوانب.

كان ثانونى مكلفاً أيضاً باقتياد دافعى الجزية الأجانب ليمثلوا بين يدي الملك. وكان أيضاً:

عينى ملك مصر العليا وأذننى ملك مصر السفلى... والذي يمعن النظر فى القرص (أتون) فى الأفق (والمقصود به هنا الملك فى قصره)، فى كل لحظة من اللحظات، لفرط تأثيره على قلبه... والذي أشاد به الملك بسبب نصائحه السديدة وتطبيق القواعد (الصادرة) عن إرادة صاحب الجلالة^(١٠٩).

واعترافاً بجميل العاهل الملكى الذى رقاه إلى منصب رفيع، فإنه يشدو من أجله بترنيمة تذكرنا مضمونها وعباراتها بعصر الرعامسة، وكان أمراً غير مألوف فى ذلك الزمن:

تحية لك، أيا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة. إنه مونتو، وأكثر الأمراء بسالة، إنه من يربط البلدان الأجنبية، وسيد الجند الشجعان (الذين يضاهى عددهم) رمال الشيطان^(١١٠).

يظهر فى هذا النص لأول مرة لقب إضافى يلحق بلقب «ملك مصر»، إنه لقب إمبراطورى، فينعت الملك بعبارة «شمس الأقواس التسعة». إنه نتاج أيديولوجية التحامسة^(١١١)، وسيعود الرعامسة إلى استخدامهم فى إطار مادى وروحانى، أكثر شمولاً أيضاً.

العسكريون

كان أمن مس قائد حاملى الأقواس والمشرف العام على بلدان الشمال. وقد صُوِّر فى مقبرته رقم ٤٢ بالقرنة مشهداً، هو فى المعتاد جزءاً من الأيقونوغرافيا

الملكية^(١١٢): وهو استسلام قلعة محصنة، وينحني «زعيم لبنان» أمام «آمن مس». ومن خلفه يُحضر بعض الرجال الهدايا إكراماً للمنتصر، وهى عبارة عن إناء مزخرف زخرفة فاخرة وقطعة قماش وبعض الأحجار الكريمة وثورين. وإذا كانت الهدايا تفتقر إلى الغزارة، إلا أنها تعكس تنوع موارد البلاد. ويخرج المهزومين من قلعة على النمط السورى الواضح، بأسوارها المسننة وأبراجها الصغيرة. وفى مقدمة المشهد يسير الجيش المصرى بمشيته العسكرية ويمرّ الجنود حاملين البلطات والرماح والتروس. والغابات الباسقة تشكل خلفية المشهد. كوفى آمن مس على خدماته الجسورة بتعيينه فى منصب المسئول عن أقاليم ريتتو فى الشمال، أى مهمة جباية الجزية لصالح الخزينة الملكية. ومما له دلالة أكيدة أن هذه المقبرة التى تخص عسكرياً، يغلب على رسوماتها اللون الأحمر، وهو لون القوة والقدرة، ولون الإله المحارب مونتو^(١١٣).

وفى حياته فى العالم الآخر، سيجد آمن مس، أن الآلهة توفر له كل ما يحتاج إليه طبقاً لأمنيته:

عسى رع، يمنحه أن يكون متألّفاً فى السماء،

عسى جب، يمنحه القدرة على الأرض،

عسى حو، يمنحه كل الأطعمة،

عسى حعبي (النيل)، يمنحه ما بداخله فيشبع فى جميع الفصول،

عسى أوزيريس، يتصرف ليصبح فى مقر إقامته وفى حاشيته للزمن اللانهائى،

عسى حورس، يسمح بأن تعيش أنت، دون أن تبعد من جواره، إلى الأبد^(١١٤).

إن لوحاً حجرياً يحتفظ به متحف اللوفر (C 59) Louvre ولوحاً آخر فى متحف تورينو يحتفظان بذكرى قائد مركبة الملك الذى يحمل اسماً رفيعاً هو رو إن حقاو أى «أسد - الأمراء»، كما يفتخر بأنه «حامل علم الأسطول الحربى».

أما «زعماء المجاى»، قواد الفرق النووية، فكانوا أيضاً شخصيات عظيمة الشأن. نذكر منهم على سبيل المثال ديو ومقبرته فى القرنة(*) وكان «المشرف العام على البلدان الأجنبية فى غرب طيبة وقائد الفرق العسكرية لصاحب الجلالة وموفد العاهل الملكى فى جميع البلدان الأجنبية، من فرط ما كان مؤثراً على قلب (الملك). لقد مُنح الذهب والمديح، بسبب ما أبداه من بسالة، لمرات عديدة»^(١١٥).

إن الطبقة العسكرية التى كان يُغدق عليها الملك أسمى المراتب والإنعامات، أخذ نجمها يعلو وتزداد أهميتها مع تعاظم الفتوحات. إن كوكبة من القواد البواسل كانت تعيش بكل تأكيد فى البلاط الملكى بالأقصر، بصفتهم رفاق العاهل الملكى الأوفياء.

كبار الكهنة وغيرهم من رجال الدين

ومن أبرز الشخصيات الدينية فى عهد تحوتمس الثالث، نذكر تحديداً كبير كهنة آمون واسمه من خپر رع سنڤ. لا شك أنه كان أيضاً أحد الخلاء المقربين من العاهل الملكى.

كان جده حاڤو ضابطاً فى الجيش وجدته ووالدته «مرضعتين ملكيتين». وإلى «قراة النسب بالرضاعة»، أضيفت إليها بلا شك رابطة الزمالة فى سن الطفولة بمدينة الأقصر. كان فى بداية الأمر «أباً إلهياً» ثم «الخادم الثانى للإله آمون»، فهكذا ارتقى تدريجياً فى اتجاه هذا المنصب المرموق فى سلم التراتبية الكهنوتية قبل أن يخلف حڤوسنڤ فى منصبه كبيراً للكهنة: كان من خپر رع سنڤ يخدم سيدين، فأخلص لهما بكل ما أوتى من وفاء: أولهما إله الكرنك وثانيهما الفرعون. إن نص تمثال من تماثله يحتفظ به متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يوضح واجباته:

سن القوانين وتحديد القواعد وجعل الحقيقة والعدالة مفعمين بالبركات، من أجل آمون- رع، وإقامة كرامته على امتداد الشاطئين وهيبته على مقربة من الآلهة (الأخرى).

(*) وفى الخوخة تحديداً وتحمل رقم ٢٠٠. (المترجم)

الثناء على جلالته طوال النهار وإرضاء كائه يومياً، والتعبد لوجهه الجميل، وتعظيم مجده فى كل فصل من فصول السنة، لحساب ملك مصر العليا ومصر السفلى من خير رع، محبوب آمون.

إقامة كافة الشعائر الدينية حتى نهايتها، والعمل بحيث يعرف كل شخص ما ينبغى عمله فى معبد آمون الكرنك^(١١٦).

ومن جهة أخرى، فمن المحتمل أنه لم يطلق عليه اسم من خير رع سنبل أى «عسى من خير رع يكون مزدهراً»، منذ ولادته، ولكن فى وقت لاحق إكراماً للعامل الملكى. كانت وظائفه المرموقة كهنوتية ودينية، فى أن واحد. ففى مقبرته رقم ٨٦ فى القرنة يمكن أن نقرأ النص الآتى:

النبيل الأمير الصديق المحبوب إلى حد كبير، الذى سعى إليه رب القطرين بسبب خصاله وارتقى به إلى دائرة الأصدقاء واختاره من بين مئات الآلاف، ورفع من شأنه، منذ أن كان طفلاً وأقامه ليحتل مكان الصدارة فى القصر. إنه حامل الأختام الملكى ومدير الخدمات الإلهية اليومية فى مصر العليا وفى مصر السفلى... مدير (كافة) الوظائف المرموقة فى (فى معبد آمون) والمشرف العام على بيت الذهب المزدوج وبيت الفضة المزدوج والمشرف العام على أشغال معبد آمون (المسمى) «هذا الذى يرفع التيجان» ورئيس الأسرار المكنونة للإلهتين، أول خدام آمون، إنه من خير رع سنبل الذى أنجبته نبتو، شقيقة الملك (فى الرضاعة).

النبيل الأمير محبوب الإله والصديق المرموق المرتبط بالقصر، فأليه امتد ساعد الملوك، إنه قلب الملك فى طول البلاد وعرضها، الذى يحصى كل ما هو كائن، ويُعدّ حصراً بكل ما هو موجود فى أرجاء مدن مصر العليا ومصر السفلى. إنه المشرف العام على شئون آمون المزدوجة، والمشرف العام على النساجين الملكيين فى الجنوب والشمال، إنه الأثير المفضل عند الملك الكامل (أول خدام آمون)، إنه من خير رع سنبل. النبيل الأمير وكاتم أسرار الملك، من أجل تشييد معالمه الصرحية ورئيس الحرفيين والمشرف العام على أشغال (معبد) آمون. «هذا الذى يرفع التيجان». إنه من خير رع سنبل، أول خدام آمون^(١١٧).

إنه رجل من طراز حيوسنبل.

وتُصوِّره رسومات مقبرته وهو يزاول مهام وظائفه ويقتاد أمام الملك خمسة صفوف من دافعي الجزية القادمين من مناطق الإمبراطورية^(١١٨).

القادمون من الشمال: أمير كريت ساجداً وأمير خاتى رافعاً يديه متعبداً، وأمير تونيب مصطحباً ولده أمير قادش رافعاً فروض الولاء:

إنهم يحيون رب القطرين، ويسجدون أمام الإله الكامل، ويمجدون إنتصارات صاحب الجلالة. إنهم يتقدمون حاملين على ظهورهم كل منتجات بلاد الإله، من فضة وذهب ولأزورد وفيروز وأحجار كريمة، من مختلف الأنواع، حتى يُمنحوا في المقابل نسمة الحياة^(١١٩).

ومن القادمين من الجنوب يتسلم الملك «ذهب صحراء كويتوس ومعه في الوقت نفسه ذهب كوش الخسيس، بصفته ضريبة سنوية».

إن من خير رع سنب القائم على إدارة معبد آمون والمهندس المعماري، يتفقد قطعان الماشية ويشرف على عمل الحرفيين في معبد الإله^(١٢٠): من صواغ ونجارين وعمال جلود ومعادن، بينما ينجزون أعمالهم تحت بصر النظرات الثاقبة للكتابة المشغولين.

إنه يتفقد ورشة أشغال معبد آمون وأعمال الحرفيين بالأزورد النقى والفيروز النقى، التي أمر صاحب الجلالة بانجازها وفقاً لفكر قلبه، من أجل مباني أبيه آمون في الكرنك، لتظل راسخة ومزدهرة كما (ينبغي أن يكون) عمل (مقدر له أن يقاوم الأيام) للزمن الأبدى^(١٢١).

هكذا ستتبعث إلى الوجود الصروح وممرات الأساطين الفخمة والمسلات من بين الأنامل البارعة لعمال طيبة تحت إشراف كبير الكهنة.

إن كاهنا معمارياً وخادم آمون الثاني، اسمه پوى إم رع، مارس أنشطة مماثلة. كان يشغل منصبه منذ عهد حتشپسوت. إن نقوش مقبرته رقم ٣٩ في

الخوخة(*)، تصوره وهو يتسلم هبات الإمبراطورية، من أجل معبد آمون: وهى الهبات الواردة من مستنقعات آسيا (من المناطق الواقعة قرب دروب حورس ووحدات الجنوب والشمال)^(١٢٢). إنه يزن أكوام البخور الضخمة ويحصى «ثلاثة آلاف من النباتات الطبية بأنواعها المختلفة. ويقوم بحصر الأسرى الأحياء الذين عاد بهم صاحب الجلالة من معاركه المظفرة».

وبصفته معمارياً، شارك على وجه التحديد سن موت و جحوتى، فى تجهيز وإقامة المسلتين الشامختين، فى بهو أساطين تحوتمس الأول.

أما أمنحوتب الذى خلف بوى إم رع فى منصب خادم آمون الثانى وارتبط ارتباطاً كاملاً بمعبد إله طيبة، فقد كان مشرفاً عاماً على خزائن آمون ومشرفاً عاماً على شونة آمون المزدوجة. كانت بناته الأربع «منشدات آمون». وكرست هذه العائلة نفسها لخدمة معبد الكرنك، وصُورَ أمنحوتب فى مقبرته بالقرنة وهو يقدم للملك قرباناً من الزهور:

إنه يتقدم فى سلام، حتى مكان وجود العاهل الملكى، حاملاً باقة من زهور آمون، رب عروش القطرين فى الكرنك. «إن آمون يثنى عليك ويحبك ويحملك على مغالبة الأيام. ليتك يعطيك الحياة أيضاً والثبات والقوة والبسالة والنصر على شتى البلدان، ولتكن صيحتك، صيحة الحرب، فى كافة البلدان الأجنبية، وفقاً لما يأمر به أبوك العظيم آمون، فتظل تحت نعليك^(١٢٣).

كما يصطحب أمنحوتب الملك لتفقد الأعمال الجارية فى المعبد.

ولما كانت تستهويه مشاهدة لحظة الفجر الصادق المتألقة، كانت من أمنياته الجنائزية أن يتمكن من «الخروج من المقبرة ليشاهد آمون عندما يشرق فى روعة الروائع»^(١٢٤) (معبد حتشيسوت الجنائزى).

(*) تل صغير يعترض الوادى، وجبانة الخوخة امتداد لجبانة القرنة. من جهة الشرق. (المترجم)

جدير بنا أن نلاحظ الارتباط الوثيق، القائم بين الإدارة الملكية وإدارة معبد آمون.

كان نخت مين رئيس هيئة موظفي آمون، والمشرف العام على مخزن الإله، بالإضافة إلى مناصب الكاتب الملكي والمشرف العام على الشونة المزدوجة لمصر العليا ومصر السفلى، والمشرف العام على موقع النبيل والمشرف العام على جيات رب القطرين.

ورث ابنه من خير الجانب الكبير، من مناصب أبيه، وفضلاً عن ذلك، أضيفت إليها وظائف المشرف العام على شؤون الإله والملك، كما كان من كهنة طيبة بصفته الكاهن صاحب اليدين الطاهرتين. ويرفع إلى الآلهة صلوات مؤثرة من أجل دوام حريته إلى الأبد:

إنه يقول: أيتها الآلهة التي تقيم في السماء، والآلهة القائمة على الأرض وآلهة العالم السفلى. أيها الإلهان اللذان يجعلان سفينة رع تشق الماء بقوة دفع المجاديف ويقودان الإله العظيم إلى الأفق الغربي من السماء، ارفعى أقوالى إلى رب الزمن الأبدى، إنها صلاة خادم يثنى عليه سيده. كنت على الأرض، من المقربين المفضلين لدى العاهل الملكى. ليت يتصرف الآن، بحيث أرقد فى مكانى فى الأبدية واتحد بمقرى للزمن اللانهائى. ليت يهبنى أن أكون متألّفاً فى السماء، قوياً على الأرض ومبرراً فى العالم الآخر. ليت يسمح لى أن أدخل إلى المقبرة وأن أخرج منها، على حدّ سواء، حتى انتعش بفضل ظلك، وارتوى فى بركتى، على مرّ الأيام، وأن يعود «الإخضرار» إلى جميع أعضائى، ليت حصى يعطينى الأطعمة والقرايين والنباتات النضرة فى موسمها. سوف انتزه فى حديقتى يومياً، دون توقف، سوف يحط بائى على أغصان الأشجار التى زرعتها، وامتع بالجو الرطب فى ظل أشجار الجميز وأكل من مثارها. سوف يكون الفم الذى اتحدث به ملكى، مثلى مثل خدام حورس. سوف أصعد إلى السماء، ثم أهبط ثانية على الأرض ولن يعترض أحد طريقى، لن يُبعد كائى ولن يُسجن بائى. سوف أبقى وسط المقربين المفضلين ووسط الأجلّاء. سوف أحرث الأرض

فى حقول البوص، وانضم إلى حقول القرابين^(١٢٥) ليتهم يخصّوننى بإبريق من الجعة وأرغفة الخبز الواردة من قرابين رب الزمن الأبدى. ليتنى ألقى أيضاً وجبات وفيرة من اللحوم، على مائدة قرابين الإله العظيم^(١٢٦).

لا تكمن السعادة الأبدية فى الإقامة فى جنة قصية وخيالية، ولكن أن يعيش المتوفى من جديد، يوماً بعد يوم، اللحظات السعيدة التى عرفها على الأرض، وفقاً لحرية مطلقة وفائقة تتمتع بها حركاته. إن اللحظات السعيدة تعنى التنزه فى الحديقة والانتعاش فى ظلال الأشجار الباسقة والمشاركة فى أعمال الحقول الإلهية، وأن يأخذ من الأكل كفايته. إن جنات مصرى الأزمنة القديمة تعنى حياة يتوفر لها رغد العيش وحرية الحركة والنشاط.

وكانت مُتّع الدنيا وملذاتها، على القدر نفسه، من الواقعية.

الاستمتاع فى بيته القائم فى طيبة بجوار منزل سيد الآلهة، ثم الذهاب إلى البيت الكبير.... ويروح عن نفسه بالتطلع إلى كل ما هو جميل، وقضاء وقته فى أعمال إلهة الحقول. وعبور المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترفيه عن نفسه بطعن الأسماك بالخطاف^(١٢٧).

كان من خير بن مين (أو نخت مين) رجلاً بسيطاً وحكيماً بطبيعة الحال. ولكن ملذاته ومسراته الطبيعية، تشبه مثيلتها عند عامة المصريين، فيعشق الجمال والإنسجام والوقائع الملموسة. كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً.

كان أمـنحوتـب أحد أبناء نخت مين الآخرين وأخا الآخرين وأخا من خير إـذن، «الابن الملكى الأول للإله آمون». ويشير هذا اللقب إلى قائد الموكب الإلهى الإحتفالى^(١٢٨). كما كان ملحقاً بالشعائر الجنائزية الخاصة بالراحل تحوتـمس الأول. كانت العائلة مستقرة تماماً فى طيبة، فتقدم خدماتها للإله والملك.

كما تميز بعض الشخصيات الدينية الأخرى، مع انتسابها إلى فئات أخرى من الكهنة، غير كهنة الإله آمون القوى.

كان مين من مدينة أبيبوس، أمير مدينة ثنى(*) والواحة ويشغل منصبى حامل أختام ملك مصر السفلى وكبير كهنة الإلهين أونوريوس وأوزيريس. كان ابنه خادم الإلهة - العقرب سرقت. ويلحّ موضوع ثابت فى جميع هذه المقابر الطيبية، فنلاحظ إصراراً على تكرار المشاهد نفسها التى تصور اللذات الإبيقورية(**). فيتأمل مين حديقته المزروعة نخيلاً وأشجار جميز، تتوسطها بركة فسيحة، تعطرها أزهار اللوتس وتسبح فيها الأسماك. إنه يتناول الأزهار التى يقدمها له ابنه، ويسعى إلى التمتع بالمسرات المفيدة نفسها، التى سعى إليها الآخرون:

الإستمتاع بقسط من الراحة فى حديقة الغرب ومشاهدة كافة النباتات النضرة... وعبور المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترويح عن النفس بطعن الأسماك بالخطاف(١٢٩).

إن ما سبق لا يعتبر صيغاً جاهزة تم نسخها، أو مشاهد أعيد نقلها، ونذكر على وجه التحديد التصاوير الكلاسيكية عند القيام بصيد العصافير بعصا الرماية وسط نباتات البردى أو الصيد النهري بواسطة الخطاف. ولكنه تعبير عام عن وجه من وجوه اللهو البدنى، والترويح عن النفس، كما يستشعرها كل فرد حتى الأعماق.

كان مين أحد الذين يشرفون على تعليم وتربية الأمير الشاب الذى سيصبح فيما بعد أمنحوتب الثانى. وقد علّمه تحديداً رياضة الرمى بالقوس. وعلى سطح أحد جدران مقبرته رقم ١٠٩ فى القرنة، صُوّر فى مشهد بعيداً عن أى تكلف وقد أجلس الطفل الملكى على ركبتيه.

أما سن نفر الهليوبوليتانى فقد كان كبير كهنة آتوم و«منسق أعياد آتوم». وإلى

(*) لم تحظ هذه المدينة بأى عمل من أعمال التنقيب، ويعتقد أنها تقع على مقربة من مدينة جرجا أو أسفلها.

B. Midant - Reynes. Aux origines de l'Egypte. Fayard, 2003, p. 130. (المترجم)

(**) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م). دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية. (المترجم)

جوار العاهل الملكى كان أيضاً «حامل الأختام والمشرف العام على الشونة المزبوجة والمشرف العام على صحارى ذهب آمون».

كانت مغامرة حياته، هي الرحلة التى قادها إلى بيبلوس، بناء على الأوامر الصادرة من فرعون، لإحضار خشب الأرز المطلوب لإقامة الساريتين الباسقتين فى معبد الكرنك. أما المدونة التى أمر بنحتها حول هذا الموضوع على جانبى باب من أبواب مقبرته فى القرنة فقد أصابها للأسف تشويهاً شديداً (*).

مدراء طيبة

آمن إم حات، الكاتب

كان آمن إم حات كاتباً مجداً، شغل مناصب «المشرف العام على بيت الوزير (أوسر) ومدير كافة ممتلكاته». كما كان «الكاتب الذى يحصى غلال آمون فى شونة الإله، ورئيس هيئة موظفى آمون».

كان مولعاً بالتعرف على أنسابه، فدوّن فى مقبرته أسماء والديه وجده وجدته وزوجتيه. وبذل فى هذا العمل عناية ودقة تشهدان على مدى إرتباطه بأسرته. إن مقبرته رقم ٨٢ فى القرنة، من المقابر النادرة فى الجبانة التى زُخرفت فيها حجرة الدفن.

كان على ما يبدو، رجلاً قوياً مخلصاً لسيده الوزير الذى يشيد به فى نص صيغ بأسلوب منمق، وهو أشبه بتمرين أدبى لكاتب موهوب. ففى نظر المصرى القديم،

(*) تحمل مقبرته فى الشيخ عبد القرنة رقم ٩٩. وهى خلاف مقبرة شخص آخر يحمل الاسم نفسه ورقمها ٩٦، وتعرف بمقبرة العنب وعاش صاحبها فى عهد أمنحوتب الثانى، وسيشار إليها فيما بعد فى الفصل السادس. (المترجم)

كان جمال النص أو المشهد المصور، على حد سواء، يتألف فى المقام الأول من التوازن الصارم لعناصره المكونة والتوافق والإنسجام التشكيليين والسمعيين للعبارات.

تحدث قائلاً: أنا خادم ورفيق مخلص لسيده، وصاحب قلب بارع ينفذ ما يقوله. لقد وضع بيته بأكمله فى معيتى. إن صواب ختمه يعود إلى نصائحي. أنا إنسان فطن، عند إعداد حصر بممتلكاته، ساهر على حسن إدارة أشغاله.

وفى ثلاث فقرات منظومة يبدأ أمن إِم حات فى استعراض الأنشطة المواتية للوزير أوسر فى خدمة الملك والآلهة والبشر:

إن عمدة المدينة(*)، الوزير أوسر، يؤدى الطقوس الشعائرية، من أجل الكا الملكى الحى على مدار كل يوم من الأيام. إنه يرفع ماعت نحو سيده، (ماعت) التى ما برح صاحب الجلالة يحبها، فى كل لحظة من اللحظات. ففى كل ساعة من الساعات، يشار إلى أفعاله المباركة.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى ما تنشده الآلهة جمعاء. إنه يخلق القوانين التى تؤسس القاعدة ويشيد المعابد وينظم قرابينها ويورد أطعمتها ويقدم لها ماعت التى ما برحت تحبها.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى كل ما يرغبه الشعب، ويستشير الرقيق الحال والمقتدر، على حد سواء، ويحمى الأرملة التى بلا عائلة ويلطف قلب العجوز الطاعن فى السن. ويقيم الصبية على مقعد الآباء، ويسمح أن تظل البلاد بأسرها فى سلام.

وبعد ذلك، تروى ست فقرات منظومة الأعمال البارعة والبناءة التى قام بها الوزير بمشاركة أمن إِم حات.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، قد أعدَّ عددًا من الأشياء للقصر الملكى، وهى من فضة وذهب ولازورد وفيروز وأحجار كريمة من مختلف الأنواع، فضلاً عن أوانٍ

(*) نبيوت بالمصرية القديمة وهى من أسماء طيبة. (المترجم)

من فضة وذهب ونحاس وبرونز وأثاث من العاج والأبنوس وخشب الصندل. وعُبد الله .
من أجله، بسبب ذلك. أما أنا، فكنت مشرفاً على هذه العمال.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، قد صنع عدداً من التماثيل للقصر الملكي، وهي
من الفضة والذهب والنحاس والبرونز والأبنوس... ومن كل حجر صلد.... أما أنا
فكنت مشرفاً على هذه الأعمال.

وفضلاً عن ذلك، فقد صنع هذا النبيل العظيم لنفسه، عدداً من التماثيل من
النحاس والبرونز وكافة أشكال الخشب الثمين، لتقام في معابد آلهة مصر العليا
ومصر السفلى، وكنت أنا المشرف على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه، حديقة كبيرة هي آية من الجمال، تقع إلى
الغرب من مدينة الجنوب^(*)، فيها أشجار رائعة حيث تنبت أطيب الخلاصات
العطرية... أما أنا فكنت مشرفاً على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه مقبرة كبيرة، رائعة الجمال فوق التل الصخري
بالأرض المقدسة وكانت جدرانها الخارجية الشامخة ملونة... أما أنا فكنت مشرفاً
على هذه الأعمال^(١٢٠).

أما نص الفقرة السادسة المنطوقة، فهو مشوه تشويهاً بالغاً.

كان يحلو للنبيل أمن إم حات أن يؤلف نصوصاً في أسلوب منمق.

ويقدم لنا آمانياته عن الأبدية، في هيئة قصيدة أيضاً:

سوف تدخل إلى الغرب وتخرج منه. وبخطوات واسعة، سوف تعبر باب اللوات.
سوف تعبد رع عندما يشرق في تله وتقدم له الشكر والعرفان، عندما يغرب في أفقه.
سوف تتلقى القرابين وتأخذ كفايتك من الأطعمة (المكدسة)، فوق مائدة قرابين سيد
الزمن اللانهائي.

سوف تتنزه في كل مكان تشتاق إليه، عند الأطراف السعيدة من حديقتك،

(*) نيت رسيت بالمصرية القديمة وهي أيضاً من أسماء طيبة. (المترجم)

ويبتهج قلبك (لرؤية) أشجارك، وتنتعش في ظلال أشجارك، (أشجار) الجميز. سوف تكون نفسك في سلام، بينما ترتوى من ماء البئر التي أقمتها. وذلك للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى. سوف تفتح تلال الجبانة وتشاهد من جديد بيتك، (بيت) الأحياء وتسمع الأصوات والأغاني والموسيقى القادمة من بابك الكائن على الأرض، وتؤمن حماية أولادك للزمن الأبدى والزمن اللانهائى (١٣١).

هذا التسكع الأبدى والسعيد عبر أرجاء الكون، وفي العالم العائلى على سطح الأرض، هذه الرحلة المفتوحة الخالية من أية قيود، المتجددة على الدوام، تنتقل من السماء إلى الأرض ثم إلى الجبانة، إن هذا العود الأبدى إلى أحضان أفراد العائلة، هو المستقبل الذى يتطلع إليه نخت مين أو مين أو آمن إم حات، فضلاً عن كافة المصريين الآخرين.

آنتف، الأمير والموفد العظيم

إن المقبرة رقم ١٥٥ فى جبانة نراع أبو النجا تخص «آنتف، أمير مدينة ثنى ورئيس كافة الواحات وكبير موفدى الملك وحامل أختام ملك مصر السفلى وكاتب الحسابات». وفى هذه العائلة، كانت وظيفة الكاتب يورثها الأب إلى ابنه أو إلى أخيه، ولكن كان آنتف على ما يبدو، ممثلها الأكثر شهرة.

إننا نعرف الأنشطة الهامة التى كان يمارسها هذا الشخص بفضل لوح حجرى كبير، هو من مقتنيات متحف اللوفر (C26) فى الوقت الراهن، ويحيطنا نص آنتف علماً بمقامات منصب «موفد الملك». إنه عظيم الفائدة وفريد فى بابيه تقريباً، ولكن هذه المعلومات أقل دقة ووضوحاً من نص الوزير رخ مى رع الذى قدم لنا وصفاً لأعباء منصبه.

إنه النبيل، الأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى والصديق الأوحد وكاتم أسرار الملك فى قيادة الجيش والذى يجمع القضاة والجنود ويحصر الأصدقاء ويتقدم النبلاء ويصطحبهم ويقيم كباراء البلاط الملكى فى أماكنهم. إنه أقوى الأقوياء ومرشد

ملايين البشر ورئيس أرقى الوظائف وأرفعها . إنه صاحب المقعد الأول والحاظق المحنك في حضرة (صاحب الجلالة) والذي يسجل كلمات سواد الشعب، ويبلغ عن أوضاع الشاطئين وأحوالهما ويتبادل أطراف الحديث في المكان السرى، ويدخل حاملاً عدداً من النباتات ويخرج محاطاً بالمديح، ويقيم كل امرئ على مقعد أبيه، ويجعل القلب هادئاً وديعاً ويثنى على المقربين المفضلين، ويدفع الكبراء إلى النهوض عندما يتحدث، ويضمن حسن سير الأمور في قاعة المحكمة، ويحدد القاعدة في القصر الملكي ويخبر كل امرئ بواجباته ويوزع الهدايا في القصر... ويهدئ الأصوات ويأتى بأسمى مراتب الشرف و«يحمى القدم» في مكان الصمت. إنه الخيط ذو الثقالة في ميزان الإله الكامل، والذي يرشد البشر إلى ما ينبغي إنجازه. عندما يقول ما يجب عمله، فإن ذلك يحدث على الفور، كما لو أن فم الله هو الذي تفوه بهذه الكلمات. (إنه) يُصدر التوجيهات إلى سواد الشعب، حتى يمكن حصر ما تبقى من أعمال (مطلوب إنجازها)، من أجل الملك، كما يستدير ليواجه كل بلد أجنبي ويعين حكومة زعمائه. إن مشغوليّاته عظيمة الأهمية، عندما يُعدّ حساباته. (إنه) من يعرف ما في قلب العاهل الملكي، وهو لسان حال المقيم في القصر وعينا الملك وقلب سيد المقر الرسمي ومصدر التعاليم للبلاد بأسرها. إنه من يكبل الأعداء ويهدئ المتمرد... رجل قوى الساعد في مواجهة اللصوص، فيطبّق العنف على من يزرعونه، وقوى ضد الأقوياء. ويخفّض ساعد المتكبر (حرفياً: «من كان ظهره عالياً»^(*)). ويحطّم في (كل) لحظة الإنسان صاحب القلب القاسى (حرفياً: الحاد). ويتصرفه يحمل الإنسان العنيف على تطبيق القاعدة والقوانين العادلة التي يمقتها قلبه. كما يتعاضم الرعب الذي يثيره في نفس المجرمين. إنه رب الخوف وسط أصحاب القلب السيئ، والذي «يقطع» الأعداء ويدحر المعتدين. (إنه) رخاء القصر ويسنّ القوانين ويسعد الجماهير من أجل سيده، إنه الموفد الأول في قاعة المحاكمة^(١٣٢).

(*) نذكر في هذا الصدد المثل المصري الذي يدور حول المعنى نفسه: «من له ظهر ما ينضربش على بطنه». ويراد بالظهر هنا الرجل الحامى لغيره. ويقولون فلان له ظهر، أى له من يعتمد ويستند عليه، أحمد تيمور باشا. الأمثلة العامة. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص ٥٦. (المترجم)

إن فيضاً من الكلمات والنعوت على الطريقة المصرية(*)، يعرفنا بمهام موفد الملك. إنه في أن واحد، المشرف على الإحتفالات ومنظمها وكاتم أسرار العاهل الملكى والناطق بلسانه لدى الجهاز الإدارى، فى مصر وأقطار الإمبراطورية، كما أنه يحشد أفراد الجيش ويستدعى المحاكم للإنعقاد. فمن الواضح أنه كان المبعوث القطن من قبل فرعون.

بعد هذه المجاهرة بأبعاد وظيفته يعلن أنتف صفاته الشخصية وسجاياه ويروى بعض أحداث حياته المهنية:

أتاح لى قلبى إنجاز هذه المهام بفضل التوجيهات التى أملاها علىّ. كان بالنسبة لى شاهداً مفعم بالبركة، ولم يحدث أبداً أن تجاهلت ما قاله. بل كنت أخشى الخروج على خطة العمل التى رسمها. وهكذا ولهذا السبب كنت فى غاية الإزدهار. كنت مفيداً لأنه كان هو بعينه يوجه أفعالى. كنت فطناً حاذقاً تحت قيادته.... فهاتف الوحي الإلهى يكمن فى كل كائن. إن مستشارى هو الذى قادنى على السراط المستقيم للعمل الناجز. أجل، هكذا كنت.

لقد اصطحبت ملك القطرين وتتبعته خطاه فى بلاد الجنوب وبلاد الشمال. ووصلت إلى قمة الأرض والتحقت بها فى أطرافها، بينما كنت «تحت قدمى» صاحب الجلالة. كنت بأسلاً مقداماً ومن أرباب السيف. لقد غزوت باعتبارى أكثر (جنوده) شجاعة.... كنت أسير فى مقدمة الجيش، (فكنت) الأول. وعندما يصل سيدى فى سلام على مقربة منى، كنت قد أعدت (المعسكر)، وجهزته بكل الأشياء الطيبة التى يشتهيها المرء فى بلد أجنبى، وزينته، فصار أجمل من قصر مصر، وطهرته ونظفته وجعلته سريراً وزخرفت أجنحته وجهزت كل حجرة بما يلزمها. لقد تصرفت على هذا النحو، حتى يظل قلب الملك فى سلام... وحصرت الجزية (المقدمة من) أمراء أركان البلاد وهى جزية من فضة وذهب وزيت وبخور ونبيذ(١٢٣).

وفضلاً عن ذلك، كان الموفد الملكى يتولى توفير كل ما يحتاجه الجيش الزاحف من إمدادات وتموين. فكان الشخص الذى يوكل إليه العاهل الملكى بكل المهام المادية

(*) مازال المصرى المعاصر يحلو له ممارسة هذا اللون من الهوايات. (المترجم)

التي تضمن تصريف الشؤون الإدارية على أحسن وجه والسهر على راحة المحاربين أثناء الحملات العسكرية.

لقد ذاع صيت موفداً آخر، في خدمة فرعون وطبقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلينا .

آمو - نجح، المهندس والموفد والحاجب

عُثر مؤخراً في حقول طيبة، وعلى بعد مئتي مترٍ إلى الشمال الشرقي من أطلال معبد تحوتمس الثالث الجنازى، على تمثال مكعب من الجرانيت الأسود، يخصّ آمو- نجح^(١٢٤)، وكُنّا نعرف هذه الشخصية من خلال مدونات مقبرته رقم ٨٤ في القرنه. كان التمثال قد وضع في هذا المعبد، بإنعام خاص من الملك ليشارك صيرورات فرعون. والتمثال موجود حالياً في متحف القاهرة. أما صاحبه فتُعرفه النصوص على النحو الآتى:

رفيق الملك في تنقلاته، المرتبط بخطوات الإله الكامل والذي لا يبتعد عن رب القطرين، في ساحات القتال، في كافة بلدان الشمال والذي عبر التيار العظيم (نهر الفرات) في أعقاب صاحب الجلالة، لتحديد حدود مصر. إنه الموفد والحاجب الأول في خدمة الملك وحارس الباب والذي يرضى رب القطرين بفضل نصائحه. إنه موفد الملك وصاحبه: آمو- نجح.

في وسعنا أن نعيد صياغة سيرة حياته المهنية على وجه التقريب. وبالفعل فإن لوحاً حجرياً عثر عليه في مقبرته، يروى لحظاتها البارزة. ومن الراجح أن الرجل قد ولد في عهد تحوتمس الثانى وحصل على أولى امتيازاته، في عهد تحوتمس الثالث:

إنه يقول: رُقيت لأول مرة إلى منصب مهندس في خدمة رب القطرين في العام ١٥ (وذلك) حتى العام... (فجوة يؤسف لها، نظراً لأهميتها!)... لقد تفقدت إقامة المسلتين الشامختين التي صنعهما صاحب الجلالة، من أجل أبيه آمون، لقد تفقدت إقامة... (التي صنعها صاحب الجلالة) من أجل أبيه آتوم، رب هليوبوليس، عند مدخل الصرح المزدوج الكبير الذي قام صاحب الجلالة بترميمه وذلك عندما كنت مهندساً.

عندئذ رقيت إلى منصب الموفد والحاجب الأول في خدمة الملك، في حضرة البلاد قاطبة. وكلفت بالعديد من المهام. وأقمت العدالة من أجل رب العدالة، لأننى كنت أعرف أنها كانت محل رضاه... لقد أنجزت ما كان يتطلع إليه البشر وما يثنى عليه الآلهة... لقد اصطحبت الإله الكامل فى مختلف بلدان الشمال الأجنبية، ولم ابتعد عنه فى ساحات القتال (١٣٥).

واشترك فى العام ٢٢ فى عملية عبور نهر الفرات. فصار عندئذ أحد المقربين من فرعون والمفضل لديه:

إنه قلب رب القطرين والصديق الذى يقترب من الجسد الإلهى وعينا الملك وأذناه... الذى لا يسأم أبداً من الأوامر الصادرة إليه، إنه الساهر ليلاً... الذى يؤتمن على الأفكار... داخلاً محملاً بالأشياء المفيدة إلى المكان الذى يتواجد فيه العاهل الملكى... إنه إنسان مستور الفم(*)، فيما يتعلق بشئون الملك (١٣٦).

وجمع بين عدد من الوظائف فعين أيضاً «المشرف العام على الشونة المزبوجة لمصر العليا ومصر السفلى». كما كان مكلفاً بتقديم حاملى جزية الشمال والجنوب إلى فرعون. كان رجلاً من رجال العاهل الملكى.

كان أمو- نجح صياداً بارعاً يهوى القنص فى الصحارى. كان يعشق «أن تطى قدماه التلال ويستكشف الوديان ويروح عن نفسه بتسديد السهام فى غزلان الصحارى (١٣٧)». كما كان يحلو له ممارسة رياضته المفضلة فى مستنقعات الدلتا.

كان إنساناً تقياً ورعاً، يشدو إلى الشمس بترانيم آية فى الجمال. وقد احتفظ اللوح الحجرى الثانى الذى عثر عليه فى مقبرته على هذه النصوص الشعرية:

تحية لك، يا رع، يا سيد الزمن الأبدى، أيها الأوحى المتفرد، القيم على الزمن اللانهائى، وأول من أتى إلى الوجود فلا ثانى لك أيضاً، أنت الذى رفع السماء وأقام

(*) نشير فى هذا الصدد إلى الأمثلة الشعبية التى تدور حول المعنى نفسه.

«اللسان عدو القفا» و«لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفايا». أحمد تيمور. المرجع السابق.

ص. ص: ٤٢٢ و ٤٢٩. (المترجم)

رواسى الأرض. أنت الصبى الجميل الذى انبثق من نوالذى أخذ يعدو منذ يوم
مجيئه إلى الدنيا. أنت الصقر الرائع المتجلى فى تألقه فى الأفق فيحتفى به القطران
بسبب توهجه. يجوب مصر ويلتف حول الصحراء. إنه الطائر الجارح الذى أنجب
الأقواس التسعة. تحية لك بلا وهن، لملايين المرات فى ساعة واحدة. من أجلك، تتجمع
التهافتات والتهاليل، على قدر عظمتك، لقد جعلت المرء يحصل على المعرفة بلا حدود.
إنك تسهر فى سلام، والنور العظيم الذى جاء من تلقاء ذاته إلى الوجود ساهر،
ويسمح للإنسان أن يمضى هادئاً سالماً، فى روحاته.

إنى قادم إلى جوارك، أيا سيدى رع، إنى أعبدك، إنى أثنى على مجدك. المديح
لك، أنت الذى ترضى بالبخور فى حضور نجم الليل، أيا رع، بجميع أسمائه، انصت
إلىّ، إنى أتحدث إليك، حوِّط قلبك بصلاتى، لا يوجد إله قط، ينسى مخلوقه. ونسمة
نسمة الحياة، يستطيبها أنفى. أجل، إننى أقف مع الريح العلية (المفيدة) لشئون القلب
ومدائحي تظل فى القصر الملكى، طوال كل يوم من الأيام، لقد رافقت الأمير فى
روحاته وغواته، ولم ارتكب فى أى حال من الأحوال عملاً خسيئاً. ويظل قلبى بجوار
الله. أنا إنسان مزدهر القلب ومزدهر الفم ومزدهر اليد (١٣٨).

لقد ساهم غيرهم، والكثير غيرهم، فى الإرتقاء بالجهاز الإدارى فى طيبة،
واحفظ الدهر عن هؤلاء الآخرين بذكراهم، فوصلت إلينا، بفضل الصور والنصوص
الواردة مثلاً فى مقبرة أصابها الدمار، إلى هذا الحد أو ذاك، أو على لوح حجرى أو
تمثال. فنذكر منهم، نب آمون(*) المشرف العام على أملاك الملكة نبتو ونفررت
الساقى الملكى وبنر-ميروت (أى «الرقيق حُباً»)، المشرف العام على بيتى الذهب
والفضة والمشرف العام على مواقع أشغال العامل الملكى والمتعبد لتمثال أبو الهول فى
الجيزة، بعد أن صار حورس- فى - الأفق....

(*) وهو صاحب المقبرة رقم ٢٤ فى نراع أبو النجا. (المترجم)

إن شخصاً آخر يحمل اسم نب آمون قد خلف وراءه المقبرة رقم ١٧ فى جبانة دراع أبوالنجا وهى على قدر كبير من الأهمية. كان طبيباً، سوف يواصل ممارسة عمله فى عهد أمنحوتب الثانى، ومن المحتمل أن شهرته كانت قد طبقت الآفاق، فيأتى الناس من بعيد لاستشارته، وبالفعل صُوِّر على الجدار الشمالى الغربى من القاعة الكبيرة من مقبرته، وصول سورى ميسور، حضر بلا شك ملتصقاً إستشارته الطبية. كانت أتعابه عبارة عن سبيكة نحاس وأوانى ومصنوعات فخارية وجرار نبيذ وأربع فتيات سوريات لخدمة نب آمون. وصُوِّرَت فى الصف الأدنى، سفينة سورية من المحتمل أن طالب الإستشارة، قد جاء على متنها، إلى جانب مركبة يجرها ثوران. فهل كانت مخصصة للإنتقال على الطرق البرية بعد أن تلقى السفينة مراسيها فى الميناء؟ أم كانت هدية أخرى؟ ويبدو أن شهرة الأطباء المصريين كانت قد ذاعت، فى أركان الأرض.

الافارقة

عند نهاية عهد تحوتمس الأول كان سيني المشرف العام على مدينة الجنوب والمشرف العام على الشئون - قد خلف تورى فى وظيفة «الابن الملكى ورئيس بلاد الجنوب» وهى الوظيفة التى ظل يشغلها فى عهد تحوتمس الثانى.

أما نحي فقد شغل بعد ذلك، منصب نائب الملك، ربما منذ عهد حتشپسوت، ولكن بكل تأكيد منذ عهد تحوتمس الثالث، واعتباراً من العام ٢٣ من عهد هذا الملك على ما يظن، أى منذ بداية تسلمه الفعلى لزام السلطة، وعندما أقام فى وادى حلفا مدونة النصر، ولا ندرى، كم من الزمن على وجه التحديد ظل يشغل هذا المنصب، ولكن لعدد كبير من السنوات، بالنظر إلى العدد الضخم إلى حد ما، من المعالم الصرحية التى تحمل اسمه^(١٣٩). كان نحي فى الأصل كاهناً مرتلاً فى خدمة آمون وهى الوظيفة التى شغلها أيضاً ابنه. وكان نواب الملك يُختارون من بين رجال الإدارة أو الكهنة، وفقاً للإرادة الملكية.

ومن أسوان وحتى جزيرة صاى وفى مصر ذاتها، على حد سواء، يشير العديد من المدونات إلى اسم نحي.

إن نصاً من صاى الواقعة بين الجندلين الثانى والثالث لنهر النيل، يذكره على النحو الآتى:

الرجل القوى الفطن المنتسب إلى رب القطرين. لا أحد يستطيع أن يقف أمامه (١٤٠).

كان موظفاً إمبراطورياً يحضر سنوياً إلى طيبة، ومعه الموارد النفيسة من أراضى الجنوب. ومن جديد صور موكب حاملى الجزية النوبيين والسودانيين فى المقصورة رقم ١ التى أمر نحي بتشبيدها فى قصر إبريم إلى الشمال من الجندل الثانى:

أنا الخادم المفيد لسيده والذى يملأ بيته بالذهب ويضىء وجه الحورس، بفضل منتجات بلاد الجنوب، (أنا) صاحب المدائح التى ترتفع فى حضور ربه (١٤١).

كما أن مدونة فى معبد سمئة تكشف عن أمر ملكى صادر إلى نائب الملك:

يُصدر الملك أمره إلى الابن الملكى نحي، المشرف العام على بلاد الجنوب، بأن ينقل بالسفن حجر بلد شاعت... على متن الصنادل، لإعادة تشييد معبد من أجل أبيه ديمون القائم على رأس النوبة - وكان هذا المعبد قد شيد فى السابق من الطوب وتهدم الآن (١٤٢).

إن هذه الوحدة الروحية بين الآلهة المصرية والنوبية واضحة للعيان فى تصوير منحوت على الجدار الشمالى من مقصورة نحي فى قصر إبريم. فأمام آمون - رع المتربع على عرشه فى عظمة وجلال، يقف صف من سبعة آلهة «إقليمية»: «حورس رب ميعام، الإله العظيم سيد السماء» و«حورس رب بوهن، الإله العظيم سيد مصر العليا» و«حتحور سيدة إيشك» (أو غرب فارس بشمال وادى حلفا) المقيمة فى إلفنتين و«حورس سيد باك» و«خنوم» (*) سيد الجندل (؟) و«ساتيس» (*) سيدة إلفنتين و«أنوكيس» (*) القائمة على جزيرة سهيل، سيدة السماء وسيدة القطرين (١٤٣).

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. (المترجم)

وباختصار فإن هذه الآلهة يجمعها واقع الجوار وتوحد بينها رابطة إمبراطورية، يقف على رأسها ملك الآلهة، آمون - رع.

لم يُعثر على مقبرة نحي. ولكن عدداً من الشواهد يرجح وجودها في طيبة: فقد عثر له على تمثال في الدير البحري^(١٤٤)، وتم الكشف عن تمثال أوشبتي^(١٤٥)، خلف الرامسيوم يحمل اسمه^(١٤٦).

كان تمصير بلاد النوبة قد قطع شوطاً كبيراً. وفي عام ١٩٥٥ وبناء على توجيهات جان فيركوتير Jean Vercoutter جرت أعمال التنقيب في موقع غرب بييرة على بعد عشرين كيلو متراً شمال وادي حلفا. وتم الكشف عن مقبرة منحوتة في الصخر لصاحبها جحوتي - حوتب أمير بلدة سيرة^(*)^(١٤٧). وفيما نعلم، فإنها المقبرة الوحيدة المزخرفة في النوبة وتعود إلى الأسرة الثامنة عشرة. ونعرف هذا الشخص من خلال قطع أثرية أخرى: إنه تمثال عثر عليه في بوهن وجزءان من لوح حجرى. كما كان أبوه أمير سيرة. هل كان مصرياً ضابطاً يقيم في الجنوب، وكان نوبياً متمصراً؟ إن الفرضية الثانية هي الأقرب إلى الصواب.

كان معاصراً للحكم المزدوج للملكة حتشپسوت وتحتمس الثالث. وبالفعل فقد كان «القائد المقدام لسيدة القطرين». ولكن من بين الأمنيات التي أبداها، رغبته في الحصول على «الحظوة والحب والشهرة، في حضرة العاهل الملكى. وعلى الحياة المديدة بصفته رئيس الأجنحة الخاصة بالملك». ويبدو أن تحتمس الثالث كان يُنظر إليه منذ ذلك الزمن، بصفته الإله المتربع على العرش. ويطلق عليه عبارة «الإله العظيم في بلدة سيرة». وهذا يفسر تقديم القربان التقليدى في هيئة باقة زهور، إلى العاهل الملكى، وهو الموضوع الثابت الذى يُصور أيضاً في أغلب مقابر طيبة:

تقبّل باقة زهور حور أختى هذه. ليت الإله يثنى عليك ويحبك ويمنحك طول الحياة... ليتة يعطيك البسالة والنصر على كافة البلدان.

(*) تبعد ٢٠ كم شمال وادي حلفا. (المترجم)

وقد نلتقى بمشاهد الحفلات الموسيقية والرقص ومشاهد الولائم، فى أية مقبرة من مقابر طيبة. فالمواضيع والألوان والأسلوب واحدة. أما مشهد الحديقة بمشتل النباتات ورى الأشجار، فهو فقط الذى يستحضر المنظر الطبيعى النوبى، ويذكرنا به. كل ذلك يبرهن على أن رجال الجنوب، ومنذ عهد تحوتمس الثالث، وبعد أن اتخذوا لأنفسهم أسماءً مصرية، كانوا قد استوعبوا أعراف وعادات وتقاليد عاصمة البلاد، فاندمجوا إذا صح التعبير فى الإمبراطورية، ولكن هذه المقولة سليمة وصحيحة بالنسبة للنوبة(*) . أما كوش(**) فقد ظلت أكثر معاندة وصعبة المراس.

٤- الفن والخلود

الفن فى مصر خط دفاع لمقاومة الموت. إنه زخرف مهيب وسحرى غايته البعث واستعادة الحياة. إن المعالم الأثرية الشامخة من معابد أو مقابر، هى بيوت لملايين السنين أو الأبدية، خصصت للآلهة أو البشر. إنها تحمى الحياة التى تولد من جديد إلى أبد الآباد. إن المنحوتات وفنون الرسم تقدم أغلفتها، وهى من حجر أو ألوان، لفائدة العناصر الحيوية للكائن المتطلع إلى استعادة الحياة، فيولد من جديد. فالتماثيل والنقوش والرسومات ليست أشياء ثابتة أو «لقطات فورية»، تصور لحظة بعينها، بل إنها مستودع عناصر كامنة، مهياة لاستقبال الحياة فتنتعش بالحيوية، إستناداً إلى تصور روحانى للفن، له جنور متأصلة وعلى قدر كبير من التطور. كما أن الإسم الذى يطلق فى كثير من الأحوال على النحات، خير شاهد على ذلك: فهو سى عنخ أى «هذا الذى يعيد إلى الحياة». فمع كل حركة من حركات منحاته أو إزميله، يستعيد العمل الأصلى الذى قام به الإله الخالق.

(*) (أو واوات عند المصريين وهى النوبة السفلى. (المترجم)

(**) (أو النوبة العليا وتمتد إلى الجنوب من الجندل الثانى. (المترجم)

في هذه الأزمنة التي شاهدت الفتوحات في البلدان القصية وعندما كانت المواد الأولية والأيدى العاملة متوفرة، كانت المباني الشامخة تُشيد بأعداد كبيرة وتقف شاهداً على عظمة آمون-رع والآلهة الملهمة التي أوحى بتحقيق توجيه هذه الانتصارات وكبرى مآثر العاهل الملكى وازدهار البشر. كان الفاتحون المصريون على الدوام بُناة نشطين، سواء في مصر أو في الأراضي الإفريقية، التي كانت تعتبر امتداداً طبيعياً للوطن الأم، ناحية الجنوب.

معالم مصر الصرحية

من المعتقد أن الكرنك في عهد تحوتمس^(١٤٩)، كان يظهر للناظر إليه، في هيئة موقع عمل شاسع، فترتفع فيه المباني، ويعمل فيه عمال ينحدرون من أصول مختلفة، وينكبون على تشكيل المواد الأكثر قيمة. فأقيم صرحان جديدان عند المحور الشمالى الجنوبى للمعبد، هما الصرح السابع والصرح الثامن. ويتكون الصرح السابع من برجين من الحجر الرملى يكتنفان باباً من الجرانيت الوردى، إن سلماً داخلياً يخترق كتلة الصرح، ليرتفع من قاعدة الواجهة الشرقية من البرج الشرقى ليصل إلى أعلى الصرح. ومن المحتمل أن ارتفاع الباب كان يصل إلى ١٢ متراً. ويمكن أن نشاهد على الوجهتين الجنوبية والشمالية للبرجين تحوتمس الثالث في هيئة ممجدة وهو يذبح أعداءه^(١٤٩). وأمام دعامتى الباب أقيم تمثالان عملاقان ملكيان من الجرانيت الوردى، وعلى قاعدتى التمثالين صُورت أشكال بيضوية مسننة تضم أسماء الشعوب المهزومة بما يتفق والأيقونوغرافيا التقليدية. فدُون النوبيون في الجانب الشرقى والآسيويون في الجانب الغربى. وأمام التمثالين الملكيين أقيمت مسلتان من الجرانيت الوردى أيضاً. إحداهما في إسطنبول في الوقت الراهن. أما الأخرى فقد تهشمت ويرقد حطامها على الأرض.

لا شك أن بناء الصرح الثامن قد بدأ في الفترة التي كانت فيها حتشپسوت «وصية» على العرش. وبعد وفاة الملكة قام تحوتمس الثالث بإزالة اسمها ليحل محله

اسم تحوتمس الثانى. وأقيمت ستة تماثيل ملكية عملاقة من الكوارتزيت الأحمر والحجر الجيرى أمام الواجهة. ومن الأمور الفريدة غير المألوفة، أن جداراً منخفضاً من الحجر الجيرى، مستدير القمة كان يحيط بالصرح عند قاعدته.

وكان جداران يربطان طرف جناحى الصرح الثامن بطرف جناحى الصرح السابع ليحددا مساحة فناء. ولم يحفظ لنا الدهر سوى جزء من الجدار الشرقى وفى حدود صفه(*) الأدنى.

وعلى محور المعبد الغربى الشرقى شيد تحوتمس الثالث الصرح السادس فى الفناء الذى تكتنفه الصفات والذى أقامه تحوتمس الأول، وإلى الشرق من الصرحين الرابع والخامس. وقد شيد من الحجر الرملى. والنقوش التى يزدان بها الصرح تخلد انتصارات مجئ، على البرج الشمالى، والإبقاء على شعوب الجنوب خاضعة لمصر، على البرج الجنوبى.

وفى مدونة العام ٤٢، المنحوتة فى الحجرة القائمة جنوب قدس أقداس الكرنك، وعلى الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبى قام تحوتمس الثالث شخصياً، باستعراض مجمل المبانى التى نفّذها فى معبد آمون. إن هذا النص جزء متمم لنص إختيار الملك من قبل آمون. إن المقارنة بين النصين ليست محض صدفة.

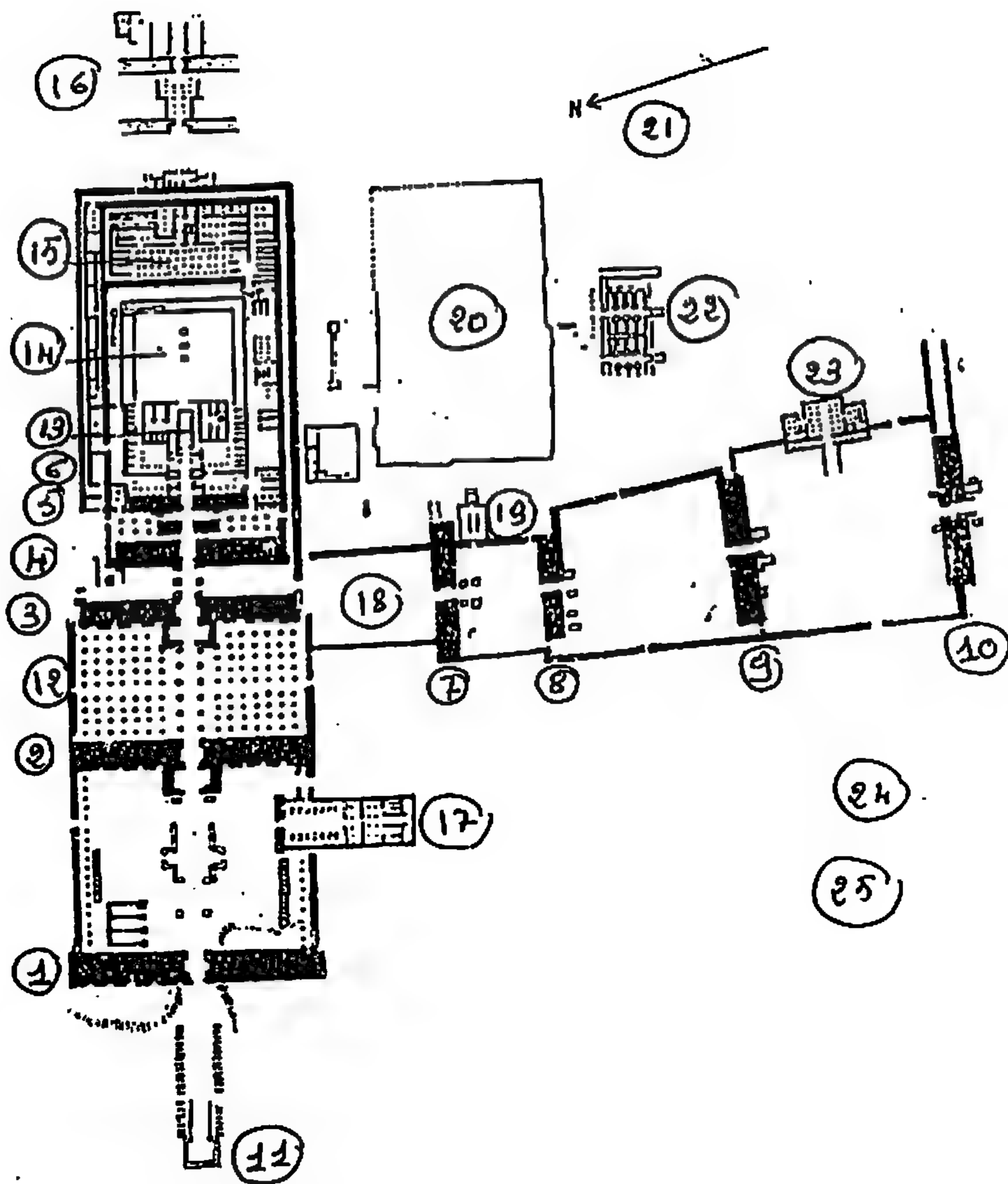
لقد أقام جلالتي معبدًا (اسمه) «مقر قلب آمون». إن عرشه العظيم يشبه أفق السماء، وقد بُنى من الحجر الرملى الوارد من الجبل الأحمر، والداخل مكفت بالذهب الخالص...

لقد أقام جلالتي ثلاثة أبواب. (اسم) الأول: «من خير رع و آمون يتمتعان بمكانة مقدسة». والثانى: «إن حظوة من خير رع ثابتة بجوار آمون». والثالث: «عظيم هو مجد من خير رع و آمون». كانت (الأبواب الثلاثة) مكفتة بالذهب الخالص.

(*) الصف registre: تقسيم أفقى فى الزخارف الجدارية المصرية، ينقسم بدوره إلى عدد من اللوحات. (المترجم)

بيانات معبد الكرنك

الصرح الأول	1
الصرح الثانى	2
الصرح الثالث	3
الصرح الرابع	4
الصرح الخامس	5
الصرح السادس	6
الصرح السابع	7
الصرح الثامن	8
الصرح التاسع	9
الصرح العاشر	10
المرسى	11
بهو الأساطين	12
مقصورة المركب المقدس	13
فناء الدولة الوسطى	14
الآخ منو (تحتمس الثالث)	15
معبد رعمسيس الثانى الشرقى	16
معبد رعمسيس الثالث	17
فناء الخبيئة	18
معبد تحتمس الثالث	19
البحيرة المقدسة	20
مساكن الكهنة	21
حظيرة الطيور	22
معبد أمنحوتب الثانى	23
معبد خونسو	24
معبد أوبت	25



مسقط أفقى لمعبد الكرنك

(إن عناصر أية بناية تحمل جميعها اسماً محدداً. وهكذا كلما ذكر هذا الاسم كان يعنى ذلك بث الحياة فى الأمجاد التى يعبر عنها. وهذه الأبواب الثلاثة هى أبواب حجرة الحوليات بجوار منطقة قدس الأقداس).

وبفضلها كان بوسع ماعت أن تدخل... لتشيع أجواء العيد فى المبنى. كان (أمون) يبتهج بسبب العبادات التى تخصه. فأفعل ما كان يحبه. كما يتحد بصاحب الجلالة فى الحياة والقوة والسعادة للزمن اللانهائى.

كما أقام جلالتي صرحاً مقدساً كان جزءاً من داخل المعبد (وهو الصرح السادس). كان مكفئاً بالذهب. وأقيمت من أجله باباً شامخاً مشغولاً بخشب الأرز النضر ومكفت بالذهب، ومغشى بالنحاس الأسود الصافى... (?). والبرونز. والاسم العظيم (الذى كان مدوناً) عليه كان من الذهب الخالص والذهب المزدوج والنحاس الأسود...

كانت قواعد الأساطين من الذهب المزدوج، كما صنعت، لتشبه أفق السماء. كان ذلك أجمل من كل ما وجد من قبل...

... ومقاصير من الحجر بأبواب من خشب الأرز النضر، لتضم تماثيل جلالتي فضلاً عن تماثيل آبائى من ملوك مصر العليا ومصر السفلى.

تم توفير إحتياجات الأملاك المقدسة على نطاق واسع:

وأعدّ جلالتي من جديد حديقة لتقديم مختلف الأزهار والنباتات النضرة والجميلة للإله. كما وهب جلالتي الحقول: ١٨٠٠ أرورا (حوالى ٥٠٠ هكتار) (*) لإنتاج القرابين الإلهية. كما وهبت فضلاً عن ذلك أملاكاً أخرى عديدة فى مصر العليا ومصر السفلى.

ووفرت لمعبده... وألحقت به الخدم والخادومات. وحشدت فيه أسرى من بلاد الجنوب والشمال: وهم أولاد زعماء ريتنو وأولاد زعماء خنت - إن نفر، وهو ما أمر به أبى أمون، رب عروش القطرين.

(*) أو ما يعادل ١١٩٠ فداناً. (المترجم)

كما وهبه جلالتي أيضاً بقرات حلوب لتوفير اللبن الطازج على مدار، كل يوم من الأيام وخصّص (الماء) أباريق من الفضة والذهب والبرونز، أعاد جلالتي صنعها من أجله...

كما قدّم له جلالتي أشياء متعددة عظيمة الأهمية:

- إناء كبير من الذهب الخالص ارتفاعه سبعة أذرع....

- (مراكب) ... من الفضة والذهب والبرونز والنحاس. كانت تتألق على صفحة الماء فيغمر لمعانها القطرين، وكأنها النجوم العالقة بجسد نوت.

- كان تمثالي ملازماً لمائدة قرابين من الذهب الخالص...

لقد صنعت ذلك من أجله، وكأنه إبداع من خلق قلبي، تنفيذاً لتوجيهات الإله ذاته، وكأنه عمل (خرج) من بين يدي هذا - الذي - يقيم - جنوب - جداره (بتاح، راعي الصوآغ والحرفيين). ولم يكن قد صنّع شئ مماثل من قبل، في هذا البلد، منذ زمن الأجداد.

كما قدّم له جلالتي زلعتين كبيرتين من الفضة.... وصنعت من أجله العديد من قطع الأثاث المكفّته بالفضة والنحاس الأسود.... وقيثارة نفيسة مطعمة بالفضة واللآزورد والفيروز وكافة أنواع الأحجار الكريمة الرائعة، حتى أتعبد لجمال جلالته إبان إشراقاته المتألقة وفي أسمائه (١٥٠)...

ما نشاهده اليوم في الكرنك، ليس سوى هيكل عظمي من الحجر للمعبد في زمن التحامسة الذي كان مهيباً وضّاء يتألق ذهبه ويتلألأ من غزارة بريق الفضة والبرونز والنحاس، وسطوع ألوان الأحجار الكريمة التي تغطي الصروح والأساطين ومقاصير قدس الأقداس والقطع المقدسة (*). كان معبد الكرنك بأشكاله (١٥١) وألوانه

(*) (الزائر الذي يتجول في أيامنا هذه، في أرجاء الكرنك، إذا أراد أن يشحذ خياله بهذه الرؤية، سوف يشهد معبداً جديداً، بُعثت فيه الحياة، فصار أشبه بما كان عليه، في أوج ازدهاره. (المترجم)

مختصراً موجزاً للكون. كان «طريقاً» آخر تسلكه الشمس. وعلى الأساطين الأربعة التي أضافها تحوتمس الثالث إلى قاعة الأساطين(*)، أمر بتدوين الجملة الآتية: «الكرنك ثابت ثبات السماء، على عُمدها الأربعة». كل شئ هنا قائم على علاقات التماثل والتوافق والروابط الأسطورية، في إطار فكر يرى أن أعمال «البناء والتشييد» لا تختلف عن عمل الإله الخالق. فيُقبل المصري على محاكاة هذا الفعل الأخير، لتظل أيضاً المباني التي يشيدها أبدية تغالب الزمن، أسوة بعالم اليوم الأول.

كما تشهد أيضاً، على التوافق الذي ظل قائماً بين الآلهة والملوك. فيقدم آمون الشكر على كل هذه الروائع التي جعلت من الكرنك، أحد الأماكن المقدسة الأكبر والأكثر ثراءً، على مستوى العالم:

مرحباً، مرحباً، في سلام، يا بنى الذى من صلبى، أيا محبوبى من خير رع.
إن قلبى سعيد بسبب الحب الذى تكنه نحوى. إنى أستريح فى هذا الأثر الذى شيدته من أجلى، لقد جمّلت معبدى. إنى أمنحك ميراثى على امتداد حياتك وبالقوة، فتستحوز على القطرين بفضل القدرة، بينما تتجلى متألقاً مثل أبيك رع (١٥٢).

وإلى جوار معبد آمون - رع العظيم فى الكرنك أقام تحوتمس الثالث معبدأً أُملى تصميمه مفهوم له سماته الخاصة. وأسماءه آخ - منو أى «البناء المتألق». تم افتتاحه «فى اليوم الأخير، من الشهر الثانى، من فصل برت»(**)، من العام ٢٤، يوم العيد العاشر من أعياد آمون فى الكرنك»(١٥٣)، وذلك استناداً إلى النص الوارد على لوح حجرى تذكارى. ويرى پول برجيه Baul Barguet (١٥٤) أنه معبد مخصص لتجديد العاهل الملكى وإحيائه. فيتصل شخص الملك إتصلاً مباشراً بأبيه آمون - رع الذى

(*) وهى بالطبع غير بهو الأساطين الذائع الشهرة الذى أقامه سيتي الأول ورعمسيس الثانى بين الصرحين الثانى والثالث. أما قاعة الأساطين المقصودة هنا، فتقع بين الصرحين الرابع والخامس. راجع:

J.C. Golvin et J.C. Goyon. Les Batisseurs de Kamak. CNRS. 1987. PP. 63-

64(المترجم)

(**) وهو فصل البذر أو الشتاء. (المترجم)

يمدّه بجوهره الإلهي، في مجرى الإحتفالات الدينية السرية التي تحدث إبان العيد سد، وهو العيد اليوبيلي الذي يمنح الملك بصفة دورية، القدرة على تجديد حيويته وشبابه^(١٥٥). لقد أقيم هذا البناء إلى الشرق من المعبد الكبير، على المحور الشمالي الجنوبي، وهو إذا صح التعبير قلب القسم المخصص لأجنحة قدس أقداس الكرنك والذي تدور فيه الشعائر التي تقيم رابطة حميمة، بين الله والفرعون. وتسعى هذه المشاهد وهذه النصوص، إلى تخليد هذه العملية التي ترمى إلى إعادة النشاط إلى العاهل الملكي وإنعاشه، فضلاً عن تخليد هذه المشاركة مع الإله.

وأمام مدخل هذا البناء الشامخ، أقيم أسطوانان من الحجر الرملي نوا ستة عشر ضلعاً، يطلق عليهما اصطلاحاً البروتودوريان^(*) Protodoriques. ومن الباب ذاته، لم يتبق سوى العتبة، وهي من الجرانيت الوردى. وعلى الجانبين كان تمثالان عملاقان يصوران الملك مرتدياً الملابس اليوبيلية. وبعد أن يعبر المرء الباب، يصل إلى دهليز يفضى إلى حجرتين واحدة في الشمال والأخرى في الشرق. وعلى اليمين، أى جهة الجنوب، كان دهليز طويل يؤدي إلى تسع حجرات مخازن تزدان بمشاهد التعبد والقرايين. ونُحت نص مسهب فوق واجهة الحجرات الست الأولى. فبعد أن ينتهى الإله تحوت، الكاتب الإلهي، من قراءة مرسوم آمون - رع لصالح تحوتمس الثالث، على مسامع آلهة مصر العليا ومصر السفلى، بدأت هذه الأخيرة تردّ على ما قيل:

لقد حضرنا إليك، يا [سيد كلمات] الآلهة، القائم في حسرت (مكان عبادة تحوت)، لقد لحقنا بك بعد أن تحدثت إلينا، كما أننا سعداء الآن، لأنك استعنت بنا. لقد استمعنا إلى هذا المرسوم الذي أصدره آمون - رع لصالح ابنه من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، محبوبه تحوتمس، الحاكم الإلهي وحاميه الذي أشرق في طيبة وخليفته الملكي له الدوام، إنه ابنه، الإبن البكر (حرفياً: هذا الذي فتح بدنه) ووريثه الذي بلغ حد الكمال ورب القطرين من خير رع. إننا نطهر مكان وجود صاحب

(*) مصطلح بروتودورى يعنى الطراز النورى الأولى أو السابق عليه. والطراز النورى من الطرز المعمارية اليونانية. (المترجم).

الجلالة، إننا نربط من خلفه حمايتنا السحرية، إننا نعبد جماله المتألق، إننا نجتمع من أجله كافة القرابين، تنفيذاً لمرسوم آمون لصالح ابنه من خير رع للزمن اللانهائي^(١٥٦).

الجدار الشمالي من الدهليز مزخرف بمشاهد تصور مختلف فقرات العيد اليوبيلي(*) وهكذا فمنذ لحظة دخوله هذه المقصورة، تتم مراسم تنصيب الملك وإضفاء القداسة عليه، بفضل الشعائر الدينية ومن قبل الآلهة.

يتكون وسط أخ منو من بهو كبير طوله ٤٠ متراً، نطلق عليه "بهو الأعياد". وقد شُيّد بالكامل من الحجر الرملي. إن ٣٢ عموداً مربعاً تحيط به، لتشكل حدود صحن شاسع، يتكون من صفين من عشرة أساطين لكل صف، وترفع سواكف السقف. وتتخذ التيجان شكلاً مميزاً يحاكي أوتاد الخيمة(**). إن مكعباً يفصل التاج عن الساكف. ولأن السقف صورة من السماء، فهو باللون الأزرق ومرصع بنجوم صفراء، فالنحاس هو المادة التي تتكون منها النجوم^(١٥٧). إن مجمل الأعمدة والأساطين تقسم البهو إلى خمسة أروقة، ويرتفع سقف الصحن قليلاً مقارنة بسقف الجناحين الجانبين ليلتزم بالتخطيط البازيليكي الذي سيسود في عصر الملوك الرعامسة(***)، وتعتمد الإنارة الداخلية على الكوات الجانبية التي فتحت قرب سقف الصحن.

تلتزم المشاهد المنحوتة باتجاه له وجاهته ودلالته. وبالفعل فإن المحور الغربى الشرقى للمعبد الكبير يقسم بهو الأعياد هذا، تقسيماً إفتراضياً إلى قسمين، يتجه أولهما ناحية الجنوب والآخر ناحية الشمال. إنهما الإتجاهان الرئيسيان للنظام الملكى المصرى ويقومان بدور بارز فى المشاهد الطقسية. إن أخ - منو ليس بناية مستقلة عن المعبد الكبير. إنه إضافة مادية وروحية مكملّة له.

وعلى الأساطين نحتت نصوص بعلامات هيروغليفية هي آية فى الجمال. وتدب

(*) (أو العيد سد. (المترجم).

(**) (يطلق على هذه الأساطين مصطلح أسطون الخيمة، ومن أمثلتها الأخرى أساطين مركب خوفو فى المتحف المخصص له خلف هرم فرعون مصر العظيم. (المترجم)

(***) (لينتقل بعد ذلك إلى كنائس الغرب. (المترجم)

الحياة فى مجمع الآلهة المصرية وتتادى بعضها بعضاً، لتتظر بإعجاب إلى عمل تحوتس الثالث:

كلمات قالها تحوت إلى التاسوع الإلهى:

تعال لمشاهدة هذا المعبد الجميل، المتين، الكبير، المفعم بالبركة الذى أقامه من أجلك، ابنك المحبوب ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خير رع.

كلمات قالها ملك الآلهة آمون - رع إلى التاسوع المقيم فى أخ - منو: تعال لمشاهدة هذا الأثر الجميل الطاهر الذى أقامه من أجلى ابنى الذى من صلبى، إنه محبوبى من خير رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى خلقتة، منبثقاً من أعضائى، المتفرد من بينكم، إنه ابن رع، تحوتس حاكم طيبة، الذى جعل هذا المكان رائعاً، من أجل الآلهة، أعطوه الحياة والثبات والقوة، مثل رع، للزمن اللانهائى.

كلمات قالها التاسوع المقيم فى أخ - منو إلى آمون - رع، أول الآلهة:

يا لجمال ما صنعه من أجلك، ابنك المحبوب «من خير رع - الذى - أنجبه - رع». لقد جَمَل معبد أبىه آمون - رع بفضل أحجار طرة الجميلة البيضاء. هكذا صرت عظيماً. أجعله يتجدد ليظل شاباً على الدوام، حتى يستطيع العناية بمعبدك والحفاظ عليه. أمنحه سنوات مديدة، مكافأة له، ليظل قلبه سعيداً على عرش حورس مثل رع للزمن اللانهائى.

كلمات قالها آمون - رع ملك الآلهة (إلى العاهل الملكى):

أيا بنى المحبوب، أيا «تحوتس - صاحب - الصيرورات - المتحدة»، الذى شيد معبدى وجَمَل معبدى بواسطة بناية كاملة الكمال. إنك ابنى، حامى أبائك، الذى يكرم الأجداد الذين خلقوك، إنى أعطيك الحياة والثبات والقوة كلها، والإزدهار كله إلى جوارى، مكافأة لك، مقابل هذا الأثر الذى سيدوم إلى الأبد والذى شيدته من أجلى. لبيتك تظل تعمل وأنت على قيد الحياة، على امتداد الزمن اللانهائى^(١٥٨).

إن مجموعتين من الحجرات الملحقه تكشف عن أيديولوجية راسخة الأركان: فالحجرات الواقعة إلى الجنوب الشرقى مكرسة للإله سوكر، وكان فى الأصل الإله

الجنائزى لجبانة منف. إنها مرتبطة بالعالم السفلى. وقد صوّرت مشاهد تشير إلى إحياء الملك بعد وفاته الإفتراضية والعبارة. وفى الشمال الشرقى، كُرسى الحجرات - الشمسية إلى آمون نى العضو الذكر المنتصب، كشاهد على استعادة الملك حياته وتجديدها، على غرار ما يحدث للشمس، على امتداد دورات لا نهاية لها.

إن نصاً مشوهاً للأسف تشويهاً بالغاً، يؤكد على ما كان عليه هذا الأثر العظيم فى الأصل من روعة وبهاء. وما زال فى إمكاننا أن نقرأ أن الأبواب كانت من خشب الأرز والأعمدة والأساطين مغطاة بالذهب الخالص والفضة واللزورد والفيروز. حقاً لقد كان الكرنك «أفق السماء»، متألّقاً بما يشع من ضياء.

وخارج معبد آمون - رع ولكن على المحور شرق - غرب نفسه، ويرتبط به إرتباطاً لصيقاً، أمر تحوتمس الثالث بإقامة معبد آخر ينفّث جهة الشرق، ويستند إلى جدار السور الذى شُيّد فى العام ٢٠. إنه معبد تحيط به الأساطين ويضم حجرة عند الواجهة وستة أعمدة أوزيرية تربطها الجدران، بالإضافة إلى ثلاث حجرات تطوق الناوس الذى قطع قطعاً فى كتلة ضخمة من الألبستر ويظلّ تمثالين يجلسان جنباً إلى جنب ومتصلين عند الكتف. إنهما تحوتمس الثالث الذى دُون اسمه على عروة الحزام وآمون الذى فقد أعلى جزعه. كانت مسلتان شامختان تكتنفان هذا المعبد وقد شيّدتها الملكة حتشپسوت واغتصبتها تحوتمس الثالث.

وفى الكرنك أيضاً، وفور عودته من الحملة العسكرية الأولى، أمر العاهل الملكى بترميم معبد مكرس للإله پتاح يقع إلى الشمال من فناء الدولة الوسطى. أما الأعمال التى تم تنفيذها فيرونها لوح حجرى ضخّم من الجرانيت الأسود ارتفاعه ١٥٠ سم، عثر عليه فى المعبد ذاته ونقل إلى متحف القاهرة.

أمر جلالتي بإعادة بناء معبد پتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره والقائم فى طيبة، ويشكل «محطة» يتوقف عندها أبى آمون - رع، رب عروش القطرين، يوم «دخول الإله»، وإبان كافة الأعياد على مدار السنة، عندما يسير فى إتجاه كنوزه فى الجنوب.

لقد اكتشف جلالتي أن هذا المعبد الذى سبق أن شُيّد من الطوب وبأساطين

وأبواب من الخشب قد تهدم. عندئذ أمر جلالتي بمدّ المطمار عليه(*) ليشيد بحجر رملي أبيض جميل. أما السور المحيط به فهو من الطوب. إنه عمل صنم ليوم للزمن اللانهائي. ومن أجله، أقام جلالتي أبواب من خشب الأرز النضر، ومن أحسن الأنواع الواردة من موانئ البحر المتوسط، وقد غُشيت بنحاس آسيا. هكذا سيعاد تشييد معبد يتاح الجديد، على اسم جلالتي. لم يحدث أبداً من قبلي، أن أنجز مثل هذا العمل من أجله.

كما سمح جلالتي بأن يكون راسخاً متيناً. كما شيدته ضخماً وأكبر مما كان عليه، من قبل. ومن أجله طهرت عرشه العظيم المصنوع من الذهب الخالص ومن أفضل ما أخرجته الصحارى. كانت جميع الأوعية (المقدسة) من الذهب والفضة والأحجار الكريمة المتنوعة والرائعة. كانت الأقمشة من أرق أنواع الكتان الأبيض والأدهان ضمن ممتلكات الآلهة وذلك من أجل إقامة الطقوس الشعائرية، إبان الأعياد (عند الإحتفال) بمطلع كل فصل من الفصول، والتي كانت تقام من قبل في هذا المعبد. هكذا أمر جلالتي بأن يُسمح (للإله يتاح) بأن يأتي ليستفيد راضياً بعرشه، وملأت معبده بكافة الأشياء الجميلة والطيبة بأنواعها^(١٥٩).

وعلى البر الغربى من مدينة طيبة وفى مدينة هابو تحديداً، واصل تحوتمس الثالث بناء المعبد الذى بدأه جدّه تحوتمس الأول - بل ربما أُنحوتب الأول. وفى الوقت الراهن يتوارى المعبد جزئياً خلف المباني الشامخة التى أقامها الرعامسة فى وقت لاحق^(**). إنه جزء من مجموعة أطلال تضاهى مثيلتها فى الكرنك، بما لها من وقع حسن فى النفس. إن تناسق البناية التى تحيط بها الأعمدة تناسق أنيق، وأبعد ما يكون عن الإبتذال. وتتكون أساساً من قدس أقداًس، محاط برواق خارجي، يستند من ناحية الشمال إلى كتلة مكونة من ست حجرات صغيرة تعلو فوق ركيزة ارتفاعها ٧٧سم. وللرواق حوائط نصفية توفر فتحات فسيحة يدخل منها النور. وينتهى

(*) خيط يمدّ على البناء فيبنى عليه. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) وعلى رأسها معبد رععسيس الثالث الجنائزية، المعروف اصطلاحاً بمعبد مدينة هابو. (المترجم)

التخطيط بحجرتين جانبيتين إضافيتين. وقد قام الملك طهرقا السوداني من الأسرة الخامسة والعشرين، بإضافة الفناء والصرح اللذين يتقدمان، فى الوقت الراهن، هذه البناية. كان للمعبد سوره الخارجى الخاص الذى ضمه فيما بعد السور الخارجى الكبير الذى أحاط بمباني رعمسيس الثالث والذى يعلو السور الأول جهة الجنوب. كما قام البطالمة والرومان بتوسيع بناية تحوتمس الثالث التى كانت تحمل اسم «آمون القائم على رأس المكان المقدس».

وفى مصر العليا وفى مصر السفلى على حدّ سواء، أكثر تحوتمس الثالث من المباني المقدسة والهبّات النفيسة إكراماً للآلهة. ففى إلفنتين أقام مقصورة من أجل آمون والإلهتين المحليتين ساتيس(*) وأنوكيس(**). وأخرى من أجل الإلهة نخبت فى الكاب. أما فى أبيدوس فقد أكثر من القرايين المخصصة للإله أوزيريس، وزادها ثراءً. وفى هرمونتيس جنوب طيبة، فإن المعبد الذى كرّسه تحوتمس الثالث للإله المحارب مونتو كان معبداً مهيباً وينظر إليه باعتباره أضخم مباني عصره، وذلك إستناداً إلى العدد الضخم من المدونات التى تحمل اسم الملك. كما صُوّر صرح المعبد فى إحدى مقابر طيبة. وفى كويتوس أقام معبداً من أجل حور - نيج - يت، أى حورس - المنتقم - لأبيه، ومعبد فى هليوبوليس «من أجل أبيه أتوم». وفى العام ٤٧، «أمر بإحاطة هذا المعبد بجدار سميك وعريض جداً وأن يكون بناءً متيناً وذلك من أجل أبيه رع - حور آختى»^(١٦٠). هكذا كان الفاتحون المصريون يخدمون الآلهة ويكرمونها.

معالم النوبة الصرحية

تتجلى الروابط المادية والروحية الوثيقة القائمة بين مصر وأراضيها الإفريقية فى الجنوب، فى إنشاء العديد من المعابد بعيداً، فيما وراء الجندل الأول، من نهر النيل. وفى هذه المعابد كانت تقام الطقوس الدينية نفسها، من أجل الآلهة المصرية والنوبية.

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم سثت). (المترجم)

(**) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم عنقت). (المترجم)

وفى عمدا على البر الأيسر من نهر النيل، أمر تحوتمس الثالث بتشيد معبد «من أجل أبيه رع - حور أختي، الإله العظيم، رب السماء». وقد أكمله أمنحوتب الثانى. إن أبعاده محدودة نسبياً، إذ يبلغ ٢٢ متراً عمقا و٩ أمتار عرضاً و٤٣٨ سم ارتفاعاً. ويتقدم المعبد رواق من اثنى عشر عموداً مربعاً موزعة على ثلاثة صفوف وينتهى بصف من أربعة أساطين بروتودورية. بعد عبور المدخل، يصل المرء إلى قاعة تحتل عرض المعبد وفى مؤخرتها تفضى أبواب ثلاثة، إلى قدس الأقداس الذى تكتنفه مقصورتان جانبيتان ألحقت بهما حجرتان أصغر حجماً.

إن معبد عمدا الذى كانت المياه ستغمره بعد تشيد السد العالى عام ١٩٦٠، قد تم نقله من مكانه ككتلة واحدة لمسافة ٢٦٠٠ متراً. لقد كانت ماثرة من العمل الباهر على الصعيد التقنى، أنجزه الفنيون الفرنسيون، إن هشاشة الرسومات والنقوش الشديدة الرقة التى كان يزدان بها المعبد قد وقفت حائلاً دون تفكيكه(*)، فتم تطويقه بحزام من الحديد الصلب والأسمت المسلح لينقل على خط حديدى، من ثلاثة قضبان، أعد خصيصاً لهذا الغرض(**).

وفى بوهن العاصمة الإدارية للممتلكات المصرية شيد التحامسة معبد الجنوب المكرس للإله حورس المحلى. أما معبد الشمال الذى أقامه أحمس فسيتولى أمنحوتب الثانى ترميمه، فى وقت لاحق. إن معبد الجنوب الذى بدأت حتشپسوت فى تشييده فى موقع سبق أن استخدمه سنوسرت الأول^(١٦١)، قد انتهى منه واستكماله تحوتمس الثالث الذى هشم خراطيش الملكة ووضع مكانها خراطيشه.

لقد شيد من أجل أبيه حورس، رب بوهن، بهو أعياد كبير يدخل الفرح والسرور على القطرين بفضل جماله... وأقام أساطين جديدة من الحجر^(١٦٢).

(*) كما حدث بالنسبة لبعض معابد النوبة الأخرى. (المترجم)

(**) بدأت الرحلة يوم ١٢/١٢/١٩٦٣ وسار الموكب بسرعة ٢٥ متراً (هكذا: خمسة وعشرين متراً)

فى الساعة ووصل إلى هدفه يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤ على إرتفاع ٤٠ متراً من الموقع الأسمى.

(Guides Bleus. L'Egypte. Hachette. 2002. P. 444). (المترجم)

واهتم نائب الملك نحي بنحت على أحد أعمدة المعبد نص يمجّد النصر الذي تحقق فى العام ٢٢، من عهد الملك، وأثناء عودته المظفرة من حملته العسكرية الأولى:

فى العام ٢٣، من عهد جلالة حورس، الثور القوى الذى يتجلى متألّفاً فى طيبة، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خپر رع، محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين الذى يسطع فى وجه (البشر) مثلما يسطع القرص (أتون). ويدخل نوره جواً من الأعياد على القطرين، كما يحدث عند شروق الشمس فى أفق السماء. إنه الإله الكامل، رب الفرع والسرور، ابن رع: تحوتمس، صاحب الصيرورات الكاملة، محبوب حورس سيد بوهن.

(من خلال التوزيع القطن للكلمات يقف كل من آمون - رع وإله بوهن على خط متوازن توازياً مطلقاً) ويحدث بعد ذلك «تبادل» بين الإله النبوى والملك، من خلال خلط مفردات الوصف والأحاديث.

لقد انضم إلى آلهة تأسوعة حتى يُخلق الملك فى أبدانها. فمن أجله «أعاد الإخضرار» إلى ميراثه، بينما كان لا يزال فى بطن (أمه). كان يعرف ضرورة أن ينطق بنبوءة بشأنه، حتى يثبت تاجاه، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى، على عرش حورس الأحياء، ثباتاً راسخاً لصالحه. لقد وضع خوفه لدى سكان بلاد فينقيا وخلق رعبه فيهم.

- أنا الملك الذى أتى به إلى الوجود، أنا ابنه المحبوب الذى خلقه من أجله، ولذلك، فإننى أشيد معبده، وأبنى معلمه الصرحى، تماماً كما أتاح لى أن أستحوذ على الشاطئين. فالابن يسعى إلى ما يفيد أباه، فيظل يقظاً منتبهاً إلى من انبثق منه، جاعلاً أسمائه تحيا، خالقاً قرابينه، جاعلاً أيضاً اسم كل إله يحيا، ومجدداً ولادته بفضلهم...

والآن، فكل ما يضيئه القمر وكل ما يحيط به قرص الشمس (أتون)، عندما يتألق، وكل ما يلتف من حوله جب ونوت، قد وضعها فى دائرة ساعديه. ويقف صاحب الجلالة عند مدخل الأرض، على أهبة الإستعداد للقضاء على الأسيويين.

- أنا الثور القوى الذى يتجلى فى طيبة، أنا ابن آتوم، ومحبوب مونتو، أنا الذى يحارب بشخصه، فى مقدمة جيشه، حتى يشاهده القطران. إنى لا أقترف هنا كذباً، لقد خرجت من معبد أبى آمون ملك آلهة، الذى خصنى بالنصر.

لقد سلك الملك شخصياً هذا الطريق، وجيشه المقدام أمامه، مثل وهج الذهب. إنه ملك يحارب بساعده القوى، إنه بطل لا مثيل له، زابحاً الأجانب، داهساً الريتو بقدميه، مصطحباً زعمائهم أسرى ومركباتهم الحربية المطعمة بالذهب المقيدة بجيادهم. يمكن حصر أبناء ثحنو الذين يأتون منحنين بسبب مجد صاحب الجلالة، حاملين جزيثهم على ظهورهم، إنهم كلاب تتصرف كالكلاب، لتعطى لهم نسمة الحياة. إنه الإله الكامل، الجسور اليقظ، رب الإشراقات المتألقة مثل حورس، فى الأفق والذى يشيع خوفاً شديداً وتبقى هيئته فى قلب الأراضى الأجنبية، بعد أن أصبحت كافة البلدان خاضعة لسلطانه وتجمعت الأقواس التسعة تحت نعليه^(١٦٣).

هنا يصل اندماج الآلهة فيما بينها إلى أقصى درجاته. فالملك ابن آمون - رع وابن آتوم، هو أيضاً فى هذا المعبد ابن حورس المحلى فى بوهن. وفى النصوص المنحوتة فى معابد النوبة وأكثر من أى مكان آخر، يمكن أن ندرك هذا التسامح الدينى الطبيعى فى العصور القديمة، وهذه الحرية الدينية والروحية التى كان يمارسها البشر على نطاق واسع فى هذا الزمن. كما أن هذه المدونات كانت تهدف إلى صرف الأهالى عن القيام بأى تمرد سياسى محتمل. كان العاهل الملكى ابن آلهة مصر والآلهة المحليين والقائد العسكرى المنتصر فى آسيا وليبيا، فأخذ يكشف عن نفسه، بصفته السيد الطبيعى للأراضى الجنوبية، بعد اضافة ما يثيره من خوف إلى ألوهيته، إضافة مفيدة. هكذا نلتقى بالأيديولوجية الإمبراطورية للتحامسة وقد أخذت تعبر عن نفسها بأشكال متنوعة وفى مختلف الأماكن^(١٦٤).

كما شُيِّد فى سمته معبد بُنى بالحجر الرملى من أجل الإله النبوى «الوطنى» ديدون. وسوف يسمّى تحوتمس الثالث بإبن الإله، ابنه «الذى من صلبه». وجنباً إلى جنب مع الشعائر التى كانت تقام من أجل ديدون، أقيمت الشعائر من أجل سنوسرت

الثالث(*) الذى كانت أعماله فى النبوة على قدر كبير من الأهمية. وفى قمة على الجانب الآخر من النهر، أقام تحوتمس الثالث أيضاً معبداً فريداً فى بابه. كان يتكون من مستطيل كبير من الطوب، ويزدان من الداخل بجدران من الحجر الرملى المزخرف. أما قدس الأقداس الذى يحتل الجانب الغربى من مؤخرة المبنى، فكان مزبوجاً ومكرساً للإله خنوم إلفنتين وسنوسرت الثالث.

مسلات العالم

إنها أربع مسلات أقامها تحوتمس الثالث، تنتصب فى الوقت الراهن بالمدن الرئيسية، فى أوروبا وأمريكا.

أقيمت أقدمها، بعد عبور القرات فى العام ٢٢، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك وتوجد حالياً فى إسطنبول، لتعلن لدى الأتراك عن أمجاد آمون وشرف منزلته. إنها مسلة من الجرانيت كان هريمها من الذهب الخالص، فكان يمتزج فى زمن إزدهار طيبة بتألقات الشمس وإشعاعاتها، «كامتداد» لها على سطح الأرض، امتداداً دائماً، يغالب الأيام. وعلى جوانب المسلة الشمالى والشرقى والغربى يلقب العاهل الملكى، على التوالى بالصفات الآتية:

● هذا الذى نشأه أتوم عندما كان طفلاً على ساعدى نيت، الأم الإلهية، ليصبح الملك الذى يستحوذ على كل الأراضى، للزمن المديد، إنه رب أعياد اليوبيل.

● سيد القوة الذى يربط البلاد جمعاء، الذى يرسم حدوده عند بدايات الأرض وحتى مستنقعات نهاريينا.

● هذا الذى يعبر الشية الكبرى فى نهاريينا، فى بسالة وقوة على رأس جيشه، لينزل المذابح الرهيبة بين أعداء هذه المنطقة الأجنبية(١٦٥).

أما المسلتان اللتان أقيمتا فى معبد هليوپوليس، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك، فموجودتان فى الوقت الراهن، الأولى فى لندن والثانية فى نيويورك.

(*) من الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

وفى روما فى ميدان پيازا دى لاتيرانو Piazza di Laterano وقبالة كنيسة سان - چان Saint - Jean تقف شامخة وممشوقه المسلة الوحيدة التى أقامها تحوتمس الثالث قرب نهاية حياته أمام معبد آمون - رع الكبير، فى الكرنك وقام حفيده تحوتمس الرابع على كل حال بإكمالها. وفى هذا المكان وفى تجاور مستديم، تتجابه طيبة وروما اللتان كانتا ذات يوم، سيدتا العالم. الشرق فى مقابل الغرب، والديانة الوثنية فى مقابل ديانة سماوية منزلة. وفى النصوص المدونة تأكدت ألوهية الملك بشكل مطلق. ففرعون هو...

... ابن آمون الذى من صلبه؛ الذى ولدته من أجله الإلهة موت فى إيشرو، ليشكل جسداً واحداً مع من أنجبه (١٦٦).

* * *

أكمل الملك زمن حياته التى امتدت لسنوات عديدة وسعيدة (تميزت) بالبسالة والقوة والإنتصارات - منذ السنة الأولى من عهده، وحتى العام الواحد والخمسين، فى عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خير رع، الصادق القول (*). عندئذ ارتفع إلى السماء ليتحد بقرص الشمس (أتون)، واختلطت أعضاء الملك الإلهية بأعضاء خالقه.

عندما ابيضضت الأرض عند الفجر (من اليوم التالى)، وبزغ فجأة القرص المتوهج (أتون) وإذ كانت السماء ملساء متألقة كالزيت، عندئذ أقيم ملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخيرو رع، ابن رع : أمنحوتب، حاكم طيبة، على عرش أبيه مبتهجاً بالقباه الجديدة (١٦٧).

هكذا تحدث القائد آمن إم حب، رفيق الملك الوفى، فى ثنايا مسرد سيرة حياته.

كان تحوتمس الثالث قد مجّد منصب الملك، وعظّم من شأنه، تاركاً لابنه إمبراطورية مترامية الأطراف.

(*) فالمتحدث هو أحد رفاق الملك. (المترجم)

المقبرة الملكية

نحن فى وادى الملوك، فى عمق تجويف بصدع الجبل، يضيق حتى لا يتجاوز عرضه المتر الواحد، وعلى ارتفاع حوالى عشرة أمتار، فوق مستوى سطح الوادى، هنا توجد مقبرة الفرعون الإمبراطورى، وهى المقبرة رقم ٢٤ من مقابر وادى الملوك. وبعد دهليز طويل هابط تعترضه بئر، حُفرت فى صخر الجبل قاعة كبيرة يستند سقفها على عمودين مربعين. ولن تغيب عن هذا المكان الحماية الإلهية اللازمة للعاهل الملكى فى العالم الآخر: فمن واقع الرسومات التى تزدان بها الجدران، أمكن إعداد قائمة تضم ٧٤٠ كياناً إلهياً. وفى أحد أركان القاعة، نصل من خلال فتحة عريضة إلى سلّم يفضى إلى قاعة فسيحة (٩×١٥م)، يستند سقفها على عمودين مربعين. وأركان القاعة مستديرة، فيتخذ شكلها هيئة خرطوش ملكى ضخّم. وتغطى الأعمدة والجدران رسومات تميل أحياناً إلى الأسلوب التنقيطى وهى مشاهد تصور قيام الإلهة شجرة الجميز، بإرضاع الملك. إن علامات هيروغليفية مبتسرة تنسخ نص كتاب ما هو فى الدوات، وهو من الأسفار الملكية التى تروى رحلة العاهل الملكى فى العالم الآخر، فيتوقف نجاحها على الإرشادات القائمة على معرفة التعاويذ المقدسة، على أحسن وجه.

وفى مؤخرة القاعة يرقد فوق قاعدة من الألبستر تابوت من الحجر الرملى الأحمر ولكنه مفتوح وخاوي، وعُثر على مومياء تحوتمس الثالث فى «خبيئة» الدير البحرى^(١٦٨). حيث نقلت فى زمن الأسرتين العشرين والحادية والعشرين، بمعرفة كهنة أتقياء ورعين، تجنباً لأعمال النهب والسلب.

إن وجه المومياء مجرد جلد على عظم وأنفها ضخّم مقوس، وتحفظ بمسحة المشرحة، وزهو وإباء زمن الحياة.

الفصل السادس

أمنחותي الثاني

نصير الإمبراطورية

الحورس: الثور القوى، صاحب البسالة المجيدة.
السيدتان: ذو(٠) الطاقة الدافعة، الذي تُوج في طيبة.
الحورس الذهبي: هذا الذي يستحوذ على كافة الأراضي بفضل قدرته.
ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپورع (أى «عظيمة هي صيرورات رع»)
ابن رع: أمنحوتب (أى «ليت آمون يكون راضياً»)
(نلتقى بعد ذلك بصفتين تتغيران حسب العصور^(١)): «الملك حاكم طيبة» و«الإله حاكم هليوبوليس».)
أمنحوتب الثانى الذى تسلم مقاليد السلطة الملكية عام ١٤٥٠ ق.م، على وجه التقريب، كان ابن تحوتمس الثالث والملكة حتشيسوت - مريت - رع^(**).
عند وفاة أبيه، كان الأمير ولى العهد فى مدينة منف على ما يعتقد، فكان منصبه ككاهن سم، يقتضى ذلك، وربما ارتبط بهيئة كبار كهنة الإله پتاح^(؟)، فكان وضعه مماثلاً لوضع الأمير چحوتى - مس^(***) بن أمنحوتب الثالث فى زمن لاحق، أو لوضع خع إم واست ابن رعسيس الثانى، وهو أشهرهم، بالنظر إلى ما نعرفه عنه.
من المرجح، أن الأمير الشاب - وكان آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره على ما يعتقد - قد ساهم فى تصريف أمور حكومة إمبراطورية والده، بصفته شريكاً فى الحكم. واستمر هذا الوضع بلا شك، لأكثر من سنتين^(٢). وهو ما يؤكد على ما يبدو بعض الشواهد: فقد ظهر اسم الأب والإبن جنباً إلى جنب، لأكثر من مرة على

(*) الملك هو المقصود. (المترجم)

(**) أو حتشيسوت الثانية، ابنة تحوتمس الثانى وحتشيسوت. راجع مطلع الفصل الرابع.
(المترجم)

(***) اعتاد الإغريق أن يصحفوا هذا الاسم وأمثاله إلى تحوتمس. (المترجم)

الساكف نفسه، فوق بابين من أبواب معبد عمدا^(٢)، وعلى باب مقبرة الضابط أمن مس^(٤)، كما كان الحال بالنسبة لكل من حتشيسوت وتحوتمس الثالث. وفي مقبرة ديدى رقم ٢٠٠(*)، وكان المشرف العام على صحارى غرب طيبة، صُور المكان وقد تربعا على العرش، جنباً إلى جنب، وهما يشاهدان إستعراضاً عسكرياً.

وفور إعلان وفاة تحوتمس الثالث، ابهر الوزير رخ مى رع، هابطاً النيل فى اتجاه منف فى حين هم أمنحوتب بعد أن أحاطه الموفدون علماً بما حدث، صاعداً النهر على جناح السرعة، فى اتجاه العاصمة. والتقىا عند بلدة حت - سخم، على بعد ١٠٠ كم تقريباً شمال طيبة. ويقوم الوزير فى صحبة كبراء البلد وأعيانها، بتقديم «باقة من أزهار آمون» إلى وريث العرش، تعبيراً رمزياً عن حيوية الأسرة الحاكمة التى تتجدد مثل النباتات^(**)، ويزف منذ هذه اللحظة، بشرى إستقبال الملك الجديد، من جانب إله الكرنك. لقد نحتت المشاهد والنصوص فى مقبرة رخ مى رع: فيستقبل العاهل الملكى الجديد الوزير الذى يرتدى حلة الإحتفالات، وحول عنقه القلادة الذهبية العريضة، وهى من إنعامات الملك. وفى أعقابه يسير الخدم حاملين القرايين من طعام وأزهار^(٥).

وتظل طيبة فى عيد إكراماً للفرعون الشاب:

إن الفرح والسرور يملك خدام آمون. وتجمع سكان المدينة مغتبطين مهللين. إنهم يقدمون التحية لملك القطرين ويهتفون له. ويذكرون نعمة حورس صاحب الساعد القوى... ليت ماعت تتحد بابنه فى الحياة والقوة، (ابنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى عا خيروع. ليتها تسمح بأن يتم ملايين السنين، مثل رع للزمن اللانهائى^(٦).

(*) فى منطقة الخوخة بالبر الغربى من الأقصر. (المترجم)

(**) ما زلنا نقدم باقات الأزهار والورود فى كثير من المناسبات السعيدة بل وفى حالات المرض والوفاة، وإن فقدت هذه العادات دلالتها الرمزية. (المترجم)

وفى البداية قدّم أمنحوتب الشكر لأبيه ذاكرًا نعمه، وهو ما تقتضيه مشاعر
البر بالوالدين. واحتفظ الدهر بالشواهد على ذلك.

إن كتاب الموتى الذى عثر عليه بجوار جسد تحوتمس الثالث، دُوّنت عليه
العبارات الآتية:

إن ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپورع،

ابن رع: أمنحوتب،

قد أعدّ من أجل أبيه،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپورع،

ابن رع: تحوتمس،

(أعدّ له) كتابًا ليُجعل بآءه ممجدًا^(٧).

وطلب القائد أمن إم حب، بأن يصوّر فى مقبرته مشهد يبرز الملك الشاب وهو
يقدم الشكر لأبيه. وقد صُوّر الابن الملكى فى هيئة أوزيريس جالساً على عرش. وخلف
الفرعون، يقدم أمن إم حب وزوجته الطعام وباقات الزهور، وهى القرابين الدائمة،
واهبة الطاقة الحيوية ورموز دوام الحياة، إلى الأبد.

وعلى امتداد سبعين يوماً، وهى الفترة التى تستغرقها عملية التحنيط لوقاية
الجسد من التحلل، كانت الحياة السياسية تتوقف، على ما يظن. ثم يقوم الابن بنقل
جثمان العاهل الملكى المتوفى إلى بيت الأبدية فى وادى الملوك، وسط صراخ الندابات
ونواح الشعب الذى احتشد بهذه المناسبة. وبعد ذلك يتسلّم الفرعون مقاليد السلطة
على نحو فعلى، مع الإحتفاظ إلى جانبه، بعدد كبير من رفاق والده الأوفياء، فى
الجيش وفى الجهاز الإدارى، على حد سواء. ومن جديد يعمّ الفرح والسرور ربوع
العاصمة بمناسبة تتويجه.

١- ملك قدير، قوى الشكيمة أو الأسطورة التي لا تُقهر

لقد انتقلنا مع التحامسة، إلى عصر الفراعنة الرياضيين المولعين بممارسة الألعاب الرياضية.

كان تحوتمس الثالث ذاته، قد انجز مآثر بارزة تنم عن قوته الجسمانية. فلم يكن له مثيل في تصويب السهام أو في رحلات الصيد، على حدّ سواء. إن لوحاً ضخماً من الجرانيت الأحمر الذي كان قد أقيم على ما يعتقد أمام صرح معبد مونتو في هرمونتيس، وعثر عليه مهشماً إلى عدة أجزاء، في هذه الساحة المقدسة، يروى مآثره العظيمة. ويعود تاريخ هذا اللوح إلى اليوم العاشر، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات من العام ٢٢، من عهد الملك. ومن ثم يمكن القول أن الوقائع المشار إليها قد سبقت بشهرين ونصف قيام العاهل الملكى بأولى حملاته العسكرية إلى آسيا:

إذا أُريد ذكر مآثره بالاسم، وكانت كثيرة جداً حتى يمكن تدوينها كتابةً بالكامل. هكذا فإنه يسدّد سهامه في لوحة تصويب من النحاس، بعد أن شق كل لوحة تصويب من الخشب، وكأنها بردية. ووضع صاحب الجلالة في معبد آمون نموذجاً، أى لوحة تصويب من النحاس المطروق سمكها ثلاثة أصابع (أى سبعة سنتيمترات)، بعد أن استقر فيها السهم الذى أطلقه، فاخترق بالفعل اللوحة بما يتجاوز ثلاث قبضات يد (أى ٢١ سم) من سطحها الخلفى. وذلك حتى يتعرف من سيأتون من بعده على بسالته وقدره ساعديه. إننى أقول بكل دقة ما فعل، بلا خداع أو كذب. لقد حدث ما حدث، بحضور جيشه بأسره. فلا يعتبر هذا الحديث إذن لغواً وثرثرة.

وإذا أراد أن يمضى وقته فى الترويح عن نفسه، يخرج فى رحلة صيد، فى قسم من أقسام الصحراء، فيستحوز على مغنم تفوق أعدادها، الأسلاب التى يعود بها جيشه بكامله. فقتل سبعة أسود عند الرماية بالقوس خلال لحظة. واستولى على اثنى عشر ثوراً برياً، خلال ساعة من الزمن، وعندما حلّ ميعاد تناول الطعام، وضع أذياها خلف (ثوبه). وقتل مئة وعشرين فيلاً فى بلاد نعى، عند عودته من نهارينا. وعبر المياه المتدفقة (الفرات) وسحق المدن القائمة على كل ضفة من الضفتين، وأتى عليها

بالنار للزمن الأبدى. ثم أقام لوحاً حجرياً للنصر على البر الغربى. ورمى بالقوس أيضاً واستولى على خرتيت فى صحراء النوبة الجنوبية^(٨).

كما نجد سرداً لهذه المآثر فى مجال الصيد، على أحد جدران معبد هرموتيس. بل طلب الملك أن يُصوّر الخرتيت الذى تم أسره فى النوبة. ولا شك أن هذا الحيوان كان على قدر كبير من الغرابة، فى نظر المصرى القديم، حتى رأى النحات أنه من المناسب توضيح بكل دقة حجمه بالأذرع والقبضات والبوصات، على الواجهة الشمالية من الجناح الشرقى من صرح المعبد^(٩).

هذا هو وجه آخر، من أوجه الأيديولوجيا الإمبراطورية التى نشأت مع الفتوحات القصية: نقصد بذلك أيديولوجيا البطل الشديد البأس الذى لا يُقهر، وهو ينجز مآثر تفوق قدرات البشر. وملتقى بهذه الظاهرة، فى غيرها من أساطير العالم القديم... أو الوسيط. ففى هذه الحكايات تتداخل الأسطورة والحقيقة الواقعة وتمتزجان.

سوف يواصل أمنحوتب الثانى هذا التقليد المتواتر، إنه «الفهد نو القلب القوى ومحبوب مونتو^(١٠)». كما كان قوأساً مرهوب الجانب. ووقع اختيار أبيه على مين، أمير مدينة ثنى والواحات، ليدربه على استخدام السلاح^(١١). كان الطفل الملكى «يلهو وهو يتعلم الرماية بالقوس فى ساحة القصر فى ثنى». وما زال فى وسعنا أن نقرأ بداية الدرس على جدران مقبرة مين^(*): «سوف تشد أقواسك حتى تصل إلى ارتفاع أذنك...^(١٢)».

وفى عصر العشرين من شهر أكتوبر ١٩٣٦، كان عالم المصريات المصرى سليم حسن، يعمل هو وفريق عمله إلى الشمال الشرقى من تمثال أبو الهول بالجيزة، لإزاحة الرمال التى تراكت عليه، وإذ يظهر فجأة الجزء العلوى الأيمن، مما كان يبدو أنه لوح حجرى. وبعد أن تعمقوا فى الحفر... «اهتزت مشاعرنا عندما أدركنا أننا كشفنا فى حقيقة الأمر، عن لوح حجرى يضم سبعة وعشرين سطراً، لنص بالخط

(*) المقبرة رقم ١٠٩ فى غرب طيبة. (المترجم)

الهيروغليفى. كنّا متلهفين بالطبع، على التعرف على صاحب اللوح. هكذا قمنا بتنظيف الجزء العلوى تنظيفاً أفقياً وسرعان ما استطعنا قراءة خرطوش أمنحوتب الثانى (١٢). كان ارتفاع هذا اللوح الحجرى ٤٢٥ سم وعرضه ٢٥٢ سم وسمكه ٥٢ سم. وفى قسمه العلوى المقوس، ينهض مشهدان ممثالان وجهاً لوجه. فنشاهد فرعون، وهو يقدم إناعى نبىذ إلى تمثال أبو الهول الرابض فى الجيزة وقد أصبح الإله «حورس فى الأفق». ويمتد النص على النحو الآتى بدءاً من السطر الحادى عشر:

ظهر صاحب الجلالة، فى هيئة ملك، إنه صبىّ كامل وقد أصبح جسده على أفضل وجه (*) بعد أن أتمّ العام الثامن عشر من عمره، (ثابتاً) على ساقيه وبأسلاً. كان يعرف كل أعمال موتقو، ولم يوجد قط مثله على أرض المعركة. كان يعرف الجياد حق المعرفة، وليس له مثيل فى هذا الجيش الجرار. فلم يوجد من يستطيع الرماية بقوسه ولا يستطيع أحد، أن يلحق به أثناء عدوه.

ولأنه قوى الساعد، كان لا يعرف الكل عندما يمسك بمجداف كوثل (**) سفينته (المسماة) الصقر والمجهزة بطاقم يتكون من مئتى رجل. فإذا ابتعدوا (عن الشاطئ) وقطعوا مسافة نصف إيتير (أى خمسة كيلومترات) وهم يجدفون، أصابهم الإنهاك وارتعدت أطرافهم واستحال عليهم استنشاق النسمة العلية. ولكن ظل صاحب الجلالة قوياً، رافعاً مجدافه البالغ عشرين ذراعاً طولاً (أى عشرة أمتار) وبعد مغادرة الشاطئ، كان يربط سفينته «الصقر»، إثر قيامه بالتجديف مسافة ثلاث إيتيرات (أى ٣٠ كيلو متراً)، دون توقف. كانت الدهشة على وجوه (البشر لحظة) مشاهدته.

وفعل ذلك (أيضاً). فشَدَ ثلاثمئة قوس قوى، ليقارن بين عمل صنّاعها ويفرق بين الحرفى الأخرق والحرفى الماهر. بل وفعل ما سأعرضه عليكم. فبينما كان يهَمُّ (ذات يوم) بالدخول إلى حديقته الشمالية، اكتشف أن أربع لوحات رماية قد تُبِتت من أجله، وهى من نحاس آسيا وسمكها قبضة يد (أى ٧ سم) وكان عشرون ذراعاً (أى عشرة أمتار) تفصل كل عمود خشبى، عن الآخر. عندئذ ظهر صاحب الجلالة على متن

(*) حرفياً «الذى فى وسعه حصر جسده». (المؤلفة)

(**) مؤخرة السفينة. (المترجم)

مركبته التي يجرها فرسان، (ظهر) مثل مونتو في قدرته. وأمسك بقوسه وقبض على سهام أربعة، دفعة واحدة، ورشقها في لوحة التصويب، مثل مونتو مرتدياً حُلته (حُلّة القتال). خرجت سهامه من خلف اللوحة كما أصابت العمود التالي. حقاً، إنه عمل لم يُقدم عليه أحد من قبل، ولم يتطرق أبداً الحديث إليه من قبل، بمعنى أن يرمى المرء سهماً صوب لوحة نحاسية، فيخرج منها السهم (أى يخترقها) ليقع على الأرض، باستثناء (ما فعله) الملك نو القدرة المهيبة، لأن آمون قد جعل عا خپرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (جعله) ممجداً، إنه البطل الشبيه (بالإله) مونتو.

منذ أن كان لا يزال صبيّاً، كان يحب الخيول ويسعد لوجوده وسطهم. كان قلبه ماهراً فيعلّم كيف يسوسها ويعرف طبائعها، وعلى دراية بفن ترويضها متعمقاً في أحوالها. ولما بلغ ذلك، إلى مسامع والده في القصر الملكي، (والده) «الثور القوى الذي يتجلى في طيبة»، انشرح قلب صاحب الجلالة لسماعه. كان سعيداً لما يقال عن ابنه البكر وتحدث إلى قلبه قائلاً: «سوف يصبح رب البلاد قاطبة. لن يستطيع أحد مهاجمته، لأنه كرّس قلبه للبرسالة ويتحمّس لأفعال القوة. ولكن لا يزال صبيّاً بشوشاً حسن المظهر، ولم يبلغ بعد السن التي تؤهله للقيام بأعمال مونتو، فيجهل رغبات الجسد، إلا أنه يعشق القوة منذ الآن. فالله هو الذي وضع في قلبه (رغبة) العمل من أجل حماية مصر ليصبح على رأس البلاد». وقال صاحب الجلالة إلى الذين بجواره: «تصرفوا بحيث يُعطى له أجمل جواد في إسطبل منف الخاص بجلالتي وقولوا له: كن يقظاً نحوه، ليتعلّم كيف يهابك، اجعله يخبّ في سيره، وامسكه جيداً بيدك، عندما يجمع ويعصاك». وفيما بعد صدرت الأوامر إلى الابن الملكي برعاية خيول إسطبل الملك، وفعل ما أمر به، عندئذ فرح (الإله) ريشيپ و(الإلهة) عشتروت^(١٤) بسببه، في حين كان ينجز كل ما يحبه قلبه. وقام بتربية خيول لا مثيل لها. كان لا يتعب عندما يمسك أعنتها، ولا يتصبب عرقاً عندما ينطلق مسرعاً.

(وذاث يوم) أسرج جياده في منف، ثم توقف لبعض الوقت عند معبد حورس - في - الأفق (أى تمثال أبو الهول الرابض في الجيزة). وقضى برهة هنا، وهو يدور من حوله ويمعن النظر في حسن نظام هذا المعبد الذي كان يخص خوفو

وخعفرع، صادقى القول. واشتاق قلبه أن يعيد الحياة إلى اسميهما. وكنتم هذه الرغبة فى نفسه إلى أن يتم وعد رع (أى الملك).

بعد ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألقاً بصفته ملكاً، وحطّ الصلّ على جبينه واستقرت صورة رع فى مكانها. وكما فى السابق، كانت البلاد فى سلام فى (عهد) سيدها عاخيروع. وحكم الأرضين، وكافة البلدان الأجنبية كانت «مربوطة فى هيئة حزم» تحت نعليه. وتذكر صاحب الجلالة المكان الذى كان قد رُوح فيه عن نفسه، على مقربة من الأهرام وبجوار حورس - فى - الأفق. فأمر بأن يُشيد معبد فى هذا المكان وأن يقام لوح من الحجر الأبيض يحمل اسم عاخيروع العظيم، محبوب حورس - فى - الأفق^(١٥).

إن بطولة العاهل الملكى والعود إلى جوار الأجداد الأقدمين ولحظات التأمل على مقربة من أبو الهول الرابض فى الجيزة وانتظار ما أمره به رع، قد جعلت من أمنحوتب الثانى ملك الأقدار، المرتبط بذرية الأسرة المالكة. إن مغامرة من مغامراته أو نزهة من نزحاته، هى إرهاب لما سيحدث لابنه تحوتمس الرابع^(١٦). إن تقليداً ملكياً متواتراً يلازم صورة أبو الهول العظيم الذى قد يتولى اختيار الملوك وحمايتهم وسوف يستمر هذا التقليد حتى زمن القياصرة^(١٧).

ومنذ الآن نجد أن الآلهة الآسيوية، ونذكر منها هنا الإله ريشيب والإلهة عشتروت، أخذت تدخل مجمع الآلهة المصرية لتندمج فيه بعد مرور قرنين من الزمن. وتضرب جذور فكر الرعامسة فى تصورات التحامسة الذين استهلوا الحركة التليفقية الواسعة التى شملت آلهة الإمبراطورية، كموضوع هام وثابت فى أيديولوجيا الرعامسة.

فى سياق لوح حجرى كبير، بدء أمنحوتب الثانى تدوينه فى العام الثالث من عهده، وطلب وضعه فى القسم المخصص لقدس الأقداس فى معبد عمدا، وكان أبوه قد بدأ تشييده، ثم أكمله هو شخصياً، وفى سياق مدونة مماثلة أيضاً، نحتت على لوح حجرى آخر، جادت به جزيرة إلفنتين ومن مقتنيات متحف فيينا، فى الوقت الراهن - فى سياق هذين النصين يتم أيضاً الإشادة بقدرة الملك وسطوته على الصعيدين

الحربى والإمبراطورى. إن بعض الصور المشار إليها هنا، سوف يستعيدها عصر الرعامسة، فى إطار استمرارية فكرة العامل الملكى، الإله والبطل، خالق الإمبراطورية وسيدها.

الإله الكامل الذى خلقه رع، العامل الملكى المنبثق من بطن (أمه)، فكان قوياً مقتدراً، شبيهه (بالإله) حورس على عرش أبيه. كانت قوته من الشموخ، حتى أن مثيله، لم يأت حتى الآن إلى الوجود، ولا يمكن العثور على من يشبهه. إنه ملك غليظ الساعد إلى أبعد حد. لا يوجد فى جيشه من يستطيع أن يشد قوسه، ولا حتى من بين أمراء البلدان الأجنبية أو زعماء ريتنو، بالنظر إلى عظمة سلطانه، الأعظم من سلطان، أى ملك آخر، سبقه إلى الوجود.

وعندما يطاء أرض المعركة، فإنه يزأر كالفهد، ويتوقف القتال من حوله. إنه قوأس باسل عند الواقعة، إنه السور الذى يحمى مصر، وصاحب القلب الحازم فى الحلبة عندما يسدد ضرباته، فيلوس بقدميه من تمرنوا عليه. ويستولى على كافة البلدان الأجنبية وشعوبها وجيادها، بينما يأتون ومعهم ملايين البشر وقد خفى عليهم أن أمون - رع حليف ملك مصر. وما أن يرى حتى يهمل الجميع مسرعين، لأن الهيبة تتخلل جسده... والبلاد التى ترسم معه حدودها، لا وجود لها، لأنها لا تستطيع أن تحيا، إلا بفضل أنفاسه. إنه ملك الملوك، وأمير الأمراء الذى «يبعد حدود» من يهاجمه. إنه أكثر الجميع بسالة، فمجده يتعاضم، حتى يحاط رع الذى فى السماء علماً، بينما يعود فى يوم المعركة. إن أبناء سائر البلدان الأجنبية والأراضى التى اتحدت لا يرسمون له أى حدود. لأنها تتساقط فى الحال، تحت تأثير لهيبه، الذى يعمل وكأنه نار ملتهممة. ولا أحد يخرج سالماً من المذبحة، مثل أعداء باستت، على درب من أنجبه أمون. وعلى العكس من ذلك، فسعيدة هى أفعال جميع من يعرفون أنه الإبن الحق للإله، والمنبثق من جسده، وأنه واحد معه، ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس (أتون) ومجمل الأراضى وكافة البلدان التى يعرفها، بحيث يستحوذ عليها فى لحظة واحدة منتصراً وقديراً (١٨).

هكذا أخذت النزعة الأدبية الغنائية الحربية فى الإنتشار والتعظيم.

ومن ناحية أخرى ووفقاً لأسلوب مغاير، فإن بطاقة صغيرة من يشب الأخضر، ربما كانت فص خاتم، ومن مقتنيات متحف اللوفر، قد احتفظت بأسلوب طريف، بذكرى الملك القوى المقتدر: فيُصوّرُه نحت رقيق وهو يُشهر عصاً بيده اليسرى فوق أسد يرفعه بيده اليمنى من ذيله، بلا عناء، على ما يبدو. وصوّر الخرطوش الملكى فوق رأس الحيوان، فى حين أن الذيل بشعره المنتصب والمستدير استدارة متناغمة يحيط بكلمة واحدة: «الباسل»^(١٩). إن فخامة عبارات أدب غنائى حماسى، تختلط أحياناً بنزعة إلى الدعابة، وهى من سمات شخصية المصرى القديم^(*).

٢- حملات آسيا العسكرية

إبان الحملتين العسكريتين اللتين شنتا فى العامين ٧ و ٩ من عهده، ضمن أمنحوتب الثانى لمصر، لفترة طويلة، السيطرة على الإمبراطورية التى فتحها جده الأعلى وأبوه.

يساعدنا لوحان حجريان، فى التعرف على وقائع ما حدث آنذاك. أحدهما، وهو أول ما ظهر إلى النور، إذ كشف عنه شامبوليون Champollion جنوب الصرح الثامن فى الكرنك. إلا أنه مشوه للأسف تشويهاً بالغاً. فقد أُلِف بداية، فى عصر العمارنة، ثم تم ترميمه، فى ظل الأسرة التاسعة عشرة، إلا أن أحد أمراء الأسرة الثانية والعشرين أعاد استخدامه كسقف لحجرة الدفن فى مقبرته. أما اللوح الآخر، ويحتفظ به متحف القاهرة، فقد عثر عليه مؤخراً عالم المصريات المصرى أحمد بدوى فى منف^(٢٠). ويقدم كلاهما وصفاً لهاتين الحملتين، فى سياق نصين مختلفين. والنص الذى نقدمه فيما يلى يعتمد على نص لوح منف. ولكن كلما وقّر لنا لوح الكرنك بعض المعلومات الأخرى الهامة، فقد أضيفت، مع مراعاة مكانها فى حيث التتابع الزمنى، ويبنط مايل صغير- بهدف صياغة تقرير كامل واضح، بقدر الإمكان.

(*) ومازالت، (المترجم)

حملة العام السابع

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام السابع، من عهد صاحب الجلالة... (تلى قائمة ألقاب الملك بالكامل) الإله الكامل، شبيه رع، وابن آمون على عرشه الذى «أسسه» الإله بقوة واقتدار، بخلاف ما كان موجوداً فى السابق. لقد ضربت مقمعة البيضاء نهارينا، وسحق قوسه بلد النوبيين. إنه يغزو بفضل ما له، من قدرة وقوة، مثل مونتو الباهر بأسلحته. إن قلبه راضٍ بعد أن شاهداهم، وبعد أن قطع رؤوس أعدائه المفسدين.

تقدم صاحب الجلالة فى اتجاه ريتنو، عند قيامه بحملته الأولى المظفرة، بهدف توسيع حدود مصر وتوزيع الخيرات على الأوفياء المخلصين له. إن وجهه قدير مثل وجه سخمت ومثل وجه ست، لحظة عواصفه.

وصل صاحب الجلالة إلى شاماش أيوم^(٢١). وهناك قام بعمل بطولى فقاتل شخصيا بلا حماية. وهدم المدينة فى لحظة وجيزة، وكأنه أسد متوحش يروح ويغدو فى الصحارى، على متن مركبته (المسماة) «آمون الباسل، هذا الذى يرشد إلى الخير، ولا يصم أذنيه (فى وجه من يتضرع إليه)». قائمة بما أسره صاحب الجلالة فى ذلك اليوم: ٢٥ أسيويا حيا و٢٢ ثورا.

بعد ذلك خاض صاحب الجلالة فى نهر العاصى وكان أشبه (بالإله) ريشيب. وعندما استدار ليتابع مؤخرة جيشه، رأى مجموعة صغيرة من الأسويين يتسللون خلسة، وقد تسلحوا بكافة أسلحتهم، لينقضوا على جيش الملك. عندئذ، نشر الرعب فى ظهرهم، وكأنه الصقر الإلهى محلقاً فى السماء، وتوقفوا^(*) وقلوبهم خائفة (فتساقطوا) الواحد على الآخر، (كل واحد) بجوار رفيقه، ومعهم زعيمهم. لم يكن أحد فى صحبة صاحب الجلالة، كان بمفرده هو وساعده الباسل. عندئذ قتلهم مصوباً نحوهم سهامه. ثم قفل عائداً سعيد القلب مثل مونتو المقدام، بعد أن حقق النصر.

(*) أى الأسويين. (المترجم)

قائمة بما أسره صاحب الجلالة فى ذلك اليوم: أميران وستة ماريانو ومعهم مركباتهم الحربية وجيادهم وأسلحة قتالهم.

(لا شك أنه وصل إلى نهر الفرات، فقد كان الجيش إلى الشمال من مدينة نبي فى نهارينا وهو ما توضحه الجملة التالية)

ثم عاد صاحب الجلالة إلى الهبوط فى اتجاه الجنوب حتى بلغ نبي. فتقدم مستطياً صهوة جواده نحو المدينة. كان أسويرو هذه المدينة - رجالاً ونساءً - فوق أسوارهم يتعبدون إلى صاحب الجلالة. إن أمير نبي وسائر شعبه، كانوا فى سلام مع العاهل الملكى، وكانت وجوههم قد أسرها الإنبهار، بسبب الإله الكامل.

عندئذ سمع صاحب الجلالة من يقول أن بعض الأسويوين الذين كانوا فى مدينة أوغاريت يتآمرون، بل وضعوا خطة لطرد مشاة صاحب الجلالة خارج المدينة والإطاحة بالأمير الذى ظل وفياً له. وعرف صاحب الجلالة ذلك فى قلبه. وعلى الفور، وصل إلى أوغاريت وحاصر جميع أعدائه. وقتلهم ليصبحوا أشبه بمن لم يوجدوا قط، وقد طرحوا أرضاً على جانبهم، رأساً على عقب. ثم عاد فرحاً مسروراً، بعد أن أصبح البلد بأسره ملكاً له. واستراح صاحب الجلالة فى خيمته عند مشارف ثيرخ، إلى الشرق من شيشرم.

(لا نعرف على وجه التحديد مكان هاتين المدينتين والمدن التالية، وربما كانت تقع فيما بين الفرات والبحر المتوسط. ويحدد لوح الكرنك الحجرى تاريخ الوصول إلى ثيرخ باليوم العشرين، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، أى خمسة وعشرين يوماً بعد الرحيل. كان تقدم الجيش سريعاً. وإذا كان استرداد بعض المدن قد تم على جناح السرعة، بعد أن قاومت مقاومة بسيطة، فإن مجمل الأراضى حتى نهر الفرات، كانت خاضعة لفرعون).

ثم سُلِبَت معسكرات منجت ونهبت، ووصل صاحب الجلالة إلى حتيرا. وخرج أمير المدينة، فى سلام مع صاحب الجلالة، وقد أحضر أولاده وكل ثروته. كما خضعت يوقى لصاحب الجلالة الذى وصل هكذا إلى قادش. وخرج أمير المدينة، فى سلام مع صاحب الجلالة، وطُلب منه أن يقسم يمين الولاء والشئ نفسه فعله جميع أولاده، (ودوح) صاحب الجلالة (عن نفسه) برشق السهام فى لوحتى تصويب من النحاس

المطروق، إلى الجنوب من المدينة. وانتقلوا إلى غابة بلدة ريبى وأخذوا يطاردون الصيد ويحوشونه(*) وعادوا بالغزلان والأرانب البرية والحمير البرية بأعداد لاحصر لها. وذهب صاحب الجلالة مع جواده إلى خاشابو (حسبية إلى الغرب من جبل الشيخ، حالياً(**))، وكان بمفرده بلا رفيق. وعاد بعد فترة وجيزة ومعه ٢٦ ماريانو(***) أحياء، على جانبى مركبته و٢٠ يداً (تتدلى) أمام جواده و٦٠ ثوراً تساق أمامه. عندئذ خضعت هذه المدينة لصاحب الجلالة.

وبينما كان هذا الأخير يواصل سيره فى اتجاه الجنوب، التقى داخل سهل شارون بموفد أمير نهارينا حاملاً رسالة من الصلصال معلقة حول رقبته. (إنها لوحة صغيرة من الصلصال دونت عليها رسالة بالحروف المسمارية باللغة الأكديّة وكانت لغة الدبلوماسية فى هذا العصر^(٢٢)). واقتاده أسيراً بجوار مركبته. ثم رحل بجياده عبر مدق فى اتجاه البلد المحبوب، يصطحبه مريانو واحداً أسيراً وممطياً صهوة فرسه (لاشك ليرشده عبر هذا الطريق).

ووصل صاحب الجلالة إلى منف سعيد القلب، مثل ثور مقتدر. قائمة الغنائم: ٥٥٠ مريانو و٢٤٠ من نسائهم و٦٤٠ كنعانياً و٢٣٢ من أبناء الأمراء و٣٢٣ من بنات الأمراء و٢٧٠ من المحظيات التابعات لأمراء كل بلد من البلاد، بحليهن المصنوعة من الفضة والذهب (المعلقة) على أكتافهن والغاية منها الترويح عن القلب. المجموع: ٢٢١٤^(****). فضلاً عن ٤٢٠ جواداً و٧٣٠ مركبة حربية بكافة أسلحة القتال.

عندئذ استطاعت الزوجة الإلهية والزوجة الملكية ابنة الملك... أن تتأمل قدرة صاحب الجلالة^(٢٣).

(*) أى يحاصرونه ويضيقون عليه سبل النجاة. (المترجم)

(**) عند منبع نهر الحسابانى. (المترجم)

(***) الاسم الأسىوى لقواد المركبات الحربية.

(****) هكذا فى الأصل الفرنسى. (المترجم) Pierre Grandet. Ramsès III, Pygmalion, Paris, 1993, p.70 (المترجم)

(****) هكذا فى الأصل الفرنسى. (المترجم)

ربما استغرقت الحملة العسكرية شهراً أو شهرين. لقد بدأت بسرعة متخذةً أسلوب استعراض العضلات، فوصلت القوات إلى نهر الفرات في غضون عشرين يوماً، على ما يبدو، ليتباطأ تقدمها، بعد ذلك. وفي أعقاب بعض المناوشات المحلية، خرج أمراء المدن من حصونهم لاستقبال فرعون وجيشه، بدءاً من نبي على نهر الفرات وحتى قادش الغادرة، في وادي العاصي. بل كان في وسع العاهل الملكي أن يمارس هواياته المفضلة كالصيد والرماية بالقوس. كانت هيبة فرعون عظيمة، وتبدو أركان الإمبراطورية راسخة. وحازمة كانت أيضاً قبضة العاهل الملكي القوى الشكيمة. وفي نص اللوح الحجري القائم في معبد عمدا وصنوه في إلفنتين نجد وصفاً للمصير الذي كان يدخره أمنحوتب الثاني للأمراء السبعة المتمرين في إقليم تيخيسي بسوريا:

عندما عاد صاحب الجلالة إلى أبيه آمون، وقتل بمقمعته البيضاء ذاتها، الأمراء السبعة الذين كانوا في إقليم تيخيسي، وضعت رؤوسهم إلى أسفل، عند قيادام مركب صاحب الجلالة الذي كان يسمى «عاخپورع»، هو مثبت القطرين». وعلق ستة من هؤلاء الأعداء أمام أسوار طيبة وذلك فضلاً عن الأيدي. أما جسد العدو الأخير فقد نقل على متن سفينه إلى الجنوب حتى النوبة، ليعلق هناك عند أسوار نپاتا (أي الجندل الرابع!) لتصبح إنتصارات صاحب الجلالة واضحة جلية للزمن الأبدى وللزمن اللانهائي، في كل الأراضي وفي كافة بلاد النوبيين. لأنه كان قد بسط سيطرته على شعوب الجنوب وربط شعوب الشمال وتخوم الأرض بأكملها التي يسطع عليها رع. ورسم حدوده كما يرجوه، دون أن يستطيع أحد صدّ ساعده، تماماً كما أمر به أبوه آمون - رع، رب عروش القطرين^(٢٣ مكد).

حملة العام التاسع

وبعد انقضاء سنتين، عاد أمنحوتب الثاني إلى أسيا. من المحتمل، أن بعض الأخبار عن محاولة تمرد أو دسياسة ميقانية، قد وصلت إلى مسامع فرعون، ترتب عليها ضروره وجوده بصفة عاجلة، لأن الجيش قد تحرك في فصل غير مألوف، نغنى

بذلك نهاية الشهر الثالث من فصل الفيضان(*)، عندما يصبح وجود الرجال ضرورياً للعمل في الحقول. فقد كانت معظم الحملات العسكرية تتحرك إبان فصل الجفاف وبعد الحصاد. وتراعى أمون في الحلم للملك ليرشده فيما ينويه. وحدثت من جديد إشتباكات محلية، في مدن سوريا الشمالية، أمكن تجاوزها بسرعة - ثم جاءت سهرة الإستعداد للمعركة المخيفة عند نهر العاصي:

في اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام التاسع، من سنوات الحكم، زحف صاحب الجلالة على بلاد ريتنو، إبان حملته الثانية المظفرة. ووصل إلى مدينة أبهق (ربما رأس العين في فلسطين الحالية) التي خرج أميرها في سلام بسبب قدرة فرعون العظيمة. ثم رحل صاحب الجلالة بجياده وعدة حربه في اتجاه مدينة يحم (يما الحالية عند السفح الجنوبي لجبال الخليل^(٢٤)). وأغار على معسكرات ميبسن وخيتن، المكانين الواقعين غرب سوخو (وهي من مدن شمال سوريا). وهب الملك لينقض، وكأنه صقر إلهي، بينما تطير جياده وكأنها نجمة في السماء. ودخل صاحب الجلالة (في المدينة). عندئذ اقتاد أمراؤها وأولادها ونساءها أسرى، وفعل الشيء نفسه مع سكانها. (كما نُقلت) كافة ثرواتها بلا حدود وقطعانها وجيادها وأفضل مواشيها بالكامل.

ثم استراح صاحب الجلالة. عندئذ جاءه أمامه، في المنام جلالة هذا الإله العظيم أمون، رب عروش القطرين، ليشد من أزر ابنه عاخيورع، لأن أباه أمون - رع، يضمن الحماية السحرية لجسده ويحرس الملك.

ومع تباشير الفجر، انطلق صاحب الجلالة من جديد على متن مركبته ليتصدى لمدينتي إيتيرن ومجدل - يونت. فاكسحهما اكتساح سخمت، ومثل مونتو مدينة طيبة. فاقتاد ٣٤ من أمرائها و٥٧ ماريانو و٢٣١ آسيويًا أحياء و٣٧٢ يداً و٥٤ جواداً و٥٤ مركبة، بكل أسلحة القتال وجميع رجال ريتنو الأقوياء وأولادهم ونسائهم وكل ثرواتهم. وعندما تأمل صاحب الجلالة هذه الغنائم الطائلة، شدَّ الأسرى في الوثاق وحُفر من حولهم خندقان ملئاً ناراً. وظل صاحب الجلالة يحرسهما إلى أن ابيضت(**)

(*) (علماء بأن كل فصل من فصول السنة المصرية يتكون من أربعة أشهر. (المترجم)

(**) (ونقول حالياً عبارة شبيهة: «الخط الأبيض» أي «أول ضوء الفجر». (المترجم)

الأرض، وفي يمينه بلطة القتال. كان وحيداً، لا يرافقه كائن من كان، في حين ابتعد جيشه، على مسافة كبيرة، حتى يتمكن من سماع نداء فرعون.

عندما أبلغ فجر اليوم الثاني، رحل صاحب الجلالة، عند الإصباح، ومعه جياده مزدانة بـ**بُحلى مونتو**، في يوم عيد تتويجه الملكي. وتم اكتساح مدينة أناحرث وسلبها.

قائمة بما أسره صاحب الجلالة بمفرده في هذا اليوم: ١٧ ماريانو أحياء و٦ من أولاد الأمراء و٦٨ أسيوياً أحياء و١٢٣ يداً و٧ جياد مسرّجة و٧ مركبات من الفضة والذهب، بكل أسلحة القتال و٤٤٣ ثوراً و٣٧٠ بقرة، وكل أنواع الماشية بأعداد كبيرة. كما قدّم الجيش من جانبه كميات طائلة من الغنائم وبلا حدود.

ثم وصل صاحب الجلالة بعد ذلك إلى **حوعكتي**. وأحضر أمير قباشيمونك، واسمه **قاقا** ومعه زوجته وأولاده وكافة سكان المدينة وعيّن أمير آخر بدلاً منه.

عندئذ وصل صاحب الجلالة إلى مدينة منف، بعد أن «غسل قلبه» (أى روح عن نفسه) في كافة البلدان الأجنبية، وأصبحت كافة الأراضي تحت نعليه.

قائمة الغنائم التي أحضرها صاحب الجلالة معه: ١٢٧ أميراً من ريتنو و١٧٩ من إخوة الأمراء و٣٦٠٠ **عيرو** (*) و١٥٢٠٠ **شاسو أحياء** و٣٦٣٠٠ **سورياً**

(*) استخدمت **كلير لالويت** كلمة Hébreux التي تترجم بكلمة عبرانيين. ولأنها ترجمة مضللة لكلمة **عيرو** المصرية القديمة وأن قضية التقارب بين لفظي **عيرو** و**عبري** غير محسومة، ففضلت كلمة **عيرو**، لا سيما وأن سليم حسن استخدم هذا اللفظ. كما أنه استناداً إلى مبدأ القلب المكنى **mètathèse** يمكن أن نستخدم كلمة **عرب** بدلاً من **عيرو**، بعد إسقاط واو الجمع، تماماً كما نقول على سبيل المثال أهبل بدلاً من أبله. لمزيد من التفاصيل راجع:

● سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الرابع. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٣. ص ٦٦٦.

● Cl. Vandersloeyen. L'Egypte.2. P.U.F. 1995. p.378

● M. Damiano-Appia. L'Egypte (Dict.Enc.). Gründ, 1999. p.52

● P. Grandet: Ramsès III. Pygmalion, 1993, p.70, p. 172

● ولا سيما: I. Finkelstein. N.A.Silberman: The Bible Unearthed. Free Press. USA

وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية: La Bible dévoilée. Folio histoire: Gallimard, 2004

وقد تنطوى هذه الكلمة على دلالة تحقيرية: راجع: أنيس كابول. أمنحوتب الثالث. ترجمة: ماهر جويجاتي. المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥. الباب الثاني. الفصل الثاني. الهامش ٧٢. (المترجم)

و١٥٠٧٠ نخس أحياء (شعب من شمال سوريا) و٢٠٦٥٢ (فرداً) بعائلاتهم، فيصبح المجموع ٨٩٦٠٠ شخصاً بثرواتهم التي لا تحصى، فضلاً عن كافة ما يمتلكون من ماشية، وقطعانهم العديدة و٦٠ مركبة حربية من فضة وذهب و١٠٢٢ مركبة ملونة، بكل ما يلزمها من أسلحة قتال، بما يعادل ١٢٠٥٠. (وذلك) بفضل قدرة أبيه ومحبيه، **أمون-رع الذي يضمن حمايته السحرية ويسند إليه البسالة**(٢٥).

كما حقق إنتصاراً ساحقاً على «تحالف» كان على قدر كبير من الخطورة، على ما يبدو. وجاء القمع رادعاً سريعاً: وإذا كان عيد التتويج الملكي يقع بالفعل في اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان(٢٦)، فمعنى ذلك أن العمليات العسكرية الهامة استغرقت ستة أيام. كما كانت بالغة القسوة، لأن هذه المحرقة البشرية، حدث فريد، لم يتكرر في تاريخ مصر. وفي قائمة الغنائم التي أحضرها الفرعون المنتصر يظهر اسم **عبرو**(*)، وفيما نعلم، هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يذكر فيها اسم هذه القبيلة(**).

هكذا كانت أراضى الإمبراطورية قد فُتحت فتحاً مبيناً، ليعم السلام لمدة قرن من الزمن.

٣- أمجاد مصر وشرف منزلتها

الشكر والحمد وأول حلف سياسى

تعلن نهاية نص لوح منف الحجرى الفقرة الآتية:

عندما نمتى إلى علم أمير نهارينا وأمير خاتى وأمير بابلون، النصر العظيم الذى أحرزته، سابق بعضهم بعضاً، ليأتى كل واحد منهم، بتقديمته من كافة منتجات

(*) راجع الهامش السابق. (المترجم)

(**) بل ظهر منذ عهد تحوتمس الثالث. راجع:

(المترجم) M. Damiano-Appia. L'Egypte (Diction. Enc.). Gründ, 1999, p.52.

بلده. كانوا يتحدثون فى قلوبهم، إلى أبى آبائهم، ليطلبوا السلام عند صاحب
الجلالة وينالوا نسمة الحياة: «إننا نحمل جزيقتنا من أجل قصرك، أيا ابن رع، يا
أمنحوتب - الإله - حاكم هليوبوليس، وأمير الأمراء والأسد الجامح، فى كل بلد
أجنبى، وفى هذا البلد للزمن اللانهائى» (٢٧).

كما قبل الميتانى ميمنة طيبة. فعلى أساطين قاعة مسلتى حتشپسوت بالكرنك،
تمتد المدونة الآتية:

جاء أمراء الميتانى، حاملين جزيقتهم على ظهورهم، ليطلبوا السلام لدى صاحب
الجلالة وينالوا نسمة الحياة اللطيفة (٢٨).

من البحر المتوسط وحتى إيران، ومن بحر إيجه وحتى الخليج الفارسى (*)،
اجتازت أمجاد مصر الآفاق واكتسبت شهرة منقطعة النظير.

وداخل مصر ذاتها، كان ملك أمنحوتب الثانى يعكس انتصاراته الباهرة.
فتشهد كل «الأحجار» على حملاته المظفرة.

فعلى جناحى الصرح الثامن فى الكرنك، يقوم آمون باستقبال ابنه الملكى الذى
يصطحب من أجله، مجموعة من الأسرى، كما يوجه إليه الحديث الآتى:

● الجناح الغربى:

أيا بُنى، يا محبوبى عا خپورع، إنى أعطيك كل البلدان الأجنبية وكل
الأراضى، فيتساقط أمراؤها بسبب المذابح التى أنزلتها بهم. عظيم هو مجدك أمام
أعدائك الذين أبيدهم بواسطة سيفك.

● الجناح الشرقى:

مرحباً، مرحباً بالإله الكامل، عا خپورع، ابن آمون، (الجالس) على عرشى.
(إنه) حورس الذهبى الذى توج فى طيبة. أنا أبوك المهيب، سيد الآلهة. لقد خصصتك

(*) أو الخليج العربى. (المترجم)

بكل البسالة وكل القوة ضد كل بلد من البلدان، حتى تجهز على الآسيويين وأماكن إقامتهم^(٢٩).

أما المدونة المنحوتة على أعمدة المعبد الذي شيّده أمنحوتب الثانى بين الصرحين التاسع والعاشر، فى الكرنك، وهى مدونة «رتيبة» منظومة شعراً، فتعبر عما يتركه النصر من تأثير ساحر وبعد عالمى. إنها ترنيمة حقيقية، تمجيداً للإنتصارات والفتوحات المظفرة:

كل الأراضى وكل البلدان الأجنبية والخفيه منها، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل الذى تحبه الآلهة، على الدوام.

كل حياة وكل ثبات وكل قوة وكل ازدهار وكل سعادة وكل الأراضى وكل البلدان الأجنبية، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل الذى يعبدّه الشعب بأكمله والذى يُحييهم.

كل الأراضى الخفية وكل بلدان مستنقعات آسيا، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل الأراضى، كل بلدان حاو- نبوت، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.
كل الحياة وكل الثبات وكل القوة وكل أراضى مستنقعات آسيا، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل الأراضى الخفية، كل أراضى النوبيين، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.

كل أراضى الفينقيين وكل البلدان الخفية، هى من أجل قدمى هذا الإله الكامل.
(من أجل) المحبوب، واهب الحياة والثبات والقوة والسعادة، الذى يقود الأحياء مثل رع^(٣٠).

كما أن القطع ذات الاستخدام اليومى التى عثر عليها فى مقبرته، تحتفظ أيضاً بذكرى رفعة الملك وعظمته. فعلى قوس، هو من مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يمكن أن نقرأ هذه المدونة:

الشعب يعبدّه بينما يظهر متألّقاً على عرش رع، إنه سور مصر العظيم(*)،
وحامى جيشها^(٣١).

ويصبح الإطراء إطراءً عالمياً، فى النص المدون على عصاً:

السماء تصيح. والأرض تغمرها السعادة. وكبراء هليوپوليس فى عيد. وأفراد
طاقم بتاح، يُكثرون من الفرح والسرور. وطيبة تهلل فرحاً - كل ذلك عندما يشاهدون
عا خپور رع، يشرق متألّقاً على عرش أبيه، فكل الأراضى وكل البلدان، اندحرت تحت
نعليه^(٣٢).

ها هى ثلاثة أماكن مقدسة رئيسية وثالوث مقدس. ومن جديد، ومرة ثانية، نجد
أنفسنا أمام مصادر فكر الرعامسة^(٣٣) الذى نلمس إرهاباته منذ الأسرة الثامنة
عشرة.

وتأكيداً لسيطرته الإمبراطورية، وعملاً بتقليد شاع فى عصر تحوتمس
الثالث^(٣٤)، أمر أمنحوتب الثانى بنحت قائمة بالبلدان والشعوب الخاضعة للهيمنة
المصرية، على الصرح الخامس بالكرك، للمناطق الشمالية، وقائمة أخرى على كتل
حجرية قام أمنحوتب الثالث بإعادة استخدامها فى معبد الأقصر، وتذكر المناطق
الشمالية والجنوبية، ولم يعثر منها، سوى على ست عشرة كتلة. ويبدو على كل حال،
أن هاتين القائمتين نسخة منقولة عن قوائم تحوتمس الثالث^(٣٥).

عندئذ عرفت سياسة الشرق الأدنى واقعاً جديداً. فمن الآن، نزعت الدول
الناشئة، إلى تكوين كتل مهيمنة، ترتب على وجودها ظهور لعبة الدسائس وضرورة
إيجاد أحلاف دفاعية. إن مصر والميتانى، وهما أعظم قوتين فى مطلع الأسرة الثامنة
عشرة، أسفر احتدام الصدام بينهما إلى فشل محاولات الميتانى. ولكن ظهر الآن
منافس جديد يهدد التطلعات التوسعية لكل من مصر والميتانى. إنه مملكة خاتى التى
استقرت فوق مضاب الأناضول الحالية وأخذت تبحث عن منافذ تطل على البحر
المتوسط، فضلاً عن منافذ أخرى على بحر إيجه، ولذلك فقد تعاظمت أهميتها وقوتها.

(*) هكذا ساد الاعتقاد، فلم تكن مصر فى حاجة آنذاك، إلى ما يشبه سور الصين العظيم، ولكن
ثبت بعد إنقضاء عدة قرون، أن هذا السور، غير كافٍ! (المترجم)

ويبدو أن اهتمام كل من المصريين والميتانيين بمصالحهما، وهو أمر مفهوم للغاية، قد دفعهما إلى اتباع سياسة التقارب بينهما. فمن غير المستبعد أن إتفاقية أولى قد وقعها كل من أمنحوتب الثانى وأرتاتاما الأول الذى تربع على العرش الميتانى قرب عام ١٤٣٠ ق.م، ولكن لا يوجد بين أيدينا، حتى الآن، برهان قاطع يؤكد ما ذهبنا إليه. والأمر المؤكد أن ابنة أرتاتاما، قد تزوجت من ابن أمنحوتب، وهو الأمير تحوتمس الذى سيعرف فى وقت لاحق تحت اسم تحوتمس الرابع. وعندما سيتسلم هذا الأخير مقاليد الحكم لأول مرة، ستصبح أميرة هندوأوروبية «زوجة ملكية عظيمة» ووالدة الفرعون أمنحوتب الثالث. فالذى حدث، كان بكل تأكيد، بمثابة ثورة داخل الأسرة الحاكمة، وإبرازاً للأهمية المتعاضمة التى اكتسبتها الشؤون الدولية، من منظور إمبراطورى، إن لم يكن إستعمارياً. وظلت آشور الخاضعة لبابل، لا تشارك حتى الآن فى هذه «اللعبة»، وكان كادشمان - حربى الأول، ملك بابل، ينهج آنذاك نهجاً مسالماً، إذ انصبَّ جُلُّ اهتمامه على تأمين الدروب التجارية.

وعلى كل حال، هكذا انتهى النزاع المصرى الميتانى القديم. إن التحالف الذى عززته رابطة الدم، ساهم أيضاً فى الحفاظ على السلام لمدة بضع وخمسين سنة.

روعة المباني المصرية

كما يشهد عدد المباني المقدسة وثرواتها على ازدهار الإمبراطورية والورع العارف بالجميل للعاهل الملكى.

إنه ملك، يروق له أن يبنى من أجل الآلهة جمعاء، فيشيد لها المعابد ويشكل تماثيلها. فتوضع القرابين الإلهية من جديد: من خبز وجعة بكميات كبيرة، وطيور بأعداد لا تُعد ولا تحصى. إنها قرابين يومية (محددة)، للزمن الأبدى. فضلاً عن الماشية والأغنام، فى كل فصل من فصول السنة، دون أن تنقص أبداً. ويعمل الملك حتى يزود بيت سيده الإلهى (أمون) بكل ما يحتاجه... ولكنه جدّد مؤخراً من أجل آبائه الآلهة، هبات متميزة ليراها الشعب وليعرفها الجميع^(٣٦).

ويظل الكرنك مركز نشاطه.

ويعمل صاحب الجلالة بيديه من أجل أبيه آمون - رع. إنه يباشر الأعمال فى
مبناه الشامخ^(٣٧).

إن السوارى والمسلات التى أقيمت مؤخراً، تكشف من بعيد، عن وجود المكان
المقدس. فعلى الجانب الجنوبى من الجناح الغربى من الصرح الثامن على المحور
الشمالى الجنوبى، «شيد عددًا كبيراً من السوارى، عند مدخل معبد ملايين الأعياد
اليوبيلية^(٣٨)». وأمام باحة المعبد الكبير الذى كان يبدأ آنذاك عند الصرح الرابع، وقفت
من الآن مسلتان فى صحبة المسلتين اللتين أقامهما فى هذا المكان تحوتمس الأول
وتحوتمس الثالث.

وبين الصرحين الرابع والخامس وعلى المحور الغربى الشرقى، فإن قاعة
الأساطين التى بدأها تحوتمس الأول وطورها تحوتمس الثالث، ازدانت بأساطين
جديدة من ذهب:

لقد شيد قاعة كبيرة ذات أساطين رائعة، من الحجر الرملى الأبيض الجميل،
مشغولة بالذهب الخالص. كان ذلك أجمل مما أبدع، من قبل^(٣٩).

وعلى هذه الأساطين تمتد المدونة الآتية:

لقد أعد مقصورة مقدسة من ذهب، أرضيتها من فضة. وحدد لها قرابين لا
حصر لها. وهذا الأثر أجمل من أبدان النجوم، وبفضله امتلأت خزائنها بثروات جزية
كافة البلدان. وشؤونها تفيض بالحبوب الوضاعة التى تنير الجدران^(٤٠).

وفى القسم الجنوبى من قاعة الأساطين، أقام أمنحوتب الثانى مقصورة
صغيرة من الحجر الرملى، تخليداً لانتصاراته على شعوب ريتنو. «يصور أحد النقوش
تصويراً غريباً، يمثل الملك وعرش آمون، يرتكزان على كتلة الأسرى المحركة للمشاعر
وقد التصقوا بعضهم ببعض، وانحنى أجسادهم إنحناءة بسيطة للدلالة على تعرجات
المياه^(٤١)».

وشيدت مقصورة أخرى فيما بين الصرحين التاسع والعاشر.

وترك أمنحوتب الثانى «بصمة» بارزة فى الكرنك ومنطقة طيبة. ففى نقش

ضخم تقليدي صُور على جناحي الصرح الثامن، وهو يجهز على أعدائه بواسطة مقمقة بيضاء وقد رفعها إلى أعلى. كما تم الكشف عن عدد كبير إلى حد ما، لتمثيل العاهل الملك، تمثله تحديداً، في حماية الآلهة. إن تمثلاً من الحجر الرملي، وهو آية في الجمال، يبلغ ارتفاعه ٢٢٥ سم، وعثر عليه نافيل Naville عام ١٩٠٦، في الدير البحري، يكشف عن تكوين مكتمل. ويمزج بين النحت المجسم والنقوش. وتحت الخُطم القوى للإلهة حتحور التي تتخذ هنا هيئة بقرة، يقف تمثال أمنحوتب الثاني في حماية الإلهة. وتحت ضرعها صور بالنقش البارز الطفل الملك وهو يرضع، لأن اللبن الذي يمتصه سيساعده على الدخول إلى عالم الخالدين. إن الخطوط المقناة الطويلة التي تصور سيقان البردي العالية التي يبدو أن البقرة تبرز منها، تنحني على نحو متماثل ومتناغم فوق رأسها، لتلتف حول قرص الشمس المستقر على جبينها. يعتبر هذا التمثال آية من روائع فن نحت التماثيل (*). أما التمثال المصنوع من الجرانيت الأسود ويستوحى التصور ذاته، فيصور الملك في حماية الإلهة - الثعبان واجت، حامية مملكة الشمال، أو هي بالأحرى مرت - سحر التي تُعبد في جبانة طيبة. وبصفته خادم الآلهة، يَدشن أمنحوتب الثاني موضوعاً جديداً يصور الملك جاثياً، وهو يقدم مائدة قرابين. ويبلغ ارتفاع التمثال ١٢٠ سم (**). هذان التمثالان من مقتنيات متحف القاهرة، في الوقت الراهن.

وإذ ظل يعمل من أجل «آبائه الآلهة»، واصل أمنحوتب الثاني، بناء المعبد الذي بدأه تحوتمس الثالث في مدينة الكاب والمكرس للإلهة المحلية نخبت، حامية مملكة الجنوب ولبلله تحوت.

وفي إلفنتين استكمل وانتهى من تشييد معبد، كان تحوتمس الثالث قد بدأه

(*) يمكن مشاهدة هذه التحفة في القاعة رقم ١٢ من الطابق الأرضي بالمتحف المصري في القاهرة. (المترجم)

(**) في القاعة رقم ١٢ بالطابق الأرضي من المتحف المصري في القاهرة. (المترجم)

ومكرس «لأبيه خنوم، رب الجندل ووالدته ساتيس سيدة إلفنتين وأنوكيس القائمة على رأس النوبة».

كان مشيداً من الحجر وسوره الخارجى من الطوب وأبوابه من خشب الأرز، من أفضل ما أنتجته موانئ المشرق، وعتباته من الحجر الرملى، ليبقى اسم تحوتمس ابن رع العظيم، فى هذا المعبد، للزمن الأبدى والزمن اللانهائى.

عندئذ قام جلالة هذا الإله الكامل، عاخيرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، بمد خيط البناء وفرد الحبل^(٤٢)، من أجل آبائه الآلهة لتشييد صرح شامخ من الحجر الرملى، سيتقدم قاعة أعياد ذات أساطين رائعة، محاطة بأساطين من الحجر الرملى، لقد صنع هذا العمل ليوم على امتداد الزمن الأبدى. (سوف يوجد فى المعبد موائد قرابين وأدوات أكل من الفضة والبرونز^(٤٣)).

وحتى القوارب اللازمة لرحلات التماثيل الإلهية لم يتم إغفالها:

طلب صاحب الجلالة بصنع الأشربة اللازمة للرحلات النهرية التى تقوم بها هذه الآلهة المقيمة فى إلفنتين، فكانت أشربة ضخمة، يبلغ كل واحد منها عشرة أذرع (أى خمسة أمتار)، بعد أن كانت فى السابق، صغيرة (يبلغ كل واحد منها) ثلاثة أذرع^(٤٤).

وفى النوبة، انتهى من تشييد معبد عمدا، ومن أجله قدمت له الشكر الآلهة رع - حور آختى (حامى هذه الأماكن وراعيها) وحورس وأمون - رع و تحوت، ورمم المعبد الشمالى فى بوهن الذى كان قد شيده أحمس.

٤- فى خدمة الآلهة والملك

الوزير رخى مى رع، مساعد الملك المباشر، كان يشغل حالياً، منصبه فى بداية العهد، وخلفه أمن إم إيبى (أى: آمون - فى - الحريم)، وكان على وجه التحديد...

...النبيل، الأمير، من وجهاء الملك، الذى يجمع البشر ويُزِين السُيُودِين (أى حورس و ست) وَيُزَوِّق السيدتين وَيَرْضَى ماعت على مَرَّ الأيام، وَيَقْصِل فى الواقع بين المتشاجرين. إنه عمدة المدينة، إنه الوزير آمن إم إيبِت^(٤٥).

ووضعت أقاليم الجنوب تحت إمرة أوسير - ساتت (أى: ساتيس - قديرة). ويدل اسمه أن إلفنتين عند حدود النوبة، هى بكل وضوح مسقط رأسه. إنه «حامل أختام ملك مصر السفلى، والابن الملكى، ورئيس بلدان الجنوب». كما كان من رفاق السلاح الذين صاحبوا فرعون إلى سوريا.

ودبرَ شئون الأقاليم الجنوبية، بقدر من النجاح على ما يبدو، إذا أخذنا بعين الاعتبار، ضخامة الجزية التى تم تسليمها. وبالفعل فقد صَوَّرَ أوسير - ساتت فى قبره التذكارى بقصر إبريم، تسليم الهبات الواردة من النوبة والسودان:

ظهر صاحب الجلالة متألِّفاً فى طيبة، فوق الدرج الكبير من أجل (تأمل) أعاجيب جيشه وروائعه، فضلاً عن الغنائم التى ظفر بها من النصر (الذى أحرزه) إبان حملته الأولى و(سَلِّمت) لسيد القطرين.

تقدم الجيش (ووضعت) جزية البلدان الأجنبية أمام هذا الإله الكامل. كان الجند يعبدون صاحب الجلالة قائلين: عظيم هو مجدك، أيها الإله الكامل الحازم. وفيرة هى جزية أراضى (الجنوب). فلم يَرِ شىء مماثل، منذ زمن الأجداد، ولكن يحدث ذلك من أجلك، أيا سيدنا!

قائمة بحاملى الجزية:

حاملو ... [فجوة]	٢٠٠ رجل
حاملو الذهب	١٥٠ رجلاً
حاملو العقيق الأحمر (?)	٢٠٠ رجل
حاملو العاج	٣٤٠ رجلاً
حاملو الأبانوس	١٠٠٠ رجلاً

حاملو مختلف أنواع الخلاصات العطرية

الواردة من بلدان الجنوب	٢٠٠ رجل
حاملو الأخشاب النفيسة	٣٤ رجلاً
رجال يقتادون الفهود	١٠ رجال
رجال يقتادون الكلاب	٢٠ رجلاً
رجال يقتادون الأبقار والعجول	٤٠٠ رجل
مجموع حاملي هذه الجزية	٢٦٥٧ رجلاً (٤٦)

لا ريب أنها «شحنة» مهولة، ستزيد الخزائن الملكية وخزائن آمون ثراءً.

والصداقة التي نشأت بين الملك و أوسير- ساتت دامت حتى غابت الأيام: بل أرسل أمنحوتب خطاباً مكتوباً بخط يده، إلى نائب الملك، يوم الإحتفال بتتويجه، وحفظ لنا الدهر نصه، بفضل قيام المرسل إليه بطلب نسخه على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن متحف بوسطن.

يوم عيد التتويج الملكى، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٣. نسخة منقولة عن الخطاب الذى دونه صاحب الجلالة بخط يده من أجل الابن الملكى أوسير- ساتت، فى حين كان صاحب الجلالة بمدينة الجنوب، فى حريم فرعون. كان منهكاً ويشرب ويقضى يوماً سعيداً.

انظر، سوف يُسلم إليك، خطاب الملك هذا، صاحب الحُسام الكبير، صاحب اليد القديرة والساعد المقدام، الذى ربط شعوب الشمال ودحر الآسيويين فى محل إقامتهم، بحيث لن يوجد عدو، فى أى بلد من البلدان.

اجلس... لقد كانت المعركة فى كل البلدان، معركة بطولية (٤٧).

كما أن عائلات كبيرة، وكبراء الدولة من المقربين، كانوا يعيشون فى الأقصر على مقربة من الملك.

كان سن نفر، أخا الوزير أمن إم إبيت، عمدة طيبة والمشرف العام على الحرم الملكى. كان إدارياً محنكاً، ويرتبط أيضاً بكهنة آمون ارتباطاً وثيقاً. كانت زوجته مريت تحمل لقب «المرضعة الملكية التى تربى الجسد الإلهى»، فى حين كانت سنت - نفرت، «منشدة آمون»، أسوة بابنتها موت نفرت. وفى مقبرة سن نفر(*) رقم ٩٦ فى الشيخ عبد القرنة، يستعرض نص، مسار حياته المهنية البارزة:

لقد بلغت مرتبة المبجل، ووصلت فى الوقت نفسه، إلى سن الشيخوخة وأنا بجوار الملك. أنا كاتم أسرار رب القطرين. أنا مفعم بالبركة وهو ما يعرفه الملك، فيعرف أننى أنجزت أعمالاً مفيدة، من خلال المناصب التى أسندت إلى. وبعد أن بحث فى كل الدروب، لم يجد فعلاً خسيئاً واحداً ينسبه إلى. لقد أمتدحت بسبب كل ما فعلته. لذلك فقد رقانى إلى أعلى مراتب المدراء والرئيس الكبير فى مدينة الجنوب والمشرف العام على شؤنة آمون المزدوجة، والمشرف العام على حقول آمون، والمشرف العام على حديقة آمون، وكبير كهنة آمون فى هليوبوليس^(٤٨).

كل ذلك يبرهن على أن التعيينات فى وظائف الإشراف الإدارى، على ممتلكات آمون، كانت من اختصاص الملك والشئ نفسه، ينسحب على الترقيات داخل سلك الكهنة ذاته.

تضم مقبرة سن نفر زخرفاً متميزاً: ففى الردهة، وهى حجرة صغيرة منخفضة، يظهر مشهد رسم صور بلمسات سريعة، يمثل كرمة تبدأ من أرضية الحجرة، لترتفع على امتداد أحد الجدران وصولاً إلى السقف المقبى، لتنتشر فى هيئة عريشة، من الأوراق الخضراء، ذات نتوءات حمراء وعناقيد عنب ضخمة سوداء. وتحت هذه القبة النباتية وعلى جدران الحجرة، نشاهد سن نفر وعائلته فى مشاهد تقديم القرابين. هذه الصور الرمزية غير المألوفة فى الغالب، ترتبط بأسطورة أوزيريس، «رب النبيذ» وحامى الحياة المتجددة.

(*) والتى تعرف اصطلاحاً بمقبرة العنب. (المترجم)

كان قن آمون مشرفاً عاماً في خدمة أمنحوتب الثانى ومن المقربين للعاهل الملكى وشقيقه فى الرضاعة. كان ابن مرضعة الملك، وقد «ولدت له المرضعة العظيمة التى نشأت الإله»^(٤٩). كان سيداً عظيماً، حظى بأعلى مراتب الشرف والألقاب والنعوت التقريضية: أمكن حصر أعدادها لتصل إلى مائة وواحد وخمسين^(٥٠). وحديثاً، واستناداً إلى أوشبتي من متحف فلورنسا، أضيف إلى هذه «المجموعة» الهامة، لقب «الابن الملكى»، شاهداً على علاقته الحميمة بالعاهل الملكى^(٥١).

كان صديق الطفولة لفرعون، وتبعه فى حملاته الآسيوية: إنه «رفيق العاهل الملكى على الماء وعلى الأرض وفى كافة البلدان الأجنبية»^(٥٢) و«من لا يفارقه فى أرض المعركة، ساعة دحر الملايين»^(٥٣). كان «حاكم الحصن» ولفترة قصيرة «المشرف العام على بلاد الشمال بأسرها». ولما كان الملك وفياً نحو أصدقائه، فقد عرف كيف يكافئه. فعين قن آمون قاضياً وكبير المالىين و«المشرف العام على أملاك پرو- نفر» التى كانت بلا ريب قصراً للترويح عن النفس، وبعيداً على ما يظن عن مدينة طيبة وله قدر من الأهمية. هناك كان يوجد حريم الملك. كان قن آمون يشرف على الحقول والقطعان والإسطبلات. والظاهرة التى تشهد أيضاً على علاقته الحميمة بفرعون أنه كان «حامل المروحة على يمين الملك».

إنه زمن استعادة السلام. إنه زمن الأعياد.

وفى مقبره قن آمون رقم ٩٣ فى القرنه يُصور رسمٌ، الفرعون أمنحوتب فى شبابه، وإن تحلى بزينة الملوك، جالساً فى حجر مرضعته، فهكذا تتشرف العائلة وتتفاخر. إن اثنين من حاملى المروحة وكان قن آمون أحدهما، يروحان على العاهل الملكى بالمروحة^(٥٤). إن فتيات رقيقات يلعبن على العود أو يحملن كؤوساً ذهبية، وينشدن من أجله فى حدائق پرو- نفر:

فلنذهن أنفسنا بالبخور. فالنقدم الزيت. فلنقض يوماً سعيداً. فلنعقد القلادات العريضة فى حديقتك. ها هى زهرة لوتس من أجل أنفك، أيا أمنحوتب! ليك تخلق من أجلنا الأبدية فى المسرات. كم هو جميل وجهك، أثناء التتويج الملكى، فى حين تجلس على العرش العظيم... إن رع يفرح عندما يراه. فالحياة ملك له، فلن يموت أبداً.

كان قن آمون يقوم بتنظيم الأوقات التي يقضيها العاهل الملكى فى الترويح عن نفسه، ويشرف فضلاً عن ذلك، على الأعياد الرسمية. فعند الاحتفال بعيد رأس السنة، كان المسئول عن تقديم الهدايا المكرسة إلى الملك، المتربع على العرش: إنها عبارة عن «مركبات من ذهب وفضة وتماثيل ملكية من العاج والأبنوس وعقود من مختلف أنواع الأحجار الكريمة، وأسلحة قتال ومختلف ما صنعتها أنامل حرفيي مصر السفلى^(٥٥)». وقد تم حصرها بتفاصيلها وأعدادها فى الصورة المرسومة، لتشهد على مدى ثراء مصر الخامسة^(*).

ويتردد قن آمون على حديقته المنعشة، طلباً للاستجمام بعيداً عن وظائفه الرفيعة. إنها الحديقة التي تتواجد فيها الآلهة. إنه يجلس أمام مائدة زاخرة بثمار التين، ويرى أمامه الإلهة نوت، خارجة من شجرة جميز ياسقة، وهى تحمل الماء، رمز رطوبة الشجرة وتتحدث إليه قائلة:

أنا نوت، المرتفعة، العظيمة فى الأفق. لقد حضرت إليك، (حاملة) هباتي، أيها المشرف العام على الماشية... هكذا سوف تتمتع بجو رطب فى ظل أشجارى، سوف ترضى بتقدماتي، وتحيا من خبزى وترتوى من جعتى. سوف أجعلك تتغذى من لبنى حتى تعود إلى الحياة وتمسك بثديي فى فمك، فبفضلهما ستنال فرحاً وازدهاراً، ينفذان إلى داخلك، عربون حياة وقوة، كما سبق أن فعلته مع ابنى البكر (أوزيريس). سوف أمنحك السرور (حرفياً: سوف أغسل وجهك) مع تباشير الفجر، بالإضافة إلى مختلف ضروب السعادة. وسوف يحضر حبيبى إليك، محملاً بالقرايين المخصصة لمكان صاحب - القلب - المتعب (أى: أوزيريس). سوف اتصرف بحيث يحضر الناس من أجلك، ثرواتهم فى بيتك، (بيت) الزمن الأبدى. إن والدتك (أى: نوت ذاتها) سوف توفر لك الحياة. سوف تضعك فى بطنها التي تحمل فيه (اندماج مصير المتوفى بمصير رع)... عندئذ ستتحدث النجوم التي لا تكل^(٥٦) قائلة: «مرحباً فى سلام، أيها

(*) على اعتبار أن معظم ملوك هذا العصر قد حملوا اسم تحوتمس، فنذكر هؤلاء الملوك بالترتيب: تحوتمس الأول، تحوتمس الثانى. حتشپسوت، تحوتمس الثالث. أمنحوتب الثانى، تحوتمس الرابع، وقد حكم هؤلاء لأكثر من قرن من الزمن. (المترجم)

النوراني المتميز، أيها الرجل الجدير بالثناء، السالم المعافى، بناء على أمر أمون، أيها الأوزيريس...» أما أنا، فأقدم لك خبزى، وأقدم لك جعتى، وأقدم لك لبنى، وأقدم لك ثمار تينى، وأقدم لك وجباتى، وأقدم لك قرابينى، وأقدم لك أطعمتى، وأقدم لك نباتاتى النضرة، وأقدم لك كل الأشياء الطيبة الطاهرة التى تحيا منها وتتغذى عليها. خذها، حتى ينتعش قلبك بفضلها، للزمن اللانهائى (٥٧).

إنه حديث عن الإنتعاش لزمن الحياة والضمانات المتوفرة للزمن الأبدى. هكذا فإن زمنى الحياة والبقاء على قيد الحياة بعد الوفاة، يتداخلان ويمتزجان فى هذه الصور، فى لحظة واحدة، تتواصل وفقاً للصيرورات الأوزيرية والشمسية. إن الحقائق - العامة - بالآلهة، هى ينباع الحياة.

فبعد لحظة الوفاة العابرة، يتطلع المرء إلى الحرية الشاملة التى يسعى إليها الجميع. هذا هو حال قن أمون وزوجته:

الركون إلى الراحة فى مدينة الزمن اللانهائى، التمتع بالسعادة فى بلد الزمن اللانهائى، واكتمال التحولات (واستعادة الأشكال) لزمن الإقامة على الأرض ومد الساعدين لتلقى الثروات والإستحواز على ما يرتفع أمام الإله، بعد أن يأخذ منه كفايته (٥٨).

الإشارة هنا إلى تماثيل قن أمون التى وضعت، كإنعام تفضل به الملك، فى معبد أمون بالكرك، بالإضافة إلى غيرها من معابد الآلهة، وفى معبد العاهل الملكى الجنائزى. وقد نقلت فى موكب، أثار الكثير من الضجيج، كما أن ثلاثة صفوف من الرسومات تقدم لها وصفاً دقيقاً:

نقلت تماثيل قن أمون المشرف العام على قطعان أمون، إلى معبد أمون بالكرك وإلى جميع معابد آلهة مصر العليا ومصر السفلى. وفى سلام، وفى سلام (نقلت)، أيضاً إلى مقبرته فى الجبانة، كإنعام من الملك مقدّم إلى أحد المقربين إليه، وهو الخادم الموجود هنا، فى الوقت الراهن. إن أفراد العائلة المجتمعون هنا، يصيحبون أمامها، بصوت واحد. فصاحب الجلالة هو الذى أمر شخصياً بمرافقة هذه التماثيل حتى المعابد، كما حدثت من أجلها، قرابين من الخبز واللحوم، على مدار الأيام (٥٩).

ربما كانت مقبرة قن آمون أيضاً، إنعاماً تفضل به العاهل الملكى، فهى من أكبر مقابر الجبانة، إذ تضم ردهة ذات عشرة أعمدة وحجرة جنازية ذات ثمانية أعمدة. ومن حيث زخارفها، فهى أيضاً من أكثر المقابر أصالة وأجملها. وإذا اعتبر من إرهابات ذوق عصر الرعامسة، تظهر رسوماتها على خلفية صفراء اللون وليست رمادية تميل إلى اللون الأزرق، كما كان مألوفاً. إن دفى الألوان ورقة الفرشاة وحلاوة الوجوه ورشاقة الأجساد، ترهص منذ ذلك العصر، بالفن البالغ الرقة الذى سيسود فى عهد أمنحوتب الثالث: وسواء تعلق الأمر بحاملى باقات الزهور المركبة، أم الصبية الذين يمسكون بالأزهار والأسماء، إلى جانب سهام سيدهم، أم الشابة الجميلة عازفة العود، أم رقص الكاهنات، أم مشاهد الصيد فى الصحراء، فإن الإيحاء بالمشاعر التى يحس بها المشاهد من خلال الخطوط المرسومة باقتدار، أكانت خطوطاً بسيطة أم تألفاً بين هذه الخطوط، إنما يكشف عن رقة مشاعر الفنان إلى أبعد الحدود، واهتمامه فى المقام الأول بالأحاسيس التى ينقلها للمشاهد، بدلاً من تركيزه على تقديم وصف يلتزم بأدق التفاصيل.

إن تذكراً، سواء كان تمثالاً أو لوحاً حجرياً أو قطعة عائلية، أو مقبرة مهدمة إلى حد ما، تعود إلى غيرهم من كبراء الدولة، لتظل إلى وقتنا هذا، تغالب الأيام، فننتعرف من خلالها وبفضلها، على وجود أصحابها ومشاعلهم. هكذا نتأكد من وجود...

...پا سر(*) (أى الشريف السرى)، رئيس قوأسى الملك و«ولد الحريم»^(٦٠) ورفيق الملك، إذن منذ نعومة أظفاره والذى... «تبع الملك فى جميع تنقلاته، على الماء وعلى البر، وفى كل بلد من البلدان الأجنبية، الذى مُنح الإنعامات (المخصصة للمقربين من الملك، فضلاً عن القلادات من الذهب الخالص»^(٦١).

(*) من حقنا أن نعقد مقارنة بين كلمتى سر المصرية القديمة وسرى العربية، فمعناهما واحد: الشريف الكريم الأصل. (المترجم)

أما نخت (أى: القوى) فكان حامل البيرق و«رئيس النوبيين، والتابع (للكتيبة المسماة): ثور-النوية». إن تمثالاً فى حالة جيدة من الحفظ يصوره، فى وضع المتعبد، خلف الإلهة - الثعبان رنن - وقت، من آلهة جبانة طيبة^(٦٢). وقد نُحت الخرطوش الملكى على صدر نخت وساعده الأيمن.

پح سو خر(*) (أى: من - يهاجمه - يسقط)، نبيل وأمير، وقائم مقام الملك وحامل المروحة. ربما كان يدين بجانب من الرعاية التى حظى بها، إلى زوجته التى كانت «مرضعة الملك». فقد صورت فى مقبرة القرنة رقم ٨٨، فى صحبة زوجها، وهى تقدم الزهور للعاهل الملكى:

إنها تتقدم فى سلام، حاملة باقة من زهور أمون، رب عروش القطرين، بعد أن أقامت المذائح الشعائرية اليومية لصالح حياة وازدهار وصحة، رب القطرين عاخرورع، ملك مصر العليا مصر السفلى. إنها منشدة أمون، ومرضعة الملك العظيمة وأثيرة الإله الكامل، التى نشأت الإله، إنها صاحبة اللبن الطيب والتى تتحد نيت بصدرها وتتحدث الصادقة القول قائلة: «من أجل كائنك، أيها الملك الذى يغالب الأيام، الإله الكامل، ورب القطرين، الذى ما برح رع يحبه، (أقدم لك) هذه الباقة من زهور أبك أمون - رع الذى يمتدحك ويحبك ويبقيك للزمن الطويل، فيحدّد (لك) ملايين السنين، حتى تبقى ثابتاً، على عرش حورس الأحياء»^(٦٣).

لم تكن للإيماءة فى العصور القديمة، القيمة المبتذلة والمادية التى اكتسبتها فى أيامنا هذه. بل كانت «التزاماً وعهداً» للحياة الأبدية.

(*) خر المصرية القديمة التى تعنى يسقط، من حقنا أن نعقد مقارنة بينها وبين كلمة خرّ العربية.
(الترجم)

وفى كويتوس(*) عثر على تمثال أوسرسو (أى «إنه كبير») وكان «المشرف العام على بلاد ذهب آمون». إنه جالس إلى جوار زوجته سات رع (أى «ابنة - رع») ويطوق كل منهما الآخر بذراعه. ويأخذ حيطته ضد اغتصاب دفنته عن طريق سحر الكلمات.

إنه يقول: «أما كل من قد يعتدى على جثمانى فى الجبانة ويحطم تمثالى فى مقبرتى، سوف يصبح إنساناً مكروهاً من رع. فلن يستطيع الحصول على الماء على مائدة قرابين أوزيريس، لن يستطيع توريث ثرواته إلى أولاده - وذلك للزمن الأبدى»(٦٤).

أما سو إم نيوت (أى: «إنه فى المدينة»), فكان من كباراء بطانة أمنحوتب الثانى. كان مشرقاً عاماً فى البحرية، وسيد إسطل الملك، والساقى الملكى، والمدير المشرف على عيد آمون، وابن إيمانفر (أى: «الجازبية السعيدة»), وعمدة نفروس(**) وكبير كهنة تحوت فى هرموبوليس. وفى مدونة بمقبرته رقم ٩٢ فى القرنة تحدثه زوجته قائلة:

إلى كائك، يا أبى(***) اشرب حتى يأخذ فيك الشراب واقض يوماً سعيداً(٦٥).

إنها لازمة ملحة للعيد فى الحقائق، كشاهد عن زمن يعمه السلام والإزدهار. إن مقبرة سوم إم نيوت فى نظر مؤرخ الفن، حالة فريدة، وصلت إلينا بفضل العناية الإلهية. وبالفعل فإن عدداً كبيراً من المشاهد، إذا استثنينا المقصورة الداخلية، ظلت ناقصة لم تكتمل، وفقاً لمختلف مراحل العمل. إن تحليلاً دقيقاً قد يسمح لنا بكتابة تاريخ فعلى لتقنيات فنون الرسم المصرى.

كان مين حوتب (أى: «فليكن - مين - راضياً!»)، المدعو حوتوتو، كاتب الخزينة وكاتب المجندين الجدد. ربما كان ينحدر من الشمال. ونعرفه من خلال أثر عانى من

(*) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم جبتيو ومدينة قفط حالياً). (المترجم)

(**) (قرب المنيا). (المترجم)

(***) هكذا فى الأصل الفرنسى. (المترجم)

مختلف الأحداث غير المتوقعة. ففي عام ١٩١٩ اشترى متحف القاهرة من أحد أهالى أبوصير قطعاً أثرية كان يحتفظ بها فى منزله منذ وقت بعيد، وهى عبارة عن اثنتين وعشرين كسفة من لوح ضخّم من الحجر الجيرى، جادت بها على ما يظن إحدى الجبانات القريبة. ولم يعثر على جميع أجزاء هذا اللوح الذى يبلغ ارتفاعه فى الوقت الراهن ١٨٠سم وعرضه ١٢سم، فقد بيعت الأجزاء الناقصة فى وقت سابق إلى أحد الأشخاص.

أما المقبرة رقم ٨ للمهندس خع فقد كشف عنها سكيأپاريلى Schiaparelli عام ١٩٠٦ فى دير المدينة. وأعيد تشكيل حجرة الدفن فى متحف تورينو. ونقل إليها كل المتاع الجنائزى. وعلى لوحة من الذهب نقشّت ترنيمة جميلة من أجل الملك، تشهد أيضاً على الإنتشار التدريجى آنذاك، لأيدىولوجية هليوبوليس^(٦٦).

فليحى الإله الكامل بقدر تألق رع. إنه شبيهه، ويتخذ شكله. إنه يشيد فى الحقول، فى صحبته. إنه عا خپورع رب القدرة. وتسعد قلوب البشر عندما تشاهده. وكل أمرى يتأمل حبه فى انبهار. إنه مقدام وبطل، إنه أمنحوتپ، الإله حاكم هليوبوليس، المقيم فى قلوب كل البشر، الذى يحب القدرة.

فليحى الحورس، الثور المقتدر، العظيم القوة، الإله الكامل والباسل، الساهر، رب القطرين، عا خپورع. الثور المقتدر، لكافة البلدان الأجنبية التى تتجمع على جبل نهارينا، كما شلت حركة رجال النوبة - إنه ابن رع، أمنحوتپ، الإله حاكم هليوبوليس، فاتح البلدان قاطبة.

فليحى الإله الكامل، الباسل فى حقيقة الأمر، (فليحى) عا خپورع، رب القطرين. عاد صاحب الجلالة، سعيد القلب، إلى بيت آمون، والده المعظم. إن جيشه أمامه، أشبه بالجراد. وتوقف صاحب الجلالة عند هرموبوليس، وشيد فى ظرف يومين، محل إقامة عا خپورع المحصن^(٦٧).

كان الأحرار وكبار رجال الدين، من رجالات الملك أيضاً. فقد كان هذا الأخير بلا شك، على قدر كبير من الحزم ونفاذ البصيرة، حتى يحاول الكهنة اختلاس، جانباً من السلطة الملكية لصالحهم.

عند تتويج أمنحوتب الثانى ملكاً على عرش مصر، استمر من خپر رع سنب، يشغل منصب كبير كهنة آمون، بعد أن ظل ينهض بأعبائه لفترة طويلة فى عهد تحوتمس الثالث. إن تمثال هذا الشخص الذى عثر عليه ليجران Legrain عام ١٩٠١، أمام الصرح السابع فى الكرنك، يحمل بالفعل خرطوش عا خپر رع. وقد شيدت من أجله مقبرتان فى الشيخ عبدالقرنة. والأقدم وهى المقبرة رقم ١١٢ تم اغتصابها فيما بعد. أما الأحدث وهى المقبرة رقم ٨٦، فكانت بلا شك، مرقدته بعد وفاته الدنيوية، وقد دمرت جزئياً فى أعقاب الحريق الذى أتى على قسم منها. ولكن الجزء الذى بقى سالمًا، نشاهد فيه رسومات بالغة الجمال، فتكشف على وجه التحديد، وصفاً لتقديم باقة الزهور المقدمة للملك، وإحضار جزية الإمبراطورية الواردة من بلاد الشمال والجنوب والغرب، وقيام من خپر رع سنب بجولاته التفتيشية على ورش حرفى الجلود والأخشاب والمعادن، العاملين فى أملاك آمون، وعلى سير العمل فى المنشآت الجديدة.

من الواضح أن مير قد خلفه فى منصب كبير الكهنة^(٦٨). كان رجلاً ينحدر من كويتوس، أما والده فقد شغل، فى هذه المدينة، منصب كبير كهنة الإله مين، وكانت والدته «المرضعة العظيمة» للعاهل الملكى. ومن ثم فقد كان صديقاً حميماً للملك. وشأنه شأن، خپر سنب، فقد جمع بين كبرى المناصب الكهنوتية والعلمانية. وبصفته «رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى»، شملت إختصاصاته كل رجال الدين فى طول البلاد وعرضها. كما عينه الملك فى منصب «حاكم الجنوب». ويبدو أنه اهتم إلى حد كبير بإدارة أملاك آمون الدنيوية التى تعاظمت إلى حد كبير، بعد الإنتصارات التى حققها ملوك مصر. وبالفعل، فقد حمل ألقاب المشرف العام على أملاك آمون وشؤنه وحقوقه وقطعان ماشيته وخزائنه.

كما خُصِّصَتْ له مقبرتان فى الشيخ عبدالقرنة. الأولى ورقمها ٨٤، اغتصبها من أحد موظفى تحوتمس الثالث، أما الأخرى ورقمها ٩٥، فقد أعدت خصيصاً من أجله وهى فسيحة جداً، وتضم تحديداً، بهو أعمدة يتكون من اثنى عشر عموداً.

أما أمن إم حات الذى خلفه فى منصبه، فقد كان رجل دين فقط. وربما كان فى شبابه رفيق سلاح تحوتمس الثالث. كان والده چحوتى حوتپ مجرد «كاهن من أصحاب الأيدى الطاهرة» ومدير ورشة صنّاع نعال معبد آمون. ونعرف حياته من خلال تمثاله الذى عثر عليه نافيل Naville فى الدير البحرى ومن خلال مدونات مقبرته التذكارية رقم ٢٥، فى جبل السلسلة^(٦٩) واللوح الحجرى المخصص لسيرته الذاتية والذى عثر عليه عند الجانب الشرقى من الجدار الجنوبي من الحجرة الثانية فى مقبرته رقم ٩٧ بالقرنة والتي تقع إلى الشمال قليلاً من مقبرة رخ مى رع^(٧٠). يبدأ مطلع النص بتعاليم موجهة إلى أولاده، وهو نوع أدبى تقليدى:

بداية التعاليم التى أعلنها النبيل الأمير والأب الإلهى المحبوب من الإله، رئيس الأسرار فى الكرنك، كبير البلاد قاطبة، الذى تخلق كلمته الرضى فى المعابد، الذى ينفذ فى السماء ويتأمل ما بداخلها، الذى يعرف شتى أحوال العالم الآخر، المشرف العام على بيتى الذهب وبيتى الفضة، رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى، وكبير كهنة آمون، إنه أمن إم حات.

لقد تحدث إلى أولاده بأسلوب التعاليم قائلاً:

إنى أتكم بالحق، حتى أسمعكم ما حدث لى منذ اليوم الأول، منذ يوم مولدى. كنت كاهناً طاهر اليدين، وعصا الشيخوخة إلى جوار أبى، زمن أن كان على الأرض. كنت أصعد وأهبط، محترماً قيادته، ولم أخالف أبداً، كلمة من كلماته. لم أتسبب فى الإضرار بما أمرنى به. لم أهمل شيئاً مما طُلب منى. لم «اخترقه» بنظراتى المتعددة، بل كنت أدير وجهى ناحية الأرض، عندما كان يحدثنى. لم آخذ على عاتقى أن أفعل

ما كان يجهله. لم أعرف(*) خادمةً في بيته، ولم ألهو وأنا أجامع إحدى خادماته. لم أسكر ساقيه. لم أدخل عنوة إلى جواره. ولذلك، فقد أثنى على ولم يكتشف أبداً خطأ ارتكبته. لقد بقيت أنعم بأفضاله إلى جوار كائه، حتى حان وقت «الرسو» (أى الوفاة).

لما بلغت الرابعة والخمسين من عمري، كنت كاهناً طاهراً (بجوار) نعلَى الإله والمشرف العام على المطبخ ومدير خدمه. كنت (إنساناً) حازقاً عند أداء واجباته... كنت جدير بالإحترام. عندئذ، قام صاحب الجلالة رب القطرين بترقية اسمي، فقد عُرف عني، أننى شخص بارع فى قلب العاهل الملكى. وفُضِّت من أجلى المغاليق، لأسمع ما لا يصغى إليه، سوى كاهن واحد من الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة، فى حين كان أبى يضمن لى حمايته... وبعد أن تُوِّج عا خپوروع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ورب القطرين وبعد ضمان استقراره لملايين السنين، وبعد أن أقامه آمون ذاته على عرش حورس الأحياء إقامةً ثابتة... عندئذ رَقَّانى إلى منصب الأب الإلهى والفم الأول الأعظم فى الكرنك، فاستطعت دخول مقاصير قدس الأقداس... وجدد الملك من أجلى إنعاماته(٧٠).... (بقية النص مهشم تهشيماً بالغاً).

ارتقت مسيرة حياته المهنية ببطى. فتبدأ فى حقيقة الأمر فى سن الرابعة والخمسين. وهى مسيرة رجل فضله الملك وآثره، فكان فى وسعه أن يعتمد على إخلاصه وأخلاقياته السامية.

واستعاد تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى سيطرتهم على كهنة آمون، بعد المصاعب التى سببتها حتشپسوت.

أما فى أبيدوس فقد ظل نب واوى، كبير كهنة أوزيريس، وكان تحوتمس الثالث قد عينه فى هذا المنصب، فى العام الخامس من عهده.

(*) هكذا فى الأصل. وسوف يستخدم العهد القديم، من الكتاب المقدس، هذه العبارة كمرادف لعبارة «باشِر الرجل امرأة». نذكر على سبيل المثال: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت. تكوين ٤: ١. (المترجم)

هكذا عاشت مصر فى سلام وازدهار. فالثروات التى تدفقت على طيبة، جعلت كبراء الوجهاء وكبار موظفى الدولة يحيون حياة ترف وبذخ، أما الطبقة الوسطى التى تضم الحرفيين والكتبة فكانوا فى بحبوحة من العيش وصارت حياة جماهير الفلاحين أكثر يسراً، من ذى قبل. لم تصلنا شواهد مباشرة عن ظروف حياة أفراد هذه الشريحة الأخيرة من المجتمع المصرى، ولكن من السهل افتراض أن التسهيلات التى خففت من صعوبة الحياة آنذاك ووفرة الأيدى العاملة الناتجة عن أسرى الحرب، قد جعلت عملهم أقل وطأة. كان طعامهم وفيراً ويشاركون فى أعياد الآلهة وكبرى المباحج الملكية وأصبحوا من العناصر الهامة فى الدولة. كانوا الجنود الذين شاركوا فى الفتوحات. ولم تولد الإمبراطورية من روحهم المحاربة، إذ كانوا يفتقرون إليها، بل من شجاعتهم وما بذلوه من بسالة على مر الأيام، وإن لم يشر أى نص إلى ذلك. إنهم «الجيش الجرار» الذى يتقدمه فرعون الذى يقوده إلى أبدية أمجاده. وربما (؟) أتاح لنا بعض الوثائق أن نتعمق فى فهم حقيقة ظروفهم. وعلينا أن نتجنب تصديق بعض كتابات الكتبة المزهوين دائماً بمهنتهم، فاحتقروا أعمال الحقول. لقد انصب أسلوبهم الفكاهى الهجائى على مصير العاملين فى الأرض. وربما كنّا أقرب إلى الواقع إذا نظرنا إلى المشاهد النضرة ذات الألوان الزاهية التى تظهرها جدران مقابر طيبة، رغم ما أصابها من دمار متفاوت، فتكشف عن سواد أفراد الشعب العاملين فى بهجة وسرور، يؤدون أعمالهم، مخلصين لسيدهم، محبين للحياة الأسرية، إنه عالم نشط فى إطار رقة المودة العائلية وانشراح الصدر، تختلط فيه الصيحات بالأغاني والأناشيد.

٥- باقة زهور آمون الأخيرة

بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من حكم حازم، أى عام ١٤٢٥ ق.م تقريباً، جاء الدور على أمنحوتب الثانى «ليصعد إلى أفقه ويلتقى بأبيه الشمس» (*).

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

ونقلت مومياؤه إلى وادى الملوك، لترقد فى مقبرته التى يفتح بابها عند سفح صخرة عمودية. وتبدأ بمرّ طويل ينحدر إنحداراً شديداً، لتعترضه بئر لابد من اجتيازه، ثم نصل إلى حجرة ذات عمودين، سوف تسدّ بحائط بعد عودة من سبق أن دخلوا. ولكن سيقوم اللصوص النهابون بهدمه، فيما بعد. وعبر سلّم يبدأ من زاوية الحجرة يصل المرء إلى ممر جديد وقاعة فسيحة تم سدّها أيضاً فى الماضى بجدار. يا لها من حماية واهية، من جشع البشر وأطماعهم. كان السقف يستند عند الوسط على صف يتكون من ستة أعمدة مستطيلة رُسمت عليها مشاهد تصور أمنحوتب الثانى فى حضرة الآلهة. وعلى الجدران المغطاة بطبقة خشنة من الملاط، خضراء بلون نبات البردى، وهو لون تجديد النبات، دُون بالخط الهيراطيقى^(٧١) النص الجنائزى الملكى لكتاب ما هو موجود فى الدّوات. وفيما وراء الأعمدة، وفى اتجاه الغرب، تبدأ أرضية القاعة فى الإنخفاض، وفى هذا المكان كشف علماء الآثار المعاصرون عن التابوت المصنوع من الحجر الرملى، كان سالماً ولُون بطلاء أحمر وهو لون دم الحياة، وبداخله تابوت آخر، سُجِّيت فيه مومياء الملك. وحول رقبة العاهل الملكى، كان يلتف طوق من الزهور، كانت لا تزال نضرة بعد مرور ثلاثة آلاف سنة. ووضعت على قلبه باقة من زهور السنط العنبرى، ربما كانت التعبير الأخير عن المودة والحنو، ولكنها كانت على نحو خاص عربون أبدية، مقدماً من آمون.

أما فى الوقت الراهن، فإن جسد الفرعون الذى لا يقهر، فى حالة جيدة من الحفظ ولكنه منفصل عن «بيته»(*) وأساليب السحر المنشطة الباعثة للحياة، فقد أصبح مجرد موضوع لفضول زوار متحف القاهرة. فلا نجد أن سحر الفراعنة المؤذى ولعناتهم، هى التى تلاحق علماء المصريات وتقتلهم، بل إن علماء المصريات «الكفرة» هم الذين يعتدون على أبدان الملوك ويحرمونها من عودة الحياة إليها، وإن نجحوا فى استمرار ذكراهم حية تغالب الأيام.

(*) أى مقبرته. (المترجم)

الفصل السابع

سنوات السلم والسلام:

ازدهار إمبراطورية التهامسة

وأولى التهديدات

١- فراعنة السلام

• تحوتمس الرابع

حلم الظهيرة

خلف الأمير تحوتمس أباه، وهو ابن أمنحوتب الثانى والزوجة الملكية العظيمة تى - عا. وحكم مصر لفترة قصيرة نسبياً استمرت سبع عشرة سنة تقريباً. هل كان الابن البكر للملك أم لا؟ الأمر محتمل ولكنه ليس مؤكداً. وعلى كل حال، فقد جاء اختياره من قبل الإله «حورس - فى - الأفق»^(*)، من خلال تمثال أبو الهول الشامخ فى الجيزة، وليس آمون. كان الأمير تحوتمس، شأنه شأن والده قبل إرتقائه العرش، يعيش فى الشمال، فى قصر منف. وذات يوم، وبعد أن خرج للصيد فى الصحراء، أخذ قسطه من الراحة عند الظهيرة، مستظلاً بأبو الهول، فغشيه النعاس وتراعى له الإله فى المنام، وتوقع له أن يوهب الملك، إذا أزاح الرمال من على جسده الحجرى. واحتفظ لوح من الجرانيت بنص هذا الحلم التنبئى، وعُثر عليه بين كفى التمثال الإلهى!

... حدث ذات يوم عندما ذهب الابن الملكى تحوتمس للتنزه ساعة الظهيرة، أن استراح مستظلاً بهذا الإله العظيم. فدخل فى سبات عميق، فى اللحظة التى كانت الشمس فى كبد السماء. فلاحظ عندئذ، أن جلالة هذا الإله المعظم يتحدث إليه، بذات فمه، تماماً كما يتحدث الأب إلى ابنه، قائلاً: «انظر إلىّ، وتأملنى يا بنى تحوتمس. أنا أبوك حورس - فى - الأفق - خپرى - رع - أتوم (أى: الشمس فى مختلف لحظات دورتها)، سوف أعطيك الملك على الأرض، على رأس الأحياء، فترتدى التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش جب أمير (الآلهة). وتمتلك الأرض فى طولها وعرضها، وكل ما تنيره العين المتألقة لسيد الكون. والأطعمة الواردة من القطرين ستكون لك، ولك

(*) بالمصرية القديمة: حر-إم-أخت وصحفه الإغريق إلى حرماخيس. (المترجم)

أيضاً عوائد الجزية الضخمة، لكل بلد من البلدان الأجنبية ولك حياة مديدة غنية بسنواتها. وأولى وجهى شطرك وقلبي شطرك، أنت حامى ومرشدى، أنت من يبقى فى المدار المختار لأعضائى (إشارة إلى مسار الشمس واندماج الجسد الإلهى فى الجسد الملكى). ها هى رمال الصحراء تؤلنى الآن وتعذبني، تلك الرمال التى كنت فوقها فيما مضى. هياً اقترب منى على عجل، حتى تتمكن من انجاز كل ما أتوق إليه. فأنا أعرف أنك ابني وحامى. اقترب منى. أنظر، فأنا معك وسوف أكون مرشدك». بعد أن فرغ الإله من حديثه، استيقظ الابن الملكى. وفهم دلالة هذا (الحلم) ... وعلقت بذاكرته كلمات هذا الإله. ووضع الصمت فى قلبه وحدث نفسه قائلاً: «هياً فلنتجه على جناح السرعة إلى قصرنا فى المدينة، لتجهيز القرايين التى سنحملها إلى هذا الإله، وتضم الأغنام والخضروات والنباتات النضرة، من مختلف الأنواع.

ثم سنجزل المديح لمن وجدوا من قبل (الأسلاف) ونهل لهم»^(١).

إن توقيت حدوث الحلم، بينما الشمس^(*) فى كبد السماء، ليس بالأمر عديم الأهمية. إنه^(**) الإله فى ذروة قوته وقدراته، إنه فى «قمة» دورته، والإشارة هنا إلى الملك. وإذا أفاق الأمير من حلمه ليصبح المصطفى المختار، فأقام المدائح الشعائرية من أجل سلالة الأسرة الحاكمة التى سىظل من الآن مرتبطاً بها. إن هذا التقليد المتواتر الذى يربط ربطاً رمزياً، بين إزاحة الرمال عن أبو الهول وتسلم ملك جديد مقاليد الحكم، تأكد استمرار العمل به حتى إبان العصر الرومانى. فتُخبرنا مدونة^(٢)، أن الإمبراطور نيرون^(***) أمر بإزاحة الرمال التى كانت تغطى أبو الهول، ليكون أول عمل يقوم به.

مرة أخرى، نجد أن الله يقوم باختيار الملك، ولكن، إذ حدث ذلك فى منف، فإن إله هليوبوليس هو الذى يقوم بهذه المهمة. ربما ارتبط الأمر بأولى محاولات الإبتعاد

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) التزمنا بالمذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(***) حكم الإمبراطورية الرومانية من ٥٤ إلى ٦٨ ميلادية. (المترجم)

عن مدينة طيبة البالغة القوة وتطلعات كهنتها الطموحين. إنه بداية الصعود فى اتجاه الشمال، كظاهرة ستصبح من كبرى المواضيع الثابتة لسياسة الرعامسة. فالفكر الملكى يتطور.

حورس : الثور القدير، صاحب التجليات الجميلة.

السيدتان : ملكه يدوم دوام ملك أتوم.

حورس الذهبى : قدير هو حُسامه الذى يصدّ الأقواس التسعة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خيرورع (ليت صيرورات رع تظل ثابتة).

ابن رع : تحوتمس، صاحب التجليات المتألقة.

الاسم الرابع قريب الشبه من اسم تحوتمس الثالث، وهو من خير(*) رع. هكذا يبدو أن العاهل الملكى الجديد قد أراد الارتباط بجده المرموق. وفى بعض الأحوال وإبرازاً للاختيار الشمسى، تلحق بهذا الاسم، صفة: «الذى اختاره رع».

الإبقاء على الإمبراطورية

كانت المعارك الحربية قليلة، فأركان الإمبراطورية راسخة. ربما وقعت بعضها فى آسيا. أما الحملة التى شنت على الجنوب، فقد تحولت إلى مسيرة مظفرة.

إن بعض المؤشرات فقط، تسمح لنا باحتمال وجود حملة إلى الشمال، ولكن لم يصلنا تقرير حقيقى عن هذه الوقائع المفترضة. ففى سياق قائمة قرابين، يشار إلى «الغنيمة التى جلبها صاحب الجلالة من بلاد نهارينا الأخساء، إبان حملته الأولى المظفرة»^(٣). وعلى لوح حجرى عثر عليه فى مقبرة أمنحوتب الذى أصبح كبير كهنة أونوريس، بعد أن أنهى خدمته فى الجيش، يشار إلى هذا الشخص بصفته...

(*) الفارق هو أن لفظ خير (صيرورة) فى صيغة الجمع خيرو (صيرورات). (المترجم)

رفيق المسيرات الملكية فى بلدان الجنوب والشمال، هذا الذى يأتى بدءاً من
نهارينا وصولاً إلى كاروى (من بلدات السودان) خلف صاحب الجلالة، بينما يقف هذا
الأخير فى أرض المعركة^(٤).

وعلى واجهة من خشب الأرز، تُكوّن أحد جوانب عرش عثر عليه فى مقبرة
تحوتمس الرابع، صُورَ الملك فى هيئة أبو الهول بجسد أسد ورأس آدمى وجناحى
صقر وهو يدوس برجليه أحد الأعداء، فيما يغطى الآسيويون الأرض أمامه^(٥).

ظلت الغنائم تتدفق من ريتو ونهارينا، بشهادة التصاوير المرسومة فى
مقابر كبراء الدولة وأعيانها وما يصاحبها من نصوص، نذكر منهم خع إم حات
و حور إم حب وثانونى.

تأتى هذه الواقعة تأكيداً على الفرضية التى سبق طرحها^(٦)، ومفادها أن
اسمى نهارينا وميتانى اللذين تميز النصوص بينهما، مطابقين لحقيقتين جغرافيتين
مختلفتين، بمعنى دولتين، ربما تمتد كل واحدة على طول أحد شاطئى نهر الفرات.
وبالفعل فقد تزوّج تحوتمس الرابع ابنة ملك ميتانى، بينما نهارينا ترسل ضريبة
الجزية، كما تنعت على وجه الخصوص «بالخسيصة»، فى أحد النصوص الذى سبق
ذكره، الأمر الذى لا يتفق مع عقد القران المذكور.

وفى آسيا أيضاً، استمر استغلال شبه جزيرة سيناء، أسوة بما سبق أن فعله
أسلاف العاهل الملكى، وقد وصلتنا الشواهد على إرسال حملتين إلى سراييط الخادم
تحديداً، فى العام ٤ والعام ٧، من عهده^(٧).

وفى إفريقيا جنوباً، نعرف مجريات الأمور، على نحو أحسن، بفضل تقرير
مؤرخ فى العام الثامن ومنحوت على صخور كنوسو قرب جزيرة فيلى. كان النص
يتكون أصلاً من أربعين سطراً، ولكن المقروء منها فى الوقت الراهن، ٢٣ سطراً فقط.

اليوم الثانى، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثامن، كان
صاحب الجلالة فى مدينة الجنوب، فى حاضرة الكرنك. كانت يداه طاهرتين، طهارة

يدى إله. كان يُرضى والده آمون، بما يكفيه من قرابين، بقدر ما كان هذا الأخير، قد وهبه ملكاً أبدياً وثباتاً لا نهاية له، على عرش حورس.

جاء من يقول لصاحب الجلالة: «النوبى يأتى هابطاً من مشارف واوات، وينوى التمرد على مصر. لقد حشد من حوله جميع الأجانب والعصاة من المناطق الأخرى».

تقدم الملك فى سلام، فى اتجاه المعبد، عند الفجر، ليقدم قرباناً وفيراً لأبيه الذى خلق كماله. ووقف صاحب الجلالة شخصياً فى حضرة أمير الآلهة، طالباً مشورته بشأن المشكلة التى بصدها، وأن يحيطه علماً بما سيحدث له، ويرشده أيضاً إلى الطريق القويم، لينجز ما يبتغيه كاؤه، تماماً كما يتحدث الأب إلى ابنه الذى يُقدم بفضل، على أفعال صائبة. وانصرف من أمامه، سعيد القلب.

وفى الحال، أصدر أمره بحشد جيشه وأرسله بكل بسالة وقوة. وفيما بعد، تقدم صاحب الجلالة للإجهاز، على من هاجمه فى النوبة، (تقدم) جسوراً على متن سفينته الذهبية، مثل رع عندما يستقر فى مركب الليل، وقد نشر أشرعته المصنوعة من الكتان الأحمر والأخضر. كانت جياده تسير أمامه فى هيئة سرايا، وجيشه معه، والأشاوس على الضفتين، والمجننون بجوارهم، فى حين يشكل رفاقه طاقم السفينة. هكذا أبحر الملك فى اتجاه الجنوب، مثل كوكبة نجوم الجوزاء (*) Orion.

وبجماله أضاء مصر العليا. كانت صيحات الرجال تتعالى بسبب الحب الذى يحركه فى النفوس والنساء يرقصن عند مروره. كان مونتوفى هرمونتيس يؤمن لجسده الحماية السحرية، بينما كان اللهب الإلهى أمامه، مرشداً له (**). وكل إله من آلهة الجنوب، يقدم لأنفه باقة زهور. كانت نخبت (***) البيضاء، تثبت بقوة حلى

(*) ساح بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) تشبه هذه الظاهرة، ما حدث لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، عندما كان يسير الرب أمامهم نهاراً، فى عمود من غمام ليهديهم الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضىء لهم. سفر الخروج ١٣: ٢١-٢٢. (المترجم)

(***) إلهة بمدينة فخب - الكاب حالياً - وهى على هيئة نسر أبيض وحامية النظام الملكى فى الجنوب. (المترجم)

جلالتي(*)، وساعداها يؤازران قدرتي، وتربط من أجلى الأقواس التسعة، حزمًا وضمات. وقضيت(*) هنيهة احتفاءً بعيد تطهير الصورة (?) وتوقفت لبرهة فى مدينة إيفو. وخرج الإله الجميل مثل مونتو بأشكاله المتنوعة. ظهر بعدة حربه، هائجًا مائجًا، مثل ست مدينة كوم أمبو(**)...

لحق به جشيه وقام بمذبحة رهيبة بفضل ساعده المقدام، والرعب الذى كان يثيره فى النفوس نفذ إلى كل جسد، لأن رع كان قد أشاع الخوف منه فى الأراضى، مثل الخوف من سخمت فى عام انتشار الوباء. كان رأسه اليقظ لا يأخذه نوم. وسبق له، أن داس بأقدامه تلال الشرق، ويفتح الآن الطرق مثل ابن أوى الجنوب، باحثًا عن ساعد من هاجمه: وتوصل إلى أعداء النوبة أجمعين (وحتى) فى الوديان السرية التى لم يعلم أحد من قبل بوجودها...^(٨).

إن لوحًا مقطوعًا فى صخر الجبل ذاته فى كنوسو، يحيى ذكرى الانتصار الأفريقى. ويقوم الملك فى صحبة يعرت «الزوجة الملكية العظيمة» الثانية، بضرب سجينين، ضربة شعائرية.

أما عن وقائع هذه الحملات العسكرية أو المعبرة عن مظاهر الهيبة والنفوذ، فلا نعرف عنها شيئًا، على وجه الدقة. لقد ورد بعض الأسماء فى سياق مدونة محفورة على الوجه الداخلى لمركبة حربية عُثر عليها فى مقبرة تحوتمس الرابع. فنقرأ على اليسار أسماء أماكن آسيوية: نهارينا وشنچار وتونيب وشاسو وقادش وتيخيسى. ونقرأ على اليمين أسماء أماكن إفريقية نذكر منها: كاروى وإيرم^(٩). أهو دليل شكلى بالهيمنة؟ أو استرجاع لمختلف الإشتباكات العسكرية؟ وعلى كل حال، فمن الفرات إلى قلب السودان، تظل الأراضى فى يد فرعون. وعلى الوجه الخارجى من المركبة وعلى الجانبين وحتى عند العجلتين صُورَ الآسيويين والأفارقة، وقد لانوا بالفرار أمام تحوتمس الرابع، فى هيئة إنسان أو أسد.

(*) هكذا فى صيغة المتكلم، خلافًا لصيغة الغائب المستخدمة فى بقية النص. (المترجم)

(**) نوبت عند قدماء المصريين وأومبوس عند الإغريق. (المترجم)

فى أعقاب هذه الأحداث، على كل حال، تشكلت مستوطنات من الأسرى السوريين والسودانيين، على أراضى طيبة. وبالفعل فقد عُثر على ألواح حجرية صغيرة فى معبد تحوتمس الرابع الجنازى، توضح نصوصها هذه الوقائع.

فنقرأ فى أحد الألواح:

مستوطنة (مقامة) من أجل حصن من خيروع، بواسطة السوريين الذين أسرههم صاحب الجلالة فى مدينة جزر.

وعلى لوح آخر نقرأ:

مستوطنة بلاد كوش الخسيصة التى جاء بها صاحب الجلالة من حملاته المظفرة (١٠).

فعلى سطح المسلة التى بدأ جده العمل فيها، والقائمة حالياً فى ميدان اللاتران بروما Piazza di Laterano، وربما توقف العمل فيها بوفاة تحوتمس الثالث، ليتولى تحوتمس الرابع استكمالها وإقامتها فى الكرنك، يعرف نفسه باعتباره:

هذا الذى يفتح البلدان بفضل إنتصاراته ويبيث الرعب فى صفوف الآسيويين ويعلم صيحة الحرب وسط النوبيين (١١).

إن إمبراطورية التحامسة راسخة الأركان. فلم تكن نذر التهديدات، قد ظهرت فى أفق الوضع الدولى. وهدأت الحرب ولم تعد سوى مجرد استعراض عضلات. وحلّ السلام ليوم حتى نهاية عهد أمنحوتب الثالث.

● أمنحوتب الثالث (*)

عام ١٤٠٨ ق.م، تقريباً، عند وفاة أبيه تحوتمس الرابع، خلفه ابنه أمنحوتب الثالث، وامتدت سنوات حكمه المديدة لتصل إلى ٣٨ سنة (١٢). كان ابن الأميرة الميتانية،

(*) راجع أيضاً الدراسة الوافية المستفيضة عن هذا الفرعون العظيم وتقع فى ٨٣٦ صفحة: أنيس كابرون: أمنحوتب الثالث. ترجمة: ماهر جويجاتى. المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥. (المترجم)

ابنة الملك أرتاتاما الأول^(١٣)، فكان عربون مادي لقران سعيد. اتخذت الأميرة اسماً مصرياً فور وصولها إلى طيبة، وهو مُوت إم ويا أي «مُوت - فى - المركب - الشمسى». وكتعبير كامل بالصورة لهذا الاسم، نشاهدها على لوح حجرى يحتفظ به المتحف البريطانى فى الوقت الراهن - نشاهدها جالسة فى مركب، وقد ادمجت فى الإلهة مُوت، زوجة آمون. ومن واقع نصين متقابلين فإنها:

● السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الرقيقة القلب، الرعومة حباً، التى تملأ القصر بعطر أندائها، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العاهل الملكى، التى يقال لها كل ما يُفعل من أجلها، المتسيدة على مصر العليا ومصر السفلى، الأم الإلهية... [مُوت إم ويا].

● السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العاهل الملكى، الأم الإلهية التى أنجبت الملك، أثيرة الإله الكامل، التى يقال لها كل ما يُفعل من أجلها. إنها تركز إلى الراحة على عرشها فى قاربها... الأم الملكية، مُوت إم ويا^(١٤).

وبجوارها صُورَ ناووس يحمل الاسمين الرابع والخامس من أسماء أمنحوتب الثالث الذى اكتملت قائمة ألقابه على النحو الآتى:

حورس : الثور القدير، الذى يتجلى متألقاً مع ماعت.

السيدتان : هذا الذى يحدّد القوانين ويهدئ القطرين.

حورس الذهبى : هذا الذى تتعاظم قدرته ويضرب الآسيويين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع (أى: «رع صاحب الحقيقة والعدالة»).

ابن رع : أمنحوتب، حاكم طيبة.

ابن أمون - رع

إذا كان أمنحوتب الثالث يرتبط بذرية الأسرة الملكية الحاكمة، فقد كان أيضاً حفيد ملك الميتاني. أيمن القول بأن هذه الحقيقة هي التي دفعت العاهل الملكي الجديد إلى تبرير شرعيته؟ فالعرض المسرحي الديني الشهير الذي صاغه المخلصون من أتباع حتشپسوت، استرجعه أمنحوتب الثالث. فبناءً على أوامره، نحتت مشاهد ونصوص مشابهة، في معبد الأقصر الذي طلب تشييده من أجل أمون، نحتت على جدران إحدى الحجرات القائمة شرق القسم المخصص لقدس الأقداس. الأحاديث مماثلة: فمشاهد الحمل والولادة والإنتساب إلى دائرة الخالدين، واحدة. والإختلاف الوحيد، هو استبدال بعض الأبطال وإدخال بعض التغييرات الطفيفة أحياناً، على النصوص. ومع ذلك، يصعب علينا استخلاص الهدف من هذه الإختلافات.

ومن ثم فمن المعتقد أن أمون قد تجسّد في الملكة موت إم ويا، لخلق الطفل - الإله الملكي. وفي المساحة الفاصلة بين مشهد الولادة ومشهد تقديم المولود الجديد للإله أمون، يظهر قادمان جديدان: أحدهما، الإله بس وهو قرمز دم، له قدرات حماية سحرية، والآخر الإلهة فرس النهر تاورت(*)، حامية النفساء والقابلة الإلهية:

إننا قادمان من السماء مع رع.... ابنه الذي من صلبه، محبوبه، رب القطرين
[نب ماعت رع]... (١٥)

هنا، نجد أن الإلهة موت ترافق حتحور عند تقديم الطفل. كما نجد أن حورس الإدفوي(**) وليس رع - حور أختي، هو الذي يلزم المولود الجديد في صحبة أمون.

فهل ترمى إذن هذه النسخة المنقولة عن «لعبة» حتشپسوت الشهيرة، إلى تبرير ما حدث لأول مرة في تاريخ مصر، عندما تربّع على عرش البلاد ملك تجرّى في عروقه

(*) (وقد صحفه الإغريق إلى تاوديس. (المترجم)

(**) نسبة إلى مدينة إدفو. (المترجم)

«دماء مختلطة»؟ أو كان الأمر تعبيراً على استعادة كهنة آمون قوتهم و«انطلاقة» لطموحاتهم التي كشفت عن نفسها، من خلال هذا التدخل الجديد، في تحديد وريث العرش الملكي؟ ربما كان هذان التفسيران مقبولين.

الوجود فى النوبة

طوال سنوات حكم أمنحوتب الثالث، الثمانى والثلاثين، لم تقم فيما نعلم حملة عسكرية واحدة إلى أسيا. وثبت قيام حملة عسكرية واحدة إلى النوبة، فى العام الخامس، والشواهد عليها متوفرة، بفضل نصوص عدد من المدونات:

ومن جديد نُحت لوح فى صخور كنوسو لتخليد ذكرى هذا الحدث:

فى العام الخامس، عاد صاحب الجلالة مظفراً، من حملته الأولى، بعد أن حالفه النصر على بلاد كوش البالغة الخسة. هكذا أعاد ترسيم حدوده، كما كان يرجوه، عند (تخوم) الأعمدة الأربعة التى تحمل السماء. لقد أقام لوح النصر (هذا)، ليعم سلام (حرفياً: نضارة) حورس^(١٦). لم يقدم أى ملك من ملوك مصر، على عمل مماثل، إلا صاحب الجلالة المقدام، الذى يروق له النصر. إنه نب ماعت رع الذى يفتح الطريق، بالقوة والقدرة، على رأس جيشه. فأبوه آمون يقوده، لقد خصه بالبسالة والقوة، فى مواجهة البلدان الأجنبية قاطبة. لقد وهبه بلدان الجنوب وبلدان الشمال، سواء بسواء، وأهل الغرب وأهل الشرق، ليقودهم. هكذا يقوم هؤلاء بتقديم أولادهم للعاهل الملكى شخصياً، كي يمنحهم نسمة الحياة^(١٧).

إننا أمام بيان، على قدر كبير من الذاتية، تمجيداً للنصر، ولكنه يفتقر إلى تفاصيل عما دار من وقائع، يمكن إعادة صياغتها، بفضل غيرها من المدونات.

فبالرجوع إلى نص لوح نحت فى صخر الجبل فى الطريق الممتد من أسوان إلى فيلاى، يُعتقد أن تمرداً قد تفجر فى الجنوب، وأحيط العاهل الملكى علماً بهذا الحدث، وهو أسلوب «أدبى»، إذا صح القول، سبق أن التقينا به، فيما يتعلق بالحملة النوبية التى قام بها تحوتمس الثانى وتحوتمس الرابع^(١٨).

اليوم الثانى، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان(*)، من العام الخامس، يوم الإحتفال بالتتويج... جاء من يقول لصاحب الجلالة: «العدو كوش الخسيس، قد دبر ضدك تمرداً». وقاد صاحب الجلالة (الجيش) نحو النصر، إبان حملته الأولى... (١٩).

أما المدونة التى نحتها نائب الملك مري موزا، على لوح آخر، عُثر عليه فى سمعة، فإنها تشير إلى تمرد فى بلاد إيبهت. وللأسف، فإن تاريخ هذا الأثر، غير واضح على وجه الدقة، فمطلع النص مهشم.

... مع مرور الأيام، وبعد ذلك (هل حدث تمرد أول؟)، حلّ زمن الحصاد لهؤلاء الأعداء فى إيبهت. عندئذ، قام كل شخص بواجبه وحشد جيش فرعون، فى أعقاب الابن الملكى (نائب الملك). ونُظمت القوات وكانت تحت إمرة القواد. وقد جُنّد كل فرد وفقاً للقبيلة (التي ينتمى إليها)، بدءاً من قلعة باكى وحتى قلعة تاورى، وهو ما يعادل (مسافة) ٣٢ إيتراً من الملاحه النهرية (أى حوالى ٢٤٠ كم).

إن قدرة نب ماعت رع، قد أخذت بالأعداء فى يوم واحد، بل فى ساعة واحدة، فأوقع بينهم مذبحه رهيبه. واستولى على أولادهم ونسائهم وماشييتهم، ولم يسلم أحد منهم... واقتادتهم قدرة أمنحوتب - حاكم - طيبة. ولم يُعزل الأجانب عنهم، فبقى الرجال مع النساء، تنفيذاً لأرشادات الحورس، رب القطرين، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، الثور القدير، بقوة الباسلة.

كان الزهو والعُجب قد أصابا إيبهت، فسكن بعض المقاصد المتغترسة فى قلوبها. ولكن الأسد الوحش الضارى، الأمير، أثخنهم ذبحاً، تنفيذاً للأمر الصادر عن أبيه آمون - أتوم الذى أرشده ببسالة وقوة.

قائمة بالغنائم التى عاد بها صاحب الجلالة من بلاد إيبهت الخسيسية:

(*) أخت بالمصرية القديمة. والشهر الثالث هو شهر هاتور، فى السنة القبطية، والأصوب أن نقول السنة المصرية؛ لأن كلمة قبطى لم يكن لها فى الأصل المدلول الدينى الذى اتخذته فيما بعد. وجاءت تسمية هاتور نسبة إلى الإلهة حتحور. (المترجم)

نوبيون أحياء	١٥٠ رأساً
حاملو الأقواس	١١٠ رؤوس
نوبيات	٢٥٠ رأساً
خدم النوبيين	٥٥ رأساً
أولادهم	١٧٥ رأساً
المجموع	٧٤٠ رأساً حياً
الأيدي	٣١٢

المجموع الكلى بالإضافة إلى الرؤوس الحية: ١٠٥٢

كان الكتبة المصريون يجدون متعة منقطعة النظير، في القيام بالعمليات الحسابية فيحلو لهم جمع الأعداد والأرقام! لقد مهر نائب الملك النص بتوقيعه:

الابن الملكى، الفطن من أجل سيده، كاتم أسرار الإله الكامل، المشرف العام على بلاد كوش بأكملها، الكاتب الملكى مري موزا الذى يقول: «تحية لك، أيها الإله الكامل، إن مجدك عظيم فى مواجهة من يعتدى عليك إنك تحمل من يتمردون عليك إلى القول: «إن النار التى اشعلناها انقلبت علينا» (*). لقد زبحت كافة الأعداء المطروحين أرضاً تحت نعليك (٢٠).

(*) نذكر فى هذا الصدد ما ورد فى سفر الأمثال من العهد القديم من الكتاب المقدس: من يحفر حفرة يسقط فيها ومن يدحرج حجراً يرجع عليه (٢٦: ٢٧). وعبارات مشابهة فى سفر الجامعة (١٠: ٨-٩).

كما يقول المثل الشعبى: حَلْفَةٌ وَيَحَاشِرُ النار.

الحلقة: نبات الحلفاء. ويحاشر أى يحشر نفسه ويزج بها. يضرب المثل لمن يلقى بنفسه فى التهلكة ويتعرض لما يعلم إضراره به. أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦، ص ١٨٦. (المترجم)

وعلى مدونة منحوتة على الصرح الثالث من صروح الكرنك، الذى شيده
أمنحوتب الثالث، ذكرت النقطة الأبعد(?) لتقدم مصر ناحية الجنوب:

لقد جلب جلالتي الذهب من فوق تل كاروى، إبان حملته الأولى المظفرة وقام
بتقتيل بلاد كوش الخسيسية، (كما جلبت معي) فى الوقت نفسه، المنتجات المسلّمة من
زعماء كافة البلدان^(٢١).

ومن ثم فقد حدثت إشتباكات عسكرية بعيداً، إلى الجنوب من الجندل الثانى،
على نهر النيل.

هكذا، ومن خلال مضاهاة الوثائق المبعثرة والمتنوعة، وبفضل عمل مديد مثابر
وشغوف بما يفعله، يستعيد الباحث رويداً رويداً، تتابع سياق تاريخ مصر، بعيداً عن
أى حبكة خيالية، وستقدم لنا نصوص وأثار أخرى، توضيحات إضافية لتستكمل هذه
الوقائع. وعلى الباحث أن يعيد على النوام إعادة طرح كل ما توصل إليه على بساط
البحث. إن علم المصريين ساحة فسيحة ورحبة للعمل النؤوب المتواصل.

وأياً كان الأمر، يبدو أن هذه الحملة الوحيدة التى شنّها أمنحوتب الثالث، هى
إلى حدّ ما حملة شكلية. وكان مرمى موزاً نائباً - ملكياً نشطاً^(٢٢). لم يكن أمنحوتب
الثالث ملكاً محارباً، فعاش على السمعة الطيبة والهيبة اللتين ورثهما عن أسلافه. وفى
سياق الدبلوماسية الدولية النشطة المنتشرة فى ذلك الزمان، والتى ستزعزع تدريجياً،
أركان الإمبراطورية، من الملاحظ أن العاهل الملكى قد عُرِف عنه تراخيه. كان حفيد
أمنحوتب الثانى لا يشبه جده فى شىء. فقد كانت دماء أجنبية تجرى فى عروقه^(*).

(*) وإن كانت عالمة المصريات الفرنسية أنيس كابرول، لا تتفق مع هذا الرأى، الذى تعتبره ظالماً
وغير منصف. راجع مؤلفها الضخم السابق ذكره. (المترجم)

الأيديولوجيا الإمبراطورية:

التطورات الجديدة

فى هذه الأزمنة التى عمّ فيها السلام، انتعشت حركة أفكار نشطة واتسعت. فمند حتشيسوت ومفهوم النظام الملكى يتطور^(٢٣). فظهر لأول مرة مصطلح «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة» فى مقبرة ثانوفى من ضباط تحوتمس الثالث^(٢٤): فالملك هو الإله الشمسى الأوحد المتفرد الذى يشرق على الإمبراطورية. وسيصبح هذا المفهوم المقدس عن الإمبراطور، المفهوم الذى سيأخذ به الرعامسة، الذين سيشار إليهم على هذا النحو، فى كثير من الأحيان.

إن المدونة المنحوتة على الصرح الثالث من صروح الكرنك، تعبّر بأسلوب يتميز بنبرته الحماسية وصوره الأخاذة، عن دمج فرعون السلام فى الإله الشمسى، المعبود فى أرجاء الشرق، فنجد آمون أو رع أو آتون فى مصر وشمس فى آسيا، فضلاً عن السلطة العالمية والكونية للفرعون «الراعى الصالح»^(*):

الإله الكامل الذى يمتزج بجمال (آمون - رع) كما (يمتزج) بجمال من خلقه. القلوب فى الأبدان تفرح عندما تتأمله.... لقد نصّب (آمون) على عرشه، ليحكم ما يحيط به آتون. إنه العين التى تخلق النور للبشر أجمعين. كما يعود إليهم الإخضرار لرؤيته، عندما تسطع ضياؤه! لقد وهبه عرش جب ووظيفة آتوم ومُلك رع، للزمن اللانهائى.... إنه عداء عظيم مثل آتون، سريع المدار، والنجم من الذهب الخالص المتألق على مركبته، والقوأس القدير، عندما يطلق سهامه فى اتجاه لوحة الرماية. إن ساعديه يشبهان ساعدى رب طيبة، الذى يأتى بكافة البلدان الأجنبية أسرى، فهو لا مثيل له، والراعى الصالح، الساهر من أجل الجميع...^(٢٥).

إن الإله والملك مندمجان إندماجاً كاملاً، من خلال «الإشراقات» ذاتها.

ومع ذلك، يصبح آمون- المعارك ركيّزة الإمبراطورية الأساسية والمقدسة، الساهر عليها، فيبقيها فى «قبضة» ملك مصر. إن نشيداً إمبراطورياً آخر، هو نشيد

(*) كان السيد المسيح «الراعى الصالح» أيضاً. راجع إنجيل يوحنا ١٠: ١١. (المترجم)

للسلام، لا يحدثنا قط عن غزوات عنيفة، إنما يؤكد على خضوع الشعوب على الصعيد العالمى لفرعون. وقد نُقش هذا النيشد على لوح حجرى ضخّم، أقيم أصلاً فى معبد أمنحوتب الثالث الجنازى، وإن عثر عليه فى خرائب معبد الملك مرنپتاح. وشأنه شأن نشيد النصر للملك تحوتمس الثالث، سيصبح أيضاً مصدر إلهام للرعامة.

كلمات قالها آمون، ملك الآلهة: «أيا بُنى الذى من صلبى، يا محبوبى، نب ماعت رع، يا صورتى الحية، الذى خلقته أعضائى والذى ولدته من أجلى (الإلهة) مُوت، سيدة إيشرو فى طيبة، الذى يتسيد الأقواس التسعة. لقد نشأتك تنشئة السيد الأوحد للشعب. إن قلبى يسعد سعادة غامرة عندما أشاهد جمالك، ومن أجلك أحقق أشياء رائعة. سيتجدد شبابك إلى أبد الآباد، تماماً كما أقمّتك بصفتك شمس الشاطئين.

فعندما أولى وجهى شطر الجنوب، أحقق من أجلك أشياء رائعة. فافرض على زعماء بلاد كوش الأخساء، أن يأتوا إليك، حاملين جزيّتهم على ظهورهم.

عندما أولى وجهى شطر الشمال، أحقق من أجلك أشياء رائعة. فافرض أن يأتى إليك أبناء بلاد تخوم آسيا، وظهورهم محملة بالجزية، فى حين يقدمون لك أولادهم، حتى تمنح لهم نسمة الحياة.

عندما أولى وجهى شطر الغرب، أحقق من أجلك أشياء رائعة. واجعلك تفتح بلاد ثحنو، بحيث لا يبقى منها شيئاً، وأشيّد هذه القلعة باسم جلالتي، والمحاطة بسور يرتفع إلى عنان السماء والمدعمة بأولاد زعماء النوبة.

عندما أولى وجهى شطر المشرق، أحقق من أجلك أشياء رائعة. وأفرض أن تأتى إليك بلدان بونت، حاملةً كافة النباتات الطيبة من (إنتاج) هذه المناطق، لتطلب منك السلام ولتمنحهم نسمة الحياة» (٢٦).

هكذا، فإن آمون المهيمن على الجهات الأربع، يجلب إلى الملك، بنظرة واحدة، مظاهر الشكر والحمد، من أركان الكون.

ففى هذه الأزمنة إذن، لم تعد مقومات السيادة والسيطرة تُستمدان من قوة السلاح وحده. فمنذ عصر تحوُّم الرابع، بصفة مؤكدة، وربما قبله بفترة قصيرة، شهد الشرق القديم، لعبة سياسية نشطة، قائمة على الدسائس والتحالفات، من أجل تحقيق وضع قائم على الهيمنة والسيطرة، لا يدوم طويلاً، فيتقوض بلا انقطاع. عندئذ تشكلت دبلوماسية، سوف تصبح من العناصر البارزة التى تقوم عليها السياسة الإمبراطورية للدول العظمى، لا بل سياستها الإمبريالية.

٢- الدبلوماسية الدولية

بعد أن أصبحت مصر تتمتع بالسيادة، على منطقة شاسعة، تمتد من البحر المتوسط شمالاً والفرات ولبنان والأردن فى الشمال الشرقى وسيناء شرقاً والنوبة وقسم من السودان حتى الجندل الرابع جنوباً، توقفت إذن عن التوسع فى فتوحاتها. فلم تسع إلى الأخذ بسياسة إمبريالية حقة، كما كان حال دول أخرى، تهدف إلى الاستحواذ على إمبراطورية شاسعة. فبعد أن جرّبت مصر قرنين من الإحتلال الأجنبى، وضعت نصب عينيها ضمان أمن الطرق الإستراتيجية والتجارية التى تربط آسيا بمصر، وتطوير قدراتها الإقتصادية من خلال السيطرة على شرق البحر المتوسط، وتدعيم سيطرتها على الثروات الأفريقية.

وبدا أن الوضع الدولى مستقر. فقد كانت مصر والميتانى حليفين، ولم يكن فى وسع خاتى أو آشور أن تتطلّعا إلى فرض سيطرتهم السياسية. كانت آشور على كل حال خاضعة للميتانى. أما إمبراطورية بابل فكانت قوتها الإقتصادية، شغلها الشاغل. وكان رجال الأعمال والموفدون السياسيون يقطعون طرق الشرق، فى حرية تامة، وفى مختلف الإتجاهات. ومع ذلك، أخضعتهم مصر لقدر من الرقابة، عند حدودها، حيث كان الحراس يسجلون يومياً، أسماء الأجانب الذين يدخلون البلاد ويخرجون منها، مع توضيح موطنهم الأصلى وعلاقة القرابة.

فى عام ١٨٨٧، وفى تل العمارنة، العاصمة العابرة للفرعون أمنحوتب الرابع، الواقعة على مسافة ٢٢٠ كم شمال شرق طيبة، عُثِر على لوحات صغيرة من الطين،

دُوت عليها كتابات باللغة الأكديّة والعلامات المسماريّة، وهى عبارة عن المراسلات الإداريّة والسياسيّة المتبادلة بين أمنحوتب الثالث، قرب نهاية عهده وعهد أمنحوتب الرابع، وبين كافة نول آسيا الكبرى وأمراء فينقيا وكنعان. وفى عام ١٩٠٦، وبينما كان الدكتور هوجو وينكلر Dr. Hugo Winckler، يقوم بأعمال التنقيب فى بوغاز-كوى، البلدة الواقعة على مسافة ١٤٥ كم إلى الشرق من أنقرة، وهى موقع خاتوسا، العاصمة القديمة للمملكة الحيثيين، أخرج إلى النور عشرة آلاف لوحة صغيرة، مدونة أيضاً بالعلامات المسماريّة وباللغة الأكديّة أو الحيثيّة، وكانت عبارة عن محفوظات خاتى الملكيّة، بدءاً من النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وحتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

إن عشرات آلاف الخطابات والوثائق الإداريّة هذه، تشكّل مصدراً رئيسياً لمعرفة العلاقات الدبلوماسية، المعقدة فى أغلب الأحيان، والقائمة وفقاً لظروف الدسائس التى يمكن أن نستشفها أحياناً، من خلال هذه المراسلات، والتعرف باختصار على أشكال عالم السلك الدبلوماسى ووسائله.

الأحلاف والاتحادات والمعاهدات

بعد صراع طويل وإغارة تحوتمس الثالث على أراضى الميثنى، كان هذا الأخير قد وقّع مع أمنحوتب الثانى حلفاً دفاعياً^(٣٧). كانت هذه التحالفات، لا تعقد بين الدول ولكن بين ملوك. فلما تسلم تحوتمس الرابع السلطة، جدّد المعاهدة المبرمة مع المملكة القويّة القائمة على ضفاف نهر الفرات. وبالمثل، فعندما ارتقى أمنحوتب الثالث العرش، أوفد السفراء إلى خاله شوتارنا الثانى، تأكيداً على الروابط القائمة بينهما.

وحول مصر، تجمعت كبرى نول الشرق، القلقة من «صعود نجم» الحيثيين وطموحات خاتوسالى الثانى وخلفائه.

كانت هذه الأحلاف الدفاعيّة تدعمها الزيجات السياسيّة. عندئذ أخذ حكام مصر وآسيا يمارسون سياسة نشطة، فى عقد الزيجات، استهلّها تحوتمس الرابع فى مصر. وسيصبح الزواج الذى يربط العائلات الملكيّة الشغل الشاغل للعالم الدبلوماسى

على امتداد سنوات حكم أمنحوتب الثالث. وعندما تربع توشراتا على عرش الميثاني، وهو ابن خال العاهل الملكى المصرى، طلب هذا الأخير من الأول، أن يتزوج أخته الأميرة جيلوخيبا التى سافرت إلى طيبة، وفى معيتها ٣١٧ فتاة. فقد كانت بيوت الحريم التابعة للملوك تضم أعداداً كبيرة من الفتيات.

كانت مصر تقيم مع بابل علاقات تجارية دائمة. وتدعيماً لها، تزوج أمنحوتب الثالث على التوالى، ابنة واخت الملك كاشمان خرب الأول. وفى المقابل، يبدو أن فرعون مصر، كان يجد غضاضة أن يُزوّج إحدى بناته لملك أجنبى. والشاهد على ذلك أحد خطابات ملك بابل، وإن كان أسلوبه أبعد ما يكون عن الأساليب التى تشدّ انتباهنا:

كاشمان - إنليل من بابل إلى أمنحوتب (الثالث) من مصر...

(بيد) أنك يا أخى، إذ بعثت إليك برسالة طالباً يد ابنتك للزواج، فكيف تستطيع إذن أن تراسلنى رافضاً طلبى بالعبارات الآتية: «منذ أزمنة موعلة فى القدم، لم تُقدّم ابنة ملك مصر، لكائن من كان ليتزوجها!» لماذا تتكلم على هذا النحو؟ أنت ملك وتتصرف كما يحلو لك. فإذا كنت تريد تقديم ابنتك للزواج، فمن يستطيع أن يلومك؟ فعندما أبلغونى هذا القرار، كتبت رسالة إلى أخى بالعبارات الآتية: «لاتنقصك البنات العظيمات، ولا النساء الجميلات. ابعث إلى امرأة جميلة باعتبارها ابنتك. فمن يجرؤ أن يقول: «هذه ليست ابنة ملك!»، أما أنت، فقد تمسكت بمبدأ عدم إرسال أحد، فلم تُرسل إلى أية امرأة. أما أنت، ألم تسع إلى إقامة علاقات أخوية وودية، عندما اقترحت على، كتابةً، عقد زواج بهدف ايجاد تقارب بيننا. فلماذا إذن لم يرسل إلى أخى امرأة؟... من الممكن أنك، لم ترسل إلى امرأة، أما أنا، فهل يمكنى مثلك، أن أرفض لك امرأة، ولا أرسلها لك؟ أما عن بناتى، فلن أرفض لك طلباً بهذا المعنى... وبشأن الذهب الذى طلبته، فارسل لى الآن، على جناح السرعة، فى بحر هذا الصيف... وقبل أن يصلنى رسولك، (ارسل) ذهباً بكميات كبيرة، وبقدر ما هو فى متناول يدك! هكذا سأتمكن من اكمال العمل الذى أقوم به^(٢٨). وإذا أرسلت إلى، الذهب الذى طلبته منك، فى بحر هذا الصيف، فسوف أعطيك ابنتى زوجة لك. هكذا،

إرسل كميات من الذهب، برضاك، ويقدر استطاعتك! ولكن إذا لم ترسل إلى الذهب... بحيث لا أستطيع استكمال العمل الذي أقوم به، فلماذا إذن أرسلت إليّ، منه في السابق برضاك؟ فبعد أن أنفذ العمل الذي أقوم به، تُرى لماذا أطلب بالذهب؟ فلو أرسلت إليّ مثلاً، ٣٠٠٠ تالان(*) ذهب، فلن أقبلها، وسوف أعيدها إليك، ولن أعطيك ابنتي زوجة لك^(٢٩)!

يا لها من حساسية مفرطة ومساومات لا تنتهي! وخطرسة فرعون مصر الذي يرفض تعريض سمعة ابنته مع أجنبي، وسوف يتصرف الرعامسة أيضاً على هذا النحو.

هكذا فسياسة السلام التي برزت من خلال الزيجات الملكية، قد ترتب عليها من جانب مصر، سياسة مالية جديدة كل الجدة. فمصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هي القوة المالية الأولى في العالم، فيؤسس الذهب صداقات جليلة الفائدة. إن الأحلاف المبرمة التي عززتها الزيجات التي عقدت مع مملكتي الميثاني وبابل، كانت قائمة على إتفاق مالي حقيقي، يلتزم فرعون بموجبه أن يقدم لحلفائه هبات هامة.

ولكن بابل الموفرة الثراء، كانت المركز الكبير لتجارة هذه الأزمنة. ولا شك أن ثروتها، كانت في أيدي التجار وليس الملوك الذين رأوا أنه من الأيسر الإقتراض من ملك مصر وفضلوه على رجال المصارف في بلادهم. فكان من السهل عليهم، مقابل ذلك تقديم بناتهم للزواج!

وعلى كل حال، فإن طبيعة المقابل، لهذه الهبات أو القروض، متنوعة. فيكتب توشراتا إلى أمنحوتب الثالث:

فليرسل إليّ، أخي ذهباً، بلا حدود، وبكميات كبيرة. وكل ما يشتهي أخى لبيته،

(*) تالان: مثقال يوناني قديم يساوي ٢٦ كيلو جراماً. المنجد في اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق. بيروت. ط٢. ٢٠٠١. (الترجم)

فليبلغني به. وسوف يتسلمه، لأننى سأعطيه كل هدية قد يشتاقي إليها أختى. لأن هذا البلد بلدك وهذا البيت بيتك(*) (٢٠).

هذا الوضع المرموق الذى احتله ملك مصر، وقيامه بإمداد ملوك زمنه بالذهب، كان فى الوقت نفسه بالطبع من أساليب السيطرة السياسية.

كانت العلاقات الدبلوماسية مع مملكة الآسيا(**) وثيقة جداً، ولكنها تكشف عن سياسة متميزة. وبالفعل كانت الآسيا دولة تجارية، يتركز جل نشاطها فى المجال التجارى. فالسفراء الذين يوفدون إلى بلاط مصر من التجار. وعندما يقرأ الباحث المراسلات المتبادلة بين الطرفين يبدو على الأرجح، أن معاهدة تجارية كانت قد وقّعت بين الدولتين، بمبادرة من ملك الآسيا، على ما يظن. كانت هذه المعاهدة تعفى السفن والبضائع القبرصية من الرسوم الجمركية عند دخولها مصر، مقابل استيراد كمية محددة من النحاس والخشب. ويرجع أن كمية النحاس كانت تتجاوز من بعيد الثلاثين طناً. ومن ناحية أخرى، كان فرعون ملزماً بحماية الأفراد القادمين من الآسيا وممتلكات تجارها عند قدومهم إلى مصر(٣١).

ومن بين المراسلات المتبادلة نختار هذا الخطاب:

إلى أختى، ملك مصر، هكذا يتحدث أخوك ملك الآسيا. أما فيما يخصنى، فكل شىء على ما يرام! أما فيما يخصك، فأملئى، أن يكون كل شىء على ما يرام! وأن كل شىء على ما يرام بالنسبة لبيتك ونسائك وأولادك وجيادك ومركباتك وكافة شئون بلدك فى الداخل.

ومن جهة أخرى، فقد علمت أنك تربعت على عرش بيت والدك... لقد وصلتني تحيات أختى، فى حين نقلت إليك واحد... من منئى تالان نحاس... مبعوثى يرحل بأسرع ما يمكن، بعد أن يضع لوحتى الصغيرة أمامك. واكتب لى إذن رسالة! لا ينبغى أن يستبقى أختى رجلى الذى تحدث معه. اتركه يرحل بأسرع ما يمكن! ليت

(*) ما زلنا نستخدم هذه العبارة للترحيب بالضيوف. (المترجم)

(**) قبرص حالياً. (المؤلفة)

مبعوثي يحضر سنوياً إلى جوارك. وفيما يخصني، فليت مبعوثك يحضر سنوياً إلى جوارى^(٣٢).

تشهد هذه الخطابات على وجود سفراء، يتم تبادلهم بصفة شبه منتظمة، وفي الوقت نفسه، على ظهور أولى القوانين الدولية.

السلك الدبلوماسي

لم يتوقف السفراء عن الترحال من بلاط ملكي إلى آخر، في طول الشرق الآسيوي وعرضه، ولكنهم لم يحملوا صفة السفراء المعتمدين، كما لم يكن لهم مقر ثابت: فيوفدون في كل مرة، في مهمة خاصة، ولا يقيمون في البلاط الأجنبي، إلا للفترة اللازمة، لانجازها على خير وجه. كانوا شخصيات رفيعة الشأن والموفدون الشخصيون للملك. وقد وصلت إلينا، ذكرى المصري: ماني، الذي كان لا يمتلك ناصية اللغات الأجنبية، فيصاحبه بالضرورة مترجم فوري، وأيضاً ذكرى الميتاني: جيليا الذي كان جميع أفراد أسرته منخرطين في السلك السياسي، وذكرى البابلي: سالمون. إنهم رجال لهم وزنهم، ويحسب لهم حساب، على صعيد الشؤون الدولية، ويستشيرهم الملوك شخصياً، في بعض الأحوال.

كانوا يكلفون بمهام متنوعة، وهي سياسية بطبيعة الأحوال: كمفاوضات الزيجات أو القروض أو الأحلاف أو معالجة بعض قضايا السياسة الدولية، من خلال مناقشات مسهبة لا تنتهي. كما تعددت على نحو خاص مهام المجاملات: فيوفد سفيرٌ محملاً بالهدايا لتحية أحد الملوك، بمناسبة اعتلائه العرش، أو بمناسبة إقامة حفلات رائعة في بلد من البلدان، أو عند زواج الملك أو بمناسبة تنصيب ملكة. وفي مصر، كان هذا الحدث يذاع على رؤوس الأشهاد في هيئة نصوص مدونة على جعارين. وكان شكلها الشبيه بشكل إله الفجر^(*)، يضيف على «النبأ» فاعلية سحرية تمهد لمصائر سعيدة. كانت تُنتج بأعداد كبيرة، ومنها على سبيل المثال، الجعران الذي يعلن زواج

(*) خيري. (المترجم)

أمنحوتب الثالث من «الزوجة الملكية العظيمة» تقي^(٢٢)، ويقوم السفراء بتسليمها إلى كافة القصور الملكية في ذلك الزمان. وعند وفاة ملك، يقوم السفراء أيضاً، بتقديم واجب العزاء إلى وريثه. وإذا مرض أحد الملوك، توفد بعثة لزيارته للاستفسار عن صحته.

هكذا تشكلت مجموعة قواعد وأعراف رسمية. كان عدم الإلتزام بها يعتبر عملاً فظاً، بل معادياً. فكانت ذات قيمة دولية. وتكتب المراسلات في الغالب، باللغة الأكديّة، وهي لغة بلاد آكاد، ومركزها بابل، منذ عهد حمّورابي^(*)، الفاتح والمشرّع. كان الأسلوب الدبلوماسي قد تحدد حتى أدق تفاصيله، ومجموعة الصيغ والعبارات لا تتغير ولا تتبدل. وفي عهد أمنحوتب الرابع، احتجّ سوبيلوليوما ملك خاتى، بسبب عدم الإلتزام بمجموعة القواعد والأعراف الرسمية، إذ تغيّر الترتيب المعتاد لأسماء الملوك.

أولى عناصر القانون الدولي

ترتب على ضخامة حركة انتقال البشر والثروات، عبر طرق الشرق، ضرورة تحديد التدابير العامة لتوفير الحماية، ووضع قواعد ملزمة للجميع، هكذا بدأ يتشكل القانون الدولي الأول.

كان التأثير الدائم منذ أربعة قرون لمدونة حمّورابي القانونية تأثير حاسم^(**). ومن المرجح أن بابل كانت الأصل الذي جاءت منه أولى «القواعد» التي تسعى أساساً،

(*) حمّورابي: دام حكمه ٤٣ سنة، ابتداءً من ١٧٣٠ ق.م، على ما يظن. (المترجم)

(**) قوانين حمّورابي مدونة على لوح من حجر البازلت ارتفاعه ٢٢٥ سم. من مقتنيات متحف اللوفر. عثرت عليه البعثة الفرنسية في مدينة سوس، في الموسم ١٩٠١-١٩٠٢. لمزيد من التفاصيل: Les collections du Louvre. Réunion des Musées Nationaux. 1999, p.41. أما قوانين حمّورابي فقد ترجمها إلى العربية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم في كتابه الموسوعي: مصر والشرق الأدنى القديم. المجلد السادس. دار المعارف. الطبعة الثانية - ١٩٦٧ ص ٥٢-٨١. ولا بأس إذا قام مشروع مكتبة الأسرة بإعادة طبع هذه الموسوعة الهامة. (المترجم)

إلى حماية الأشخاص والممتلكات المصاحبين للسفراء والتجار، أثناء ترحالهم فى البلدان الأجنبية.

فإذا تعرض أحد السفراء، ومن فى معيته، وهو فى أرض مصر أو إقليم تابع لها، إلى هجوم أو حادث سطو، يصبح ملك مصر مسئولاً عن هذا الإعتداء أو السلب والنهب ويتعين على الفرعون أن يقدم تعويضاً للأشخاص، عما أصابهم من أضرار. ومن جهة أخرى، كان يحمل السفراء جواز مرور، يؤكد على الحماية التى يجب أن يوفرها لهم هذا العامل الملكى أو ذاك. والشئ نفسه يتمتع به التجار.

أما عن ممتلكات المسافر الذى يقضى نحبه فى بلد أجنبى، وإذا تم الأعمال فى بعض الأحوال بمبدأ حق وراثته الطارئ (*) - أى أن تؤول ممتلكاته إلى ملك البلد الذى توفى فيه، فيمكن فى أحوال أخرى، الطعن فى هذا التصرف وإعادة الممتلكات إلى وطن المتوفى بالطرق الدبلوماسية.

● خطاب من ملك آلاسيا إلى فرعون:

إن مواطناً من آلاسيا توفى فى مصر، وممتلكاته موجودة فى بلدك، فى حين أن ابنه وزوجته فى آلاسيا. فليتكرم أخى إذن، بجمع ممتلكات مواطن آلاسيا ليضعها بين يديّ موفدى^(٢٤).

«يُقصد بذلك، تطبيق نظرية تدور حول مسئولية الدولة، يبدو أنها مشتقة مباشرة من قوانين حمورابى التى تحدد، فى واقع الأمر، فى ماديتها ٢٣ و ٢٤، أنه يحق لعمدة كل مدينة، ردع أعمال قطاع الطرق وإلقاء القبض على مرتكبى الجرائم، فى دائرة إختصاصه، وإحالتهم إلى القضاء، وفضلاً عن ذلك، فإذا أفلت المجرمين من الملاحقة القضائية، فيحق لضحاياهم أن يعترضوا على العمدة وعلى المدينة ليطالبوهم بالتعويض^(٢٥)».

هذا التقليد المتواتر الذى يبدو أنه يجعل من بابل المصدر الذى جاء منه القانون، يفسر بلا شك السبب وراء اختيار اللغة الأكديّة، لغة الدبلوماسية الدولية.

(*) الغريب. المعجم الوسيط. (المترجم)

هذا النظام القانوني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، فالآلهة هي الضامنة التي تكفل القانون برعايتها، وليس مجرد مصادفة أن يظهر هذا النظام في اللحظة التي أخذت الشعائر تتداخل، وظهرت كبرى المذاهب التليفقية *syncretisme* الدينية: فجمعت بين آلهة الزراعة رمز البعث والإحياء، ومنها أوزيريس وبعل وأونيس، وبين الآلهات الأم مثل حتحور وبعث اللتين شاع الخلط بينهما، منذ زمن بعيد، ولكن أيضاً عشتار أو عشتروت(*)، إن اندماج العقائد خير ضامن للوحدة السياسية وشرعية العلاقات القانونية.

وتظل طيبة في قلب السياسة الدولية.

٣- بلاط طيبة

تقع طيبة على البر الشرقي من نهر النيل، والمدينة مناخها حار، وهواؤها مليء بالأتربة وطين الذباب. المدينة صاحبة، بمينائها الذي ترسو فيه السفن القادمة من كل حدب وصوب، من بلدان الشرق، المدينة جامعة لمختلف الأجناس، وفي وسع المرء، أن يسمع الناس يتحدثون فيها كل اللغات الأجنبية. المدينة هي العاصمة الفخمة لإمبراطورية شاسعة.

فيها ذهب المعابد وأبهة القصور وثراء الديار وجوّ الحقائق العليل، وفيها أيضاً، الحوارى الصغيرة المبلطة تبليطاً سيئاً، تحفها المنازل المنخفضة بشبابيكها الضيقة، والدكاكين المشيدة تشييداً عشوائياً، ففيها يعيش جمهور من الحرفيين. أما سواد الشعب من أبناء طيبة، المتعاملون مع البلاط الملكي والمنتفعون من الثروات التي تتكدس في المدينة، والمساهمون في ازدهارها، هؤلاء الأفراد الذين لا نعرف عنهم شيئاً معرفة حقيقية، كان يحلو لهم الإختلاط بكبرى الأعياد، فيهللون فرحين مبتهجين.

(*) عن هاتين الإلهتين راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتي.

دار المستقبل العربى - ٢٠٠١ - ص ٢١٩-٢٢٠. (الترجم)

القصور والأعياد اليوبيلية

وبطبيعة الحال، كانت القصور قائمة في الأقصر. ولكن أصدر أمنحوتب الثالث أمره، في العام ٢٩ أو ٣٠ (؟) على ما يعتقد، بتشيد مدينة ملكية، على البر الغربى، لا تبعد كثيراً عن مدينة هابو(*)، وربما امتدت لتلاصق حدود المعبد الجنائزى لهذا العاهل الملكى، القائم خلف تمثالى ممنون. إن قصر ملقطة وملحقاته التى كانت تغطى أصلاً ٢٢٦٨٠٠ متراً مربعاً(**)، شُيدت فوق أرض بكرٍ تماماً. أما الآن، فإن دماراً شاملاً قد لحق بالقصور. كانت ملقطة تضم أربعة قصور ملكية خُصص أحدها للملكة تى ومعبداً للإله آمون، به مقصورة للإله رع وقاعة للأعياد وديار فخمة. وإلى الجنوب الشرقى من هذه «المدينة»، حفر مرفأً صناعى فسيح، هو بركة هابو. وتلتزم زخارف القصر إلى حد كبير بجماليات المذهب الطبيعى، وتُرهِص بزخارف قصر أمنحوتب الرابع، فى تل العمارنة.

ذهب البعض إلى أن إقامة منطقة للقصور الملكية فى البر الغربى الذى كان مخصصاً تقليدياً للجبانات، إنما يعتبر سلوكاً مناوئاً لكهنة الكرنك، ورغبة من أمنحوتب الثالث فى الابتعاد عنهم. ومن المؤكد، أن نهاية عهد العاهل الملكى، قد شهد قيام معارضة حادة بين رجال الدين والفرعون، فكانت إرهاباً مهدد لعصر العمارنة القصير.

إن بعضاً من أعياد اليوبيل الثلاثة التى احتفل بها أمنحوتب الثالث، بل وربما جميعها أقيمت فى ملقطة. ولكن، لم تصلنا عن هذه الأعياد المكرسة لاستعادة حياة العاهل الملكى وتجديدها، سوى معلومات غير مباشرة ومتفرقة، بل ومتناقضة أحياناً.

ففى مقبرة خرو إف(***) الكاتب الملكى ورئيس استقبال الملكة تى وخازنها، فى وسع المرء أن يقرأ النص الآتى:

(*) فى نجع كوم لولج. (المترجم)

(**) أو ما يعادل ٥٤ فداناً، أو أقل قليلاً من مساحة معبد الكرنك (٦٣ فداناً). (المترجم)

(***) وهى المقبرة رقم ١٩٢ بالعساسيف. (المترجم)

اليوم.... من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام ٢٠... ظهور... (تلى مجموعة الألقاب الملكية) أمنحوتب، حاكم طيبة ورب القوة، ابن آمون، الذى سيتربع على عرشه، بينما يتواجد فى قصر أعياد اليوبيل، الذى شيده إلى الغرب من المدينة^(٢٦)، (ملقطة).

وهناك إشارة غير مؤرخة إلى عيد اليوبيل الأول الذى احتفل به أمنحوتب الثالث. وقد وردت على تمثال يصور خع إم واست وزوجته، وقد جادت به مدينة بوياسستس. ويحمل الرجل ألقاب «قائد رماة السهام والمشرف العام على بلاد الشمال ومقدم العرائض إبان أول الأعياد سد^(*)(٢٧)».

أما ما نعرفه عن اليوبيل الثانى فى العام ٢٤، فينحصر فقط فى التنويهات الواردة على لصائق الجرار التى عثر عليها فى أطلال قصر ملقطة. فمن بين ٤٠٤ لصيقة نجد أن ٢٨٠ منها، مؤرخه بالعام ٢٤، وتذكر الديباجة الآتية: «من أجل تجديد العيد سد لصاحب الجلالة». ومن المفترض أن هذا اليوبيل قد اكتسب أهمية ملحوظة. ولا يستبعد أن يكون معبد آمون القائم ضمن المجموعة الملكية بالبر الغربى، قد شُيّد بهذه المناسبة^(٢٨).

أما تاريخ ثالث أعياد اليوبيل فيختلف باختلاف المصادر.

فتعلن مدونة بسرايط الخادم فى سيناء:

اليوم التاسع، من الشهر الثانى، من فصل الإنبات، من العام ٢٦، فى عهد صاحب الجلالة... أمنحوتب، حاكم طيبة، كان صاحب الجلالة فى مدينة الجنوب، فى قصره بالبر الغربى من مدينة طيبة. فصدر الأمر إلى الكاتب الملكى، المشرف العام على الخزينة: سويك حوتب، المدعو پانحسى، بجلب الفيروز، عندما كان صاحب الجلالة (يحتفل) بثالث أعياد اليوبيل^(٢٩).

ويتحدد التاريخ نفسه، فى مدونة بمقبرة خروإف:

(*) أى عيد اليوبيل. (المترجم)

العام ٢٦. دخول الأصدقاء... إبان ثالث الأعياد سد، لصاحب الجلالة من قبل... خروإف (٤٠).

غير أن لصائق جرار ملقطة تحدد هذا التاريخ بالعام ٢٧ أو العام ٢٨. وتذكر ٢٢٥ لصيقة العام ٢٧، في حين تذكر لصيقتان فقط العام ٢٨. ولكن النص المدون صيغ على النحو الآتي: العام ٢٧. نبذ ثالث عيد سد لصاحب الجلالة (٤١). وقد نذهب إلى الظن، بأن هذا النبذ الذي يحمل لصيقة مؤرخة بالعام ٢٧ أو العام ٢٨، يخص جنى العنب الذي تم لحظة العيد اليوبيلي في العام ٢٦، ولكن لم يُصب في هذه الجرار ليُعتق، إلا في تاريخ لاحق.

ويتضح من ذلك، أن الكثير من الحفلات الرسمية في هذا العهد كانت تقام في ملقطة.

الملكات والزوجات

في عهد تحوتمس الرابع، عاشت «زوجتان ملكيتان عظيمتان» في الأقصر: موت إم ويا الميتانية و يعرت، وشاركت كلاهما في حياة البلاط الملكي.

إن الملكة تتي الزوجة العظيمة للملك أمنحوتب الثالث، كانت المحبوبة المفضلة وصاحبة فكر سياسي ثاقب. لقد احتفظت التماثيل والنقوش بصورة لوجه تميل تقاطيعه إلى البروز، ووجنتاه ناتئتان وذقنه مدببة، وتتخذ في الغالب مظهرًا أبعد ما يكون عن السماحة والرقّة – إنها سيدة جليلة القدر.

إن واحدة من هذه الصور، وهي تمثال صغير من الحجر المطلي بالمينا الخضراء، ومن مقتنيات متحف اللوفر Le Louvre، في الوقت الراهن، قد مرّ بمغامرات لا تنتهى. ففي عام ١٨٢٦ حصل شامپوليون Champollion لصالح متحف اللوفر، على الجزء الأسفل من تمثال صغير من الحجر المطلي بالمينا الخضراء للملكة المذكورة. كان هذا التمثال الصغير يضم في الأصل صورة الملك التي كانت قد

اختفت. وكان عالم المصريات الفرنسي، قد حصل على هذه القطعة الأثرية ضمن غيرها من قطع مجموعة سالت(*) Salt. ثم قامت ثورة ١٨٢٠(**)، وسُرق «نصف التمثال» من المتحف مع غيره من القطع، ثم بيعت بعد ذلك بطريقة غير مشروعة. ولكن استطاع متحف اللوفر استعادة هذه القطع، نظير تعويض دفعه للملاك الجدد. ثم نصل إلى ما يرويهِ جاك فاندبييه(***) Jacques Vandier أمين متحف اللوفر: «أما بقية القصة فتعود إلى تاريخ قريب. ففي أغسطس ١٩٦٢، أحضر لنا أحد موردي متحف اللوفر الجزء العلوي من تمثال للملكة تتي وهو من الحجر المطلي بالمينا الخضراء. ومن السهل التكهن بما حدث بعد ذلك. إنه الإنطباع الواضح الذي يتركه واقع سبق معرفته، فعلى الفور استعادت الذاكرة قطعة سالت Salt الأثرية، وجرى البحث عنها، ومضاهاة القطعتين، لتحدث أخيراً «المعجزة» فقد بلغ تطابق الجزئين حداً من الكمال، حتى صار من الصعوبة بمكان، أن يلاحظ المرء أن التمثال الصغير كان يتكون أصلاً من عنصرين، ظلاً منفصلين لمدة ١٢٦ سنة، إلا إذا كان يعرف ذلك، من قبل. يا لها من سعادة، لا يشعر بها من يعمل أمين متحف، إلا في النادر القليل، وبصورة إستثنائية(****)... ولكن من البديهي، أن هذه السعادة لن تكتمل إلا بعد أن يكون قد الجمع بين الزوجين(٤٢)».

(*) (هنري سالت Henry Salt: القنصل العام لبريطانيا العظمى في مصر في مطلع القرن التاسع عشر. (المترجم)

(**) (الإشارة هنا إلى ثورة يوليو ١٨٢٠، في فرنسا، التي أتت بالملك لويس - فيليب Louis-Philippe إلى العرش. (المترجم)

(***) (من علماء المصريات الفرنسيين البارزين وصاحب الموسوعة الشهيرة:

Manuel d'Archeologie Égyptienne

وهي في ستة أجزاء موزعة على ثمانية مجلدات. وقد توالى صدورها من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٨.

وللأسف لم تكتمل هذه الموسوعة. (المترجم)

(****) (يمكن تأمل الصورة الرائعة لهذا التمثال في:

G. Andreu, M.-H. Rutschowskaya. Ch. Ziegler: L'Égypte Ancienne au Louvre,

(المترجم) Hachette, 1997, p.121.

ففى مجال علم المصريات، من الصعوبة بمكان التكهّن، بما يخفيه المستقبل من كشوفات، غير منتظرة. فإن يكون المرء عالم مصريات، يعنى توقع «المعجزات».

كانت تىى تنتسب إلى عائلة تعود إلى أصول متوسطة الحال، وتنحدر على ما يعتقد من منطقة كويتوس، وقد أنعم عليها الملك بأعلى المراتب. ولا تنعت هى ووالديها، بأى لقب، فى النص الرسمى الذى أعلن زواجها، والمنحوت على الجعارين التى تم توزيعها فى بلاط كل ملك من ملوك البلدان الأجنبية:

فليحى... (مجموعة ألقاب الملك) والزوجة الملكية العظيمة تىى. اسم والداه يويا. واسم والدتها تويا. إنها زوجة الملك القادر الذى تمتد حدوده الجنوبية حتى كاروى والشمالية حتى نهارينا^(٤٣).

أصبح يويا فيما بعد، خازن ملك مصر السفلى والأب الإلهى وخادم الإله مين والمشرف العام على قطعان مين والمشرف العام على المركبات وقائمقام صاحب الجلالة وأثير الحورس الذى فى القصر وأثير سيده آمون. كما أنعم عليه بألقاب شرفية أخرى، فى البلاط الملكى، فكان «فم ملك مصر العليا وأذنى ملك مصر السفلى»^(٤٤).

أما تويا فقد أقرت بصفتها «زينة الملك». وصارت منشدة آمون والسيدة العظيمة فى حريم آمون والسيدة العظيمة فى حريم مين.

أما عائن أخو تىى، فكان الخادم الثانى للإله آمون وكبير كهنة هليوبوليس والكاهن سم فى هرمونتيس^(٤٥مكد).

تمّ الزواج فى بداية العهد، وقبل العام الثانى، وهو التاريخ الذى ظهر فيه اسم تىى ضمن قائمة ألقاب الملك. فسرعان ما احتلت الملكة مكانة مرموقة فى الحياة السياسية. ولأول مرة، تضمّنت قائمة ألقاب الملك، اسم الملكة على النحو الآتى:

العام...، فى عهد الملك أمنحوتب. والزوجة الملكية العظيمة تىى.

لقد استهلّت عرفاً، سيظل معمولاً به حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ليختفى بعد ذلك ولا يعود إلى الظهور.

إن الألقاب والنعوت التى تحلّت بها تىي، تشهد على ما نالت من حظوة مرموقة لدى العاهل الملكى:

السيدة النبيلة، الأثيرة الجليلة القدر، سيدة الشاطئين، الرقيقة القلب، المتسيّدة على مصر العليا ومصر السفلى، صاحبة الهيبة المرموقة والزينات المقدسة^(٤٥). سيدة السرور، التى تتولى أمر النسمات^(٤٦).

العديد من هذه الألقاب، هى ألقاب فرعون المعتادة، وإن كانت فى صيغة المؤنث. وفى زمن لاحق، سوف تتمتع نفرقارى بحظوة مشابهة، لدى رعمسيس الثانى^(٤٧).

وفيما يلى، هذه الجملة المنحوتة فى مقبرة خروإف، الخادم المخلص، والتى تكشف عن المكانة المرموقة التى تبوأتها الملكة تىي فى بلاط الملك:

الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته تىي. إنها تقيم فى معية صاحب الجلالة، تماماً كما أن ماعت تصاحب رع^(٤٨).

إن أمنحوتب الثالث وتىي، وجهان للكيانين الإلهيين اللذين يضمنان وحدة العالم وتماسكه وترابطه. فلم يحدث أبداً من قبل، أن توحد الزوجان الملكيان، على هذا النحو، مع النظام الكونى والإلهى.

ولا ريب، أن إنعامات الملك ورعايته لها، كانت من الأهمية بمكان، فى هذا الصدد. فمن أجلها أمر «بإقامة» بحيرة شاسعة، للترويح عن نفسها، صالحة لسير القوارب، وكان افتتاحها مناسبة لإصدار سلسلة من الجعارين. وذهب الكثيرون إلى اعتبارها هى وبركة هابو، القائمة بجوار قصر ملقطة، شيئاً واحداً.

اليوم الأول، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام ١١، من عهد صاحب الجلالة... (قائمة ألقاب الملك) والزوجة الملكية العظيمة تىي، أمر صاحب الجلالة بإقامة بحيرة (أو: حوض) للزوجة الملكية العظيمة تىي بمدينة تىي فى جعروخا. كان طولها ٣٧٠٠ ذراع (١٩٢٤ متراً) وعرضها ٦٠٠ ذراع (أو ٧٠٠ ذراع فى بعض القراءات، أى ما يعادل ٣٦٤ متراً). وفيما بعد، وفى اليوم السادس عشر، من الشهر

الثالث، من فصل الفيضان، وبمناسبة إحتفال صاحب الجلالة بعيد فتح - البحيرات (أو الأحواض)، شق الماء على متن القارب الملكى (المسمى) «آتون - المتألق»^(٤٩).

هل كانت بحيرة للترويح عن النفس؟ أو حوضاً لرى أراضى الملكة؟ وعلى كل حال فقد انتهى العمل فى ظرف خمسة عشر يوماً. ومؤخراً، أورد جان يويوت^(*) Jean Yoyotte البراهين المؤيدة للفرضية الثانية^(٥٠)، إستناداً إلى العبارات المستخدمة، واحتمال تحديد موقع چعروخا، فى منطقة كويتوس، موطن تىي الأصلى.

ومن أجلها أيضاً، أمر العاهل الملكى، بإقامة معبد فى صادنقة على بعد ٢١٠ كم، جنوب وادى حلفا^(٥٠ مكر).

ومن اقتران أمنحوتب الثالث «بالزوجة الملكية العظيمة»، رُزق بخمس بنات وابن واحد الذى سيصبح فيما بعد أمنحوتب الرابع.

وفى العام العاشر، وصلت إلى بلاط طيبة، «زوجة ملكية عظيمة» ثانية، هى جيلوخيبا، شقيقة ملك الميتانى^(٥١).

وقام أمنحوتب الثالث بالاقتران بعدد من بناته، ممهداً السبيل لتجارب الرعامسة الزوجية. وقبل العام ٣١ من عهده، تزوج سات آمون واسمها يعنى «ابنة آمون» التى تحمل بالفعل لقب «الزوجة الملكية العظيمة»، فى آن واحد، مع والدتها تىي. وهذه الحقيقة معلنة بوضوح، على عدد من القطع الأثرية. نذكر على سبيل المثال، شريطاً من الأبنوس، جاء من صندوق صغير، وقد دُونت عليه الألقاب الآتية:

الإله الكامل، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع، ابن رع: أمنحوتب، حاكم طيبة. ابنة الملكة، الزوجة الملكية سات آمون التى ولدتها الزوجة الملكية العظيمة تىي^(٥٢).

ويذهب بعض علماء المصريات إلى احتمال أن يكون توت عنخ آمون، ثمرة هذا الزواج، لأن أصوله ما زالت، غير مؤكدة^(٥٣)، ولكن هذا رأى يحتاج إلى أدلة تبرهن عليه.

(*) (عالم مصريات فرنسى. (المترجم)

(**) لم يُدَوِّن الاسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

ومن المحتمل أيضاً، أن أمنحوتب الثالث، قد تزوج إحدى بناته الأخريات، وهى إيزيس، وربما ابنة ثالثه، هى خنت - تا - نب (أى: تلك - التى - تقف - على - رأس البلد - بأسره) (٥٤).

أتعنى هذه الوقائع، فى إطار الأيدنيولوجيا المصرية، حالة من حالات جماع المحارم؟ ففى الإمكان النظر إلى هذا الزواج على هذا النحو، إذا كان الأمر يتعلق بعائلة غير ملكية، لأن المصريين كانوا لا يميلون أبداً إلى الحرية الزائدة فى مجال الأخلاق والآداب العامة (*). ولكن، لما كان الأمر يتعلق بفرعون، يصبح الفكر مختلفاً. لقد رأينا مدى اهتمام الملوك باستمرارية نسل الأسرة الملكية الحاكمة ونقاء الدم الذى يجرى فى عروق الملوك، ومن جهة أخرى، فالفرعون من جوهر إلهى. كان أمنحوتب الثالث ابن «أجنبية»، وهو ما كان يحدث لأول مرة فى تاريخ مصر، فربما أراد بهذا السلوك أن يتجسد فى ابنته من أجل «استرجاع» نقاء الدم أو الحفاظ عليه فى المستقبل. وقد سبق له، أن أعلن انتماءه إلى عالم الآلهة بصفته «ابن آمون - رع»، عن طريق الولادة الإلهية (**). وما كان يعتبر فعلاً مستهجناً ومداناً فى العصور القديمة، كما فى الوقت الراهن، بالنسبة لعائلة عادية، لم يكن على هذا النحو، فى نظر العائلة المالكة التى ظلت إلى حد كبير، بعيدة عن المعايير المطبقة فى المجتمع البشرى.

كما شهد البلاط الملكى المحظيات المصريات، بلا شك، والأميرات الأجنبية اللواتى شكن حريماً رائعاً، وإن كان لا يدانى سخاء عصر الرعامسة وبذخه، واللواتى أخذ أعدادهن يتعاظم مع التطور السلمى للعلاقات الدولية.

(*) وما زالوا. (المترجم)

(**) كما صورها فى معبد الأقصر. (المترجم)

كبار المسئولين

إلى جانب تحوتمس وحيو الوزيرين فى عهد تحوتمس الرابع، بالتزامن مع وزير الشمال أمنحوتب، ومن بين كبراء البلد وأعيانها، فإن رع مس الذى شغل منصب الوزير فى طيبة، قرب نهاية عهد أمنحوتب الثالث، نعرفه أكثر من غيره، كما كان أرفعهم شأنًا، وظل يباشر وظيفته فى العام ٣٠، أثناء الإحتفال بعيد اليوبيل الأول للعاهل الملكى. ومقبرته التى تم الكشف عنها فى الشيخ عبد القرنة وتحمل رقم ٥٥، هى واحدة من أجمل مقابر الجبانة(*)). لقد انتهى العمل فيها فى عهد أمنحوتب الرابع. وتعتمد معظم زخارفها على النقش البارز وليس الرسومات(**). وتبرز بوضوح الانتقال بين أسلوبى عصرين. إن أشكالها الرائعة الجمال الأكاديمى، ورقة ملامحها ومرونة أجسادها، وأناقة أزيائها وحليها، تعبّر عن رغد العيش وبذخه، بل إن سلاسة خطوطها وليونتها، إذا صحّ القول، وكلها من سمات زمن أمنحوتب الثالث، تختلط إختلاطًا ملحوظًا بواقعية نقوش زمن أمنحوتب الرابع، وخطوطها القلقة المضطربة. أمّا زخارف المقبرة فتقتصر فقط، على الفناء وبهو الأساطين، حيث ظلت حجرة الدفن ناقصة لم يكتمل العمل فيها، ويرجع السبب فى ذلك بلا شك، إلى القلاقل الخطيرة التى سادت هذا الزمان.

كان موظفًا ذا همة وحمية، مخلصًا للملك. فيعلن أنه أمضى حياته على الصدق والوفاء، وهو ما يقوله فى سياق صلاة إلى أوزيريس، صاغها فى صحبة زوجته مريت - بتاح منشدة آمون:

إنى أحضر الآن فى سلام، بعد أن أتممت زمن الحياة وقد أغدق على الإله الكامل (الملك) العطاء. لقد انجزت ما كان يرجوه الناس، وما تبتهج له الآلهة. كما

(*) إلى جانب مقبرة رخ مى رع رقم ١٠٠ ومقبرة متنا رقم ٦٩ ومقبرة نخت رقم ٥٢ ومقبرة سن نفر رقم ٩٦، على سبيل المثال. (المترجم)

(**) من المناظر الشهيرة فى هذه المقبرة، تلك التى تصوّر موكب الجنائز ومشهد ولولة النائحات، وقد رسما بالألوان على الجدار الجنوبي. (المترجم)

فعلت ما يمتدحه الملك، فى زمانى. لم أخالف أوامره ولم أرتكب شراً، فى حق الشعب، وأقمت العدالة على الأرض، لأننى أعلم حق المعرفة، أنك لا تكفّ عن الإطراء على صاحب القلب الصادق الذى لم يرتكب ما هو ردى^(٥٥).

إن كبار أحبار آمون، ونذكر منهم على التوالى: أمن إم حات و باك إن خونسو و مر إن پتاح الذى كان يشغل منصبه فى العام ٢٠، من عهد أمنحوتب الثالث، كانوا أساساً من كبار الشخصيات الدينية فى طيبة. ولكن مع پتاح مس، عاد رجال الدين ليصبحوا رجال دولة، وأخذ كهنة آمون يستعيدون مؤقتاً قدراً من نفوذهم، بعد أن ظلوا بعيداً إلى حدّ ما، عن الشؤون الدنيوية. ولكن ماذا كانت أصول پتاح مس، على وجه التحديد. إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال، فقد جمع بين منصبى كبير كهنة آمون ووزير الجنوب، على غرار حيوسنب و من خپر رع سنب، من قبله. وفضلاً عن ذلك، فقد كان «مدير كافة أشغال الملك»، بل وشخصية ذات نفوذ عظيم.

ويحتفظ متحف مدينة ليون Lyon بوسط فرنسا بلوح حجرى يحمل اسم هذا الشخص، ورقمه ٨٨. وقد صُوِّرَ فى الجزء المقوس فى أعلى اللوح، متعبداً للإله أوزيريس. ثم يمثل بعد ذلك فى صحبة زوجته إبنى، رئيسة محظيات آمون، أمام مائدة قرابين، ويسير فى اتجاهها، ابناهما حاملين باقات زهور مركبة، وبناتهما الخمس، وجميعهنّ «منشدات آمون»، وهن يحركن المصلصات: يقول النص على امتداد عشرة أسطر:

إغداق الثناء بالتهليل، على أوزيريس، الإله المحبوب. يا لها من متعة أن يُجزل لك الثناء. أنت الواحد المتفرد. وتظل الكائن الذى وُجد قبل أى وجود، الذى خلق السماء، الذى خلق الأرض، الذى ما فتى يُشبع البشر، لأن الأرض تحيا من خَلْقِكَ.

ليته، يعطى كل ما يرتفع على الدوام، فوق مائدة قرابينه، بعد أن يأخذ منه ما يكفيه. ليت، يعطى مع مطلع كل فصل (من فصول السنة) الآلاف من كل شىء طيب وطاهر ونضر، من النبيذ واللبن، من الموجود فى معبده - من أجل كا كبير كهنة آمون، وأمير مدينة الجنوب، الوزير پتاح مس.

الشكر والحمد لك،

- أيا رع - أتوم - پتاح، العظيم القائم جنوب جداره،
- أيا تحوت، يا سيد الكلمات الإلهية،
- أيا سخمت، العظيمة، محبوبة پتاح، التى تتصدر الآلهة جمعاء،
- أيا أوزيريس، يا أول أهل الغرب،
- أيا حورس، المنتقم لأبيه،
- أيا إيزيس، العظيمة والأم الإلهية، سيدة السماء التى خلقت كمالها،
- أيا حتحور، القائمة على رأس الجبانة،
- أيا أونوريس - حورس، رب (مدينة) ثنى،
- أيا محيت التى تقيم فى بحدت،
- (أيا جميع هذه الآلهة) التى تحيا من الحقيقة والعدالة وتنبت الشر.

أجل، إنى قادم، إلى جوارك أنت، فانا طاهر، وقلبي طاهر. إنى نزيه تجاه رع وصادق - القول، إلى جوار أوزيريس. لقد انجزت ما برح البشر يشيرون به وما ترضى عنه الآلهة. لقد أعطيت الجوعان خبراً وأطعمت المعوز حتى الشبع. لقد لازمت الحورس (الملك) فى قصره وفى إنعاماته وفى حبه. لم أرفع صوتى بجوار رجال البلاط، لم أتصرف بالسحر ضد (إنسان) أعظم منى شأنًا. لم أصعد بخطوات واسعة درجات العرش المهيّب. كان سلوكى مطابقاً للحقيقة والعدالة اللتين يحبهما الملك، عارفاً أنه يحيا بهما. لقد بقيت ساهراً فى مكانى (طوال الليل) لأشيد بمجده. كنت واقفاً عند الفجر لأتعبد إليه، على مدار الأيام. كان قلبى وفكرى يستبقان ما يقوله. لم أتجاهل شيئاً أمرنى به. واستطعت أن أفعل ما فعلته، بفضل هدوئى ورباطة جأشى، وكان سيدي يمتدحنى لأن تأثيرى كان مواتياً (طوال الفترة) التى بقيت فى معيته. لقد تفوهت بهذه الكلمات المطابقة للحقيقة، دون أن تعترىها الأكاذيب.

ولذا، فليت الناس يعملون من أجلى، ليت الملك يقدم قرباناً (إلى) الإيماخو بجوار أوزيريس، إلى كبير كهنة آمون والوزير پتاح مس الذى ما برحت كلمته ترضى البلاد بأسرها.. إلى المشرف العام على كافة أشغال الملك، ورئيس كهنة الآلهة جمعاء.

(ليت الملك يمنحه أيضاً) دفنة، بصفته صادق - القول، حتى يمرّ في سلام بجوار الآلهة في مقبرته بالجبانة، مقره في مدينة الزمن الأبدى، والمكان الذي سيقم فيه (من الآن فصاعداً) (٥٦).

يستحق هذا النص أن يتركز عليه، جلّ إهتمامنا، لأنه يكشف عن فكر ديني، أخذ في التطور. فمن الملاحظ أن اسم آمون لم يذكر في النص، رغم أن جميع هؤلاء الأشخاص، بما فيهم كبير الكهنة ذاته، يعملون في خدمة إله الكرنك. بل تذكر أسماء آلهة عواصم مصر القديمة السياسية والدينية مثل ثني ومنف وهليوبوليس وأسماء آلهة الدورة الأوزيرية، وغيرها من العناصر البارزة في مجمع الآلهة المصرية. فهل كان يتاح مس، الموظف الأمين في خدمة الملك، والذي يتمتع بكبر قدر من رعاية الملك وإنعاماته، والوزير المرموق، هل كان يلتزم، على هذا النحو، «بسياسة ملكية»؟ فحاول فرعون في البداية تحجيم سلطة آمون المتعظمة، فأعاد إلى شعائر الآلهة الأخرى ما تستحقه من أهمية؟ الأمر الذي سينتهي في زمن لاحق إلى رد فعل معاكس، في شكل تعصب أمحنوتب الرابع وتشدده.

ومن جهة أخرى، فالإبتهال الوارد في مطلع النص، يلتزم عند التضرع إلى مختلف الشخصيات المقدسة، بالصيغة الآتية: «التحية لك»، وإن عاد النص فيما بعد، وفي نهاية «قائمة الآلهة»، إلى استخدام صيغة الجمع عند الإشارة إليها. ربما كان ذلك مثلاً عن هذه الحركة التوفيقية(*) syncretiste المميّزة للأسرة الثامنة عشرة التي كانت تنظر إلى الآلهة باعتبارها أقانيم لوجود إلهي، يشملها كلها. وإذا أقدم أمحنوتب الرابع، فيما بعد على «اختزال» مجمع الآلهة، فإنه لم يقدم في الحقيقة، على عمل مبدع.

(*) التوفيقية syncretisme: الجمع بين عناصر متميزة عن بعضها البعض مستمدة من أنساق مختلفة ووضعها في نسق واحد وهو المقابل لمذهب التوفيقية éclecisme: الجمع بين آراء أو مذاهب مختلفة ومحاولة التأليف بينها لتكوّن مذهباً واحداً. (د. أحمد زكي بدوي. معجم العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، ١٩٨٦). (المترجم)

كما لعب كهنة پتاح فى منف بوراً هاماً. إن شخصاً آخر يدعى أيضاً پتاح مس الذى يحتفظ له، متحف مدينة فلورنسا الإيطالية بلوح حجرى، وهو ابن الوزير تحوتمس، قد شغل منصبه، قرب نهاية عهد أمنحوتب الثانى، ومع مطلع عهد تحوتمس الرابع، وكان كبير كهنة إله منف. كما أسند إليه أيضاً لقب «رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى»^(٥٧)، وكان هذا المنصب من المناصب التى يستأثر بها كهنة آمون. أكان إمتيازاً شرفياً أم صراعات حول مناطق النفوذ؟

كما أن پتاح إبرى، وهو كبير كهنة آخر، فى خدمة الإله پتاح، كان «الإبن البكر الملكى للإله آمون»^(٥٨).

هكذا نستشرف بكل وضوح بزوغ حركة دينية واسعة.

كان نواب - الملك الذين أطلق عليهم فى عهد أحمس اسم «الأبناء الملكيين، رؤساء بلاد الجنوب»، قد أصبحوا منذ عهد تحوتمس الرابع، يحملون لقب «الإبن الملكى فى كوش»، وربما يعود أصل هذه التسمية إلى الرغبة فى التفرقة بين نائب - الملك أمنحوتب الذى كان يشغل هذا المنصب، والابن الملكى الحقيقى، الأمير أمنحوتب الذى سيصبح أمنحوتب الثالث. ومما لا شك فيه أيضاً، أنه كان وسيلة لغوية لضمان السيطرة المصرية على السودان. واعتباراً من تحوتمس الرابع أيضاً، شُرف نائب - الملك بإضافة لقب «حامل المروحة عن يمين الملك»، إبرازاً للروابط الشخصية والحميمة القائمة بين الفرعون والمسئولين عن إمبراطورية الجنوب.

إن أمنحوتب الذى ظل يشغل هذا المنصب فى السنوات الأولى من عهد أمنحوتب الثالث، يحمل إذن هذين اللقبين على تمثال مهشم جادت به دير المدينة، ويصوره راکعاً ممسكاً بلوح حجرى مائل^(٥٩). كما أنه «الكاتب الملكى والمشرف العام على قطعان آمون». ومن ثم، نجد أن بعض المناصب المرتبطة بأمالك الكرنك، كان يُعهد بها إذن إلى كبار الموظفين، البعيدين فى الغالب عن العاصمة، ولكنهم من رجال الملك الأوفياء. أكانت ألقاباً شرفية أم نظرة إرتياب حيال كهنة طيبة؟ إن مرى مس، «الإبن الملكى فى كوش ورئيس بلدان الجنوب»، ظل يشغل منصبه خلال معظم سنوات

عهد أمنحوتب الثالث. إن ألقابه الأخرى المذكورة بمقصورته رقم ٢٦ فى جبل السلسلة، تتيج لنا أن نذهب إلى أنه قد أشرف على «تدريبات» أحد الأعياد اليوبيلية الخاصة بالفرعون أمنحوتب الثالث، الذى أقيم فى صولب بالسودان^(٦٠). ومقبرة مري مس، قائمة فى البر الغربى من مدينة طيبة، فى جبانة قرنة مري^(*). وبالفعل فإن موقع الشيخ عبد القرنة، قد حُفرت فيه أعداد كبيرة من المقابر حتى أن كبراء الدولة وأعيانها فى العهود الأخيرة من الأسرة الثامنة عشرة «أُخِنُوا بهاجرون» إلى قرنة مري، وهى نتوء صخرى، يقع إلى الجنوب الغربى من الرامسيوم. وكان مري مس أول من دفن فيها. وربما أراد على هذا النحو، أن يقترب من المعبد الجنائزى لسيده الملكى. وللأسف فقد عانت مقبرته من دمار شديد. وتابوته الحجرى موجود فى المتحف البريطانى.

يبدو أن هذا العصر لم يشهد إثارة أى مشكلة هامة، حول إدارة أراضى الجنوب وذلك فى حدود علمنا، على الأقل.

المعماريون والنحاتون

فى هذه الأزمنة التى شهدت كبرى مشاريع البناء، كان الرجال الذين يقع على عاتقهم أعمال التشييد والنحت، يضطلعون بدور بارز فى البلاط الملكى فى طيبة. ومن هذه الأمثلة نذكر تحديداً، أمنحوتب بن حايو. أكان مستشاراً للفرعون ومحل ثقته؟ أم «رئيساً للوزراء، فى واقع الأمر؟ وأياً كان الأمر، فقد كان واحداً من أقوى رجال زمانه، ولأن شهرته طبقت الآفاق، وذاعت واستمرت، وعُرف عنه براعته وحكمته، فسوف يتم تأليهه فى وقت لاحق، ومنذ عهد بطليموس الثامن يوارجيتس^(**) الثانى. بل كان يصنف ضمن الآلهة منذ عصر مانتون^(***)(٦١).

(*) وهى المقبرة رقم ٢٨٢. (المترجم)

(**) لقب يونانى معناه الخير. (المترجم)

(***) عاش فى عهد أول وثانى الملوك البطالمة. (المترجم)

كانت أصول هذا الرجل تعود إلى أتريبس(*) فى الدلتا وينحدر من عائلة من حكام الأقاليم. وظلّ كبير كهنة حورس الذى كان يُعبد فى هذه المدينة.

وعلى أحد تماثيله الذى عثر عليه مارييت Mariette فى الكرنك، يسرد أمنحوتب بن حابو مسيرة حياته لتحفظ الأجيال اللاحقة بذكراه:

يقول أمنحوتب كاتب الملك ومحبوبه:

كنت كبيراً، قائماً على رأس الكبراء، صاحب فكر ثاقب فى (معرفة) الكلمات الإلهية، وفقاً لمشورة القلب. فأنا من يلتزم بمقاصد الملك، أنا من قام العاهل الملكى بوضع كانه فى المقدمة.

تفضل الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، ابن حور أختى البكر - فأجزل لى، المنن والنعم. ورقّيت إلى كاتب ملكى بصفتى رئيساً. وفُضِّت من أجلى مغاليق الكتاب الإلهى واستطعت مشاهدة أفعال تحوت المفعمة بالبركة، بعد أن أصبحت من الآن على علم بأسرارها. وتوصلت إلى حلّ كل معضلاتها. وكان فى استطاعة الجميع أن يجادلونى فى جميع موادها.

عندئذ أجزل لى الملك مننه ونعمه من جديد، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع. ومن أجلى، «ربط» كافة البشر القائمين تحت سلطتى، بصفتى الكاتب الملكى، على رأس المبتدئين الجدد. وارتقيت «مراتب» سيّدى، وقامت ريشتى بحصر أعدادهم بالملايين. وأقمت الشبان محل القدماء، فالابن البكر هو عصا الشيخوخة. وفرضت الضرائب على كل بيت من البيوت، حسب عدد (الأشخاص القاطنين فيه)، بعد أن وضعت الحرفيين جانباً. وأحلّلت صفوفه أسرى الحرب الذين أمسك بهم صاحب الجلالة فى أرض المعركة، محلّ الخدم. وتفقدت كافة الفرق التى تشكّلت، على هذا النحو، وحشدت إذن المجندين الجدد. ووضعت القوات عند أطراف الطرقات حول تخوم الشاطئين، لردّ الأجانب إلى أماكن إقامتهم. فى حين أخذت كتيبة

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم حوت حرى إيب أو حوت تاحرى إيب، و تل إتريب، حالياً. (المترجم)

مراقبة تجوب بلاد السائرين - على - الرمال. وفعلت الشيء نفسه، عند سواحل
مصبّات النهر، محاطاً بقواتي باستثناء فرق البحرية الملكية. كنت المرشد الذي يهديهم
عبر الدروب. وكانوا يرضخون لأوامري. كنت «الفم الأسمر» على رأس الأشاوس
الذين أُعدّوا لصدّ النوبيين والأسويين. كانت مقاصد سيدي ملاذاً من خلفي، اعتصم
بها. وبينما كنت سائراً، فإن كلمته تطوقني. إن مخططاته تغطي كافة البلاد وكل
(منطقة) أجنبية قائمة بجواره. كما كنت من يحصر قائمة غنائم إنتصار صاحب
الجلالة، ومسئولاً أيضاً عنها. فاتصرف وفقاً لكلماته، والتزم بأوامره، مدرّكاً مدى
تأثيرها المواتي على المستقبل.

وللمرة الثالثة، أجزل لي سيدي النعم والمنن، (سيدي) ابن رع، أمنحوتب، حاكم
طيبة. إنه رع. لقد وهب الزمن الأبدى، وأعياد يوبيل، لا تنتهي. ولذلك عيّني سيدي
مشرفاً عاماً على كافة الأشغال. هكذا دوّنت اسم الملك تدويناً راسخاً، للزمن
اللانهائي. لم أكن أحاكى ما صنع من قبل. فمن أجله، شكّلت جبلاً (حقيقياً) من
الحجر الجيري الأحمر (تمثالاً)، لأنه وريث أتوم^(٦٢). إنني أتصرف وفقاً لرغبتى، فقلبي
هو الذي يهديني، حتى يقام تمثاله في معبده الكبير (في معبد الكرنك. وبالفعل ما زال
تمثال من الحجر الرملي الأحمر لأمنحوتب الثالث، قائماً في مكانه). (وهو مزدان) بكل
أنواع الأحجار الكريمة، الصلبة صلبة السماء. ولم يفعل أحد ذلك، منذ زمن تأسيس
القطرين.

وباشرت أعمال تمثاله الذي كان عريضاً إلى حدّ كبير، وأكثر ارتفاعاً من
عموده، و«أتى» جماله على جمال الصرح. وبلغ طوله ٤٠ ذراعاً. لقد جاء من التل
المقدس المكون من الحجر الرملي الأحمر، والقائم على مقربة من رع - أتوم. وشيدت
سفينة... وابتحرت مصعداً التيار (من هليوبوليس إلى طيبة)، لإقامته في معبده الكبير،
ليوم دوام السماء.

إن شهود (عملي) يقفون بينكم، يا أيها القادمون من بعدنا.

إن الجيش بأسره، كان تحت إمرتي بمفردي. فينصرف الجنود فرحين، سعداء
القلب، ويطلقون الصيحات شكراً وعرفاناً للإله الكامل. ونزلوا إلى برّ طيبة وسط

الغبطة والتهليل، إذ استقرت المعالم الصرحية فى مكانها، للزمن الآتى وللزمن الأبدى(٦٣).

يا لها من سيرة حياة، تبدأ بفض مغاليق الكتب الإلهية، لتتواصل من خلال تنظيم الجيش وحشد الفرق وتنتهى بالإشراف على إقامة المعالم الصرحية الملكية. كان أمنحوتب بن حابو، من رجال البلاط، والمقربين المفضلين لدى الملك، وامتد نشاطه إلى كافة مجالات حياة الدولة، كما كان حكيماً عارفاً بأسرار الآلهة.

واعترافاً له بالجميل، أصدر أمنحوتب الثالث، مرسوماً فى اليوم السادس، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٣١، يمنحه بمقتضاه، حق إمتلاك المتاع الضرورى لصيانة معبده الجنائزى، وهو حدث إستثنائى وفريد فى بابه. فالملوك أو أفراد العائلة المالكة وحدهم، يمتلكون معابد جنائزية. كانت دلالة واضحة على مدى الخطوة التى نالها عند الملك، ليقام مثل هذا المبنى الفخم فى مدينة هابو، لواحد من أكبر أصحاب الخطوة. كان المبنى لا يبعد كثيراً عن معبد عاهله الملكى(٦٤). وعند صدور مرسوم التأسيس، انعقد مجلس فوق العادة، حضره وزير الشمال أمنحوتب و مر إن پتاح، المشرف العام على الخزينة، وكتبة الجيش، فضلاً عن المستفيد من هذه الهبة.

كُشف فى الكرنك عن سبعة تماثيل لهذا الشخص. تصوره أربعة منها جالساً متربعاً، وربما أتاح لنا المدونات المنحوتة عليها أن تزيد من فهمنا لشخصية أمنحوتب بن حابو.

ففى هذه الأزمنة التى شهدت حركات دينية متنوعة، كان من الأوفياء المخلصين للإله آمون، فأليه وجه هذه الترنيمة:

إنى قادم إلى جوارك، يا سيد الآلهة، يا آمون، يا رب عروش القطرين، إنك رع الذى يشرق متألقاً فى السماء، الذى ينير الأرض بفضل جمال عينه المتألئة، (أنت الإله) المنبثق من نون، ليشرق متألقاً خارج فيض الأمواج الأولية، الذى جاء إلى الدنيا

بكل ما هو موجود، وخلق التاسوع الإلهي العظيم، وعرف جسده ذاته وانجب ذاته (بمختلف) أشكاله^(٦٥).

كما كان إنساناً واعياً كل الوعي بخصاله وأهميته. فيصف نفسه على النحو الآتي:

أنا، حقاً، شخص مهيب، من بين سائر البشر، وعقل ثاقب الإدراك، عندما يجوب قاعة المجلس. فالأشياء الغريبة مثل المألوفة. ويدرك (حرفياً: يكتشف) الأحاديث وإن كانت بالغة الصعوبة، والحكمة في حوزته، ويملا قلب العاهل الملكي وينجز أفعالاً مفعمة بالبركة، من أجل حورس^(٦٦). فهو الذي يشيد ببراءة فائقة كل معاله الصرحية حتى تترسخ ذكراه، في المكان المقدس للزمن الأبدى. هو الذي يلطف القلب في يوم الفواجع. إنه خازن ملك مصر السفلى، فيستطيع الإقتراب من جسد الإله (الملك)، إنه يخرج من القصر (تصاحبه) المذائح التي لا يكف رجال البلاط عن توجيهها إليه، بالنظر إلى عظيم اقتداره، إلى جانب العاهل الملكي. فمع بزوغ كل يوم جديد، يتفرغ مبكراً لشئونه، ولختلف الأعمال... فهو الذي يسن القانون ويقيم نظامه على نحو صارم...^(٦٧)

يا لها من مسئوليات جسيمة يتحملها مدير أشغال الملك! ولكنه كان من العارفين بالمغاليق، المحيط بأسرار الأسفار الإلهية والدلالة العميقة للطقوس السحرية. فقد كان شخصاً مرهوب الجانب إلى حد ما، وقصارى القول، كان يفتخر أيضاً بقيامه بدور شديد التميز، فيعتبر نفسه الوسيط بين الآلهة والملك والبشر.

وعلى قاعدة تمثال نقرأ هذه المدونة المزهوة:

أنتم، أيا مصر العليا ومصر السفلى، أنتم، يا جميع من تستطيع أعينهم تأمل آتون، أنتم، يا من تأتون إلى طيبة، هابطين أو صاعدين مجرى النهر، من أجل تقديم إلتماس إلى سيد الآلهة، تعالوا إليّ، وسوف أنقل كلماتكم إلى آمون في الكرنك. أدوا من أجلى شعيرة القربان، صيّبوا من أجلى الماء الطهور، بما هو بين أيديكم. أنا الحاجب الذي أقامه الملك لأستمع إلى الأحاديث، وأرفع (إليه) إحتياجات الشاطئين^(٦٨).

وعلى قاعدة تمثال آخر، نقرأ على النحو ذاته:

أنتم، يا رجال الكرنك، الذين تريدون بلا انقطاع مشاهدة آمون، تعالوا إلى. سوف أنقل إلتماساتكم، لأنى حاجب هذا الإله. لقد أقامنى نب ماعت رع، لأنقل (له) كلمات الأرضين. وهكذا، أدّوا من أجلى شعيرة القربان، اذكروا اسمى، على مدار كل يوم من الأيام، كما يتم من أجل أثر مفضل^(٦٩).

تتجاوز وظائف أمنحوتب بن حابو وظائف «مهندس معمارى»، كما يوصف فى بعض الأحيان. كان الشخصية الرئيسية فى عهد أمنحوتب الثالث، فيسنّ القوانين ويدبر شئون البلاد، جنباً إلى جنب، مع العاهل الملكى، مثل الوزير الذى كان يقوم بدوره، إذا صحّ القول، كما كان يتدخل فى الكرنك، لدى آمون وكهنّته. وربما كان يستمد سلطاته من شهرته التى طبقت الآفاق بصفته حكيماً، عارفاً «بأسرار» الدين.

والمدونة المنحوتة على التمثال الذى عثر عليه عام ١٩٠١، أمام الواجهة الشمالية من الجناح الشرقى من الصرح السابع، والذى كان قائماً أصلاً فى معبد الكرنك ذاته، تنقل لنا خطاباً أعلنه أمنحوتب بن حابو، بعد أن بلغ الثمانين من عمره، فيقدم لنا تقييماً لحياته. إنه خطاب من أجل آمون:

أنا قادم إليك لأطعم كائنك، وأقيم فى معبدك، أيا آمون، أيها الأقدم الأصلى فى القطرين. أنت رب ما هو موجود تحت السماء، بصفتك إله الشعب. وما هو موجود فى السماء يوقّر جمالك، لأنك بكمالك، أعظم من أى إله آخر. إنصت لمن يناديك. أنت رع، فلا وجود لأحد سواك.

لقد أقمته وسط الرجال المقرظين الذين يمارسون العدالة. أنا رجل بار، لا أتصرف بتحيز ولا أعاشر أبداً من يفعل الشرّ. ولا أسمح لأحد ممن فى معيتى، مكلفاً بالأشغال، أن يحيا فى عُسر. لا يوجد أبداً، رجل عُين إلى جوارى، لا أستمع إلى كلماته، دون أن أسمع له مع ذلك، أن يكون كثير الثثرة. ولكننى لا أقترّب ممن يتصرف ضدّى. ولا أعير أى إهتمام لكذبة قيلت للإضرار بشخص آخر فى ممتلكاته. هذه هى طبيعتى التى تبرهن على صواب، كل ما صنع من أجلى، بحضور الجميع. من رأنى، سيسعى ليصبح مثلى، بالنظر إلى عظمة ما صنع من أجلى. والشيخوخة

شاهد على (حياة) بارة. لقد بلغت الآن الثمانين من عمري، وخطوتي عظيمة في نظر
العاهل الملكى. وسوف يمتد عمري إلى سن المئة وعشرة (٧٠).

إن أعمال حرفيى طيبة وكيفية قضائهم سحابة أيامهم، ما زالت تكشف عنها
مقبرة مُعلَّمين من معلّمي النحت. فالمقبرة رقم ١٨١، فى جبانة الخوخة، وهى الإمتداد
ناحية الشرق لجبانة الشيخ عبدالقرنة، مقبرة مزدوجة، وملك عائلى تخصّ نب آمون،
«وَلَدَ الْحَرِيمَ وَرئيسِ النَّحَاتِينَ» وصهره إپوكى «نَحَاتِ الْمَلِكِ». وقد ورث كل منهما
منصبه عن والده. إننا أمام أثر فريد فى بابه. فلا تتكون المقبرة من قسمين. ففى كثير
من الأحوال، صُوِّرَ الرجلان، وهما يشتركان فى الوجبة نفسها وفى تكريم الوالدين
وفى عبادة الآلهة وأداء الشعائر الجنائزية. كما يحدث أحياناً أن تصبح المشاهد
منفصلة. فيقوم كل واحد من النحاتين بالعمل نفسه، فى صورة مركبة أحياناً. وفى
بعض الأحوال أيضاً، يتولى أحدهما أداء جانب من الطقس الدينى، فى حين يؤدى
الآخر أعمالاً تكميلية. إنه مثال رائع على التعاون الأسرى. وأسلوب الرسومات فيه
حياة وواقعية، لا تغيب عنه روح الفكاهة، ويوضح عدداً كبيراً من مشاهد الورش التى
تصور الصوّاغ، وهم يزنون الذهب والنجارين وهم يعالجون الخشب بواسطة مثقاب،
والصانع وهو يطعم صندوق صغير خاص بالملك، وفخّارياً وهو يثقب إناء من الألبستر،
وعاملاً يصنع صدرية من الورق المقوى لموميا، ورسامين ونحاتين، أثناء عملهم
ونجارين وحدّادين منكبين على أعمالهم.

المشرفون على الأملاك

لا شك، أن أمنحوتب المدعو حوى كان ابن عم الوزير رع مس، فكان يشغل
مناصب «المشرف العام على الأملاك الملكية فى منف» و«منظّم أعياد پتاح - إلى -
الجنوب - من جداره وكافة آلهة الجدار الأبيض(*)» و«مدير الأشغال فى معبد پتاح»

(*) إنب حج بالمصرية القديمة، ومن أسماء مدينة منف. (المترجم)

و«رئيس الكهنة فى معبد سخمت» و«الكاتب الملكى للمجندى الجدد»^(٧١). ويستعرض مراحل حياته المهنية فى نص منحوت على تمثال من الكوارتزيت، عثر عليه فى منف، ويصوره فى هيئة كاتب جالس متربع. قد يفهم من النص، أنه كان مقاماً أصلاً فى معبد جنازى «إضافى»، مكرس للملك أمنحوتب الثالث، ونعرف أن المعبد الجنازى للعاهل الملكى، كان قائماً فى طيبة خلف التمثالين المعروفين اصطلاحاً بتمثالى ممنون، وهما كل ما تبقى منه، وقد شيد إلى الشرق من مقبرته فى وادى الملوك الغربى. ولكن من المحتمل، أن معابد جنازية ملكية قد شيدت أيضاً فى مدن بعيدة عن العاصمة. فهل يعنى ذلك، افتراض وجود مقابر تذكارية؟ وعلى كل حال، لم يعثر حتى الوقت الراهن على شىء مماثل فى موقع منف العتيقة.

وعن هذه الأملاك الملكية التى كان أمنحوتب مشرفاً عاماً عليها، ويتولى تدبير شئونها، يقدم لنا إيضاحات على قدر كبير من الأهمية:

إنى أتحدث إليكم، يا «أصحاب الجلالة» الذين ستأتون إلى الوجود، (وإلى البشر) فى الزمن القادم، الذين (سيحيون) على سطح الأرض. كنت رفيق الإله الكامل، رب القطرين، أمير البسالة، نب ماعت رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (كنت رفيقه)، منذ أن كنت صبياً، وقبل أن أُؤسس بيتاً. ومع تقدمى فى العمر، تكونت شخصيتى، واستطعت أن أدخل القصر، على أفراد، لمشاهدة الحورس فى بيته، بينما كان كباراء النبوة يتقدمون خلفى. وامتدحنى بسبب مهارتى الفائقة وقام بترقيتى مشرفاً عاماً عظيماً. كانت عصاى (وهى شارة السلطة) فوق الشعب، وامتلكت أعداداً وفيرة من الخدم والماشية ومختلف الأشياء، بلا حدود... وأقمت العدالة من أجل سيد القطرين، ليل نهار، فكنت أعرف أنه يحيا بها. والكلمة الكاذبة، كانت فى نظرى شيئاً فظيهاً ممقوتاً.

عندئذ قام بترقيتى مراقباً عاماً على الأشغال فى معبده لملايين السنين، الذى كان قد أقامه حديثاً فى أرض مزروعة، إلى الغرب من منف، فى حى عنخ - تاوى^(٧٢). إن أبوه پتاح - هو - الذى - إلى - جنوب - جداره... (؟) .. ومبنى شامخاً من أجل أبيه پتاح، وبنية مباركة (صالحة) للزمن اللانهائى، وهى من حجر طرة الأبيض

الجميل. كان جمالها فى مثل (جمال) أفق السماء، وجميع أبوابها من خشب الأرز الوارد من موانئ شرق البحر المتوسط، ومكفّته بالذهب الحقيقى (المستخرج) من الصحارى والذهب الخالص وكافة أنواع الأحجار الكريمة الجميلة... وحُفرت بحيرة وزرعت الأشجار (من حولها)، وصارت متألّقة بفضل كل الخلاصات النفيسة المختارة من بين (خلاصات) بلد الإله^(٧٣).

وجُهّز المعبد بالأثاث اللازم ومختلف الأوانى من ذهب وفضة. كما سيطلق عليه اسم «بيت نب ماعت رع الذى اتحد (بالإله) پتاح».

وفى سياق بقية النص البالغ الطول، فيغطى التمثال بأكمله، عُقدت صفقة بين الملك ومشرفه العام. فسوف يقدم الملك إلى هذا الأخير، عطاءً يتكون من أراضٍ مجموعها ٤٣٠,٥ أكر^(*) وعدد من الخدم: ليس فقط اعترافاً بجميل أمنحوتب لخدماته الصادقة المخلصة ولكن ليوفر أيضاً، لهذا الأخير خدمة تقديم القرابين اليومية التى ستوضع على مائدة قرابين پتاح «ليأخذ منها كفايته»، ثم تنقل أمام تمثال أمنحوتب الثالث فى معبده الجديد، لتؤول فى آخر المطاف إلى المشرف العام العظيم. هذا الضرب من الصفقات، لا يعتبر حالة فريدة فى بابها^(٧٤)، فيجد فيها كل فرد منفعة خاصة. هكذا سوف تتكون هذه الخدمة اليومية من: «مئتى رغيف خبز من مختلف الأنواع، وعشر جرار جعة، وفخدة من كل ثور من الثيران التى ذُبحت فى المعبد، وجرة نبيذ وإبريق لبن ورغيفين من الخبز الأبيض، وعدد كبير من الطيور، وست ضمّات من الخضروات^(٧٥)». هكذا يجد الإله والملك والمشرف العام، ما يكفى لإشباع شهيتهم النهمه!

سوف يشغل الإبن منصب أبيه عند وفاته. فعلى جرة نبيذ عُثر عليها فى ملقطة، يعود تاريخها إلى العام ٣١ من عهد الملك، نجد أن إيبى ابن أمنحوتب قد أصبح «المشرف العام فى منف»^(٧٦). ويتجلّى برّه بالوالدين وحبّه المرهف لهما، فى مدونة اللوح الحجرى الذى يحتفظ به متحف فلورنسا Florence، فى الوقت الراهن:

(*) (الأكر الواحد يساوى ٤٠٤٦ متراً مربعاً. (المترجم)

فلتنتفتح السماء من أجلك، فلتنتفتح الأرض من أجلك، فلتنتفتح الطريق فى الجبابة، من أجلك. ليتك تخرج وتدخل مع رع، ليتك تسير بخطوات واسعة، مثلك مثل مَلَاك الزمن الأبدى، ليتك تستحوذ على أرغفة خبر القرابين الطاهرة التى يعطيك بتاح إياها، على المائدة. ليت باءك (تدوم) حياته و(تظل) عضلاتك قوية. وليكن وجهك متألّقاً فى طريق الظلمات. سيهبك حبيبى الماء ونپرى^(٧٧) الخبز، وتعطيك حتحور الجعة والبقرة الإلهية اللبن. سوف تغسل قدميك على كتلة من الفضة، بجوار نبع من الفيروز. سوف تُعطى أربعة أرغفة فى بوزيريس^(*) وثمانية فى أبييوس واثنى عشر فى بلدة بيكر^(٧٨) وجرة (جعة) فى معبد الشمس.

من أجل الأوزيريس، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى منف، أمنحوتب،
الصادق - القول.

من قبل ابنه، الذى يعيد الحياة إلى اسمه، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى إقليم الجدار - الأبيض، إيبى، الصادق - القول، بجوار الإله الكبير^(٧٩).

كان أمن إِم حات المدعو سورارا، ينحدر من أسرة من أبناء طيبة. كان والده المشرف العام على قطعان آمون. أما هو فكان المشرف العام العظيم للملك، كما شغل عدداً من المناصب الدنيوية فى الكرنك. ومن ناحية أخرى، كان أول أخويه، الخادم الثانى للإلهة نيت أما أخوه الثانى فكان الخادم ذا اليدين الطاهرتين لذات الإلهة. وكانت والدته تتمتع برعاية البلاط وانعاماته، وتحمل لقباً شرفياً هو «زينة الملك».

ويبدو أن هذا الشخص كان مخلصاً وفياً للعاهل الملكى. إن التمثالين اللذين يصورانهم ممسكاً بلوح حجرى ويحتفظان بالوثر بأحدهما والمتحف البريطانى بالآخر، دونت عليهما صلوات لصالح الملك:

التحية لك، أيا آمون - رع، رب السماء وسيد الأرض وملك الآلهة. ليتك تُعطى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم چنو، أبو صير بنا حالياً، فى وسط الدلتا. (المترجم)

زمن حياة رع وعرشه على الأرض، ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع.
ليتك تمنح أعياداً يوبيلية عديدة وعظيمة إلى ابن رع: أمنحوتب، حاكم طيبة^(٨٠).

ومع ذلك، يبدو أنه فقد حظوته قرب نهاية عهد أمنحوتب الثالث، وحل محله في منصب المشرف العام العظيم للملك، أمنحوتب الذى كان المشرف العام على أملاك منف.

هكذا، فإن المقبرة التى أعدت من أجل أمن إمام حات المدعو سورارا، وهى المقبرة رقم ٤٨ فى جبانة الخوخة، قد شوّمت مرتين متتاليتين: الأولى عندما فقد حظوته والثانية فى وقت لاحق، إبان الإضطهادات التى شهدتها مصر، فى عصر أمنحوتب الرابع. ومع ذلك فقد كان تخطيطها الأصيل يوحى بالعظمة. إن ستة وسبعين عموداً كانت ترفع السقف. وظلت بعض النقوش محتفظة برقعتها وبقبتها، كما كان حالها فى الزمن الماضى. ويصوّر أحدها رثن - وقت إلهة الحصاد، وقد جلس فى حجرها مولود تقوم بإرضاعه، كان يمثل فى المعتاد إله القمح نيرى، ولكن فى هذا النقش الذى يعنينا، صُوّر أمنحوتب الثالث ذاته، وقد اندمج فى الإله واهب الغذاء^(٨١).
هكذا أصبح فكر البشر، لا يفرق بين الملك وإله القمح. إن موضوع العاهل الملكى واهب الوفرة والخيرات، ستنقى به على نطاق واسع فى أيديولوجية الرعامسة^(٨٢).

وفى العساسيف، وهو سهل تقطعه الوهاد، تحدّه ناحية الجنوب تلال الشيخ عبدالقرنة، نتعرف على المقبرة رقم ١٩٢ الشاسعة لصاحبها خرو إف الذى كان المشرف العام على أملاك الزوجة الملكية العظيمة تى، وكاتم أسرار الملك والصدى الأوحد وعصا الشعب.

أكان ينحدر أصلاً من هرموبوليس؟ فقد نحتت على تمثاله الذى يحتفظ به متحف برلين، فى الوقت الراهن، ترانيم إلى قحوت، إله هذه المدينة.

ففى اتجاهين متوازيين، يلتزمان بأسلوب منمّق تقرأ على قاعدة التمثال:

• على اليمين:

الآلهة فى السماء، تُجزل من التهليل. ويؤدى كل إله وكل إلهة، شعيرة العبادة من أجل تحوت، عند مشاهدته، على متن قاربه الكبير، بينما ماعت قائمة أمامه فى سلام. وبالمثل يسعى الكاتب الملكى خرو إف إلى إرضائه قائلاً: «أنا قادم إليك، أيها الإله العظيم، أيا تحوت، يا حامى آبائه، إبنى أعبد جلالتك. انصت إلى ندائى. إنك تسعد قلبى عندما أرى جمالك».

• على اليسار:

الشعب على الأرض، يُجزل من التهليل، عندما يرى تحوت، ملك الحقيقة والعدالة. وتطلق الآلهة والآلهات الصيحات وتغتمط، بعد أن حقق بفضلها واجبه نحو من يعبد، إنه المشرف العام خرو إف، الصادق - القول، الكاتب الملكى، المشرف العام خرو إف الذى يقول: «إبنى قادم إليك، أيها الثور (القائم) فى النجوم، إن تألقك النورانى على الأرض وأشعتك تنير القطرين.

من قبل الكاتب الملكى خرو إف.

ونقرأ على اللوح الحجرى الذى يقدمه خرو إف:

يقوم الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف بالتعبّد إلى تحوت، قائلاً: «التحية لك، يا سيد الكلمات الإلهية، المهيمن على الأسرار الموجودة فى السماء والأرض، الإله العظيم للأزمنة الأولى، أيها الأقدم الأصلى الذى يسمح بكتابة الكلمات، «وبعيد الإخضرار» إلى المنازل ويشيد القصور، ويسمح للآلهة بالوقوف على ما يخصها، (وأن تتعرف) جميع المهن على واجباتها، والبلاد على حدودها والحقول أيضاً».

من قبل الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف، الصادق - القول^(٨٢).

كان من أبناء طيبة، وإن ظل مع ذلك مرتبطاً بإله طقولته.

لا نعرف سوى النذر القليل عن حياته. إنما تشهد نقوش مقبرته، بأسلوبها الكامل، على علاقته الودودة بالزوجين الملكيين. ففي القسم الجنوبي، من الجدار

الغربي، من الفناء الكبير صُورَ داخل مقصورة، الملك أمنحوتب الثالث، في زى أعياد اليوبيل وإلى جانبه الإلهة حتحور والملكة تتي التي صُورت واقفة، بينما العاهل الملكى والإلهة جالسين. ففي الأزمنة الغابرة، فى عهد من كاورع، حول عام ٢٥٠٠ ق.م، ولما كانت التماثيل الثلاثية حامية مصر، تدمج الملك فى الإله - الأب، فتجمع بين صور العاهل الملكى وحتحور، الإلهة - الأم، والكيان الإلهى للإقليم، فإن الملكة تتي فى الحالة التى نحن بصدددها، تقوم إذا صحّ التعبير، بدور الإلهة - الابنة، بجوار الزوجين الإلهيين. ونلاحظ التمجيد نفسه للملكة، فى النقوش المنحوتة فى القسم الشمالى، من هذا الجدار الغربى ذاته، من الفناء الكبير لمقبرة خرو إف: فداخل مقصورة مماثلة، يتربع الزوجان الملكيان على العرش. ويقدم لهما المشرف العام للملكة، القلادات الفاخرة وكأساً منقوشة. إن مقعد تتي مزدان على نحو بالغ الغرابة والرمزية: فعلى المتاكين صُورَ أسد يدوس الأعداء. وتحت المقعد ربطت الأسيرات الآسيويات، ظهراً لظهر، ودونت على القاعدة أسماء تسع مدن تم فتحها. إنه إنعكاس تصويرى بشكل أصغر وأبسط لانتصارات فرعون على الأقواس التسعة ولقائمة الأسرى. وتشارك تتي على أكمل وجه، فى الأيديولوجيا الملكية، وقد صُورت مندمجة فى الكيانات الإلهية ومنتصرة على الأعداء، شأنها شأن الملك. لقد كانت بكل تأكيد ملكة واسعة النفوذ، فأراد خرو إف، والمشرف العام الأمين، القائم على خدمتها، أن يخصصها بكل مظاهر الإجلال والتكريم.

إن مر إن پتاح، ابن الوزير تحوتمس، كان المشرف العام على أملاك معبد أمنحوتب الثالث الجنائزى. إن لوحاً حجرياً يحتفظ به متحف مدينة ليدن، يشهد على قرابته ويعلن الأمانى الجنائزية المعتادة^(٨٤).

الحقول وشؤون الغلال

ازدهر الاقتصاد، فى هذه الأزمنة التى ساد فيها السلام. إن الفلاحة وتربية الحيوانات الداجنة، مصدران رئيسيان لثراء مصر.

وفى عهد تحوتمس الرابع استطاع الكاتب منفاً، أن يجمع بين وظيفتى المشرف العام على حقول العاهل الملكى والمشرف العام على حقول آمون، إنه يمتلك فى الوقت الراهن المقبرة رقم ٦٩ التى ما زالت فى حالة جيدة من الحفظ، تفوق من بعيد غيرها من مقابر الشيخ عبدالقرنة. وتقدم الرسومات وصفاً لمختلف لحظات الأعمال الزراعية، بقدر كبير من البراعة والطرافة والفكاهة، فتتعاقب لوحات الحصاد وتحرير حسابات المحاصيل والحبوب ومسح الأراضى، وهيئة الفتيات جميلة أو مرحة، وتتفق مع الذوق السائد فى هذا العصر، فالوجه له ملامح رقيقة، ويكاد يختفى من كثرة الحلى النفيسة، من عصابات رأس وأقراط من ذهب، كما يقدم محاصيل وفيرة من الزهور. ومن الآن نجد أن لوحات صغيرة تحتل الفراغات التى خلفتها التكوينات التصويرية الكبيرة، فتشكّل مشاهد عائلية، لأنها أكثر إنسانية: فنرى على سبيل المثال، زوجة عامل زراعى وقد حملت طفلها، ورباً على صدرها، بينما يداعب تقصيبات شعر والدته، كما تقدم لزوجها وجبة الغذاء، وهى عبارة عن عنقود من العنب المسكى. كما نرى حاصدة سنابل، تحاول استخراج شوكة من قدم إحدى زميلاتهما، إنها رسومات بسيطة ولكنها بارعة فى الحقيقة، فتعبّر الخطوط بإحساساتها الثاقبة عن عاطفة عميقة: ففي ساعات النهار التى تشتد أثناء حرارة الجو، يستريح فلاحان فى ظل شجرة جميل. وقد أسند أحدهما ظهره المستقيم على الجذع المستقيم لشجرة، وهو يعزف على الناي عزفاً بطيئاً. أما الآخر فقد أحنى ظهره، وغفاً، واضعاً رأسه على ركبتيه، ويميل عليه غصن من أغصان الشجرة وكأنه يحميه. إن هذا التشابك البسيط للخطوط، يعبر تعبيراً صادقاً عن الرابطة التى تجمع هؤلاء البشر البسطاء بالطبيعة الصديقة. جميع هذه المشاهد بالألوان، والغلبة للأصفر الذهبى، تأكيداً بصرياً على الوجود الدافئ للجرم السماوى المنير.

ونعرف رجلاً آخر، كان يعمل فى مجال الحقول، إنه جسر كارع سنب. إن هذا الاسم ومعناه «ليت جسر كارع - أى أمنحوتب الأول - يكون مزدهراً»، يقف شاهداً على أنه كان بلا شك، من الأوفياء المخلصين للشعائر التى تقام من أجل الملك^(٨٥). كان كاتب الحبوب فى شونة قرابين الإله آمون والمعابد التابعة لها والمشرف العام على

الخدام الثانى للإله آمون. إن مقبرته رقم ٢٨ فى الشيخ عبدالقرنة تلفت النظر برقته المرفهة وجمال ألوان رسوماتها. إن مشهداً يُصور وليمة ووقائع إحتفالية، يعتبر إنعكاساً صادقاً لنعموة العيش التى تمتع بها أبناء هذا الزمن^(٨٦): وفى وسط هذا التكوين وعلى اليسار، نشاهد جسر كارع سنب، جالساً على مقعد بسيط، أمام مائدة زاخرة بما لذ وطاب، ويتلقى عقداً نفيساً من ابنتيه بقدهما المشوق، وقد تزينتا بالحلى. وفى مكان الصدارة، أى فى الصف الأدنى إذن، يبادر الخدم بإحضار منتجات الأملاك، فى حين يجلس المدعوون على مقاعد منخفضة. إن أحدهم، وبمساعدة جاره الذى يسنده ويربّت على ظهره، يتقيأ جانب من وجبته التى كانت وافرة أكثر من اللازم، على ما يظن. فغالباً ما تختلط الواقعية بالفكاهة. وفى المستوى الثانى أى فى الصف الأوسط، تصدح الموسيقى وتتمايل الراقصات، إحياء للعيد. إن راقصة صغيرة السن، عارية تماماً، ودون سن البلوغ، تحيط بها من جهة، فتاة تعزف بالجنك وأخرى بالعود، ومن جهة أخرى، فتاة تعزف بالمزمار وأخرى بالكنارة. إن القوام الجامد المشوق للموسيقيتين المائلتين عند الطرفين يتعارض مع الخطوط المتموجة للراقصة والموسيقيتين الأخريين المجاورتين لها، فتبدوان كما لو أن إيقاع الرقص قد شدّهما شداً. إن ثلاث فتيات ينظمن هذا الإيقاع، فيصفقن بأيديهن وينشدن قائلات:

أيها اليوم السعيد! إننا نحى ذكرى جمال آمون، فى متعة القلب، ونقدّم مدائح ترتفع إلى السماء نحو وجهه. ويعلن كل امرئ: «إننا نتطلع إلى رؤيته». افعل إذن على هذا النحو، يا كيال حبوب آمون، على مرّ الأيام^(٨٧).

وفى المستوى الثالث، أى فى الصف العلوى، يقوم الخدم بوجوههم البشوشة على خدمة جميلات المأدبة. إن رقة ملابسهن الكتانية وجواهرهن النفيسة يتموج بريقها بألوانها المختلفة.

أما خع إم حات فكان من كبار الشخصيات فى عهد أمنحوتب الثالث، وشغل منصب المشرف العام على الشونة المزوجة لمصر العليا ومصر السفلى، فكان وزيراً

للزراعة، بكل معنى الكلمة. وقد صُوِّرَ نفسه في مقبرته، وهو يرفع حساباته إلى العاهل الملكى، بينما أُتِيَ بالماشية.

إن مقبرته رقم ٧٥ فى الشيخ عبدالقرنة، محفورة فى مؤخرة فناء يضم غيرها من الدفنات التى تعود إلى العصر نفسه. ففى هذا الزمن، كان الموقع المفضل على البر الغربى، مقتطاً بما يضمه من مقابر.

وفى الجدار الغربى من الحجرة الثانية، وهى الحجرة الطويلة حفرت كوة تضم ستة تماثيل، موزعة على ثلاث مجموعات، تضم كل واحدة منها تماثيل: تمثالى خع إم حات وزوجته تى، وتمثالى أبيها إيمحوتپ، من كبار الموظفين والمشرف العام على بيت الذهب وبيت الفضة ووالدته، ثم تمثالى والديه. هكذا كان فى وسع الجميع أن يستفيدوا من الخدمة الجنائزية المقدمة له ويشاركونه الإقامة فى بيته، «بيت الأبدية».

كان خع إم حات رجلاً مثقفاً وعالمًا. وإذا كانت أولى حجرات مقبرته، وهى المقصورة الجنائزية، تزدان بمشاهد مألوفة من حياة المتوفى، وأن النصوص الدينية مطابقة للمدونات الشائعة، ومكتوبة فى لغة سلسلة جميلة، ففى الحجرة الثانية التى تليها، وهى الحجرة المستطيلة، أمر خع إم حات بنقش مشاهد صوفية سرية، يظل معناها العميق، خافياً على إدراكنا، إنها تُصوِّر طقوساً جنائزية ووصفاً للعالم الآخر. كما دَوَّن نصاً غريباً بأسلوب مستغلق، يعتقد أنه كان يثير فضول زوار المقبرة ويختبر رجاحة عقولهم والمعيتهم^(٨٨).

وعلى القسم الأيمن من الباب الذى يصل الحجرة الأولى بالحجرة الثانية، نحت على كل حال، نداءً موجهاً إلى هؤلاء الزوار:

النبيل والأمير، الكبير بوظيفته فى القصر الملكى، رئيس أسرار الشئون، فيطمئن (حرفياً: يغسل) قلب الحورس بفضل الحقيقة، المستشار السرى يوم تقدير الضرائب، الكاتب الملكى، أثير سيده، المشرف العام على الشونة المزوجة لسيد الأرضين، إنه خع إم حات، الصادق - القول، إنه يوجه كلامه إلى البشر الذين سيأتون إلى الدنيا، ويوجدون على سطح الأرض، كباراً أو صغاراً، على حدّ سواء.

أنتم، يا أيها الكتبة الذين «تفككون» اللغة المكتوبة، وتفهمون الكلمات الإلهية (الكتابة الهيروغليفية)، أنتم يا أصحاب القلوب التي تسعد عند النفاذ إلى المعرفة، وترضون بالأفعال المفيدة، فعندما تعبرون أمام هذا الأثر المهيّب الذي شيّدته ليصبح مرقداً، من أجل الأبرار (أفراد العائلة التي صورت تماثيلهم في الكوة الغربية)، أنتم يا من ستشاهدون جدرانى وتنطقون بصوت عالٍ كلماتى (المدونة)، عندئذ سيمتدحكم ملك مصر العليا، ويحبكم ملك مصر السفلى، وتنتقلون فى سلام إلى وضع المبجل، بلا خوف دون إحساس بالفرع. وعلى مدار كل يوم من الأيام، سوف تتحدون مع الفرع ومتعة القلب. وآلهة مدنكم، سوف تستجيب لكل طلباتكم، بقدر قيامكم بوضع ذكرائى إلى جانب (ذكرى) الحورس الكامل، وتنطقون اسمى بسبب ما فعلته.

تهجّوا أيضاً (علامات = حروف) تعويذة القرايين الملكية من أجل آمون وأتوم وهور آختى وبتاح - سوكر وأوزيريس وأنوبيس ومعبدى الشمال والجنوب، لصالح كا، كاتم أسرار الإله الكامل، والكاتب الملكى والمشرف العام على الشونة المزدوجة لرب الأرضين، فى مصر العليا ومصر السفلى، إنه خع إم حات، الصادق - القول... الرجل البارع الماهر، القوى الشكيمة، الحكيم فى الحق، الفطن والكيس والمجامل، صانع الأفعال المفعة بالبركات. كان (الشخص) الذى يشعل المجرّة، من أجل الآلهة جمعاء التى يعرف أسماءها (فكان يتمتع بالتالى بسلطان عظيم)، ليضع عليها القرايين المكونة من كل ما هو طيب وطاهر. كان يُطعم الأبرار ويؤدى شعيرة سكب الماء الطهور، من أجل القائمين فى العالم الآخر. كان فمه ممثلاً (بعبارات): مرحباً! مرحباً! و«الخبز والجة!»، من أجل البشر أجمعين. كان يقوم بتقديم ماعت إلى الملك وفروض الشكر والحمد للحورس، سيد القصر. إن الإشارة إلى اسمه فى أجنحة الإقامة الخاصة، كان بمثابة (الإشارة إلى اسم) رجل مفيد، صاحب قلب مستقيم وعقل منصف.

عندما هبط الكاتب الملكى، المشرف العام على الشونة المزدوجة - (عندما هبط) خع إم حات الذائع الصيت إلى الجبانة، كان ظافراً منتصباً على الأرض.. لم يحدث آنذاك، أن وجهت إليه إتهامات، ولم يُخاطب من جانب [الأصدقاء] الوحيدين بأحاديث تدينه. وعندما وصل إلى القاعة الكبرى - قاعة الحقيقتين (قاعة محكمة أوزيريس)،

وُجِدَت كل أفعاله مستقيمة (عند وضعها) على الميزان، فى حضرة الآلهة القائمة فيها .
وأقرّ تحوت بأنه صادق - القول، فى محكمة جميع الآلهة والآلهات. فحيّوه إذن،
ومجدّوا شمائله.

النص مرصّع ببعض الكتابات الرمزية. يلى ذلك نداء إلى الشمس والقمر.

أيا أتون المجيد، يا سيد النور، أنت الذى يتألق فى الأفق، أيها الشمس
الملكى(*) لبتك تظل متألقاً (أيضاً) فى وجه الكاتب الملكى... خع إم حات. إنه يتعبّد
(إليك) منذ مطلع الفجر، ويرضيك أيضاً بحلول المساء. وهكذا، فليتك تمكّن كا الكاتب
الملكى... إن خع إم حات الذائع الصيت، يصعد معك إلى السماء. فليبحر على متن
سفينة المساء، ما أن يهبط من سفينة النهار، وليختلط بالنجوم التى لا تكلّ وبالنجوم
الأخرى فى السماء.

أيها القمر فى هيئته بدرًا، ليتنى ألتقى ضياءك، لبتك تنير وجه الكاتب الملكى...
خع إم حات. إنه يتأمل جمالك ويتهلل فرحاً بسببك، إنه يبجل أشعّك^(٨٩).

رجال تحت السلاح

تقلّص دور الجيش فى عهد تحوتمس الرابع وعهد أمنحوتب الثالث، تحديدًا،
واختفى كبار ضباط الإمبراطورية. ومع ذلك، يظهر بعض كبار الشخصيات، كشفت
عنهم الصدفة، أثناء أعمال التنقيب فى الجبانات.

إن المقبرة رقم ٩٠ المهيبة، رأت النور فى الشيخ عبدالقرنة. وتضمّ صُفّة واثنى
عشر عموداً منحوتة فى صخر الجبل ذاته. إنها مقبرة نب آمون، حامل البيرق وقائد
المركب «محبوب آمون»، ثم ضابط الشرطة فى غرب طيبة. كانت له زوجتان، وتبى هى
الأقدم. فهل اقترن من اثنتين فى آن واحد، أو تزوج مرتين، على التوالى؟ وفى حالته
هذه، كما فى غيرها من الحالات العديدة، من الصعوبة بمكان الوصول إلى قول فصل.

(*) لأن كلمة شمس لفظ مذكر فى اللغة المصرية وليستقيم المعنى، أبقيت فى المذكر كل الكلمات
التي تشير فى هذه الفقرة إلى الشمس. (المترجم)

إذ تظهر الزوجتان، سواء كان قد تزوجهما فى أن واحد، أو على التوالي، بلا أى تمييز بينهما فى مشاهد المقابر.

ظل نب آمون يقدم خدماته فى عهدى تحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث.

وما زالت جدران مقبرته، تحتفظ بنص المرسوم الملكى بترقيته:

العام السادس. مرسوم صادر، فى هذا اليوم، من جلالة هذا القصر(*)، من أجل الأمير، قائد سفن مصر العليا ومصر السفلى. يقول هذا المرسوم:

أمر جلالتي بإعداد شيخوخة سعيدة بالهبات المقدمة لأحد خالصاء الملك المقربين، تتويجاً للوضع الإجتماعى لحامل البيرق نب - آمون، الملحق بالركب الملكى «محبوب - آمون». وبالفعل فقد أصبح طاعناً فى السنّ، وهو فى معية فرعون، ملتزماً باستقامة قلبه. كانت سعادته تزداد كل يوم، فى انجاز الأوامر الصادرة إليه. لم يتهم أحداً، ولم يكشف عن خطأ واحد ارتكبه، حتى إذا وشى به (?) أحياناً. ولذا، فقد أمر جلالتي بأن يُسند إليه من الآن، منصب رئيس المجاى فى غرب المدينة(**)... إلى أن يبلغ وضعه المبجل. وفى الوقت نفسه، فليتصرف الجميع لتوفير احتياجات أهل بيته وماشيته وحقوقه وخدمه وكل أملاكه على الماء وعلى الأرض، دون أى تدخل ضدهم، من جانب مراقب من مراقبى الملك، (أى أن أملاك نب آمون كانت معفاة من الضرائب). إنه حامل - بيرق المركب «محبوب - آمون»، المحارب القديم فى الجيش، نب آمون، صادق - القول(٩٠).

وعلى جانب من جوانب المقبرة، يمكن أيضاً مشاهدة رسم يمثل بيته فى زمن الحياة(٩١)، وقد صُوّر طبقاً لمبادئ الرسم المصرى، التى تُكثر من عدم التطابق الذى يساعد على رؤية كل شيء. ويستخدم فى هذا المقام تحديداً، عدم التطابق الرأسى. إن باباً بدعامتين من خشب، صُوّر على يسار المبنى، ومن خلاله، كان من الممكن الولوج، إلى قاعة الإستقبال التى تحمل سقفها أعمدة صغيرة ذات تيجان نباتية. كانت

(*) (كما نقول فى أيامنا هذه: البيت الأبيض أو الإليزيه... (المترجم)

(**) نيوت بالمصرية القديمة وهى من أسماء طيبة. (المترجم)

إضاعتها تعتمد على شباكين، فى وسط القاعة، وقد وزَّعا توزيعاً سليماً على الجدار السميك الذى يحمى من حرارة الجو. وعلى سطح البيت يلاحظ وجود منتجات مخروطية الشكل لإستقبال الريح وهو ما يعرف بالملقف. ومع تزايد عدم التطابق الرأسى، يلاحظ وجود الأشجار التى كانت قائمة فى واقع الأمر خلف البيت، ولكنها تبدو هنا، فى وضع غريب، وكأنها تطل علينا من فوق سطح البيت. وهى عبارة عن أشجار النخيل والتين.

إن جزءاً من رسم جدارى، وهو من مقتنيات المتحف البريطانى، فى الوقت الراهن، يشهد على نحو خاص، على جمال الأسلوب الكلاسيكى الذى تلتزم به هذه المقبرة^(٩٢) والحسّ المرهف الذى تمتع به الفنان المصرى. ويتعلق الأمر بعنصر من مشهد مزدوج، يواجه أحدهما الآخر، يصور صيداً برياً وصيداً نهرياً، وهو موضوع شائع: هنا، نجد نب آمون، على متن زورق مصنوع من مادة خفيفة، فى صحبة زوجته وأولاده، ويصوب عصا الرماية، فى اتجاه العصافير التى تعشش داخل تويجات أزهار نبات البردى. إن تعارض الخطوط المنمقة واضح كل الوضوح. فنجد من جهة، عالم البشر، بخطوط الصياد الرأسية العالية وبساعديه الممدودين أفقياً، بما تبذله من جهد، والخط المستقيم والموازى للمرأة وهى تحمل باقة زهور مركبة تركيباً بارعاً: إنه عالم منظم ومتوازن، يجد تعبيره فى هذه الخطوط الواضحة البسيطة. ونجد فى المقابل، أن عالمى الحيوان والنبات عالم برى، وتتمايل سيقان نبات البردى، وكأنها تحت تأثير ربح عاتية، فتطير العصافير فى مختلف الاتجاهات، ونشاهد قطعاً برياً ضخماً، فى حركة إلتوائية غريبة وهو يحاول قضم جناح طائر. كما أن تصادم الألوان أكثر عنفاً: إنه عالم من الفوضى، مشوش ومضطرب يتعارض مع عالم البشر. ويستطيع الرسّام المصرى، بتلاعبه بالخطوط وتباين الألوان، أن يعبر عن تكوين العالم.

كما تروى رسومات المقبرة أعباء قائد الشرطة الرسمية والروتينية. هكذا نشاهد «تقرير المساء»: فيجلس نب آمون فى ظل شجرة جميز، ممسكاً بيده اليمنى فرع شجرة، ويستقبل ثلاثة رجال، يحمل أولهم سهاماً، أما الآخران فمسلحان بالعصى. ويعلن الرجل الأول: «النظام يعمّ منطقة الجنوب و[منطقة الشمال]». ويعلن الآخران: «الموقع (?) سليم وكل شىء فى نظام»^(٩٣).

إن تأمين حسن أداء شرطة مدينة طيبة العظيمة، كان يفترض الكثير من هذه الواجبات اليومية.

أما حور إم حب، النبيل والأمير، حامل المروحة عن يمين الملك وكاتب المجندين الجدد، ثم مدير كتبة الجيش أجمعين، والمشرف العام على الإسطبلات الملكية، والمشرف العام أيضاً على الحقول والماشية وأشغال آمون، والمشرف العام على كهنة مصر العليا ومصر السفلى^(٩٤)، فكان من بين أفراد حاشية الملك الذين جمعوا بين العديد من المناصب الإدارية. وظل في خدمة ملكين، بدءاً من تحوتمس الرابع وحتى أمنحوتب الثالث. كان في الأساس من رجال الجيش، فرافق تحوتمس الرابع إبان حملته على النوبة. وتشهد على ذلك، المخربشات التي عثر عليها في كونسو. وتحتفظ مقبرته رقم ٧٨، في الشيخ عبدالقرنة، برسومات توضح بالتفصيل عمليات التجنيد العسكري، على امتداد سلسلة من الصفوف. وهي على كل حال مقبرة تتميز بجمال زخارفها. ويبدو أن فنَّانين على الأقل، قد ساهما في تنفيذ رسوماتها، فالفارق واضح بين نمطين مختلفين. والميل إلى الطبيعة بين جلي: سواء في طريقة المعالجة المحسوسة لتحليق الطيور بأجنحتها المفردة على اتساعها، فوق الأجمات أو في المعالجة المفعمة بالإنفعالات والطرافة، لهذه الجرادة الخضراء الرائعة، بعينيها الجاحظتين وقد تعلقت بتويج زهرة.

ويا لها من صلاة محرقة للمشاعر، تلك التي صاغها حور إم حب، حتى لا تتوقف الحياة، إنها اشتياق قوى إلى العيش في حرية:

حقاً، فأنا إنسان، يظل قلبه بجوار الله. إن قلبي مزدهر، إن فمي مزدهر، إن يديّ مزدهرتان. ليت قلوبكم تكون مزدهرة، أنتم يا مالكي الزمن الأبدى، أيتها الكائنات النورانية، المفعمة بالبركة في الجبانة. انظروا، أنا قادم من بلد الأحياء هذا، لأبقى معكم في الأرض المقدسة. أنا وحيد بينكم. ما أمقت الكذب عندي. لقد أتيت على الدرب الجميل للإنسان ذي القلب المستقيم، حتى أنشط وأنعش كل جسدي. ليت يائي

يعود إلى الحياة، ليتنى أكون إلهياً، عظيماً ونورانياً...

أيتها الآلهة القائمة فى السماء، والآلهة القائمة فى الأرض، والآلهة القائمة فى
النوات، أيتها الآلهة، يا سادة الجولات والترحال، التى تسير سفينة رع، وتقود الإله
العظيم إلى أفقه، ردّوا كلماتى إلى سيد الأبدية، بصفتها صلاة خادم إلى سيده. ليت
يتيح لى الرقاد، فى مكان الزمن الأبدى، فى مغارة الزمن اللانهائى^(٩٥).

وكرجع الصدى لصلاة الحياة هذه، تنشد الموسيقىتان هذه الأغاني:

من أجل كائك. اقض يوماً سعيداً فى بيتك الجميل - بيت الزمن الأبدى، فى
مكانك للزمن اللانهائى. فلتحتفظ فى يدك بألة جنك، جميلة للناظر إليها وكاملة. ضم
باقات الزهور التى لا تذبل. امسح جسدك بأفضل الزيوت. لا تتوقف عن قضاء يوم
سعيد، فيبقى قلبك فى متعة وصدرك فى فرح. سوف تشاهد آمون. وسوف يسمح بأن
تبقى ونسط البشر المبجلين فى بلد الأحياء... سوف تشرب من كأس من ذهب^(٩٦).

وأغلب الظن، أن حور إم حب كان من خلصاء تحوتمس الرابع الحميمين. وقد
صُوّر فى صحبة والدته، السيدة إيزيس، وأقعد على ركبتيه «الإبنة الملكية
أمن إم أويت». ومع ذلك، ليس فى وسعنا أن نقف على أصول وطبيعة العلاقات التى
كانت تربطه بالعائلة المالكة.

عالم فلكى فى خدمة آمون

إذا كنّا نذكر فى هذا الصدد، نخت - أى: «القوى» - الذى عاش فى عهد
تحوتمس الرابع، فليس لأنه يكشف أسرار فنه، ولكن بكل بساطة لأن مقبرته رقم ٥٢
فى جبانة طيبة، إلى جانب مقبرة مننا، هى الأفضل حفظاً من بين سائر مقابر
الجبانة. وتقع عند أدنى المنحدرات الشرقية من الشيخ عبدالقرنة. إن الحجرة الأولى
فقط مزخرفة. وقد احتفظت رسوماتها بدقتها المرمقة ونضارتها. وعولجت المواضيع
المألوفة معالجة كلها طرافة ورقة الشاعر. فيجلس نخت داخل مقصورة مصنوعة من
مواد خفيفة وغطاء نباتى، ليشاهد أعمال الحقول: ففى السهل الذى ترويه ترعة
صغيرة، بفضل تعرجاتها، يدفع الفلاحون أمامهم محراثين تجرهما الأبقار، وعلى

مسافة قريبة، نشاهد فلاحين آخرين وهما يحطمان قشرة الطمي التي تصلبت بسبب حرارة الجو، حتى يستطيع الباذر الذي يتبعهما أن ينثر حبوبه، وفيما وراء التربة أيضاً، يقوم الفلاحون بالعزق والبذر وقضب شجرة. وبعد ذلك، سيحل موسم الحصاد. ويوضح المتن: «الترويح عن القلب في أعمال الحقول».

إن نخت، شأنه شأن العديد من كبراء الدولة، كان يمتلك أيضاً أراضى في الشمال، في الدلتا ولا سيما مزارع الكروم. كما أن «الترويح عن القلب عند رؤية إسهامات حقول مصر السفلى»، ينظر إليه كمشهد أبدي، ويقوم الكرامون بقطف العنب وسط الأغاني وتبادل المزاح.

فإلى أبد الآباد، تظل رحلات القنص والصيد النهري والولائم والأغاني والرقصات، تروح أيضاً عن قلب نخت وزوجته تاوى، منشدة آمون.

إن تمثالاً يُصور نخت ممسكاً بلوح حجرى، دُوّنت عليه الترنيمة الشمسية المألوفة في هذا الطراز من المعالم الأثرية، كان في انتظاره مصير مؤسف. فقد تقرر نقله إلى متحف نيويورك عام ١٩٣٥، ولكن غرقت السفينة التي كانت تحمله، وما زال التمثال إلى وقتنا هذا، قابلاً في مكان ما، في أعماق المحيط الأطلنطي. إنه مصير غريب لم يخطر على بال عالم الفلك الذي كان في خدمة إله الكرنك.

٤- المجتمع:

الواجبات وشغل أوقات الفراغ

جمهور أصحاب المهن

كانت مصر في المقام الأول بلداً زراعياً، يُسهم فيها الفلاح، بالنصيب الأكبر في رفاهية الجميع. كانت الأراضى في مجملها ملكاً للبلاط الملكي والكهنة، ولكن الملكية الصغيرة كانت قائمة، فكان الفلاحون يعيشون، إلى حد ما، عيشة الكفاف، في

حدود ما تغله قطعة أرضهم الصغيرة. وفي هذا الصدد، يمكن الرجوع إلى قصة *الفلاح الفصيح* التي تروى مغامرات أحد هؤلاء الفلاحين، قبل سبعة قرون^(٩٧). ولزيادة دخلهم، كانوا يقومون بأعمال السخرة^(*) لحساب الإدارة الملكية أو إدارة المعابد اللتين تقومان بمكافأتهم على مجهودهم وتعويضهم عنه. ويفلحون الحقول والحدائق الشاسعة. كانت الحبوب من قمح وشعير، إلى جانب الكتان، من الزراعات الأساسية، ويترتب عليها وجود سلسلة طويلة من المهن الصغيرة من خبازين وصناع جعة ونساجين. وكانوا يقتلعون نبات البردى المنتشر على ضفاف النهر، ويعالجونه المعالجة المناسبة، ليصنعوا منه «الورق» المستخدم في هذا العصر، وذلك بدءاً من الأسرة السادسة أي حوالي ٢٤٠٠ ق.م. وفي الحدائق، كان الكروم ينمو على العريش والكرامون المرحون يهرسون بأقدامهم الحافية، عناقيد العنب، ذات الحبات السوداء المائلة إلى الزرقة، والشبيهة بعيني حورس، اللتين أتيا بها إلى الوجود، حسبما تقوله الأسطورة، وكل ذلك على إيقاع أغاني الكرامين وتصفيق أياديهم وتصادم الصنوج. ومن خلال فتحة في الحوض كان العصير الغزير يتجمع في سطل من الطين. ثم تعصر الرواسب الباقية، ويوضع السائل الإلهي^(**) في دنان عالية، وتسد سداً محكماً، مع بصمها بختم يوضح جهة المنشأ، ويترك السائل لفترة قد تصل إلى قرنين من الزمن، ليقدّم ويطيب، فيصير خمرًا معتقة.

كما كانت فرق من الرفاق مكلفه بجنى البلح والجميز والرمان والزيتون، اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة، إلى جانب غيرها من الثمار التي كانت تنبت بوفرة وغزارة.

(*) راجع هامش السخرة، الذي يذيل مقدمة الكتاب. يجدر بنا أن نضيف أن الأجازات في مصر القديمة بمناسبة الأعياد كانت تصل إلى أكثر من ١٠٥ يوماً، في السنة أي بنسبة ٢٩٪ من الأيام. وأغلب الظن أن العمال في مصر القديمة كانوا يتوقفون عن العمل خلال هذه الأيام، وإن كنا نفتقر إلى وثيقة تؤكد ذلك. فهل يظل يتحدث البعض عن سوء معاملة العامل في مصر القديمة وإن خضع لنظام العمل بالسخرة؟!

Della Monica. La classe ouvrière sous les pharaons, Librairie d'Amérique et d'Orient, 1980, p.160. (المترجم)

(**) كان أوزيريس «رب النبيذ» يتوحد بقوى الحياة ويندمج فيها. (المترجم)

كانت بساتين الخضر، محل عناية فائقة فتُغَلَّ خضروات جليلة الفائدة كالفول والعدس والحمص والحلبة والخيار والبصل والسلطة المعروفة بالرومانية. ومن أعمال الفلاحة، نذكر أيضاً رعاية بساتين الأزهار، وكان يتولى رِيَّها عمال البساتين الشديديو البأس، بواسطة دلوين معلقين عند طرفي عصا طويلة ممدودة على كتفي كل واحد منهم. إن الزهور التي تغلها هذه الزراعة نجدها مرسومة وملونة على أرضية قصر ملقطة أو قصر العمارنة، ومنها المُرير bleuets والأقحوان chrysanthèmes والألفاح man-dragores والجلبان pois de senteur وزهرة لوتس المستنقعات.

إن تربية الحيوانات في برك نهر النيل، كانت تضم قطعان الأبقار والخراف والماعز والحمير، ولكن أيضاً الطباء أو الضباع، بعد أن جلبت من الصحارى وكانت مصدراً للغذاء. إن رعاة نصف عرايا، كانوا يراقبونهم، وهي ترتع في المروج. وفي الفصل الحار، يقتادون قطعان مصر العليا إلى الدلتا، طلباً للعشب.

عرفت المزارع تربية النحل. «كانت المناحل تتكون من أواني فخارية راقدة على بطنها، أو ربما استخدمت أنابيب من البوص جُمعت فيما بينها بواسطة الطين، وظلت هذه الطريقة شائعة في ريف مصر حتى وقت قريب^(٩٨)». كان جمع العسل يتم عن طريق طرد النحل بالدخان، لاستخراج العسل الذي كان يقوم بدور بارز في عملية التغذية^(*)، حيث كان المصريون لا يعرفون السكر. وكانت حظائر الطيور تغص بالطيور، ويتولى الفلاحون تسمينها بأيديهم: ومنها الأوز الذي كان يطبخ بدهنه ويحفظ، وذلك بخلاف البط والحمام وأيضاً طائر الكركي وطائر الرُّهُو^(**).

(*) كما كان يستخدم في صناعة بعض الأدوية والأدهان. راجع:

Della Monico. La classe ouvrière sous les pharaons. Librairie d'Amérique et d'Orient, 1980, p.119 (المترجم)

(**) طائر يشبه الكركي. (المترجم)

هذا العالم من العاملين النشطين، كان يعيش تحت رحمة فيضانات النيل ونظام سليم للرئ، تراقبه الدولة عن كثب بأكبر قدر من الدقة. ولتطهير الترع أو توسيعها، يتم تجنيد الفلاحين وفقاً لنظام السخرة(*).

كانت موارد الأراضي مثقلة بالضرائب، ومع ذلك، كان القانون يفرق بين الأراضي الزراعية وأراضي المراعي، وبين مختلف الحقول حسب مستوى خصوبتها، وبين الممتلكات القديمة وتلك المملوكة حديثاً. كما أن «الكوارث الطبيعية»، أى الفيضانات المنخفضة، غير الكافية، يترتب عليها، تخفيض الضرائب(**).

إن تحديد الضرائب وربطها، كان يتطلب القيام بعمليات حصر متكررة للحقول والماشية. كما كان الوضع معقداً، فيندر أن تكون الأراضي التى يملكها الشخص الواحد متاخمة. فالملك والمعابد - على حد سواء - ولا سيما معبد الكرنك أو النبلاء، كانوا يملكون، فى آن واحد، أراضي فى مصر العليا وفى الدلتا. أضف إلى ذلك مشكلة أخرى، لأن الضرائب كانت تُدفع عيناً فى شكل حبوب أو مواشى أو أشياء مصنعة متنوعة. فكان لابد بداية من تخزينها فى الشئون والحظائر والمخازن الملكية، ثم توزيعها على الجيش وموظفى الحكومة والقصر. فيقع على عاتق كتبة الخزينة مهمة شاقة ومعقدة.

إن قسماً آخر من السكان كان يعمل فى المحاجر والمناجم: محاجر مصر ومناجم الذهب فى النوبة ومناجم النحاس والفيروز فى سيناء، تحديداً.

(*) بعد كل ما قيل عن السخرة فى الهوامش السابقة، فى المقدمة وفى سياق هذا الفصل، يمكن للقارئ أن ينظر إلى الأمر بموضوعية وحيادية، بعيداً عن التشنجات الفكرية الراضة رفضاً قاطعاً لوجود هذا النظام فى مصر الفرعونية، وبعيداً عن الرأى الذى يصرّ على النظر إلى هذا النظام من العمل باعتباره نقطة سوداء فى حضارة مصر الفرعونية، التى لم تعرف أبداً المجازر الجماعية التى ارتكبها الغرب، ففى منتصف القرن العشرين، على سبيل المثال لا الحصر، أباد ٥ مليوناً، من البشر خلال خمس سنوات فقط، هى عمر الحرب العالمية الثانية، والأمثلة غيرها، كثيرة وكثيرة، والإستشهاد بها، يتجاوز حدود هذا الهامش. (المترجم)

(**) هذا النظام الضريبى، من السمات الإيجابية للعدالة الاجتماعية التى قام عليها نظام العمل الأبوى فى مصر القديمة. (المترجم)

كما كان يقع الاختيار على فرق العمال لإلحاقهم بكبرى أشغال التشييد والبناء: نذكر منهم قاطعى الأحجار وصنّاع الطوب والبنّائين. فيعملون مقابل أجر ثابت أو يكافؤون أيضاً أحياناً عن فترة عملهم فى «السخرة»^(*).

كما شاعت المهن الصغيرة فى القرى أو البلاط الملكى: كالغسّالين والإسكافيين والحلاقين.

إن تصاوير المقابر ونصوصها - التى تعرّفنا بهذه الشرائع من أبناء مصر، تبين أن كافة المصريين، من سواد الشعب، كانوا يتطلعون إلى استمرار حياتهم بعد الوفاة، فيظلّوا يعملون بجوار ساداتهم، فى عالم آخر يشبه الحياة الدنيوية. هذا المعتقد أيضاً، هو الأصل الذى جاءت منه التماثيل الصغيرة التى لا حصر لها، التى يطلق عليها اسم أوشبتي وتأخذ مكانها فى المقبرة، إلى جانب صاحبها، وهى تحمل معزقة ومنكاش، «لتجيب»، إذا نادى عليها السيد، وتواصل فلاحه أراضيه الأبدية، فلاحه سحرية.

وخلافاً لفكرة لم تجد أحياناً صعوبة فى الذيوع، لم يكن أبداً فلاحو مصر وعمالها عبيداً، إن أسرى الحرب فقط كانوا معرضين لبيعوا أو يوهبوا. ومع ذلك فقد كان فى وسعهم أن يتزوجوا وأن يمثلوا بصفقتهم شهوداً فى ساحات المحاكم. بل كان فى وسع ساداتهم إعتاقهم ليحصلوا على المواطنة المصرية^{(**)(٩٩)}.

الطبقة «الوسطى»

كان الحرفيون من فخّاريين ونحاتين ورسّامين وصوّاغ وصنّاع الجواهر - ينحتون جميعاً أشكالاً، كانت تعتبر بعضها أغلفة حية، تنتظر أن تثبت فيها الحياة.

(*) أعمال السخرة كانت إذن مدفوعة الأجر. (المترجم)

(**) هكذا يمكن اعتبار أن ملف السخرة والعبودية فى مصر الفرعونية، قد أُغلق. (المترجم)

ومن ثم كانوا جديرين بكل الإحترام والإهتمام، ويشكلون طبقة تعيش فى يسر ورخاء. كانت هذه الوظائف وراثية فى الغالب، فتنقل أسرار هذه المهن أباً عن جد، وخلفاً عن سلف. كان هؤلاء الحرفيون لا يحصلون فقط على أجورهم، بل كانت تعطى لهم قطعة أرض أو ما يلزمهم من متاع جنائزى. إن جبانة دير المدينة تشهد منذ إقامتها على ذلك، وسوف تزداد اتساعاً فى عصر الرعامسة تحديداً.

الكتبة أيضاً، وهم موظفون فى خدمة الدولة أو الأشراف والنبلاء أو الكهنة، كانوا عناصر نشطة، يصعب الإستغناء عنهم ويشكلون جزءاً من الطبقة الوسطى. بل كان ينتمى بعضهم إلى الطبقة الحاكمة. ولا يوجد أى وجه شبه بينهم و«نساخ» أيامنا هذه. كانوا أشخاصاً يتمتعون باحترام الجميع، بل وصل إليهم الأمر إلى حد إعفائهم من الضرائب. كانوا فخوريين مزهوين بأيديهم اللساء وثيابهم المصنوعة من الكتان الناصع، ويعتزون بما يتمتعون به من إمتيازات.

كان الجميع، بدءاً من الفلاحين العاملين فى الأرض وصولاً إلى الحرفيين والكتبة، شركاء يساهمون فى حياة العالم المصرى واستمراره على قيد الحياة فى العالم الآخر.

شغل أوقات الفراغ ورحلات الصيد الملكية

لما كانت الطبقة الحاكمة التى تشكل بلاط الملك فى طيبة، مثقلة بمسؤوليات مرموقه وجسيمة، فمن الطبيعى أن تسعى إلى شغل أوقات فراغها بطريقة سليمة ومفيدة، على سبيل الإستجمام: كالترويح عن النفس فى جو الحدائق العليل، وتأمل أعمال الحصاد وأعشاش الطيور، أو شغلها بممارسة قدر كبير من الرياضة، من خلال رحلات الصيد النهري والصيد البرى، وتحتفظ المقابر بالعديد من التماثيل التى تمثل هذه الأنشطة.

ولكن الصيد البرى والصيد النهري، لم يكن لهما فى مصر دلالة رياضية فحسب، بل كانا أفعالاً سحرية تهدف إلى قتل القوى العدائية الكامنة فى كل قنينة.

كما كانت رياضة الصيد فى نظر الملك ماثرة، الهدف منها تأكيد قوته وتعذر قهره، إذ كانت الحيوانات البرية وأعداء الإمبراطورية شيئاً واحداً. ومن ثم كان الصيد نشاطاً مخلصاً، يسهم فى إقرار النظام فى العالم وتماسك البلاد وترباطها.

لقد أراد أمنحوتب الثالث أن يخلد رحلات صيده العظيمة. فأصدر سلسلة من الجعارين. وفى العام الثانى من عهده، أراد لرحلة الصيد التى قادها ضد الثيران البرية، أن تحيا إلى أبد الآباد:

فى العام الثانى، من عهد صاحب الجلالة... (تذكر بعد ذلك القائمة الكاملة للألقاب الملكية)... أمنحوتب، حاكم طيبة و(جلالة) زوجته الملكية العظيمة تبي، جرت لصاحب الجلالة أحداث عجيبة. جاء من يقول له، أن قطعان من الثيران البرية موجودة فوق تل أرض شيتا(?). عندئذ هبط صاحب الجلالة النهر، ليلاً متجهاً ناحية الشمال، على متن السفينة الملكية المسماة «من يظهر متألقاً مع ماعت». وإذا سلك الطريق المناسب، وصل إلى شيتا فى سلام مع مطلع الفجر. عندئذ، ظهر على مركبته، فى حين كان جيشه بأكمله يسير فى أعقابها. فصدرت الأوامر إلى أفراد الحملة فى مجموعها، وإلى الأطفال أيضاً، الذين كانوا فى صحبتهم بمراقبة هذه القطعان البرية بأكبر قدر من اليقظة. ثم أمر صاحب الجلال بمحاصرة هذه القطعان بسور وخندق. وأمر أيضاً بإحصائها. فكانت أعدادها الحالية ١٧٠ ثوراً. وأعداد ما جاء به من رحلة الصيد، فى ذلك اليوم: ٦٥ ثوراً.

ثم قضى صاحب الجلالة أربعة أيام يشغل فراغه فى العدو بجياده (حرفياً: يلهب الجياد). وظهر مرة ثانية على متن مركبته، بيان بالثيران التى جاء بها صاحب الجلالة من رحلة الصيد: ٤٠. ومجموع الثيران ٩٤(*) (١٠٠).

وتكرس مجموعة أخرى من الجعارين انتصارات العاهل الملكى فى رحلات صيد الأسود. وبعد القائمة المزوجة لألقاب الملك والملكة يعلن النص: بيان بالأسود

(*) هكذا فى الأصل. (المترجم)

التي جاء بها صاحب الجلالة، بفضل قوسه، منذ العام الأول وحتى العام العاشر:
١٠٢ أسداً متوحشاً (١٠١).

الأسلوب مبتذل، ويبتعد كل البعد عن أسلوب الملاحم العظيمة التي حققها تحوتمس الثالث. كان أمنحوتب الثالث ملكاً عاش حياة سهلة مترفة، بفضل فتوحات أبيائه، ولم يهتم إلا في أضيق الحدود بالحفاظ مثلهم، على الإمبراطورية، بفضل سياسة حصيفة، تضمن وجوداً متواصلاً واستعراضاً للقوى العسكرية.

٥- الازدهار وكبرى الأبنية

● وأخذ الكرنك يتوسع

إن الكتل الحجرية التي استخدمت في مباني تحوتمس الرابع عثر على معظمها في المباني التي شيدها ابنه أمنحوتب الثالث. كان هذا الأخير بناءً عظيمًا ولكنه كان أيضًا في الواقع «هدامًا». فإذا أراد أن يبني بأقل التكاليف ويأسرع ما يمكن، فكأن العديد من مباني أسلافه ليشيّد مبانيه، وتحديدًا الصرح الثالث من معبد الكرنك.

كان تحوتمس الرابع قد شيّد مقصورة من الألبستر لاستراحة المركب المقدس، بمدخل مزدوج اسمها «تحوتمس - ذو - الإشراقات - المتألقة، هو الذي يتسلم تيجان آمون».

كان معبد آمون - رع يبدأ آنذاك، عند الصرح الرابع الذي شيده تحوتمس الأول. وفي باحة المبنى شيّد تحوتمس الرابع مبنىً من الحجر الرملي، له أهميته. ربما كان بناية تحيط بها أعمدة أو فناء ذا رواق داخلي، يتكون من عشرين إلى ثلاثين عموداً مربعاً، مزخرفاً على كل وجه من وجوهه، بمشهد ذيّل بسطرين من نصوص تشير إلى أعياد الملك اليوبيلية. وما زال بعض بقايا الأعمدة موجودة في مكانها، عند الزاوية الشمالية الغربية من البرج الشمالي من الصرح الرابع، ولكن عثر على

معظمها وسط أساسات الصرح الثالث الذى شيده أمنحوتب الثالث(*) . إن بعض أجزاء السواكف كانت تحمل مدونة، تقدم وصفاً للمبنى: «فناء أمامى، من الحجر الرملى الجيد، محاطاً بالأعمدة»^(١٠٢). لا شك، أنه كان فناءً للأعياد، يُحتفل فيه ببعض فقرات مراسم الأعياد اليوبيلية، وتحديدًا العنوش الشعائرى والمواكب المقدسة. ويُعتقد أنه كان يسمح عندئذ للجمهور بالدخول إلى هذا الفناء لرؤية «الإله فى تجلياته». ويطلق أحياناً على هذه الأفنية الأمامية عبارة «أفنية الشعب». قام تحوتمس الرابع بزيادة حجم باب الصرح الرابع، فأضاف جزءاً أمامياً إلى الكتلة الأساسية للباب الأقدم الذى قد يعود تاريخه إلى تحوتمس الأول. الأمر الذى يفسر تغيير اسم المبنى، فأصبح اسمه بدءاً من عهد تحوتمس الرابع:

«الباب المقدس العظيم (المسمى): قوية - هى - هيبة - آمون».

وأمام بوابة الصرح الرابع هذه، أمر العاهل الملكى بتشييد مدخل مسقوف من الذهب^(١٠٣)، كانت ظلّته مرفوعة على أسطونين من الطراز الخيمى(**)، وما زالت ركيزتيهما فى مكانهما بجانب قاعدتى المسلتين. وعلى الدعامة الشمالية العلوية، يمكن أن نقرأ:

لقد شيد من أجل أبيه آمون - رع بوابة شامخة... ليصبح ما سبق أن شيده أسلافه، أكثر اتساعاً وأكثر شموخاً. حتى وصل ارتفاعها إلى عنان السماء، وينير تألقها القطرين ويدخل الفرع والبهجة على الكرنك، ويغتبط ملك الآلهة عند مشاهدتها^(١٠٤).

وفيما بعد سيتولى الملك السودانى شاباكا من الأسرة الخامسة والعشرين، ترميم الباب والمدخل المسقوف. وبعد ذلك، سيدور الإسكندر الأكبر اسمه على الباب.

(*) هكذا كان وضعها عند كتابة هذه السطور، ولكن أعيد الآن تشييد ما تبقى من المقصورة، فى المتحف المفتوح بالكرنك. (المترجم)

(**) campaniforme. تاج هذا الطراز من الأساطين، فى هيئة ناقوس فتحته من أسفل ومدور فى أعلاه ويشبه وتد الخيمة. ومن أمثلة هذا الطراز: أساطين بهو أعياد تحوتمس الثالث بالكرنك (أخ منو) ومركب خوفو فى المتحف القائم جنوب هرم خوفو. (المترجم)

لقد وردت صورة للمدخل المسقوف، فى حالته الأصلية، ضمن رسومات المقبرة رقم ٧٥ بجبانة الشيخ عبدالقونة، فى غرب طيبة لصاحبها أمنحوتب سا إس، الخادم الثانى للإله آمون.

وهنا، لا ينظر إلى الذهب، باعتباره رمزاً يدل على الأبهة والرفعة والترف. فالذهب هو لحم الآلهة. والمدخل المسقوف المصنوع من الذهب، يستقبل إستقبالاً طبيعياً آمون - رع، عند أطراف بيته. إنه يحدد مدخل الطريق المقدس الذى يسوق الإله إلى معبده.

إن أعمال تحوتمس الرابع تضم أيضاً عدداً من المعالم الصرحية الأخرى الرفيعة الشأن، وإن اختفت فى الوقت الراهن. ونعرفها من خلال النصوص. فيمكن أن نقرأ على الجانب الشرقى من مسلة اللاتران^(*)(١٠٥) Latran، النص الآتى:

إن من خير ورع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد أكثر من المعالم الصرحية فى الكرنك، (إنها معالم) من ذهب ولازورد وفيروز، وكافة أنواع الأحجار الكريمة. إن القارب الكبير للإله آمون على صفحة النهر، المسمى «ذا القيدام القوى»، مصنوع من خشب الأرز الذى قطعه صاحب الجلالة من فوق جبل ريتنو. كان مغشى بالكامل بالذهب، وصنعت كافة زخارفه حديثاً، لاستقبال جمال أبى الملك آمون، عند ابجاره على صفحة النهر^(١٠٦).

لقد اندثر العديد من أعمال الفراعنة المقدسة، من جراء ما لحق بها من تدمير وسرقات وسلب ونهب.

وقام أمنحوتب الثالث بتوسيع الكرنك، إلى حد كبير فى اتجاه الغرب والشمال والجنوب.

وأمام الصرح الرابع الذى شيده تحوتمس الأول، والفناء ذى الصُفة وهو من أعمال تحوتمس الرابع، شيد صرحاً آخر، هو الثالث حسب تسميتنا فى الوقت الراهن، ويقع شرق بهو الأساطين العظيم الذى شيده سيتى الأول ورعمسيس الثانى،

(*) فى الفاتيكان. (المترجم)

أى أنه كان يقع بعد هذا البهو بالنسبة للقادم من جهة النهر. كان هذا الصرح يتكون من برجين مرتفعين من الحجر الرملى، يكتنفان باب من الحجر الرملى، وثبتت أربع سوارٍ على كل برج. وبعد ذلك، وأمام هذا الباب، أمر الملك بإقامة ردهة وباب أمامى، سوف يتقدمه فيما بعد صف أعمدة.

وعندما قامت هيئة الآثار المصرية(*) بالتنقيب فى أساسات هذا الصرح، كشفت عن ١٣٠٠ كتلة من الحجر المزخرفة، كانت جزءاً من ثلاثة عشر أثراً مختلفاً: فناء تحوتمس الرابع، ذى الأعمدة ومسلتا أمنحوتب الثانى اللتين كانتا قائمتين فى هذا المكان وباقى المباني التى شيدت على ما يظن فى هذا المكان، وهو نقطة تقاطع محورى الكرنك الرئيسيين، محور معبد آمون - رع الغربى الشرقى والمحور الشمالى الجنوبى الذى يربط معبد مونتو بمعبد موت ومعبد الأقصر. ومن بينها، مقصورتان أمكن ترميمها بالكامل إنطلاقاً من الكتل المستخرجة من أساسات صرح أمنحوتب الثالث، بفضل جهود المهندس الفرنسى هنرى شيفرييه Henri Chevrier: فأعيد تشييد الأولى فيما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨، وهى إستراحة للمركب المقدس من الحجر الجيرى الأبيض وكان سنوسرت الأول قد أقامها. أما الأخرى فقد أعيد تشييدها عام ١٩٤٧ وهى استراحة للمركب المقدس من الألبستر وتعود إلى عهد أمنحوتب الأول(١٠٧)(**).

أما باب الصرح، فقد صار فى الوقت الراهن مجرد أنقاض. ولكن فى وسع المرء الواقف أمام أطلاله، أن يتصور بسهولة روعته الغابرة، لأن نصاً يقدم له وصفاً، على قدر كبير من الدقة. فقد حُفر هذا النص على لوح كبير من الجرانيت الأسود، كان مقاماً أصلاً فى المعبد الجنائزى للعاهل الملكى بالبر الغربى، وعُثر عليه فى معبد

(*) (تغير اسمها فى الوقت الراهن إلى المجلس الأعلى للآثار. (المترجم)

(**) (يمكن مشاهدة هاتين الرائعتين فى المتحف المفتوح، شمال الفناء الأول من معبد الكرنك. (المترجم)

الفرعون مر إن پتاح من الأسرة التاسعة عشرة(*)، الذى أعاد استخدام عناصر مباني سلفه، فى مبانيه الخاصة.

يحدثنا نص أمنحوتب الثالث على النحو الآتى:

طلب الملك بتشييد باب شامخ أمام (معبد) آمون - رع، رب عروش القطرين، مغطى بالكامل بالذهب. إن صورة الإله، (فى هيئة) كبش، مطعمة باللزورد الحرّ ومغشاة بالذهب وعدد كبير من الأحجار الكريمة. ولم تُصنع مثلها أبداً. كانت الأرضية مزدانة بالفضة. وأقيم باب أمامى ولوح من اللزورد على كل جانب من جانبيه. كان صرحه يلامس السماء، مثله مثل الدعائم الأربع التى تحمل السماء. إن تألق السوارى ذات البيارق، المغشاة بالذهب الخالص، كانت ترتفع إلى أعالى السماء. ولهذا الغرض كان صاحب الجلالة، قد جلب الذهب من منطقة كاروى، إبان الحملة الأولى المظفرة الهادفة إلى تدمير بلاد كوش الشديدة الخسة (١٠٨).

وما زلنا نقرأ أيضاً، مدونة أخرى منقوشة برشاقة فائقة، على الجناح الجنوبي من الصرح الثالث. إنه نص يمتدح الملك وأعماله من أجل إله الكرنك. ونلاحظ أن التعبير عن المقصود، من خلال لفظ حسن، يرهص منذ ذلك الزمن، بطلاوة البيان فى عصر الرعامسة:

إنه أكثر الأذكيا، الذى اصطفاه آمون من بين ملايين البشر، ليقود الشعب فى مواجهة الزمن الأبدى. لقد أقامه على عرشه ليسوس ما يحيط به القرص (أتون)، إن عينه تخلق النور من أجل البشر أجمعين. كم هى محببة ومنعشة، رؤيته متجلياً فى تألقه. لقد وهبه آمون عرش جب ووظيفة أتوم ومُلك رع، للزمن الأبدى. إن ساعديه يحملان العصا، ببسالة وقوة، لتتوجه إليه الأرض قاطبة محملة بمنتجاتها، إنه أسد

(*) وهو من مقتنيات متحف القاهرة حالياً، الرواق ١٣ من الطابق الأرضى. ومن السهولة بمكان، أن يدرك المشاهد الفارق الشاسع بين روعة نقوش وجه اللوح الذى يخص أمنحوتب الثالث، بمقارنتها بمستوى نقوش ظهر اللوح الذى يخص مر إن پتاح - والمعروف اصطلاحاً بلوح إسرائيل. (المترجم)

متوحش، عندما يشاهد أعداءه، وهم يطنون طريقه، (الأعداء) الذين يدحرمهم اسمه. ومن أتى به إلى الوجود، يأمر بأن يتحد بأشكاله، ليصبح السيد الأوحى المتفرد... مستمتعاً بقوته، مرشد جيشه، وزعيم ملايين البشر، إنه صاحب قلب يقاوم الزمن، وساعد بارع ويتمتع بالمعرفة... منجزاً مداره على غرار آتون، لأنه واسع الخطى. إنه نجم من الذهب الخالص، على متن مركبته (الحربية) وقواس قدير، عندما يصوب ناحية الهدف، إن ساعدته يشبهان ساعدتي رب طيبة، وهو يسوق أسرى البلدان الأجنبية قاطبة. فلا نظير له، إنه الراعي الصالح، الساهر على البشر أجمعين الذين أخضعهم خالقهم لسلطانه. إنه سيد الطعام... فهو من يحب أفعال ماعت، مغتبطاً بإرشاداتها، فاحصاً الأبدان وعارفاً بما في القلب. إن بسالته المجيدة تذهب بالشرير، وتحمي الخائف المذعور. إن كلماته نسمة الحياة، نشطة ورشيقة. إن البذرة الإلهية في بدنه، إن تألقه بالكامل ينتسب إلى صيرورة جلاله رع...

(كلمات الملك):

أنا ابنه البكر، الآتي إلى الوجود في طيبة... إنني أقود تحت إمرته، واتحد بقوته. إنني أفتح (البلدان) بواسطة سلطانه. وأنجز في معبده أعمالاً، من مختلف الأنواع....

أنا ابن، يحقق أشياء مفيدة للذي انجبه. إنه الله في قلبي، في كل لحظة من اللحظات (*). وأقدم له نباتات نضرة... وأحضر له فضة وذهباً ولازورد خالصاً وفيروزاً وعقيقاً أحمر ونحاساً أسود وبرونزاً وقصديراً وألواناً وأحجاراً كريمة، من مختلف الأصناف، وكافة أنواع أدوات الأكل المقدسة وهي من الذهب - وبأعداد لا تحصى (١٠٩).

(*) وجه الشبه كبير مع ما سيقوله بعد عدة قرون، أبو المغيث الحلاج، المتوفى عام ٢٠٩هـ - ٩٢٢م: رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت قال أنت.

[ديوان أبي المغيث الحلاج. دار معد. ودار النمير. دمشق. ١٩٩٩. ص ٢٨]. (المترجم)

هكذا، فإن الأيديولوجيا التي رسختها حتشيسوت وطورها تحوتمس الثالث، تكشف في نص أمنحوتب الثالث، المنحوت على الصرح الثالث بالكرنك، عن جوانب جديدة. فيتضح «التبادل» التقليدي للخدمات الحميدة بين الملك والإله، والوحدة التي تجمعهما، تجعل منهما من الآن، كائناً واحداً بأشكاله المتداخلة المتشابكة. وتظهر صور جديدة تدمج الفرعون دمجاً لصيقاً بالكون، باعتباره كلاً منظماً متناغماً، بعيداً عن الخواء والفوضى، وإرهاصاً لميثولوجيا الرعامسة. ولا تهيمن على تاريخ الأسرة الثامنة عشرة، فكرة أحادية مرموقة - على غرار ما ساد في زمن الرعامسة - بل فكرة ما زالت تبحث عن مقوماتها فتتشكل ونكون تدريجياً، ويأتى كل ملك ليقدّم بدوره إسهامه، حتى أصبحت المصدر المباشر لأيديولوجيا الرعامسة، التي لا تنفصل عنها.

والى الشمال من معبد آمون - رع، توجد منطقة أخرى مقدسة، وإن كانت أصغر منها بكثير، كانت قائمة قبل الأسرة الثامنة عشرة، بفترة طويلة، ومكرسة للإله مونتو، الراعى الحامى لمدينة هرمونتيس، إنه إله صقر محارب. إن معبد مونتو، كما نشاهده في الوقت الراهن، والذي يقع مدخله ناحية الشمال، هو من أعمال أمنحوتب الثالث. إنه مشيد فوق قاعدة بناء مستطيلة، طولها ٥٢ متراً ونصف وعرضها ٢٦ متراً وربع، ولها إفريز على ارتفاع ١٥ سم فوق الأرض. أما جدران المبنى التي يعتقد أن واجهاتها الخارجية، كانت مزخرفة زخرفة محدودة، فكان يعلوها، على ما يظن، إفريز مماثل لإفريز قاعدة البناء. إن باباً شامخاً، عتبته من الجرانيت الوردى، كان يفتح وسط الواجهة. وشأنه شأن جميع المباني القائمة حول محيط معبد آمون - رع في الكرنك، أصاب معبد مونتو خراباً طائلاً، إذ استخدم حجراً لسكان المنطقة. ومع ذلك فإن الأجزاء المبعثرة المتبقية من البلاطات والمسلتين والجدران والأساطين وتيجانها والسواكف، تساعد على إعادة تخيل ما كان عليه المبنى^(١١٠).

كانت مسلتان من الجرانيت الوردى، قائمتين أمام المعبد، يصل ارتفاعهما إلى أكثر من ١٨ متراً. ويمكن افتراض أن مساحة المعبد في حد ذاته، كانت تتكون من

مربعين، يبلغ كل ضلع من أضلاعهما ٢٥ متراً طولاً. ويضمّ المربع الأول الفناء المحاط بأروقة، ويضم الثاني، القسم المسقوف من المبنى، ويصل إليه المرء من خلال خمسة أبواب.

كان الفناء الكبير يضم أربعة عشر أسطواناً على هيئة براعم نبات البردي، يتكون بدنها المقنى من اثني عشر ضلعاً، الأمر الذي يذكرنا بشكل أساطين معبد الأقصر وترتيبها، وإن كانت أبدانها المقناة لا تتكون سوى من ثمانية أضلاع. وأقيمت فى هذا الفناء تماثيل لأبى الهول من الجرانيت الأسود، بجسم أسد ووجه أمنحوتب الثالث.

كانت أكثر أقسام المعبد انعزالاً، تضم تحديداً بهو أساطين تكتنفه حجرات ثانوية وسبع مقاصير لقدس الأقداس. كان بهو الأساطين يضم أربعة أساطين فى هيئة براعم نبات البردي، من طراز يشبه أساطين الفناء، وإن كانت أقل ارتفاعاً، ومقامة فوق بلاطات تشكلت من أجزاء ضخمة، تعود أصلاً إلى سقف من الجرانيت الوردى، قبل أن يعاد استخدامها. كان الجزء الأسفل من جدران البهو مزخرفاً بمشهد يصور سيقان نباتية تنبثق من المستنقعات، واتخذت مياهاها هيئة خطوط منكسرة. هنا، تبرز الدلالة الرمزية لبهو الأساطين^(١١). وفى إحدى الحجرات، عثر على تمثال ثنائى، من الجرانيت الأسود، هو آية فى الجمال، ويمثل آمون - رع متربعاً على العرش واضعاً يده على عنق أمنحوتب الثالث من الخلف، وقد صورَ الملك جاثياً مرتدياً زى العيد اليوبيلى. كانت هذه المجموعة مغطاة بالكامل، برقائق من الذهب ما زالت بعضها فى مكانها. إن الدلالة الرمزية للذهب موجودة فى كل ركن من أركان الكرنك، أرض الشمس. كما كان الذهب عنصراً مهيمناً أيضاً، فى البناية الأصلية، انطلاقاً من الوصف الذى تحتفظ به مدونة منحوتة على الواجهة الجانبية الشرقية لقاعدة البناء:

ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، صورة (الإله) رع. إنه يتسيد القطرين، وأقام معلماً أثرياً من أجل أبيه [آمون - رع، رب عروش القطرين، فشيّد] معبداً جديداً، من حجر رملى أبيض جميل، فى المكان المبارك بطيبة، دون أن يلحق أى ضرر، بما كان مقاماً من قبل. (إنه معبد) وطيّد الأركان، شيّد ليدوم إلى أبد الآباد،

وبفضل إسهامات زعماء كافة البلدان الأجنبية والتي أتى بها صاحب الجلالة من إنتصاراته، وبفضل غنائم ساعده الجسور، جُعل (المعبد) طاهراً مقدساً، فى مجموعه، بفضل الذهب. كانت أبوابه من الذهب الخالص الحقيقى، ومزدانة أيضاً بمختلف أنواع الأحجار الكريمة، المقدمة من بلاد الجنوب. كانت كافة أرضياته مذهبة. ومصاريح الأبواب من خشب الأرز ومن نحاس أسيا، كإسهامات من بلاد الشمال. كان المعبد أشبه بأفق السماء بأكملها، وأدوات الطعام من الفضة ومطعمة بكل أنواع الأحجار الكريمة. كان المكان الذى يستريح فيه سيد الآلهة، فجاء على صورة عرشه القائم فى السماء. واسمه الكامل الصفات، كما تحدده المدونات «إن نب ماعت رع هو الذى يتجلى متألقاً مع الحقيقة - العدالة».

إجمالى ثروة المعبد حسب أوزانها:

الذهب الخالص :	٣١٤٨٥ دين	(٢٨٣٣٨ كجم)
الذهب :	٢٥١٨٢ دين	(٢٢٦٦٥ كجم)
النحاس الأسود :	٤٦٢٠ دين	(٤١٦ كجم)
اللازورد :	٦٤٠٦ دين	(٥٧٧٠ كجم)
العقيق الأحمر :	١٧٣١ دين	(١٥٦٠ كجم)
الفيروز :	١٠٧٥ دين	(٩٧٠ كجم)
البرونز :	١٤٣٤٢ دين	(١٢٩١٠ كجم)

وحُفرت بركة، وزُرعت حديقة متألفة بما فيها من أزهار، من كافة الأنواع. كما أُلحقت بالمعبد، أعداد غفيرة من الخدم... وأبناء زعماء كافة البلدان الأجنبية القادمين، منحنية ظهورهم، بسبب مجد صاحب الجلالة^(١١٢).

إن الكنوز المكنونة لدولة جولكوندا(*) Golconde وذهب منطقة إلدورانو(**)

(*) جولكوندا: مدينة محصنة فى شبه جزيرة الهند، لم يبق منها سوى أطلال، بعد أن سلبت ودمرت فى القرن السابع عشر. وقد اشتهرت بثرواتها الطائلة. (المترجم)

(**) إلدورانو: كلمة إسبانية معناها: «بلد الذهب». وهى منطقة خرافية فى أمريكا الجنوبية، ذهب الغزاة الأسبان الأوائل إلى الاعتقاد بأنها كانت تفيض ذهباً. (المترجم)

Eldorado، ليست سوى صور حديثة شاحبة، لهذه الثروات التي تفوق الخيال. لم تعرف البشرية كاتدرائية أو مسجداً أو كنيساً أو معبداً، بلغ ما بلغته الأماكن المقدسة في الكرنك من روعة منقطعة النظير، وقد ظل شعب بأكمله يعمل من أجله بورع وحماس على امتداد العصور. كان الحجيج، إذا ما أشرفوا على نهاية رحلتهم يشاهدون من على بعد، من الصحراء تألق الذهب عند امتزاجه بالشمس التي كان هذا المعدن النفيس امتدادها على الأرض. هكذا كان آمون - رع ومونتو يستريحان في مكانهما المقدس.

والى الجنوب من معبد آمون - رع، وقرب الطريق المؤدى إلى معبد الأقصر، شيد أمنحوتب الثالث معبداً مكرساً للإلهة موت، زوجة آمون. كان يتجه من الشمال إلى الجنوب، وهو مدمر تدميراً بالغاً، فى الوقت الراهن، رغم قيام رعمسيس الثالث بترمييه والبطالة بزخرفته بنقوش جديدة. ويمكن للمرء، أن يلاحظ، فى الوقت الراهن، وجود فناء أول مع بقايا صفة ذات أعمدة وفناء ثانٍ برواق يتميز بوجود أعمدة ذات تيجان حتحورية، يليه بعض الحجرات وقدر الأقداس. كانت جميع القاعات تضم تماثيل من الجرانيت الأسود، للإلهة سخمت برأس أسدة والمندمجة فى موت، وقد صورت واقفة أو جالسة. وعثر على مئات من هذه التماثيل. والقلّة القليلة من متاحف أوروبا أو أمريكا لا تحتفظ ببعضها ضمن مقتناتها. وقد تم «الكشف» منذ وقت قريب، على إثنين منها فى حديقة شاتسورث هاوس Chatsworth House، وهو قصر كبراء بوقية ديفونشاير Devonshire القائمة بجوار مدينة باكويل Bakewell فى ديربيشاير Derbyshire (*) (١١٣).

هذا الوجود الإلهى الملح الطاغى بأعداده الكبيرة، نلتقى به أيضاً فى معبد أمنحوتب الثالث الجنائزى، فى كوم الحيتان على البر الغربى لمدينة طيبة. ولما كان كل تمثال من هذه التماثيل، يحمل صفة من صفات الإله، تختلف عن غيرها، فقد أصبح مجموع هذه التماثيل أشبه بسرد رتيب من الحجر، أقيمت إكراماً لهذا الكيان الإلهى

(*) فى بريطانيا العظمى. (المترجم)

الشمسى والحربى - الشديد القرب من حيث طبيعته، بالإله مونتو. إن معبدى الكرنك الثانويين، يوازنان إذن على أكمل وجه، المعبد الأوسط الكبير المكرس لملك الآلهة. ويحيط بمعبد مونت من جهاته الثلاث، بحيرة مقدسة، تتخذ شكلاً غريباً على هيئة حدوة حصان، يطوق طرفاها المعبد.

أما البحيرة المقدسة التابعة لمعبد آمون - رع فى الكرنك، فتقع إلى الجنوب منه، وتكاد تلامس نقطة تقاطع المحورين الرئيسيين للمبنى المقدس. ربما كانت من إنجازات تحوتمس الثالث. إنها تشكّل مستطيلاً شاسعاً، يبلغ ١٢٠ متراً طولاً و٧٧ متراً عرضاً. كانت ضرورية لوضوء الكهنة، حسبما تقتضيه ترتيبات الشعائر الدينية ولرحلات الإبحار الإلهية، حيث كان ينظر إليها باعتبارها انبثاقاً أسطورياً ثانياً، للمياه الأزلية الأولى التى سبقت خلق العالم. وأمكن إعادة تشييد الجدران والسلالم، بعد أن عُثر على أجزائها القديمة المهتمة إلى حد ما، حول طول محيطها بالكامل.

وفيما بين الركن الشمالى الغربى من البحيرة المقدسة والركن الجنوبى الغربى لمبنى شيدده، فى زمن لاحق، الملك السودانى طهرقا، من الأسرة الخامسة والعشرين، يرتفع فوق قاعدة، تمثال لجعران ضخّم، نُحت فى عهد أمنحوتب الثالث، فى كتلة من الجرانيت الوردى. وأغلب الظن، أنه كان قائماً أصلاً فى كوم الحيتان بالبر الغربى، فى المعبد الجنائزى لهذا العاهل الملكى. ولا شك أنه نُقل إلى الكرنك فى عهد ملوك الأسرة السودانية. وبالفعل، تقول المدونة التى يحملها:

كلمات قالها خپرى الآتى إلى الوجود منبثقاً من أديم الأرض: «إنه ابنى نب ماعت رع. إنى أعقد الحياة على أنفك، والثبات والقوة، حتى تُتمّ ملايين أعياد اليوبيل، لأنك سيد ما ينيره القرص الشمسى (أتون). لقد خرّت الأقواس التسعة تحت قدميك، مكافأة على ما فعلته من أجلى. إنى راضٍ عن عملك، عن هذا المعبد القائم فى غرب طيبة...» (١١٤).

وبطبيعة الحال، فإن هذا التمثال الشامخ المكرس للإله الشمسى خپرى، كان يلمح إلى انبثاق الجرم السماوى عند الفجر، رمزاً للحياة التى تتجدد دائماً وأبداً.

ويرى بول بارجيه Paul Barguet، أن موقعه الثانى، يربطه ارتباطاً مباشراً، مع مبنى طهرقا - البحيرة. فالإله «الخارج من الأرض»، كان ينبعث على ما يظن، من حجرات المبنى الواقعة تحت مستوى الأرض، عبر إرتقاء الدرج الذى دونت على جدرانها الترانيم إلى الشمس. ويظل المعنى العميق للأسطورة قائماً، ولكن فى وسعه أن يتكيف مع مختلف المواقف.

معبد الأقصر: مكان مقدس جديد

ملك مصر العليا ومصر السفلى.... نب ماعت رع. ابن رع: أمنحوتب... طاب له أن يُشيد من أجل أبيه، آمون - رع، رب عروش القطرين، فى الأقصر، معبدًا من الحجر الرملى الأبيض الجميل. كان واسعاً وشاسعاً إلى حد كبير، ويزداد جماله، بلا انقطاع. كانت جدرانها من الذهب الخالص، وأرضياته من الفضة، وكافة أبوابه مغطاة... كانت صروحه تلامس السماء وتختلط بالنجوم الإلهية.

وعندما شاهد الشعب ذلك، هتف لصاحب الجلالة وهلل (قائلاً): «الملك نب ماعت رع، هو الذى أرضى (حرفياً: غسل) قلب أبيه آمون، رب عروش القطرين...» (١١٥).

لم يكن الموقع جديداً. فقد سبق أن شُيد فى هذا المكان معبد من الحجر الرملى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة. وقام أمنحوتب الثالث بهدمه وأعاد استخدام مواده: كان معبد الأقصر ملحقاً تابعاً لمعبد الكرنك، بصفته «الحريم الجنوبي للإله»، ويستخدم تحديداً إبان الموكب الإحتفالى للإله آمون، عند خروجه بمناسبة عيد أوبت (١١٦). ففي اليوم التاسع عشر، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان - أى النصف الأول من شهر أكتوبر - كان آمون الكرنك يهيم فى الحقيقة، بزيارة حريمه الجنوبي، لمدة أربعة وعشرين يوماً. كان عيداً مزدوجاً للخصوبة، عيد الأرض التى يخصبها غرين النيل وعيد الإله الذى تعم إبانة الأفراح الشعبية ويقيم سواد الشعب

فى الطعام واللّهو(*) . إن ممشىً مبلطاً ، تحفه تماثيل أبو الهول ، كان يربط معبد الكرنك بمعبد الأقصر ، على امتداد ٢٥٠٠ متر . ولكن المواكب الإحتفالية ، كانت تختار أحياناً الطريق النهري .

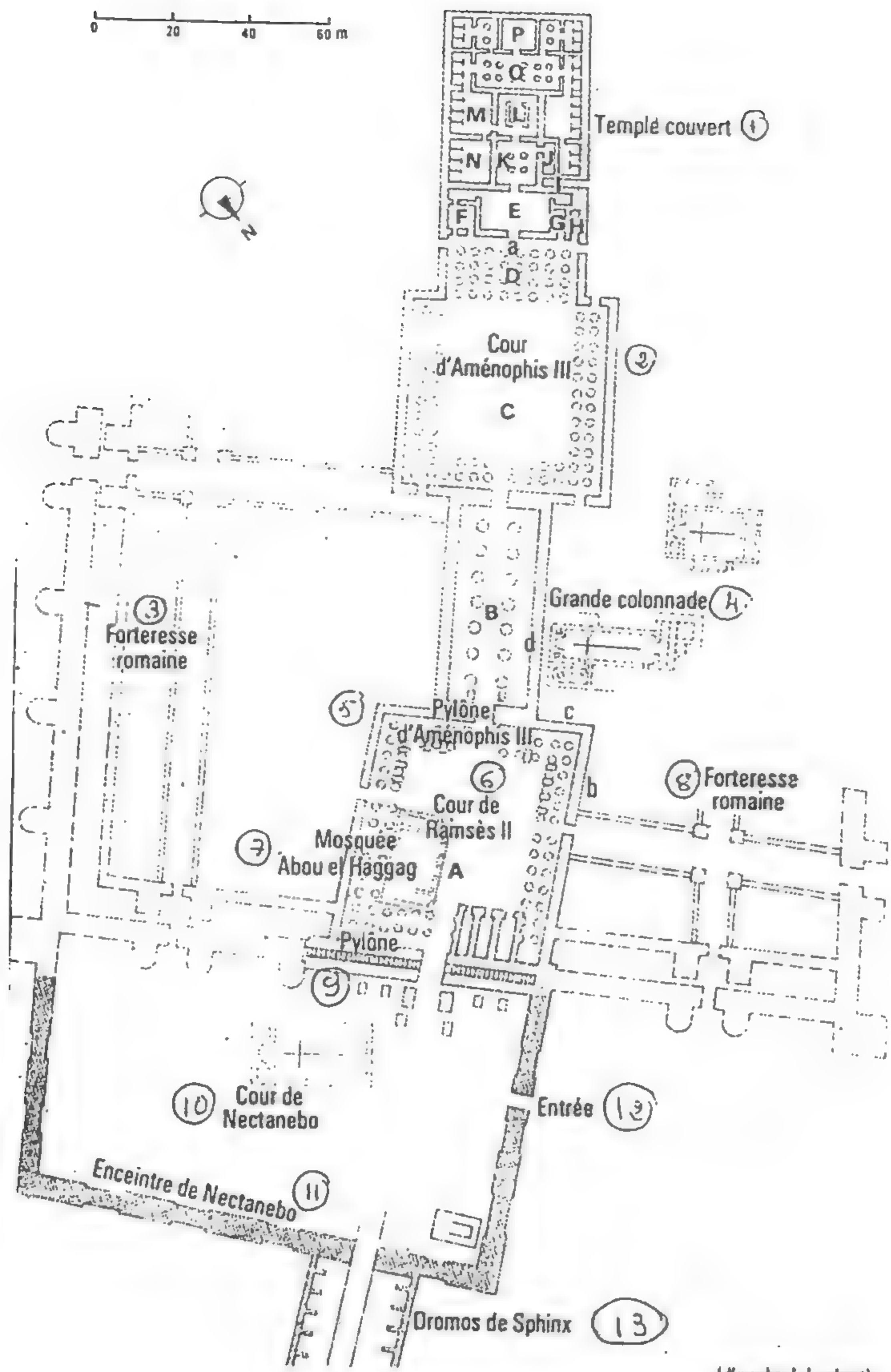
إن رفع أنقاض ورديم معبد الأقصر ، قام به ماسپرو Maspéro عام ١٨٨٣ . ولن تكتمل هذه العملية ، فى واقع الأمر ، إلا بعد التوصل إلى حلّ المشكلة التى يثيرها مسجد أبو الحجاج القائم فوق كتلة كثيفة من الأنقاض والرديم ، التى تحتل الركن الشمالى الشرقى من الفناء الأول من المعبد . وعلى غرار المعبدین الملحقین بمعبد الكرنك ، المكرسين على التوالى لكل من مونتو وموت ، يتجه معبد الأقصر ناحية الشمال .

وعندما يتأمل المرء معبد الأقصر ، من البر الغربى أو من النهر ، تستولى عليه الدهشة فى الحال ، لما يشاهده من رشاقة العناصر المعمارية ورهافتها وسلاستها . ويبدو أن أعمال التشييد قد تمت على مراحل ثلاث .

بعد اجتياز الصرح المشيد من الحجر الرملى وعرضه ٢٦ متراً ، وعبور الفناء ، يصل المرء إلى ممر عظيم ذى أساطين ، طوله ٥٢ متراً وعرضه ٢٠ متراً ، ويتكون من صفين من سبعة أساطين ، أبدانها ملساء وتيجانها على هيئة زهرة بردى يافعة ، وارتفاعها ١٥ , ٨٠ متراً ومحيط دائرتها ٩ , ٨٠ متراً . إن هذا الدهليز الفخم الذى شُيد فى آخر الأمر ، كان يحدد المحطة الأخيرة التى تتوقف عندها المواكب الإحتفالية ، قبل دخول المكان المقدس . ويحتفظ بالسّمات المميزة لعمارة أمنحوتب الثالث ، كما سنشاهدها فى صادقة وصول ، فى النوبة^(١١٧) . كما كان مثل هذا الدهليز ، قائماً عند مدخل معبد موت ، فى الكرنك .

يلى ذلك ، الفناء الكبير بصفّاته ذات الأساطين ، وهو مرحلة التشييد الثانية . وتتميز هذه الصفات بجمالها الأسر الأخاذ ، سواء بانسجام نسب أبعادها ودقتها ، أو رقة رشاقة أساطينها والسطوع الوردى للحجر الرملى الذى نُحت فيه ، بأيدي بارعة ، تمتلك ناصية فنّها إمتلاكاً مطلقاً . إن هذا الفناء الذى يبلغ ٥٢ متراً طولاً و ٤٨ متراً

(*) على غرار ما يحدث حالياً ، فى الموالد . (المترجم)



(d'après J. Leclant)

مسقط أفقى لعبد الأقصر

بيانات معبد الأقصر

- 1 المعبد المسقوف
- 2 فناء أمنحوتب الثالث
- 3 حصن روماني
- 4 الممر العظيم ذو الأساطين
- 5 صرح أمنحوتب الثالث
- 6 فناء رعمسيس الثاني
- 7 مسجد أبو الحجاج
- 8 حصن روماني
- 9 صرح
- 10 فناء نختنبو
- 11 سور نختنبو
- 12 المدخل
- 13 طريق تماثيل أبو الهول

عرضاً، يحفه إذن، من الداخل على جوانبه الشرقية والشمالية والغربية، صف مزدوج من ٦٤ أسطواناً تتكوّن تيجنها من حزم براعم زهرة اللوتس. وبعد ذلك، نصل إلى بهو الأساطين الذى يضم ٣٢ أسطواناً من الطراز نفسه، موزعة على أربعة صفوف، يضم كل صف ثمانية أساطين.

تكمّن أصالة المعبد فى إزدواج قدس الأقداس. فيصل المرء إلى الأول، من خلال بابين محوريين وعبور ردهة ذات ثمانية أساطين مقناة(*)، وصولاً إلى مقصورة ذات أربعة أساطين، كانت تظلّ مركب آمون. أما الثانى، وكان الدخول إليه من خلال بابين جانبيين وقاعة ذات ١٢ أسطواناً مقنّى، ويضم تمثالى آمون وأمونت زوجة إله الأقصر^(١١٨). وفى إحدى الحجرات القائمة شرق قدس الأقداس، نحتت نقوش الصور والنصوص التى تسجل الولادة الإلهية للملك أمنحوتب الثالث.

تكشف نصوص تكريس المعبد عن ثراء المواد المستخدمة، فتضارع مثيلتها فى معبد الكرنك، ومنها خشب الأرز والنحاس، ولا سيما الذهب الخالص الذى كان يكسو العديد من عناصر البناء، وذلك فضلاً عن الأبواب. إن مدونات السواكف التى ما زالت فى مكانها، تقدم لنا نصوصاً مسهبة تمتدح الملك وانجازاته.

هل كان معبد الأقصر فى هذه الأزمنة الغابرة، من العجائب التى تسترعى إهتمام السياح؟ إن نصاً منحوتاً على باب من الأبواب، شمال الفناء الكبير، يحملنا على هذا الاعتقاد:

لقد صنع صاحب الجلالة ذلك، بقدر ما يظل حبه لوالده آمون - رع، رب عروش القطرين، يتعاضم. ويقوم هذا الأخير بنشر مجده عبر البلدان الأجنبية والأقواس التسعة وكافة الأراضى. إن بعض الفينيقيين الذين كانوا يجهلون مصر، يأتون الآن، حاملين هداياهم على ظهورهم، لمشاهدة المعلم الصرحى الخاص بسيد القطرين: نب ماعت رع...^(١١٩).

لقد غالب جمال الأقصر الأيام وقهر الدهور.

(*) أزيلت هذه الأساطين فى العصر الرومانى. د.سيد توفيق. الأقصر. دار النهضة العربية. ١٩٨٢. (المترجم)

طيبة: البر الغربى

إنه البر الذى سيظل، وفقاً لأعراف ثابتة، يحتضن من الآن، مقابر وادى الملوك و«معابد ملايين السفين» المكرسة لأداء الشعائر، من أجل الملك والآلهة، بعد أن اندمجوا فى طقوس واحدة. كما أصبحت فى عهد أمنحوتب الثالث، منطقة اتخذها الملك مقراً رسمياً له، بعد أن أمر فى العام ٣٠، بإنشاء قصر ملقطة^(١٢٠) الذى كان يضم عدداً من الملحقات. ومنذ عهد قريب أيضاً، أضاف موقع كوم العبد اللثام عن بناية من الطوب اللبن، تعود إلى عصر أمنحوتب الثالث وعن عدد من المنازل المدمرة تدميراً بالغاً. ويبعد الموقع ثلاثة كيلومترات ونصف، جنوب غرب ملقطة. وتولت أعمال التنقيب فيه، جمعية الكشوف الأثرية فى لندن Egypt Exploration Fund^(١٢١).

عندما يقوم القادم من الكرنك، بعبور نهر النيل لينزل إلى البر الغربى وسط الحقول المزروعة، يشاهد التمثالين العملاقين، المعروفين إصطلاحاً بتمثالى مِمْنون Memnon اللذين ما زالا منتصبين، عند الحد الفاصل بين الحقول والصحراء. ويظل هذان التمثالان الشامخان اللذان يصوران أمنحوتب الثالث، يطلان على السهل المنبسط، بارتفاع يبلغ ١٩,٩٠ متراً. لقد نحت كل واحد منهما فى كتلة واحدة من الكوارتزيت الأحمر، ويمثلان الملك جالساً على عرشه. كان التمثال العملاق الجنوبي - وهو «ملك الملوك» - تقام له الشعائر. ولكن الأكثر شهرة فى العصور القديمة، كان التمثال الشمالى. ففى أعقاب زلزال عام ٢٧، تهدم جزئياً، ومنذ هذه اللحظة لوحظت ظاهرة غريبة: فعندما يسخن حجر التمثال، بفعل ملامسة أشعة الشمس المشرقة، كانت تصدر عنه أصوات موسيقية إلى حد ما، وذهب البعض إلى تفسيرها باعتبارها أنين مِمْنون الأثيوبي^(*)، الذى قتله أخيلوس فى حقول طروادة، فيرسل أناته مع كل فجر جديد، فى اتجاه والدته إيوس التى تجسد الفجر والتى تعيد أشعتها يومياً الحياة

(*) كما عموماً هذا الاسم، فأطلقوا على البر الغربى مِمْنونيا Memnonia وعلى معبد رعمسيس الثانى - الرامسيون - القريب: مِمْنونيوم Memnonium.

Maurizion Damiano-Appia. L'Egypte. Dict. Enc., Gründ, 1999, p.180. (المترجم)

إلى ابنها(*) . ولكن قام الإمبراطور الرومانى سبتيموس سيفيروس بترميم هذا الأثر عام ١٧٠م، ليضع حداً، فى آن واحد، لموسيقى «الفجر» والأسطورة.

عندما شُيّد هذان التمثلان، كانا قائمين أمام معبد أمنحوتب الثالث لملايين السنين. وقد دُمّر هذا المعبد، المبني من الحجر الرملى، تدميراً شاملاً، ربما من جراء زلزال عام ٢٧، حتى أصبح من الصعوبة بمكان تحديد تخطيطه. وكان علماء حملة بوناپرت Bonaparte قد قدّروا طول المعبد بستمئة متراً، فى زمن كان لا يزال الموقع يحتفظ ببعض الأطلال، ولكنها اختفت بعد ذلك.

وعلى مسافة بضعة وثلاثين متراً، كان يرقد على الأرض لوح من الحجر الرملى، يبلغ تسعة أمتار ارتفاعاً و ٤٢٠سم عرضاً ويؤنّ عليه النص التكريسى للمعبد وتحديداً ما يلى:

تعال، أيا آمون - رع، يا رب عروش القطرين، الواقف على رأس الكرنك،
(تعال) لمشاهدة المعبد الذى شيدته من أجلك فى غرب طيبة، والذى يتحدّ جماله بأفق مانو (منطقة فى الغرب). وفيه، سوف تعبّر عنى السماء فى سلام. وعندما تشرق (من جديد) فى أفق السماء، سوف يضىّ بذهب وجهك، لأنه يولّى طلعتة شطر الشرق من أجل تجليك المتألق. أما عند غروبك، فيبقى أفقك حياً، على الدوام. إنك تسطع يومياً مع مطلع الفجر، ويظل كمالك باستمرار داخل هذا المعبد. لقد شيدته من الحجر الرملى الأبيض الجميل، بفضل عمل مبارك.

لقد وفّر له جلالتي التمثالين، عن طريق الأحجار التى جلبتها من الجبل الأحمر (الإشارة هنا، إلى تمثالى ممنون العملاقين، وهما من حجر الكوارتزيت). وعندما شوهدا فى موقعهما، عمّ الفرح والإبتهاج نظراً لارتفاع قامتهما (١٢٢).

فى عام ١٩٠٣، فُتحت رسمياً المقبرة التى تحمل الرقم ٤٣، وكانت مقبرة تحوتمس الرابع. إن تخطيطها تخطيطاً مألوفاً. ولكن مخربشة نوتت على جدار الردهة

(*) من الأساطير اليونانية. (المترجم)

الأولى، تشهد بقيام نفر من اللصوص بالتسلل إلى المقبرة قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة، حتى أصبح من الضروري في العام الثامن، من عهد حور إم حب إعادة تدوير المومياة الملكية، فى أعقاب حملة تفتيشية، قام بها الضباط المصريون، بتكليف من العاهل الملكى.

ثم إن أرضية القاعة الكبرى، كانت عند الكشف عن المقبرة، مغطاة بقطع القرايين والمتاع الجنائزى المحطم، كشاهد على حدوث عملية سلب ونهب ثانية، تمت فى زمن الأسرة العشرين.

وعندما كشف علماء الآثار، فى العصر الحديث، عن التابوت الكبير وهو من الحجر الرملى الأحمر، وطوله ثلاثة أمتار وارتفاعه مترين، كان غطاؤه لا يزال مرفوعاً فى حدود ضيقة، وقد اختفت المومياة، حتى عثر عليها فيكتور لوريه Victor Loret، فى مقبرة أمنحوتب الثانى (*).

أما مقبرة أمنحوتب الثالث وتحمل رقم ٢٢، فتوجد فى الوادى الغربى، ويعرف اصطلاحاً بوادى القروء، لوجود جبانة للقروء المقدسة. ومن ثم فقد أقيمت مقبرته خارج الجبانة الملكية المقدسة. ورغم أن العمل قد بدأ فيها، منذ وقت مبكر من عهد الملك، إلا أنها لم تكتمل. وإذ أراد أمنحوتب الثالث أن يتميز، مقارنة بأسلافه، فقد خطط لتجهيز مقبرة أكبر، وأكثر تعقيداً من مثيلاتها، لتضم عدداً من القاعات ذات الأعمدة وعدداً من الحجرات. وتضم حجرة التابوت قسمين: الأول وهو أكثر ارتفاعاً وتحمل ستة أعمدة سقفه المزدان، بصور فلكية عظيمة الشأن. أما القسم الثانى، وهو أكثر إنخفاضاً، فلم يتبق منه سوى حطام التابوت الحجرى. ولا شك، أن ضخامة هذه المقبرة وثرأعها، قد شددت إليها أيضاً، منذ وقت مبكر، إهتمام اللصوص. ومن السمات الأصلية التى تميزت بها هذه المقبرة، وجود حجرتين ملحقتين بحجرة التابوت وكانت مخصصة بلا شك لتدفن فيها الزوجتان الملكيتان: تى و سات آمون.

(*) وذلك عام ١٨٩٨. لمزيد من التفاصيل راجع: د. سيد توفيق: آثار الأقصر الفرعونية، دار النهضة العربية. ١٩٨٢. ص ٢٢٤. (المترجم)

مقاصير مصر العليا

أما المعابد أو المقاصير التي شيدها أمنحوتب الثالث في مصر، خارج طيبة فلم يبق منها سوى مقصورتين.

مقصورة صغيرة في الكاب(*)، ويستند سقفها على أربعة أعمدة متعددة الأضلاع، وعلى واجهاتها الداخلية، تبرز صورة مصلصلة برأس حتحور(١٢٣).

أما مقصورة استراحة المركب المقدس في إلفنتين، فهي مبنى تحيط به الأعمدة، كانت خطوطها أية في الرقة، ونسب أبعادها على قدر كبير من الانسجام والتناغم. لقد شُيّدت في العام ٣٠ من عهد الملك، وكانت لا تزال قائمة، عندما شاهدها علماء الحملة الفرنسية على مصر. ولكنها دُمّرت عام ١٨٢٢. كانت عناصرها مرتبة ترتيباً كلاسيكياً: فقاعدة البناء مرتفعة وذات إفريز، والصعود إليها، عن طريق سلّم على الجانبين المتقابلين. وفي الوسط استراحة المركب، يحفها من الجانبين رواق من أربعة عشر عموداً مربعاً. وكل مدخل من المدخلين يكتنفه أسطوانان مقنيان. والأعمدة ترتبط فيما بينها بواسطة جدار منخفض بإفريز ذي كورنيش مصري(١٢٤). إن طراز هذا المبنى المحاط بالأعمدة قديم جداً(١٢٥).

في النوبة وفي السودان وفيما وراء الجندل الثالث

وفي النوبة أيضاً، كان نشاط أمنحوتب الثالث المعماري عظيماً.

ونذكر على وجه التحديد المعبد الذي شيده العاهل الملكي في صواب، فيما بين الجندل الثاني والجندل الثالث. وهو من أجمل معابد السودان، ويزكّرنا أحياناً بمعبد الأقصر. لقد شُيّد من الحجر الرملي على البر الغربي لنهر النيل. إن اللوح الحجري

(*) شمال إدفو. (المترجم)

الذى تم الكشف عنه، فى معبد مر إن پتاح الجنائزى، يصفه على النحو الآتى، فى سياق حديث أمنحوتپ الثالث:

لقد شيدت معبد للملايين السنين، يرتبط ارتباطاً لصيقاً مع آمون - رع، رب عروش القطرين. (واسمه) «هذا الذى يتجلى متألّفاً مع ماعت» (كان فى وسع ماعت أن تندمج فى تى^(١٢٦)). إنه غنى بالذهب الخالص، ومكان راحة أبى، إبان كافة أعياده. (وإذ شُيّد) من الحجر الرملى الأبيض الجميل، فقد أقيم ليدوم. وإذ عُشّي بكامله بالذهب، تزدان أرضيته بالفضة. وأقيمت مسلتان شامختان، واحدة على كل جانب. وعندما يتجلى أبى وسطهما وضاًء متألّفاً، أكون فى صحبته. لقد وهبته آلاف الأبقار وقطعاً من أفضل أنواع اللحم^(١٢٧).

وبدأ من ١٩٦٣، ومن خلال أعمال التنقيب المتتالية والمثمرة، فإن بعثة أثرية ممولة من قبل ميشيلا شيف - جيورجيني Michela Schiff-Giorgini وتضم تحديداً جان ليكلان Jean Leclant وكليمان روبيشون Clément Robichon، قامت بالتنقيب فى الموقع تنقيباً علمياً منظماً، مع ملاحظة أن الموقع كان قد شُغل قبل أمنحوتپ الثالث. وكما كان الحال بالنسبة لمعبد الأقصر، فقد أمكن التمييز بين عدد من المراحل، عند تشييد معبد صولب وإن كانت أربعاً. وعلى غرار معبد الأقصر فقد بدأ البناء هنا، على ما يبدو، من القسم المكنون، المخصص لقدس الأقداس - فى مؤخرة المعبد - ليمتد تدريجياً فى اتجاه الشرق وصولاً إلى صرح المدخل الأول.

فإذا بدأنا السير من رصيف المرسى على نهر النيل، نلتقى بادئ ذى بدء، بالصرح الشامخ، المقابل للمرحلة الرابعة والأخيرة من الأعمال، ويتقدمه طريق كباش طويل وهى المرحلة الثالثة، ويفضى إلى القسم الأمامى من باب، بأربعة أساطين نخيلية، تشكل ردهة المدخل. وكان صرح ثانٍ، يقع أمام فناء تحفه أروقة ذات أساطين، وهو المرحلة الثانية من عملية التشييد. وبعد ذلك، يصل المرء إلى فناء ثانٍ، تحفه أروقة تضم ستة وثلاثين أسطواناً مقنّى، ويتقدم بهو أساطين آخر، يضم أربعة وعشرين أسطواناً، وهو المرحلة الأولى. وبعد ذلك، كان يفترض أن يصل المرء إلى مقصورة المركب المقدس وقدس الأقداس والحجرات الملحقة. ولكن لم يتبق شىء من كل هذا القسم الغربى.

وإذا نظرنا إلى الغرض من إقامة هذا «المعبد للملايين السنين» الذى كانت تقام فيه، فى آن واحد ومعاً، الشعائر من أجل كل من الملك و آمون - رع، يمكن أن نقارنه بالمعابد الجنائزية، بالبر الغربى لمدينة طيبة. ولكن هنا بالتحديد، تبرز بشكل واضح، أهمية الأعياد اليوبيلية، المائلة من خلال نقوش مصورة على الصرح الثانى، وتصل إلى مستوى فريد من الروعة والجمال.

كانت تقلبات متنوعة تنتظر التمثالين الشامخين للملك الأسد فى صولب، وهما من الجرانيت وطول كل واحد ٢١٤ سم. فقد نقلهما، بادئ ذى بدء، ملوك الأسرة السودانية إلى جبل بركل عند الجندل الرابع. ويوجدان الآن فى المتحف البريطانى، وقد لحق بهما تدميراً بالغاً. إن صور الأسد الملكى هذه، بصفته الأسد الحارس لمعبده، صور فريدة فى بابها، إلى حد كبير وتلتزم بأسلوب شديد التأثير. وسيقول توت عنخ آمون، فى إحدى مدونات^(١٢٨)، أنه قد عثر على أحد الأسدين فى الحجر وكان غير مكتمل فأكمله، وإن أقيم فى المعبد بمعرفة خليفته أى. وقد دمرت مدونات أمنحوتب الثالث التذكارية التكريسية بالمطربة فى عهد أمنحوتب الرابع. ومع ذلك، ما زال فى وسعنا قراءة النص الآتى، إبرازاً لجانب من جوانب الأيديولوجية الملكية التى ستشهد تطوراً ملحوظاً فى عصر الرعامسة:

الإله الكامل، أسد الأمراء، الأسد المتوحش، عندما يشاهد الأعداء يطئون طريقه^(١٢٩).

يا له من تحذير بالغ للسودانيين الميالين إلى التمرد.

والى الشمال قليلاً، فى صادنقة، على بعد ٢٠٠ كم جنوب وادى حلفا، شيد أمنحوتب الثالث معبداً «توأم»، إذا صح القول، لمعبد صولب، وكرسه للشعائر المقامة من أجل زوجته تى. وللأسف فإنه مدمر تدميراً بالغاً.

إن وجود المعابد الجنائزية فى النوبة، وتصوير الأعياد اليوبيلية، تظل وسيلة لغرس السلطة المصرية، من خلال التأكيد على هيمنة فرعون الأبدية على أراضى الجنوب.

وبعيداً فى اتجاه الجنوب، وبعد تجاوز الجندل الثالث، وفى تابو قرب جزيرة أرجو، علماً بأن هذا الموقع كان قد شغل، منذ نهاية الأسرة الثانية عشرة، على ما

يعتقد، جرت بعض الحفائر عام ١٩٦٥ بمعرفة جامعة جنيف، فظهرت إلى النور بقايا معبد من الطراز الكلاسيكى وكان من انجازات ملوك الأسرة الثامنة عشرة ورعمسيس الثانى^(١٣٠). وقدم أمنحوتب الثالث من جانبه إسهامه فى هذا التشييد. كان المعبد مبنياً من الحجر الرملى ومساحته كبيرة إلى حد ما. كان طوله الإجمالى ٧٥,٦٠ متراً وعرض الصرح الأول ٤٠ متراً، ويفضى إلى فناء محاط بأروقة ذات أساطين. وبعد ذلك، كان صرح ثانٍ يؤدى إلى بهو أساطين تليه ردهة وقدس الأقداس الذى تحفه حجرات جانبية. وكان مكرساً للإله آمون.

إن وجود هذا المعبد تأكيد على حركة تمصير نشطة، سادت بلاد كوش فى هذا العصر. ولكن هذا المعبد صار فى الوقت الراهن أثراً بعد عين، فلم تغالب الأيام سوى بقايا بالغة التدمير^(*).

هكذا ظل أمنحوتب الثالث يؤكد، فى أن واحد، على وجوده وسؤدده كملك، وعلى هيمنة الإله آمون وسلطانه، حتى الأراضى القصية من الإمبراطورية وأبعدها.

ولكن على هامش هذا الإنتشار المتسبب لإله الكرنك، بدأ فى الظهور تيار روحانى ودينى له شأنه، تحركه على ما يظن النظر بارتياح إلى السلطان الدنيوى لكهنة طيبة، فأخذ يولى اهتماماً جديداً إلى آلهة هليوبوليس التليدة. هكذا لاحت فى الأفق حركة مزدوجة: نزعة تتطلع إلى إيجاد شكل من أشكال التوحيد لمجمع الآلهة المصرية، وإلى التليفقية التى تجمع، ربما لأسباب سياسية، بين مختلف الأشكال الشمسية فى كيان إلهى واحد، وفى الوقت نفسه، أخذت منزلة رع وأتون ورفعة شأنهما، تتعاظمان.

(*) تقع محاجر الحجر الرملى فى جنوب الصعيد، وتتفاوت جودة أنواعه. كانت منطقة جبل السلسلة توفر حجراً رائعاً، استخدم عند تشييد أهم عناصر معبد الكرنك كبهو الأساطين. وأردأ أنواع هذا الحجر توجد فى النوبة، جنوب الجندل الأول واستخدم فى بناء معبد جبل البركل وصواب، وهذا ما يفسر حالة الدمار التى لحقت بهذين المعبدتين.

C. Lalouette, l'Art figuratif dans l'Egypte pharaonique, Flammarion, 1992, p.19. (المترجم)

٦- السياسة والدين:

آلهة هليوبوليس تستعيد رفعة شأنها

شهدت مصر منذ عهد تحوتمس الثالث، تقدماً بطيئاً لعقائد هليوبوليس. وربما كان هذا الملك، قد لاحظ منذ سنين شبابه المضطربة، مخاطر التحرشات السياسية التي كان يقودها كهنة آمون الطموحون، وبدءاً من عهده، ومن عهد ابنه أمنحوتب الثاني تحديداً، ظهرت «لغة» دينية جديدة، سواء في القائمة الرسمية لألقاب الملك أو في الترانيم الدينية، لتشهد على صعود نجم الإله آتون. وما اصطلاح على تسميته بشورة أمنحوتب الرابع، ابن أمنحوتب الثالث وخليفته، ليس في واقع الأمر سوى النهاية الطبيعية لتطور، بدأ قبل قرن من الزمن، على تربعه على عرش البلاد.

لم يكن آتون إلهاً جديداً. وتدل الكلمة على قرص الشمس، موئل الإله رع وسكناه، الذي كان يطلق عليه تقليدياً «هذا الذي يقيم في قرصه» (آتون). كان رع وآتون يشكلان كياناً إلهياً واحداً، منذ أقدم العصور. إن الصورة التي يراد لها، أن تكون صورة نموذجية، تنفرد بها تل العمارنة، نتيجة تجاهل مفردات الواقع التليد، فتُمثل الشمس بسواعد تنتهي بأيادٍ تمتد ناحية الأرض، إنما نلتقي بها قبل ذلك، بأكثر من ألف سنة، وقبل أمنحوتب الرابع، وفي متون الأهرام، حيث ورد نص يقول عن الشمس (*): «إنك (*) تحيط بالأرض وكل شيء داخل ساعديك»^(١٣١). فهذه الصورة أسطورة استقرت منذ أقدم العصور في الوعي المصري.

كما أن التقليد المتواتر يرى أن الملك «سيد كل ما يحيط به القرص آتون». بل ومنذ عهد تحوتمس الأول، كان مصطلح آتون في سياق هذه الصيغة ذاتها، لا يشير إلى بدن الجرم السماوي فقط، بل إلى الإله ذاته. وبالفعل فقد وردت الكلمة مقترنة بعلامة المخصص الدال على الإله (**)، والشمس فوق رأسه^(١٣٢).

(*) مع ملاحظة أن لفظ شمس مذكر في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) راجع: برناديت موني: المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي. الترجمة عن

الفرنسية: ماهر جويجاتي. دار الفكر. ١٩٩٩. ص ٦ وص ٢٢. (المترجم)

أما وحدانية الإله، فقد ذكرت في كثير من الأحيان في نصوص الأسرة الثامنة عشرة^(١٣٣)، كما سبق أن أوضحنا ذلك بجلاء، في كل مرة التقينا بهذا التعبير. فكل مؤمن ينظر إلى إلهه، بصفته الأوحد المتفرد وخالق العالم. الأمر الذي لا يستبعد وجود معتقدات سحرية أخرى، ولا سيما الأوزيرية، التي لم يقدر أمنحوتب الرابع على المساس بها. ولا ينبغي الخلط بين تنوع العبادات، كما يؤمن البعض في أيامنا هذه، بالإله الواحد أو ييهوه^(*) أو بيوذا، وبين الإيمان الشخصي. كما لا ينبغي إدراج مفكرى العصور القديمة في مقولات أو تصنيفات دقيقة وحديثة.

ومن عهد إلى عهد، ومن عصر إلى عصر، يمكن ملاحظة، إعادة إنبعاث فكر هليوبوليس القديم وعقيدته، بكل وضوح، مع تكيفهما بالواقع الجديد، وما وراءه من بواعث سياسية، في أغلب الأحوال.

كما أدخل أمنحوتب الثانى تعديلاً موحياً على قائمة ألقابه الرسمية. إن لقبه الخامس، لقب ابن رع، ينعته في بادئ الأمر، بصفته «الملك حاكم طيبة»، ثم تغير إلى «أمنحوتب، الإله الكامل حاكم هليوبوليس»^(**).

كما شيد معبدًا شمسيًا بجوار تمثال أبو الهول، في الجيزة. وفي الجزء العلوى المقوس من لوح حجرى صغير - عثر عليه سليم حسن الذى عثر أيضاً على اللوح الحجرى الكبير^(١٣٤)، وكشف عنهما بجوار أبو الهول الذى كان قد أصبح إلهاً شمسيًا - نحتت صورة حورس مدينة إيفو، بجناحيه المنبسطتين. وللجرم السماوى أيادى آدمية ممدودة فى اتجاه الأرض كما تحيط بالخرطوش. وحسب منطوق هذا اللوح الحجرى، فإن رع هو الذى اسند الملك للعاهل الملكى الشاب: فأصبح اسم رع يتخلل النصوص وزحف عليها زحفاً.

(*) (إله بنى إسرائيل، حسب الكتاب المقدس اليهودى. (المترجم)

(**) «نثر حقا إيون» بالمصرية القديمة. (المترجم)

إن ترنيمة عظيمة للإله آمون - رع، مدونة على بردية يحتفظ بها متحف القاهرة ويعود تاريخها إلى عهد أمنحوتب الثانى، كان لها منذ ذلك الزمن، نبرات ذات نزعة طبيعية، تميل إلى البساطة وعدم التكلف، حتى يمكن القول أنها نزعة «عمارنية»(*):

التعبّد (للإله) آمون - رع، الثور المقيم فى هليوبوليس، رئيس الآلهة جمعاء،
الإله الكامل والمحبوب، الذى يعطى الحياة لكل لُهب ولكل ماشية.

تحية لك، أيا آمون - رع، يا رب عروش القطرين، المتسيّد على الكرنك، يا ثور
أمه، المتسيّد على الحقول، (الإله) صاحب الخطوات الواسعة، المتسيّد على مصر
العليا، رب المجاو وأمير بونت، وإله السماء العظيم، أحد الأقدمين على الأرض، سيد
كل الأشياء، إنه الواحد المتفرّد، فلا يوجد أحد خلفه، إنه ثور التاسوع الكامل،
ورئيس الآلهة جمعاء^(١٣٥)، مالك الحقيقة والعدالة، وأبو الآلهة، الذى يشكل البشر
وخالق الأغنام، وسيد كل ما هو موجود، خالق نباتات الحياة والمراعى، الذى يُحى
القطعان، إنه القدرة الإلهية التى خلقها پتاح، الفتى الجميل المحبوب، الذى لا تكف
الآلهة عن التهليل له، فاطر العالم السفلى والعالم العلوى، الذى ينير القطرين، بينما
يعبر السماء فى سلام. إنه رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى (الاسم داخل
خرطوش)، الصادق القول، رئيس الأرضين، صاحب البسالة القديرة، سيّد الهيبة إنه
كائن مرموق، صانع الأرض بأكملها، وإرشاداته تتفوق على (إرشادات) الآلهة
الأخرى. والآلهة فى فرح وابتهاج بسبب جماله، ولا تكف عن الإغتياب من أجله فى
پر - ور، بينما يظهر فى پر - نيسر^(١٣٦). إنها مولعة بشذا عطره، عند عودته من بونت،
إنه أمير الأريج، والهابط من بلاد المجاو. (إنه الإله) نو الوجه الجميل، القادم من البلد
الإلهى. إنهم يندفعون عند قدميه، بعد أن اعترفوا بأنه صاحب الجلالة، سيدهم:

«أيا رب الرهبة، الذى يثير فزعاً بالغاً فى النفوس، يا صاحب المجد العظيم،
(أيها الإله) نو الإشراقات القوية، فلتكن الغبطة من أجلك، أنت الذى خلقت الكيانات
الإلهية، ورفعت السماء بعد أن أزحت الأرض. أيها الفطن اليقظ والناجع المزدهر، أيا

(*) نسبة إلى تل العمارنة، عاصمة أمنحوتب الرابع - أخناتون. (المترجم)

مين - آمون، يا سيد الزمن الأبدى، فاطر الزمن اللانهائى، ومالك المدائح والتهليلات،
المتسيد على الكرنك، صاحب القرون المتينة والوجوه الجميلة. يا مالك التاج العظيم،
بريشتيه العاليتين...»

تحية لك، أيا رع، يا مالك الحقيقة والعدالة، وصاحب المقصورة المستورة، يا
سيد الآلهة.

أيا خبرى، القائم فى قاربه، الذى يأتى بالآلهة إلى الوجود، عند النطق
بالكلمات.

أيا أتوم، يا خالق البشر، الذى يختار أشكالهم ويجعلهم يحيا، ويفرق بشرة
أحدهم عن بشرة غيره.

(الإله) الذى يصغى إلى صلاة من يعرف المحن والضراء، (الإله) صاحب القلب
الرؤوف على من يتوسل إليه، الذى يخلص المذعور من الوقح المتناول، الذى يفصل
المكروب عن الفواجع. (إنه) مالك المعرفة، والطعام يولد من فمه. ويجئ النيل حسب
رغبته، إنه سيد الرقة والوداعة، والذى يلهم النفوس حباً عظيماً. إنه يمنح البشر
أجمعين الحرية فى روحاتهم وغدواتهم. وإذ ينشط فى النون^(*)، فقد أتى إلى الوجود
بنعم النور. والآلهة تفرح بجماله وتحيا عند رؤيته. أيا رع، المبجل فى الكرنك، (الإله
صاحب) الإشراقات المتألقة فى قصر بن بن^(١٣٧)، الهليوبوليتانى^(**)، رب عيد ميلاد
الهلال، فمن أجله يحتفل بالأيام الستة، لعيد الربيع الأخير من القمر، أيها السيد العلى
على الآلهة جمعاء، الذى يمكن النظر إليه ملياً فى قلب الأفق، يا رئيس البشر. إن
اسمه خفى، بما يفوق ولاداته أيضاً، فاسمه آمون (أى: «الخفى»).

(*) السائل الأولى الذى وجد قبل الخلق.

من الجدير بالذكر أن نقارن هذه الفكرة بالآية الأولى من الإصحاح الأول من سفر التكوين من
الكتاب المقدس:

«كانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفرف على وجه المياه، وقال الله

«فليكن نور»، فكان نور». (المترجم)

(**) نسبة إلى هليوبوليس. (المترجم)

تحية لك، أيها المتسيد في سلام، يا رب الفرح.. فعندما ينتشر حُبك (بضم الحاء) عبر الأرضين، وتنير أشعتك العيون، إنها السعادة للبشر. وعندما تسطع، فالأغنام (ذاتها) تنتشى. وعندما تتلألأ، يصبح حُبك (بضم الحاء) في سماء الجنوب وعذوبتك في سماء الشمال. إن جمالك يفتن القلوب. وأن تُحَبَّ (بضم التاء) يجعل السواعد بلا قوة. وشكك الكامل يصيب الأيدي بالشلل وتنسى الأذهان عندما تراك. أيها الشكل الأوحـد المتفرد، الذى خلق كل ما يوجد، أيها الواحد المتفرد من بين المتفردين، الذى فطر كل ما هو موجود. لقد انبثق البشر من عينيه^(١٣٨) ومن كلمته جاءت الآلهة إلى الوجود. (أنت) يا خالق المراعى التى تحيا عليها الدواب، (يا خالق) نبات الحياة المخصص للبشر، (أنت) الذى يحافظ على حياة الأسماك فى الجداول، والطيور فى السماء، ويعطى النسمة لمن لا يزال فى البيضة، فيطعم الطيور والكائنات التى تطير والثعابين والحشرات ذاتها، ويوفر ما تحتاجه الفئران فى جحورها ويعطى الحياة للبراغيث...

تحية لك، أنت الذى فطرت كل ذلك، أنت الواحد المتفرد من بين المتفردين، الساهر على البشر أجمعين، فيقضى وقته فى السعى وراء كل ما يفيد قطيعه، أيا آمن، يا مثبت الأشياء كلها، أيا أتوم، أيا حور - أختي^(١٣٩). ويجزل لك (البشر) المديح قائلين: «إننا نهلل لك فرحاً، لأنك تتعب بسببنا، إننا نسجد أمامك، لأنك خلقتنا».

التحية والشكر والحمد لك، من قبل قطيعك بأكمله. فالأفراح تعم من أجلك، كل بلد من البلدان الأجنبية، حتى عَنان السماء وبطول الأرض وعرضها، وحتى أغوار الشديدة الإخضرار. وتأتى الآلهة منحنية أمام جلالتك، مع الإشارة بمجد خالقها، مبتهجة عند اقترابها بمن أنجبها. وتقول لك: «مرحباً، مرحباً فى سلام، يا أبا آباء الآلهة جمعاء، الذى رفع السماء وأبعد الأرض، وفطر كل كائن وشكل كل موجود. أيها العامل، يا رئيس الآلهة، إننا نعبد مجدك، لأنك خلقتنا، لقد عملت لتأتى بنا إلى الدنيا. إننا نجزل لك المديح والثناء، لأنك متعب بسببنا».

التحية لك، يا فاطر كل الأشياء، يا سيد الحقيقة والعدالة، يا أبا الآلهة، يا جابل البشر، يا خالق القطعان جمعاء، يا سيد البنور. كما تُحيى حيوانات الصحراء. أيا

أمون، أيها الثور ذو الوجه الجميل، المحبوب في الكرنك، (الإله) صاحب الإشراقات المتألقة في قصر بن بن، الذي تتجدد تيجانه في هليوبوليس، أيها القاضي الذي يفصل بين العدوين (حورس و ست) في قاعة (الحكمة) الكبرى. (أنت) يا من يتسيد على التاسوع، أيها الواحد المتفرد من بين المتفردين، الذي لا مثيل له والمتسيد في الكرنك... إله الأفقين، يا حورس الشرق. أنت الذي خلقت الصحراء والفضة والذهب واللازورد الخالص، فبمشيئته... (١٤٠).

هنا يظهر فكر متجدد وإيمان عميق بالنجم الشمسي، كشخصية إلهية متفردة، مع تعدد أسمائها وتنوعها. هكذا جاء إعلان وحدانية الله، في إطار من التسامح وسعة الصدر، وتتعالى مظاهر الإشادة بعالمية ملكه التي تفيض على خلائقه، وأكثرها بساطة وتواضعاً. إن ورع المؤمن ينقله إلى حالة من الوجد والنشوة الروحية. تلك هي مواضيع وصور سوف يستعيدها، بعد قرابة قرن من الزمن، أمنحوتب الرابع، ابن حفيد أمنحوتب الثاني. فلم يكن فكر تل العمارنة ثورة. وهو ما تدلل عليه وثائق أخرى.

إن تحوتمس الرابع، هو الفرعون المصطفى الذي اختاره حور إم أخت، الذي تراعى للأمير في المنام، عندما أخذه النوم بجوار إله الجيزة^(١٤١). كان إختياره إختياراً شمسياً إذن، ولكنه هليوبوليتاني. وفي كثير من الأحوال ينعت العاهل الملكي الجديد بصفة «صورة رع، ابن أمون»^(١٤٢).

وعلى جعران، نقرأ مدونة موحية إلى حد كبير، فتشهد على صعود نجم أتون، ليحل تدريجياً محل أمون - رع. كما كان في وسعه، أن يشارك في المعارك الحربية:

إن كبراء نهارينا، وقد حملوا جزيتهم على ظهورهم، ينظرون ملياً إلى من خيرو رع، عندما يتقدم خارج قصره. وإذا نهض لخوض معركة، فإن أتون أمامه، عندئذ يمكنه أن يقوض الجبال ويخفسها، ويدوس بأقدامه البلدان الأجنبية... فيصبح قاطنوها مثل شعب مصر، تحت قيادة أتون للزمن اللانهائي^(١٤٣).

تلك أول شهادة، تؤكد على الرغبة الأكيدة فى تأسيس إمبراطورية موحدة، خاضعة للإله الشمسى.

وكثيراً ما نلتقى باسم أتون فى عهد أمنحوتب الثالث. إنه جزء من العبارات المركبة من أسماء آلهة، سواء كانت تشير إلى مركب العاهل الملكى أو واحدة من فرقته العسكرية^(١٤٤). بل يمكن الخلط أحياناً بين كهنة آمون ومؤمنى أتون. وهكذا، فإن شخصاً يدعى آمون إم إيبِت، وهو قائم مقام فى كوش، قد خَلَف وراءه مخربشة فى النوبة، تطلق عليه صفة «خادم آمون الثانى» (حم - نثر). وهو لقب يؤكد أهمية الشخص فى التراتب الهرمى الكهنوتى، كما ينعت أيضاً بلقب «خادم أتون» (باك)^(١٤٥).

لم يصل تأثير عبادة أتون، فى حقيقة الأمر، إلى الديانة الرسمية فقط، ولكن أيضاً إلى ديانة سواد الناس. فنشاهد، منذ ذلك العهد، فى مقبرة رع موزا، التعريف الآتى للإله حور أختى، والذي ستستعيده نصوص تل العمارنة. إنه «النور الذى هو أتون»^(١٤٦). والأمثلة من هذا القبيل كثيرة.

ففكر أمنحوتب الرابع ليس ثورة، بل جاء نتيجة طبيعية لما يشبه عملية اختمار روحية، ربما سببتها طموحات كهنة آمون، أو جاءت نتيجة ظروف سياسية جديدة: فكان الوضع يحتاج إلى إله واحد متفرد، يربط بلاد الإمبراطورية ربطاً، وكانت الشمس بأسمائها المختلفة، الإله(*) المشترك لمجموع الأراضى الخاضعة للهيمنة المصرية. ولنزداد فهماً بهذه الحقيقة، ولزيد من التأكيد على الشاعر الشعبية حول هذا الموضوع، يكفى أن نقرأ الترنيمة المنحوتة على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن، المتحف البريطانى، والذي جادت به، مقبرة سوتى و حور الذين عاشا فى عهد أمنحوتب الثالث وشغل كل منهما منصب «المشرف العام على أشغال آمون» وكانا من الأصدقاء المقربين للعاهل الملكى:

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس، مذكور فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

تحية لك، يا جمال رع على مدار الأيام، الذى يسطع مع طلوع الفجر، دون توقف، أيا خبرى القائم بأعمال مضيئة. إن أشعتك فى الوجوه، ولكن لا يستطيع المرء رؤيتها. إن الذهب الخالص (ذاته)، لا يمكن مقارنته بضوءك الخافت. وبصفتك بناءً، فقد صُغت من الذهب جسدك. أنت الذى شكلت كل شيء، لم يشكك أحد على الإطلاق، أيها الواحد المتفرد، الذى لا مثيل له، الذى يعبر الزمن الأبدى، مهيمناً على ملايين الدروب الخاضعة لك. إن نورك يشبه نور السماء العليا، ولكن إشعاعاتك أقوى من ألوانها. عندما تعبر السماء، يستطيع كل واحد أن يراك، ولكنك تسير أيضاً محتجباً عن أنظارهم. وتتجلى مع مطلع فجر كل يوم من الأيام، وتزدهر الملاحاة النهرية، بقيادة جلالتك. وعلى امتداد يوم واحد قصير، تجتاز طريقاً طوله ملايين وعشرات ملايين الفراسخ. ولكن كل يوم من أيامك يدوم برهة(*)، وبعد إتمام (مسيرتك)، تغرب لتتم على النحو ذاته، ساعات الليل. وتواصل هذه المسيرة، باذلاً مجهوداتك، بلا انقطاع. إن جميع العيون تبصر بفضلك، ولكنها لا تفكر فى ذلك، عندما يغرب جلالتك. إنك تدفع (العالم) إلى النهوض مع توهج الفجر. إن أشعتك تفتح العيون التى تفيق عندئذ من نومها. ولكن عندما تغرب فى أفق مانو(**)، فإنهم ينامون وكأنهم موتى.

التحية لك، يا أتون النهار الذى خلق البشر وأحياهم، أيها الصقر العظيم نو الريش الأرقش، الذى جاء إلى الوجود مرتفعاً بذات نفسه، فظهر وحيداً، دون أن يولد. أيا حورس البكر، القائم فى قلب نوت السماوية، فأليه يُجزل الجميع صيحات الفرح والإبتهاج، سواء عند شروقه أو عند غروبه. إنه صانع منتجات الأرض، إنه خنوم، إنه آمون البشر، فاتح الأرضين، من الأكبر إلى الأصغر، والأم واهبة الخير للآلهة وللشجر،

(*) وحول المعنى نفسه، تدور إحدى آيات العهد الجديد من الكتاب المقدس:

«إن يوماً واحداً عند الرب بمقدار ألف سنة، وألف سنة بمقدار يوم واحد».

رسالة بطرس الثانية: ٨:٢. (المترجم)

(**) الجبل الغربى.

والحرفى الصبور، الذى يعترية التعب، بينما يشكلهم بأعداد لا حدود لها. إنه الراعى المقدام، حامى قطيعه، والملاذ الأمن الذى يسمح لها أن تحيا. ويهرع مسرعاً متعجلاً، (إنه) خبير، ذو الولادة المرموقة، مرتقياً بجماله فى جسد نوت السماوية، ليسطع على الأرضين بفضل قرصه (آتون). إنه الأقدم الأسمى فى القطرين، الذى صنع نفسه بنفسه، ورأى أنه يصنع ذاته، إنه الرب الواحد المتفرد. ويصل يومياً إلى أطراف الأراضى، بينما يشاهده من يسIRON على سطحها، مضيئاً فى السماء صيرورات اليوم. إنه ينسق فصول السنة بشهورها، ويجلب الجو الحار، كيفما يريد، والهواء المنعش وطراوته، كيفما يريد. ويتيح للأبدان أن تستريح، عندما يعانقها. والأرض من أقصاها إلى أدناها، يدب فيها النشاط فرحةً مسرورةً، بشروقه اليومي وتتعب له (١٤٧).

إنه نشيد حب وقصيدة ورع، وتكشف الصور والكلمات، عن مشاعر المؤمن الحارة وعن العشق والهوى. لقد تعرف سوتى و حور فى البلاط الملكى، على الأمير أمنحوتب الشاب الذى قضى نعومة أظفاره فى أجواء الترف والبذخ اللذين سادا هذا البلاط، حيث يختلط الفينيقيون والسوريون بالمصريين. إنه عالم مؤلف من أجناس مختلفة، يوحدهم دين واحد، قائم على العقيدة الشمسية. كما كان عالماً، دفعه الإهمال والتقصير فى معالجة الأوضاع الخارجية وسهولة الحياة المادية - دفعه إلى جعل عالم الروح والفكر أكثر حيوية وأكثر تأججاً. إنه عالم أخذ يصوغ فكر إمبراطور المستقبل.

ولكن أصبحت الأوضاع الخارجية فى واقع الأمر، على قدر كبير من الخطورة، قرب نهاية عهد أمنحوتب الثالث، حول عام ١٣٨٠ ق.م. فقد حدث أن اختل فجأة التوازن السياسى فى آسيا. وكان أمنحوتب الثالث، بعد أن تقدمت به السن وهو يعيش وسط بلاطه وثرواته الطائلة، يميل إلى المماطلة والتريث فى حسم الأمور، بعد أن فترت عزيمته بلا شك، وربما أيضاً بالإصرار، بعيداً عن الحنكة والفتنة، على الحفاظ على السلام بأى ثمن، ليعمل دون أن يدري، على تعاظم المخاطر الجسيمة، المهددة لإمبراطورية آبائه.

٧- التهديدات تحاصر الإمبراطورية

فى عام ١٢٨٠ ق.م، كان أمنحوتب الثالث، لا يزال دون منازع، إمبراطور الشرق، وكانت طيبة أغنى مدن العالم. ولكن ستتبدل أوضاع دول آسيا تبداً ملحوظاً، لتقود فى البداية إلى إضعاف حلفاء مصر، والميتاني تحديداً. وعلى العكس من ذلك، فقد استطاعت خاتى أن تتجاوز الأزمة التى كادت تقضى على النظام الملكى، عندما تغلب عليها الأمير سوبيلوليوما، الذى سبق أن اختاره والده تودخاليش الثالث، شريكاً له فى الحكم. فعندما تربع سوبيلوليوما على العرش أعاد إلى خاتى هيمنتها على آسيا الصغرى. وأصبحت المؤسسة الملكية، بلا منازع سيدة البلاد، وبات الجيش الحيثى(*) قوة عظيمة، بعد أن تم تدعيمه بقوات توابعه، فى الشرق وفى الشمال فى جبال پونت(**) Pont، حيث كانت تدور معارك شرسة ضد شعوب جاسجا وفى الغرب فى أرزاوا. فكان الإنفتاح ناحية الجنوب، أمراً لا غنى عنه. الأمر الذى يوفر لبلاد خاتى الهيمنة على شمال سوريا، فضلاً عن الوصول إلى مياه البحر المتوسط. ولكن الصدام المباشر مع مصالح الميتاني، كان من الصعب تجنبه.

وتحول سوبيلوليوما إلى الهجوم، وفتح بسهولة شمال سوريا بأكملها، دون أن يتمكن توشراتا، ملك الميتاني، من المقاومة مقاومة فعالة. وحاول هذا الأخير عبثاً، أن يشن هجوماً مضاداً، فى اتجاه ساحل البحر المتوسط. كان يرمى بلا شك إلى إعادة الإتصال بممتلكات مصر حليفته وبأمراء الميتاني فى سوريا. ومن الآن، كانت سلطة الميتاني، على هذه المناطق قد تقوّضت، ودون أن يسعى سوبيلوليوما إلى تأمين سيطرته المباشرة عليها، عقد سلسلة من الإتفاقات مع الأمراء، يلتزمون بموجبها

(*) (الحيثيون هم سكان بلاد خاتى، لأن حرف الحاء فى أول الكلمة يقرأ خاء. وأطلق عليهم المصريون اسم خيتا).

M. Damiano - Appia. L'Egypte, dictionnaire encyclopédique, Gründ 1999, p.124.

(المترجم)

(**) (مملكة فى آسيا الصغرى. ولا ينبغي الخلط بينها وبلاد پونت Pount، الواقعة على البحر الأحمر، جنوب مصر. (المترجم)

بالإعتراف بالسلطة الحيثية مقابل وعد بتقديم المساعدة العسكرية^(١٤٨). ولم تتدخل مصر لمساعدة الأمراء السوريين الخاضعين لوصايتها، عندما استنجدوا بها. واحترم الملك الحيثي حدودها، ويبدو من الواضح أنه لم يجد في مقدوره، أن يخوض الحرب ضدها. عندئذ دارت بعض المباحثات، لتنتهي إلى عقد معاهدة، كانت الأولى التي يتم إبرامها بين مصر والخاتى، لتؤكد على الحدود التي سبق أن رُسمت في عهدى أمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع، للفصل بين الميتانى ومصر. كانت أوجاريت ترسم الحد الشمالى لملكات مصر. هكذا بقيت قادش ومملكة أمورو تابعتين لمصر.

إن ضعف أمنحوتب الثالث هذا، وسياسة الحياد الجديدة هذه، والتوقف عن أى نشاط، أبعدت عن مصر حلفاؤها القدامى. ولما كان تأمين سلامة تجاره، هو الشغل الشاغل لملك بابل، فقد سعى بدوره إلى التحالف مع سوبيلوليوما. ولم تتوقف التقارير التى تدق نقوس الخطر، لتصل تباعاً إلى بلاط طيبة. وكان ريب - عادى، ملك بيبيلوس، من المخلصين لمصر، يحيط العاهل الملكى علماً، بالذسائس التى كانت تحاك ضده، فى هذا العالم الشرقى والسورى الذى شاعت فيه الفوضى. وكانت تقاريره تتميز بأكبر قدر من الدقة والوضوح. ومنها ذسائس أهل بابل والأموريين وذسائس أمير قادش. هكذا يمكن أن نقرأ الآتى على إحدى لوحات العمارة الصغيرة:

من ريب - عادى إلى سيده، ملك البلاد، الملك العظيم، ملك المعارك، ليت بلغت (إلهة) مدينة بيبيلوس، تمنح القوة لسيدى الملك. وعند قدمى سيدي، وشمسى، أسجد سبع مرات وسبع مرات أيضاً. إنى إحيط سيدي الملك علماً، بأن أزيرو (زعيم الأمورو) يعادينى، وأنه ذهب باثنى عشر من رجالى، وطالبنى بفدية تبلغ خمسين وزناً من الفضة. ورجال كنت قد أوفدتهم إلى سيميرا، نُقلوا على متن سفن أبناء صور وبيروت وصيدا. الجميع فى أمورو اتحدوا ضدى وأنا مضطهد. انظر أيضاً، إن يابا - عادى، المتحالف مع أزيرو هو عدوى... اهتم إذن بشئون خادمك^(١٤٩).

كما عُثر على عدد كبير من الخطابات الأخرى المماثلة. ولكن أمنحوتب الثالث سدّ أذنيه عن الاستجابة لهذه النداءات الملحة، الصادرة عن الأمراء المخلصين للإمبراطورية.

وحيكت العديد من الدسائس المعقدة، تستهدف فينقيا وسوريا. إن أمراء هاتين المنطقتين، أو بعضهم على الأقل، سعوا إلى الإستفادة من هذا الوضع لتوسيع أقاليمهم، رغم التظاهر بالخضوع لمصر، فيلعبون حسب الظروف لعبة مزدوجة بل وثلاثية أحياناً. والمنافس الرئيسى، فى هذه الشئون، للمخلص ريب - عادى كان عبدى - عشيرتا، زعيم الأمور ووالد أزيرو الذى كان شخصاً مريباً، فرغم انحيازه لسلطان الحيثيين كتب لفرعون قائلاً:

إلى الملك، إلى الشمس، إلى سيدى، هكذا يتحدث عبدى - عشيرتا، خادمك، وتراب قدميك. عند قدمى سيدى الملك، أسجد سبع مرات، وسبع مرات أيضاً. أنظر، فأنا خادم الملك، وكلب فى منزله، فأحرس مجموع بلاد الأمور، من أجل سيدى الملك. كما تحدثت إلى المشرف العام فاناطا، قائلاً: «جند الفرق العسكرية التى ستحرر بلاد الملك وتحميها...»... الملك، الشمس، كما حصلت محصول سيميرا (ميناء فى فينقيا) ومحاصيل كافة البلدان التى احرسها من أجل الملك، شمسى وسيدى^(١٥٠).

الشمس و شمسى، هكذا يمتزج الملك بالجرم السماوى الذى يظل، طبقاً لفكر تحوتمس الثالث، الرباط السياسى والروحى الذى بجمع بلدان إمبراطورية آسيا، فى نظام إتحادى سليم. كما يعتبر هذا الواقع السياسى المصدر الذى ترتبت عليه الخطوة الجديدة التى كانت من نصيب آلهة هليوپوليس وتصور إله عالمى، يجمع تحت سلطانه العبادات المحلية التى ظلت تحظى بكل التبجيل والتوقير. ومن الآن أخذت مصر كقوة دولية عظمى تتطور روحياً بما يتمشى مع سياسة محددة.

وفى مواجهة كل هذه الدسائس، ظل أمنحوتب الثالث بقصره فى ملقطة، وسط البذخ والترف والثروات التى تحيط به، يعيش حياة تبدو خاملة بلا نشاط، فى إطار مظاهر الأبهة والفخامة لحياة البلاط الملكى. وترتب على قوة الحيثيين الجديدة وعلى ضعف الفرعون، إنتشار الفوضى فى سوريا، على نطاق واسع. كان أمنحوتب الثالث، يقوض من جراء خموله، الإمبراطورية العظيمة التى أسسها أباه الفاتحون.

ويبدو أنه أراد أن يحتفظ بقدر من الحياد، ربما على أمل القيام بدور الحكم بين خاتى والميتانى. وقبل وفاته بفترة قصيرة، أرسل العاهل الملكى المسن موفداً إلى ابن

خاله توشراتا ملك الميقتانى، ليطلب يد ابنته تادوخيبا، ليتخذها زوجة له. كان هذا القران الشخصى الجديد، يرمى بلا شك إلى إيجاد توازن مع الحلف السياسى الذى تم إبرامه مع خاتى. وقويل هذا العرض بترحاب بالغ، إذا أخذنا بما ورد فى خطاب توشراتا إلى الفرعون:

إلى نيموريا (*)، الملك العظيم، أخى (١٥١)، ملك مصر وصهرى الذى أحبه ويحبنى - هكذا يتحدث توشراتا، الملك العظيم، أخوك، وحموك الذى يحبك. أنا فى صحة جيدة. عسى أن يكون أخى وصهرى فى صحة طيبة أيضاً! عسى أن تكون بيوتاتك وزوجاتك وأولادك ورجالك ومركباتك وجيادك وكل بلدانك وكل ما هو ملكك، فى صحة طيبة ومزدهرة. إلى أخى الذى أحبه، سوف أقدم له، أختى زوجة له عسى شاماش (**) وعشتروت يسيران أمامها، وعساهما يساعدان على تلبية رغبة أخى! وعسى أن يسعد أخى فى هذا اليوم! وعسى أن يمنح شاماش وعشتروت أخى، سعادة غامرة وفرحاً كاملاً. عسى أن يحى أخى إلى أبد الآباد (١٥٢)...

السعادة واضحة جلية، بل محرقة للمشاعر، بعد آلاف السنين. ويعيد التحالف مع فرعون بعض الأمل للعاهل الملكى الميقتانى الذى تقع بوله تحت التهديد المباشر للخاتى.

وارتحلت الخطيبة الملكية متجهة إلى طيبة. كانت أميرة فى مقتبل العمر وعدت للزواج من عجوز. وحفظ لنا الدهر ذكراها. إن صور وجهها الجميل، موجودة فى أيامنا هذه، لدى كل تجار العاديات، وعند وصولها إلى الأراضى المصرية، سُميت نفرتيتى (***) أى «الجميلة - أتت». تلك هى الفرضية القديمة حول أصول نفرتيتى، وإن لم يأت البرهان عليها، بشكل قاطع. وربما كانت أيضاً مختلفة عن تادوخيبا، واحتمال أن تكون ابنة أى من كبار موظفى البلاط الملكى، الذى سيصبح ملكاً عند نهاية هذه

(*) تصحيف اسم نب ماعت رع. (المؤلفة)

(**) إله شمسى أسيسى. (المؤلفة)

(***) وقد حرّفت كلمة تيتى فى العامية المصرية إلى تاتا، عندما نتحدث إلى الطفل الذى بدأ يمشى. (المترجم)

الأسرة. كما يُقال أنها كانت بكل بساطة ابنة أمنحوتب الثالث وتيى. وما زال الأمر يحتاج إلى إقامة الدليل على صحته^(١٥٢).

ظل هذا الزواج، من الناحية السياسية، لا طائل منه، وبلا جدوى. كانت الأوضاع قد بلغت حدًا شديد الخطورة، حتى يمكن إيجاد مخرج لها بوسائل دبلوماسية، من هذا القبيل. إن وفاة أمنحوتب الثالث وتريع ابنه الشاب على عرش البلاد، وطريقة إدارته لشئون البلاد، سوف تدفع الأمور إلى مزيد من التفكك للإمبراطورية وانفراط عقدها.

الفصل الثامن
تشدد أمنحوتب الرابع المتعصب
أو زمن الانحطاط الأول

١- أمير في زهرة شبابه

حول عام ١٣٧٠ ق.م، تربع على عرش مصر المهيب، صبي في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، لفترة حكم قصيرة امتدت لتسع عشرة سنة. وكان الابن الوحيد المولود من اقتران أمنحوتب الثالث بالملكة تىي.

وهكذا يتحدث عنه الوزير المخلص الأمين رع موزا:

أنت الأوحـد المتفرد، وهذا البلد خاضع لسلطانك، الجبال ومحتواها الخفى، تأتي إليك بكميات وفيرة، لأن زئيرك وصل إلى قلوبها، كما وصل إلى قلب الرجال. إنها تطيعك كما يطيعك الشعب^(١).

من المحتمل، أن الأمير الشاب، قد شارك والده أمنحوتب الثالث السلطة، منذ العام ٢٠، بعد أن تقدمت السن بهذا الأخير، مع إحتفاظ الملكة تىي بنفوذ سياسى أكيد.

وحضر سفراء من بابل ومن الميثانى ومن خاتى، لابلاغ ملك مصر الجديد، تحيات ملوكهم وتهانيهم، وتقديم شواهد مادية على علاقات الصداقة والأخوة اللتين تربطهم.

هكذا بدأت في مصر سنوات عهد قصير، سوف ينسج العلماء المحدثون من حولها تأويلات تشوه الحقائق، وتقع في الأوهام.

حتى العام الرابع: الجدة والاعتدال

وإذ سار أمنحوتب الرابع على هدى الحركة الدينية الآخذة في التطور، منذ أكثر من مئة سنة، لم يحتفل بمراسم تتويجه في طيبة، بل في هرمونتيس، المسماة «هليوبوليس الجنوب»^(*).

(*) يونسـمـع بالمصرية القديمة، أرمنت حالياً، (المترجم)

كانت قائمة ألقابه على النحو الآتى:

الحورس: الثور القوى ذو الريشتين العاليتين.

السيدتان: عظيم هو ملكه فى الكرنك.

حورس الذهبى: الذى يضع التيجان فى هرمونتيس.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: كاملة هى صيرورات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع.

ابن رع: أمنحوتب، الإله، حاكم طيبة.

وإذا كانت المكانة التى يحتلها رع فى سياق هذه النعوت، قد أخذت فى التعاضم، إلا أن الفرعون الجديد، يظل رابع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذى يعلن إنتسابه إلى آمون(*)، وإلى طيبة. وببساطة شديدة، لقد فعل ما فعله أسلافه من قبل، فأشرك آتون فى الشعائر الشمسية. وعلى جزء من لوح حجرى جادت به بلدة عمدا فى النوبة، يعود تاريخه إلى السنوات الأولى من عهده، يطلق على الملك لقب: «هذا الذى يشرق متألقاً على عرش أبيه آتون، مثل رع فى السماء وعلى الأرض، على مرّ الأيام»^(٢).

وتكشف المباني التى أقامها فى الكرنك عن هذه النزعة المزدوجة، المعتدلة والمجددة، فى آن واحد، المندرجة فى سياق تطور روحانى متواصل.

وفى الفترة التى كان مشاركاً فى الحكم، ساهم إلى جانب والده، فى تشييد الصرح الثالث من صروح معبد آمون - رع. ويصوره نقش وهو يشارك أمنحوتب الثالث، فى أعياد مدينة طيبة. وعند وفاة والده، أضاف إلى هذا الصرح «ردهة»، صوراً على جدارها المشهد التقليدى لذبح الأسرى ذبْحاً شعائرياً^(٣).

وشأنه شأن تحوتمس الثالث، سوف يعمل على توسيع مساحة الكرنك المقدسة فى اتجاه الشرق. وسوف يشيّد معبداً شاسعاً، ولكن خارج أسوار معبد آمون - رع،

(*) من خلال اسمه. (المترجم)

وأسماء جم - أتون (أى: أتون - عُثر - عليه). إن الحفائر التى باشرها هنرى شيفرييه Henri Chevrier، عام ١٩٢٠، سمحت بإخراج جزء فقط، إلى النور من الفناء الكبير للمدخل، وكان رواقه الداخلى يتكون من أعمدة أوزيرية للملك. ومنذ الآن، كانت هذه الأعمدة بمثابة بيان فنى ودينى. وأمام هذه الأعمدة، وهى من الحجر الرملى، وارتفاعها أربعة أمتار وعددها ٢٨ عموداً، صور الملك تصويراً كاريكاتورياً. ولكن عند دراسة المعالم الأثرية الملكية أو مقابر الأفراد بالير الغربى، سبق أن لاحظنا، مراراً وتكراراً، الجمال الذى يكاد يدانى الكمال وحسن مظهر الأشكال المنحوتة أو المرسومة ورشاقتها. ففى مجال الفن، قبل غيره من المجالات، أظهر الملك الشاب، لأول مرة، رد فعل عنيف، وإن لم يغير شيئاً، على الإطلاق، من المبادئ الأساسية فى فن التصوير المصرى. وتكشف هذه الصور الشخصية، عن كائن وجهه نحيل، أشبه بوجه فرس، وعن عينيْن بالغتى الإستطالة وشفتين غليظتين وذقن بارزة. والجسد غير واضح التناسق: الكتفان ضيقان والصدر منتفخ والقامة نحيلة والوركين ضخمتان. أهو رجل أم امرأة؟ ربما كنا أمام أحد الشواهد الأثرية التى تجسد التصور الذى يذهب إلى أن الشمس «أبو وأم البشر أجمعين». أو أنه كما ورد فى ترنيمة سوتى وحوور «الأم النافعة الخيرة للآلهة والبشر»^(٤). هل يمكن النظر إلى هذه التماثيل الفريدة فى بابها، باعتبارها رد فعل ضد أسلوب غارق فى الأكاديمية، مفتون فقط بالكمال؟ أم هى البيان الدينى رقم ١، الذى أعلنه ملك كان يريد أن يكون صنو إلهه، فهو وفقاً لصفة فريدة فى بابها، «الأتون الحى». الفرضيتان محتملتان. ولا يبدو أن الملك الشاب كان يعانى، فى حقيقة الأمر، من تشوهات خلقية. وعلى كل حال، تعتبر هذه التماثيل، أول إشارة مناهضة للنظام القائم، فكانت «الثورة» الوحيدة الحقيقية التى شهدها هذا العهد.

كما يمكن ملاحظة استحداث بعض التقنيات الجديدة. فالجزء السفلى من الأعمدة الثمانية والعشرين التى أخرجت إلى النور «كانت تتكون من كتل من الحجر الرملى، صغيرة الحجم، أطلق عليها علماء العصور الحديثة اسم التلاتات، وهى وحدات قياسية من الطوب، أبعادها ٥٥ فى ٢٤ فى ٢٠ سم، ومرصوصة رصاً متقاطعاً، عند استخدامها فى أعمال التشييد. ومن المعتقد، أن هذه التقنية الجديدة قد

استخدمت في مجمل المعبد، إذا أخذنا بعين الاعتبار عشرات آلاف الكتل الحجرية من هذا المقاس، التي أعاد خلفاء أمنحوتب الرابع استخدامها في الأبنية التي شيدها في معبدى الكرنك والأقصر، وذلك في أعقاب تدمير معابد آتون. ونظراً إلى سهولة نقلها وتفكيكها من قبل العمال، كانت سبباً كافياً لاستخدام كتل حجرية صغيرة الحجم، وبالتالي فإن السرعة التي كانت تتم بها أعمال التشييد، قد أتاحت للملك أن يقيم عدداً من الأبنية، طوال فترة إقامته في طيبة... وإذا كان المعبد الثلاثي الذي شيده في بلدة سيسبي(*) في السودان، يلتزم بوضوح بالطراز الكلاسيكي، فإن المعابد المكرسة للإله آتون، في مصر ذاتها، في منف وهليوبوليس وأسيوط وهرموبوليس وأبيدوس، مبنية بكتل من الحجر الجيري من طراز الثلاثات، وإن لم يعثر منها سوى على عناصر مبعثرة بعد أن أعيد استخدامها في معابد لاحقة^(٥). أما في الكرنك، فقد عثر على الكثير من أحجار الثلاثات، داخل الصرح الثاني، القائم غرب الصرح الثالث، وأشرف على تشييده الملك حور إم حب ورعمسيس الأول وسيتي الأول.

قطيعة العام الرابع

حتى الآن، وبينما كان الفرعون الجديد يرفع من شأن عبادة آتون، إلا أنه ظل يُجلّ الآلهة الأخرى ويُبجلّها. وعلى جدران معبد آتون ذاته، استمرّ يدوّن اسمه الذي يعنى «هذا الذي يرضى آمون».

ومن المحتمل، على كل حال، أن كهنة آمون إذ استشعروا انحسار بعض من سلطانهم، ربما أصابهم الفرع من جراء بعض المظاهر الجديدة، واتخذوا موقفاً مناوئاً. ولكن كان لابد من وقوع أحداث، على قدر كبير من الأهمية، تهدد سلطان الفرعون ذاته، وتقوض ملكه، ليعقد العزم فجأة، على مغادرة طيبة، ويغير قسماً من قائمة ألقابه ويقضى على أسماء وصور إله الكرنك وغيره من الآلهة، فقام بتدميرها بالطريقة تعبيراً عن تعصب قضى على الموروثات الديني، الأمر الذي لم تعرفه أرض الكنانة، من قبل.

(*) شمال الجندل الثالث. (المترجم)

فلم يعد يُدعى أمنحوتب، بل أخناتون(*) أى «هذا الذى يكون مباركاً من أجل أتون». إنه يُجلّ ويُجل «رع حور أختى باسمه النور القائم فى القرص» أو أتون القرص المنتصر.

وهجر عاصمة آبائه، وشيّد مدينة جديدة، لتصبح مركز الحكومة والمقر الرسمى للعائلة المالكة، وتبعد ٢٢٠ كم شمال طيبة وتقع على البر الشرقى لنهر النيل. وأطلق عليها اسم أخت - أتون أى «أفق أتون».

٢ - التطور الدينى والثورة فى الفن

الورع وعدم التسامح

لقد طبقت شهرة ترانيم عهد أخناتون الآفاق وكثر الحديث عنها، دون معرفة حق المعرفة، فى الغالب بالفكر الدينى الذى سبقها. فتحدّث البعض عن فكر توحيدى ملهم، لأن الكثير من المفكرين المحدثين مفتونون بمقولات فكرهم الخاص. وكما سبق أن لاحظنا، كان كل إله، هو الأوحد المتفرد، فى نظر أتباعه المؤمنين به^(٦)، وهى حقيقة موهلة فى القدم. وبالفعل وكما لاحظنا من قبل، ترتبط ترانيم العمارنة بتيار أيديولوجى عام، ينتهى عندها، كما أنها ليست دائماً على هذا القدر من الأصالة التى تُنعت بها، من جراء تجاهل ما سبقها عبر القرون.

كما تنسب فى الغالب، إلى الورع المحموم الذى كان يحرك الملك. وفى الحقيقة، فقد نحتت فى مقابر رجال بلاط تل العمارنة، الذين سعوا، وسط هذه السنوات المضطربة، إلى إرضاء مليكهم. ولا شك، أن الكلمات والصور، هى فى الغالب باللغة الجمال ومحركة للمشاعر، وتعبر عن إيمان صادق وحميم، شأنها شأن غيرها من الترانيم المنظومة فى مصر القديمة.

(*) أخ - ن - إتن، بالمصرية القديمة. (المترجم)

والترنيمة التى تُعرف إصطلاحاً بالترنيمة الكبيرة إلى أتون، منحوتة فى
تل العمارنة بمقبرة آى «الأب الإلهى، وحامل المروحة عن يمين الملك، والكاتب الملكى،
والمشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة ورئيس أصدقاء الملك».

التعبد إلى رع - حور - أختى الذى يسعد فى الأفق باسمه النور(*) الذى فى
القرص^(٧)، الحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى، وأتون العظيم الحى (الملك)، فى
أعياده اليوبيلية، وسيد كل ما يحيط به القرص، رب السماء ورب الأرض، وسيد معبد
أتون فى أخت - أتون، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى يحيا من ماعت، رب
الأرضين، جميلة هى صيروتات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع، ابن رع
الذى يحيا من ماعت، سيد التجليات المتألقة (أخناتون) صاحب الحياة المديدة -
والزوجة الملكية العظيمة، محبوبته، سيدة القطرين نفرتيتى - فتان هو جمال أتون،
ليتها تحيا، وتزدهر وتظل فى شباب دائم للزمن اللانهائى والزمن الأبدى.

حامل المروحة عن يمين الملك، المشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة،
الذى يرضى البلاد بأسرها، الأثير المقرب من الإله الكامل، الأب الإلهى، آى^(٨) - إنه
يقول:

إنك تشرق برفق فى أفق السماء، أيها القرص الحى، الذى يتحكم فى الحياة.
وبينما تظهر فى الأفق الشرقى، وبعد أن تملأ البلاد قاطبة بكمالك، فأنت جميل وعظيم
وتسطع، وقائم فوق الأرض فى كامل امتدادها. إن أشعتك تغطى جميع البلدان وحتى
حدود كل ما خلقته. أنت رع، فتأتى بأطرافها، وتربطها من أجل ابنك المحبوب. أنت
قصى، ولكن أشعتك على الأرض. أنت فى الوجوه، ويمكن للمرء أن يتأمل رحلتك.
ولكن عندما تغيب فى الأفق الغربى، تغرق البلاد فى الظلمة، وكأنها ميتة. والرجال
ممددون فى حجراتهم، تسترهم الأغطية. وكل عين لم تعد ترى رفيقها. وإذا استولى
أحد على كل مقتنياتهم، وإن وضعت تحت رؤوسهم، لما لاحظوا ذلك. وكل أسد يخرج

(*) شو. فى الأصل المصرى القديم. (المترجم)

من عرينه وكل الثعابين تلدغ، لأن الليل (بالنسبة لها) هو زمن النور. السكون يخيم على الأرض، لأن خالقها فى أفقه.

وعندما تبيض الأرض (من جديد)، بينما تشرق فى الأفق، فإنك (*) تتألقين، أيا آتون أثناء النهار. إنك تبعد الظلمات، وتهب أشعتك، والقطران يهللن فرحاً. (النائمون) يستيقظون، وينتصبون على أقدامهم، لأنك تجعلهم ينهضون، ويغسلون أبدانهم، ويتناولون ثيابهم، بينما يسبحون ويهللون بأيديهم عند ظهورك المتألق، والبلاد قاطبة تنجز أعمالها. والحيوانات بمختلف أنواعها تركز إلى الراحة فى مراعيها. ويعود الإخضرار إلى الأشجار والنباتات. والعصافير ترفرف فى أعشاشها، بينما تسبح لكائك وتهلل له، عند بسط أجنحتها. والأغنام تقفز على قوائمها. وكل ما يطير وينزل ويحط، يحيا عند ظهورك. (ومن جديد) تصعد السفن التيار وتهبطه أيضاً، لأن كافة الدروب تنفتح، عند ظهورك. والأسماك فى الأنهار تقفز فى اتجاه وجهك. كما تنفذ أشعتك إلى داخل الشديدة الإخضرار. فأنت الذى تصنع خصوبة المرأة، فتخلق النطفة عند الرجال، وتعطى الحياة للإبن فى بطن أمه التى تهدي روعها وتجفف دموعها، فتمد (الإبن) بالغذاء فى بطن (أمه)، واهباً الهواء لتحيا المخلوقات جمعاء. وعند نزول (الطفل) من بطن (أمه)، يوم ولادته، فإنك تفتح فمه وتوفر له احتياجاته. والفرخ فى العش، يزقزق فى بيضته، لأنك من الآن، تعطيه من خلالها النسمات لتحياه. إنك تسوى شكله بالكامل، ليتمكن من تحطيم قشرة البيضة. وعندما يخرج، يزقزق زقزقة مدوية ويسير على رجليه.

كم هى متعددة أفعالك! إنك تتوارى (أحياناً) عن الأنظار، أيها الإله الواحد المتفرد، فبجانبك لا آلهة سواك. لقد جبلت الأرض وفقاً لرغبتك، بينما كنت وحيداً، كما (جبلت) البشر والدواب من ماشية وأغنام، وكل ما يسير على أرجل فوق الأرض وكل ما يحلق طائراً بجناحيه، و(جبلت) بلدان سوريا وبلاد كوش ومصر (أيضاً). إنك تحدد لكل امرئ مكانه، كما توفر احتياجاته، ليحصل كل واحد على قوته، كما أن زمن حياته محسوب.

(*) الضمير فى صيغة المؤنث. (المؤلفة)

إن لغات (البشر) متنوعة وكذلك أشكالهم، وتختلف ألوان بشرتهم، والأجانب مختلفون(*)).

لقد صنعت نيلاً(**) فى العالم السفلى فى الآخرة، وتأتى به كما ترغب، لتُحى رجال مصر، تماماً كما جبلتهم من أجلى. أنت سيدهم أجمعين، أنت متعب بسبيهم، أنت سيد البلاد، الذى يسطع من أجلهم، أيا أتون النهار، يا صاحب الهيبة المجللة.

كما تجعل أقصى البلدان الأجنبية وأبعدها، تحيا، لأنك تعطى(ها) نيلاً يهبط إليهم من السماء(***)، منتجاً الأمواج على الجبال، على غرار أمواج الشديدة الإخضرار، فتغمر حقولهم فى مدنهم. كم هى بارعة مقاصدك، إلى أبعد حد، أيا سيد الزمن الأبدى.

النيل فى السماء، هو من أجل الأجانب وكافة الحيوانات فى كل بلد من البلدان الأجنبية، (الحيوانات) التى تسير على أرجلها. إن النيل القادم من العالم السفلى، هو من أجل البلد المحبوب، ولكن أشعك تغذى كافة الحقول، فتستعيد الحياة، عندما تشرق، فهى خصبة بفضلك. لقد حددت فصول السنة، ضماناً لوجود كل ما خلقتة: فصل الإنبات(****) لترطيب الجو، وأوجدت الجو الحار حتى يستطيع المرء أن يستمتع بك. لقد جبلت السماء القصية لتسطع فيها ولرؤية الخلائق جمعاء. أنت وحيد متفرد، فى حين تتألق بأشكالك (المختلفة)، مثل أتون الحى، الذى يتجلى وضاًءً فينير ويبتعد، ليقترب بعد ذلك. إنك تبدع ملايين الأشكال النابعة منك أنت وحدك، (تبدع) المدن والقرى والحقول والدروب والأنهار. كل عين تراك أمامها. أنت أتون النهار، فأنت العلى، أنت دائم الترحال لتأكيد وجود كل كائن من الكائنات التى خلقتها، وأنت من فوقها، ولا تتوقف عن مشاهدة أفراحهم وابتهاجهم... أنت فى قلبى، ولا يعرفك أحد،

(*) ويبقى الزهو والتشامخ التليدان اللذين تحلى بهما المصرى. (المؤلفة)

(**) أى نهر النيل. (المترجم)

(***) الإشارة هنا إلى الأمطار التى تتساقط فى بلدان آسيا. (المؤلفة)

(****) أى الشتاء. (المؤلفة)

سوى ابنك «كاملة - هي - صيرورات - رع، إنه - الواحد - المتفرد - المنتسب - إلى رع» (*). لقد سمحت بأن يدرك مقاصدك وسلطانك. والأرض أتت إلى الوجود على يدك، تماماً كما صنعت البشر. فما أن تشرق، حتى تعود إليهم الحياة. ويموتون عندما تغرب. وبسبب جسدك ذاته، فأنت النهار ومدته. ويحيا الناس بك. وتظل العيون تمنع النظر في جمالك إلى أن تغرب. ويهجر الناس أعمالهم عندما تستريح في الغرب. وجميع من يسعون على أقدامهم، منذ أن أسست الأرض، تقوم أنت بتربيتهم من أجل ابنك الذي من صلبك، (ابنك) ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع.. أخناتون، صاحب الحياة المديدة، و(من أجل) الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته وسيدة القطرين... نفرتيتي^(٩).

ونلتقى بغيرها من الترنيمات في مقابر رجال آخرين ببلاط العمارنة، وهي تشبه إلى حد كبير الترنيمة السابقة. ونذكر منها على سبيل المثال، مقبرة توتو، المشرف العام على الأملاك الملكية. وتبدو مفردات اللغة والصور المستخدمة، أساليب شائعة وثابتة، وكأنها «الزى الرسمي» لديانة العمارنة، حتى أن وجود فجوة في ترنيمة من هذه الترنيمات، يمكن استكمالها إعتقاداً على نص مماثل، منحوت في مقبرة مجاورة.

ولكن هذه المفردات اللغوية وهذه الصور، ليست جديدة كل الجدة، بل أبعد ما تكون عن وصفها بالثورية. فالمواضيع الرئيسية التي تعبر عنها هذه الترنيمة، كانت معروفة قبل قرن من الزمن، ومنذ عصر أمنحوتب الثاني^(١٠). فالتوحيد مع تعدد الأشكال، تصور موغل في القدم، في الفكر الدينى المصرى، عند معالجة موضوع الألوهية. وتأسيساً على ذلك، فإن كلمة نثر أى «الإله» أو «الله»، المستخدمة عند وصف الكيان الإلهى الأسمى، استعملت فى أقدم النصوص المعروفة. ويكفينا قراءة حكم

(*) وبالمصرية القديمة: نفر - خپرو - رع - وع - إن - رع، وهو اسم العرش أو لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

بتاح حوتب وهى تعاليم موجهة إلى ابنه وتعود إلى ٢٥٠٠ ق.م. ونكتفى بالتنويه ببعض الإقتباسات المحدودة اخترناها من بين الكثير غيرها:

لا تضع الخشيته وسط البشر، وإلا عاقبك الله على النحو ذاته... لا تسمح بظهور الخوف من الناس. إذ لا بد من ظهور إرادة الله.

إذا قمت بحراثة أرضك، فليكن حقلك مزدهراً وليجزل لك الله العطاء. لا تسرف فى التباهى بذلك، ولا تطالب من لا يملك شيئاً.

الله هو خالق الجودة والتميز.

لا تثق كثيراً فى ثرواتك. فقد حصلت عليها هبةً من الله.

من ينصت ويطيع يحبه الله^(١١).

وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، نجد أن الكاتب أنى «المنتسب إلى قصر الملكة (أحمس - نفرتارى)»، قد سار على هدى هذه التقاليد ذاتها، فيعلم ابنه المفاهيم نفسها:

الإنسان رفيق الله.

• من أجل الله، لا بد أن يكون الإنسان محباً للآخرين:

لا تُبعد الطعام عن كائن من كان، حتى إذا كان ضرورياً لك. فهذا السلوك يميته الله.

• لا بد أن يترك لله مهمة محاكمة الآخرين:

يمكن للإنسان أن يقدم طعاماً إلى من يكنّ له البغضاء، وإطعام من يأتى، دون أن يدعى إلى الحضور. لا تتسرع فى مهاجمة عدوك، اتركه وشأنه لله، حافظ عليه على مر الأيام من أجل الله. لأن غداً مماثل لليوم، وفى وسعك أن ترى ما يفعله الله عندما يجرح من جرحك.

• الله هو ضامن الترابط العائلي ولا سيما احترام الأم:

ضاعف الأطعمة التي منحتك أمك إياها، احملها كما حملتك. كنت بالنسبة لها عبءاً ثقيلاً، ولكنها لم تتخلّ عنك... لا تتصرف نحوها بحيث تضطر إلى توجيه اللوم إليك، فترفع يديها إلى الله، لأنه سوف يستجيب لصرخاتها.

• الإنسان في خدمة الله:

قدّم قربانك إلى إلهك، تجنب الإساءة إليه، لا تطرح الأسئلة على صورته، لا تدنو منه بلا استئذان، بمجرد ظهوره في مجده، لا تقترب منه أكثر من اللازم لتحمله، لا تعكّر صفو هاتف الوحي الإلهي، اسهر عليه لتتوفر له مزيد من الحماية. فلتظل عينك يقظة لسورة غضبه، وقبل الأرض باسمه. ففي وسعه أن يضع قدرته في ملايين الأشكال. ومن يُعلَى من شأنه، يُمجّد. إن نور السماء هو إله هذا البلد، ولكن صورته على الأرض. وعندما يُطلق البخور لغذائه اليومي، يصبح رب الفجر الوضّاء راضياً.

الرقص والغناء والبخور غذاؤه، واستقبال من يسجدون (أمامه)، ها هي ثروته. سوف يمجّد الله اسم من يتصرف على هذا النحو، ويصبح الإنسان أشبه بالثمل السكران (١١مكرد).

كان آمون يُعبد في طيبة، وأوزيريس في أبيدوس، وبتاح في منف، وتحوت في هرموبوليس، وخنوم في إلفنتين... ولكن جميعها تجليات محلية للكيان الإلهي. إن كلمة نثر تشملها جميعاً. وكل شكل من أشكالها، كان الواحد المتفرد في قلوب المؤمنين به وفي عقولهم، وهو ما سبق أن لاحظناه عند قراءة النصوص المصرية (١٢)، الأمر الذي لا يستبعد، إمكانية الاستعانة بغيره من الأشكال الإلهية، لتوفير أكبر قدر من الفاعلية السحرية. إن جوهرأ أسمى، يتجسد في أماكن مختلفة وفي أغلفة متنوعة، ويمثل كل غلاف منها فردية نسبية، تلك هي الوجدانية في إطار التسامح وسعة الصدر، هنا تكمن الدلالة العميقة للديانة المصرية، عبر مختلف العصور. ولا يمكن إخضاع هذا التصور لأي من تعريفاتنا المعاصرة، السطحية في أغلب الأحوال، مقارنةً بفكر العالم

القديم. ومن هذه التعريفات نذكر الوجدانية monotheisme وتعدد الآلهة polytheisme ومذهب الإعتقاد بوجود إله فوق الآلهة Hènothéisme، وهو الأقرب عهداً (*).

إن هذا المفهوم بالوجدانية الإلهية الكبرى، على الصعيد العالمى، وليس فى مصر وحدها، هو الذى ساعد، منذ عهد تحوتمس الثالث، على تصور الوحدة الروحية للإمبراطورية. فأن تكون الشمس هى الإله الواحد المتفرد للجميع، يظهر بوضوح من خلال النصوص التى سبق التنويه بها^(١٣). وسوف يعمل الرعامسة على تعاظم أهمية هذه الفكرة، لتصبح الركيزة الأساسية لإمبراطوريتهم الكبرى، وتجميعاً أوحداً لكل الأراضى^(١٤).

ولكن كان التعصب وعدم التسامح هو الجديد الذى أتى به عهد أمنحوتب الرابع، وما جلبه من تدمير واضطهادات.

وبعد أن اتخذ الفرعون من تل العمارنة مقراً له، أرسل رجالاً يجوبون مصر من أقصاها إلى أدناها، ومن منف إلى النوبة، وقد أنيطت بهم مهمة تدمير كافة المعالم الدالة على المعتقدات القديمة. فأغلقت المعابد ودُمّرت الصور المقدسة وتم الإستيلاء على ثروات الأماكن المقدسة ونقلت إلى تل العمارنة. وانتشر طواغيت أخناتون فى جبانة غرب طيبة، ودخلوا إلى المقابر، عاقدين العزم بصورة منظمة، على إزالة الأسماء الإلهية بالطريقة، أينما وجدت، وعلى رأسها اسم آمون. كان هذا الإضطهاد الدينى، على نطاق واسع، ظاهرة غريبة غير مألوفة، وشاهداً على ما كان يكتنه أخناتون من كراهية تجاه طيبة وكهنتها. ما سبب هذه البغضاء؟ لا علم لنا. ولكن من المحتمل جداً أنها تكشف عن بعض الدسائس التى حاكها كهنة الكرنك، وربما مؤامرة ضد النظام الملكى، كما سنشهد غيرها فى أزمنة لاحقة.

(*) نضيف إلى ما سبق: وحدة الوجود Panthéisme ، ومذهب الألوهية الطبيعية déisme الذى يعترف بأن الله خلق الكون ولكن ليس له صلة مباشرة بالعالم، والإعتقاد بالله وحده théisme الذى يقرر بوجود الله دون الإعتراف بالضرورة بالوحى، وأخيراً الإلحاد athéisme. (المترجم)

ويبدو، كما لو أن كل فرد قد التزم الهدوء، طوال هذه الفترة، تاركاً العاصفة تمرّ - فكانت قصيرة ولم تستمر طويلاً. فلا يمكن انتزاع إيمان البشر. وعلاوة على ذلك، فقد عُرف عن المصريين أنهم تقليدياً، شعب محافظ إلى حد كبير(*)، ولا يوجد بين أيدينا دليل واحد، على قيام مقاومة حقيقية. كان الشعب صامت. وانحنى رجال البلاط، وصوّروا أنفسهم وفقاً للقوانين الكاريكاتورية نفسها التي التزم بها الملك. ولكن تفاقمت المشاكل الإقتصادية.

وفى مدينة أخت أتون القصية، وبعيداً عن كل الوقائع، واصل الفرعون حلمه الصوفى وهو حلم الأمير. فكان الإله الحى على الأرض. ولم يفوت رجال البلاط فرصة إلا وأعلنوا هذه الحقيقة، جهاراً نهاراً، فكهذا يتحدث توتو قائلاً:

أيا ولد أتون، يا رع الحى! عظيم هو الحب الذى تحركه فى النفوس، إن البلاد تحيا فى نظام. وعندما تفتح العينين، تفيض البلاد بهذه الثروات التى نطقت أسماعها. أنت الأم التى انجبت البشرية وأنقذت ملايين البشر بفضل كائك. إن قوتك سور من النحاس يبلغ ملايين الأذرع. إنك تحوّل الأراضى بقدرتك، حتى حدود أشعة أتون.

(إن الإله والملك الذى يعتبر امتداده الدنيوى، يحتويان الكون بأكمله).

أيا ملك مصر العليا ومصر السفلى... أيها الأمير المحبوب، يا صاحب الأعاجيب العظيمة، إن كمالك جميل (لن يشاهده). إن ألوان بشرتك شبيهة بألوان أبيك، عندما يبرز عند الفجر... وكما هو باقٍ، فأنت باقٍ للزمن الأبدى... أنت ابنه المحبوب، إن شكاك وطبيعتك هى شكله نفسه وطبيعته نفسها. وتُرفع لك التحية إلى أعالي السماء... لقد أقامك للزمن الأبدى وسوف تبقى للزمن اللانهائى. وتتم أعياداً يوبيلية، أنت الذى ينجيه أتون، فى كل مرة يتجلى متألقاً، فى سماء الفجر... [إن أبناء سوريا] وبلاد كوش، يأتون إليك فى أخت أتون وظهورهم منحنية. والقادمون من الجنوب والقادمون من الشمال، على حدّ سواء، يسجدون أمامك ويهللون لك... لقد

(*) يقول المثل الشعبى «إلى فى القلب فى القلب». (المترجم)

ولدت بفضل رع، إنه سيد المصائر والأقدار، وخالق مدة حياتك. السماء تحمل أتون الحى والنسمات التى فيه، تعطيها أنت إلى السماء وإلى أنف المقربين منك... (١٥).

الملك أقنوم الإله، إنه الشمس الحية على الأرض. هكذا فإن الفكرة الملكية التى ظلت تتطور منذ حتشپسوت، قد بلغت الآن ذروتها، وفى الوقت نفسه، ارتقى الفكر الدينى التقليدى، ليصل إلى أقصى درجاته. لم يكن أخناتون مبدعاً ولا مصلحاً، لقد واصل التطور القائم ومضى به إلى منتهاه.

الأمير والفن

أما فى مجال الفن، فيحق لنا أن نتحدث عن وجود تغيير، لا بل ثورة، ولكن باعتدال. وبالفعل، فإن القواعد الأساسية التى حددت مسار الفن المصرى القديم الذى كان يهدف فى المقام الأول، ومن خلال حزمة من الأساليب التى سبق صياغتها، منذ الألف الثالث ق.م، إلى التعبير تعبيراً كاملاً وشاملاً عن كائنات أو أشياء أو مشاهد، قائمة خارج الزمان والمكان، فلم تكن الغاية من هذه القواعد، أن تبدع تصويراً موضوعياً، بل تعبيراً واضحاً وفطناً عن الواقع، يبتعد عن النقل الأعمى للرؤية البصرية، ولكن يسعى إلى إيجاد تركيبات موحية إلى أبعد حد. ومن ثم لم يتطرق التغيير إلى هذه القواعد الأساسية.

ولكن نجد أن تماثيل ونقوش ورسومات مقابر تل العمارنة، رغبة منها بلا شك فى محاولة التودد إلى فرعون، قد جسدت «التشوهات» التى أراد هذا الأخير أن يفرضها على نفسه: ربما كرد فعل ضد الرشاقة والرقعة المكتملتين اللتين شاعتا فى الإنتاج الفنى للعصور السابقة أو تعبيراً عن أيديولوجية دينية بعينها (١٦). فتمتد الجماجم إلى الخلف امتداداً غير سوى، ويستطيل الوجه ويضيق الصدر وينتفخ البطن فوق النقبة: إنها صور عابسة ورتيبة تفتقد الرشاقة ورقعة الخطوط، سادت فى عهد، فرضت فيه فلسفة الأمير نفسها، سواء على البلاط أم العائلة المالكة.

إن تركيز الإهتمام على تصوير الحياة الواقعية والحقيقية، فى أدق خصوصياتها، قد أدى أحياناً إلى بعض الألفة، قد يصعب احتمالها فى بعض الأحوال. ونذكر على سبيل المثال، التمثال الذى يسور الفرعون جاثياً وعارياً، وهو من الحجر الجيرى ويبلغ ارتفاعه ١٢ سم ومن مقتنيات متحف برلين، أو التمثال الذى يصوره وقد أجلس إحدى بناته فى حجره واضعاً قبلة على فمها، وهو من الحجر الجيرى، وارتفاعه ٤٢ سم، ومن مقتنيات متحف القاهرة (*). وبالإضافة إلى ذلك، سوف يعلن فن النقش بكل وضوح خصوصيات العائلة المالكة: فنجد من الآن، أن الإحتفالات الرسمية والشعائرية، لا تشارك فيها الملكة نفرتيتى فقط، بل الأميرات الست أيضاً، ثمرة الزواج الملكى.

إن المضى قدماً بهذه الضرورة الطبيعية، إلى حدّها الأقصى، يفسّر أيضاً سبب العثور على عدد كبير من الدراسات فى تل العمارنة، فى هيئة أقنعة جصية أو قوالب.

إن بعض الأعمال عولجت بأسلوب أقل خشونة، لا سيما بعض تماثيل الملكة نفرتيتى: فالوجوه رائعة وجميلة ورقيقة الملامح فى عظمة وشموخ. إن تمثالاً من الحجر الجيرى، إرتفاعه ٤٠ سم ومن مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن، يصور الملكة وقد تقدمت بها السن، وترتدى عباءة طويلة شفافة. الإرهاق بادٍ على الوجه الذى يحمل آثار بعض التجاعيد ووجنتاه هزيلتان. والظهر مقوس بعض الشيء والصدر ضئيل ويحرك المشاعر، وقد بدأ يهبط قليلاً. والجزء الأسفل من الجسد مترهل ومنتفخ، فيكشف، على ما يبدو، عن تأثير مرات الحمل الست، على الملكة. إنه آية من آيات الواقعية والإحتشام مع ذلك، إنه تعبير صادق عن براعة النحات. إن تمثالاً من الحجر الرملى، إرتفاعه ١٥ سم، هاجر إلى لندن، يصور جسد أميرة، تكشف عنه شفافية عباءة، هو آية فى الجمال مع التزامه بالأسلوب الكلاسيكى. ولكن هذه الأمثلة، هى مجرد استثناءات.

(*) القاعة ٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

لم تدم «ثورة» العمارة طويلاً، في مجال الفن، ولكن تأثيرها غالب الأيام. فقد تجدد التقليد المتواتر، بفضل هذه السنوات التي تحررت فيها، إلى حد ما، قواعد التصوير. وستظل «أساليب العمارة وأشكالها» تؤثر على فن نحت التماثيل.

قد تساعدنا طفولة أمانحوتب الرابع، على تفسير هذا المزاج الصوفي، وردود فعله المناهضة للأساليب القديمة. لقد نشأ وتربى في بلاط مرهف الذوق، تجاوز فيه البذخ كل الحدود، وإلى جوار أم مؤثرة ومتسلطة، وسط السوريين والفينقيين وكافة شعوب الإمبراطورية الذين تجاوزوا في طيبة، بعد أن أصبحت مدينة عالمية، وقريباً من كهنة أقوياء يمتلكون ثروات أسطورية. فربما أراد الصبي أن يعود إلى حياة، أكثر رشداً وأقرب إلى الطبيعة، مع الابتعاد عن الدسائس السياسية، ليكرس نفسه كلياً للدين. كان أميراً يحكم حكماً فردياً مطلقاً، فأراد أن يكون الله على الأرض، وعاش في بلاط متغلق.

٣- العمارة أو الحلم الصوفي

«أفق الشمس»

ولذلك اختار أمانحوتب الرابع لعاصمته الجديدة، مكاناً يقع على بعد ٣٢٠ كم شمال طيبة، على البر الشرقي لنهر النيل، في منطقة تبتعد فيها تلال الصحراء الشرقية عن النهر مسافة أربعة كيلومترات، لتلتقي به فيما بعد في اتجاه الجنوب، على مسافة سبعة كيلومترات، مُشكّلةً دائرة شاسعة على هيئة نصف قمر، تشغلها في الوقت الراهن المدينة، بعد أن تم تسويتها تماماً بالأرض. استغرقت أعمال تشييدها خمس سنوات، وامتدت لأكثر من ١٣ كم طولاً. إن أربعة عشر لوحاً حجرياً ضخماً منحوتة في الصخر ترسم حدودها، وتبلغ بعضها ٧٨٠ سم ارتفاعاً. جزؤها العلوى مستدير، وهذا القسم المقوس مزخرف بمواضيع مماثلة، فقد صُوِّر فيه الملك والملكة

وأميرتان أو ثلاثة، أمام مائدة قرابين، وهم يتعبدون للإله أتون الذى تتجه أشعته المنتهية بالأيادى، نحوهم، وتمدّ إليهم علامة الحياة. يضم كل لوح ثمانين سطرا أفقياً من المدونات. وعلى وجهى اللوح الحجرى نحتت، فى الغالب، موائد قرابين وتمائيل للملك وعائلته. وإذا صحّ القول، كانت المدينة ملكاً خاصاً للعاهل الملكى الذى كرسها للإله أتون.

إن نصّى لوحين من هذه الألواح الحجرية، المقام أولهما شمال نصف الدائرة والآخر جنوبها، وفى المنطقة التى تقترب فيها التلال من النهر، على البر الشرقى، ويعود تاريخهما إلى العام الرابع، وبعد ذكر التاريخ وقائمة ألقاب الملك والملكة بتفاصيلها، يروى النصّان قيام العاهل الملكى بزيارة أخت أتون، وتقديم القرابين، فضلاً عن المدائح التى تخص الفرعون ومنح المدينة هبة إلى أتون ودورها الجديد كعاصمة ووصف أعمال تشييد المعبد. وللأسف فقد أصاب العلامات الهيروغليفية تلفاً بالغاً - ومع ذلك ما زال فى وسعنا قراءة ما يلى:

رفع صاحب الجلالة ساعده إلى السماء، نحو من انجبه (حور - أختى - الذى - يسعد - فى - الأفق) - (باسمه - النور - الذى - فى - أتون) وتحدث قائلاً: ..لقد شيدت أخت - أتون من أجل أبى أتون، لتصبح هذه المدينة مكان إقامته. من أجله رُسمت حدود أخت - أتون، فى جنوبها وفى شمالها، وفى غربها وفى شرقها. لن أتجاوز اللوح الحجرى الجنوبى لمدينة أخت - أتون متجهاً جنوباً. ولن أتجاوز اللوح الحجرى الشمالى لمدينة أخت - أتون متجهاً شمالاً، حتى أشيد أخت - أتون فيما بينهما^(١٧).

أما الإثنا عشر لوحاً حجرياً الأخرى، فإنها تشغل ضفتى النهر، ثلاثة فى الغرب وتسعة فى الشرق. أما الألواح الحجرية الثلاثة القائمة على البر الأيسر من النهر، عند حدود سلسلة جبال الصحراء الغربية، فإنها ترسم الحدود الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية للمدينة. ويعود تاريخها إلى العام السادس، مع إضافة، دُونت فى العام الثامن، بالنسبة لاثنتين منها. والنصوص التى تضمها تروى تأسيس المدينة، بالإضافة إلى ترانيم وابتهالات من أجل الإله والملك.

ظهر صاحب الجلالة متألقاً على مركبته المصنوعة من الذهب الخالص والمشدودة إلى فرسين فكان أشبه بأتون عندما يشرق في الأفق. والحب الذي يحركه في النفوس يملأ الأرضين. لقد اختار الطريق السليم (إلى موقع) أخت أتون، في هذه المرة الأولى التي اكتشفه، ليقيم مبنى شامخاً من أجل أتون، وفقاً لما أمر به والده (حور - أختي - الذي - يسعد - في - الأفق) - (باسمه - النور - الذي - في - أتون) - (يقيم) مبنى شامخاً داخل المدينة. وقُدِّمت قرابين وفيرة... في يوم تأسيس أخت - أتون، المكرسة للإله أتون، وتقبل البشر المذائح والحب، من أجل ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع... أخناتون^(١٨).

إن الأطلال الراهنة المتبقية من هذه العاصمة العابرة، بعد أن هُجرت، ولم يمض على تأسيسها سوى خمس عشرة سنة تقريباً، وشُيّدت في موقع لم تشيد فيه أي بنايات أخرى، في زمن لاحق، تساعدنا على إعادة تصميم المدينة العتيقة؛ ومنها معابدها وقصورها ومنازلها ومساكن حرفييها وجبانتها القريبة، المنحوتة في صخر جبل الصحراء الشرقية.

إن طرقات، يسهل التعرف عليها، بفضل حوافها الحجرية، ما زالت تتجه بعضها ناحية الجبانة، والأخرى ناحية ألواح الحدود الحجرية التي كانت ترسم حدود أرض المدينة. إن مسار شوارع المدينة يقف شاهداً على وجود تنظيم حضري لهذه المدينة: إن ثلاثة شوارع متوازية تتجه من الجنوب إلى الشمال بمحاذاة النهر وتتقاطع، في كثير من الأحيان، بزاوية قائمة بشوارع مستعرضة ثانوية. وثلاثة وديان شرق - غرب، تقسم المدينة إلى ثلاث مناطق، لكل واحدة منها طابعها المميز.

كان وسط المدينة يضم المعابد والقصور والمباني الرسمية.

ومعبد أتون كان مفتوحاً جهة الغرب وقائماً داخل مساحة مستطيلة شاسعة يبلغ محيطها ١٥٠٠ متراً. ولأول وهلة، كان تخطيطه لا يختلف كثيراً عن تخطيط معابد طيبة الكلاسيكية. ولكن على غرار المعابد الشمسية التي شيدت إبان الأسرة الخامسة، كان غير مسقوف، لإتاحة الفرصة للنور الإلهي النفاذ إلى القسم الخاص بقدس الأقداس.

وحديثاً، لفت **بول بارجيه Paul Barguet** الانتباه^(١٩) إلى أن بعض عناصر هذا التخطيط كانت غير مألوفة، حتى يمكن القول أن معبد **أتون** ينقرد بتخطيطه الفريد في بابه. وبالرجوع إلى الأوصاف المعتادة المتاحة، يلاحظ أن على المرء أن يخرج من كتلة المعبد الرئيسية، إذا أراد الوصول إلى القسم الخاص المعروف بـ **قدس الأقداس**. إلا أن أعمال التنقيب التي باشرها **پاندليبرى Pandlebury** قد أوضحت أن ما يعتقد أنه «القسم الخاص بـ **قدس الأقداس**»، وهو في حقيقة الأمر «**قصر البين بن**»، على ما يظن، قد شيد في تاريخ سابق على العام التاسع من عهد الملك، في حين أن بدء تشييد المعبد ذاته يعود إلى العام التاسع. فمن المعتقد إذن، أن القسم الخاص بـ **قدس الأقداس**، قد شيد أولاً، وكان معزولاً في نهاية ممر احتفالي طويل داخل الأسوار. ولكن من غير المرجح، أن يظل معزولاً، إن كان يشكل حقاً، القسم الخاص بـ **قدس أقداس المعبد**. فطبقاً للقواعد المعمول بها، فإن المعبد عند تشييده، لابد أن يكون ملاصقاً لواجهة هذا القسم، على أن يكون الوصول إليه مباشرة من خلال عدد من الأبواب المتعاقبة. لقد فعلت **حتشيسوت** الشيء نفسه في **الكرنك**، عندما أقامت حجراتها، فكانت ملاصقة لواجهة معبد الدولة الوسطى. وتأسيساً على ذلك، فما كان يظن لفترة طويلة، أنه القسم الخاص بـ **قدس الأقداس**، إنما هو في واقع الأمر، مقصورة مستقلة، لها وظيفتها الخاصة.

ومن المعتقد إذن، أن معبد **أتون** كان يتكون من مجموعتي مبانٍ متعاقبتين: فنجد من ناحية، المعبد المكرس للإله الشمسي، ومن ناحية أخرى، بناية أطلق عليها لفترة طويلة «**القسم المخصص بـ **قدس الأقداس****» وإن كانت مخصصة للاحتفالات الملكية، كما سنوضح ذلك، استناداً إلى الفرضية الفائقة البراعة، والأقرب إلى الصواب، والتي توصل إليها **بول بارجيه Paul Barguet**.

أما المعبد ذاته فيمتد في استطالة بالغة تصل إلى ٢١٠ أمتار طولاً و٣٢ متراً عرضاً فقط. ولا شك أنه كان يطلق عليه اسم **چم - أتون**، كالمعبد المماثل في **الكرنك** والمعابد المقامة في النوبة. كما أن العديد من تصاوير المقابر تقدم معلومات حول تخطيطه. ويبدو أنه كان مكوناً من قسمين: فيتقدم صرح المدخل خمسة أزواج من السواري ذات البيارق، يليه بهو أساطين يضم ثمانية أزواج أساطين مقناة، ثم فناء

برواق وأخيراً ثلاثة أفنية صغيرة. وربما كان آخرها يضم القسم الخاص بقدس الأقداس. وهكذا يمكن مقارنة هذا المعبد بمعبد آمون فى الكرنك، كما كان فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة. إن وجه الشبه الأول قائم بين بهو أساطين مدخل معبد چم - أتون وبهو أساطين مدخل الصرح الرابع، بالكرنك، عندما كان أول صروح المعبد. أما وجه الشبه الثانى، فيخص القسم الثانى من چم - أتون، القريب مما يعتقد أنه كان معبد الدولة الوسطى بالكرنك: فنجد فى كل مجموعة أبواب ثلاثة، يتقدم الأول، رصيف من خلفه رواق.

أما المبنى الثانى، وهو أصغر من السابق، ويقع إلى شرق المعبد، الذى عُرف لفترة طويلة باعتباره «القسم الخاص بقدس الأقداس»، فيتميز بسمتين بالغتى الأهمية: وجود تماثيل أوزيرية عملاقة للملك فى رواق صرح المدخل ووجود ممر متعرج يودى إلى الفناء الذى يحتضن مائدة القرايين. ولكن هناك حقيقة جديدة بالملاحظة تبرز، بلا شك، الغاية من إقامة هذا المبنى: فالتماثيل الأوزيرية العملاقة الأربعة ترتدى على رؤوسها، تارة التاج الأبيض وتارة أخرى التاج الأحمر. وفى تصوير بمقبرة أحمس(*) وكان «حامل المروحة على يمين الملك»، وفى أحد الجناحين اللذين يؤطران، بشكل غير مألوف، فناء المدخل إلى المبنى - نشاهد رسماً للعرش الملكى. أما الجناح الآخر فكان يصور الرسم نفسه، وإن اختلف فى الوقت الراهن. ومن المحتمل إذن، أن الملك كان يجلس على التوالى، على هذا العرش ثم على الآخر، مرتدياً التاج الأبيض ثم التاج الأحمر، إبان بعض الإحتفالات المرتبطة بالوظيفة الملكية.

وكما توضحه النصوص^(٢٠)، كان أخناتون يعتبر نفسه أقنوم الإله على الأرض، والطقوس التى تقام من أجلهما لا تنفصلان. وكما هو حادث فى المقابر، فإن الترانيم إلى الآلهة تصاحبها ترانيم إلى الملك، وأوجه الشبه بينها كبير، من حيث تعبيراتها وأفكارها، وعلى النحو ذاته، فإن تعاقب مبنيان داخل أسوار المعبد الإلهى، يرسّخان فكرة هذه الوحدة الأساسية. وقد يخطر على بالنا مبنى آخ منو^(٢١) الذى شيده تحوتمس الثالث، شرق معبد آمون - رع الكبير، ولكن عمودياً على محوره. فقد كان

(*) من المقربين إلى أخناتون. لمزيد من التفاصيل راجع: سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الخامس. ص ص ٤١٣-٤١٥. هيئة الكتاب. ١٩٩٢. (المترجم)

معبدًا لاستعادة حيوية العامل الملكى وتجديدها، ففي إطاره ومن خلال إحتفالات سرية وصوفية، كان آمون - رع ينقل جوهره الإلهى إلى الملك. ولكن، دلالة تل العمارنة، كانت تتجاوز أبعاده، كل ذلك: ولأن واقع الأمر، يكشف لنا أن أمام هذه البناية فقط، صُورت فرقة العازفين على الجناك والموسيقيين والمنشدين، يحملنا على الإعتقاد، إلى النظر إليها باعتبارها أيضاً «قصر البن بن»، الذى تقف الفرقة فى فناء مدخله، وتعزز هذا الإعتقاد الترانيم المتشابهة المدونة فى مقابر توتو ومرى رع وأنى وأهى، والموجهة إلى آتون:

تتصاعد أصوات المنشدين والموسيقيين فرحين، فى الفناء الكبير لقصر بن بن، فى معبدك فى آخت - آتون، مكان الحق، الذى ينشر فيه صدرك^(٢٢).

إن اندماج الإله فى الملك اندماج كامل، حسب تعبيرات العمارنة وعلى جميع الأصعدة، هو ما تكشف عنه، على حدّ سواء، الترانيم والمباني المشيدة.

أما المعبد الثانى وهو «قصر آتون» فكان أصغر من السابق، وغير مسقوف أيضاً، ويقع إلى الجنوب من القصر.

كان طول القصر الملكى الكبير ٢٧٠ متراً ويحيط به سور مزدوج من الطوب. كان يشتمل بدايةً، على فناء غير مسقوف يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ١٧٠ متراً، ومحاطاً بتمائيل عملاقة من الجرانيت والكوارتزيت، تمثل الملك والملكة نفرتيتى. وفى مؤخرة هذا الفناء، أقيمت مقصورة تضم اثنى عشر أسطواناً بتيجان نخيلية، ومن شرفتها، كان يستطيع الملك أن يطلّ على الجماهير، تحيط به أحياناً الملكة والأميرات الست. يلى ذلك عدد من الأفنية، كان يضم أحدها رواقاً ذا أساطين من الحجر الجيرى، قائمة على أرضية من الألبستر، إذ كان اللون الأبيض رمز شدة سطوع الشمس. وأخيراً يصل المرء إلى بهو أساطين كبير للإستقبال، يضم ٤٨ أسطواناً من الحجر الجيرى. إن زخارف مستوحاة من الطبيعة من أزهار وحقول قمح وعصافير وسط المستنقعات والحيوانات غير المقيدة، كانت مرسومة على الجدران والأرضيات. وقد عُثر على بعض هذه العناصر. إن أطلال القصر الذى شيده أمنحوتب الثالث، فى

ملقطة، كان يحتفظ بعناصر زخرفية مماثلة. ولا نعرف شيئاً عن القصور التي شيدت في عهود سابقة، لأنه لم يبق منها شيء. فمواد البناء، وتتكون أساساً من الطوب، لم تستطع مقاومة صروف الدهر.

وخلف القصر، كان مبنىً فسيح، يتكون من عدد من أبهاء الأساطين. وكان أحدها، وربما كان قاعة التتويج، يضم ٥٤٤ عموداً مربعاً، يستقر عليها سقف يحمل رسومات تصور أغصان من الكرمة، تحمل أوراقاً وعناقيد عنب، على خلفية باللون الأصفر: إنها رموز ملونة تمثل الحياة المتجددة إلى أبد الآباد، من نباتات وشمس، وكانت الجدران تزدان ببلاطات من القاشانى.

إن جسراً يمر فوق الشارع الرئيسى، كان يربط القصر الرسمى بالمسكن العائلى للعاهل الملكى: ويتكون من الأجنحة الملكية الخاصة والمخازن، وتحيط بها الحدائق، وعلى امتداد الشارع تصطف إستراحات أو بيوت الحريم، ورسمت على أرضيتها زخارف زهرية على أرضية من الجص الأبيض ويمكن مشاهدتها الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة(*) .

وإلى شمال القصر وشرقه، تتكدس المكاتب الإدارية دون التقيد بنظام معين واضح.

أما المدينة الجنوبية، فكانت تشغلها مساكن كبار الموظفين والورش ومنها ورشة النحات تحوتمس، والقصر الجنوبى أو القصر الصيفى: مارو - أتون.

كانت الأساطين من طراز فريد فى بابه: فقواعدها من الألبستر وتحمل نقوش لزخارف لوتسية. ويصور بدن الأسطون ضمة من الغاب، باللون الأخضر، وتزدان قمته بعناقيد من العنب وتتدلى منه أبدان طيور البط، والتيجان من الألبستر ومزدانة بأوراق نبات اللوتس وزهوره، بالنقش البارز ومطعمة بعجينة زرقاء وخضراء^(٢٣).

هذا القصر هو النموذج ذاته، الذى عرفته عمارة الحدائق هذه، والتي ظل المصريون على امتداد تاريخهم مولعين بها. كان القصر يضم عدداً من البحيرات الصناعية، ومباني تتميز بأصالتها الفريدة، ومنها ممشى طويل يحمل سقفه صف من

(*) فى صحن الطابق الأرضى. (المترجم)

١٣ عموداً، حُفرت بينها، حَفراً محكماً، أحواض على هيئة حرف T، بينما رسمت من حولها زخارف تصور الزهور والحيوانات^(٢٤). ففي بلد تحاصره الصحراء من كل جانب، كان الميل إلى الطبيعة النضرة والمُحيية، ظاهرة شاعت في مختلف العصور والأزمنة.

كانت منازل رجال البلاط فسيحة، ومسكن الوزير نخت كان مربعاً، ومساحته ٨٨٠ متراً مربعاً، ويتكون من حجرة إستقبال ذات ستة أساطين من الخشب الملون، وبتيجان نخيلية، ومن حجرة معيشة تتجه ناحية الشمال، ويبلغ كل ضلع من أضلاعها ثمانية أمتار، وذات أربعة أساطين وبأريكة ومن حجرة للتطهر ومجمرة مركزية ومن الأجنحة الخاصة وتضم حجرة النوم والحمام وبلاطة مسطحة للتوضؤ، بقنوات تصريف ومراحيض في مكان معزول، بقاعدة ثابتة أو متحركة، كانت الأرضيات تتكون من طوب مستوي، مغطى بزخارف تصور زهوراً ملونة، ومن حجرة المعيشة، كان سلّم يوصلنا إلى السطوح، المتجه، هو أيضاً ناحية الشمال. وفي بعض الأحوال، كانت الأجنحة الخاصة في الطابق الأول. أما المطبخ ومسكن الخدم والحظائر، فكانت في الخارج. والحدائق والعرائش وأحواض الماء، كانت تحيط بالمنزل. وفي حوض ماء واحد أو أكثر، كانت تطفو زهور اللوتس الزرقاء والبيضاء وتسبح البط الأزرق والأسماك المتعددة الألوان، وتظله أو تظلله مختلف الأشجار. هكذا، كانت تحيط بالمنازل روضات من النضارة والنسيم العليل المنعش، فتشيع السكينة والجمال، وتجمع بين الأشكال والألوان، في تناغم وانسجام مرهفين.

أما المدينة الشمالية، فكانت حيّ التجار وأصحاب الحوانيت. كما كان بها قصر الشمال وهو قصر التنزه والترويح عن النفس، ويضم رحبة للحيوانات بها مكان لتربية الطيور والحظائر.

وبعيداً وفي مكان معزول، عُثر على أطلال مدينة عمال حقيقية، شبيهة بمدينة عمال دير المدينة على البر الغربي من مدينة طيبة وداخل سور يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٦٩ متراً، يتكسد جنباً إلى جنب، وظهراً لظهر، أكثر من سبعين منزلاً، يضم كل واحد منها أربع حجرات، وتنظم المنازل في صف مستقيم، على امتداد خمس حارات.

إن تراتب الهرم الإجتماعى، واضح كل الوضوح، فى تل العمارنة، وكما كان الحال فى طيبة.

احتاج الأمر، إلى خمس سنوات من العمل الدؤوب، لترتفع فى الصحراء مدينة يبلغ طولها ١٢ كم، مدينة مكرسة للشمس، وكانت كل عناصرها التصويرية والزخرفية، نداءً مؤثراً جياشاً للحياة المتجددة، كانت تمهيداً وإرهاصاً، لأحد المبادئ المعمارية فى عصر الرعامسة، كما أن ألوان الأحجار وطريقة تجميعها، تقوم بدورها الرمزي.

خمس سنوات من العمل الدؤوب، وأربع عشرة سنة من حياة، مكرسة لحلم صوفى. ومن كل ذلك، من كل هذه الكنوز التى انبثقت من رمال الصحراء، بفضل إرادة أمير، لم يغالب الأيام سوى بقايا مبعثرة، على أرض المنطقة، ولكنها كافية على الأقل، بمساعدة علماء الآثار، على إعادة تشكيل البهاء التليد وروعته. ولكن الحلم توقف فجأة وتبخر.

غير أن «الهزيمة» الأولى التى منيت بها طيبة، كانت هزيمة عابرة، سرعان ما أصبحت فى خبر كان. وفى وقت لاحق، وبعد مرور قرن من الزمن، سوف ينتقل الرعامسة، بدورهم، بعيداً عن مدينة الجنوب المهيبة ووسائل الكرنك. كانت الإمبراطورية تستوجب قيام عاصمة أخرى. كانت تل العمارنة بمثابة المرحلة الأولى لهذه الحركة «الصاعدة فى اتجاه الشمال»، التى سيواصلها خلفاء أمنحوتب الرابع، لأسباب متعددة. فكان التراجع الأول الذى لحق بمدينة التحامسة العظيمة.

وإلى الشرق من تل العمارنة، حفرت فى المنحدر الصخرى، مقابر الملك ومن تبعوه إلى المدينة الجديدة.

كانت مقبرة، قد أعدت للملك فى تل العمارنة فى أقصى وهدة متعرجة، عرفت عند العرب، تحت اسم نوب الملك، وتحمل المقبرة رقم ١٢٥. وتم الكشف عنها، عام ١٨٩٢، بمعرفة بارسانتى Barsanti. وقد أصاب المقبرة دماراً بالغاً، وتعرضت على ما يعتقد، عند وفاة الملك، لاضرار وتلفيات متعمدة، ارتكبها من ناصبوا الملك العداء. فبعد

أن يعبر المرء العتبة ويهبط سلماً من عشرين درجة وممشى شديد الانحدار، يصل إلى سلسلة من الحجرات والممرات غير المزخرفة، وصولاً إلى مسطح منبسط، عرضه متران، ينفتح جهة اليمين، على حجرات مزخرفة بنقوش شديدة التدمير، تصور مشاهد قرابين ومشاهد طقسية، تقام «فى إطار عائلى»، وتسيطر من على صورة الجرم السماوى بسواعده الأدمية. وفى الحجرة الأولى، وعلى الجدار الشمالى تحديداً، يرى الناظر مشهداً جديراً بالملاحظة، يسير فى اتجاه السياسة الإمبراطورية التى تبنتها مصر منذ ما يقارب المئتين سنة، ويصور شعوب الأرض قاطبة متعبدة للشمس. كان حلم أخناتون، تضرب جذوره فى أعماق الماضى. أما حجرة الدفن فتوجد، عند مستوى أدنى، وللوصول إليها يهبط المرء سلماً بدرجاته الست عشرة، وتزدان هذه الحجرة أيضاً بنقوش تصور الطقوس المقامة من أجل الجرم السماوى، ولم يعثر فيها سوى على تماثيل جنائزية صغيرة، تحمل اسم أخناتون وأجزاء توابيت مبعثرة. لقد اضطهد (بفتح الطاء) وهو على قيد الحياة فاضطهد (بضم الطاء) بعد وفاته. إن صاحب هذه المقبرة لم يشغلها، وإن كانت مخصصة له، فربما دفن سراً فى طيبة(٢٥).

كانت مقابر الأفراد من طبيعة وطران مقابر طيبة المنحوتة فى الصخر ذاته، وقد تم الكشف عن حوالى خمس وعشرين مقبرة.

لقد كان من الصعوبة بمكان أن تقوم تل العمارنة بإزاحة طيبة والكرنك لتحل محلها.

رفاق تل العمارنة

إن المقربين من أخناتون وبعض أتباعه المؤمنين به وأصدقائه المخلصين، قد رافقوه إلى عاصمته الجديدة.

والعائلة المالكة حاضرة حضوراً مطلقاً فى كافة التصاوير. فنشاهد نفرتيتى، الزوجة الملكية العظيمة والأميرات الست، ثمرة إقتران الملكة من الملك وهن:

مريت - آتون (أى: «محبوبة آتون») وميكت آتون (أى: «المحمية من آتون») وعنخ - إس - إن - پا - آتون (أى: «إنها تحيا من أجل آتون») ونفر - نفرو - رع (أى: «جميل هو كمال رع») وستپ - إن - رع (أى: «من اختيار رع»).

ومن غير المستبعد أن يكون الملك قد اقترن من ابنته الثالثة(*)، فائشاء أعمال التنقيب التى باشرتھا البعثة الألمانية فى هرموبوليس - على البر الآخر من نهر النيل، قرب تل العمارنة، ظهرت إلى النور كتل حجرية تحمل مدونات، جادت بها عاصمة أخناتون^(٢٦). وعلى كتلة من هذه الكتل يمكن قراءة النص الآتى:

محبوبته عنخ - إس - إن - پا - آتون، الابنة الملكية التى من صلبه، التى ولدتها عنخ - إس - إن - پا - آتون، الابنة الملكية التى من صلبه، (والتي انجبها (؟) نفر خپور رع - واع إن رع^(**)). وفقاً لصيغة البنوة التقليدية.

هكذا، فمن المعتقد أن أميرتين، الأم والابنة، وقد انجب أخناتون كليهما، قد حملتا الاسم نفسه. وهو ما يتضح أيضاً، على ما يبدو، من قراءة النص المدون على كتلة حجرية أخرى:

الابنة الملكية، عنخ - إس - إن - پا - آتون التى من صلبه، ليتها تحيا! والابنة الملكية، عنخ - إس - إن - پا - آتون الصغيرة، محبوبته التى من صلبه.

فى كثير من الأحيان، يستخدم لفظ «الصغيرة» لتمييز الأم عن الابنة، عندما يحملان الاسم نفسه. هكذا فإن نفر - نفرو - آتون التى تحمل هى ونفرتيتى الاسم الشخصى نفسه، تدعى أحياناً «الصغيرة».

(*) يشكك البعض فى هذا الزواج ويعتبره أمراً مستحيلاً، راجع:

C. Vandersleyen. L'Egypte et la Vallée du Nil. Tome 2. P.U.F, 1995, p.414 et

n.3.(المترجم)

(**) لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى أو النيسوت بيتى، راجع مطلع هذا الفصل. (المترجم)

وإذا التزمنا بهذه الفرضية، الأقرب إلى الصواب، فمن من غير المستبعد أن تكون عنخ - إس - إن - پا - آتون الثانية هي التي تزوجها توت عنخ آمون، وليست أمها.

يجدر بنا، الإشارة إلى تواجد آخر في تل العمارنة، كان مؤثراً وعلى قدر كبير من الأهمية. نقصد بذلك، الملكة تتي أرملة أمنحوتب الثالث ووالدة العاهل الملكى الشاب. كانت سيدة عظيمة، قامت بدور سياسى أكيد، فى طيبة، فى عهد زوجها، ويبدو أنها أثرت تأثيراً بالغاً على ابنها. وكما سنلاحظ، فإن توشراتا ملك الميتانى، قد وجه إليها خطابه. لتقوم بدور الوسيط بينه وبين فرعون.

ويبدو أن عدداً من التصاوير، تبرهن على وجودها فى تل العمارنة. ففي المقبرة رقم ١ - مقبرة حويا - المشرف العام على قصرها، تظهر قبالة أخناتون ونفرتيتى، وهى تشاركهما الأطعمة الوفيرة المكدسة على مائدة^(٢٧). وقد صُوِّرت إلى جوارها ابنتها الصغرى باكت آتون (أى: «خادمة آتون») وإلى جوار نفرتيتى صُوِّرت ابنتاهما الكبيرتان. وفي المقبرة ذاتها، تظهر تتي وهى تشرب من كأس فى صحبة الزوجين الملكيين^(٢٨). والأقرب إلى الصواب، أنها عاشت فى المدينة، فى صحبة آخر بناتها، ثمرة زواجها من أمنحوتب الثالث والتي كانت مكرسة للإله آتون، كما يتضح من اسمها. ومن المحتمل أن الملكة تتي القوية القديرة، الدساسة، لم تكن بعيدة عن قرار مغادرة طيبة وعن المغامرة التى أقدم عليها أخناتون. ولكن كل ذلك، يفترض تداعى أحداث لا حصر لها واجتماعات تأمرية سرية نجهلها، فلا ندري عنها شيئاً.

خدّام آتون

كان مرى رع (أى: «محبوب رع»)، أحد أقرب المقربين إلى الملك الذى عينه كبير كهنة آتون، بالإضافة إلى المشرف العام على البيت المزدوج للفضة والمشرف العام على الحريم الملكى.

توفر لنا النقوش والنصوص المنحوتة فى مقبرته رقم ٤، بقل العمارنة أن نتعرف على مراسم تنصيبه حبراً أعظم جديداً. وفى لقطة أولى، يظهر أخناتون ونفرتيتى فى شرفة القصر الملكى، وقد تجمعت جماهير الشعب بمناسبة العيد. ونشاهد مري رع، فى صحبة المقربين، راكعاً على الأرض أمام العاملين الملكيين. وبعد أن ينتهى الملك من إلقاء خطابه وتفويضه حق ممارسة منصبه، يهبُ أصدقاء مري رع مسرورين ويرفعونه على أيديهم^(٢٩).

● خطاب الملك:

الملك الذى يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين نفر - خپو رع - واع إن رع يتحدث إلى مري رع كبير كهنة أتون^(*) قائلاً: انظر، إنى أنصبك كبيراً لكهنة أتون بمعبد أتون فى أخت أتون، لقد أقدمت على ذلك، بسبب حبى لك، قائلاً: أيا خادمى العظيم الذى يُصغى إلى تعاليمى، إن قلبى راضٍ (عن نتيجة) كل مهمة من مهامك. لذلك، أسند إليك هذا المنصب، قائلاً (أيضاً): سوف تتناول من طعام فرعون، سيدك، فى معبد أتون.

● رد مري رع:

وفيرة هى الخيرات التى يسمح أتون، بمنحها لمن يرضيه.

● كلمات جماهير الشعب:

إنه يأتى إلى الوجود، بأجيال شابة فى أعقاب أجيال شابة أخرى، هو الأمير الكامل. وما دام أتون يشرق، سيظل باقياً للزمن الأبدى^(٣٠).

اللقة الثانية، من إحتفالات التنصيب: تقديم مري رع إلى كهنة المعبد، بينما جماهير الشعب حاضرة. وجدير بالملاحظة، أن الحرس العسكرى الذى يرافق الموكب الملكى من القصر إلى المعبد، يضم فى عداة سوريين وليبيين ونوبيين^(٣١). وتظل فكرة

(*) حرفياً: «كبير أولئك الذين يرون القرص». واللقب مستعار من ألقاب كهنة هليوبوليس. (المؤلفة)

الإمبراطورية قائمة، وإن كان أخناتون لا يبدو مهتماً فى واقع الأمر، بممتلكاته القصية.

وفى آخر المطاف، يقوم العاهل الملكى بزيارة ثانية للمعبد، توقيراً لكبير الكهنة مرى رع الذى يستقبله داخل باب المعبد، هو والملكة والأميرتين، وقد رفع ساعديه تحية له.

ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين، نفر - خيبرورع - واع إن رع، وبعد أن طلب كبير الخزينة من مرى رع كبير كهنة أتون أن ينحني، تحدث قائلاً: ضع الذهب حول عنقه، وإلى فوق، (ضع) الذهب أيضاً عند قدميه، لأنه أصفى إلى تعاليم فرعون، منجزاً كل ما أُملى عليه، فى هذه الأماكن الجميلة التى أقامها فرعون فى قصر بن بن، فى معبد أتون، من أجل أتون، فى أخت أتون، (المعبد) الملى بكل ما لذ وطاب وبالشعير والعلس بكميات وفيرة، إنها قرابين أتون، من أجل أتون.

● رد مرى رع:

ليت واع إن رع، الصبى الجميل، يكون مزدهراً. مكَّنه، أيا أتون، أن يتمم مدة حياتك، أقمه للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى (٣٢).

إن صياغة هذه النصوص، تلتزم فى الغالب بإيقاع الترانيم، فيتكرر اسم الشكل الإلهى المطلوب تعظيمه، تكراراً لا يكل ولا يمل. وإذا وُجد كبير كهنة لتأدية الشعائر، فإن فرعون شخصياً، هو الذى يوجهه ويلقنه «التعاليم» المقدسة.

وتم تعديل التراتب الهرمى الكهنوتى. فإلى جانب كبير الكهنة، نجد «خادم» (*) أتون الأول. وهو المنصب الذى شغله پانحسى، الذى كان الجنوب، بلا شك، موطنه الأصلى، فاسمه يعنى «النوبى». كان متواضع المنبت، فقام الملك بترقيته، إذا أخذنا

(*) باك بالمصرية القديمة، وليس حم كما كان يسمى فى المعتاد. (المؤلفة)

بالترنيمة المرفوعة إلى الملك، والمنقوشة في مقبرته رقم ٦ في تل العمارنة والتي استخدمت للأسف، فيما بعد، كنيسة صغيرة للأقباط:

التسبيح لك، يا إلهي، الذي شكّلتني وأعطيتني السعادة، وأتيت بي إلى الوجود ووفرت لي الطعام، وكل احتياجاتي بواسطة كائ. أيها الأمير، الذي خلقتني وسط البشر، وحملتني على مخالطة المقربين المفضلين إليك، وجعل الجميع يعرفونني.

لقد ميّزتنى وأكرمتني صاعداً من أسفل. وجعلتني قديراً، بعد أن كنت متواضعاً... والآن تكرمني مدينتي على مدار الأيام. ورقيت بناء على أمر صادر من سيد الحقيقة - العدالة. ولذا تهلّل يداي حتى أعالي السماء، عابداً أخناتون، سيد القطرين، والقنر الذي ما فتئ يمنح الحياة، سيد الأوامر، أيا نور الأرض قاطبة، في كل فصل (من فصول السنة) نحياه، ونهر النيل للبلد وللشعر، يا صاحب الكا الذي يُشبع، أيها الله الذي خلق العظماء وجبل الوجود، أنت النعمة لكافة الأنوف، فبفضلها يتنفس الناس (٣٣).

كان الأمير متصوفاً، ولكن ربما كان مصاباً أيضاً. بجنون العظمة (*). فهذه الترانيم التي كان هو مصدر إلهامها، تدمج في الله موزع الأقدار، وتوحد بينهما.

هكذا نجد أن رجالاً جددًا - يدينون للعاهل الملكي، بما حصلوا عليه من امتيازات، إذ كان يسعى سعيًا حثيثًا، من أجل إيجاد أصدقاء وأفراد مخلصين يؤتمنون، بعد القطيعة العنيفة مع طيبة والكرنك، وما قام به من اضطهادات وملاحقات - قد شكّلوا سلك الكهنة الجديد.

(*) mégalomanie: تصرف مُرضٍ يتميز بحسب التحليل النفسي، بإظهار رغبة مفرطة وشاذة في العظمة والمجد والقدرة. (المترجم)

موظفو الدولة

إن بعض كبراء البلد القدامى وأعيانه، ظلوا مخلصين أوفياء للنظام الملكى.

هكذا كان وضع الوزير وعموزا، الذى شغل منصبه منذ عهد أمنحوتب الثالث^(٣٤)، ثم صاحب ابنه أمنحوتب الرابع إلى تل العمارنة. فصور في مقبرته راکعاً أمام أخناتون الذى يقوم بمنحه قلادات من ذهب، وقائلاً له:

إنك تتألق، أيا نفر خيرو رع - واع إن رع، وتتجلى متلاًئلاً مثل أبيك، أتون الحى. ليته يعطيك الزمن الأبدى، بصفتك ملكاً، والزمن اللانهائى، بصفتك أمير الفرح والحبور.

ثم يوجه حديثه إلى جماهير الشعب. كان شخصية مرموقة من النظام «البائد»، فربما أراد، على هذا النحو، أن يقدم فروض الطاعة والولاء للقادم الجديد:

ليت أتون يتألق من أجله. ليت أتون يجعل فرعون مزدهراً^(٣٥).

أما عن الوزير نخت، فلم يبق منه سوى أثر بعد عين. ونعرفه أساساً من خلال منزله بتل العمارنة^(٣٦)، وبعض القلة القليلة، من النصوص التى توضح لقبه.

ومن بين شاغلى منصب المشرف العام الملكى، نذكر أنى، الشخصية البارزة المتميزة، كما كان إلى جانب ذلك، كاتب مائدة الملك وكاتب مائدة أتون. وتقدم مقبرته رقم ٢٣، عناصر معمارية فريدة فى بابها. ونشير تحديداً، إلى رواق أقيم عند المدخل الخارجى عند الجرف الصخرى. وقد تم إنجاز أعمال المقصورة الداخلية على أكمل وجه. إن خطوطاً كبيرة من الألوان، تتعاقب زرقاء فخضراء فزرقاء فحمراء، محدثة وحدة منسجمة من النضارة المتألقة. وعندما لحق أنى بالفرعون أخناتون، كان بالفعل شيخاً طاعناً فى السن. ولا شك، أنه كان قد شغل منصب المشرف العام على أملاك

أمنحوتب الثاني، والد جدّ العاهل الملكى الحالى(*)، أى قبل حوالى خمسين سنة. وربما اضطر أخناتون أن يلتمس العون من أقدم موظفى آبائه وأكثرهم إخلاصاً.

وفى عام ١٨٩١، كشف بارسانتى Barsanti فى مقبرة أنى، عن ستة ألواح حجرية نذرية، موضوعة فى كوات، ومهداة إلى أنى من قبل أفراد عائلته وأصدقائه. صيغة النصوص تقليدية إلى حدّ كبير، وتحديدًا تلك المتعلقة بتقديم قربان باقة الزهور الكلاسيكية من قبل پاخا، المشرف العام على الأشغال:

من أجل كائك، باقة من أتون، ليتها تعطيك النسيم العليل. ليتها تربط أعضائك. لبتك ترى رع، فى كل مرة يظهر متألقاً وتعبد، بينما ينصت إلى ما تقوله^(٣٧).

كما نذكر المشرف العام ماي، وهو محدث نعمة أيضاً، بفضل الملك، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان «رئيس كافة الأشغال».

انصتوا إلى ما أقوله، أنتم، يا جميع البشر، كباراً وصغاراً، سوف أروى على مسامعكم المنن التى أنعم بها على، الأمير. عندئذ سوف تقولون: «كم هو عظيم كل ما تمّ من أفعال من أجل هذا الإنسان الرقيق الحال!» وسوف تطالبون من أجله (أى من أجل الأمير)، بصفته رب القطرين، بأعياد يوبيلية أبدية، وبلا نهاية. عندئذ سوف يتصرف من أجلكم، تماماً، كما فعل من أجلى. (حيث أنه) الله مانع الحياة. كنت إنساناً رقيق المنشأ، سواء بانتسابى إلى أبى أم إلى أمى، لقد صنعنى الأمير، فساعدنى على «ارتقاء الدرجات».... عندما كنت إنساناً ضيق الحال. وبفضله تعاظم أهل بيتى عدداً، وجعل عائلتى كثيرة العدد، وجعل جميع رجالى يعملون من أجلى. وعندما أصبحت سيد مدينة، جعلنى أخالط الكبراء والأصدقاء، فى حين كنت (أصلاً) من أبناء الطبقة الدنيا. وأعطانى يومياً طعاماً وغذاءً، أنا الذى كنت (فى سالف الزمان) استجدى الخبز^(٣٨).

(*) أمنحوتب الرابع - أخناتون هو ابن أمنحوتب الثالث، ابن تحوتمس الرابع، ابن أمنحوتب الثانى. (المترجم)

هل تكشف هذه الترقية المفاجئة التي تُمنح لبعض الرجال المتواضعي المولد، عن رغبة في الإبتعاد عن طيبة وكبرى عائلاتها القوية النفوذ؟ ولكن ماذا نقول عن حالة رعموزا؟ أم تعنى بالنسبة للعاهل الملكى المارق المتمرد، محاولة للخروج من عزلته والصعوبات التي صادفها فى سعيه إلى «تجنيد» معاونين جدد؟

إن مشاهد قيام الملك والملكة بتوزيع الهدايا، من شرفة القصر، على قدر كبير من الروعة والنضارة.

فى مقبرة پا ون نفر - (أى «الإسم الجميل») - فى تل العمارنة وتحمل رقم ٧، وكان ساقى الملك، نشاهده يرقص فرحاً، أمام العاهلين الملكيين، وقد ازدان عنقه بخمس قلادات من ذهب، بينما تُعد له هدايا جديدة، ويقوم خادم بمسح عنقه بالأدهان^(٣٩).

أما مقبرة توتو وكان «أول العاملين» فى خدمة الملك، فقد احتفظت بنص الخطبتين المتبادلتين، بمناسبة مراسم الإستقبالات الملكية هذه.

● الملك:

أنتم، أيا كبراء الجيش ورؤساءه، الواقفين فى حضرة فرعون، إنى أرغب فى منح هدية غير عادية... لم يسمع أحد، أنها سلّمت من قبل، إلى غيره من الكبراء. هذا ما سأفعله من أجل توتو، كبير أمناء القصر، بسبب حبه لفرعون... إن فرعون، سيده الصالح، يحمل كبراء البلد قاطبة ورؤساؤه، على إعطائه فضة وذهب... وثياب وأدوات أكل نحاسية...

● ثم يتحدث توتو شاكرًا:

أنت، أيها السيد الصالح، الأمير القوى الشكيمة، صاحب الثروات الطائلة والحياة المديدة والمعالم الصرحية الشامخة! إن كل تعليماتك تظهر ظهور تعليمات آتون، رب قرص الحياة، والذي يُصدر الأوامر فى السماء، على مدار الأيام. أنت

حياتى. أنا مزدهر عندما أشاهدك، (فأنت) ملايين من أنهر النيل. كم هو حى نشط، من يضعه فى قلبه!... وفيرة هى الهدايا التى يقدمها فى صورة فضة وذهب، وأكثر مما يستطيع المرء أن يحملها على ساعديه. فمن أجلك، يسطع آتون الحى، ليطمئن قلبك، على مر الأيام، أيا واع إن رع، الجميل مثل آتون، يا صاحب الحياة المزدهرة... أببك المتألق الذى جاء بك إلى الدنيا. إنه يعطيك بريقه، وكل من على الأرض يشاهدون أشعته، (جميع) البشر والحيوانات من كافة الأنواع، وكل من يسير على قدميه. فالجميع، يشاهدون آتون عند شروقه... وتبقى أنت ثابتاً فى منصبك، للزمن الأبدى، أيها (*) الشمس الذى (*) جاء به آتون إلى الدنيا، أيا نفر خپور رع - واع إن رع، الذى يأتى إلى الوجود بالأجيال بعشرات الآلاف... وتجدد شبابك مثل آتون الحى (٤٠).

لا نلتقى فى تل العمارنة، سوى بالقليل من مقابر ضباط الجيش. ونذكر ماهو الذى كان يلقب «رئيس المچاو (فى خدمة) أخناتون»، فهو قائد شرطة محلية إذن، وقد طلب تسجيل مشاهد فريدة فى بابها، فى مقبرته رقم ٩، فتصور قيام العاهل الملكى بالتفتيش على دفاعات المدينة ومشهد آخر يصور ماهو شخصياً فى جولة تفتيشية داخل المدينة. كان النحات عندما قام بتصوير أخناتون، على متن مركبته التى يقودها بنفسه، عند خروجه من المعبد، يميل أسلوبه إلى شىء من الألفة والتبسط وقدر من روح الدعابة. فتصاحبه نفرتيتى التى تصرفه ثرثرتها، عن قيادة المركبة التى يزيد من صعوبتها، ما تفعله الأميرة الشابة مريت آتون من استئارة أحد الجياد بواسطة عصاً. كل ذلك يبطئ من سير المركبة الملكية وما يزيد من هذا التباطؤ، أن الحرس والرسميين، ومنهم الوزير الاكرش، يهرولون أمام المركبة (٤١).

ومن الجدير بالملاحظة، أنه من بين مقابر جبانة تل العمارنة بأسرها، انتهى العمل من حجرة دفن مقبرة ماهو فقط، كما أنها الوحيدة، بلا شك التى استخدمت مدفناً.

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى المصرية القديمة. وليستقيم المعنى، كسرنا قواعد اللغة، وأبقينا كلمتى «أيها» و«الذى» فى المذكر. (المترجم)

ظلت ضرائب جزية الإمبراطورية تتدفق على تل العمارنة. كانت جزية الجنوب، تأتي بفضل جهود نائب الملك تحوتمس وفطنته. وفي مقبرة حويا، المشرف العام على الأملاك الملكية، لبیت الملكة الأم تتي، صُورَ إحتفال تسليم ضرائب الجزية، في العام ١٢. فنشاهد الملك والملكة، عند خروجهما من القصر، وقد جلسا، جنباً إلى جنب، في محفة من ذهب، يحملها اثنا عشر رجلاً على أكتافهم. ويلتف ساعد نفرتيتي حول خصر الملك، إنه وضع آخر، يعطى ملمحاً مألوفاً ويكشف عن خصوصية حميمة، لمشهد يفترض على كل حال أن يكون رسمياً. إن أميرتين تسيران على أقدامهما خلف المحفة تصاحبان والديهما. إن ستة من حاملي المراوح، يحركون مراوح كبيرة. ويصاحب الموكب الرسميون وكبراء الدولة. وأمامه يسير حويا مسبقاً بستة جنود^(٤٢). إنه طابور طويل لدافعي جزية الجنوب والشمال.

اليوم الثامن، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات، من العام ١٢ ... يظهر ملك مصر العليا ومصر السفلى، نفر خپور رع - واع إن رع، متآلقاً، إلى جانب الزوجة الملكية العظيمة نفر نفرو أتون - نفرتيتي، على المحفة الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص، لتسلّم جزية سوريا وبلاد كوش، من الغرب ومن الشرق، حيث اتحدت كافة البلدان، في بلد واحد. كما أن الجزر الواقعة في قلب الشديدة الأخضرار، تقدم الجزية للملك، (الجالس) على العرش العظيم في أخت أتون، ليتسلّم منتجات كل البلدان الأجنبية، واهباً هذه الأخيرة نسمات الحياة^(٤٣).

ما زال تسليم الجزية مستمراً. ولكن الإمبراطورية الشاسعة التي أسسها آباء أخناتون الفاتحون الأشاوس، ماذا حلّ بها في عهد هذا الملك الشاب الذي ركّز جل اهتمامه، على ما يبدو، في المسائل الروحانية وعشق السلام، فعاش عاهل العمارنة في عالم مغلق، من الأحلام الصوفية.

٤- السياسة في حالة ضعف خطير

إن ما يبرز، بادئ ذي بدء، من المراسلات التي عُثر عليها في تل العمارنة، هو الإستياء الشديد الذي أبدته البلدان الأجنبية الصديقة لمصر. كان كرم أخناتون في

تعامله مع حلفائه أقل بكثير، مقارنة بآبائه، فنضبت شحنات الذهب. الأمر الذي ترتب عليه تقلص الهيبة التي كانت تتمتع بها مصر حتى الآن.

فقد أرسل آشور - أوباليت الأول، ملك آشور، خطاباً إلى فرعون يقول فيه:

إلى نيفوريا^(*)، إلى أختي، الملك العظيم، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك، آشور - أوباليت، الملك العظيم، ملك آشور. من أجلك، من أجل بلدك، من أجل بيتك، فلتسر الأمور على ما يرام. لقد سُررت جداً، عند استقبال موفديك، ومن شدة إهتمامي بهم، طلبت منهم الجلوس أمامي. وأرسلت لك كهديّة، مركبة ملكية جميلة، سبق أن قدتها أنا شخصياً، بالإضافة إلى ختم من لازورد الجبل.

أهذه هدية ملك عظيم؟ في بلدك، الذهب كالتراب: يكفي على المرء أن يجمعه. لماذا لا تستطيع أن تحول عنه عينيك؟ في نيتي تشييد قصر جديد. ابعث إليّ ذهباً، بقدر ما يكفي لزخارفه! عندما أرسل سلفي آشور - نادين - أهلي موفداً إلى مصر، عاد إليه محملاً بعشرين تالان^(**) ذهباً. وعندما أرسل ملك هاتيجابالت^(***) (بلاد الحوريين) إلى مصر، موفداً لمقابلة والدك، أرسل هذا الأخير في المقابل، عشرين تالان ذهباً. إلا أنني مثل ملك هاتيجابالت، ومساوياً له، والذهب الذي ترسله، لا يكفي لمجرد تغطية نفقات الموفدين الذين أبعثهم إليك، في زهابهم وإيابهم.

إذا كانت تبتغي حقاً الصداقه، أرسل لي ذهباً بكميات وفيرة. هذا البيت بيتك: أرسل لي موفداً، وسوف أرسل لك ما تحتاج إليه^(٤٤).

ومقارنة بالمراسلات المتبادلة مع أمنحوتب الثالث، أصبحت اللهجة أكثر تحفظاً،

(*) الدلالة الصوتية بالخط المسماري للقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى: نفر خيروع. (المؤلفة)

(**) (التالان الواحد يساوي ٢٦ كيلو جراماً. (المترجم)

(***) الاسم الذي أطلقه الآشوريون على بلاد الحوريين.

وأقل ودأ^(٤٥). وللأسباب نفسها، باتت العلاقات أكثر توترًا أيضًا مع بورنابورياس، ملك بابل، الذي كتب إلى أخناتون، متحدثًا بالعبارات الآتية:

إلى نيقوريا^(*)، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك بورنابورياس، ملك بابل. أما عن نفسي، فكل شيء على ما يرام. من أجلك، ومن أجل بيتك ونسائك وأولادك وبلدك وكبرائك وجيادك ومركباتك، ليت يكون كل شيء على ما يرام!

منذ أن تبادل أسلافى وأسلافك عبارات ودية، وقدموا لبعضهم البعض، الهدايا الجميلة ولم يرفضوا طلبات الأشياء الجميلة التي تقدم بها أحدهم إلى الآخر، حدث أن أرسل أخى سبيكتى ذهب، هديةً! حسنًا، فأرسل لى الآن، ذهبًا بكميات وفيرة، بقدر ما كان أسلافك يرسلون. وإذا كان شحيحًا (فى الوقت الراهن)، فأرسل لى نصف الكمية التي كان يرسلها أسلافك. كيف إذن، ترسل سبيكتى ذهب فقط؟ أما الآن، فتجرى أعمال ضخمة فى المعبد وأنا معنى الآن إلى حد كبير، بتنفيذها. ابعث لى ذهبًا بكميات وفيرة! وأبلغنى كتابةً، بكل ما تحتاجه من منتجات بلدى، لترسل إليك^(٤٦).

وفى خطاب آخر، يتبرم، ملك بابل نفسه، بأن الذهب المرسل إليه من نوعية رديئة.

منذ عصر كارينداس^(**)، ومنذ أن وصل بانتظام موفدو أسلافك لدى أسلافى، فحتى الآن كان الملكان تربطهما علاقات وطيدة. والآن تربطنا، أنا وأنت علاقات وطيدة. إلا أن موفدك قد جاءوا ثلاث مرات على التوالي، ولم ترسل لى، أى هدية جميلة، وأنا شخصيًا لم أرسل إليك أى هدية جميلة: فلا شيء من أجلى له قيمته، ولا شيء من أجلك له قيمته. إن سبائك الذهب العشرين التي أتى بها الموفد الذي أرسلته، لم تعطنى حقى وافياً تاماً. فعندما وضعت فى الفرن، لم يخرج منه سوى ما يعادل خمس سبائك... وما خرج، اتخذ هيئة خبث الذهب، بعد أن برد...^(٤٧).

(*) راجع هامش الخطاب السابق. (المترجم)

(**) ملك بابل فى القرن الخامس عشر ق.م. (المؤلفة)

ترتب منذ الآن، على هذا الشح والإهمال والتقصير فى التعامل مع البلدان الأخرى، أن فقدت مصر الكثير من هيبتها المعنوية التى كانت بحق مصدر فخر لها. كان الذهب من المقومات الهامة فى السياسة الدولية، وأجاد أسلاف ملك العمارنة استخدامه استخداماً ناجحاً. ومن جهة أخرى، لم يشغل أخناتون باله كثيراً، على ما يبدو، فى مراعاة الأعراف السائدة، فلم يتمسك بالرسميات المتعارف عليها، الأمر الذى كان يُنظر إليه فى الشرق باعتباره إهانة خطيرة^(٤٨).

وفى رسالة من بورنابورياش نقراً أيضاً:

منذ يوم وصول موفد أخى (إلى جوارى)، وأنا مثقل بالمرض، حتى أن موفدك لم يتناول طعاماً ولم يشرب ماءً، فى وجودى. سوف تسأل موفدك وسوف يخبرك كم كنت معتل الصحة، فما من عشب طبى واحد، عافانى. فلما كنت مريضاً ولم يقم أخى بمواساتى، استشطت غضباً على أخى، وتبرمت قائلاً: «ألم يعلم أخى أننى كنت مريضاً؟...» وإذا بموفد أخى يتحدث على النحو التالى: «لا يتعلق الأمر ببلد مجاور بحيث يحاط أخوك علماً، فيدعوك بالصحة والعافية. إن ملك أخيك يمتد على بلد قصى... فهل يعقل أن يعلم أخوك بمرضك ولا يرسل إليك موفده؟... فالآن،... (وبعد أن علمت) بطول الرحلة، فقد تبدد غضبى على أخى وزال تبرمى^(٤٩).

يا لها من مباحكات ولجاجة فى غير محلها. ولكن تلك كانت الأعراف السائدة^(٥٠)، وغض الفرعون الجديد الطرف عنها ولم يتلزم بها.

ظل أمنحوتب الرابع عند موقفه، من توشراتا، ملك الميتانى، فلم يعره أى إهتمام. حتى أن الملك الميتانى قد طلب من تى التدخل لدى ابنها، بهدف استمرار العلاقات الودية بين الدولتين:

إلى تى ملكة مصر. هكذا يتكلم توشراتا، ملك الميتانى. ففيما يخصنى، كل شىء على ما يرام. وفيما يخصك، فليكن كل شىء على ما يرام، وبالمثل فيما يخص بيتك وابنك وتانوخييا^(٥١)، ابنتى وزوجة ابنك، وفيما يخص بلدانك وجنودك وكل ما تمتلكين، فليكن كل شىء على ما يرام، إلى أبعد الحدود! إنك تعرفين، أننى كنت

أحافظ على صداقة طيبة مع زوجك نيموريا، وأن زوجك نيموريا، كان يحافظ معى على صداقة طيبة. وما كنت أكتبه وأقوله إلى زوجك نيموريا والكلمات التى كان نيموريا يكتبها إلى ويحدثنى بها، كنت أنت وجيليا ومانى^(٥٢) تعرفونها. أما أنت، فتعرفين أكثر منهم جميعاً، كل الكلمات التى تبادلناها. ولا أحد يعرفها أفضل منك. لاحظى، فقد قلت (للموفد) جيليا: «قل لسيدك: إن زوجى نيموريا، قد أبرم مع والدك معاهدة صداقة، وقد حافظ على هذه الصداقة نحوك. إنه لم ينس الصداقة التى عقدها مع والدك، ولم يوقف السفراء الذين كان يوفدهم. ولا تنس، الآن صداقتك مع أخيك، نيموريا. أما فيما يتعلق (بالمالك) نيفوريا (أمنحوتب الرابع)، فليكن رأيك فيه حسناً وقدّره أفضل تقدير. ولا توقف السفراء الذين توفدهم». كنت قد أقمت مع زوجك نيموريا علاقات صداقة، أهم من تلك التى كانت قائمة، من قبل. والآن سوف أبقى على هذه الصداقة مع ابنك نيفوريا، فتزيد عشرة أضعاف. إنك تعرفين كلمات زوجك نيموريا حق المعرفة، ولكن الهدايا التى كان يقوم زوجك بإرسالها، لم تقومى بتسليمها إلى، بأكملها.... كنت قد طلبت من زوجك، متحدثاً بالكلمات الآتية: «هل فى وسع أخى أن يعطينى تماثيل من الذهب ومن اللازورد الجميل؟» ولم أحصل عليها. وقام ابنك نيفوريا، بإرسال تماثيل من الخشب المذهب، ومع ذلك، ففى بلد ابنك، من الذهب بقدر التراب... ترى، أمكذا تكون الصداقة! (٥٢مكد).

يبرهن هذا الخطاب، على أن الملكة تى كانت متوقدة الذكاء، حادة الذهن، فى الشؤون السياسية، ملّمة من ناحية إلاماً تاماً بأحداث الدبلوماسية والحياة السرية فى قصور الملوك الآسيويين ومجالسهم وحاشيتهم، وأن أخناتون من ناحية أخرى، ظل بعيداً كل البعد عن الحقائق السياسية، رغم أن أحداثاً جسام وخطيرة، كانت على وشك الوقوع، ترتبط بصعود نجم قدرات الحيثيين وزوال الميتانى عن المسرح الدولى.

ويذهب پول جاريللى^(٥٣) Paul Garelli، أنه كان من مصلحة مصر، فى مواجهة طموحات الحيثيين فى شمال سوريا، ومع الضعف والوهن الذى أصاب الميتانى، أن تعهد بمهمة الدفاع عن المناطق الساحلية والحدودية إلى زعيم محلى، يجد تحت تصرفه موارد شخصية. وهكذا، فإن ريب حداً، زعيم بيلوس، وتابع مصر الأمين، كان

مسئولاً مسئولية تامة عن إرسال القوات العسكرية والدعم المالى من قبل فرعون، فى حين كان عبديو عشرتا، ملك آمورو، فى وسعه فرض سيطرته على هذه المناطق، بوسائله الخاصة. واختار أخناتون التعاون مع هذا الزعيم المريب، لأنه لم يكن فى نيته، التدخل عسكرياً. كان هذا الموقف التسويفى، والإنحياز للسلام، ينطوى على مخاطر ومجازفات جسيمة.

ويبدو، أن تمرداً ضد هيمنة الحيثيين، قد وقع فى شمال سوريا. وقام سوبيلوليوما بقمع هذه الحركة قمعاً رادعاً وفورياً. ولوضع حد للدسائس التى كان يحيكها الميتانيون فى هذه المناطق، قام ملك الحيثيين باقتحام الميثنانى ووصل إلى العاصمة واشوجامى وعاث فيها سلباً ونهباً. واضطر توشراتا أن يهرب مؤقتاً. ومن خلال سلسلة من التحركات العسكرية، استولى سوبيلوليوما، بعد ذلك، على كل المناطق الواقعة بين لبنان ونهر الفرات. ولم يستجب أخناتون للإستغاثات الملحة الصادرة عن المدن الفينيقية التى بقيت على ولائها لمصر. وظل ينتهج سياسة ملتوية وانتهازية، متجنباً التورط أو التدخل. بينما كانت الإمبراطورية تتقوض وينقرط عقدها.

كان أزيرو قد خلف والده على عرش آمورو. كان شخصية عظيمة الأهمية، يقوم بدور حاسم فى معالجة الموقف القائم، بالنظر إلى تواجد قوات الحيثيين حتى شاطئ نهر العاصى، وهو الحد الفاصل بين منطقة النفوذ المصرى ونفوذ الخاتى. وسوف يواصل الملك الأمورى سياسة توازن بين أقوى دولتين فى ذلك العصر، كأسلوب أمثل للحفاظ على مصالحه. ودعم أزيرو سيطرته على شاطئ البحر المتوسط من بيبلوس وحتى أوجاريت. وإذ أمره فرعون منذراً، بضرورة الحضور إلى مصر لتقديم تقرير يوضح موقفه، رفض الحضور، زاعماً أنه يدافع عن الممتلكات المصرية ضد تحرشات الحيثيين، ومن ثم صعوبة مغادرة بلده فى هذه الظروف العصيبة، وفضلاً عن ذلك، كان له، فى شخص توتو، حليفاً مخلصاً، فى بلاط العمارة. وانتشرت الفوضى واجتاحت أرض كنعان وربما كان أزيرو المحرض عليها. وسعى الأمراء المحليون فى سيشم أو جيزر، إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب جيرانهم. وفى بيبلوس ذاتها تفجرت القلاقل، إذ حاول بعض الأعيان أن ينضموا إلى حزب أزيرو. ولما كان

ريب - حدًا، قد بلغ من السن أرذله وأصابه المرض، قام أخوه بطرده من المدينة. فلجأ إلى بيروت، ثم استسلم. وسلّمه آزيرو إلى أهل صيدا الذين قتلوه. ولكن زعيم الأموريين، الذى كان له شركاء ضالعون معه، فى تل العمارنة الذى توجه إليها، نجح فى تبرئة نفسه فى نظر أخناتون. فهل كان فرعون مخدوعاً أو بالغ الضعف؟ وعلى كل حال، فقد ظل يحجم دائماً عن التدخل.

وخلال هذه الفترة، ضمّ سويلوليوما شمال سوريا، إلى مملكة الحيثيين بروابط قوية. وقدم إلى أبنائه الممتلكات المصرية القديمة منحة لهم: ونذكر على سبيل المثال، حلب التى سلّمت إلى الأمير طيليبينو. واختفت نهائياً حدود الفرات. ومن الآن، استقرت مناطق نفوذ كل من الخاتى ومصر على جانبى نهر العاصى. وترتب على ضعف فرعون أن مواقع استراتيجية وتجارية، على أكبر قدر من الأهمية، أصبحت خاضعة للحيثيين.

كان سويلوليوما، ملكاً ماهراً وباسلاً ومقدماً، فشجّع موقف الحياد الإجرامى الذى اتخذه أخناتون، وذكره بالتحالف المبرم مع أبيه أمنحوتب الثالث، فأبقاه فى خموله، بعيداً عن أى نشاط، فكان موقفاً خطيراً شكّل تهديداً على مستقبل مصر:

أجل، إننا نجدد الخطابات التى أرسلتها إلى أبيك والرغبات والأمانى التى أفصح عنها أبوك. أيها الملك، أنا لم أرفض شيئاً، كان أبوك قد طلبه. أجل، أيها الملك، لقد انجزت كل شىء، والرغبات والأمانى التى أفصحت عنها لأبيك، لم يتجاهل أبوك منها شيئاً، بل أعطانى كل شىء^(٥٤).

كما التمس أيضاً قرضاً مالياً. وتجددت الصداقة السابق إبراهيم.

وربما بدأ يساور أخناتون بعض القلق، فى هذا العالم الشرقى الذى يموج بالإضطرابات. كان ملك مصر قد حرّم من مساندة دولة الميتانى، بعد ما أصابها من وهن بالغ. ولما كان تحالف الحيثيين، قد أصبح، من جانب آخر، أمراً مشكوكاً فيه، أخذ فرعون مصر يسعى إلى إيجاد حليف فى الشمال، من أجل إعادة التوازن السياسى الذى يتوقف عليه أمن وسلامة أقاليمه الآسيوية. ولما كان نجم آشور قد أخذ

آنذاك، يعلو ويصعد، أرسل أخناتون موفدين إلى بلاط الملك آشور - أوباليت، يقترحون عليه إبرام تحالف، واستقبل الموفدون استقبالاً حاراً وتم الترحيب بعروض الصداقة التي قدمها فرعون، وانتهاز آشور - أوباليت الفرصة ليطلب من أخناتون عشرين تالان ذهب، ليستطيع الإنتهاء من إقامة القصر الجديد الذي شرع يشيده.

ولكن استشاط بورنابورياس الثاني، ملك بابل، غضباً، عندما علم باقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مباشرة بين بلاط كل من آشور وتل العمارنة، فقد كان ينظر إلى الآشوريين باعتبارهم من «أتباعه». ففي الخطاب الذي أرسله إلى فرعون ليطلبه بإعطائه قدر من الذهب^(٥٥)، يكتب أيضاً، ليقول له:

لم أقدم أنا، على إرسال هؤلاء الآشوريين، فهم من أتباعي، ترى كيف حدث أن بادروا بالمجيء إلى بلدك، من تلقاء أنفسهم؟ فإذا كنت تحبني، لا تسمح لهم بأن يعقدوا فيه، أى صفقة. فاصرفهم صفر اليدين.

ولما كان أخناتون حريصاً على ضمان صداقة الآشوريين، إلا أنه كان لا يريد، مع ذلك، قطع علاقاته مع بابل، مهما كلفه ذلك، وإذا واصل سياسته الملتوية، البعيدة كل البعد، في واقع الأمر، عن أى فكر ثاقب أو بصيرة نافذة، فقد ارتبط مع بابل بعلاقات نسب جديدة: فلجأ، تفضلاً منه، إلى سلوك إستثنائي غير مألوف، عندما وهب أميرة مصرية لتقترن بأحد أبناء بورنابورياس الذي حضر ليقيم في بلاطه، كما طلب من جانبه، أن يتزوج من إحدى بنات ملك بابل. ولكن وقف هذا الأخير منه، موقفاً متعجباً متعالياً، فاشتراط عليه توفير موكب حراسة قوى، ليرافق ابنته إلى مصر.

في هذه اللحظة، عقد بورنابورياس العزم على القيام بتقارب، على قدم المساواة، مع آشور، تدعيماً للسلام الذي لا غنى عنه لتأمين سلامة القوافل، ونلاحظ، إذن، تنسيقاً، في جهود الحكومتين لردع إغارات قبائل السوتيين المرهوبة الجانب، وما تقوم به من سلب ونهب، فكانت عصاباتهما تصيب الطرق التجارية بالشلل. وفي سوريا، حيث يتجمع المغيرون، قبل أن يرتكبوا أعمال السطو، كان الموفدون والتجار، الآشوريون والبابليون، على حدّ سواء، يتم القبض عليهم، في أغلب الأحوال، ويذبحون

ذبحاً. ورفع كل من آشور - أوياليت وبورنابورياش شكواهما إلى أخناتون، واتهموه بالتخاذل والخمول. كانت مصر العمارنة - قد تخلت أيضاً عن واحد من أقدم الإمتيازات التي كانت تتمتع بها، منذ عصور موغلة في القدم، وهو القيام بدور شرطى الصحراء.

عندئذ عُقد قران، جَمَعَ بين ابن بورنابورياش ووريثه، وابنة آشور - أوياليت: ومن هذا الزواج وُلد ابن. ولما كان وريث بورنابورياش، قد وافته المنية مبكراً، تدخل ملك آشور فى بابل، عند وفاة بورنابورياش، لتأمين وراثة العرش للطفل الذى انجبته ابنته. هكذا خضعت حاضرة الفرات العظيمة للهيمنة الآشورية.

ومن الآن، صارت قوى ثلاث تتقاسم عالم الشرق: مصر التى أضعفها تخاذل الفرعون وخموله. والخاتى التى سرعان ما ستُنزل الهزيمة بالميتانى بشكل قاطع ونهائى وتخضعها لتبعيتها وأخيراً آشور مع بابل. هكذا تفتت الإمبراطورية المصرية، شيئاً فشيئاً وانقرط عقدها.

وفى الجنوب أيضاً، لا يبدو قيام حملات عسكرية، للإغارة سواء على النوبة أو على السودان.

وواصل أخناتون سياسة التشييد التى التزم بها أسلافه، فأقام المعابد التى أطلق عليها أيضاً اسم چم آتون، على غرار المعبد الذى شيده فى الكرنك فى السنوات الأولى من عهده. فأقامها فى كوة وسيسى، تحديداً. وعلى أرض هذا الموقع الأخير، الذى يبعد ٢٧٠ كم إلى الجنوب من وادى حلفا وإلى الشمال قليلاً، من الجندل الثالث، شيد أخناتون أيضاً، مدينة محصنة بجبانته. إن أعمال التنقيب التى تمت بمعرفة الجمعية البريطانية لأعمال التنقيب فى مصر Egypt Exploration Society، قد سمحت بإعادة تصميم المبنى المقدس الذى ما زالت ثلاثة من أساطينه، واقفة فى مكانها.

وانطلاقاً من الأطلال المبعثرة على الأرض، يمكن للمرء أن يتصور أنه بعد عبور الصرح، يصل إلى فناء يكتنفه، من الناحية الشرقية على الأقل، رواق يستند سقفه

على أربعة أساطين، ويفضى الفناء إلى مساحة مربعة، كانت مخصصة على ما يعتقد، لقدس الأقداس الذى كان غير مسقوف، بلا شك.

وعلى غرار كافة المدن القائمة فى أراضى الجنوب، كان يحمى مدينة سيسبى سور شاسع من الطوب، بأبراج بارزة مربعة. كان سُمك السور ٦٠ سم وطوله ٢٧٠ متراً وعرضه ٢٠٠ متر. كان تخطيطها على هيئة مربعات، يخرقها شارعان رئيسيان، يتقاطعان بزاوية قائمة، ليكونا أربعة أحياء.

إن أختاتون المجدد المبدع فى مجال الفن، عاش حلمًا روحياً، كان النهاية الطبيعية لسلسلة طويلة من التطور، فأهمل شئون السياسة الخارجية، إهمالاً تاماً أو عاجها برعونة. كان شخصاً مثالياً، عنيفاً وغير متسامح، عاش بعيداً عن حقائق زمنه والمصالح الجوهريّة لإمبراطورية مصر.

٥- العودة إلى طيبة بعد الوفاة

فى عام ١٩١٠، بنىما كان تيوبور ديفيز Theodore M.Davis نصير علم المصرىات وراعيه، يقوم بأعمال التنقيب فى المقبرة رقم ٥٥ من مقابر وادى الملوك، توصل إلى أن هذه المقبرة كانت تخص الملكة تى، بالنظر إلى تكرار ذكر اسم الملكة، فى سياق المدونات^(٥٦). ولكن تبدد هذا الوهم، عندما قام إليوت سميث Elliot Smith بفحص المومياة المسجاة داخل التابوت، ليكتشف أنها لرجل^(٥٧). عندئذ، اقتنع هو وڤيجال Weigall، بأن المومياة تخص أختاتون، إستناداً إلى أن الأشرطة الذهبية التى كانت تحيط بالجسد، تحمل اسم ملك العمارنة. ودحض ديرى Derry هذه الفرضية^(٥٨). إذ لاحظ، عند فحص رأس المومياة، أنه عريض الرأس platycéphale مثل رأس توت عنخ آمون، واستنتج من هذه الملاحظة أن المومياة هى مومياة سمنح كارع، أخو هذا الأخير، وخليفة أمنحوتب الرابع: ولكن غياب مدونة تحمل اسمه، بدا أمراً غريباً.

إن فرضية، تقدم بها سير آلان جاردنير^(٥٩) Sir Alan Gardiner تبدو، الأقرب إلى الصواب. فعند وفاة أخناتون، بعد حكم دام تسع عشرة سنة، في ظروف نجهلها، كانت تجربة «مدينة - الشمس» قد باءت بالفشل. كان أعداء الملك، يقودهم أهل طيبة وعلى رأسهم المؤمنون بالإله آمون، كثيرين ويسعون إلى الأخذ بالثأر والانتقام. ومن ثم، استحال دفنه في المقبرة التي كان قد أعدها لنفسه، في تل العمارنة. فدمرت التوابيت والمتاع الجنائزي. ولم يشأ أصدقاؤه أن يتركوا جسده دون دفنه. ولا شك، أنهم وضعوا مومياء الملك في تابوت حجري قاموا بترميمه، وهكذا استطاعوا أن ينقلوا سرّاً الرفات الملكية إلى طيبة، بعد أن سُجِّيت في تابوت، معدّ للملكة تى، عثروا عليه. ثم دفنوه في مقبرة شاغرة في وادي الملوك. وتفسّر هذه الفرضية الكثير من الوقائع.

إن طيبة، وهى المدينة التى هجرها أمنحوتب الرابع، أصبحت مأواه الأخير ومرقد بعد وفاته. هكذا لحق بأسلافه وأجداده وانضم إليهم.

وبالتدريج أهملت تل العمارنة. وربما بقيت فيها نفرتيتى أيضاً بمفردها، لفترة قصيرة، فى المقر الرسمى المسمى «قصر أتون»، الواقع شمال المدينة.

الفصل التاسع

وهن الملوك وضعفهم

عند وفاة أمنحوتب الرابع، حول عام ١٣٥٤، على وجه التقريب، تربّع سمنخ كارع على عرش مصر.

وما نعرفه عن سنوات حكم هذا الملك، القصيرة للغاية، شيئاً لا يذكر. تُرى من هو إذن؟ ساد الاعتقاد لفترة طويلة، أنه كان زوج أول بنات أخناتون، إذ تزوج مريت آتون، كبرى الأميرات. ومن ثم لم تكن تجرى فى عروقه دماء ملكية.

إن فرضيات جديدة تنظر إليه الآن باعتباره، أحد أبناء أمنحوتب الثالث الذى انجبه فى فترة متأخرة من حياته، أو ابناً للملك أخناتون، رزق به من إحدى محظياته، أو أيضاً أحد أبناء أى^(١)، من كبراء العمارنة، والذى كان على ما يعتقد والد نفرتيتى. يفترض كل ذلك، وجود علاقات عائلية بالغة التعقيد، يصعب علينا، فى الوقت الراهن، استجلاؤها، بكل وضوح، على أرض الواقع. واستناداً إلى مختلف الفرضيات هذه، ربما كان من الصواب القول بأن سمنخ كارع، كان أخا توت عنخ آمون، البكر.

ويبدو بوضوح أن أخناتون كان ميالاً إليه، ويكنّ له إهتماماً خاصاً وجعله قرب نهاية حياته، شريكاً فى العرش. بل وربما أوفد الزوجين الشابين إلى طيبة للتفاوض مع كهنة آمون، للتوفيق بين الطرفين وإزالة ما بينهما من خلاف. وعند وفاة، أخناتون إختار كهنة طيبة المشارك الشاب فى الحكم، ملكاً على البلاد، فى حين يبدو أن نفرتيتى وزمرتها من التابعين المخلصين، قد نصّبوا توت عنخ آمون، ملكاً فى تل العمارنة. وبالفعل، فقد عثر فى موقع «قصر آتون»، على عدد من القطع الأثرية تحمل أسماء توت عنخ آمون وزوجته، الأميرة عنخ إس إن يا آتون^(٢)، ثالث بنات أخناتون.

ولمدة ثلاث سنوات، على ما يبدو، ظل توت عنخ آمون يقيم فى العمارنة التى غادرها على ما يظن عند وفاة سمنخ كارع لينتقل إلى طيبة، بعد أن استنكر علناً إيمانه بالإله آتون. إن خاتمين عثر عليهما فى العمارنة، كانا يحملان منذ ذلك الحين، اسم توت عنخ آمون، أى «صورة آمون الحية» وليس آتون. ومن الآن سوف تسمى زوجته عنخ إس إن يا آمون.

١- توت عنخ آمون وعودة الآلهة

كانت صدمة سنوات العمارنة عنيفة، فهزت مصر هزاً شديداً. ولكن الآلهة عادت، والمعابد والإزدهار استردت حيوتها ونشاطها.

لقد تعددت الفرضيات حول أصل توت عنخ آمون ومنبته، ويُنظر بالفعل إلى بعضها باعتبارها الأقرب إلى الصواب^(٣).

ولكن الأمر المؤكد، أن توت عنخ آمون كان عمره تسع عشرة سنة، عندما وافته المنية، بعد أن حكم مصر تسع سنوات. كما تم الكشف عن مقبرته سالمة^(*)، عام ١٩٢٢، بمعرفة هوارد كارتير Howard Carter الذي كان يعمل لحساب لورد كارنارفون Lord Carnarvon. ففي دياجير ماضى التاريخ. يسعد المرء أحياناً، عندما يتشبه بوقائع محققة.

وتشهد قائمة ألقاب الملك الصبى على استعادة الدين الرشيد القويم لمكانته السابقة:

حورس: الثور القوى، نو النهضة الجميلة.

السيدتان: هذا الذى (تبلغ) قوانينه (حد) الكمال ويهدى القطرين.

حورس الذهبى: هذا الذى تزهو تجلياته من جديد ويرضى الآلهة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: رع هو رب الصيرورات (نب خپورع).

ابن رع: توت عنخ آمون، أمير هرمونتييس^(**).

ومن جديد، احتفلت الأقصر بالعيد الكبير وسط فرح وتهليل الجموع:

إنك تتألق رويداً رويداً، أيا آمون - رع، فى حين تستريح فى مركبك المقدس. الأرض وجموع البشر يهللون لك، والبلاد قاطبة فى عيد. إن ابنك البكر، هذا الذى فتح جسدك، يصطحبك إلى الأقصر. إنك تعطيه ملكاً أبدياً وسنوات لا نهاية لها. إنك تحميه بواسطة الحياة والثبات والقوة. إنك تساعد على الظهور متألقاً كأمر الحبور

(*) أو شبه سالمة، كما سيتضح من سياق هذا الفصل. (المترجم)

(**) حقاً إيون شمع: بالمصرية القديمة. (المترجم)

والفرح. إنك تكافئه بمنحه ملايين السنين وأعياد يوبيلية بمئات الآلاف... إنه ابنك، إنه محبوبك... أما هو، فقد صنع لك تمثالاً وأدخل الفرحة والتهليل إلى معبدك، كعادة من أتوا من قبله. إنك تعيد، من أجله، الإخضرار إلى بسالتك، في مواجهة الجنوب، والقوة في مواجهة الشمال (نلاحظ منذ ذلك الزمن ظهور صياغات سوف تسود في عصر الرعامسة). إنك تكشف النقاب لصالحه، عن الأسرار... على جميع الدروب. إنك تجعل مدة حياته أشبه بمدة السماء ويسطع فيها كما يسطع القرص (أتون)....

إن فرقة البحارة الذين يسحبون حبل قيдам المركب المقدس يقولون صائحين: «أيا آمون المتألق في مركبه، مثل رع في السماء، الأرض قاطبة تجتمع لتحيتك عند رؤية... على صفحة النهر. والبلد فرح، من أقصاه إلى أدناه، عندما تُدخل السرور إلى الحريم المقدس، مكانك عند المرة الأولى»^(٤).

إن جماهير الشعب الفرحة المهللة، تستقبل عودة الآلهة وتجدد الأعياد التقليدية. وتستعيد طيبة مكانتها بصفتها العاصمة السياسية والمدينة المقدسة.

في البداية، سوف يودّ توت عنخ آمون أو مستشاروه إصلاح ما ألحقه سلفه من دمار، بالمباني المقدسة، فضلاً عن إعادة الشعائر الدينية إلى سابق عهدها. إن لوحاً حجرياً كبيراً يعود تاريخه، إلى العام الرابع من عهده، عثر عليه في معبد الكرنك، يقف شاهداً على هذا الإهتمام:

اليوم التاسع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام الرابع، من عهد صاحب الجلالة...

(تلى قائمة ألقاب توت عنخ آمون)

...محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين وسيد الكرنك و(محبوب) أتوم، الهليوبوليتاني^(*) وسيد الأرضين و(محبوب) رع - حور أختي و(محبوب) پتاح - الذي - يوجد - جنوب - جداره، سيد حياة الأرضين و(محبوب) تحوت، صاحب الكلمات الإلهية - هذا الذي (توت عنخ آمون) يتجلى متألقاً على عرش حورس الأحياء، مثل أبيه رع - على مدار الأيام - إنه الإله الكامل، ابن آمون، صورة ثور -

(*) نسبة إلى هليوبوليس. (المترجم)

أمه، النطفة المتألقة، البيضة المقدسة التى انجبها أمون ذاته، أبو القطرين، الذى يَفْطُر من فطره وينجب من أنجبه، فمن أجله تجتمع با وات^(٥) هليوبوليس، ليولد لاتمام مُلك يغالب الأيام، إنه حورس، له الدوام، للزمن اللانهائى، الأمير الكامل الذى ينجز أفعالاً خيرة لأبيه وللآلهة جمعاء. إنه يرمم ما كان قد تهدم ليحوّله إلى مبنى، للزمن الأبدى، إنه يدحر الشر فى ربوع القطرين، لتستقر محله الحقيقة - العدالة، استقراراً راسخاً، كما جعل الكذب ملعوناً، إذ أصبحت البلاد (من جديد) كما كانت عند المرة الأولى.

يحرك هذا النص فى النفس مشاعر، تصاحب استرجاع الإيمان فى إطار من الفرح والحبور. وينجح، من خلال فيض وفير من الكلمات، فى مزج أسماء جميع الآلهة بعد أن استعادت مكانتها. هكذا استرد الإنسان حرية تصور وإختيار شكل الله، - نثر - الأقرب إلى عقله وإلى قلبه.

عندما ظهر صاحب الجلالة بصفته ملكاً، كانت معابد الآلهة والآلهات، بدءاً من إلفنتين وحتى مستنقعات الدلتا ... قد تهدمت وصارت خراباً. واكتسح الدمار المقاصير وصارت أماكن مُقفرة تنمو فيها الأعشاب. أصبحت الأقسام المخصصة لقدس الأقداس، كأنها لم توجد أبداً. (وما كان فى الماضى) حوائطها، أصبح (الآن) درياً تدوسه الأقدام. كانت البلاد فى بؤس وشقاء، لأن الآلهة هجرتها. فإذا أرسل جيش إلى فينقيا لتوسيع حدود مصر، لا يحقق أى نجاح. وإذا تضرع أحدهم إلى إله طالباً شيئاً ما، فلا يستجاب لطلبه، بأى حال من الأحوال. وإذا تضرع أحدهم على النحو ذاته إلى إلهة، فلا يستجاب لطلبه بأى حال من الأحوال. كانت قلوبهم وأجسادهم، فى حزن شديد، وتلحق الضرر بكل ما سبق إبداعه.

وبعد أن انقضت أيام على ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألّقاً على عرش أبيه، ليحكم مناطق حورس، بعد أن أصبحت مصر و الصحراء(*) خاضعتين لسلطانه. وتقدمت البلاد بأكملها منحنية بسبب قوته.

(*) حرفياً السوداء والحمراء. (المؤلفة)

وذات يوم، كان صاحب الجلالة فى قصره، القائم ضمن أملاك
عاً خيراً كما رع^(١٠)، مثل رع فى السماء. كان صاحب الجلالة مشغولاً بشئون البلاد
وتصريف الأعمال اليومية لحكومة الشاطئين. وتشاور عندئذ (مع نفسه)، ملتمساً
النصح من قلبه، ساعياً إلى تحقيق بعض الأعمال الخيرة، مهتماً بما قد يكون مفيداً
لأبيه آمون، فنحت (على سبيل المثال) صورته المقدسة من الذهب الخالص، (بغية) أن
يفعل أكثر مما أنجز من قبل.

وشكّل إذن (تمثالاً) لأبيه آمون، محمولاً على ثلاثة عشر وتدّاً. كان صورة رائعة
صنعت من الذهب الخالص واللآزورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى
السابق، كان جلالة هذا الإله المقدس محمولاً على أحد عشر وتدّاً. كما شكّل (تمثالين
للإله) پتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره، سيد حياة الأرضين: كانت صورة
مقدسة صنعت من الذهب الخالص (محمولة) على أحد عشر وتدّاً، صورة رائعة
صنعت من الذهب الخالص واللآزورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى
السابق، كان جلالة هذا الإله محمولاً على سبعة أوتاد.

كما صنع صاحب الجلالة قطعاً رائعة للآلهة (الأخرى)، فشكّل تماثيلها من
الذهب الخالص ومن أفضل ما جادت به الصحارى، فرمّم معابدها للزمن الأبدى،
ووفّر لها الخيرات للزمن اللانهائى. وحدّد لها قرابين يومية، ووفّر لها على الأرض
(مؤونتها) من الخبز. وما فعله تجاوز من بعيد ما سبق أن صنع، منذ زمن الأجداد.

ونصب الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة وخدام الإله، (وتم اختيارهم) من بين
أولاد كبراء كل مدينة من المدن. كانوا أبناء رجال مشهود لهم بالعلم أو من الأسماء
المعروفة.

وأكثر من موائد القرابين المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والنحاس،
بغزارتها التى لا حدود لها. وملاً المخازن بالخدم والخادومات الذين جادت بهم ضرائب
الجزية التى تخص المغانم الملكية. وزاد من مخزون المعابد، إلى الضعفين أو الثلاثة أو

(*) أملاك تحوتمس الأول، فى منف. (المؤلفة)

الأربعة أضعاف: وكان يضم الفضة والذهب واللازورد والفيروز والأحجار الكريمة من مختلف الأنواع والكتّان الملكي والثياب البيضاء والكتّان من أرق الأصناف والزيت والراتنج والأدهان... والبخور والمر. كانت جميع هذه الأشياء الجميلة والطيبة بأعداد لا نهاية لها. كما نَجَّرَ صاحب الجلالة مراكب الآلهة، لتتساب على صفحة النهر، وصنعها من خشب الأرز الناضر، من أفضل الأنواع الواردة من مرافئ المشرق، وأحسن ما جادت به نجاو(*)، وُغشَى (هذا الخشب) بأفضل أنواع ذهب الصحراء. فكانت (المراكب) تضيئ النهر.

كما خصص صاحب الجلالة خدماً وخادماً ومنشداً وراقصات ليلتحقوا بالقصر الملكي. وسوف تدفع مرتباتهم خصماً من حسابات القصر، من خزينة رب القطرين. سوف أعمل أنا على حمايتهم والمحافظة عليهم من أجل آبائي، جميع الآلهة، إرضاءً لها ولانجاز ما يبتغيه كاؤها على الدوام وتقوم بالتالي على حماية البلد المحبوب.

عندئذ تسعد قلوب الآلهة والآلهات المقيمة في هذا البلد. وأصحاب المقاصير يهللون فرحاً، والشايطان يصيحان ويبتهجان، إن فرحاً صاخباً كان ينتشر في ربوع البلاد، إذ أصبح وضع البلاد فجأة وضعاً يبعث على السرور. وكانت سواعد آلهة التاسوع في معبدها(**)، تُكثر من المذائح والتهليل بينما امتلأت أيديها بالأعياد اليوبيلية، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائي. إن الحياة كلها والقوة كلها، اللتين كانتا لديها، هما من أجل أنف الملك، الحورس الابن المحبوب، الذي كان قد ولد من جديد، من أبيه آمون - رع، ملك الآلهة الذي أتى به إلى الدنيا، كي يولد أيضاً من جديد.

• ملك مصر العليا ومصر السفلى [نب خپور رع]، الذي يحبه آمون، وابنه البكر بكل معنى الكلمة، ومحبوبة، وحامى أبيه الذي أنجبه. إن ملكه هو ملك أبيه أوزيريس.

• ابن رع [توت عنخ آمون، أمير هرمونتيس]، الابن المفعم بالخير من أجل من

(*) موقع إلى الجنوب من بيبيلوس. (المؤلفة)

(**) هليوبوليس. (المؤلفة)

أنجبه، إنه صاحب العمائر العديدة، والروائع المتعددة، الذى شيد المعالم الأثرية من أجل أبيه آمون، وفقاً لاستقامة قلبه، (الملك) صاحب النهضات الجميلة، العاهل الملكى الذى يعيد تشكيل مصر.

كانوا، فى ذلك اليوم، فى القصر الجميل، الواقع فى أملاك عا خپر كا رع(*)، الصادق القول. كان صاحب الجلالة فتى فى مقتبل العمر، وفتحاً مغواراً، لا يعير جسده أى إهتمام. كان خنوم قد سواه. إن ساعده قدير وقوته عظيمة، تفوق قوة الباسل الصنديد. وشجاعته الجسورة مثل شجاعة ابن فوت. وساعده قدير مثل ساعد حورس. فلا نظير له بين صناديد جميع البلدان مجتمعة. كان عالماً مثل رع، حرقياً (ماهرًا) مثل پتاح، حكيمًا مثل تحوت، فيرسى الأسس والقواعد. كانت أوامره ذات تأثير موات... وكلماته بارعة...

• ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، رب البسالة [نب خپر كا رع]، الذى يعيد السلام إلى البلاد.

• ابن رع الذى من صلبه، محبوبه وسيد كل بلد من البلدان الأجنبية، رب التجليات المتألقة [توت عنخ آمون، أمير هرمونتيس]، الموفور الحياة والثبات والقوة، مثل رع للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى^(٦).

بادئ ذى بدء، يعتبر هذا النص شاهداً على تحرر روحانى. ولا يخامرنا أدنى شك، أن البعض قد أوحى به إلى الملك - الطفل، ابن الثلاث عشرة سنة. إنهم أهل طيبة بطبيعة الحال، ولكنهم ليسوا وحدهم. ولا شك، أن تحرير النص، قد تم فى منف، وليس فى طيبة.

ويبدو أن الإكراه وأساليب العنف التى عانت منها البلاد على امتداد أربع عشرة سنة، قد جعلت العبادات القديمة وكلها دون تمييز، تشد إليها، أكثر فأكثر، من ظلوا على إيمانهم بها، لتصبح أكثر جاذبية فى نظرهم. وبطبيعة الحال، بقيت طيبة

(*) من ألقاب تحوتمس الأول. (المترجم)

ومنف وهليوبوليس، كبرى الأماكن المقدسة. ولكن قراءة هذا النص، تترك إنطباعاً، بأن النظام الملكى اضطر أيضاً أن يطمئن رجال الدين الآخرين ويقدم لهم كافة الضمانات. فكل عبادة محلية، بعد أن وفّر لها العامل الملكى، كل الخيرات وكل الثروات، انصهرت فى نزعة تلفيقية *syncretisme* شاملة، تدور حول شخص الملك لتضمن له من جديد، القوة والإستمرارية، مقابل المنافع والإنعامات التى منّ بها عليها. إن رد الفعل ضد التشدد والتعصب فضلاً عن العودة إلى المعتقدات التى تعود إلى آلاف السنين، اتخذت منحىً وجدانياً حماسياً.

إن الإسهاب اللفظى الذى ستميز به مدونات الرعامسة، ربما تعود أصوله إلى عصر «ما بعد العمارنة». وعلى كل حال فإن مفردات لغة الفقرة الأخيرة، من هذا النص وصوره، تذكرنا بإلحاح بالترانيم التى نُظمت من أجل الرعامسة.

هكذا استعاد رجال الدين اختصاصاتهم. ولكننا نفتقر إلى الوثائق التى تعرفنا بتشكيلاتهم. بل إننا نجهل اسم كبير كهنة آمون.

هكذا عادت مصر «تتدفق من جديد كالنهر فى مجراه». وفى شتى المجالات، أُستؤنفت الروابط مع التقاليد الموروثة، ولا سيما تلك التى تؤكد استحالة قهر الملك فى مواجهة الأعداء والحيوانات المتوحشة، على حدّ سواء.

كما لا يبدو أن الصبى توت عنخ آمون قد قاد حملات عسكرية، بالرغم من هذه المدونة المسجلة على كتلة حجرية جاءت من الكرنك، وتصور أسرى نوبيين وجنود مصريين:

إن زعماءهم يتساقطون بسبب المذبحة التى أنزلها بهم، بعد أن تعدّوا على حدود صاحب الجلالة^(٧).

ولا يخامرنا أدنى شك، أن هذه الجملة لا تروى حدثاً حقيقياً، ولكنها تصوغ مجموعة كلمات ذات فاعلية سحرية.

وإذ سار الملك - الشاب على هدى التحامسة، فقد صور نفسه صياداً بارعاً، يقتنص الأسود والثيران البرية^(٨).

فعلى صندوق كبير جادت به مقبرة العاهل الملكى(*)، فإن الربط بين الأعداء والحيوانات الشرسة، يلتزم بتوازن واضح كل الوضوح.

وقد دُوت في وسط الغطاء، قائمة بألقاب الملك، وصُور صيد الأسود، على اليسار:

الإله الكامل، ذو القوة المقتدرة، العاهل الملكى الذى يتم الإتحاد معه، الذى يصارع الأسود، فعزيمته وهمته، هما عزيمة وهمة، ابن نوت.

وعلى اليمين، صُور صيد حيوانات الصحارى:

الإله الكامل، ربوة الذهب، الذى يثير البلاد بألوهيته، الذى يتجلى متألّفاً على مركبته مثل رع عند شروقه. لقد أمسك بسهام أبيه رع، بعد أن لاحظ وجود جمع من حيوانات الصحراء، عندئذ روضها صاحب الجلالة فى لحظة قصيرة.

وعلى أحد جانبي الصندوق، نشاهد على اليسار مذبة الزوج:

الإله الكامل، صورة رع، المتجلى متألّفاً فوق البلدان الأجنبية، مثل رع عند شروقه، ذابحاً كوش، هذا البلد الخسيس وموجهاً سهامه نحو أعدائه.

وعلى اليمين، نشاهد مذبة الآسيويين:

الإله الكامل، ابن آمون، البطل الذى لا مثيل له، رب القدرة، الذى يسحق مئات الآلاف، فيقعون من طولهم(**).

وعلى الجانبين الأمامى والخلفى من الصندوق، صُور توت عنخ آمون فى هيئة أبو الهول وهو يدوس أجساد النوبيين والأجانب^(٩).

تلك المشاهد التى تتطابق وتتقابل، وفقاً لمنظومة من التوازن، تعتبر سمة مصرية خالصة. إن المواضيع القديمة والصور الجديدة تتداخل. وبالفعل، فبعض

(*) يمكن مشاهدته فى الرواق رقم ٤، من الطابق العلوى من المتحف المصرى. (المترجم)

(**) كما نقول فى العامية المصرية. (المترجم)

النعوت التي تطلق هنا على الملك، سوف نلتقي بها، في كثير من الأحوال، عند الرعامسة.

إن عهد توت عنخ آمون عهد انتقالي، عند نهاية إمبراطورية التحامسة، وقبل إمبراطورية الرعامسة، على وجه التحديد، التي استشعرها حور إم حب ومهد لها.

ومن شخصيات عصر توت عنخ آمون، التي نعرفها أكثر من غيرها، نذكر حوى نائب الملك فى النوبة، الذى يشار إليه أحياناً أيضاً، باسم أمنحوتب المدعو حوى، وإن كانت هذه التسمية نادرة نسبياً. وقد خلف حوى على ما يبدو مباشرة تحوتمس الذى شغل هذا المنصب إبان عهد أخناتون.

كان حوى يحمل الألقاب الآتية:

الابن الملكى فى كوش، رئيس بلاد الجنوب، حامل المروحة على يمين الملك، المشرف العام على قطعان آمون فى بلاد كوش، المشرف العام على صحارى ذهب آمون، صنديد صاحب الجلالة فى سلاح المركبات.

ومن واقع مدونات مقبرته رقم ٤٠ فى قرنة مرعى بغرب طيبة، كان أيضاً: «أبا إلهياً». وربما يرتبط هذا اللقب بنشاطه فى معبد بلدة فارس الواقعة فى السودان إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا.

وقد طلب أن يُصورَ فى مقبرته، الإحتفال بتنصيبه فى حضرة توت عنخ آمون وسفره على متن مركبه، إلى منطقة عمله الجديد، بعد أن رافقته والدته حتى رصيف المرسى، وقد صورت بشعرها الأبيض، وفى فارس كان الرسميون فى استقباله. ومع إضطراره بواجبات منصبه، نقل إلى العامل الملكى مواد الجزية التى جباها من أراضى الجنوب. إنه موكب طويل، على قدر كبير من الطرافة والجاذبية، بسبب ميله إلى الواقعية، الموروثة على ما يعتقد من عصر العمارنة.

إن زعماء النوبة، بملامحهم شبه الزنجيه الواضحة كل الوضوح، قد حضروا بأشخاصهم، واضعين الريش على رؤوسهم والأقراط الذهبية العريضة فى آذانهم. إن

أميرة على متن مركبة، يجرها ثوران مرقطان باللونين الأسود والأصهب، تسير خلف الموكب^(١٠). كما ترافق الموكب، نساء من أبناء البلد ومعهن أولادهن. وجى بكميات ضخمة من الذهب فى هيئة حلقات وأشياء مصنوعة من الذهب، بالإضافة إلى زرافة مربوطة فى حبل يمسك به حارسان. إن أربع أبقار سمينه، من النوع المطلوب فى مصر، كانت تسير بخطى متثاقلة. كما أن أمراء كوش حاضرون وخطابهم إلى العاهل الملكى الذى يقولون عنه أنه «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة»^(١١)، كانت صياغته، منذ ذلك الزمن، ذات نبرة سوف تسود فى عصر الرعامسة.

واستناداً إلى تصاوير مقبرته، فإن حوى أيضاً، هو الذى ينقل إلى الملك، جزية بلدان آسيا.

وإذا تركنا جانباً، المشاهد الفولكلورية التى تشهد على استمرار الإمبراطورية فى حدود معينة، وإن أصابها قدر كبير من الضعف وكان وجودها غير مؤكد فى الشمال، فالنصوص المنحوتة فى مسكن الأبدية الذى يخص حوى، تؤكد على استعادة أفكار تقليدية. ونذكر فى هذا المقام الترنيمة إلى أوزيريس، المحركة للمشاعر:

الابن الملكى فى كوش، رئيس بلدان الجنوب، حوى الصادق القول، إنه يتحدث قائلاً: «التحية لك، أيها (الإله) العظيم، رب التجليات المتألقة، صاحب الألقاب المهيبة والريش العالى ومالك التاج^(*) آتف^(١٢)، الإله الأوحى المتفرد، الذى أتى بذات نفسه إلى الوجود، الذى يثير الخوف فى كافة البلدان. إنى قادم إلى جوارك لمشاهدة وجهك وتأمل جمالك. لقد بلغت (الآن) مرتبة المبجل السعيدة، بفضل ما أنعم به على، الإله الكامل. لقد أصابنى الشياخ وتقدمت بى السن. (فيما مضى) كان ساعداً شديداً القوة، عند إدارة شئون البلاد من أجل الملك. لم أتفوه (أبداً) بالأكاذيب ولم أرتكب شراً... ولا يمكن أن ينسب إلى، فعل شرير، ولم يوجد خطأ ارتكبته. فالذى يمتدحك سيكون مرتاح القلب فأنا (دائماً) من يهدى المشاحنات. ولذلك، امنحنى طريقاً عظيماً

(*) (لمزيد من التفاصيل حول مختلف التيجان، راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١، ص ٨٠ و ٨٥-٨٩. (المترجم)

فى الجبانة، أتح لى إمكانية الخروج والدخول من رو - ستا و^(١٣)، فىمكننى أن أرتوى عند شطآن النهر وأن أشبع».

من أجل كا الابن الملكى فى كوش، حوى، الصادق القول^(١٤).

كان حوى بناءً عظيمًا. فشيدَ معبد فارس من أجل كا الملك توت عنخ آمون. وقد عُرف هذا الأثر تحت اسم «هذا الذى يُرضى الآلهة ونب خپور رع». كانت زوجة حوى تشغل فيه منصب «رئيسة حريم نب خپور رع».

كما شيدَ معبدًا فى نياتا مكرسًا للإله آمون - رع، فكان الوكالة الأكثر تطرفًا، ناحية الجنوب، منذ عهد تحوتمس الأول، وعند مستوى الجندل الرابع، فى قلب السودان، عند سفح جبل بركل. وإلى الجنوب الشرقى منه، أقيم المعبد. كان ارتفاع جبل بركل - ومعناه «الجبل المقدس» - مئة متر فقط، فوق السهل، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من البر الأيمن للنيل. ولما كان معزولاً، كان يشرف على المنظر الطبيعى للمنطقة، واكتسب منذ وقت مبكر جداً، توقيراً وتبجيلاً متميزين. والمعبد الذى شيده حوى، تولى إثنان من ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وهما سيتى الأول ورعمسيس الثانى بتوسيعه. وقام الملكان السودانىان پى عنخى وطهرقا، من الأسرة الخامسة والعشرين، بإدخال تعديلات جوهرية عليه.

١ - كنز وادى الملوك

كان البحث عن مقبرة توت عنخ آمون، يجرى على قدم وساق، وأثناء قيام ديفيز Davis، بأعمال التنقيب فى وادى الملوك، فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٩، عثر على بعض القطع التى تحمل اسم الملك الشاب، كما استطاع الكشف عن ست عشرة مقبرة، لم تكن من بينها مقبرة هذا العاهل الملكى.

كان هوارد كارتير Howard Carter، بفضل المساعدة السخية التى قدمها له لورد كارنارفون Lord Carnarvon، قد حاول على امتداد ستة مواسم متواصلة الكشف عن هذه المقبرة. إنه يروى شخصياً تجربته المثيرة^(١٥)، فىقول: «لم نكن قد

وجدنا شيئاً. والمنقّب وحده يدرك إلى أى مدى يصبح هذا الفشل مثبتاً للهمم. كنا قاب قوسين والإعتراف بهزيمتنا، وبدأنا نتأهب لمغادرة الوادى والبحث عن فرص مواتية فى مكان آخر. وما أن غرسنا معولنا، فى محاولة أخيرة، حتى حققنا كشفاً يتجاوز من بعيد أكثر أحلامنا إفراطاً فى التفاؤل».

فى الرابع من شهر نوفمبر ١٩٢٢، عندما وصل كارتز إلى موقع العمل، أُستقبل فى جو من الصمت، كان له وقع فى النفوس. كان العاملون قد كشفوا عن درجة سلم، منحوتة فى الصخر، كبداية لمغامرة بالغة الأهمية: «كان الأمر أكثر من رائع، حتى يصدق المرء. ولكن مع مواصلة التنظيف، اتضح بالفعل أننا أمام مدخل سلم». واصلنا العمل بحرارة محمومة حتى اليوم التالى، وتم إزالة الرديم والرمال من خمس عشرة درجة أخرى. كان السلم الذى يبلغ ١٦٠ سم عرضاً، وأربعة أمتار طولاً، يفضى إلى باب مستطيل، وضعت عليه أختام، وله ساكف من خشب. «وبحماس شديد، فحصت الأختام، على أمل التعرف على اسم صاحب المقبرة، ولكننى لم أعثر على أى اسم». كانت الأختام تحمل الصور المألوفة لأختام الجبانة الملكية: أى الإله أنوبيس ومن تحته الأقواس التسعة. ثم أحدث كارتز فتحة صغيرة فى الباب، ليتمكن من إدخال بطارية، وعندئذ لاحظ وجود ممر خلف الباب، مملوء بالأحجار والأنقاض، الغرض منها إعاقة أى محاولة لدخول المقبرة. وفى الوقت نفسه، لاحظ أنها لم تنجح، بلا شك، فى الحيلولة دون دخول البعض: فقد بقيت آثار فتحتين، أعيد تغطيتهما بالجص، وما زالت مرئية، الأمر الذى يبرهن على أن البعض قد دخل إلى المقبرة بعد وضع الأختام. «كانت لحظة محركة للمشاعر بالنسبة للمنقّب... فهناك ثمة شىء موجود، بكل تأكيد، خلف هذا الممر، واحتجت إلى كل رباطة جأشى حتى لا أندفع وأحطم الباب وأبحث عما وراءه».

وفى السادس من نوفمبر، وبدافع من الوفاء تجاه لورد كارنارثون Lord Car-narvon، أرسل إليه كارتز برقية يدعو فيه إلى الحضور. وجاءه الرد على الفور «سوف أصل الإسكندرية فى اليوم العشرين». وفى انتظار وصوله نظّف كارتز السلالم وأمام الباب. وفى الجانب السفلى، حالفه الحظ، عندما عثر على أختام تحمل اسم توت عنخ آمون.

وبعد أن صُوِّرت، فُضِّت الأختام يوم ٢٥ نوفمبر وهدم الباب. وتم إخلاء الممر من الأحجار والرديم التي وضعت على امتداد ٧٦٠ سم. ومن الشواهد الأخرى، على أن البعض كان قد دخل سرّاً إلى المقبرة، وجود نفق ضيق جداً، كان قد حفر ليُملأ بعد ذلك، ببقايا أحجار سوداء. وينتهي الممر عند باب ثانٍ.

«كان اليوم التالي (٢٦ نوفمبر) يوماً مشهوداً، لم أعرف من قبل أروع منه، ولا أتوقع مثله ما حييت. وطوال صدر النهار، تواصلت أعمال التنظيف، كانت بطيئة بالضرورة، بسبب وجود بعض القطع الهشة وسط الرديم. ومع انتصاف فترة بعد الظهر، وعلى عمق ثلاثين قدماً أسفل الباب الخارجى، وجدنا أنفسنا أمام باب ثانٍ وضعت عليه الأختام وكان مماثلأً، على وجه التقريب، للباب الأول. كانت بصمات الأختام، فى هذه المرة، أقل وضوحاً، ومع ذلك، كان من السهل التعرف على أختام توت عنخ آمون والجبانة الملكية. هنا أيضاً، كانت آثار وجود فتحة وسدها واضحة على الجص. حتى هذه اللحظة، كنّا على يقين، أننا اكتشفنا خبيئة وليس مقبرة.... كان تقدمنا بطيئاً، بشكل يدعو إلى اليأس، وبينما كنّا نتابع العمل الجارى، رفعنا بقايا رديم الممر الذى كان يملأ الجانب الأسفل من الباب، ليظهر أمامنا الباب بأكمله، واضحاً جلياً. ودنونا من اللحظة الحاسمة. وببيدين ترتجفان، أحدثت فتحة ضيقة فى الزاوية اليسرى العلوية. وبقدر ما أمكن لقضيب حديدى أن يصل، كان الظلام والفراغ يدلان على أن الحجرة التالية خاوية.... وأشعلت الشموع، لتجنب خطر إحتمال وجود غازات. وبعد توسيع الفتح بعض الشيء، ادخلت من خلالها شمعة وألقيت نظرة على الداخل. كان لورد كارنارفون Lord Carnarvon وليدى إيفلين Lady Evelyn وكالندر Callender واقفين بجوارى متلهفين على سماع رأى. فى البداية، لم يكن فى وسعى أن أميز شيئاً. كانت شعلة الشمعة تتراقص، متأثرةً بالهواء الساخن المنبعث من الحجرة. وأخذت عيناى، تتكيفان مع الضوء المحدود ومن بين تفاصيل الحجرة انبثقت تدريجياً، من وسط غبش الحجرة، حيوانات غريبة وتماثيل وذهب، كان الذهب، يتألق فى كل مكان. وفى هذه اللحظة - التى بدت بلا نهاية بالنسبة لمن كانوا بجوارى، انعقد لسانى عن الكلام، من هول الإعجاب. ولما نفذ صبر لورد كارنارفون، من طول انتظاره، بادر إلى سؤالى بشغف: «تُرى، هل تشاهد شيئاً؟» وكل ما استطعت قوله هو

أننى تفوهت ببعض كلمات: «نعم، روائع ساحرة». وبعد توسيع الفتحة بعض الشيء،
لنتمكن معاً من مشاهدة هذه الروائع، ادخلنا مصباحاً كهربائياً... فالأول مرة، منذ
ثلاثة آلاف سنة، ينفذ الضوء إلى هذه الحجرة، مخترقاً ظلامها الدامس... واعترانا
الذهول، من شدة الدهشة».

وأول ما شاهدته كارتير ولورد كارنارفون الأسرة الجنائزية فى هيئة حيوانات
خرافية. وعلى السرير الأوسط تكدست صناديق صغيرة نفيسة وبعض المقاعد.
وشاهدا، ناحية اليمين تمثالين للملك، ويشيران، إذا صح القول، إلى حجرة الدفن.
كان الألبستر واللازورد والفيروز والعاج والفضة من مكونات الأوانى والحلى والمذبات
والعصى. وكانت مركبات مفككة تغطى الأرضية. والآلات الموسيقية، من أبواق
ومصلصات، تشارك، على ما يعتقد فى الحفلة الموسيقية المقامة فى العالم الآخر.
وعلى الأرض، كسف أوانى فخارية، وزهور كانت أصلاً جزءاً من باقات، وسلال
مقلوبة، تشهد جميعها على مرور السلاطين النهابين. وفى هذه الردهة، الملتزمة بالإتجاه
الجنوبى الشمالى، وفى خط عمودى على ممر المدخل، وطولها ثمانية أمتار فى
٢٦٠سم، عثر على ١٧١ قطعة، دون الأخذ بعين الاعتبار القطع التى كانت تزخر بها
الصناديق.

وعلى الجدار الشمالى من هذه الردهة، ووسط التمثالين السابق ذكرهما، كان
باب موصود يفضى إلى الحجرة الجنائزية التى لم تُفتح، فى الحال.

وبينما كان المنقبون يقومون بحصر محتوى الردهة، لاحظوا وجود ثغرة أحدثها
الصوص فى القسم الجنوبى من الجدار وباب جديد وضعت عليه الأختام، فتسللوا
عبر الثغرة التى بقيت مفتوحة إذ لم يسدها أحد. ودخلوا زاحفين إلى حجرة أصغر
من الردهة، أطلق عليها فيما بعد إصطلاحاً الملحق وكان يضم أعداداً أكبر من القطع،
مقارنة بالحجرة السابقة، ولكن فى فوضى تامة.

«حتى الآن، كان يعترينا حماس شديد، لم يترك لنا مجرد فسحة من الوقت
لنتبصر الأمر، ولكن الآن، ولأول مرة، أصبحنا ندرك ضخامة المهمة الشاقة الملقاة على

عائقنا وما يترتب عليها من مسئوليات. لم يكن هذا الكشف من الأمور المألوفة، وليس بالمهمة التي يمكن الإنتهاء منها في موسم عادي من العمل... وفضلاً عن ذلك، فقد فوجئنا بضخامة هذا الكشف ولم نكن مستعدين، على الإطلاق، للتعامل مع هذا العدد المهول من القطع الملقاة أمامنا على الأرض، في حالة سيئة من الحفظ، فكان من الضروري معالجتها أولاً، قبل مجرد لمسها».

كان خبر الكشف قد طبق الآفاق وانتشر حوله مختلف المعلومات. ويوم ٢٩ نوفمبر أقيم إحتفال «الإفتتاح» والزيارة الرسمية لبعض الشخصيات البارزة منهم **بيير لاکو Pierre Lacau** مدير مصلحة الآثار المصرية وكبراء رجال المجتمع في مصر. ويوم ٦ ديسمبر أغلقت المقبرة ووضعت تحت حراسة **كالندر Callender**، في حين انصرف كل من **لورد كارنارفون** و**كارتير**، لیتخذوا الإجراءات المناسبة، الأول في إنجلترا والآخر في القاهرة. ويوم ٢٢ ديسمبر وصلت الصحافة عند الموقع. ويوم ٢٥ ديسمبر وصل **ماسيه Mace** وبدأت عملية تصوير القطع وإخراجها.

كان لا يزال أمامنا مهمة فتح الباب المختوم الذي يفضى إلى حجرة الدفن.

وتحدد يوم الجمعة ١٧ فبراير. وفي الثانية بعد الظهر وبحضور جمع غفير، يتكون معظمه من علماء المصريين، وصل عددهم إلى عشرين من الشخصيات العلمية المصرية والفرنسية والأمريكية والإنجليزية، احتشد هذا الجمع أمام المقبرة. وفي الثانية والربع، ولج **لورد كارنارفون** و**كارتير** إلى داخل المقبرة، ليصلا إلى الباب الذي كان لا يزال محتفظاً بأختامه. واستطاعا من خلال فتحة صغيرة أن يلاحظا وجود ما يشبه جداراً من الذهب. وبعد فتح الباب، أدركوا أن ما شاهدها كان عبارة عن مقصورة ضخمة من الخشب المذهب، ارتفاعها ٢٧٥سم وعرضها ٣٣٠سم وطولها خمسة أمتار. كانت تشغل تقريباً بالكامل حجرة الدفن ومساحتها أربعة أمتار في ٦٤٠سم. وفي حقيقة الأمر، كانت هناك أربع مقاصير تتداخل الواحدة داخل الأخرى، الغاية منها تغطية التابوت الملكي وحمايته.

ورفع الباب. «كان في وسعنا الآن، أن نشاهد المقصورة، من الردهة، على ضوء الكشافات. وكلما رفعت الأحجار، وبينما أخذ المسطح الذهبي يتراعى لنا، كان ما

يشبه التيار الكهربائي يسرى فى أجسادنا، فارتجفنا من شدة الحماس الذى جعل المشاهدين الواقفين خلف الحاجز يرتعشون».

وعلى مقربة من المقصورة وضعت شارات جنازية، وبجوار الجدار الشمالى، المجاديف السحرية السبعة التى كانت تعين المتوفى على عبور مياه العالم الآخر. كانت جدران الحجرة مزدانة بالمشاهد المرسومة والمدونات. إنها مشاهد طقسية تصور توت عنخ آمون فى حضرة الآلهة.

كانت المقصورة الأولى من الخشب المذهب المكفت بعجينة زجاجية لازوردية اللون، والمقصورة الثانية مغطاة بستر من الكتان الرقيق، يميل إلى الإصفرار، ومرصع بزهور أقحوان من ذهب. أما المقصورة الرابعة التى صنع إفريزها وسقفها من كتلة واحدة، فكانت تضم حوض التابوت الجنازى المصنوع من الحجر الرملى، وسجلت عليه ألقاب الملك.

كما أن ثلاثة توابيت على هيئة موميا، وضع الواحد داخل الآخر، كانت تحيط بجسد الملك - الشاب، لرقدة كانت تريد أن تكون رقدة أبدية. كان التابوت الأول من الخشب المذهب وملفوفاً بأقمشة تذكرنا بالرداء المحبوك حول جسد أوزيريس، ويصور الملك ويده متقاطعتان على صدره، وتمسكان الصولجان والمذبة. وهما من شارات الملك، وكانتا من عجينة زجاجية زرقاء وحمراء. كان الوجه واليدان مصفحة برقائق من ذهب غير لامع، كإشارة إلى التحول الشمسى للمتوفى ورحلته النجمية الأبدية. كان التابوت تحيط به الإلهتان إيزيس ونفتيس بجسدهما الرقيق النحيف وسواعدهما، وتبسط أجنحتها الممدودة وتساعدان على بعث أوزيريس حياً. كانت الأدهان قد أريقَت أثناء المراسم الجنازية. ووضع إكليل من الزهور على الجبين.

وفى العاشر من أكتوبر ١٩٢٥، فتح التابوت الأول. كان الثانى مصنوعاً من الخشب المصفح بالذهب ومكفئاً بعجينة زجاجية متعددة الألوان. كان قد حشر حشراً فى التابوت الأول، حتى أنه كان من المستحيل إدخال خنصر اليد فيما بينهما. كانت تضمه الأجنحة المنبسطة للإلهتين نخبت وواحت حاميتى النظام الملكى. وعلى الصدر،

وضعت قلادة كبيرة من أوراق الزيتون والصفصاف، مختلطة بازهار اللوتس الزرقاء،
لتضمن للعاهل الملكى، استعادة نباتية للحياة وتجديدها.

عند فتح التابوت الثانى، شوهد التابوت الثالث، وهو من الذهب المصمت، وكان
ملفوفاً بنسيج كتانى أحمر اللون وأربع ألهاة تحميه بأجنحتها. وعلى الصدر، وضعت
قلادة من الزهور. كان هذا التابوت يزن ١١٠ كجم من الذهب الخالص.

وبدوره، فُتح فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٢٥. عندئذ، ظهر القناع
الذهبى. كانت صورة شخصية رائعة الجمال للعاهل الملكى، وقد وضع على مومياء
شبه متفحمة، من جراء تراكم الأدهان التى أريقت عند إتمام شعائر التحنيط
الطقسية. وعلى الجسد المحبوك بالأشرطة، وُزعت أكثر من ١٤٣ حلية من الذهب.

وفى الركن الشمالى الشرقى، من حجرة الدفن، كانت فتحة منخفضة جداً،
تصل هذه الحجرة بغرفة مساحتها أربعة أمتار فى ٣٥٠سم، تضم قطعاً نفيسة
مخصصة للشعائر. وأطلق عليها كارتير اصطلاحاً «حجرة الكنز».

إن الإبقاء على هذه الكنوز سليمة، وكلما تقدمت أعمال التنقيب، كان يثير
مشاكل عويصة مرتبطة بوسائل حفظها.

وتكشف التماثيل عن ملك شاب ممشوق القوام: والتمثالان المصنوعان من
الخشب، والمطليان بطلاء أسود لامع وكانا يحرسان مدخل حجرة الدفن، طولهما
١٧٠سم تقريباً. أما غطاء الرأس والصدريّة العريضة وأساور العضد والساعد والنقبة
والعصى الكبيرة والصولجان فبلون الذهب. إن الأسود والذهب لونا البعث واستعادة
الحياة: الأسود على غرار الإله أنوبيس الذى كان يعرف كيف يحافظ على أجساد
الموتى، والذهب على غرار جسم الشمس التى كانت تعرف دروب استعادة الحياة
وتجديدها، على مرّ الأيام. إن تمثالاً آخر، مذهب بالكامل، يصور العاهل الملكى،
بصفته حورس، وهو يقوم بأداء شعيرة دينية: إنه يقف فوق زورق خفيف من نبات
البردى، وهو من الخشب المطلى باللون الأخضر والمذهب، وقد شهر خطافاً، ما زال

حبله، وهو عبارة عن خيط من البرونز، ملفوفاً، ولكن يتأهب الملك الشاب لتسديده فى جسد فرس النهر - أى ست - عدو أبيه.

أما العصى́ الموضوعة تحت تصرف العاهل الملكى، فهى جديرة بالملاحظة فى أغلب الأحوال، بسبب جمالها أو فاعليتها. وخارج المقصورة الأولى عُثر على عصا مزدانة بزهور اللوتس المكفتة بالذهب والفضة وعجينة زجاجية، وعلى عصى́ من الفضة والذهب، أمام المقصورة الثانية، كان مقبضها يتخذ هيئة الملك الشاب. وبغية التأكيد تأكيداً سحرياً، على دور توت عنخ آمون، بصفته سيد الإمبراطورية، فإن الطرف الأسفل من عصا مخصصة للإحتفالات، يتكون من تجسيم لجسدى ووجهى أسيوى́ ونوبى́، وقد صورا ظهراً لظهر، واقدامهما فقط تتلامس. الأسيوى́ مقوس الأنف، غليظ الشفتين، وبلحية مدببة وعصابة رأس، ويرتدى رداءً لاصقاً له عباءة ذات ثنايا، ومثبتاً بواسطة زئار ذى صفوف أربعة. وقد نحت فى العاج المطعم بعجائن ملونة. أما الإفريقى فقد نحت فى خشب الأبنوس، وهو صورة نمطية تُبرز بوضوح ملامحه العرقية. وملبسه اللاصق من الخشب المذهب المزخرف زخرفةً جصية، والساعدان مربوطان بحبل. هكذا، فمع كل خطوة كان يخطوها الملك، كان أعداؤه يسفون التراب. هذا الموضوع الذى قد يتكون من شخص واحد أو اثنين، حسب الأحوال، يتكرر على غيرها من هذه القطع.

كما نلتقى بالمواضيع نفسها على سطح صناديق المركبات المذهبة التى عثر عليها فى الردهة وتشير إلى هيمنة الإمبراطورية: فنرى الأسيويين والنوبيين وقد قيّدوا بالحبال. وتكشف وجوههم وأوضاعهم عن واقعية أخاذة ومؤثرة وتشهد ولو شكلياً على قوة مصر. واللافت للنظر، حركة الخطوط المنكسرة التى تشكلها أجساد الأسرى. كما يلاحظ فى أغلب الأحوال، أن سواعد الأفارقة مقيدة خلافاً للأسيويين. إن معاملة كلا فريقى الإمبراطورية، مختلفة أيضاً فى فن النحت.

إن متاعاً طائلاً كان يلبي إحتياجات العاهل الملكى فى حياته الأبدية. وإذ يظل محتفظاً بوظيفته الملكية، كان فى وسعه التربع، فى قمة جلاله، على هذا العرش المصنوع من الخشب المصفح برقائق من الذهب والمطعم بالأحجار الكريمة وعجائن من

الزجاج المتعدد الألوان، المغطى فى بعض الأماكن برقائق من الفضة. كان محمياً حماية شعائرية. وبالفعل فإن قاعدة المقعد من القش المجدول وتستند إلى قوائم أسد، تُبرز ملامح رأسه المتوقعة فى القسم الأمامى. إن ذراعى العرش يتكونان من الأجنحة المنبسطة لثعبانين، وضع على رأس كل منهما التاج ^(*)، وفى لفطة حانية وحامية شاملة، كانا يطوقان الخراطيش الملكية. إن الصورة المنحوتة على ظهر العرش، سوف تساعد الملك كى يحيا من جديد اللحظات السعيدة، التى عاشها فى هذه الدنيا: فتحت أشعة الشمس ذات السواعد المنتهية بأياد ^(**)، بينما تقوم الأميرة عنخ - إس - إن - يا - آمون، وقد تحلّت بأفخر ما لديها، بمدّ يدها نحو زوجها الجالس على متكأ ^(***)، فى حركة كلها حنان ومودة. وما زالت أوضاع الأشخاص وملابسهم محتفظة ببصمات تأثير فن العمارنة، الذى غالب الأيام. فالأبدان متراخية والأطراف نحيلة، وثنائيا الثياب طويلة، فضلاً عن ألفة مشاهد الحياة الخاصة الحميمة. وخلف الملكة، باقة زهور مركبة. كل ذلك، فى إطار تألق الألوان والمواد النفيسة.

ويصور كرسى من خشب الأرز والذهب مواضيع أكثر تقليدية: ففى أعلى ظهره، تبرز الصورة المذهبة لشمس إدفو بجناحيها المنبسطين. وعلى الظهر ذاته، صور الإله حبح ممسكاً بغصن ملايين السنين، إشارة إلى أبدية الشمس التى يعبر عنها أيضاً القرص فوق رأس الإله والعلامة الهيروغليفية الدالة على الذهب التى يركع فوقها. إنهما عنصران متقابلان يؤطران إله الزمان الأبدى. والمقعد قاعدته مقوسة إلى أسفل ويرتكز على قوائم حيوان من السنوريات، تنتنى مخالفه على قواعد صغيرة من البرونز والذهب. إنه تصوير للرفقة الوطيدة التى لا نهاية لها، بين الملك، المتوفى فى نظر الأرض، وبين الجرم السماوى. هذه الرفقة التى تبرزها أيضاً النصوص المدونة على المقاصير:

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم (يا) سخمتى أى القوتين. ويتكون هذا التاج من

تاجى مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) ما زال موضوع العمارنة الثابت معمولاً به. (المؤلفة)

(***) ويقال له القوتيل. والمتكأ: كرسى منجد له ذراعان وظهر. المعجم الوسيط. (المترجم)

أنت باقى فى السماء، بينما تبجر على متن القارب المقدس لملايين السنين، بعد أن دحرت أعداء الشمس. أنت معه(*) فى السماء على النوام. إنك تنجز كل مهامك. إن أعضاءك هى أعضاؤه، لأنك ابنه(*) الذى يحيا فى الحقيقة -العدالة(١٦).

والمواضيع الذى تزخرف الأثاث، ترتبط فى الغالب بالشعائر الدينية. لقد ظلت أشكالها تغالب الأيام. هكذا «فمن المتفق عليه أن ننظر إلى متكأ ما، باعتباره مقعد العاهل الملكى بصفته كبير الكهنة، والمستخدم إبان المراسم الدينية، والذى سيصبح فيما بعد النموذج الأمثل لمتكأ أساقفة الكنيسة المسيحية. إن ظهره مرتفع ومقوس بعض الشيء، ومثبت على مقعد تتقاطع أرجله. والخشب مصفح فى بعض أجزائه بالذهب ومطعم بقطع صغيرة من الأحجار الكريمة والعجائن الزجاجية والأبنوس والعاج(١٧)».

وفى عداد أثاث توت عنخ أمون نجد المقعد الذى يمكن طيه بأرجله المتقاطعة، التى تنتهى بأعناق الإوز، وسوف يعاد استخدام هذا النموذج فيما بعد... فكان مصدر إلهام فى فرنسا فى عصر الديريكتورا(**) Directoire المعروف بولعه بمصر.

ومن أجل راحة توت عنخ أمون، صارت الأسرة ثمينة أيضاً، وتقدم حماية سحرية. نذكر على سبيل المثال، هذا السرير المصنوع من خشب الأبنوس، بقشرة من ذهب ومطعم بالعاج ومُلّة من القُنْب(***) المجدول وبقوائم حيوان السنوريات. وجانبى السرير مخرمة ونحتت عليهما صور للإله بس والإلهة تاوريس(****)، الكيانين الإلهين الراعين للنوم الحاميين له، والمكلفين بإبعاد الشياطين الضارة والمؤثرات المؤذية.

(*) (أى مع الشمس. ونذكر أن هذا اللفظ مذكر فى اللغة المصرية القديمة. ولذلك أبقينا ضمير الغائب فى المذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(**) نظام سياسى حكم فرنسا بعد الثورة الفرنسية فى الفترة من ١٧٩٥ وحتى ١٧٩٩. ومارس سياسة توسعية فى الخارج ومنها الحملة على مصر ١٧٩٨-١٨٠١. وعند سقوط هذا النظام تسلم نابوليون مقاليد الحكم. (المترجم)

(***) نبات حولى زراعى ليفى، تقتل لحاؤه حبالاً. المعجم الوسيط. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى تاورت. (المترجم)

إن بعض الأسرة المخصصة، بلا شك، للمراسم الجنائزية، كانت تنتهى برؤوس حيوانات، وصفها كارتير بالحيوانات الخرافية، عندما شاهدها فى غبش المقبرة، فى بداية الأمر، من خلال الفتحة الصغيرة التى أحدثها فى باب الردهة. ونتعرف فى هذه الرؤوس على تاوريس، وقد طليت بأكملها باللون الذهبى، وفمها فاغر، كاشفة عن أسنانها، أما أنيابها ولسانها فمنحوتة فى العاج. إن سريراً آخر، يصور رأس أسد ومقدمة جسده، وقد طليا أيضاً باللون الذهبى. والعينان من البلّور وأحيطتا بعجينة زجاجية زرقاء، وكذلك طرف خطمه. والغاية من وجودها هنا، حماية المتوفى والقضاء على أعداء الملك المحتملين بعد وفاته، بفضل قدراتها الرهيبة.

إن أعداداً كبيرة من الصناديق الصغيرة وأخرى مخصصة للملابس على قدر كبير من الروعة من حيث أعمال التجارة والصياغة وترصيع الخشب بالجواهر وخلافه، كما ساهم فى صناعتها النحاتون والرسامون وكانت مبعثرة على الأرض. ونذكر منها على سبيل المثال، صندوق الصيد الذى سبق ترجمة نصوصه. إنه نحت دقيق، تذكرنا رفته بالمنمنمات الفارسية، فكل وجه من هذه القطعة، تبرز فى وسطه صورة شامخة للملك المجد، على متن مركبته، بينما يشبّ الفرسان، فى وضع مائل، له جلاله ومهابته، فبزهو وغطرسة، يضع حداً فاصلاً بين جانبى التكوين. وصُور من خلف الملك، جنوده ورجاله، موزعين توزيعاً محكماً على صفوف ثلاثة. وتحت قوائم الفرسين، يهرول الأعداء أو حيوانات الصحراء، على حدّ سواء، تعبيراً رمزياً عن الخواء، يقابله على الجانب الآخر، النظام المصرى وفرعون الفائق القدرة، وقد تجسّداً تجسيداً تشكلياً وتصويرياً، من خلال خطوط تبلغ حدّ الكمال. كما أن صناديق أخرى، من الألبستر النقى أو من خشب الأرز المطعم بالأبانوس والعاج بغطاء مسطح أو محدب مزخرفة بمواضيع دينية أو غير مزخرفة أو تحمل الألقاب الملكية. وقد نلتقى بمشاهد ممتعة أحياناً، تنقل وقائع من الحياة الخاصة، وتحذو حذو فن العمارة: فعلى غطاء أحد هذه الصناديق النفيسة، وهو على هيئة ما يشبه المنضدة المائلة، ومصنوع من العاج المنحوت والملون، نشاهد الشابة الرقيقة عنخ إس إن يا آمون، وهى تقدم إلى الملك المستند على عصا طويلة، باقة كبيرة من الزهور المركبة، فى إطار من الزهور والحدائق. ومن الملاحظ أن الفن ما زال يحتفظ بلمسات المودة والحنو والأناقة وبعض «التشوهات» الموروثة عن عصر العمارة.

كما تصل أوعية العطور والكؤوس والأواني، إلى المستوى نفسه من الكمال الفنى. سوف يقول البعض، أجل إنها جميلة، فالخطوط لا تشويها شائبة، والمواد نفيسة. ولكن فى مصر، ينطوى الأمر، على المزيد. فكل شىء، يشد اهتمامنا بصفاته الجمالية، كان بالضرورة إسهاماً فى الصيرورات الأبدية للعاهل الملكى، وذلك بفضل شكله ذاته والمدونات المسجلة عليه. فهذه القطع بمثابة قواعد روحية بالغة التطور، ذات فكر ثاقب. إنه متاع سحرى، وجب عليه أن يكون جميلاً، فالمصرى المولع بالجمال، يعشق تناغم الخطوط وكمال الصور. فلننظر إلى هذه الكأس من الألبستر على هيئة زهرة اللوتس، وتحيط بها الكؤسيات(*) بالنقش البارز. والمقبضان على هيئة زهور متفتحة أو براعم، ويحملان صورة الإله حيج، مع سيقان ملايين السنين. هكذا، نجد أن الأبدية الشمسية غير معنية، ولكن الإشارة هنا إلى أبدية عالم النبات الذى يظل يستعيد حيويته على الدوام ويجدها. وعلى بطن الكأس، دونت أسماء العاهل الملكى تعبيراً عن الرابطة اللصيقة القائمة بينه وبين قوى الحياة. وعلى الحافة العلوية، يمتد دائرياً المتن الآتى:

ليت كأك (يظل) حياً، ليتك تكمل ملايين السنين، أنت يا من لا تنقطع طيبة عن حبها لك، أنت الجالس، ووجهك متجه ناحية رياح الشمال، وعيناك تتأمل الكمال^(١٨).

والحلى، وهى بكميات كبيرة، مبهرة. فهذه القلادة مكونة من عناصر نفيسة، ذات دلالة: فى وسط التكوين نشاهد جعران الفجر المجنح، إنه الإله خبرى، بدنه من العقيق الأبيض الشفاف والجناحان ينحنيان ناحية الداخل، يحدهما شريط ضيق من الذهب، كما أن ترصيعات من اللازورد والفيروز والعقيق الأحمر تشير إلى زغبه، ويحمل فوق مخليبه الأماميين قارباً مقدساً بضم العين وأجت وهى عين أوزيريس «السليمة» التى أعادها إليه ابنه حورس، حسب الشعائر الدينية. وفوقها مباشرة، قرص القمر باللون الرمادى، وهلال من الذهب، صُورَ على سطحه بالنقش البارز، أشخاص ثلاثة من الذهب أيضاً، يعتبرون ذروة هذا التصوير الرائع، ويمثلون الملك - الإله محاطاً بالإلهين رع وتحوت. هكذا نجد الملك مشاركاً فى كافة قدرات استعادة

(*) وريقات كأس الزهرة. (المترجم)

الحياة وتجديدها، على صعيد العالم الإلهي: من خلال حياة الأزهران: الشمس جرم النهار والقمر جرم الليل، وقيامه أوزيريس وبعثه حياً. و«يتفتح» الحلى جهة الأسفل، وكأنه تويج زهرة كبيرة مقلوبة. إنه عبارة عن مجموعة أزهار اللوتس بكؤوسها المتفتحة، وهى من الذهب واللازورد والعقيق الأحمر. هكذا جادت أنامل الفنان المصرى بقطعة نفيسة، هى من أروع كنوز توت عنخ آمون وأقيمها(*).

إن قلادة أخرى من الذهب واللازورد والعقيق الأحمر والفيروز والفلسبار الأخضر، تصور قارب الشمس وهو من الذهب، وفى وسطه الجعران خبرى من اللازورد، على رأسه قرص من العقيق الأحمر والذهب. وتكتنف الإله مباشرة، ثلاث علامات هيروغليفية؛ تشير إلى «الثبات والحياة والجمال»، إلى جانب صلين يحملان أيضاً على رأسيهما المنتصبين، قرص الشمس. إن سلسلة طوق القلادة، طويلة وقد زخرف طرفاها بالخرز إلى جانب صور الجعران والثعبان - الشمس.

كما أن حلى الأذن تتدلى من قضيب سميك أجوف من الذهب، وهو ما يفترض وجود ثقب عريض فى شحمة الأذن، وفى أعلاها زخرف الجعران المجنح المنتشر إلى حد كبير. إن دائرة كبيرة من الذهب، تحفها خرزتان، كانت تضم صورة الملك فى هيئة أوزيريس، يحيط به ثعبانان منتصبان وعلى رأسيهما القرص أيضاً. إن ستة صفوف أفقية من الخرز المتعدد الألوان، وفى نهاية كل صف كرة كبيرة من معدن نفيس، تزيد من أناقة هذا الحلى ورشاقتة. ومع كل حركة من حركات الرأس، كان يعتقد أن الذهب والعقيق الأحمر والألبستر والكوارتز والعجائن الزجاجية الملونة، تتألق بجميع ألوانها.

وأخيراً فمن الصعوبة تقديم وصف تفصيلى لهذه الكنوز المبهرة، التى تخب الألباب وتفخر بها قاعات متحف القاهرة(**).

(*) وذلك إلى جانب آثار توت عنخ آمون الموزعة فى الطابق العلوى من المتحف المصرى بالقاهرة على امتداد الأروقة من ٤٥ إلى ٧. ولن يفوت زائر المتحف أن يبحث عن هذه القطعة الرائعة فى القاعة رقم ٢. ويبلغ ارتفاعها ١٤٩ سم وعرضها ١٤٥ سم. (المترجم)

(**) راجع هامش المترجم السابق. (المترجم)

الفخامة والبذخ والأناقة والرشاقة والجمال، تلك هي الكلمات المستخدمة، الأكثر شيوعاً عند الحديث عن هذه الكنوز. كما يقال عنها أيضاً أنها «الفذة، المنقطعة النظير». هذا مؤكد، في إطار ما نعرفه. ولكن فلننظر إلى حجم مقبرة توت عنخ آمون المحدودة نسبياً مقارنة بغيرها من مقابر وادي الملوك. ولنتذكر أيضاً أن هذا العصر، لم يكن أكثر عصور الأسرة الثامنة عشرة إزدهاراً. وتأسيساً على ذلك، يمكن أن يتخيل المرء الثروات التي لا مثيل لها، التي كانت تضمها، بكل تأكيد، كبرى المقابر الملكية لمغاوير الفاتحين، في ذلك الزمن، ولكن الخيال قد يدفعنا إلى الشرود، وينقلنا إلى عالم الأحلام. ومن حق المرء، على كل حال، أن يتوقع لمغامرة علم المصريات العظيمة، مستقبل مليء بالوعود. فقد بدأت ذات يوم، بالكشف عن أولى درجات سلّم مطمور في رمال الصحراء. فهل سنكتشف ذات يوم درجات أخرى؟(*)

٣- ظلال التاريخ

ب وفاة توت عنخ آمون، في ظروف ما زلنا لا نعرف عنها شيئاً، وبعد حكم دام تسع سنوات، كُرس أساساً لترميم المعابد وإعادة الشعائر الدينية التي ظلت ملاحقة ومضطهدة إبان عهد أخناتون، نجد أن قضية وراثة العرش، قد طرحت بشكل حاد، على وجه التأكيد. إن اقتران الملك الشاب من عنخ إس إن با آمون، في إحتفال أقيم، وما زالا في مقتبل العمر، لم يثمر عنه، إنجاب وريث للعرش.

ولكن هناك شخص كان يقوم آنذاك، بدور بارز، في كل من بلاط العمارنة وطيبة، على التوالي. إن آي، هو المقصود، وقد سبق ذكره ضمن أتباع أخناتون الأوفياء^(١٩). وربما كانت زوجته تبي، مرضعة نفرتيتي، فكان ذلك سبب نفوذه الواضح. ويذهب بعض علماء المصريات^(٢٠) إلى أن توت عنخ آمون الذي كان أي قد صاحبه عند انتقاله إلى طيبة، بعد القطيعة مع العمارنة، ربما اختاره (؟) شريكاً في الحكم.

(*) قد تقدونا إلى مقبرة أخرى أعظم من مقبرة توت عنخ آمون! (المترجم)

تستند هذه الفرضية على واقع وجود قائمة ألقاب الملكين، على سواكف فى الكرنك. وبالفعل سىصبح أى فرعوناً عابراً.

وفى هذه اللحظة من لحظات التاريخ، وقع حدث فريد فى بابه. فقد قامت الأرملة عنخ إس إن پا آمون بارسال خطاب إلى سوبيلوليوما تطلب منه أن تتخذ من أحد أبنائه زوجاً لها. كان ملك الخاتى مشغولاً آنذاك فى الحصار المضروب حول موقع كركميش الحصين، آخر رأس جسر ميطانى على البر الأيمن من نهر الفرات. كان هذا العرض بمثابة تقديم عرش فرعون إلى الخاتى! ولا نعرف مدى التأثير الذى خضعت له الملكة الشابة، عندما أقدمت على هذا التصرف المحير. ولغرابة الأمر، فقد تردد سوبيلوليوما شخصياً، خشية تعرضه لخدعة أو مكيدة. ففضل أن يرسل موفداً إلى مصر للوقوف على مدى جدية هذا العرض. وخلال هذه المدة، شدد حصاره على كركميش فاستسلم الموقع بعد ثمانية أيام. وترتب على هزيمة توشراتا الجديدة، قلاقل داخلية، فقام أحد أبناء الملك باغتياله. عندئذ، تربع أرتاتاما الثانى، الحورى، على عرش واشوجانى، ولفترة قصيرة على كل حال، لأن ماتيوازا، ابن توشراتا، الذى لجأ فى بادئ الأمر إلى بابل التى استقبلته استقبالاً سيئاً، فطلب أخيراً اللجوء عند سوبيلوليوما، الذى استقبله استقبالاً ودياً، وقدم له ابنته زوجة. واسترد ماتيوازا ميراث والده. ولكن من الآن، أصبح غرب الميطانى خاضعاً للهيمنة الحيثية فى حين صار شرق الميطانى أو حانيجالبات(*)، بزعامة شوتارنا تابعاً تبعية لصيقة للمساندة التى قدمها له آشور. وهكذا، قضى على قوة الميطانى قضاءً مبرماً. ومع مطلع العام التالى، كان الموفد الذى أرسله ملك خاتى إلى مصر، عائداً إلى وطنه حاملاً رسالة جديدة من الملكة عنخ إس إن پا آمون التى كانت مستاءة من موقف سوبيلوليوما المتردد وعادت تكرر طلبها. عندئذ أرسل ملك الحيثيين ابنه زانانزا إلى طيبة. ولكن لم يصل الأمير الشاب أبداً إلى مقصده. فربما تم اغتياله وهو فى الطريق بتحريض من أى؟ أو من القائد حورمحب؟ عندئذ، خرج الأمير أرفوواندا على رأس القوات الحيثية، وزحف فى اتجاه نهر العاصى، للتأثر من مقتل أخيه.

(*) حسب التسمية الآشورية. (المترجم)

ويبدو، أن عنخ إس إن پا أمون، قد تزوجت من آى، الموظف القديم فى خدمة أخناتون، وكان الآن طاعناً فى السن، فمنحته بالتالى أحقيته فى عرش مصر. وخصّ آى نفسه بقائمة ألقاب كاملة، وردت مدونة تحديداً، على لوح حجرى يوضح هبات الأراضى وعثر عليه بجوار هرم خوفو. وكان آى قد اختار منف مقراً له.

الحورس: الثور القوى، صاحب الغدوات المتألقة.

السيدتان: صاحب(*) القوة الباسلة والمتسيد على آسيا.

الحورس الذهبى: أمير الحقيقة - العدالة، الذى أتى بالقطرين إلى الوجود.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: فلتأت إلى الوجود صيرورات رع، والذى يحقق الحقيقة - العدالة (خير خير رع إير ماعت).

ابن رع: الأب الإلهى آى، الإله حاكم طيبة(٢١).

إن لقب «الأب الإلهى» الوارد فى الخرطوش الثانى(**)، قد قاد البعض إلى إفتراض، أن آى ربما كان أبا نفرتيتى. ولكن هذا الإحتمال الذى لم يدعمه سند له وزنه، لا يأخذ به أحد تقريباً، فى الوقت الراهن.

وأن يكون قد تزوج عنخ إس إن پا أمون، ثابت، على ما يبدو، استناداً إلى وجود خاتم دُون على فصه، جنباً إلى جنب، اسما آى والأرملة الشابة، مطوقان بخرطوش. ومن المؤكد، أن آى قد خلف توت عنخ أمون: وبالفعل، ففى مشاهد مقبرة العاهل الملكى الشاب، التى تصور مراسم دفنه، يتولى آى إقامة الشعائر، ليقوم فى هذا الإطار بالدور الذى يكلف به، فى المعتاد، ابن المتوفى وخليفته.

(*) (إن آى هو المقصود. (الترجم)

(**) المرتبط بلقب ابن رع. (الترجم)

هذه الفترة من تاريخ مصر، القصيرة فى حقيقة الأمر، إذ لم يدم عهد أى سوى أربع سنوات تقريباً، تبقى ظلالها كثيفة، إذ لم يصلنا عنها، سوى وثائق قليلة. ودُفن أى دفنة ملكية. إن مقبرته رقم ٢٣، القريبة من مقبرة أمنحوتب الثالث، توجد أيضاً فى وادى الملوك الغربى، المعروف اصطلاحاً بوادى القروء. والمشاهد المرسومة على الجدران شبيهة إلى حد كبير بمثيلتها فى مقبرة توت عنخ آمون. ولكن ظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. والتابوت من حجر الجرانيت الوردى، فى هيئة ناووس موجود حالياً فى متحف القاهرة.

عندئذ، علا نجم أحد الأشخاص وأخذت أهميته فى التعاضم: إنه القائد العسكرى حور - إم - حب (ومعناه: حورس - فى - عيد). كان أيضاً من الأفراد القدامى فى بلاط العمارنة. وكان اسمه آنذاك، پا - أتون - إم - حب (ومعناه: أتون - فى - عيد). وربما كان هذا القائد، هو الذى أرسله أخناتون على رأس الجيش المصرى لقمع التمردات والقلال التى تفجرت فى كنعان. ومن المحتمل، أنه شرع، فى أعقاب هذه الحملة، فى بناء مقبرة فى سقارة، التزمت زخارفها بأسلوب العمارنة، ولم يتبق منها فى الوقت الراهن، سوى أجزاء مبعثرة فى مختلف المتاحف.

لقد تمتع، فى مصر، بشرف المنزلة تقديراً، لمآثره العسكرية. وبصفته القائد الأعلى للجيش، فقد كان الشخصية الوحيدة صاحبة النفوذ المسيطر. ولأول مرة، لا تُسلّم مقاليد السلطة إلى وزير أو إلى كبير كهنة آمون، ولكن إلى أحد أفراد القوات المسلحة.

الفصل العاشر

حور - إم - حب. المختص

التمهيد لإمبراطورية الرعامسة

كان حور - إم - حب، ينتسب إلى عائلة أمراء حوت نسوت - وهي
الاباسترونپوليس Alabastronpolis العتيقة - الكوم الأحمر ساويرس(*) حالياً -
عاصمة الإقليم الثامن عشر، من أقاليم مصر العليا، حيث كان يُعبد الإله حورس.

وإذ عاد إلى طيبة، بعد أحداث العمارة العابرة، ظل في خدمة كل من
توت عنخ آمون و آي.. واضطر أن يقدم لكهنة آمون، البرهان تلو البرهان، على
انحيازه لأصحاب الإيمان القويم، ولكنه ظل على الصعيد السياسى، ينظر على الدوام،
بقدر من الريبة، إلى تطلعات كهنة الكرنك ومخططاتهم الطموحة. والشاهد على ذلك،
اسمه «الجديد»: حور - إم - حب، الذى يربطه بإله المدينة التى انحدر منها، وليس
بإله طيبة العظيم، كما كان الحال فى الغالب، مع غيره من كبراء الدولة، بل مع الملك
الشاب ذاته. لقد كان رجلاً ذكياً، ثاقب الذهن.

وتزوج الأميرة مَوت - نچمت (آي مَوت - الرقيقة)، وهى الأميرة نفسها، على
ما يظن، المذكورة فى العمارة، والمقترنة بلقب «أخت الملكة»^(١). وذهب البعض إلى
القول أنها كانت، على ما يظن، أخت نفرتيتى. هكذا، ارتبط حور - إم - حب بالأسرة
الحاكمة.

١- تسلم مقاليد السلطة

حول عام ١٣٣٩ ق.م، تربع على عرش مصر، فى أعقاب هاتف أوحى به الإله
آمون لصالحه. ولكن إشارة إلى هذا الاختيار الإلهى، وردت فى سياق نص منقوش
فى معبد مونتو بالكرنك، على باب معبد أمنحوتب الثالث، يذكر على ما يبدو بوضوح،
إلى أن هذا الاختيار صدر عن مجموع الآلهة وتم إبلاغه إلى الكرنك، إبان أحد الأعياد
أوبيت:

(*) جنوب مغاغة. (المترجم)

لقد أقيمت ملكاً، وحتّى (الإله) رأسه، (وكنّا) وجهاً لوجه أمام الأرض قاطبة...
لقد صدر الأمر بذلك من السماء وسُمع في الكرنك. كان التاسوع مغتبطاً....

• (كلمات قالها آمون):

أنت ابني الذي أقيمته على عرشي. (أنت) سيد وحاكم، كل ما يحيط به
القرص... أنت حور - إم - حب، محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين، المتسيد
على الكرنك^(٢).

وتأسيساً على ذلك، لا يقوم آمون بالدور الأول، إنه فقط عنصر، لا غنى عنه،
عند تكريس تتويج الملك.

وبالمثل، فإن مدونة منحوتة على دعامة الظهر لمجموعة تمثالين تصور
حور - إم - حب و موت - نچمت، ومن مقتنيات متحف تورينو، حالياً، نجد أن الإله
حورس لمدينة حوت نسوت، هو الذي يريد الإنعام بالملك على «ابنه حور - إم - حب»
ولهذا الغرض، يصطحبه إلى الأقصر، إبان العيد أوبت، ليتولى آمون - رع تكريسه.
ففي الحالتين، نجد أن آمون ليس الفاعل المنفذ الأوحد.

فليحي حورس: الثور القوى، صاحب المقاصد الذكية.

السيدتان: هذا الذي ينجز الروائع العظيمة في معبد الكرنك.

حورس الذهبي: هذا الذي يرضى الحقيقة - العدالة ويأتى بالقطرين إلى الوجود.

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب الأرضين: بديعة هي صيرورات رع، إنه
المصطفى من رع. («چسر خپور رع ستپ إن رع»)

ابن رع، رب الغدوات المتألقة: حور - إم - حب محبوب آمون، محبوب حورس رب
حوت نسوت، له الحياة مثل رع للزمن اللانهائي.

الإله الكامل، ابن آمون، سليل كاموتف^(٣)، هذا الذي رفعه آمون ملك الآلهة،
وحورس بن إيزيس هو حارسه، ضامناً الحماية السحرية لجسده. لقد خرج من بطن
أمه، وقد تحلّى بالهيبة، مرتدياً اللون الإلهي... ومنذ أن كانت ساعده لا تزال تتدلّى

كساعداً الطفل، كان الكبراء والبسطاء، على حد سواء، يسجدون، بعد أن زاده الطعام والغذاء قوةً. ومع ذلك، كان طفلاً غير راشد... الصورة الإلهية بلونها، في نظر من يتأمل شكله. كما أنه يبيث الخوف. إن أباه حورس من خلفه، كما أن من أنجبه كان يضمن حمايته... كان يعرف اليوم المناسب لتسليمه الملك. (وفي غضون ذلك)، كان هذا الإله يُعَلَى من شأن ابنه أمام شعب البلد بأسره. كان يودّ توسيع خطاه (أى تعظيم سلطانه) إلى أن يحلّ يوم تسلمه وظيفته (الملكية)، فكان يتجلى آنذاك بصفته محبوب الملك. كان قلب العاهل الملكى راضياً عن حاله، فرحاً باصطفاه. وأقامه حورس بصفته «الفم الأسمى للبلد»، لتحديد قوانين الشاطئين وبصفته أمير هذا البلد بأسره.

كان الواحد المتفرد الذى لا مثيل له. كانت شئون الأرضين تستقر فى يده. وشعب البلد بأسره، يبتهج (لسماع) أحاديثه. وبالفعل، يُستدعى ليمثل فى حضرة العاهل الملكى، عندما يهدد القصر (=الملك) بأن يستشيط غضباً. عندئذ يفتح فمه، ويرد على الملك الذى يرضى بما يقوله من كلمات - هو، الواحد المتفرد القدير الذى لم يأت مثله إلى الوجود... كل مقاصده تسير على خطى أبى منجل (تحت)، وأفكاره صورة من أفكار رب حسيرت (تحت)، إنه يفرح بالحقيقة - العدالة مثل تحت الأقدم الأصلي، وقلبه فى عيد بسببها (الحقيقة - العدالة) مثل پتاح. وعندما يستيقظ فى الصباح، يُعدّ قرباناً وهو يقدمها (إن تقديم ماعت قرباناً، فقرة من فقرات الطقس الدينى الصباحى)... سائراً فى طريق الإلهة التى ستضمن حمايته على الأرض لمدة الزمن اللانهائى.

هكذا، فإنه يدبر شئون القطرين على امتداد سنوات عديدة. وتُقدم له التقارير عن الأعمال الجارية فى الأرضين فى حكومة مصر العليا ومصر السفلى. القضاة يتقدمون نحوه منحنين، حتى الباب المزدوج للقصر الملكى. ويقترب منه أمراء الأقواس التسعة، من الجنوب ومن الشمال، على حدّ سواء، وقد بسطوا سواعدهم، لملاقاته. إنهم يجلون كإله. وتتم كافة الأعمال طبقاً لأوامره... وعندما يتقدم، فإن هيئته عظيمة فى نظر الشعب، وتصاحبه تمنياتهم بالصحة والإزدهار - إنه بالطبع أبو الشاطئين، إنه الحكمة المتميزة التى أقامها الله لتثبيت القوانين.

وبعد انقضاء أيام عديدة، وبعد أن حصل ابن حورس البكر، على لقب «الفم
الأسمى» وأمير البلد بأسره، عندئذ تاق قلب هذا الإله العظيم، حورس، رب حوت
نسوت، إلى تنصيب ابنه على عرشه الأبدى... واتجه وسط الفرع العام إلى طيبة،
مدينة رب الأبدية، معانقاً ابنه، حتى وصل إلى الكرنك، لتقديمه للإله آمون، كي تُنقل
إليه الوظيفة الملكية التى سيشغلها، على مدار زمن حياته. بيد أن آمون - رع كان قد
خرج مبتهجاً بمناسبة عيده الجميل بصفته «رئيس حريم الجنوب». عندئذ شاهد جلالة
هذا الإله حورس، رب حوت نسوت، وكان ابنه فى صحبته. كان الإله قد حضر ليقدّم
له هذا الأخير لتسليمه وظيفته وعرشه... وفرح آمون - رع فرحاً عظيماً عندما
رأى.... ثم اقترب من حور - إم - حب(*)، هذه الشخصية المهيبة التى على رأس
القطرين. ثم سعى فى اتجاه القصر الملكى، وأقام حور - إم - حب أمامه فى
المقصورة پر ور(**)، من أجل ابنته، السيدة النبيلة، صاحبة الإفتتان السحرى (موت
نجمت). وحركت الأميرة يديها فى إيماءة تقدير وإحترام. وعانقت جمال الأمير
بساعديها ووقفت أمامه. كان التاسوع الإلهى وسادة المقصورة پر نسر(***) يتהלلون
ابتهاجاً، بمناسبة تتويجه. وكانت نخبت و واجت ونيت وإيزيس ونفتيس(****) وست
والتاسوع الإلهى(*****) بأسره المتصدّر العرش العظيم، تسرف فى المديح والثناء
الذين يرتفعان إلى أعالى السماء: «انظروا إذن، لقد حضر آمون، يتقدمه ابنه، حتى
القصر، ليستقر تاجه على رأسه، وتعظيم مدة حياته بأكملها. لقد اجتمعنا لتثبيت
التاج المزدوج، من أجله، وحصر أعداد زينة رع، من أجله. سوف نمتدح آمون، من
أجله: لقد أتيت إلينا، براعيننا وحامينا. اعطه أعياد يوبيل رع، وسنوات حورس، بصفته

(*) (الاسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

(**) (اسم معبد عتيق فى مدينة الكاب بمصر العليا. (المترجم)

(***) (اسم معبد عتيق فى مدينة بوتو - تل الفراعين، حالياً - بمصر السفلى. (المترجم)

(****) (التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم نبت حوت. (المترجم)

(*****) (عن هذه الآلهة راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى،

دار المستقبل العربى، ٢٠٠١. (المترجم)

ملكاً، لأنه هو الذى سيرضى قلبك فى الكرنك، وأيضاً فى هليوبوليس ومنف، فبفضله ستلوم (هذه السنوات)....».

إن جلالة هذا الإله العظيم، آمون ملك الآلهة، خرج من القصر، يتقدمه ابنه، بعد أن عانق جماله، (ابنه) المتوج بالخوذة الملكية، ليتجدد من أجله مدار القرص. كانت الأقواس التسعة تحت نعليه، والسماء فى عيد، والأرض تفيض فرحاً، وشعب مصر بأسره راضٍ ويصيح حتى أعالي السماء. التهليل بهجةً، كان أشبه باللبس على الكبار والصغار، على حدٍ سواء. والغبطة والبهجة تسودان البلد بأكمله^(٤).

كان هذا الفرع العام فى الأقصر مقدمة تمهد لعهد امتد لخمس وعشرين سنة، بذل حور - إم - حب أثناءها قصارى جهده، لاستعادة النظام فى الداخل وإمساك الملك بزمام الجهاز الإدارى، من جهة، والتصدى من جهة أخرى، لمحاولات الحيثيين، الهيمنة على الأقاليم الشمالية للإمبراطورية المصرية. فانقذ البلاد التى تدهورت أحوالها كثيراً، من جراء سنوات من الإهمال والجمود والخمول وعدم التسامح.

٢- الإصلاحات الداخلية

كانت إعادة تنظيم المملكة من الضروريات الأكثر إلحاحاً. فقد استغل موظفو الأقاليم، باختلاف رتبهم ومناصبهم، ضعف الملوك، ليفرضوا مختلف أنواع الضرائب غير القانونية ويقوموا بأعمال النصب. وعاش الشعب فى بؤس مدقع. أراد حور - إم - حب أن يدافع عن المستضعفين والفلاحين، فى مواجهة من يستنزفونهم بأساليب غير مشروعة حتى بالغوا فى ظلمهم.

أصدر مرسوماً، الهدف منه إشاعة العدل وتأمين حياة كريمة وهادئة لجماهير الشعب. وقد حفظ لنا الدهر نص هذا المرسوم على واجهة لوح حجرى كبير وجانبيه، يبلغ خمسة أمتار ارتفاعاً وثلاثة أمتار عرضاً، على وجه التقريب، وقد عثر عليه قرب

صرح حور - إم - حب فى الكرنك، وهو الصرح العاشر حالياً. وللأسف فإن ثلث الأثر مكسور، كما يعانى النص بعدد كبير من التشوهات(*).

...شاور صاحب الجلالة قلبه ليبسط حمايته على البلد بأسره... ويصد الشر ويقضى على الكذب. إن مشاريعه ملاذ فعال لطرد العنف... كان يسهر ليل نهار، متفحصاً ما يمكن أن يفيد البلد المحبوب، باحثاً عن الأفعال العظيمة الفائدة... وأحضر كاتب صاحب الجلالة. وأمسك لوحة كتابة ولفافة بردى وشرع يكتب، ناسخاً كل كلمات الملك، إذ قام هذا الأخير شخصياً بإملاء المرسوم... الذى تم ختمه بجوار صاحب الجلالة، لوضع حد لأعمال السلب والنهب التى (ترتكب فى) البلد.

مطلع المرسوم الذى دمر نصه تدميراً بالغاً، مرتبط بالإجراءات القانونية المحددة التى تم اتخاذها لتسهيل تسليم الضرائب، وتجنب السرقات والمظالم، حمايةً لجماهير الشعب، وبالإجراءات المعتمدة لصالح الفلاحين، للحيلولة دون المصادرات التعسفية للغلال والخضروات وبعض النباتات وجلود الحيوانات، على وجه التحديد، فضلاً عن الإجراءات التى تم اتخاذها لتفادى الفساد المستشري فى أجهزة حصر الموارد. فكانت توقع عقوبات مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال، جلع أنف مرتكب الجريمة أو نفيه إلى أقاصى المناطق الآسيوية، وهلم جراً...

ثم يستعرض الملك إنجازاته:

لقد بحثت عن رجال، ولجأت إلى زعماء، من عاداتهم، (النطق) بكلمة موفقة و(التحلى) بخلق نابه وعلى دراية بسرائر الناس، كما يلتزمون بأوامر القصر الملكى وأوامر الحاكم. لقد رقيتهم ليصبحوا قضاة القطرين، وعند حسن ظن المقيمين فى القصر. لقد أقمتهم فى مدينتى الجنوب والشمال الكبيرتين(**). وفى هاتين المدينتين، يستطيع كل شخص، وبلا استثناء، أن يلجأ إلى الحاكم. لقد وضعت أمامهم

(*) النص المصرى القديم بالخط الهيروغليفى، وترجمة كاملة له، بالإضافة إلى دراسة وافية وتعليقات توضيحية، ومقارنة بالقوانين الحديثة، نجدها فى: تشريع حورمحب. ترجمة وتعليق:

د. باهور لبيب ود. صوفى أبو طالب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢. (المترجم)

(**) طيبة ومنف. (المؤلفة)

الحسابات(*) والقوانين فى سجلاتهم اليومية. لقد أرشدتهم إلى طريق الحياة، لأننى أود السير بهم نحو العدالة. كانت تعليماتى إليهم على النحو الآتى: «لا تصادقوا الآخرين من بنى البشر. لا تقبلوا هدية من أحد. من منكم إذن هو الذى يعرض نفسه للشبهات على الآخرين أو يقترب جرماً فى حق العدالة»... أما أن يقال عن أى موظف كبير أو أى كاهن: «إنه يتخذ مكانه فى المحكمة لىؤدى واجبه لإقامة العدالة بين الناس، ولكنه يرتكب جرماً فى حق العدالة»، فسوف تحسب عليه جريمة، وكأنها ذنب خطير، يستوجب عقوبة الإعدام...

كما أقررت عرفاً (جديداً)، لأن جلالتي يريد تأمين الحماية لكل إنسان. سوف «يلتفون» حول جلالتي، ثلاث مرات شهرياً، ليكون ذلك عيداً، فى نظرهم. فيجلس كل شخص ومعه نصيب من كل ما هو طيب: خبز طازج ولحوم وفطائر، واردة من المؤن الملكية. إن رؤوسهم ممسوحة بالأدهان، وأصواتهم تصل إلى السماء، عندما يجئون أفضال السيد الملكى..

إن جسد الملك يضى أطراف الأرض مثل قرص الشمس، وسطوعه قوى، قوة رع، عندما يتجلى فى زمن فصل الفيضان(**). ويتألق جماله تألقاً ملحوظاً. وتستقر قوته فى قلوب البشر.... حتى تتصرفوا، ملتزمين بهذه المراسيم التى جدّها جلالتي، ليسود النظام البلد بأسره، بعد أن يكون قد أمعن التفكير فى أعمال السطو والسلب التى سبق ارتكابها(***)(٥).

(*) يتعلق الأمر هنا، بالضرائب المطلوب جبايتها، على أن تكون على أكبر قدر ممكن من العدالة.(المؤلفة)

(**) عندما تجتمع كافة قوى الحياة والخصوبة.(المؤلفة)

(***) الترجمة الكاملة لهذا المرسوم فى:

نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى. دار الفكر، ١٩٩٦، ص ٩٨-١٠٠، ويمكن للقارئ المدقق أن يلاحظ الفارق بين هذه الترجمة وترجمة د. باهور لبیب السابق الإشارة إليها. (المترجم)

لم يعد هذا البلد يعيش تحت رحمة موظفين طموحين، قائمين بذاتهم، لا يخضعون لسلطة مركزية بالغة الضعف، بل أصبح بلداً يسوده النظام، استعاد استقراره، بلداً تأكدت فيه أيضاً، إقامة مختلف العبادات والشعائر.

إن نص لوح حجرى - من مقتنيات المتحف البريطانى فى الوقت الراهن، ويحمل اسم حور - إم - حب، القائد العسكرى - ومن ثم يعود إلى تاريخ سابق على تنويعه، يُعتبر فى هذا الصدد بمثابة بيان دينى رسمى. إذ صور حور - إم - حب فى الجزء العلوى المقوس من اللوح وهو يتعبد لآلهة ثلاثة:

رع - حور - أختى، الإله الأوحد المتفرد(*)، ملك الآلهة الذى يشرق حياً.

تحت، صاحب الكلمات الإلهية، الواقف على رأس حسيرت، إنه الإله العظيم، المرشد فى العالم الآخر.

ماعت، ابنة رع. سيدة السماء، وسيدة الغرب.

فالآلهة الثلاثة هى شمس هليوبوليس وإله المعرفة والآلهة الحافظة على تماسك العالم وترابطه.

إن الصفات التى ينعت بها رع - حور - أختى وتحت من بعده، تبرهن على أن وحدانية، أحد الكيانات الإلهية، فى قلب بعض المؤمنين التابعين له، لا يعيشها صاحبها كمشاعر استثنائية، لا تعترف بإله سواه. إنه «ملك» الآلهة فقط، وكان هذا اللقب، على كل حال، ينفرد به آمون، فى المعتاد، حتى الآن. ولا شك، أن آمون ظل محتفظاً بمكانته متميزة فى مجمع الآلهة المصرية. وقد أعاد حور - إم - حب اسمه على الآثار التى هُشم، من على سطوحها، بأمر من أخناتون. ونقذ فى الكرنك مبانٍ عظيمة فى معبد آمون - رع. كان حور - إم - حب يحتاج إلى مساندة كهنة آمون تدعيماً لشرعيته التى كانت إلى حد كبير، محل جدال. ولكن الترنيمة المنقوشة على

(*) العبارة ذاتها التى كان ينعت بها أتون. (المترجم)

اللوح الحجرى تتَّوجَّه إلى كافة أشكال الشمس، كما أن أساطير هليوبوليس متواجدة فى كل مكان:

إنى أعبد رع سواء فى غروبه أو فى شروقه... التحية لك، أيها الساطع النافذ القوى، أيا أتون - حور أختى. وبينما تظهر متألِّفاً فى أفق السماء، فإن أفواه بنى البشر أجمعين، تهلل لك وتحييكَ. أنت، أيها الجميل، الشاب شاباً أبدياً فى القرص، إن ساعدى والدتك حتحور تعانقك... إنك تغمر الأرض بالفيروز. أيا رع - حور أختى، الفتى الإلهى، وريث الزمن اللانهائى، الذى ينجب نفسه بنفسه، ويأتى إلى الدنيا، بذات نفسه، يا ملك السماء والأرض، يا أمير العالم الآخر، المتسيد على صحراء الجبابة - المنبثق من الماء (الأصلى)، الذى خرج من تلقاء ذاته من نون، الذى ارتفع وقدس ولادته. أيها الملك القدير الذى يضى الأفق، بينما يحيى التاسوع شروقك ويغتنب البشر ويفرحون عندما تظهر من أجلهم... أيها الفتى الجميل، يا رب الحب والهوى، القوى قوة عظيمة، الذى لا يعرف التعب والإرهاق، أيها الراكض المسرع، الواسع الخطى... أيها الفتى الكامل، الذى انجبه پتاح، يا صاحب الأشكال المنتقاة، بدرجات تفوق أشكال غيره من الآلهة...

الحمد لك والثناء عليك، أيا تحوت، يا سيد هرموبوليس، الذى أتيت إلى الوجود من ذات نفسك، وبلا حبَل، أيها الإله الأوحى المتفرد، المرشد فى اللوات، الذى يحدد قواعد أهل الغرب السائرين فى صحبة رع، الذين وقع اختيار لسانهم من قبل البلدان الأجنبية جمعاء...

الحمد لك والثناء عليك، أيا ماعت، يا سيدة نسمات الشمال، التى تفتح أنوف الأحياء، والتى لا تتوقف عن منح الأنفاس للقائم فى قاربه المقدس...^(٦)

ومن جديد، تتداخل الآلهة وتختلط من أجل فاعلية سحرية إلهية وكاملة، لتكفل حماية البشر وسعادتهم. هكذا أخذت النزعة التليفقية syncretisme الدينية تنمو وتتطور.

ومن السمات البارزة لعهد حور - إم - حب تبجيل آمون - ربما لدوافع سياسية - والميل إلى عقائد هليوبوليس العتيقة، والشعور بالريبة نحو كهنة الكرنك. وعلى الصعيد الدينى، يعتبر عهد حور - إم - حب مقدمة تمهيدية لإهتمام الرعامسة بإبداع نوع من الروحانية العالمية، تتمركز حول عبادة الشمس بأشكالها المتنوعة. وستعمل هذه الوحدة الأيديولوجية، على تدعيم نظامهم السياسى. إن حور - إم - حب، هو المصدر الذى نشأت منه أيديولوجية إمبراطورية جديدة، وإن كانت تدين بالكثير بلا شك للأيديولوجية السابقة عليها، والتى استشعرها تحوتمس الثالث^(٧)، ولكنها ستعمل أكثر فاعلاً، على تنمية وحدة الشعوب ومعتقداتهم، فى حضن إمبراطورية شاسعة موحدة، يقف على رأسها الفرعون - الإله، بصفته الزعيم الأوحد، المطلق الصلاحية^(٨).

٣- حماية الإمبراطورية والحفاظ عليها

والأقرب إلى الصواب، أن حور - إم - حب، عندما كان لا يزال قائداً عسكرياً، قد قاد حملة عسكرية إلى آسيا. وكما لاحظنا من قبل^(٩)، فإن الأمير أرنوواندا الراغب فى الإنتقام لمقتل أخيه، كان يزحف على رأس جيش الحيثيين، فى اتجاه نهر العاصى، الحدود الشمالية لممتلكات مصر فى آسيا. كانت كتعان ثائرة، ربما بتحريض من أزيرو الذى أصبح حليف الخاتى أو من سويتلويوما ذاته، إلا إذا كانت قبائل هذا البلد قد تصرفت لحسابها الخاص. وعن هذه الأحداث ذاتها، لا نعرف سوى النذر اليسير. ولكن على جزء من نقش جاء من مقبرة حور - إم - حب فى منف، ومن مقتنيات متحف فيينا بالنمسا، فى الوقت الراهن، يذكر أن فرعون - وربما كان أخناتون المقصود - «قد أرسل رجلاً قوياً ومقدماً على رأس جيشه». وللأسف فالنص أصابه تلفاً بالغاً. ومع ذلك، وإلى جانب مشهد يصور آسيويين يتقدمون فى وضع ذليل وظهورهم منحنية أمام حور - إم - حب، يمكن قراءة الجملة الآتية: «كانت البلاد تتضور جوعاً، وتعيش عيشة ماعز الصحراء»^(١٠). بل ربما طلب البعض التصريح لهم بالإقامة فى مصر.

وبالطبع، فإنها كلمات مقتضبة بعض الشيء، ولكنها تكشف مع ذلك، استعادة أراضي أسىوية تابعة للإمبراطورية، بأساليب عسكرية. الأمر الذى تؤكد المدونات المنقوشة على الجدار الشرقى من الفناء الواقع بين الصرحين التاسع والعاشر، والتي توضح تسليم الجزية الواردة من رقتو و حاو نبوت و پونت^(١١).

ويلقى «كبراء پونت» هذا الخطاب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، فليدم كاؤك زمناً طويلاً. فلم نكن نعرف مصر، وأباؤنا لم يسبق لهم أن وطئوا أرضها. امنحنا النسمات التى تقدمها لنا فى المعتاد، فكافة البلدان تحت نعليك^(١٢).

وتأكيداً واضحاً للإتجاه الجديد للحفاظ على الإمبراطورية، فإن الأسرى الأفارقة، المسجلة صورهم فى مقصورة حور - إم - حب الصخرية، بجبل السلسلة يرددون العبارات نفسها، تحية للبطل الذى أعاد توحيد الإمبراطورية، دون أن نعرف يقيناً، قيام حملة عسكرية ضد أراضي الجنوب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، لقد ذاعت شهرتك فى بلاد كوش وصيحتك، صيحة الحرب، فى عقر ديارهم. إن قدرتك، أيها الأمير الجميل، تحول البلدان الأجنبية إلى أهرامات (للجثث)^(١٣)، أيها الفرعون، يا نور الشمس^(١٤).

هكذا، فإن اللقب الذى يُنعت به فى المعتاد الأباطرة الرعامسة: «ملك مصر وشمس الأقواس التسعة» وسبق أن لاحظنا وجوده فى عهد تحوتمس الثالث^(١٥)، وإن فى أضيق الحدود، أصبح من الآن تسمية مألوفة تطلق على الإمبراطور، ليقرن هيمنة مصر العتيقة بالسيطرة الجديدة التى يفرضها على فتوحاته الجديدة، فى أراضي آسيا وإفريقيا التى تجله وتبجله فى هيئة الشمس التى يعتبر الجميع شركاء فيها.

وعلى الصعيد السياسى أيضاً، يعتبر حور - إم - حب، النبع الحى الذى نهلت منه أيديولوجية الرعامسة.

٤- طيبة

استعادت طيبة، وإن لفترة قصيرة، مكانتها كعاصمة سياسية وإدارية. وسيظل الكرنك، بالنسبة للإمبراطورية، الموقع المقدس العظيم.

كما أن عصر الإنشاءات الشامخة لم يكن قد وصل إلى خواتيمه. فبدأ حور - إم - حب في تشييد الصرح الثانى، أمام صرح أمنحوتب الثالث، ليصبح المدخل المهيّب الجديد لمعبد آمون - رع. كان طوله ٩٨ متراً وعرضه ١٤ متراً، وسيتمولى رعمسيس الأول، استكمالاً.

وعلى المحور الشمالى الجنوبى للمعبد، انشئ طريق ليربط، من الآن، معبد موت بمعبد آمون - رع، كان درياً طويلاً للمواكب الإحتفالية طوله ٣١٠ أمتار ويحفه ١٢٠ تمثالاً لأبو الهول برأس كبش، تحمل اسم حور - إم - حب.

كما أن الصرح العاشر الذى يشكل المدخل الجنوبى لحوزة آمون يحمل اسم حور - إم - حب. كان يتكون من برجين من الحجر الرملى، وقد أصابهما، فى الوقت الراهن، دماراً شاملاً. كان يربطهما باب من الجرانيت الوردى، وحُشى الصرح بأحجار أمنحوتب الرابع، المعروفة إصطلاحاً بأحجار الثلاثات، التى جاءت من معبد جم آتون، بعد أن تم هدمه. وعلى كل حال، فربما كان هذا المدخل الجنوبى، يتكون من مجرد باب بسيط، الأمر الذى قد يفسر وجود تمثالين عملاقين، لهذا العاهل الملكى فى هذا المكان.

بعد أن كانت طيبة، قرية فلاحين ومراكبية، أصبحت عاصمة العالمين الإفريقى والآسيوى، وأكثر المدن ثراءً فى العالم وأكثرها روعة ومهابة. إنها الطريق الذى سلكه ألفا سنة. إنها قرون طويلة من التاريخ، ربما لن يجد فيها هواة جمع الأحداث الدقيقة والمحددة، ما يرضى فضولهم. ولكنها قرون حافلة بفكر فى أوج تطوره، سواء كان دينياً أو سياسياً، ما زال يستشرف عناصره ويتشكل. ولكنه سيعرف أزهى ازدهاره فى عصر الرعامسة.

وقرب نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد هذا، كان لا محالة من أن تنتهى المنافسة المحتدمة بين مصر والخاتى، إلى قيام الحرب بينهما.

ولكن أصبح يحكم مصر، من الآن ملوك عسكريون تحلوا بذكاء نابه وشجاعة مقدامة، فعرفوا كيف يسيطرون على الموقف فى آسيا، فى حين ظلت المناطق الإفريقية الخاضعة للهيمنة المصرية خضوعاً تاماً، هادئة نسبياً.

إن نظرة حور - إم - حب السياسية الثاقبة، تتلخص بالفعل، فى أنه أدرك، فى الظروف القائمة آنذاك، أن زعيماً محارباً فقط، فى مقدوره الحفاظ على ما تبقى من الإمبراطورية المصرية والقضاء على طموحات الخاتى. ولما لم يُثمر زواجه من مَوت نِجَمت عن انجاب ولد، فقد قام شخصياً باختيار من يخلفه، دون أن يستطيع كهنة آمون التدخل، فاختص بهذا المنصب الوزير والقائد العسكرى پا رعمسيس وكانت تانيس، فى شرق الدلتا، مسقط رأسه، وهى المدينة القريبة من مناطق الإمبراطورية الآسيوية الحدودية الحصينة.

وحول عام ١٢١٤ ق.م، تربع رعمسيس الأول على العرش، ليصبح الأول من بين سلسلة طويلة من الفراعنة المحاربين الأشاوس المراهوبى الجانب(*)).

(*) وقد أفردت لهم المؤلفة مجلداً مستقلاً، سوف تصدر ترجمته العربية قريباً. (المترجم)

الخاتمة

هكذا، فعلى امتداد خمسة قرون، عاشت طيبة، والإمبراطورية التي فتحها التحامسة وتصوروها. ومن خلال سيرنا عبر هذا الطريق الطويل، تبقى عدة مناطق مظلمة في نظرنا. وكما لاحظنا، فإن صياغة تاريخنا، هو عبارة عن لعبة ضخمة تحتاج منا إلى صبر أيوب، إذ تتلاصق فيها الوثائق التي جاءت، من كل حذب وصوب، وتتنوع طبيعتها، وقد جادت بها الصدفة البحتة أثناء أعمال التنقيب أو الكشوفات غير المنتظرة، أو تحتفظ بها المتاحف، منذ زمن بعيد، ونجهل مصدرها.

وطوال هذه القرون الخمسة، ظلت طيبة المركز الأول لكل حياة، سواء حياة الآلهة أو حياة البشر: فكل شيء يتشكل، إنطلاقاً من هذا الموقع السامي، بدءاً من الكشوفات الفجائية المبهرة، نذكر منها، مقبرة توت عنخ آمون، وصولاً إلى كسفة بسيطة، هي كل ما تبقى من إناء من الفخار، تحمل اسم أو تاريخ يُلقيان النور على معلومة أخرى. وتظل جدران الكرنك الشامخة المقدسة وزخارف المقابر المنحوتة في الصخر، مصادرتنا الرئيسية.

ومن ثم، فإن وثائقنا هي عبارة عن مشهد عالق بين السماء والأرض، أو مدفون في باطن الأرض. إنها مجموعة أدبية لا نظير لها، إنها مكتبة كاملة مدونة على مختلف الركائز، إنها عالم من النصوص، لا نلتقي بمثل ثرائها ووفرتها إلا في فكر العالم الكلاسيكي، عالم الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين، وريثتي العقلية المصرية.

إن معنى التاريخ في مصر، كما يمكن أن نفهمه(*)، في الوقت الراهن، يؤثر التصورات الذهنية والصيغ اللفظية ذات الدلالة السحرية وأبعادها الأبدية التي تغالب الأيام، على الوقائع والأحداث العابرة والعرضية.

ولكن هذا التاريخ المديد الذي ننهمك على دراسته، بكل ما أوتينا من ولع وشغف صادقين، لن يصل أبداً إلى نهايته. إن عالم المصريين أشبه بالعامل

(*) بالنسبة للمؤرخ الغربي. (المترجم)

بالمقطوعية، على مستوى الذهن والعقل، فيُجمَع يوماً بعد يوم، عناصر جديدة، تنبثق
دون توقف، من وسط الرمال.

إن علم المصريين، ما زال في مرحلة الشباب، إنه علم واعد يُرجى منه
الكثير.

الهوامش

هوامش المقدمة

- (١) أطلق الإغريق على الإقليم الاسم اليونانى نوموس nomos ويقابله بالفرنسية nome وبالمصرية القديمة سبت.
- (٢) نقشت هذه النصوص ع-لى جدران الحجرات الجنائزية داخل هرم أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة وأهرام ملوك الأسرة السادسة - وتعود إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تقريباً.
- (٣) راجع فيما بعد: المقدمة. فقرة: أمون وتأسيس الكرنك.
- (٤) راجع الفصل الأول.
- (٥) يصور الـ«با» فى هيئة طائر برأس آدمى برجلين تنتهيان بيدين. إنه العنصر الحركى للكائن البشرى وفى وسعه أن يخرج من الجسد ويعود إليه، فيجلب للمتوفى نسمات الأرض العليقة. إنه الرباط المجنح الذى يربط المتوفى بعالم الأحياء.
- (٦) متون الأهرام. §1197.
- (٧) النحاس هو مادة النجوم.
- (٨) متون الأهرام § 2051.
- (٩) متون الأهرام § 538.
- (١٠) الإلهة فوت. فوقاً للاهوت هليوبوليس، تحل هذه الإلهة أحياناً محل إيزيس، فى جمع أشلاء جسد أوزيريس المبعثرة.
- (١١) إنه أول تعبير عن عقيدة الملك الراعى الصالح الذى يسهر على شعبه ويحميه منذ وجوده فى الدنيا إلى أبد الأباد.
- (١٢) متون الأهرام § 827-829 .
- (١٣) متون الأهرام § 1143-1144.
- (١٤) راجع فيما بعد: الفصل الرابع الولادة الإلهية والسياسة.

(١٥) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(١٦) راجع فيما بعد: الفصل الثانى: الكرنك: الفقرات الأخيرة.

(١٧) راجع فيما بعد: الفصل الأول: بلاد بونت.

(١٨) C. L. Textes pp. 196-197.

(١٩) إنهما صفتان أساسيتان فى نظر المصرى وتتجسدان فى الإلهة هامت التى كان الوزير كبير كهنتها.

(٢٠) C. L. Textes, p.238.

(٢١) المرجع السابق: p.241.

(٢٢) المرجع السابق: p.238.

(٢٣) المرجع السابق: p.244.

(٢٤) المرجع السابق: p.237.

(٢٥) المرجع السابق: p.243.

(٢٦) المرجع السابق: p.245.

(٢٧) المرجع السابق: p.163.

(٢٨) القلب هو مركز الحياة الوجدانية والتصورات الذهنية.

(٢٩) الترجمة الحرفية للتعبير المصرى. والمقصود بذلك ابن پتاح حوتپ.

(٣٠) C. L. Textes, p.236.

(٣١) راجع فيما بعد: الفصل الأول: كنعان أرض البدو.

(٣٢) عن مصير مصر وقدرها، لم يتبق حتى خط التراب البسيط الذى يوجد أحياناً فى الجزء العلوى من الظفر.

(٣٣) وصف حسى لبؤس وشقاء بلد غرق فى أحداث الثورة. إن الواقع والأسطورة يختلطان ويتداخلان كما شاع فى النصوص المصرية، كلما أراد المرء أن يوحى إحياء عميقاً، بوضع

من الأوضاع أو ببعض الشعاع.

(٢٤) C. L. Textes, pp.71-72.

(٢٥) المرجع السابق: p.213-218.

(٢٦) المرجع السابق: pp.224-225.

(٢٧) راجع مطلع هذه المقدمة.

(٢٨) C. L. Textes, p.54.

(٢٩) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: تحوّل النص المدون على صخور طميس.

(٤٠) C. L. Textes, p.51-56.

(٤١) راجع فيما سبق: فى زمن الأهرامات الأولى.

(٤٢) C. L. Textes, pp.57-58.

(٤٣) اسم تتويج سنوسرت الثالث ويعنى «تظهر كآات رع متألة».

(٤٤) إلهة - أسدة، ومحاربة مرعبة.

(٤٥) C. L. Textes, p.77.

(٤٦) Empire des Ramsès, p. 388.

(٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة ٢: الجزية...

(٤٨) عن هذه القلاع راجع فيما بعد الفصل الأول. الفقرة: ١- النوبة والسودان. والفصل

الثالث. الفقرة: ٢- الوزير ونواب الملك. والفصل الرابع الفقرة: ١- الملك المصطفى

والملكة والملك والفصل الخامس الفقرة: ٤- معالم النوبة الأثرية والفصل السابع.

الفترة: ١- التواجد فى النوبة.

(٤٩) راجع فيما بعد: الفصل الثانى. الفقرة ٢. طيبة المنتصرة.

(٥٠) راجع فيما سبق: الثورة الإجتماعية.

(٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة: ٤ معالم مصر الأثرية.

Barguet: Temple d'Amon - Rê, p.2 (٥٢)

Sethe: Amun (٥٢)

Petrie: Qurneh, pl. X. (٥٤)

(٥٥) ويمتزج الإله بعناصر الحياة فى وحدة متكاملة لخير الإنسان.

Daumas, in BIFAO, 1967, vol.65, p.213 (٥٦)

Wildung, in MDAIK, 1969, vol. 25, p.212.

Karnak VI, p. 267, note 1.

Daumas, ibid, p. 214 (٥٧)

(٥٨) راجع فيما سبق: نشأة النظام الملكى.

(٥٩) وبات من الشائع منذ الآن أن ينعت ملوك مصر بهذه الصفة، لا سيما فى عصر الرعامسة.

.cf, Empire des Ramsès, p.374

(٦٠) صورة أسطورية موهلة فى القدم للصقر الشمسى. فإن إحدى عينيه هى الشمس والأخرى القمر. وعبارة «ما تنيره عينه». تشير إلى الكون.

Urk. VII (٦١)

(٦٢) إن الآلهة التى تصور وقد دُثر جسدها فى رداء محبوب، هى فى الغالب من الآلهة الخالقة الواهبة الحياة، وكان كل إله منها، سيد قوى الإنبات، ومنها على سبيل المثال أوزيريس وبتاح ومين. وربما كان هذا الرداء المحبوك المرادف للحاء الشجرة الذى يضم القوى النباتية المتجددة دائماً، لتعود إلى الحياة. ومن ثم فهو رمز لانطلاق الحياة وديورتها التى لا تتبدل. كما أن أولى تماثيل پرياپوس(*) Priape، قد قُضبت فى لحاء شجرة.

(*) پرياپوس: إله الخصوبة والإنجاب فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

Empire des Ramsès, pp.219 sq (٦٣)

(٦٤) راجع فيما سبق: فى زمن الأهرامات الأولى.

.C. L. Textes, p.175 (٦٥)

(٦٦) إن كلمة فلان تحل محل اسم الشخص الذي يتغير بتغير التوابيت.

(٦٧) متون التوابيت التعويذة 790.

Empire des Ramsès, pp. 144 sq (٦٨)

(٦٩) وهو الاسم الذي كان يطلق على هذه المدارس، لأن كل علامة من علامات الكتابة سواء كانت محفورة أو مرسومة كان لها القدرة على التنشيط والإحياء بفضل تأثير السحر. وهكذا كان الكتبة يخلقون أغلفة يفترض لها أن تستوعب الحياة.

(٧٠) ترجمة القصة: C. L. Textes, pp.197 sq

(٧١) جوف منطقة سوريا – فلسطين الحالية.

(٧٢) الكا هو الاسم الذي أطلقه المصريون على الطاقة المحركة القائمة في كل كائن، وتبعث فيه الحياة والنشاط. ويعتقد إذن أن هذه الجزيرة الأسطورية كانت موطن مبدأ الحياة ذاته.

(٧٣) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(٧٤) راجع فيما سبق: المقدمة: أوزيريس في أبيبوس.

هوامش الفصل الأول

- (١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.
- (٢) Posener, in Z.A.S, 1957, vol. 83, pp. 38-43
- Van seters, Hyksos, p.109
- (٣) .Posener, in Kush, 1958, vol. vi, pp. 39-65
- (٤) .Emery, in Kush, 1959, vol. vii, p. 7 sq
- (٥) Herzog, in A.D.A.I.K., 1968, vol.6, p.9 sq
- (٦) .Empire des Ramsès, p. 270 sq
- (٧) .P. Montet, Byblos et L'Egypte
- (٨) .Ibid, p. 273
- (٩) P. Montet, Le roi Sahourê et la princesse lointaine. In Mélanges syriens offerts à M. Dussaud, I, 1939, pp. 191-195.
- (١٠) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: ٢- مصر الإمبراطورية. من أجل تعريف الإمبراطورية (المقطع الأخير).
- (١١) راجع لا سيما الحملات الخامسة والتاسعة والسابعة عشرة. (Urk, IV, 732).
- (١٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.
- (١٣) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.
- (١٤) راجع أساساً:
- L'Égypte et le monde égéen préhellénique, Le Caire 1956.
- (١٥) Lexikon, Bd. II, col. 1053-1054
- (١٦) Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinaï, p.1 sq

.Lexikon, Bd. IV, col. 1156- 1158 (١٧)

.Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinai, pl.xviii, p.80 (١٨)

Enseignement de Kheti, III à son fils Merikarê (١٩)

P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 85 (٢٠)

(٢١) راجع فيما سبق المقدمة: السياسة الجديدة.

P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 95-96 (٢٢)

(٢٣) المرجع السابق P.98.

(٢٤) المرجع السابق P.128.

(٢٥) راجع فيما بعد: الفصل السابع: أولى عناصر القانون الدولي.

هوامش الفصل الثاني

- (١) Newberry, in J.E.A., 1943, vol.29, pp. 74-75
- (٢) Hayes, in J.N.E.S, 1953, vol. xll, n° 1, pp. 32-39
- (٣) تقع هذه المدينة شمال طيبة.
- (٤) Wadell, Manetho, p.73
- (٥) من مدن الدلتا.
- (٦) Wadell, Manetho, p.44
- (٧) .Montet, in Kêmi, 1928, tome I, pp. 83-93
- (٨) Wadell, Manetho, p.79
- (٩) عن المناقشات العديد التي دارت حول إيمرو وعنخو راجع:
- J. von Bechereath, in J.N.E.S., 1958, vol. 17.
- (١٠) سفر الخروج. الاصحاح ١٢: ٤٠.
- (١١) .Empire des Ramsès, p.259
- (١٢) .Drioton - Vandier: Egypte, p.289
- (١٣) أو على أقل تقدير في المنطقة المجاورة.
- Montet, in Drame d'Avaris, p.47 sq.
- (١٤) .Bietak, in Lexikon, vol. v, pp. 128-129
- (١٥) Kitchen, Pharaoh triumphant, p.122
- (١٦) راجع تحديداً:
- Save Söderbergh, in J.E.A., 1971, vol. 57, p.53-71.
- Van Seters: Hyksos, p.152 sq-CAH, p.54 sqq.

(١٧) P.C. Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Agypten und ihr Sturz.

Glückstadt - Hamburg, 1936, p.27.

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: فينقيا.

(١٩) Empire des Ramsès, p. 147 sq

(٢٠) راجع فيما بعد: الفصل الثاني: ثلاث سيدات فى البلاط الملكى.

(٢١) Stock, Studien zur und Archäologie der 13 bis 17 .Dynastie Aegyptens-

Glückstadt- Hamburg, 1942.

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) Garstang, in J.E.A., 1928, vol.14, p.46 sq., pl. 7

(٢٤) Winlock, Rise and fall of the Middle kingdom, p.148

(٢٥) CAH, p.61

(٢٦) Winlock, in J.E.A., 1924, vol. 10, pp.217-277

(٢٧) لقد حذف بيكيراث J.von Beckerath رع حوتب من الأسرة السابعة عشرة.

(Lexikon, Bd. I, col. 301-302).

وضمه إلى الأسرة الحادية عشرة أسوة بـ

E. Brunner- Traut: ibid, Bd. I, col. 963-964.

أو وينلوك Winlock فإنه يضع هذا الملك فى المرتبة الثانية

(Rise and Fall, p.121).

ولكن Stock (op. cit.) و Edwards (in CAH, p.65) يستمران فى وضع عهده على رأس

الأسرة السابعة عشرة طبقاً لما ورد فى بردية تورينو.

(٢٨) مجموعة الألقاب الملكية كانت تضم خمسة أسماء:

• الاسم الحورى وكان حورس حامى الملكية وراعيها منذ عهد نعرمر.

• اسم السيدتين: ويربط العامل الملكى بالإلهتين الحاميتين لمصر العليا ومصر السفلى. وهو

قديم جداً أيضاً. والإلهتان هما نخبت الطائر الرخمة أو العقاب والثعبان وأجت.

• اسم حورس الذهبى: (أى حورس الشمسى)

• اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى: (حرفياً «الذى ينتسب إلى البوص والنحلة» وهما من الظواهر المميزة لفلورة وفونة هاتين المنطقتين).

• اسم ابن رع: وهو لقب الأسرة المالكة.

(٢٩) إن سيا وحو هما تأليه لصفتين أساسيتين من صفات الكائن البشرى. سيا هى المعرفة أما حو فهو النطق بالكلام أو الفعل الإرادى فى إصدار الأوامر.

(٣٠) نلتقى بتعبير الملك الساهر على شئون رعاياه فى مرسوم حور - إم - حب. ونصوص عصر الرعامسة.

(٣١) Petrie, Koptos, pl. xli

(٣٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(٣٣) نص أوستراكون فلورنسا.

Gardiner, Late Egyptians Stories, p.91, 1. 10-14.

(٣٤) Rise and Fall, p. 125

(٣٥) راجع فيما سبق: المقدمة: الثورة الاجتماعية.

(٣٦) ليسوا أسيوين. ولكن من المتفق عليه أن هؤلاء الأعداء هم صور سحرية محرمة استولى عليها تيتى ابن مين حوتب وأدخلت إلى المعبد.

(٣٧) القرابين التى يستهلكها الكهنة وكبراء البلد، بعد أن يستهلكها الإله استهلاكاً سحرياً.

(٣٨) Petrie, Koptos, pl. viii

(٣٨ مكرر) كان إيمحوتب وزير الملك چسر (حول ٢٧٠٠ ق.م) ومهندسه. وكان چدف حور أحد أبناء الملك خوفو. وقد ألفا سفرين فى الحكمة لم نعثر أبداً على نصهما، وإن أشارت إليهما الكتابات اللاحقة.

(٣٩) بخور بلاد بونت.

Holwerda - Boeser: Leiden, Rijksmuseum van Oudheden. Beschreibung der (٤٠)
aegyptischen Sammlung- La Haye, 1905- 1932, vol. iv, pl.6.

(٤١) راجع فيما سبق: المقدمة: الثورة الإجتماعية.

Vandersleyen, in lexikon, Bd.V, col. 847-848 (٤٢)

يذهب Edwards, in CAH, p.72-73 إلى احتمال وجود ملكين يحملان اسم سقن رع تاعا.
وأن تيتي شيري كانت زوجه الأول ووالدة الثاني.

(٤٣) أى ملك مصر.

(٤٤) مصر فى حد ذاتها أى الجنوب آنذاك.

(٤٥) إن إعادة صياغة بعض الفقرات الناقصة والواردة بين معقوفين [...] هى من اقتراح
G.Lefebvre, Contes et romans pp.134-136.

Gardiner: Late Egyptians Stories, pp.85-89 (٤٦)

Maspero: Contes populaires, p. xxvi (٤٧)

Lefebvre: Contes et romans, p.132

(٤٨) عن هذين اللوحين الحجريين وظروف الكشف عنهما يمكن مراجعته على وجه التحديد:

Gunn et Gardiner in JEA, 1918, vol. 5, pp. 36-56.

Hammad, in C.E. 1955, vol. 30, pp. 198-208.

L. Habachi, in A.S.A.E., 1956, vol. 53, pp. 195-202.

L. Habachi: The second stela of Kamose. Glüchstadt, 1972, p.67, pl.viii.

(٤٩) فى نظر المصريين كانت النوبة والسودان تشكلان من الناحية الجغرافية الطبيعية جزءاً لا
يتجزأ من بلادهم.

(٥٠) القوصية وهرموبوليس من مدن مصر الوسطى، وتقعان عند منتصف الطريق تقريباً بين طيبة
ومنف.

(٥١) عن هذه الصورة الدائمة التى تشبه السلام بالجو الرطب وتوحد بينهما، والشعور الحسى بذلك
فى بلد تسوده حرارة الجوراجع: Empire des Ramsès, p. 399.

- (٥٢) مدينة هامة تقع إلى الشمال من هرموبوليس.
- (٥٣) راجع فيما سبق: الفصل الأول: النوبة والسودان.
- (٥٤) Empire des Ramsès, p. 379 sq
- (٥٥) لوح من الحجر الجيري يبلغ ارتفاعه ٢٢٠سم وعرضه ١١٠سم وسمكه ٢٨سم. إن أبعاد اللوح الأول الذي لم يعثر سوى على أجزاء منه كانت مماثلة، على ما يرجح.
- (٥٦) منطقة غير معروفة.
- (٥٧) إن كامس يعيد أبوه إلى وضعه كإسيوى.
- (٥٨) منطقة غير معروفة أيضاً. ويرى ليب حبشى أن هذا الاسم قد يعنى: «الزمن (اللازم) للهبوط مع التيار». ربما كانت ملتقى طرق تجارية بين مصر العليا ومصر السفلى.
- (٥٩) ملاحظة إنطباعية: إن أنف النساء فقط هو الذى يظهر من خلال المزاغل الضيقة.
- (٦٠) صيغة قَسَم.
- (٦١) إن عدداً من المدن كانت تحمل هذا الاسم الذى يعنى «بين الإلهة حتحور».
- (٦٢) فربما النيل.
- (٦٣) تعبير يؤكد على تبعية أمير كوش للأمير أبوهي.
- (٦٤) تشبيهه ساخر يشير إلى القطرين اللذين يحكماهما الهكسوس وأبناء كوش - فى مقابل قطرى النظام الملكى التقليدى عند الفراعنة أى مصر العليا ومصر السفلى.
- (٦٥) الاسم الذى كان يطلق على المناطق السودانية الواقعة إلى جنوب الجندل الثانى.
- (٦٦) بلدان أفريقيا. كان الجنوب فى نظر المصريين هو الجهة الأصلية، حيث منابع النيل.
- (٦٧) أى فى المنطقة التى كانت لا تزال من الناحية الإسمية خاضعة للإسيويين.
- (٦٨) بلدة القيس حالياً.
- (٦٩) أى الجماهير المحتشدة عند الشواطئ.
- (٧٠) لقب تقليدى، ولا ينطوى هنا على أى دلالة سياسية.

(٧١) كان فرعون يكافئ أكثر ضباطه بسالة بمنحهم قلائد من ذهب.

(٧٢) أسرى الحرب وغنائم الحملة العسكرية.

(٧٣) رابع أسماء الملك أحمس.

Urk. I., Isq (٧٤)

Vandersleyen, Guerres d'Amosis, p.34 sqq (٧٥)

(٧٦) نعرف أن الملك أبوبى الذى نُسخَت بردية ريند Rhind فى العام ٢٢ من عهده، كان ما زال متربحاً على العرش فى عهد كامس، كما طالت سنوات حكمه حتى بلغت الأربعين سنة تقريباً. ومن ثم لا يمكن أن يكون عهد الملك المقصود بالعام ١١، سوى خليفته الملك خع مودى أو أحمس، ومن الراجح أنه هذا الأخير.

(٧٧) كان الملك يكافئ الجنود الأشاوس بقدر ما قتلوا من جنود الأعداء وعدد الأسرى. ولحصر عدد القتلى كانت تقطع يدهم اليمنى لإحضارها إلى فرعون.

(٧٨) كناية على امتداح قوة أحمس وشجاعته. فقد استطاع أن يعبر الماء وهو يحمل أسيراً دون عناء وكأنه يسير على طريق معبد.

(٧٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول: فينقيا.

Urk. Iv, 35 (1. 16-17) (٨٠)

Urk. Iv, 24-25 (٨١)

(٨٢) الارتفاع: ٢٥٠سم والعرض ١٥سم.

(٨٣) أحمس هو ملك الجنوب فى به أى تل الفراعين فى الدلتا وهو ملك الشمال فى البلد المحبوب، وكانت هذه التسمية تشير إلى طيبة ومنطقتها. الخلط المقصود بين المكانين يعتبر تعبيراً لغوياً عن استعادة وحدة مصر التى لا تنقسم.

(٨٤) من مدن الدلتا وفيها نشأت أيزيس ابنها حورس، فى سرية تامة.

(٨٥) من مختلف طبقات المصريين.

(٨٦) سيشات هى إلهة الكتابة.

Urk. iv, 14-24 (٨٧)

(٨٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: سيناء.

(٨٩) راجع فيما سبق: الهكسوس في مصر.

(٩٠) عن مختلف العبادات هذه، راجع:

P. Garelli, Proche - Orient asiatique, passim.

Vandersleyen: Guerres d'Amosis, Appendices (٩١)

Winlock, in Ancient Egypt, 1921, pp.14-16 (٩٢)

(٩٣) وهنا يظهر لأول مرة هذا اللقب الشرفي الذي حملته ملكات مصر.

(٩٤) كاهن يشارك في إقامة الشعائر الجنائزية.

(٩٥) من كبرى الأعياد الدينية والزراعية.

(٩٦) من الراجع ليتمكن من كتابة صيغة تقديم القرابين.

Urk. iv, 26-29 (٩٧)

Erman, in Z.A.S., 1900, vol. 38, p.150 (٩٨)

(٩٩) كان يناط بالكهنة وعب القيام تحديداً ببعض الطقوس، ولا سيما زينة التمثال الإلهي في ناووسه.

(١٠٠) من الراجع أنها زوجة أنتف السابع. راجع فيما سبق: الفصل الثاني: طيبة الأبية المتمردة.

(١٠١) كان «الكلمة»(*) قدرة خلاقة. إن «تسمية» القرابين يترتب عليها انبعائها كواقع حقيقى. تشير هذه الصيغة التقليدية إلى قربان مقدم إلى الآلهة لتقوم بدورها بتقديمه للشخص الذى وقع عليه اختيار مقدم القرابين: والمقصود به هنا الملكة عح حوتب. إن خدمة تقديم القرابين فى مصر، وكانت على قدر كبير من الأهمية، تنطوى أيضاً على «آلية» سحرية.

(*) «الكلمة» مؤنث لفظى ومذكر معنوى. ونذكر على سبيل المثال ما ورد فى مطلع إنجيل يوحنا ١:١. «فى البدء كان الكلمة». راجع الكتاب المقدس. العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ١٩٦٩. (المترجم)

Urk. iv, 29-31 (١٠٢)

(١٠٣) راجع فيما بعد: الفصل الثالث. أهل طيبة.

Drioton, in B.S.F.E. 1953, vol. 12, p.11 (١٠٤)

(١٠٥) هذا الصرح من إنشاءات أمنحوتب الثالث الذي استخدم عند تشييده كتلاً حجرية من المباني التي أقامها أسلافه.

(١٠٦) يرى دريوتون Drioton أن وحدة العملة شفع تعادل سبعة جرامات ونصف من الذهب (art. cit., p.16)

Drioton, art. cit., pp.21-25 (١٠٧)

مراجع شاملة عن هذا الموضوع مذكورة في p.11.

Empire des Ramsès, p. 227 sqq (١٠٨)

(١٠٩) الإله «ابن أوى» الذي يشرف على وقائع التحنيط.

(١١٠) إنها أوان كانت تحفظ فيها أحشاء الموتى بعد تحنيطها.

(١١١) عن أى إيضاحات أخرى عن أحمس - نفرتارى راجع:

Michel Gitton, L'épouse du dieu, Ahmes - Nefertary. Besançon, 1975. p.108.

(١١٢) كان من المعتاد إلحاق هذه الصفة بكل كيان إلهى فى مدينته.

Karnak, p.21 (١١٣)

(١١٤) راجع فيما سبق: الفصل الثانى: أحمس ملكاً وإدارياً.

Karnak, p.18 (١١٥)

(١١٦) عن هذه الشعائر وكيفية إقامتها راجع:

Empire des Ramsès, p. 223 sq.

هوامش الفصل الثالث

(١) مملكة شمالية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر الفرات. راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الملحمة البطولية: عبور الفرات والفصل السابع: فراعنة السلام: الإبقاء على الإمبراطورية.

(٢) بدأت مصر تستورد البرونز عند نهاية الأسرة الثانية عشرة.

Urk. iv, 44 (٣)

Urk. iv, 49 (٤)

Empire des Ramsès, p. 204 sqq (٥)

(٦) إيماءو - كحك: موقع غير معروف ربما في النوبة أو في الواحة الليبية.

Urk. iv, 36, 1.1-4 (٧)

Urk. iv, 50, 1.12 (٨)

Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinai, p.149 (٩)

Urk, iv, 54 (1, 14-17) (١٠)

(١١) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٣: المعابد والآلهة.

Edgerton, The Thutmosid Succession, Chicago, 1933, p.41 (١٢)

(١٣) لا تحمل سن سنب لقب الزوجة الملكية. وهو ما يبعث على الاعتقاد بأنها كانت من محظيات أمنحوتب الأول.

Urk. iv, 79-81 (١٤)

(١٥) في تاسوع هليوبوليس كان جب حفيد أتوم الذي كان على رأس الأسرة الحاكمة الإلهية. وفي أسطورة أوزيريس كان جب والد أوزيريس أول الملوك الذين حكموا الأرض.

(١٦) الصورة مزوجة: إن تدفق الدم وكأته طلاء أحمر، ينساب من فم الأعداء، يُشبهه بالأمطار الجارفة من كثرة إراقة الدماء.

(١٧) ربما كان المقصود الملوك الأقدمين من مدينة هليوبوليس الذين ماتوا وألّهوا. كما أقيمت أيضاً الشعائر لباو العواصم القديمة مثل هرموبوليس (الآشمونين. م.) وهيرقليوبوليس (إهناسيا المدينة. م.) ويوتو (تل الفراعين. م.) راجع:

Sethe, Urgeschichte, §§ 127, 165, 170.

(١٨) نهر الفرات. وقد أثار على الدوام دهشة المصريين لأن مجراه كان يتدفق من الشمال إلى الجنوب، عكس نهر النيل الذي كان في نظرهم النهر الأمثل.

(١٩) أسرات حاكمة أسطورية سبقت الأسرات الملكية.

Urk. iv, 79-86 (٢٠)

Urk. iv, 36 (1.5-8) (٢١)

(٢٢) ربما جاءت من واحات الصحراء الغربية. ومن جديد يُعتقد أنه كان تمرداً وقع بالتواطؤ بين كوش وهذه الواحات.

Urk. iv, 8-9 (٢٣)

(٢٤) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

Urk. iv, 89-90 (٢٥)

Urk. iv, 88 (٢٦)

Arkell, in J.E.A., 1953, vol. 39, pp.36-37 (٢٧)

Vercoutter, in Kush, 1956, vol.4, pp. 68 et 70.

(٢٨) حرفياً: «يقتسل القلب». صورت المغامرة وكأنها نزهة للاسترخاء وليست عدواناً.

Urk. iv, 9-10 (٢٩)

Urk. iv, 36 (1.9-14) (٣٠)

Urk. iv, 103-104 (٣١)

Urk. iv, 58 (1.11-13) (٣٢) حياة إينيني -

Ratié, Hatshepsout, p.24 (٣٣)

Urk. iv, 108-110 (٢٤)

Gauthier, Livre des rois, tome II, p.226, note 2 (٢٥)

Urk. iv, 154 (1.12) (٢٦)

Urk. iv, 143 (1.12) (٢٧)

Urk. iv, 144 (1.3) (٢٨)

(٢٩) تشير إزبواجية الألوان هذه، إلى مصر التي تعود خصوبة أرضها إلى الغرين الأسود الذي يجلبه النهر، وإلى الصحارى المحيطة بأرض الوادى بلونها القانى من شدة الشمس الساطعة.

Urk. iv, 58-59 (٤٠)

(٤١) وقد اختار تحوتمس الثالث المصطلحات نفسها عندما أراد وصف إمبراطوريته، على لوح حجرى عثر عليه فى جبل بركل، ويعود تاريخه إلى العام ٤٧ من عهده. راجع فيما بعد: الفصل الخامس: مصر الإمبراطورية.

KRI, I, 26 (٤٢)

(٤٣) C. L. Textes, p.171. ربما حدث ذلك على مقربة من الجندل الثانى.

Urk. iv, 137-141 (٤٤)

Edgerton: Thutmosid Succession, p.42 (٤٥)

Urk. iv, 36 (1. 12-14) (٤٦)

Urk. iv, 59 (1. 13-14) (٤٧) (حياة إينينى)

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

Urk. iv, 86-88 (٤٩)

C. Lalouette, Textes, p.50 (٥٠)

Urk. iv, 108 (1. 11-14) (٥١)

(٥٢) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى.

Urk. iv, 76-77 (٥٢)

L. Habachi, in Kush, 1959, vol. vii, p.57 (٥٤)

Urk. iv, 78 (1. 8-12) (٥٥)

(٥٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

L. Habachi, art. cit., p47, fig 2 (٥٧)

لقب «الإبن الملكى» لقب شرفى محض.

(٥٨) كان خنوم يحمل هذا الاسم فى النوبة.

Urk. iv, 142 (1. 1-16) (٥٩)

Urk. iv, 51 (1. 1-11) (٦٠)

Urk. iv, 10 (1. 5-9) (٦١)

Urk. iv, 34 (1. 5-10) (٦٢)

Urk. iv, 38-39 (٦٣)

Urk. iv, 34 (1. 11-17) (٦٤)

(٦٥) كما يقوم أحمس - بن - نخبت بحصر مآثره الحربية على قاعدة تمثال يحتفظ به متحف اللوفر فى باريس (C 69).

Urk. iv, 35-36

(٦٦) إن الريشتين العاليتين القائمتين على قاعدة تاج تشكل غطاء رأس الإله. راجع: المقدمة: أمون وتأسيس الكرنك.

(٦٧) اسم معبد فى منف.

(٦٨) مدخل جبانة منف.

(٦٩) مياه النيل عند منابعه ذاتها، على حد اعتقاد القدماء.

(٧٠) فى وسع پاخرى فى واقع الأمر، أن يشترك فى القرابين الإلهية ولا سيما إبان كبرى الأعياد

الدينية.

(٧١) العنصر المتحرك فى الكائن ويصور على هيئة طائر برأس آدمى.

(٧٢) ذكرى عن الصيرورات النجمية القديمة.

(٧٣) العالم الآخر القائم فى العالم السفلى.

(٧٤) مكان محكمة أوزيريس.

(٧٥) حقل من حقول السماء الذى سيتعين على المتوفى أن يزرعه، من أجل إعاشته إلى الأبد.

(٧٦) إن حدود الحقول (?) والممتلكات الملكية يرسمها باحرى على نحو صارم، كما يتحدد مجرى النيل.

(٧٧) إلى الذين سيعملون نيابة عنه.

Urk. iv, 111-113 (٧٨)

Urk. iv, 68 (1, 8-12) (٧٩)

Urk. iv, 69 (1.4-5) (٨٠)

(٨١) حقل من حقول السماء.

(٨٢) من الراجح أن أسماء عدد من الأعياد كانت مدونة فى هذه الفجوة.

Urk. iv, 54 (1. 1-12) (٨٣)

Urk. iv, 55 (1. 12-16) (٨٤)

Urk. iv, 57-58 (٨٥)

Urk. iv, 70, (1. 1-6) (٨٦)

(٨٧) الأقصر.

Urk. iv, 71 (1. 9-14) (٨٨)

Urk. iv, 59 (1. 5-12) (٨٩)

Lefebvre: Contes et romans, p. 80 sqq (٩٠)

Urk. iv, 72 (1. 14-16) (٩١)

Urk. iv, 73 (1. 7-10) (٩٢)

Urk. iv, 61-62 (٩٣)

(٩٤) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٢٠. المعابد والآلهة.

(٩٥) تختلف الآراء حول أصول الملكة عح حوتب هذه. يرى البعض أنها زوجة سقن رع قاعا والتي

كانت لا تزال على قيد الحياة في العام العاشر من عهد حفيدا أمنحوتب الأول. راجع:

Breasted, A. R. pp. 21-22.

وكانت آنذاك متقدمة في السن. ويبدو الآن أن جمهور العلماء يُجمعون على أن هذه «الأم

الملكة» هي في حقيقة الأمر عح حوتب الثانية:

Lexikon, I, p.99

راجع:

Edwards, in CAH, p.307

(٩٦) أوزيريس.

(٩٧) هكذا يشارك كارس في طقوس الخدمة الإلهية.

Urk. iv, 45-47 (٩٨)

Urk. iv, 131-133 (٩٩)

Urk. iv, 134 (1.4 et 8-9) (١٠٠)

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

Urk. iv, 43 (1. 3-6) (١٠٢)

Urk. iv, 55-56 (١٠٣)

Urk. iv, 93 (1. 5-6 et 11) (١٠٤)

Urk. iv, pp. 198-199 (١٠٥)

(١٠٦) أي خيرات الأرض وثرواتها.

(١٠٧) معنى هذا الاسم حرفياً: «الأرض التى توتقع» وهو إشارة أخرى إلى الأرض التى تنبتق من الخواء السائل قبل خلق العالم، ويشير إلى إله موغل فى القدم، من آلهة منف، يندمج فى أغلب الأحوال فى الإله يتاح.

(١٠٨) اسم بلدة على مقربة من أبيبوس حيث تقع مقبرة الإله. وإبان أحد الأعياد السنوية الكبيرة كان المصريون ينقلون إلى هذا المكان المركب الذى يضم تمثال أوزيريس.

(١٠٩) مدينة أنتينوى.

(١١٠) أحد أسماء هرموبوليس.

(١١١) الإله الذئب الذى كان يعبد فى أسسيوط وكان اسمه يعنى «هذا الذى يفتح الطرق». وفى المواكب الإحتفالية والأعياد كان يتقدم المواكب.

(١١٢) والمقصود العلمانيون الذين يعاونون الكهنة. كانوا يقدمون خدماتهم طوعاً، وعن طيب خاطر، فيقومون بالأعمال المادية فى المعبد. واستناداً إلى الاسم الذى يحملونه، كانت خدماتهم لا تستغرق فى الأصل أكثر من ساعة.

Urk. Iv, 95-102 (١١٣)

Urk. Iv, 53 (1. 15-17) (١١٤)

Gitton, Ahmes Nefertary, p.19 (١١٥)

Howard Carter, in J.E.A., 1916, vol.3, pp. 147-154 راجع: (١١٦)

Urk. Iv, 57 (1, 3-8) (١١٧)

Backman, in J.E.A., 1926, vol. 12, pp. 176-185 (١١٨)

(١١٩) مكيال يعادل حوالى ٤ لترات ونصف.

(١٢٠) الغار يعادل ٢٠ حقات.

(١٢١) وحدة وزن تعادل ٩٢ جرام.

J. Gerny, in B.I.F.A.O. 1927, tome 27, pp. 159-203 (١٢٢)

H. H. Nelson, in J.N.E.S. 1949, vol. viii, pp. 201-345 (١٢٣)

هوامش الفصل الرابع

(١) راجع فيما سبق. الفصل الثالث.

(٢) تُقارن الدولة بسفينة تتولى حتشپسوت قيادتها. وتواجه السفينة الجنوب طبقاً للإتجاه التقليدى الذى كان يلتزم به المصريون ناحية منابع النيل.

Urk. iv, 59-60 (٣)

Urk. iv, 180 (1. 8-12) (٤)

(٥) اسم حورس بن أوزيريس والذى خلف أباه على العرش ليحكم الأحياء حكماً شرعياً.

(٦) الاسم الذى أطلقه المصريون على القاعة التى نعرفها فى الوقت الراهن تحت اسم بهو الأساطين، بسبب الرمزية النباتية التى تلازم الأساطين التى تحمل سقفها. المقصود هنا بهو الأساطين الذى كان تحوتمس الأول قد انتهى لتوه من تشييده. راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.

(٧) حرفياً: «حورس الأفق» وهو أحد أشكال الشمس عند الفجر وأكثرها تألقاً فى عيون البشر الخارجين من الليل. ومن ثم يخرج موكب إحتفالى يجوب بتمثال الإله فى معبده.

(٨) حاملو التمثال ناحية مقدمته.

(٩) اسم يدل على محطة لاستراحة الملك فى المعبد.

(١٠) تأليه شمسى للأمير الشاب.

(١١) صورة لقصر العاهل الملكى على الطريقة المصرية، تعلوه الصورة الحامية للإله حورس الملكى، ويات منذ عهد نعرمر يضم أول أسماء قائمة الألقاب الملكية.

(١٢) الإله تحوت الذى يتركب منه اسم تحوتمس.

Urk. iv, 157- 162 (١٣)

Urk. iv, 180-182 (١٤)

(١٥) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول، المحارب المنتصر.

- Urk. Iv, 193 (1.16) (١٦)
- (١٧) قرنا كبش أمون.
- Urk. Iv, 198-201 (١٨)
- Urk. Iv, 197-198 (١٩)
- Urk. Iv, 208-209 (٢٠)
- Urk. Iv, 1384 (1. 3-9) (٢٠ مكرر)
- Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, p.150 (٢١)
- Urk. Iv, 270-273 (٢٢)
- Ratié, Hatshepsout, p.52 (٢٣)
- J. Yoyotte, in AEPHE, 1967-1968, vol. LXXXV, pp. 269-271 (٢٤)
- Ratié, hatshepsout, pp. 84-85
- C. L. Textes, pp. 27-30 (٢٥)
- Die Geburt des Königs. Wiesbaden, 1964 (٢٦)
- Dendara et le temple d'Hathor, Le Caire, 1969, pp. 105-110 (٢٧)
- (٢٨) هذه الفقرة بأكملها تشبه إلى حد كبير من حيث تعبيراتها الحكاية الخرافية التي تعود إلى الأسرة الخامسة.
- Urk. Iv, 217-218 (٢٩)
- Urk. Iv, 218-219 (٣٠)
- Urk. Iv, 219-222 (٣١)
- Urk. Iv, 222-224 (٣٢)
- (٣٣) إشارة إلى العلاقة الحميمة التي تربط الملكة بزوجها.
- Urk. Iv, 224-225 (٣٤)

- Urk. iv, 227 (1. 4-14) (٢٥)
- Urk. iv, 228-230 (٢٦)
- J. Leclant, in J.N.E.S. 1951, vol x, n°2, pp. 123-127 (٢٧)
- Urk. iv, 230-231 (٢٨)
- (٢٩) إشارات إلى الأماكن المرتفعة الواردة في أسطورة أوزيريس وطفولة حورس.
- Urk. iv, 235-240 (٤٠)
- Urk. iv, 242 (1. 6-17) (٤١)
- Urk. iv, 243-245 (٤٢)
- Urk. iv, 245-249 (٤٣)
- (٤٤) راجع فيما سبق: الهامش ١٧ من الفصل الثالث.
- WB, I, 73 (8) (٤٥)
- (٤٦) شعائر ملكية مرتبطة بمراسم التتويج.
- Urk. iv, 255-261 (٤٧) كل هذه الفقرة:
- (٤٨) اسم معبد التطهر في مصر العليا.
- Urk. iv, 263 (1. 4-6) (٤٩)
- Urk. iv, 264 (1. 2-4) (٥٠)
- Urk. iv, 264 (1. 16-17) (٥١)
- Urk. iv, 280 (1.5) (٥٢)
- Urk. iv, 280 (1.17) (٥٣)
- Urk. iv, 362 (1. 16-17) (٥٤)
- Urk. iv, 391 (٥٥)

- Urk. Iv, 385 (1. 1-3) (٥٦)
- (٥٧) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الرضاغة الإلهية.
- Urk. Iv, 378-380 (٥٨)
- (٥٩) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: فى النوبة.
- Urk. Iv, 213-214 (٦٠)
- Urk. Iv, 201-202 (٦١)
- Urk. Iv, 212-213 (٦٢)
- Urk. Iv, 355 (٦٣)
- Urk. Iv, 375-376 (٦٤)
- Urk. Iv, 464 (1. 7-11) (٦٥)
- Urk. Iv, 393-394 (٦٦)
- (٦٧) متحف باراكو Barracco.
- (٦٨) متحف المتروبوليتان للفنون n°31.3.91.
- Urk. Iv, 470 (1.5 et 9) (٦٩)
- Lefebvre: Grands prêtres, p.76 (٧٠)
- Hayes, in JEA, 1961, vol.47, p.20 (٧١)
- Urk. Iv, 472-473 (٧٢)
- Urk. Iv, 483-484 (٧٣)
- Urk. Iv, 473-476 (٧٤)
- Nina M.Davies, in J.E.A., 1961, vol. 47, p.19 (٧٥)
- Gaminos, Gebel Silsileh, pp. 42-52 (٧٦)

Urk. iv, 398, 402-403, 411-412 (٧٧)

Schulman, in J.A.R.C.E., 1969-1970, vol. viii, pp. 33-34 et 47-48 (٧٨)

Helck, Zur Verwaltung, pp. 356-357

Urk. iv, 414-415 (٧٩)

(٨٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكاب.

(٨١) مكان مقدس فى طيبة مكرس للإلهة موت.

Urk. iv, 408 (l. 12-13) (٨٢)

Urk. iv, 404-405 (٨٣)

Urk. iv, 409-410 (٨٤)

Urk. iv, 410-412 (٨٥)

Urk. iv, 396-397 (٨٦)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 53-56 (٨٧)

Ratié: Hatshepsout, p.89 (٨٨)

(٨٩) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الفقرات الأخيرة من الملك المصطفى.

Urk. 490-491 (٩٠)

(٩١) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلافة.

(٩٢) وحدة مكيال.

Urk. iv, 428-429 (٩٣)

Urk. iv, 513-514 (٩٤)

Urk. iv, 494-495 (٩٥)

(٩٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكاب.

Urk. iv, 517-518 (٩٧)

(٩٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الملك المصطفى.

Urk. iv, 208 (1. 3-4) (٩٩)

(١٠٠) شخص رفيع الشأن.

Urk. iv, 150-151 (١٠١)

(١٠٢) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الملك الأرضي.

In J.N.E.S., 1957, vol. xvi, pp. 99-104 (١٠٣)

Urk. iv, 341-342 (١٠٤)

(١٠٥) اللحية هي أيضاً لحية إلهية مستعارة.

Urk. iv, 342-347 (١٠٦)

(١٠٧) تاج إلهي ويخص أوزيريس تحديداً وتاج ملكي أيضاً.

Urk. iv, 349-352 (١٠٨)

Ratié: Hatshepsout, p.148 (١٠٩)

Urk. iv, 319-320 (١١٠)

Urk. iv, 323-324 (١١١)

Urk. iv, 325-326 (١١٢)

Ratié, Hatshepsout, p.154 (١١٣)

Urk. iv, 327-328 (١١٤)

Urk. iv, 328-329 (١١٥)

Urk. iv, 320 (1. 6-11) (١١٦)

(١١٧) من الأقوام النوبية.

(١١٨) يقع هذا البلد في السودان الحالي. وكانت الآبار تحتل فيه مكانة بارزة. راجع:

Empire des Ramsès, p. 97.

- Urk. iv, 332-333 (١١٩)
- Urk. iv, 334-337 (١٢٠)
- (١٢١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...
- Urk. iv, 339-340 (١٢٢)
- In Kemi, 1952, vol. xii, p.17 (١٢٣)
- Urk. iv, 364-367 (مكرر ١٢٣)
- Urk. iv, 358 (1. 8-9) (١٢٤)
- (١٢٥) إله جعفران. وهو شكل الشمس عند الفجر.
- Urk. iv, 361-362 (١٢٦)
- Urk. iv, 362 (1. 10-16) (١٢٧)
- Urk. iv, 367-368 (١٢٨)
- Urk. iv, 364 (1. 1-6) (١٢٩)
- (١٣٠) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.
- Urk. iv, 297-298 (١٣١)
- Lacau-Chevrier, Une Chapelle d'Hatshepsout à Karnak.- Le Caire, 1977 (١٣٢)
- P. Barguet, Archeologia, 1967, vol.15, p.61 (١٣٣)
- (١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الولادة الإلهية والسياسة.
- Urk. iv, 387-388 (١٣٥)
- Urk. iv, 386-387 (١٣٦)
- Urk. iv, 383-384 (١٣٧)
- Urk. iv, 380-391 (١٣٨)

Urk. Iv, 384-385 (١٣٩)

Caminos, Ibrim, pp. 24-25 (١٤٠)

Ratiè, Hatshepsout, pp. 62-63 et 90-91 : راجع (١٤١)

Hayes, Royal Sarcophagi, pp. 17-18, et fig.4 (١٤٢)

هوامش الفصل الخامس

(١) جميع الشعارات والرموز الملكية، قد تُبثَّ فيها الحياة بفضل السحر، مؤكدةً على اتحادها اللصيق بالعامل الملكي.

Urk. Iv, 886-887 (٢)

اللوح الحجري الذي عثر عليه في سراييط الخادم بشبه جزيرة سيناء ويعود إلى العام ٢٥.

Urk. Iv, 1234 (1. 8-12) (٣)

Urk. Iv, 648 (1. 6-7) (٤)

Urk. Iv, 808 (1. 14) (٥)

Urk. Iv, 808 (1. 15-17) (٦)

Urk. Iv, 647-648 (٧)

Urk. Iv, 649-652 (٨)

Urk. Iv, 655-656 (٩)

Urk. Iv, 657 (1. 2-4) (١٠)

Urk. Iv, 657 (1.12) (١١)

Urk. Iv, 657 (1. 5-9 et 15) (١٢)

Urk. Iv, 657-659 (١٣)

Urk. Iv, 660 (1. 7-9) (١٤)

Urk. Iv, 660-661 (١٥)

Urk. Iv, 184-185 (١٥ مكرر)

Urk. Iv, 809 (1. 1-11) (١٦)

Urk. Iv, 767 (1. 5-14) (١٧)

- Urk. iv, 1235-1236 (١٨)
- Urk. iv, 663-667 (١٩)
- Urk. iv, 185-186 (٢٠)
- Urk. iv, 663 (1.2) (٢١)
- Urk. iv, 781-794 (٢٢)
- Urk. iv, 796-806 (٢٣)
- Urk. iv, 671 (1.9) (٢٤)
- Urk. iv, 777 (1. 2-3) (٢٥)
- (٢٦) راجع فيما بعد الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.
- Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, I, pl. LXIV (1. 10-13) (٢٧)
- ibid, pl. LXIV (1. 2-10) (٢٨)
- Urk. iv, 687-688 (٢٩)
- (٣٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية.
- Urk. iv, 690 (1. 2-6) (٣١)
- Urk. iv, 693-694 (٣٢)
- Urk. iv, 1232 (1. 2-4) (لوح جبل برقل) (٣٣)
- Urk. iv, 1232 (1. 7-9) (٣٤)
- Urk. iv, 1232 (1. 11-12) (٣٥)
- Urk. iv, 697 (1. 3-5) (٣٦)
- Empire des Ramsès, p. 115 (٣٧)
- Urk. iv, 1254-1246 (٣٨)

Urk. Iv, 697 (1. 12-16) (٢٩)

Urk. Iv, 1246 (1. 6-8) (٤٠)

Urk. Iv, 1232-1233 (لوح جبل بركل) (٤١)

(٤٢) راجع فيما بعد: الفصل السادس: ملك قدير قوى الشكيمة.

Urk. Iv, 1233-1234 (٤٣)

Urk. Iv, 893-894 (٤٤)

Urk. Iv, 710-711 (٤٥)

Urk. Iv, 894 (1. 5-15) (٤٥ مكرر)

Urk. Iv, 894-895 (٤٦)

(٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٤٨) ظهر بردية هاريس ٥٠٠ P. Harris 500.

نسخ النص بالكتابة الهيروغليفية فى:

Gardiner, Late Egyptian Stories, pp. 82-85.

يتخلل مطلع النص عدداً كبيراً من الفجوات الطويلة. وقد أعيد صياغتها نقلاً عن:

G. Lefebvre: Contes et romans, pp. 127-130.

Urk. Iv, 1230 (1. 16-18) (٤٩)

Urk. Iv, 814-815 (٥٠)

(٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم النوبة الأثرية.

(٥٢) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية.

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى.

Empire des Ramsés, 157 (٥٤)

Urk. Iv, 669 (1. 1-3) (٥٥)

(٥٦) لقد شاع في النصوص المصرية القديمة تغيير ضمير الفاعل من الغائب إلى المتكلم والعكس، واستبدال صيغة المباشر بغير المباشر والعكس.

Empire des Ramsés, pp. 247-249 (٥٧)

Urk. iv, 740-741 (٥٨)

Urk. iv, 742-744 (٥٩)

(٦٠) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: مسلات العالم.

(٦١) لما كانت المسلات، من رموز النور الإلهي في اليوم الأول من أيام الخليقة، فقد تقام لها الشعائر. والمسلات الأربع المشار إليها، موجودة في الوقت الراهن: في إسطنبول وروما، وتحديدًا في سان - جان - دي - لاتران Saint-Jean-de-Latran وفي لندن ونيويورك.

Urk. iv, 746-752 (٦٢)

Urk. iv, 768-769 (٦٣)

Urk. iv, 769 (1. 7-16) (٦٤)

Urk. iv, 767 (1. 1-4) (٦٥)

Urk. iv, 770-771 (٦٦)

Urk. iv, 747 (1. 1-10) (٦٧)

(٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: معركة مجنؤ.

Urk. iv, 1230 (1.12) (٦٩)

Urk. iv, 1230 (1. 11-16) (٧٠)

Urk. iv, 1229 (1.20) (٧١)

(٧٢) عن جميع هذه المواضع راجع: Empire des Ramsès, p.367, sqq.

(٧٣) مفردات اللغة المستخدمة تميز بوضوح تام بين آسيا وإفريقيا في الفكر التاريخي لذلك الزمن: كانت النصوص آنذاك تفرق كما هو الحال في هذا السياق بين لفظ خاسوت - أي البلدان الأجنبية كإشارة إلى بلدان آسيا التي فتحت عنوةً ولفظ تلو(*) أي الأراضي كإشارة إلى

الممتلكات الإفريقية وهو اللفظ نفسه تا(**) أى الأرض، كإشارة إلى مصر. ودلالة ذلك أن التبعية الطبيعية لهذه المناطق لم تكن ثمرة إنتصار عسكري ولكن نتيجة الرعب الذى يثيره مجد فرعون فى نفوس سكان هذه المناطق.

(*) (الواو علامة الجمع فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) فى صيغة المفرد. (المترجم)

Urk. iv, 611-619 (٧٤)

Empire des Ramsès, p. 141 sqq (٧٥)

Urk. iv, 603 (1. 4, 9 et 10) (٧٦)

Urk. iv, 606 (1. 4-8) (٧٧)

(٧٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: فى مصر. بعيداً عن الكرنك.

(٧٩) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.

Urk. iv, 607 (1. 3-9) (٨٠)

(٨١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين.

Urk. iv, 1039-1041

(٨٢) عن الألقاب والصفات المتعددة والمتنوعة راجع:

Urk. iv, 1380-1383 راجع أيضاً:

Helck, Agyptologische Studien, pp. 107-117

Urk. iv, 1030-1031 (٨٤)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 57-63 (٨٥)

(٨٦) راجع فيما سبق: الهامش ٤٨ من الفصل الرابع.

Urk. iv, 1071 (1. 6-16) (٨٧)

Garies - Davies: Tomb of Rekhmirê (٨٨)

Urk. iv, 1086-1093 (٨٩)

(٩٠) مديرو الأراضي الملكية.

Urk. iv, 1103-1117 (٩١)

Urk. iv, 1139-1140 (٩٢)

Davies: Rekihmîrê, pl. LXXII.

Urk. iv, 1161 (1. 3-5) (٩٣)

Davies: Rekihmîrê, pl. XXXIX.

Davies: Rekihmîrê, pl. XXIX-XXXV (٩٤)

Urk. iv, 1094 (1. 6-11) (٩٥)

(٩٦) توجد الرسومات فى الحجرة الأولى من المقبرة، فى القسم الجنوبى من الجدار الغربى.

Davies: Rekihmîrê, pl. XVII-XX

Urk. iv, 1102 (1. 11-17) (٩٧)

Davies: Rekihmîrê, pl. XXI-XXIII.

Davies: Rekihmîrê, pp. 48-59 (٩٨)

Urk. iv, 1165 (1. 10-17) (٩٩)

Urk. iv, 1166-1167 (١٠٠)

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: صيد الأفيال.

ZIVIE, IN R.E, 1979, VOL. 31, p. 149 (١٠٢)

Urk. iv, 898-904 (١٠٣)

Urk. iv, 920-921 (١٠٤)

Urk. iv, 918 (1. 3-12) (١٠٥)

(١٠٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مائرة أسطورية.

Urk. iv, 1004-1005 (١٠٧)

- Urk. Iv, 1006-1007 (١٠٨)
- Urk. Iv, 1015 à 1017 (١٠٩)
- Urk. Iv, 1013 (1. 10-14) (١١٠)
- (١١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.
- Davies: Tomb of Amenmose, pl. xxxvi (١١٢)
- Empire des Ramsès, p. 377 (١١٢)
- Davies: Tomb of Amenmose, pl. XLVI,B (١١٤)
- Urk. Iv, 995 (1. 10-15) (١١٥)
- Urk. Iv, 936 (1. 5-13) (١١٦)
- Urk. Iv, 926-928 (١١٧)
- Davies: Tomb of Menkheperreseneb p. IV à VII (١١٨)
- Urk. Iv, 929 (1. 8-14) (١١٩)
- Davies: Tomb of Menkheperreseneb pl.XI à XIII (١٢٠)
- Urk. Iv, 932-933 (١٢١)
- Urk. Iv, 523 (1. 5-6) (١٢٢)
- Urk. Iv, 1210 (1. 12-17) (١٢٣)
- Urk. Iv, 1216 (1. 5-6) (١٢٤)
- (١٢٥) راجع فيما سبق: الهامش ٧٥ من الفصل الثالث.
- Urk. Iv, 1192-1194 (١٢٦)
- Urk. Iv, 1202-1203 (١٢٧)
- Kees, in Z.A.S., 1960, vol. 85, pp. 45-46 (١٢٨)
- Dewachter, in R.E. 1984, t.33, pp.84-86

Urk. Iv, 980 (1. 6-7 et 13-14) (١٢٩)

Urk. Iv, 1044-1048 (١٣٠)

Urk. Iv, 1063-1064 (١٣١)

Urk. Iv, 966-969 (١٣٢)

Urk. Iv, 974-975 (١٣٣)

W. C. Hayes, in J.E.A., 1961, vol. 47, p. 6-16 (١٣٤)

Urk. Iv, 940-941 (١٣٥)

Urk. Iv, 958 à 962 (١٣٦)

Urk. Iv, 955 (1. 14-16) (١٣٧)

Urk. Iv, 942-944 (١٣٨)

Dewachter, in R.E. 1976, tome 28, pp. 151-153 (١٣٩)

Urk. Iv, 989 (1. 9-10) (١٤٠)

Urk. Iv, 984 (1. 8-11) (١٤١)

عن تحديد موقع هذا النص في بلدة اللبسية بفضل زينه Sethe، راجع:

Camino, Ibrim, p. 43. (والمراجع)

Urk. Iv, 986 (1. 5-10) (١٤٢)

Camino, Ibrim, pp. 38-39 (١٤٣)

Naville: Deir el Bahari, pl. xl A, p.3 (١٤٤)

(١٤٥) صورة مصغرة تشبه المومياء، وتعود إليها الحياة على نحو سحري، لتقوم بالأعمال التي تكلف بها في حقول العالم الآخر، بدلاً من المتوفى.

L. Habachi, Sixteen Studies, p.87, note 6 (١٤٦)

T. Save- Söderbergh, in Kush, 1960, vol.8, pp. 25-44 (١٤٧)

(١٤٨) الدراسة الأم هي دراسة:

P. Barguet: Temple d'Amon-Rê

(١٤٩) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنؤ...

Urk. iv, 166-174 (١٥٠)

(١٥١) راجع فيما سبق الفصل الثاني: الكرنك.

Urk. iv, 854 (1. 6-13) (١٥٢)

Urk. iv, 836 (1. 2-3) (١٥٣)

Temple d'Amon-Rê, pp. 157-217 (١٥٤)

Empire des Ramsès, p. 25 (١٥٥)

Urk. iv, 566-567 (١٥٦)

C.Lalouette, in B.I.F.A.O., 1979, tome 79, pp. 333, 353 (١٥٧)

Urk. iv, 862-864 (١٥٨)

Urk. iv, 765-767 (١٥٩)

Urk. iv, 832 (1. 12-14) (١٦٠)

(١٦١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

Urk. iv, 819 (1. 1-7) (١٦٢)

Urk. iv, 807-809 (١٦٣)

(١٦٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: من أجل تعريف الإمبراطورية.

Urk. iv, 590-591 (١٦٥)

Urk. iv, 585 (1. 6-7) (١٦٦) الواجهة الشمالية

Urk. iv, 895-896 (١٦٧)

(١٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ثلاث سيدات في البلاط الملكي.

هوامش الفصل السادس

- (١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين.
- (٢) D.B. Redford, in J.E.A., 1965, vol. 51, pp. 107-122
- (٣) A. H. Gardiner, in J.E.A., 1945, vol. 31, p.27
- (٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.
- (٥) Davies: Tomb of Amenmose, pl. LXX
- (٦) Urk. Iv, 1160 (1. 6-14)
- (٧) Breasted: AR, p. 318, § 807
- (٨) Urk. Iv, 1245-1246
- (٩) Urk. Iv, 1248-1249
- B. Van de Walle, in C.E., 1938, vol. XXVI, p.243.
- (١٠) Urk. Iv, 1364 (1.10)
- (١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.
- (١٢) Urk. Iv, 976 (1.13) et 977 (1.2)
- (١٣) In A.S.A.E., 1937, vol. 37, pp.129-134
- C.E., Juillet 1938, vol. XXVI, p. 244
- (١٤) إله وإلهة من آلهة الحرب الآسيوية.
- (١٥) Urk. Iv, 1279-1283
- (١٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تحوتمس الرابع: حلم الظهيرة.
- (١٧) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تحوتمس الرابع: حلم الظهيرة.
- (١٨) Urk. Iv, 1289-1293

C. Desroches-Noblecourt, in R.E. 1950, vol. 7, pp. 37-41 (١٩)

In A.S.A.E. 1943, vol. XLII, pp. 1-23 (٢٠)

(٢١) مدينة في شمال فلسطين الحالية.

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الدبلوماسية الدولية.

(٢٣) لوح منف الحجري: Urk. Iv, 1301-1305

لوح الكرنك الحجري: Urk. Iv, 1310-1314

(٢٣ مكرر) Urk. Iv, 1297-1298

(٢٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنؤ.

(٢٥) لوح منف الحجري: Urk. Iv, 1305-1309

Gardiner, in JEA, 1945, vol. XXI, p.27 (٢٦)

(٢٧) Urk. Iv, 1309 (1. 13-20)

(٢٨) Urk. Iv, 1326 (1.1 et 4)

(٢٩) Urk. Iv, 1333-1334

(٣٠) Urk. Iv, 1358 (1. 11-18)

(٣١) Urk. Iv, 1363 (1. 11-14)

(٣٢) Urk. Iv, 1362-1363

Empire des Ramsès, p. 144 (٣٣)

(٣٤) راجع فيما سبق الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجنؤ.

(٣٥) Urk. Iv, 1537-1540

(٣٦) Urk. Iv, 1293-1294

(٣٧) Urk. Iv, 1333 (1.3)

Urk. Iv, 1332 (1. 19) (٣٨)

Urk. Iv, 1331 (1. 11-12) (٣٩)

Urk. Iv, 1329-1330 (٤٠)

P. Barguet, Temple d'Amon-Rê, p. 105 et note 3 (٤١)

(٤٢) من شعائر تأسيس المعبد.

Urk. Iv, 1295-1296 (٤٣)

Urk. Iv, 1299 (1. 3-5) (٤٤)

Urk. Iv, 1439 (1. 4-9) (٤٥)

Urk. Iv, 1345-1246 (٤٦)

لا شك أن هذا الرقم الإجمالي، كان يأخذ في الحسبان، وجود مرافقين آخرين، لا تذكرهم القائمة الموضحة أعلاه.

Urk. Iv, 1343-1344 (٤٧)

Urk. Iv, 1425-1426 (٤٨)

Urk. Iv, 1397, 1.7 (٤٩)

Wild, in B.I.F.A.O., 1956, vol. 56, pp. 233-237 (٥٠)

Dewachter, in R.E., 1980, vol. 32, pp.68-73 (٥١)

Davies: Kenamun, pl. LIV, C (٥٢)

Ibid., pl. XLIX, (1.5) (٥٣)

Ibid., pl. IX (٥٤)

Urk. Iv, 1390-1391 (٥٥)

(٥٦) النجوم الخُسان (*) circumpolaires

(*) النجوم التي لا تغرب (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. القاهرة - ١٩٦٠).

وهى النجوم التى يمكن مشاهدتها كل ليلة من لياالى السنة، من أى خط عرض، وتظهر كأنها تحيط بالقطب السماوى. (معجم المصطلحات العلمية والتقنية. أكاديمية. بيروت. ١٩٩٣). (المترجم)

Davies: Kenamun, pl. XLV,B (٥٧)

الجانب الأيسر col. 2-16

Ibid., pl. LVI, B (٥٨)

الجانب الأيسر col. 1-6

Urk. iv, 1398 (1. 1-8) (٥٩)

Davies: Kenamun, pl. XXXIX.

(٦٠) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: أمن إم حب، صديق الصبا للملك.

Urk. iv, 1455, (1. 11-12) (٦١)

Faulkner, in J.E.A., 1934, vol. 20, p.154 (٦٢)

Urk. iv, 1460 (1. 6-16) (٦٣)

Urk. iv, 1491 (1. 1-6) (٦٤)

Urk. iv, 1450 (1. 18-20) (٦٥)

(٦٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: السياسة والدين.

Urk. iv, 1509-1510 (٦٧)

Lefebvre: Grands prêtres, pp. 92-93 (٦٨)

Camino: Gebel Silsileh, pp. 79-85 (٦٩)

Urk. iv, 1408-1411 (٧٠)

Gardiner, in Z.A.S., 1910, vol. 47, pp. 87-89.

(٧١) الخط المبتسر للكتابة الهيروغليفية.

هوامش الفصل السابع

- (١) Urk. Iv, 1542-1544
- (٢) Dittenberger, OGIS, n°666
- (٣) Urk. Iv, 1554 (1. 17-18)
- (٤) Urk. Iv, 1617 (1. 16-18)
- (٥) Davis: Tomb of Thutmosis IV, pl. VI
- (٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: عبور الفرات.
- (٧) Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, pp. 81-82 et pll. xlx-xx
- (٨) Urk. Iv, 1545-1548
- (٩) Urk. Iv, 1560 (1. 15-16)
- الأسماء الإفريقية: (1. 18-19) ibid
- (١٠) Urk. Iv, 1556 (1. 10-15)
- (١١) Urk. Iv, 1551 (1. 14-16)
- (١٢) Gerny, in J.E.A., 1964, vol. 50, pp. 37-38
- (١٣) Vandier, in Journal des Savants, 1967, p.66
- (١٤) Urk. Iv, 1771
- (١٥) Urk. Iv, 1718 (1. 10-11)
- (١٦) عن هذه المصطلحات المحسوسة راجع: Empire des Ramsès, p. 399.
- (١٧) Urk. Iv, 1662-1663
- (١٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتس الثاني...

الفصل السابع: تحوتمس الرابع.

Breasted: AR, vol. 2 § 844 (١٩)

Urk. iv, 1659-1661 (٢٠)

Urk. iv, 1731 (1. 9-11) (٢١)

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: رجال البلاط.

(٢٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.

(٢٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٢٥) (الواجهة الشرقية من الجناح الجنوبي) Urk. iv, 1722-1723

Urk. iv, 1656-1657 (٢٦)

(٢٧) راجع فيما سبق: الفصل السادس: الشكر والحمد وأول حلف سياسي.

(٢٨) تشييد معبد.

EA 4-nº3. Traduction de Gilbert Lafforgue (٢٩)

Pirenne: Civilisation, II, p.236 (٣٠)

Pirenne: ibid, II, p.238 (٣١)

EA 33-nº1. Traduction de Gilbert Lafforgue (٣٢)

(٣٣) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

Pirenne: ibid, p. 246 (٣٤)

Ibid., p. 245 (٣٥)

Urk. iv, 1869 (1, 1-7) (٣٦)

Urk. iv, 1932 (1, 8-19) (٣٧)

Habachi: Tell Basta, pp. 104-107, pll. 28-29.

Hayes, in JNES, 1951, vol.x, pp. 82-85 (٣٨)

Urk. Iv, 1891 (1. 4-9) (٢٩)

Urk. Iv, 1860 (1.1) (٤٠)

Urk. Iv, 1954 (1. 12-13) (٤١)

Vandier, in Monuments Piot, 1966. tome 54, pp. 7-10 (٤٢)

Urk. Iv, 1741 (1. 8-15) (٤٣)

Davis: Tomb of Iouya, pp. xv-xvi (٤٤)

Gauthier: Livre des rois, p. 335 (٤٤ مكرر)

Urk. Iv, 1770 (1. 6-9) (٤٥)

Urk. Iv, 1770 (1. 14) (٤٦)

Empire des Ramsès, p. 168 sqq (٤٧)

Urk. Iv, 1866 (1. 9-10) (٤٨)

Urk. Iv, 1737 (1. 8-16) (٤٩)

in Kemi, 1959, vol. 15, pp. 23-33 (٥٠)

(٥٠ مكرر) راجع فيما بعد:

الفصل السابع: فى النوبة وفى السودان.

(٥١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

Varille, in A.S.A.E., 1940, vol. XL, pp.651-657 (٥٢)

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: وهن الملوك وضعفهم.

Van de Walle, in C.E., 1968, vol. 85, pp. 36-54 (٥٤)

Helck, in C.E., 1969, vol. 87, pp. 22-25

Urk. Iv, 1776, (1. 8-16) (٥٥)

Varille, in B.I.F.A.O., 1930, vol. 30, pp. 497-507 (٥٦)

Urk. iv, 1913, 1.20 (٥٧)

(٥٨) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.

Urk. iv, 1635 (1. 16 et 18) (٥٩)

C. Vandersleyen, in C.E. 1968, n°86, pp. 234-258 (٦٠)

Josephos, Contra Apion, I, 26 (٦١)

(٦٢) قد يعنى ذلك، ان الحجر الرملى جاء من الجبل الاحمر، قرب هليوبوليس، المكان المقدس للإله أتوم.

Urk. iv, 1820-1823 (٦٣)

(٦٤) تم دراسة المعبد والتنقيب فيه بمعرفة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO. راجع: Robichon et Varille, Le temple du scribe royal Amenhotep, fils de Hapou. Le Caire, 1936.

Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.15 (٦٥)
(Statue n°103 du British Museum).

(٦٦) الإلتباس متعمد بلاشك. فهل المقصود الحورس الملكى أو حورس أتريبس؟

(٦٧) Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.35 (1. 1-8). متحف القاهرة.

(٦٨) (متحف القاهرة) Ibid. p.31

(٦٩) (متحف القاهرة) Ibid. p. 24

Urk. iv, 1827-1828 (٧٠)

كان رقم "١١٠"، هو السن المثالى فى نظر المصريين.

Urk. iv, 1811-1812 (٧١)

(على هُريم فى متحف ليدن)

(٧٢) منطقة منف. قرب سرايوم سقارة.

- Urk. Iv, 1794-1795 (٧٣)
- (٧٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: أعياد النصر.
- Urk. Iv, 1798 (1. 2-10) (٧٥)
- Urk. Iv, 2024, 1.2 (٧٦)
- (٧٧) إله القمح.
- (٧٨) بلدة، قرب أبيبوس، حيث توجد مقبرة أوزيريس.
- Bagnani, in Aegyptus, 1934, vol. 14, pp. 33-47 et Urk. Iv, 1807-1808 (٧٩)
- Urk. Iv, 1901 (1. 1-3) (٨٠)
- Säve - Söderbergb: Private tombs, I, pl. XLII. (٨١)
- Empire des Ramsès, p. 164 (٨٢)
- Urk. Iv, 1874-1875 (٨٣)
- Urk. Iv, 1910 - 1912 (٨٤)
- Kate Bosse - Griffiths. in JEA, 1955, vol. 41, pp. 56-63
- (٨٥) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثالث.
- Davies, Private tombs, IV, ol. VI (٨٦)
- Urk. Iv, 1639 (1. 7-11) (٨٧)
- Drioton, in R.E., 1933, vol.1, pp. 1-14 (٨٨)
- Varille, in A.S.A.E., 1940, vol. XL, pp. 601-606.
- Urk. Iv, 1845-1848 (٨٩)
- Urk. Iv, 1618-1619 (٩٠)
- Davies: Two officials, pl. XXXIV (٩١)
- Yoyotte: Les trésors des Pharaons, Genève, 1968; p.81 (٩٢)

- Davies: Two officials, pl. XXI (٩٣)
- Urk. Iv, 1595-1596 (٩٤)
- Urk. Iv, 1589-1590 (٩٥)
- Urk. Iv, 1591 (1. 10-20) (٩٦)
- (٩٧) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.
- Posener, Sauneron, Yoyotte: Dictionnaire, p.173 (٩٨)
- Abdel Mohsen Bakir: Slavery in Pharaonic Egypt, Le Caire, 1942 (٩٩)
- Urk. Iv, 1739-1740 (١٠٠)
- Urk. Iv, 1740 (1. 12-13) (١٠١)
- Barguet: Temple d'Amon-Rê, p. 95 (١٠٢)
- J. Yoyotte, in C.E., 1953, n°55, pp. 28-38 (١٠٣)
- J. Leclant, in R.E., 1951, tome 8, pl. IV (١٠٤)
- (١٠٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مسائل العالم.
- Urk. Iv, 1552 (1. 3-9) (١٠٦)
- (١٠٧) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.
- Urk. Iv, 1654 (1. 3-15) (١٠٨)
- Urk. Iv, 1722-1724; 1726 (1. 7-13); 1728 (1. 8-16) (١٠٩)
- (١١٠) هذا الوصف والوصف التالي، قائم على أعمال:
- A. Varille: Kamak I. Le Caire, 1943, pp. 1-8.
- (١١١) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثاني.
- Varille: Karnak I, pll. XXII-XXIX (١١٢)
- J. -J. Clere, in R.E., 1963, vol. 15, pp. 121-123 (١١٣)

Urk. Iv, 1754, (1. 2-8) (١١٤)

Urk. Iv, 1650-1651 (١١٥)

تم الكشف عن هذا اللوح الحجرى فى معبد الملك مر إن پتاح.

Empire des Ramsès, pp. 238 sqq (١١٦)

(١١٧) راجع فيما سبق: الفصل السابع: فى النوبة وفى السودان.

Barguet: Empire des conquérants, pp 24-25 (١١٨)

Urk. IV, 1709 (1. 10-13) (١١٩)

(١٢٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: بلاط طيبة.

B. J. Kemp. in JEA, 1977, vol. 63, pp. 71-82 (١٢١)

Urk. Iv, 1672 (1. 7-19) (١٢٢)

Barguet: Empire des conquérants (١٢٣)

Ibid (١٢٤)

(١٢٥) راجع فيما سبق: المقدمة: آمون وتأسيس الكرنك.

(١٢٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

Urk. Iv, 1655 (1. 1-13) (١٢٧)

(١٢٨) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: توت عنخ آمون وعودة الآلهة.

(أعمال الترميم التى قام بها توت عنخ آمون).

Urk. Iv, 1745 (1. 14-15) (١٢٩)

C. Maystre, in B.S.F.E., 1969, n°53-54, p.5 sqq (١٣٠)

T. P. § 782 D (p. 63) (١٣١)

Urk. Iv, 82 (1. 13) (١٣٢)

(١٣٣) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...

الفصل السابع: رجال البلاط

الفصل السابع: المعماريون والنحاتون...

(١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السادس: ملك قدير، قوى الشكيمة.

(١٣٥) الوجدانية في ذهن المؤمن، لا تستبعد وجود عقائد أخرى.

(١٣٦) اسم معبد التطهير في مصر السفلى.

(١٣٧) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العمارنة.

(١٣٨) تجانس صوتي بين كلمتي رمتي (أى: البشر) ورمت (أى الدموع).

(١٣٩) ثلاثة أشكال للإله الأوحد المنفرد.

(١٤٠) Grébaut: Hymne à Ammon - Ra, Paris, 1874

(١٤١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: تحوتمس الرابع وما بعده.

(١٤٢) Urk. Iv, 1612 (1.5)

(١٤٣) Shorter, in J.E.A. 1931, vol. 17, pp. 2-3

(١٤٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: وأخذ الكرنك يتوسع.

(١٤٥) Urk. Iv, 1935 (1. 17-18)

(١٤٦) Urk. Iv, 1780 (1. 17)

(١٤٧) Urk. Iv, 1943-1946

(١٤٨) P. Garelli: Proche - Orient, pp. 163-164

(١٤٩) Knudtson: El Amarna Tafeln, pp. 497-501

(١٥٠) Ibid., pp. 347-349

(١٥١) سبق لأمنحوتب الثالث، أن تزوج أخت توشراتا. راجع فيما سبق: الفصل السابع:

الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

ويضيف هذا الرباط العائلي قيمة مزدوجة على لفظ «أخي»، وهي تسمية تقليدية فيما بين الملوك.

Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 153-155 (١٥٢)

(١٥٣) نجد ملخصاً لجميع الفرضيات في:

J. Vandier, in Journal des savants, 1967, pp. 65-91.

هوامش الفصل الثامن

(١) Urk. Iv, 1783 (1. 11-15)

(٢) Urk. Iv, 1963, 1.8

(٣) Ramadan Saad, In Kemi, 1970, vol. xx, pp. 187-193

(٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين. الفقرات الأخيرة.

(٥) Barguet: Empire des conquérants, p.21

(٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.

(٧) داخل خرطوش: أسماء ملكية جديدة.

(٨) هذه الفقرة مهشمة تهشيماً بالغاً. وقد أعاد صياغتها:

Davies, Amarna, vi, p.29.

Davies, Amarna, vi, pl.XXVII (٩)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 93-96.

(١٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.

(١١) C. L. Textes, pp. 236-250

(١١ مكرر) Ibid., p. 250-260

(١٢) راجع فيما سبق: الهامش ١٣٣ من الفصل السابع.

(١٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون: الفقرات الأخيرة.

(١٤) Empire des Ramsès, pp. 141-143

Davies: Amarna, vi, pl. xxi (١٥)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 84-85

(١٦) الشمس هي «أم» البشر، (مكذا).

(مع مراعاة مع ذلك أن الشمس اسم مذكر في اللغة المصرية القديمة. المترجم)

Urk. IV, 1971 et 1972 (١٧)

Urk. IV, 1982-1983 (١٨)

In R.E., 1976, vol. 28, pp. 148-151 (١٩)

(٢٠) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «الورع وعدم التسامح».

راجع فيما بعد: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «خدم أتون».

(٢١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: «معالم مصر الأثرية».

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 13-14 (٢٢)

Barguet: Empire des conquérants, p. 64 (٢٣)

Ibid (٢٤)

(٢٥) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العودة إلى طيبة، بعد الوفاة.

H. Brunner, in Z.A.S., 1938, vol. LXXIV, pp. 104-108 (٢٦)

Davies: Amarna, III, pl. IV (٢٧)

Ibid., pl. VI (٢٨)

Davies: Amarna, I, pl. VI (٢٩)

Urk. IV, 2003-2004 (٣٠)

Davies: Amarna, I, pl. XV (٣١)

Urk. IV, 2004-2005 (٣٢)

Sandman: Texts from the Time of Akhenaten, p.24 (1. 1-7) (٣٣)

(٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: رجال البلاط.

Urk. IV, 1782 (1. 2-4 et 11-12) (٣٥)

(٢٦) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: ٢. تل العمارنة.

Davies: Amarna, V, p.9 (٢٧)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, p. 61 (1. 8-16) (٢٨)

Davies: Amarna, VI, pl. IV (٢٩)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 79-80 (٤٠)

Davies: Amarna, IV, pl. XX (٤١)

Ibid, III, pl. XIII sqq (٤٢)

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 36-37 (٤٣)

EA 16D- Traduction Gilbert Lafforgue (٤٤)

(٤٥) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

EA 10, n°3 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٦)

EA 10, n°4 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٧)

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

EA 7 - Traduction Gilbert Lafforgue (٤٩)

(٥٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات. والفقرات الأولى من: أولى عناصر القانون الدولي.

(٥١) الأميرة الميتانية التي طلب أمنحوتب الثالث الزواج منها. راجع: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية. ولكن تزوجها أمنحوتب الرابع. وذهب البعض إلى الخلط بينها وبين نفرتيتي.

(٥٢) الموفد الميتاني والموفد المصري وكانا متخصصين في العلاقات بين البلدين. راجع فيما سبق: الفصل السابع: السلك الدبلوماسي.

Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 223-227 (٥٢ مكرر)

Garelli, Proche - Orient, p. 165 (٥٢)

Pirenne: Civilisation, II, pp. 321-322 (٥٤)

(٥٥) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: السياسة في حالة ضعف خطير.

Davies (Théodore M.): The Tomb of Queen Tiye, Londres 1910 (٥٦)

The Royal Mummies, Le Caire, 1912, p. 51 sqq (٥٧)

in A.S.A.E. 1931, vol. 31, pp. 115-122 (٥٨)

in JEA. 1957, vol. 43, pp. 10-25 (٥٩)

هوامش الفصل التاسع

- W. Helck, in Lexikon, Bd. I. col. 838 (١)
- (٢) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: رفاق تل العمارنة.
- (٣) راجع:
- J. Vandier, in Journal des Savants, art. Cit. pp. 65-91
- Urk. Iv, 2038-2040 (٤)
- (٥) الملوك القدامى المتوفون أو المؤلهون (٩).
- Urk. Iv, 2025-2032 (٦)
- Urk. Iv, 2048 (1. 5-6) (٧)
- Urk. Iv, 2046-2047 (٨)
- Urk. Iv, 2049-2050 (٩)
- Davies: Tomb of Huy, pl. XXVII-XXVIII (١٠)
- Urk. Iv, 2071 (1.4)(١١)
- (١٢) تاج خاص بالإله أوزيريس.
- (١٣) مدخل جبانة منف.
- Davies: Tomb of Huy, pl. XXI (١٤)
- Carter et Mace: The Tomb of Tut-ankh-amen, 3 vol (١٥)
- C. Desroches-Noblecourt: Toutankhamon
- C. L. Textes, p.152 (١٦)
- Desroches-Noblecourt: Toutankhamon, pl. IV (١٧)
- Carter et Mace: The Tomb of Tutankhamon, pl. XLVI (١٨)

(١٩) راجع فيما سبق: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية.

Keith C. Seele, in JNES 1955, vol. XIV, pp. 168-180 (٢٠)

Urk. iv, 2109 (1. 9-11) (٢١)

هوامش الفصل العاشر

- (١) Lexikon, Bd. IV, col. 252
- (٢) Barguet, Leclant: Kamak-Nord, IV, p. 55-56
- (٣) حرفياً: «ثور أمه» – أحد أشكال الشمس.
- (٤) Urk. IV, 2113-2119
C. L. Textes, pp. 44-47
- (٥) Urk. IV, 2142-2161
C. L. Textes, pp. 81-84
- (٦) Urk. IV, 2094-2098
- (٧) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.
- (٨) Empire des Ramsès, p. 141, sqq
- (٩) راجع فيما سبق: الفصل التاسع: ظلال التاريخ.
- (١٠) Urk. IV, 2085 (1. 17-21)
- (١١) Urk. IV, 2126-2128
- (١٢) Urk. IV, 2128 (1. 3-8)
- (١٣) عن هذا الموضوع في عصر الرعامسة راجع:
Empire des Ramsès, p. 395.
- (١٤) Urk. IV, 2138-2139
- (١٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: العسكريون.

لا تعتبر قائمة المراجع التالية شاملة ومستفيضة.

تضم القائمة الأولى المراجع التي ذكرت أكثر من مرة بين دفتي هذا الكتاب. أما المراجع التي لم تذكر سوى مرة واحدة فقد وردت في هوامش الكتاب.

تلى ذلك قائمة بأهم الدوريات.

أ. المراجع:

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية:

A. Ouvrages cités en abrégé

ب. الدوريات واختصاراتها

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية

B. Revues citées

(أ) المراجع

BARGUET : *Empire des conquérants.*

Le monde égyptien. Les Pharaons. Vol. II. L'Empire des conquérants. Paris, Gallimard, 1979. (L'architecture, par Paul Barguet, pp. 9-65.)

BARGUET : *Temple d'Amon-Rê,* /

BARGUET (Paul) : *Le temple d'Amon-Rê à Karnak. Essai d'exégèse.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1962 ; XIX, 368 pp., XLII pl. (Recherches d'archéologie, de philologie et d'histoire, tome XXI.)

BARGUET-LECLAN-ROBICHON : *Karnak-Nord.*

Karnak-Nord. IV. (1949-1951). Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1954, fasc. 1 : 196 pp., fasc. 2 : CXLVIII pl. (Fouilles de l'IFAO, tome XXV.)

BREASTED : *Ancient Records.*

BREASTED (J. H.) : *Ancient Records of Egypt.* Chicago, 1906-1907, 5 vol. Vol. 2 : *The Eighteenth Dynasty.*

The Cambridge Ancient History. Vol. II. Part 1: History of the Middle East and the Aegean Region (1800-1380 BC.). Cambridge, Cambridge University Press, 2^e éd. 1978. XXI + 868 pp.

CAMINOS : *Gebel Silsileh.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *Gebel es-Silsilah. I. The Shrines.* London, Egypt Exploration Society. 1963 : 105 pp., 75 pl.

CAMINOS : *Ibrim.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *The Shrines and rock-inscriptions of Ibrim.* London, Egypt Exploration Society, 1968 : 113 pp., 42 pl., 4 figg.

CARTER (H.) ET MACE :

The Tomb of Tut-ankh-Amen. London, 1923-1933, 3 vol.

C.L. TEXTES :

LALOUETTE (Claire) : *Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Égypte.* Paris, Gallimard. 1984 : 345 pp. (Collection UNESCO d'œuvres représentatives.)

DAVIES : *Amarna.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Rock-Tombs of El Amarna.* Londres, Egypt Exploration Fund. 1903-1908 : 6 vol.

DAVIES : *Kenamun.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Ken-Amûn at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1930. 2 vol.

DAVIES : *Private tombs.*

DAVIES (N. de Garis) : *Scenes from some Theban tombs.* Oxford, University Press, 1963 : 22 pp., XXIV pl.

DAVIES : *Rekhmirê.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Rekh-mi-rê at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1943. 2 vol.

DAVIES : *Tomb of Amenmose.*

Voir DAVIES : *Tomb of Menkheperreseneb.*

DAVIES : *Tomb of Huy.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Huy, l'iceroï of Mubia in the Reign of Tutankhamun (n° 40).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1926.

DAVIES : *Tomb of Menkheperreseneb.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Menkheperreseneb, Amenmose and another (n° 86, 112, 42 and 226).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1932.

DAVIES : *Two Officials.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tombs of two Officials of Thutmosis the Fourth (n° 75 and 90).* London, Egypt Exploration Fund, 1923.

DAVIS : *Tomb of Louisa*.

DAVIS (Théodore M.) : *The Tomb of Louisa and Touyou*. London, A. Constable & Co., 1907 ; XXX + 48 pp., 10 pll., figg.

DAVIS : *Tomb of Tuthmosis IV*.

CARTER, NEWBERRY : *The Tomb of Tuthmosis IV*. Westminster, Constable & Co., 1904 ; XLVI + 150 pp., XXVII, 21 pll., figg.

DESROCHES-NOBLECOURT : *Toutankhamon*.

DESROCHES-NOBLECOURT (Christiane) : *Toutankhamon*. Paris, Hachette, 1963 : 214 pp. 32 ill.

DITTENBERGER : *O.G.I.S.*

DITTENBERGER (W.) : *Orientalis Graeci inscriptiones selectae*. Leipzig, 1903-1905 ; 2 vol. ; 2^e éd., 1960.

EDGERTON : *Tuthmosid Succession*.

EDGERTON (William F.) : *The Tuthmosid Succession*. Chicago, University of Chicago Press, 1933 ; X + 43 pp.

Empire des Ramsès.

LALOUETTE (Claire) : *L'Empire des Ramsès*. Paris, Fayard, 1985 ; 539 pp., ill.

Enseignement de Kheti III.

VOLTEN (Aksel) : *Zwei altägyptische Politische Schriften*. Copenhagen, Einar Munksgaard, 1945 : pp. 3-103. (= *Analecta Aegyptiaca*, vol. IV.)

GARDINER : *Late Egyptian Stories*.

GARDINER (Alan H.) : *Late Egyptian Stories*. Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1932. (*Bibliotheca Aegyptiaca*, vol. I.)

GARDINER, PEET, ČERNÝ : *Sinai*.

GARDINER (Alan), PEET (Eric), ČERNÝ (Jaroslav) : *The Inscriptions of Sinai*. Londres, Egypt Exploration Society, 1955 ; 2 vol.

GARELLI : *Proche-Orient asiatique*.

GARELLI (Paul) : *Le Proche-Orient asiatique. Des origines aux invasions des Peuples de la mer*. Paris, P.U.F., 1969 : 377 pp. (Coll. nouvelle Clio, 2.)

GAUTHIER : *Livre des rois*.

GAUTHIER (H.) : *Le livre des rois d'Égypte*. Le Caire, 1912. (Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, vol. 18.) Tome II.

GITTON : *Ahmes-Nefertari*.

GITTON (Michel) : *L'épouse du dieu Ahmes Nefertari*. Paris, Les Belles Lettres, 1975 : 108 pp. (= *Annales de l'Université de Besançon*, n° 172.)

HABACHI : *Sixteen Studies*.

HABACHI (Labib) : *Sixteen Studies on Lower Nubia*. Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1981 : 282 pp., 5 pll. (Supplément aux Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Cahier n° 23.)

HABACHI : *Tell Basta*.

HABACHI (Labib) : *Tell Basta*. Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1957 : XVI + 144 pp. 43 pll., figg.

HAYES : *Royal Sarcophagi*.

HAYES (William C.) : *Royal Sarcophagi of the XVIII th. dynasty*. Princeton, Princeton University Press. 1935 : 211 pp., XXV pll.

HELCK : *Ägyptologische Studien*.

HELCK (W.) : *Die Berufung des Veziers Ouser*. Berlin, Akademie Verlag, 1955. (Ägyptologische Studien, n° 29.)

HELCK : *Zur Verwaltung*.

HELCK (H.W.) : *Zur Verwaltung des mittleren und neuen Reichs*. Leiden Brill, 1958 : VIII + 550 pp. (= Probleme der ägyptologie, Bd. 3).

Karnak :

TRAUNECKER (Claude), GOLVIN (Jean-Claude) : *Karnak. Résurrection d'un site*. Paris, Payot, 1984 : 238 pp., 197 ill.

Karnak I :

VARILLE (A.) : *Karnak*. Le Caire, I.F.A.O., 1943 : 50 pp. CV pll.

Karnak VI :

Karnak VI. 1973-1977. Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1980.

KITCHEN : *Pharaoh triumphant*.

KITCHEN (Kenneth A.) : *Pharaoh triumphant. The life and times of Ramses II*. Warminster, Aris and Phillips, 1982 : 272 pp., figg.

KNUDTZON : *El Amarna Tafeln*.

KNUDTZON (J.A.) : *Die El Amarna Tafeln*. Leipzig, 1908 et 1915, 2 vol.

KRI :

KITCHEN (Kenneth A.) : *Ramesside Inscriptions*. Oxford, Blackwell, publication en cours depuis 1969.

LEFEBVRE : *Contes et romans*.

LEFEBVRE (Gustave) : *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*. Paris, Maisonneuve, 1949 : XXVII + 232 pp.

LEFEBVRE : *Grands prêtres*.

LEFEBVRE (Gustave) : *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXI^e dynastie*. Paris, Geuthner, 1929 : 303 pp., 5 pll.

Lexikon.

Lexikon der Ägyptologie. Wiesbaden. Harrassowitz : depuis 1975, 5^e volume en cours de parution.

MASPERO : *Contes populaires.*

MASPERO (Gaston) : *Les contes populaires de l'Égypte ancienne.* Paris. Maisonneuve, 1882 : LXXX + 227 pp.

MONTET : *Byblos et l'Égypte.*

MONTET (Pierre) : *Byblos et l'Égypte. Quatre campagnes de fouilles à Gebel.* Paris. Geuthner, 1928-1929 ; 3 vol.

NAVILLE : *Deir el Bahari.*

NAVILLE : *The temples of Deir el Bahari.* London. Egypt Exploration Fund, 1895-1908 ; 6 vol.

PETRIE : *Optos.*

PETRIE (Sir Flinders) : *Koptos.* Londres. B. Quaritch, 1896 : 38 pp., XXVIII pll.

PETRIE : *Gurneh.*

PETRIE (Sir Flinders) : *Qurneh.* London. Quaritch, 1909 : VIII + 22 pp., 56 pll.

PIRENNE : *Civilisation.*

PIRENNE (Jacques) : *Histoire de la civilisation de l'Égypte ancienne.* Tome II. Neuchâtel-Paris, 1963. 554 pp.

POSENER, SAUNERON, YOYOTTE : *Dictionnaire.*

POSENER (Georges), SAUNERON (Serge), YOYOTTE (Jean) : *Dictionnaire de la civilisation égyptienne.* Paris. Hazan, 2^e éd., 1970 ; 324 pp.

RATIÉ : *Hatshepsout.*

RATIÉ : *La reine Hatshepsout. Sources et problèmes.* Leyde. Brill, 1979 ; 372 pp., 8 pll. (Université de Montpellier. Orientalia. I.)

SANDMAN : *Texts from the time of Akhenaten.*

SANDMAN (R.) : *Texts from the time of Akhenaten.* Bruxelles. Fondation égyptologique. Reine Elisabeth, 1938 : (Bibliotheca Aegyptiaca, vol. VIII.)

SÄVE-SÖDERBERGH : *Private Tombs.*

SÄVE-SÖDERBERGH (T.) : *Private tombs at Thebes I. Four Eighteenth Dynasty Tombs.* Oxford, 1957.

SETHE : *Amun.*

SETHE (Kurt) : *Amun und die acht Urgötter von Hermopolis. Eine Untersuchung über Ursprung und Wesen des ägyptischen Götterkönigs.* Berlin. Akademie der Wissenschaften, 1929 ; 130 pp., 5 pll.

SETHE : *Urgeschichte.*

SETHE (Kurt) : *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter.* Leipzig, 1930 : 2^e éd., 1966 : 196 pp., 3 cartes.

Textes des Sarcophages.

BARGUET (Paul): *Textes des sarcophages égyptiens du Moyen Empire*. Paris. Éditions du Cerf, 1986 : 725 pp.

T.P.

SETHE (Kurt): *Die altägyptischen Pyramidendekreten*. Leipzig, J.C. Hinrich's, 1908 ; 4 vol.

Urk.

Urkunden des ägyptischen Altertums. Leipzig. J.C. Hinrich'sche Buchhandlung, 1932-1961 ; 8 vol. Vol. IV : *Urkunden der 18. Dynastie*.

VANDERSLEYEN : *Guerres d'Amosis*.

VANDERSLEYEN (Claude): *Les guerres d'Amosis, fondateur de la XVIII^e dynastie*. Bruxelles, FERE 1971 : 248 pp., 4 pll.

VAN SETERS : *Hyksos*.

VAN SETERS (John): *The Hyksos. A new Investigation*. New-haven et Londres, Yale University Press. 2^e éd. 1966 : 220 pp.

VARILLE : *Inscriptions d'Amenhotep*.

VARILLE (Alexandre): *Inscriptions concernant l'architecte Amenhotep fils de Hapou*. Le Caire, IFAO. 1968 : 164 pp. XIV pll. (= Bibl. d'études, tome XLIV.)

WADDELL : *Manetho*.

Manetho, Ptolemy, Tetrabyblos. Traduction W.G. Waddell et S.E. Robins. Londres, 1940. (Loeb Classical Library.)

W.B.

Wörterbuch der ägyptischen Sprache. Leipzig. J.C. Hinrich'sche. Buchhandlung, 1925-1931 : 5 vol.

WINLOCK : *Rise and fall*.

WINLOCK (H.E.): *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes*. New-York. Mac Millan Company, 1947 : IX + 174 pp., 48 pll.

(ب) الدوريات واختصاراتها

ÆGYPTUS.

Ægyptus. Rivista italiana di egittologia e di papirologia. Milano. Università Cattolica.

ÆPHE.

Annuaire de l'École pratique des hautes études. 1^{re} section. Sciences religieuses. Paris.

ANCIENT EGYPT.

Ancient Egypt and the East. London and New York. Mac Millan & Co.

ARCHÆOLOGIA.

ASAE.

Annales du Service des Antiquités de l'Égypte. Le Caire.
Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale.

BIFAO.

Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale. Le Caire.

BSFE.

Bulletin de la Société française d'égyptologie. Paris.

CE.

Chronique d'Égypte. Bruxelles. Musées royaux d'art et d'histoire.

JARCE.

Journal of the American Research Center in Egypt. Le Caire.

JEAL

Journal of Egyptian Archaeology. London. Egypt Exploration Fund.

JNES.

Journal of Near Eastern Studies. Chicago. University of Chicago Press.

JOURNAL DES SAVANTS.

Journal des Savants. Paris. Institut de France.

KÊMI.

Kêmi. Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes. Paris. Geuthner.

KUSH.

Kush. Journal of the Sudan Antiquities Service. Khartoum. Sudan Antiquities Service.

MDAIK.

Mitteilungen des deutschen Archäologische Instituts Abteilung Kairo. Wiesbaden. Harrassowitz.

MONUMENTS PIOT.

Monuments Piot. Paris. Institut de France.

RÉ.

Revue d'égyptologie. Paris et Louvain.

ZÄS.

Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde. Leipzig. J.C. Hinrichs.

المؤلفة

كلير لالويت

Claire Lalouette

- من كبار علماء المصريات الفرنسيين.
- شغلت منصب أستاذة علم المصريات بجامعة السوربون.
- كانت أيضا من الأعضاء البارزين في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO.
- متخصصة في الأدب المصري القديم.
- سبق للمترجم أن نقل لها، إلى العربية بعض أشهر ما ألفته في هذا الموضوع: «الأدب المصري القديم». دار الفكر. ١٩٩٢.
- «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» في مجلدين. دار الفكر. ١٩٩٦.

المترجم

ماهر فؤاد جويجاتى

- من مواليد ١٩٣٣ . حاصل على ليسانس فى الأدب الفرنسى . جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٤ .
- ترجم ١٨ كتاباً من الفرنسية إلى العربية فى مجال علم المصريات .
- من أهم ترجماته المنشورة:
- الناس والحياة . ١٩٨٩ .
- المومياوات المصرية ، فى مجلدين ، ١٩٩٧-١٩٩٩ .
- حضارة مصر الفرعونية . ١٩٩٨ .
- المعجم الوجيز فى اللغة المصرية القديمة بالخط الهيروغليفى . ١٩٩٩ .
- عصور ما قبل التاريخ فى مصر ٢٠٠١ .
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا) .
- معجم الأساطير المصرية ٢٠٠١ .
- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة ٢٠٠٥ .
- (وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا) .
- أمنحوتب الثالث ٢٠٠٥ .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية ومهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهور باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الانطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار چينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر طي
١١- مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء (ج١)	مارتن برنال	يشراف أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يعنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صعد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	ياشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهور باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	راحة سيوة وموسيقاها	٢٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحداثة	٢٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٢٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين باربر	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكتافيو پاث	اللهب المزدوج	٤٣-
مارلين تادرس	الدوس مكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت ديننا وجون فاين	التراث المغفور	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جورجياتى	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد برادة وعثمانى الميلاود ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوربا وخ . م . بيناليستى	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفى فطيم وعادل دمرداش	ب . نوليس وس . روجسليتز وروجر بيل	العلاج النفسى التدميمى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . التجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيهيت	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
ياشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	ألان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	جين ب . تومبكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيمينوفا	صلاح الدين والمماليك فى مصر	٧٤-

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الفمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميغيل	ميغيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيخة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صانقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باريرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	لستيب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إيوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتول بريشت	عبد الغفار مكارى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة الفنان فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چرن بولوك ومادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنه بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى پلانٹ
١١٤- مسرحيتا حصاد كوتجى وسكان المستنقع رول شورينكا
١١٥- غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩- النساء والاسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية أنيئل ألكسندرو فنابولينا
١٢٤- النجر الكاتب: أوهام الرأسمالية العالمية جون جراى
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدرك ثورپ ديفى
١٢٦- فعل القراءة قولفانج إيسر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحي
١٢٨- الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا ناولرس أسيس جاروته
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريع حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كرونو
١٣٧- ملكرات ضابط فى العملة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان
١٣٩- باريسقال (مسرحية) ريتشارد فاچتر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار هريوت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارلو جولونوى
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فوينتس
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميغيل دى ليس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد دورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكى أندرسون إمبرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- أحمد حسان
نسيم مجلى
سمية رمضان
نهاد أحمد سالم
منى إبراهيم وهالة كمال
ليس النقاش
بإشراف: روف عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندى وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بليج
سمحة الخولى
عبد الوهاب علوب
بشير السباعى
أميرة حسن نويرة
محمد أبو العطا وآخرون
شوقى جلال
لويس بقطر
عبد الوهاب علوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توفيق
كاميليا صبحى
وجيه سمعان عبد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبورى
نعيم عطية
حسن بيومى
عدلى السمرى
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرؤف البمبى
عبدالغفار مكارى
على إبراهيم منوفى
أسامة إسبر
منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وتخصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام القراءة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكتجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوي	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	ياشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسييف	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والظالمين في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رايندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرائك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النداء الأمريكي من الكتيبة إلى الكتيبة	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرض (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر النيب

سعيد الفانمى	١٨٩-	المسى والبصيرة مقالات فى بلاغة النقد للعاصر	بول دى مان
محسن سيد فرجاني	١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس
مصطفى حجازى السيد	١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون
محمود علاوى	١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المراغى
محمد عبد الواحد محمد	١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز
ماهر شفيق فريد	١٩٤-	مختارات من النقد الانجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد
محمد علاء الدين منصور	١٩٥-	شئاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح
أشرف الصباغ	١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالتين راسپوتين
جلال السعيد الحفناوى	١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى
إبراهيم سلامة إبراهيم	١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إيوين إمري وآخرون
جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد	١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندائو
فخرى لبيب	٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك
أحمد الأنصارى	٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس
مجاهد عبد المنعم مجاهد	٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٤)	رينيه ويليك
جلال السعيد الحفناوى	٢٠٣-	الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى
أحمد هويدى	٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شاراز
أحمد مستجير	٢٠٥-	الجيئات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا
على يوسف على	٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك
محمد أبو العطا	٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسنديز
محمد أحمد صالح	٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان
أشرف الصباغ	٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين
يوسف عبد الفتاح فرج	٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الفزنوى
محمود حمدى عبد الفنى	٢١١-	فريبنان بوسوسير	جوناثان كلار
يوسف عبدالفتاح فرج	٢١٢-	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	مرزيان بن رستم بن شروين
سيد أحمد على الناصرى	٢١٣-	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور
محمد محبى الدين	٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنقونى جيننز
محمود علاوى	٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغى
أشرف الصباغ	٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين
نادية البنهاوى	٢١٧-	مسرحيتان طليعتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر
على إبراهيم منوفى	٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان
طلعت الشايب	٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو
على يوسف على	٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى پاركر
رفعت سلام	٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس
نسيم مجلى	٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى
السيد محمد نفاذى	٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند
منى عبدالظاهر إبراهيم	٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس
السيد عبدالظاهر السيد	٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابريل جارتيا ماركيت
طاهر محمد على البريرى	٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس

السيد عبدالظاهر عبدالله	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيغان	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز چاكوب	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	الرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	ما بعد المعلومات	توم ستونير	٢٣٢-
طلعت الشايب	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغريبي	أرثر هيرمان	٢٣٣-
قؤاد محمد عكود	الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمتهام	٢٣٤-
إبراهيم النسوقي شتا	ديوان شمس تبريزي (ج١)	مولانا جلال الدين الرومي	٢٣٥-
أحمد الطيب	الولاية	ميشيل شوكيفيتش	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	مصر أرض الوادي	روين فيدين	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعيسى مديولى أحمد	العولة والتحرير	تقرير لمنظمة الانكباد	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا راماز - رايوخ	٢٣٩-
صلاح محجوب إدريس	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	٢٤٠-
أبتسام عبدالله	في انتظار البرابرة (رواية)	ج. م. كوتزي	٢٤١-
صبري محمد حسن	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	٢٤٢-
ياشرف: صلاح فضل	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	الغليان (رواية)	لورا إسكييل	٢٤٤-
توفيق على منصور	نساء مقاتلات	إليزابيتا أنيس وآخرون	٢٤٥-
على إبراهيم منوفى	مختارات قصصية	جابريل جارتيا ماركيت	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوى	الثقافة الجماهيرية والحدثة في مصر	والتر أرمبرست	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	٢٤٨-
رفعت سلام	لغة التمزق (شعر)	نراجو شتامبوك	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	علم اجتماع العلوم	بومنيك فينك	٢٥٠-
ياشرف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردون مارشال	٢٥١-
على بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	٢٥٢-
حسن بيومي	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	الفجر	سير أنجوس فريزر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	٢٥٩-
ياشرف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٣)	جوردون مارشال	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكى نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوتا	٢٦٢-
على يوسف على	الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	٢٦٣-
لويس عوض	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	٢٦٤-

- ٢٦٥- روايات مترجمة أوسكار وايلد وصمويل جونسون
- ٢٦٦- مدير المدرسة (رواية) جلال آل أحمد
- ٢٦٧- فن الرواية ميلان كونديرا
- ٢٦٨- ديوان شمس تبريزي (ج٢) مولانا جلال الدين الرومي
- ٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١) وليم جيفورد بالجريف
- ٢٧٠- وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢) وليم جيفورد بالجريف
- ٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ توماس سي. باترسون
- ٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر سي. سي. والتون
- ٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لمرحلة ما قبل العصر جوان كول
- ٢٧٤- السيدة باربارا (رواية) رومولو جاييجوس
- ٢٧٥- د. س. إيليد شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا مجموعة من النقاد
- ٢٧٦- فنون السينما مجموعة من المؤلفين
- ٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة براين فورد
- ٢٧٨- البدايات إسحاق عظيموف
- ٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية ف. س. سوندرز
- ٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى بريم شند وآخرون
- ٢٨١- الفريوس الأعلى (رواية) عبد الحليم شرر
- ٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية لويس وولبرت
- ٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى خوان رولفو
- ٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية) يوربيديس
- ٢٨٥- رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي حسن نظامي الدهلوي
- ٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغي
- ٢٨٧- الثقافة والعولة والنظام العالمي أنتوني كنج
- ٢٨٨- الفن الروائي ديفيد لودج
- ٢٨٩- ديوان منوچهری الدامغانی أبو نجم أحمد بن قوص
- ٢٩٠- علم اللغة والترجمة جورج مونان
- ٢٩١- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١) فرانثيسكو رويس رامون
- ٢٩٢- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢) فرانثيسكو رويس رامون
- ٢٩٣- مقدمة للأدب العربي روجر آلن
- ٢٩٤- فن الشعر بوالو
- ٢٩٥- سلطان الأسطورة جوزيف كامبل وويل موريز
- ٢٩٦- مكبث (مسرحية) وليم شكسبير
- ٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي
- ٢٩٨- مناساة العبيد وقصص أخرى نخبة
- ٢٩٩- ثورة في التكنولوجيا الحيوية جين ماركس
- ٣٠٠- أسطورة برونشوس في الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١) لويس عوض
- ٣٠١- أسطورة برونشوس في الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢) لويس عوض
- ٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين جون هيتون وجوى جروثز
- لويس عوض
- عادل عبدالمنعم على
- بدر الدين عرودى
- إبراهيم الدسوقي شتا
- صبرى محمد حسن
- صبرى محمد حسن
- شوقى جلال
- إبراهيم سلامة إبراهيم
- عنان الشهاوى
- محمود على مكى
- ماهر شفيق فريد
- عبدالقادر التلمسانى
- أحمد فوزى
- ظريف عبدالله
- طلعت الشايب
- سمير عبدالحميد إبراهيم
- جلال الحفناوى
- سمير حنا صادق
- على عبد الرؤف البعبى
- أحمد عثمان
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- محمود علاوى
- محمد يحيى وآخرون
- ماهر البطوطى
- محمد نور الدين عبدالمنعم
- أحمد زكريا إبراهيم
- السيد عبد الظاهر
- السيد عبد الظاهر
- مجدى توفيق وآخرون
- رجاء ياقوت
- بدر الديب
- محمد مصطفى بنوى
- ماجدة محمد أنور
- مصطفى حجازى السيد
- هاشم أحمد محمد
- جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
- جمال الجزيرى و محمد الجندى
- إمام عبد الفتاح إمام

٢٠٢-	أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارت	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز ويورن فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	روج كونجورد	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديويوس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايبير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٢١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانييس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٢١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	س. شير لايموثا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايترى سبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينبار	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية نياپ
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نابيين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	پونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج١)	محمد فؤاد كويريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٣٦١-	التصحّر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سانم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد پرنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج٢)	محمد فؤاد كويريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إيوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٤)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٢٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادى	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد على بهزادراد	٢٨٥- مشتري العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٢٨٨- مواظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٢٩٠- الارشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة الليلية (رواية)
عبداللطيف عبدالحميد	فرناندو دى لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- ألام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وألن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياد بن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبد المنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بقلم كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينعات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العشانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسليم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسرامات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كبرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيريج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروسناد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستينج	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	تراث شعبى إسباني	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الاب عيروط	محي الدين اللبان ووايم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدمان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	ثيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كихوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كихوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض العبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى تونغ	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاوشه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُـرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسُـرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء البيغاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوبي	إيوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوادو بانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والنولة في الشرق الأوسط	نادية العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جويث تاكر ومارجريت مريونز	أحمد علي بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طغرائي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جلبنارلي	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في مصر سلاطين الممالك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الارملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جوانوني	عبد الرزاق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جورثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي بوجلاس	فدوى مالطي بوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطن ودونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الولع الفرنسي بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس چونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كروول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكي والماركسية	طارق علي وفيل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك بريددا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفجار مكارى
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلز	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الألب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرين ويورين فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعزلة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤف البمبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن العاشر والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيوردين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المفتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الاصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج القارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإشباني المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجمالبات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محبى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف النولية (مج ١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود نولت أبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاج (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكوس وروى أرمن	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من المروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبرى السورىونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج ٢)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهربين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ثوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيرروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المبنية	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستاك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوار جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الطوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولا جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن مطلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنسارى
٦٣٥-	التثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	أكسياد	الأميرة أناكومينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفافة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايغليد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو سالدنيار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألن جولندر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك چيمسون وماسار ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	رول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إيتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحقناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

صبرى محمد حسن	تى. م. ألوكو	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٢-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الأمصال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الأمصال القصصية الكاملة (الصحراء) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين هونج كنجستون	امراة محارية (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العنانى	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى	فيليب م. دوير ريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تادوش روجيفيتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش فى فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	٦٩١-
حمدى الجابرى	ريتشارد أيجانسى وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجوبية	٦٩٢-
جمال الجزيرى	حانيم برشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	٦٩٣-
حمدى الجابرى	جيف كولينز وبيل ماييلين	أقدم لك: بريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وچودى جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وچودى جروف	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سبنسر وأندريجى كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيرى	إيثان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسى	٦٩٩-
يسمة عبدالرحمن	ماريو بارجاس يوسا	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود فيثيان	الذاكرة والحدثة	٧٠١-
عبد العزيز فهمى	جوستينيان	مدونة جوستيان فى اللغة الرومانى (ميراث الترجمة)	٧٠٢٠-
أمين الشواربى	إدوارد جرانتيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومى	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبدالحميد مذكور	الإمام الغزالى	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	چونسون ف. يان	الشجرة الوراثية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	أقدم لك: فالتر بنيامين	٧٠٧-
رعوف عباس	دونالد مالكولم ريد	فراغتة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	إيان هاتشبائى وجوموران - إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادى رسوا	درة الناج	٧١١-
سليمان البستانى	هوميروس	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	٧١٢-
سليمان البستانى	هوميروس	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	٧١٣-
حنا صاوه	لامنيه	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	٧١٤-
أحمد فتحى زغلول	إدمون ديمولان	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٥)	٧١٨-
جميلة كامل	م. جولبيرج	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	٧١٩-
على شعبان وأحمد الخطيب	دونام چونسون	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	٧٢٠-

مصطفى ليبي عبد الفنى	هـ. أ. ولفسون	٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج ١)
الصفصافى أحمد القطورى	پشار كمال	٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى
أحمد ثابت	إفرايم نيمنى	٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية
عبدہ الرئيس	پول روبنسون	٧٢٤- اليسار الفرويدي
مى مقلد	چون فيتكس	٧٢٥- الاضطراب النفسى
مروة محمد إبراهيم	غيرمو غوثالبيس بوستو	٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب
وحيد السعيد	باچين	٧٢٧- حلم البحر (رواية)
أميرة جمعة	موريس أليه	٧٢٨- العولة: تدمير العمالة والنمو
هويدا عزت	صادق زيبا كلام	٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران
عزت عامر	آن جاتى	٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية
محمد قدرى عمارة	مجموعة من المؤلفين	٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف
سمير جريس	إنجو شولتسه	٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)
محمد مصطفى بدوى	وايم شيكسبير	٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)
أمل الصبان	أحمد يوسف	٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى
محمود محمد مكي	مايكل كويرسون	٧٣٥- فن السيرة فى العربية
شعبان مكارى	هوارد زن	٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج ١)
توفيق على منصور	پاتريك ل. أبوت	٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج ٢)
محمد عواد	چيرار دى جورج	٧٣٨- دمشق من مصر ما قبل التاريخ إلى العولة الملوكية
محمد عواد	چيرار دى جورج	٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر
مرفت ياقوت	بارى هندس	٧٤٠- خطابات السلطة
أحمد هيكل	برنارد لويس	٧٤١- الإسلام وأزمة العصر
رزق بهنسى	خوسيه لاكوانرا	٧٤٢- أرض حارة
شوقى جلال	روبرت أونجر	٧٤٣- الثقافة: منظور داروينى
سمير عبد الحميد	محمد إقبال	٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)
محمد أبو زيد	بيك الدنبلى	٧٤٥- المآثر السلطانية
حسن النعيمى	چوزيف أ. شومبيتر	٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)
إيمان عبد العزيز	تريثور وايتوك	٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما
سمير كريم	فرانسيس بويل	٧٤٨- تدمير النظام العالمى
باتسى جمال الدين	ل.ج. كالفيه	٧٤٩- إيكولوجيا لغات العالم
باشراف: أحمد عثمان	هوميروس	٧٥٠- الإلياذة
علاء السباعى	نخبة	٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى
نمر عارورى	جمال قارصلى	٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف
محسن يوسف	إسماعيل سراج الدين وآخرون	٧٥٣- التنمية والقيم
عبد السلام حيدر	أنا مارى شيمل	٧٥٤- الشرق والغرب
على إبراهيم منوفى	أندرو ب. ديبكى	٧٥٥- تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين
خالد محمد عباس	إنريكى خاردييل بونثيلا	٧٥٦- ذات العين الساحرة
أمال الروبى	پاتريشيا كرون	٧٥٧- تجارة مكة
عاطف عبدالحميد	بروس روبنز	٧٥٨- الإحساس بالعولة

جلال الحفناوى	مولوى سيد محمد	النثر الأردى	٧٥٩-
السيد الأسود	السيد الأسود	الدين والتصور الشعبى للكون	٧٦٠-
فاطمة ناعوت	فيرجينيا وولف	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	٧٦١-
عبدالعال صالح	ماريا سوليداد	المسلم عبواً و صديقاً	٧٦٢-
نجوى عمر	أنتريكو بيا	الحياة فى مصر	٧٦٣-
حازم محفوظ	غالب الدهلوى	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	٧٦٤-
حازم محفوظ	خواجه مير درد الدهلوى	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	٧٦٥-
غازى برو و خليل احمد خليل	تيرى هنتش	الشرق المتخيل	٧٦٦-
غازى برو	نسيب سمير الحسينى	الغرب المتخيل	٧٦٧-
محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى	حوار الثقافات	٧٦٨-
رندا النشار و ضياء زاهر	فريدريك هتمان	أدباء أحياء	٧٦٩-
صبرى التهامى	بينيتو بيريث جالدوس	السيدة بيرفيكتا	٧٧٠-
صبرى التهامى	ريكارو جويرالديس	السيد سيجوندر سومبرا	٧٧١-
محسن مصيلحى	إليزابيث رايت	بريخت ما بعد الحداثة	٧٧٢-
بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى	جون فيزر و پول ستيرجز	دائرة المعارف الدولية (ج٢)	٧٧٣-
حسن عبد ربه المصرى	مجموعة من المؤلفين	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والرنكزات	٧٧٤-
جلال الحفناوى	تذير أحمد الدهلوى	مرآة العروس	٧٧٥-
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصيبت نامہ (مج ١)	٧٧٦-
عزت عامر	جيمس إ. لينسى	الانفجار الأعظم	٧٧٧-
حازم محفوظ	مولانا محمد أحمد و رضا القادى	صفوة المديح	٧٧٨-
سمير عبد الحميد إبراهيم و سارة تاكاهاشى	نخبة	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	٧٧٩-
سمير عبد الحميد إبراهيم	غلام رسول مهر	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	٧٨٠-
نبيلة بدران	هدى بدران	الطريق إلى بكين	٧٨١-
جمال عبد المقصود	مارفن كارلسون	المسرح المسكون	٧٨٢-
طلعت السروجى	فيك جورج و پول ويلنج	العولة والرعاية الإنسانية	٧٨٣-
جمعة سيد يوسف	ديفيد أ. وولف	الإساءة للطفل	٧٨٤-
سمير حنا صادق	كارل ساجان	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	٧٨٥-
سحر توفيق	مارجريت أتوود	المننبة (رواية)	٧٨٦-
إيناس صادق	جوزيه بوفيه	العودة من فلسطين	٧٨٧-
خالد أبو اليزيد البلتاجى	ميروسلاف فرنر	سر الأهرامات	٧٨٨-
منى الدرويش	هاجين	الانتظار (رواية)	٧٨٩-
جيهان العيسوى	مونيك بوننو	الفرانكفونية العربية	٧٩٠-
ماهر جويجاتى	محمد الشيمى	الطور ومعامل الطور فى مصر القديمة	٧٩١-
منى إبراهيم	منى ميخائيل	براساد حول القصص القصيرة لإبريس ومطرفة	٧٩٢-
رؤف وصفى	جون جريثيس	ثلاث رؤى للمستقبل	٧٩٣-
شعبان مكارى	هوارد زن	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)	٧٩٤-
على عبد الرؤف البمبى	نخبة	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)	٧٩٥-
حمزة المزينى	نعوم تشومسكى	أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	٧٩٦-

طلعت شامين	نخبة	٧٩٧- الرؤية في ليلة معتمة (شعر)
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال
عبد الحميد فهمى الجمال	آن تيلر	٧٩٩- سلم السنوات
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثى	٨٠٠- قضايا في علم اللغة التطبيقى
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دولى	٨٠١- نحو مستقبل أفضل
شربين محمود الرفاعى	ماريا سوليداد	٨٠٢- مسلمو غرناطة في الاداب الأوروبية
عزة الخميسى	توماس باترسون	٨٠٣- التغيير والتنمية في القرن العشرين
درويش الطلوجى	دانييل ميرفي-ليجيه وجان بول ويلام	٨٠٤- سوسيولوجيا الدين
طاهر البربرى	كازو إيشيجورو	٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)
محمود ماجد	ماجدة بركة	٨٠٦- الطبقة العليا المتوسطة
خبرى نومة	ميريام كوك	٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسى	٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسى	٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)
حسن النعيمى	جوزيف أشومبيتر	٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)
فريد الزاهى	ميشيل مافيزولى	٨١٢- نمل العالم: السرور والأسلوب في الحياة الاجتماعية
نورا أمين	أنى إرنو	٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)
أمال الروبى	نافتال لويس	٨١٤- الحياة اليومية في مصر الرومانية
مصطفى اييب عبدالغنى	ه. ا. ولفسون	٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)
بدر الدين عرودى	فيليب روجيه	٨١٦- العدو الأمريكى
محمد لطفى جمعة	أفلاطون	٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام في الحب
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	٨١٨- الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج١)
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	٨١٩- الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج٢)
طانيوس أفندى	وليم شكسبير	٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	٨٢١- هفت بيكر (شعر)
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	٨٢٢- فن الرباعى (شعر)
أحمد شافعى	نخبة	٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)
ربيع مفتاح	دافيد برتش	٨٢٤- لغة الدراما
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	٨٢٥- عصر النهضة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	٨٢٦- عصر النهضة في إيطاليا (ج٢) (ميراث الترجمة)
محمد على فرج	دونالد پ. كول وثريا تركى	٨٢٧- أمل مطروح ليهود المستوطنين والفنانون النازيون
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتين	٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)
مجدى عبد الحافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	٨٣٠- رق العشق
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)
حسن النعيمى	جوزيف أشومبيتر	٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (ج٢)
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	٨٣٣- الفلسفة الألمانية
محمد علاء الدين منصور	ذبيح الله صفا	٨٣٤- كنز الشعر

علاء عزمى	بيتر أوريان	تشيوخوف: حياة فى صور	٨٣٥-
ممدوح البستاوى	مرثيدس غارثيا	بين الإسلام والغرب	٨٣٦-
على فهمى عبدالسلام	ناتاليا فيكو	عناكب فى المصيدة	٨٣٧-
ابنى صبرى	نعوم تشومسكى	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	٨٣٨-
جمال الجزيرى	ستيوارت سين ويورين فان لون	أقدم لك: النظرية النقدية	٨٣٩-
فوزية حسن	جوتنهولد ليسينج	الخواتم الثلاثة	٨٤٠-
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	هملت: أمير الدانمارك	٨٤١-
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصيبت نامه (مج ٢)	٨٤٢-
محمد علاء الدين منصور	نخبة	من روائع القصيد الفارسي	٨٤٣-
سمير كريم	كريمة كريم	دراسات فى الفقر والعولة	٨٤٤-
طلعت الشايب	نيكولاس جويات	غياب السلام	٨٤٥-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	الطبيعة البشرية	٨٤٦-
أحمد محمود	مايكل ألبرت	الحياة بعد الرأسمالية	٨٤٧-
عبد الهادى أبو ريدة	يوليوس فلهاوزن	تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	٨٤٨-
بدر توفيق	وليم شكسبير	سونيتات شكسبير	٨٤٩-
جابر عصفور	مقالات مختارة	الخيال، الأسلوب، الحداثة	٨٥٠-
يوسف مراد	كلود برنار	الطب التجريبي (ميراث الترجمة)	٨٥١-
مصطفى إبراهيم فهمى	ريتشارد بوكنز	العلم والحقيقة	٨٥٢-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	المسارعة فى الأتلى: مسارة المدن والمصن (مج ١)	٨٥٣-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	المسارعة فى الأتلى: مسارة المدن والمصن (مج ٢)	٨٥٤-
محمد أحمد حمد	جيرارد ستيم	فهم الاستعارة فى الأدب	٨٥٥-
عائشة سويلم	فرانتيسكو ماركيت يانو بيانويا	القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	٨٥٦-
كامل عويد العامرى	أندريه بريوتون	ناديجا (رواية)	٨٥٧-
بيومى قنديل	ثيو هيرمانز	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	٨٥٨-
مصطفى ماهر	إيف شيميل	السياسة فى الشرق القديم	٨٥٩-
عادل صبحى تكلا	فان بلمن	مصر وأوروبا	٨٦٠-
محمد الخولى	چين سميث	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	٨٦١-
محسن النمرdash	أرتور شنييتسلر	ببغاء الكاكابو	٨٦٢-
محمد علاء الدين منصور	على أكبر دلفى	لقاء بالشعراء	٨٦٣-
عبد الرحيم الرفاعى	دورين إنجرامز	أوراق فلسطينية	٨٦٤-
شوقى جلال	تيرى إيجلتون	فكرة الثقافة	٨٦٥-
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	رسائل خمس فى الأفاق والأنفس	٨٦٦-
صبرى محمد حسن	ديفيد مايلو	المهمة الاستوائية (رواية)	٨٦٧-
محمد علاء الدين منصور	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	الشعر الفارسي المعاصر	٨٦٨-
شوقى جلال	روين دونبار وآخرون	تطور الثقافة	٨٦٩-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج ١)	٨٧٠-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج ٢)	٨٧١-
محسن فرجاني	لاوتسو	كتاب الطاو	٨٧٢-

٨٧٢-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج ١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينثيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستقيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عرويكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكتر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادي الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويوز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفتى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج ١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج ٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدي
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جوست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	برومبيثوس بلا قيود	داثيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

غبار النجوم	جون جريين	عزت عامر	٩١١-
ترجمات يحيى حقي (ج١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقي	٩١٢-
ترجمات يحيى حقي (ج٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقي	٩١٣-
ترجمات يحيى حقي (ج٣) (ميراث الترجمة)	ديزمووند ستيفارت	يحيى حقي	٩١٤-
المرأة في أثينا: الواقع والقانون	روجر چست	منيرة كروان	٩١٥-
الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد	٩١٦-
موسوعة كمبيريدج (ج١)	نخبة	إشراف: أحمد عثمان	٩١٧-
موسوعة كمبيريدج (ج٢)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى	٩١٨-
موسوعة كمبيريدج (ج٣)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور	٩١٩-
خليل جبران: حياته وعالمه	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل	٩٢٠-
لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثرثا إقبال	٩٢١-
المويسكيون في إسبانيا وفي المنفى	ميكيل دي إيبالنا	جمال عبد الرحمن	٩٢٢-
ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب	٩٢٣-
حتشيسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٤-
رمسيس الثاني: فرعون المعجزات	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٥-
ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن	٩٢٦-
ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج٢، ج٣)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن	٩٢٧-
سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر	٩٢٨-
نشأة الإنسان (مج١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٢٩-
نشأة الإنسان (مج٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٣٠-
نشأة الإنسان (مج٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٣١-
حائق السمر في بقاتق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيد الدين العمري	إبراهيم الشواربى	٩٣٢-
اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى	٩٣٣-
محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب	٩٣٤-
تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل	٩٣٥-
بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد	٩٣٦-
هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم	٩٣٧-
الانطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد العليمى	٩٣٨-
سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير	٩٣٩-
اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين	٩٤٠-
الجماليات لم يولتن بعد	أى كوينى أرماء	صبرى محمد حسن	٩٤١-
القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح	٩٤٢-
لقاء في الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد	٩٤٣-
الكونتراباص	پاتريك زوسكيند	سمير جريس	٩٤٤-
أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	چان چاك روسو	ثرثا توفيق	٩٤٥-
الزار ومظاهره المسرحية في إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى	٩٤٦-
ماوراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة	٩٤٧-
أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	رونالد أوليفر وأنتونى أتمور	فريد چورچ بودى	٩٤٨-

٩٤٩-	مقبرة الصدا	أندريه فيش	نافع معلا
٩٥٠-	فى علم الكتابة	چاك بيريدا	منى طلبية وأنور مغيث
٩٥١-	الاتهام (رواية)	فريدريش دورينمات	عماد حسن بكر
٩٥٢-	العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	تعيمة عبد الجواد
٩٥٣-	مختارات من الشعر الإسباني (ج٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الرؤوف البمبى
٩٥٤-	الاصول الاجتماعية لسياسة التوسعية فى عهد محمد على	فرد لوسون	عنان الشهارى
٩٥٥-	الطب والأطباء	سيلفيا شيفولو	ماجدة أباطة
٩٥٦-	نعم، ليست لدينا نيوترونات	أ. ك. ديونى	سمير حنا صادق
٩٥٧-	الحركات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
٩٥٨-	أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
٩٥٩-	الموريسكيون فى الفكر التاريخى	ميفيل أنخيل بونيس	وسام محمد جزر
٩٦٠-	محمد على الكبير	الامير عثمان إبراهيم وكارولين وعلى كورخان	هدى كشروء
٩٦١-	شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الأدب اليونانى	محمد صقر خفاجة
٩٦٢-	مدخل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
٩٦٣-	منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندى	فاطمة سيد عبد المجيد
٩٦٤-	أصول التطرف	كيمبرلى بليكر	هبة روف وتامر عبد الوهاب
٩٦٥-	روح مصر القديمة	أنا رويز	إكرام يوسف
٩٦٦-	ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصرى
٩٦٧-	فن الحرب (مج ١)	سون تزي	هشام المالكى
٩٦٨-	عالم الخوارق	ج. كوير	كمال النين حسين
٩٦٩-	التلفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوير وچون كوندري	مجدى عبد الحافظ
٩٧٠-	ريما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
٩٧١-	الأدب الفارصى القديم (ميراث الترجمة)	پاول هوزن	حسين مجيب المصرى
٩٧٢-	الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البغدادى
٩٧٣-	تطور فن المعادن الإسلامى	أولكر أرغين صوى	الصفصافى أحمد القطورى
٩٧٤-	فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام	مجدى عبد الحافظ	هدى كشروء
٩٧٥-	وقائع انتحار موظف عمومى	ميشيل بيرس	حسن عبد ربه المصرى
٩٧٦-	تفهم ذهنية مدمن المسكرات	أرنولد لودفيج	صبرى محمد حسن
٩٧٧-	التعبير عن الانتعالات فى الإنسان والحيوانات	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٧٨-	الإسلام خواطر وسوانح (ميراث الترجمة)	الكونت هنرى دى كاسترى	أحمد فتحي زغلول باشا
٩٧٩-	الأدب والالتزام من باسكال إلى سارتر	بونوا دونى	محمد برادة
٩٨٠-	الكلمات المفاتيح	رايموند ويليامز	نعيمان عثمان
٩٨١-	الكلمة للبنات	فيرنانديث موراتين	السيد عبد المنعم محمود
٩٨٢-	اللغة والإنترنت	ديفيد كريستال	أحمد شفيق الخطيب
٩٨٣-	روح الاجتماع (ميراث الترجمة)	چوستاف لويون	أحمد فتحي زغلول باشا
٩٨٤-	التلفزيون ونمو الطفل	چوديت ثان إفرا	عز الدين جميل عطية
٩٨٥-	طبية ونشأة إمبراطورية	كلير لالويت	ماهر جويجاتى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٨١٥ / ٢٠٠٥